جواهر البحار

في

فضائل النبي المختار ﷺ

تأليف

الشيخ يوسف بن إسماعيل بن يوسف النبهاني

المتوفى سنة ١٣٥٠ هـ

ضبطه وصححه وخرج آياته وأحاديثه

محمد أمين الضناوي

الجزء الثالث



بسم الله الرحمن الرحيم

[من جواهر الشيخ يوسف النبهاني]

فائدة: قال الإمام القسطلاني في المقصد السابع من المواهب: وإذا كان الإنسان يحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفاً فانياً منقطعاً، أو استنقذه من مهلكة، أو مضرة لا تدوم، فما بالك بمن منحه منحاً لا تبيد ولا تزول، ووقاه من العذاب الأليم ما لا يفني ولا يحول، وإذا كان المحب يحب غيره على ما فيه من صورة جميلة وسيرة حميدة، فكيف بهذا النبي الكريم، والرسول العظيم. الجامع لمحاسن الأخلاق والتكريم، المانح لنا جوامع المكارم والفضل العميم.

فقد أخرجنا الله به من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وخلصنا به من نار الجهل إلى جنات المعارف والإيقان، فهو السبب لبقاء مهجنا البقاء الأبدي، في النعيم السرمدي، فأي إحسان أجل قدراً وأعظم خطراً من إحسانه إلينا، فلا منة وحياته لأحد بعد الله كما له علينا، ولا فضل لبشر كفضله لدينا، فكيف ننهض ببعض شكره، أو نقوم من واجب حقه بمعشار عشرة، فقد منحنا الله به منح الدنيا والآخرة، وأسبغ علينا نعمه باطنة وظاهرة، فاستحق ﷺ، أن يكون حظه من محبتنا له أوفى وأزكى من محبتنا لأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأموالنا والناس أجمعين... بل لو كان في كل منبت شعرة منا محبة تامة له، لكان ذلك بعض ما يستحقه علينا، ﷺ. انتهى كلام القسطلاني. وقال ابن الأثير في «**أسد الغابة**»: وصفت عائشة رضي الله عنها، رسول الله ﷺ. فقالت: كان والله كما قال فيه حسان:

متى يبدُ في الداجي البهيم جبينه ... يلح مثل مصباح الدجى المتوقد
فمن كان أو من قد يكون كأحمد ... نظـام لحـق أو نكـال لملحـد

بسم الله الرحمن الرحيم

ومنهم الإمام حجة الإسلام الغزالي المتوفى[1] سنة ٥٠٥ هـ.

وقد ذهب عني بطريق النسيان أن أذكره في الأول،
وهو أينما ذكر الإمام المقدم الذي عليه المعوّل

فمن جواهره رضي الله عنه

[رسالة النبي ﷺ]

قوله في كتاب «قواعد العقائد من الإحياء الأصل العاشر إن الله سبحانه قد أرسل محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، وناسخاً لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر، وتسبيح الحصى، وإنطاق العجماء وما تفجر من بين أصابعه من الماء.

ومن آياته الظاهرة التي تحدى بها مع كافة العرب القرآن العظيم، فإنهم مع تميزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسبيه ونهبه وقتلهم له وإخراجه، كما أخبر الله عز وجل عنهم، ولم يقدروا على معارضته بمثل القرآن، إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه.

هذا مع ما فيه من أخبار الأولين، مع كونه أمياً غير ممارس للكتب والأنباء عن الغيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال، كقوله تعالى ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧] وكقوله تعالى: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِى بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ - ٣].

ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلاً لله

---

(١) هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد حجة الإسلام: فيلسوف، متصدق له نحو مئتي مصنف ولد سنة ٤٥٠ هـ، وتوفي سنة ٥٠٥ هـ.

تعالى، فمهما كان مقروناً بتحدي النبي ﷺ، ينزل منزلة قوله: صدقت؛ وذلك مثل القائم بين يدي الملك المدعي على رعيته أنه رسول الملك إليهم، فإنه مهما قال للملك: إن كنت صادقاً فقم على سريرك ثلاثاً، واقعد على خلاف عادتك. ففعل الملك ذلك، حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله: صدقت.

ومن جواهر حجة الإسلام الغزالي أيضاً

[فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ]

قوله عند ذكر فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ، وفضله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وروي أنه ﷺ جاء ذات يوم، والبشرى ترى في وجهه، فقال ﷺ: **«إنه جاءني جبرائيل عليه السلام، فقال: أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك صلاة واحدة إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً»**[1] وقال ﷺ: **«من صلى عليَّ صلت عليه الملائكة ما صلى عليّ، فليقلل عند ذلك أو ليكثر»**[2]، وقال ﷺ: **«إن أولى الناس بي أكثرهم عليَّ صلاة»**[3] وقال ﷺ: **«بحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي عليّ»**[4]، وقال ﷺ: **«أكثروا من الصلاة عليَّ يوم الجمعة»**[5].

وقال ﷺ: **«من صَلىّ عليَّ من أُمتي كتب له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات»**[6]، وقال ﷺ: **«من قال حين يسمع الأذان والإقامة: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة، حلت له شفاعتي»**[7]، وقال رسول الله ﷺ: **«من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له مادام اسمي في ذلك الكتاب»**[8]، وقال ﷺ: **«إن في الأرض ملائكة سياحين**

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٤٨).
(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣: ٢٨٩).
(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠: ٢٢). وابن حجر في فتح الباري (١١: ١٦٧).
(٤) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٤٩).
(٥) رواه المنذري في الترغيب والترهيب (٢: ٥٠٣). والطبري في التفسير (٣٠: ٨٤). وفيه «عليّ من الصلاة».
(٦) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥: ١٨٦١). بمعناه.
(٧) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٤٩). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ٣١١).
(٨) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٥٠).

يبلغوني عن أمتي السلام»[1]، وقال ﷺ: **«ليس أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام»** وقيل له يا رسول الله: كيف نصلي عليك؟ فقال: **«قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، وعلى آله وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم. إنك حميد مجيد»**.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمع بعد موت رسول الله ﷺ يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي يارسول الله، لقد كان جذع تخطب الناس عليه، فلما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم، فحن الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم، بأبي أنت وأمي يارسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته، فقال عز وجل: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذنب، فقال تعالى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

بأبي أنت وأمي يارسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية.

بأبي أنت وأمي يارسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون: ﴿يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦] بأبي أنت وأمي يارسول الله، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار، فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك.

بأبي أنت وأمي يارسول الله، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فماذا بأعجب من البراق حين سريت عليه إلى السماء السابعة، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك، بأبي أنت وأمي يارسول الله، لئن كان عيسى ابن مريم أعطاه الله إحياء الموتى، فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مشوية، فقالت لك الذراع: لا تأكلني فإني مسمومة.

بأبي أنت وأمي يارسول الله، لقد دعا نوح على قومه، فقال ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا، فلقد وطئ ظهرك وأدمي وجهك، وكسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلا خيراً فقلت: **«اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٥٠).

بأبي أنت وأمي يارسول الله، لقد اتبعك في قلة سنيك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنيه وطول عمره. ولقد آمن بك الكثير وماآمن معه إلا القليل.

بأبي أنت وأمي يارسول الله، لو لم تجالس إلا كفوءاً لك ما جالستنا، ولو لم تنكح إلا كفؤا لك ما نكحت إلينا، ولو لم تؤاكل إلا كفؤا لك ما واكلتنا، فلقد والله جالستنا، ونكحت إلينا، وواكلتنا، ولبست الصوف، وركبت الحمار، وأردفت خلفك، ووضعت طعامك على الأرض، ولعقت أصابعك تواضعاً منك صلى الله عليك وسلم. . .

وقال بعضهم: كنت أكتب الحديث وأصلي على النبي ﷺ فيه، ولا أسلم؛ فرأيت النبي ﷺ في المنام، فقال لي: أما تتم الصلاة علي في كتابك. فما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه، وروي عن أبي الحسن الشافعي قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يارسول الله جوزي الشافعي عنك، حيث يقول في كتابه «الرسالة»: وصلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون؟ فقال ﷺ: جوزي عني انه لا يوقف للحساب.

ومن جواهر حجة الإسلام الغزالي أيضاً

[تأديب الله له ﷺ]

قوله في كتاب «آداب المعيشة وأخلاق النبوة من الأحياء»، وهو الكتاب العاشر، بيان تأديب الله تعالى حبيبه وصفيه محمداً ﷺ بالقرآن: كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق؛ فكان يقول في دعائه: «اللهم حسن خَلقي وخُلُقي»[1]. ويقول: «اللهم جنبني منكرات الأخلاق»[2]. فاستجاب الله تعالى دُعَاءَه وفاءً بقوله عز وجل: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فأنزل عليه القرآن وأدبه به فكان خلقه القرآن.

قال سعد بن هشام: دخلت على عائشة رضي الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ، فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى. قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]، وقوله:

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٩١).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (١: ٥٢٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٨٤).

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]. وقوله: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣]، وقوله: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢]، وقوله: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت: ٣٤]، وقوله: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقوله: ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات: ١٢].

ولما كسرت رباعيته وشج يوم أحد فجعل الدم يسيل على وجهه، وهو يمسح الدم ويقول: «كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟»[(١)] فأنزل الله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨] تأديباً له ﷺ، وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر، وهو ﷺ المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق، فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به.

ولذلك قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[(٢)]. ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق بما أوردناه في كتاب «رياضة النفس وتهذيب الأخلاق». فلا نعيده.

ثم لما أكمل الله تعالى خلقه، أثنى عليه فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

فسبحانه ما أعظم شأنه وأتم امتنانه، ثم انظر إلى عميم لطفه وعظيم فضله كيف أعطى ثم أثنى، فهو الذي زينه بالخلق الكريم، ثم أضاف إليه ذلك، فقال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

ثم بين رسول الله ﷺ للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها، قال علي رضي الله عنه: يا عجباً لرجل مسلم، يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً. فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً، لقد كان ينبغي له أن يسارع إلى مكارم الأخلاق، فإنها مما تدل على سبيل النجاة. فقال له رجل: اسمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، وما هو خير منه لما أتي بسبايا طيء وقفت جارية في السبي، فقالت: يا محمد، إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فإني بنت سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط. أنا ابنة حاتم الطائي، فقال ﷺ: «ياجارية هذه صفة المؤمنين حقاً. لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه. خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق»[(٣)]. فقام أبو

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن (٤٠٢٧). وأحمد في المسند (٣: ٢٠٦).

(٢) رواه القاضي عياض في كتاب الشفا (١: ٢٠٧).

(٣) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٩٤).

بردة بن نيار، فقال: يارسول الله، أله يحب مكارم الأخلاق؟ فقال: **«والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلاّ حسن الأخلاق»**.

عن معاذ بن جبل، عن النبي ﷺ، قال: **«إن الله حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال. ومن ذلك حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة، ولين الجانب، وبذل المعروف، وإطعام الطعام، وإفشاء السلام، وعيادة المريض المسلم براً كان أو فاجراً، وتشييع جنازة المسلم، وحسن الجوار لمن جاورت مسلماً كان أو كافراً، وتوقير ذي الشيبة المسلم، وإجابة الطعام والدعاء عليه، والعفو والإصلاح بين الناس، والجواد، والكرم، والسماحة، والابتداء بالسلام، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس واجتناب ما حرمه الإسلام من اللهو، والباطل، والغناء، والمعازف كلها، كل ذي وتر، وكل ذي دخل، والغيبة، والكذب، والبخل، والشح، والجفاء، والمكر، والخديعة، والنميمة، وسوء ذات البين، وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق والتكبر، والفخر، والاختيال، والاستطالة، والبذخ، والفحش، والتفحش والحقد، والحسد، والطيرة، والبغي، والعدوان، والظلم»**[(١)].

قال أنس رضي الله عنه: فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها، ولم يدع غشاً أو قال عيباً أو قال شيئاً إلا حذرناه ونهانا عنه؛ ويكفي من ذلك كله هذه الآية: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]الآية.

وقال معاذ: أوصاني رسول الله ﷺ، فقال: **«يا معاذ أوصيك باتقاء الله، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، وحفظ الجار، ورحمة اليتيم، ولين الكلام وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل، ولزوم الإيمان، والتفقه في القرآن، وحب الآخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح، وأنهاك أن تسب حكيماً، أو تكذب صادقاً، أو تطيع آثماً، أو تعصي إماماً عادلاً، أو تفسد أرضاً، وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر، والعلانية بالعلانية. فهكذا أدب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب»**[(٢)].

بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار

فقال: كان ﷺ أحلم الناس، وأشجع الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه.

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٩٤).
(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٩٥).

وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم. وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل، لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه. لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامة فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله؛ لا يُسأل شيئاً إلا أعطاه. ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه، حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء.

وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويخدم في مهنة أهله، ويقطع اللحم معهن. وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد، ويجيب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب، ويكافئ عليها ويأكلها ولا يأكل الصدقة، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين. يغضب لربه ولا يغضب لنفسه، وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه. عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين، وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه، فأبى وقال: «أنا لا أنتصر بمشرك»[1]، ووجد من فضلاء أصحابه وخِيارهم قتيلاً بين اليهود، فلم يحف عليهم، ولا زاد على مر الحق، بل وداه بمائة ناقة، وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقون به. وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع، يأكل ما حضر، ولا يرد ما وجد، ولا يتورع عن مطعم حلال؛ وإن وجد تمراً دون خبز أكله، وإن وجد خبز بر أو شعير أكله، وإن وجد حلواً أو عسلاً أكله، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله. لا يأكل متكئاً، ولا على خوان منديله فوق ركبته وجلوسه على باطن قدميه لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى إيثاراً على نفسه، لا فقراً ولا بخلاً يجيب الوليمة، ويعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس.

أشد الناس تواضعاً، وأسكنهم في غير كبر، وأبلغهم في غير تطويل، وأحسنهم بشراً. لا يهوله شيء من أمور الدنيا، ويلبس ما وجد، فمرة شملة، ومرة برداً حبرة يمانياً، ومرة جبة صوف. ما وجد من المباح لبس، وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر، يردف خلفه عبده أو غيره، يركب ما أمكنه مرة فرساً، ومرة بعيراً، ومرة بغلة شهباء، ومرة حماراً، ومرة يمشي راجلاً حافياً، بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة... يعود المرضى في أقصى المدينة، يحب الطيب، ويكره الرائحة الرديئة، ويجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم. لا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح، ولا يقول إلا حقاً،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤: ٢٦٥). بمعناه.

يضحك من غير قهقهة، يرى اللعب المباح فلا ينكره، يسابق أهله، وترفع الأصوات عليه فيصبر.

وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس، ولا يمضي له وقت في غير عمل الله تعالى، أو فيما لابد له منه من صلاح نفسه يخرج إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه يدعو هذا أو هذا إلى الله دعاء مستوياً.

قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب. نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقر، وفي رعاية الغنم، يتيماً لا أب له ولا أم، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، والطرق الحميدة، وأخبار الأولين والآخرين، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا، ولزوم الواجب، وترك الفضول، وفقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في فعله آمين يارب العالمين.

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه ﷺ، قالوا: ما شتم رسول الله ﷺ أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة، وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة، وقيل له، وهو في القتال: لو لعنتهم، يارسول الله، فقال: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً»[١].

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص، عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له. وما ضرب بيده أحداً قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله، وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما، إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم، فيكون أبعد الناس من ذلك. وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة. إلا قام معه في حاجته.

وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق، ما قال لي في شيء قط كرهه: لم فعلته؟ ولا لامني في نساوة إلا قال: «دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر»[٢] قالوا: ما عاب رسول الله ﷺ مضجعاً إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض، وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول: فقال: محمد رسول الله عبدي المختار، لافظ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٠٧).

(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٤٤٩٣٠). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٨١٩). والخرائطي في مكارم الأخلاق (١٢). بمعناه.

ويصفح مولده بمكة، وهجرته بطابة، ملكه بالشام. يأتزر على وسطه، هو ومن معه رعاة للقرآن والعلم، يتوضأ على أطرافه. وكذلك نعته في الإنجيل، وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام، ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده، فيرسل يده حتى يرسلها الآخذ، وكان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة، ثم أخذ بيده فشابكه، ثم شد قبضته عليها. وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله.

وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي، إلاّ خفف صلاته وأقبل عليه، وقال له: ألك حاجة؟فإذا فرغ من حاجته، عاد إلى صلاته، وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما شبه الحبوة، ولم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس، وما رؤي قط ماداً رجليه بين أصحابه، حتى لا يضيق بهما على أحد، إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه. وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة، وكان يكرم من يدخل عليه، حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولارضاع يجلسه عليه. وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل، وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه، حتى يعطي كل من جلس إليه نصيبه من وجهه، حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للمجالس إليه، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة.

قال الله تعالى ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم، ويكني من لم تكن له كنية، فكان يدعى بما كناه به ويكني أيضاً النساء اللاتي لهن الأولاد، واللاتي لم يلدن يبتدي لهن الكنى، ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم.

وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضى. وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس. ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات، وكان إذا قام من مجلسه قال: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك». يقول: «علمنيهن جبريل عليه السلام»[١].

بيان كلامه وضحكه ﷺ

كان ﷺ أفصح الناس منطقاً، وأحلاهم كلاماً. ويقول: «أنا أفصح العرب، وإن أهل

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٣٤٣٣). وأحمد في المسند (٣: ٤٥). والدارمي في السنن (٢: ٢٨٣). وابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث (٣٧٤).

الجنة يتكلمون فيها بلغة محمد ﷺ»[1] وكان نزر الكلام، سمح المقالة، إذا نطق ليس بمهذار. وكان كلامه كخرزات نظمن، قالت عائشة رضي الله عنها: كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا. كان كلامه نزراً وأنتم تنثرون الكلام نثراً.

قالوا: وكان أوجز الناس كلاماً وبذاك جاءه جبريل، وكان مع الايجاز يجمع كل ما أراد، وكان يتكلم بجوامع الكلم، لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً، بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه، وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمه، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة، ولا يقول المنكر، ولا يقول في الرضى والغضب إلا الحق، ويعرض عمن تكلم بغير جميل، ويكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره؛ وكان إذا سكت تكلم جلساؤه، ولا يتنازع عنده في الحديث، ويعظ بالجد والنصيحة. ويقول: **«لا تضربوا القرآن بعضه ببعض فإنه أنزل على وجوه»**[2]. وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه، وتعجباً مما تحدثوا به، وخلطاً لنفسه بهم. ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له. قالوا: ولقد جاءه أعرابي يوماً وهو، ﷺ متغير اللون ينكره أصحابه، فأراد أن يسأله، فقالوا: لا تفعل يا أعرابي، فإننا ننكر لونه، فقال: دعوني، فوالذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يتبسم. فقال: يارسول الله، بلغنا أن المسيح يعني الدجال. يأتي الناس بالثريد، وقد هلكوا جوعاً، أفترى لي بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تعففاً وتنزهاً حتى أهلك هزالاً، أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت شبعاً آمنت بالله وكفرت به؟ قالوا: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: **«لابل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين»**. قالوا: كان من أكثر الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن، أو يذكر الساعة، أو يخطب بخطبة عظة.

وكان إذا سرّ ورضي، فهو أحسن الناس رضي؛ فإن وعظ وعظ بجد، وإن غضب، وليس يغضب إلا لله لم يقم لغضبه شيء، وكذلك كان في أموره كلها. وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله، وتبرأ من الحول والقوة، واستنزل الهدى، فيقول: **«اللهم أرني الحق حقاً فأتبعه، وأرني المنكر منكراً، وارزقني اجتنابه، وأعذني من أن يشتبه علي فأتبع هواي بغير هدى منك، واجعل هواي تبعاً لطاعتك، وخذ رضى نفسك من نفسي في عافية، واهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»**[3]

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٢٣٢). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ١٧٨). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٦٤). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (١١٧).

(٢) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١: ١٧٧). وفيه: «كتاب الله».

(٣) رواه العراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٦٦).

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام

كان ﷺ يأكل ما وجد، وكان أحب الطعام اليه ما كان على ضفف. والضفف ما كثرت عليه الأيدي. وكان إذا وضعت المائدة قال: **«بسم الله. اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة»**(١) وكان كثيراً إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلي، إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم، ويقول: **«إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»**(٢) وكان لا يأكل الحار، ويقول: **«إنه غير ذي بركة وإن الله لم يطعمنا ناراً فأبردوه»**(٣)، وكان يأكل مما يليه، ويأكل بأصابعه الثلاث، وربما استعان بالرابعة، ولم يكن يأكل باصبعين، ويقول: **«إن ذلك أكلة الشيطان»**.

وجاءه عثمان بن عفان رضي الله عنه بفالوذج فأكل منه، وقال: **«ما هذا يا أبا عبد الله؟»** فقال: بأبي أنت وأمي، نجعل السمن والعسل في البرمة ونضعها على النار، ثم نغليه، ثم نأخذ منح الحنطة إذا طحنت فنقلبه على السمن والعسل في البرمة، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتي كما ترى، فقال رسول الله ﷺ: **«إن هذا الطعام طيب»**(٤). وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب وبالملح. وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب، وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر، وربما أكله بالرطب. ويستعين باليدين جميعاً، وأكل يوماً الرطب في يمينه.

وكان يحفظ النوى في يساره، فمرت شاة فأشار إليها بالنوى، فجعلت تأكل من كفه اليسرى، وهو يأكل بيمينه، حتى فرغ وانصرفت الشاة.

وكان ربما أكل العنب خرطاً يرى رؤاله على لحيته كخرز اللؤلؤ. وكان أكثر طعامه الماء والتمر، وكان يجمع اللبن والتمر ويسميهما الأطيبين.

وكان أحب الطعام إليه اللحم، ويقول ﷺ: **«هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل»**(٥).

وكان يأكل الثريد باللحم والقرع، وكان يحب القرع ويقول: **«إنها شجرة أخي يونس عليه السلام»**(٦).

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١١٥).
(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٢١٤).
(٣) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١١٦).
(٤) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١١٧).
(٥) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (٢: ٣٠٢).
(٦) رواه ابن حجر في فتح الباري (٩: ٥٢٥).

قالت عائشة رضي الله عنها: وكان يقول: **«يا عائشة إذا طبختم قدراً، فأكثروا فيها من الدباء، فإنه يشد قلب الحزين»**[(١)].

وكان يأكل لحم الطير الذي يصاد، وكان لا يتبعه ولا يصيده، ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله. وكان إذا أكل اللحم لم يطأطئ رأسه إليه، ويرفعه إلى فيه رفعاً، ثم ينتهشه انتهاشاً.

وكان يأكل الخبز والسمن، وكان يحب من الشاة الذراع والكتف، ومن القدر الدباء، ومن الصباغ الخل، ومن التمر العجوة. ودعا في العجوة بالبركة، وقال: **«هي من الجنة وشفاء من السم والسحر»**[(٢)] وكان يحب من البقول الهندباء، والباذروج، والبقلة الحمقاء التي يقال لها الرجلة. وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول. وكان لا يأكل من الشاة سبعاً الذكر، والأنثيين، والمثانة، والمرارة، والغدد، والحياء، والدم ويكره ذلك.

وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث. وما ذم طعاماً قط، لكن إن أعجبه أكله، وإن كرهه تركه، وإن عافه لم يبغضه إلى غيره. وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما، وكان يلعق بأصابعه الصحفة، ويقول: **«آخر الطعام أكثر بركة وكان يلعق أصابعه من الطعام حتى تحمر. وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة، ويقول: إنه لا يدري في أي الطعام البركة»**[(٣)]. وإذا فرغ من الطعام، قال: **«الحمد لله اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت، وسقيت فأرويت لك الحمد غير مكفور، ولا مودع، ولا مستغنى عنه»**[(٤)] وكان إذا أكل الخبز واللحم خاصة غسل يديه غسلاً جيداً، ثم يمسح بفضل الماء على وجهه. وكان يشرب في ثلاث دفعات، وله فيها ثلاث تسميات، وفي أواخرها ثلاث تحميدات.

وكان يمص الماء مصاً ولا يعب عباً، وكان يدفع فضل سؤره إلى من على يمينه، فإن كان من على يساره أجل رتبة، قال للذي على يمينه: **«السنة أن تعطي، فإن أحببت آثرتهم»** وربما كان يشرب بنفس واحد حتى يفرغ، وكان لا يتنفس في الإناء بل ينحرف عنه، وأتي بإناء فيه عسل ولبن، فأبى أن يشربه، وقال: **«شربتان في شربة، وأدامان في إناء واحد»**[(٥)] ثم

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٢٠). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٦٩). والكحال في الأحكام النبوية (٢: ٨١).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٢٢).

(٣) رواه أحمد في المسند (١: ٢٩٣). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٢٢).

(٤) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٢٤). بمعناه.

(٥) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٢٥). والمنذري في الترغيب والترهيب (٤: ١٩٧). =

قال ﷺ: «لا أحرمه، ولكني أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غداً، وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه الله»[١].

وكان في بيته أشد حياء من العاتق يسألهم طعاماً ولا يتشهاه عليهم، إن أطعموه أكل، وما أعطوه قبل، وما سقوه شرب، وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب.

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس

كان ﷺ يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك. . . وكان يعجبه الثياب الخضر، وكان أكثر لباسه البياض، ويقول: «ألبسوها أحياءكم، وكفنوا فيها موتاكم»[٢]. وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب، وكان له قباء سندس فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه، وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق الكعبين، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق. وكان قميصه مشدود الإزار، وربما حل الإزار في الصلاة وغيرها، وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران، وربما صلى بالناس فيها وحدها، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره. وكان له كساء ملبد يلبسه، ويقول: «إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد»[٣]. وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة، وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره، ويعقد طرفيه بين كتفيه، وربما أم به الناس على الجنائز، وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفاً به، مخالفاً بين طرفيه، ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ، وكان ربما صلى بالليل في الإزار، ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه، ويلقي البقية على بعض نسائه، فيصلي كذلك، ولقد كان له كساء أسود فوهبه، فقالت له أم سلمة: بأبي أنت وأمي، ما فعل ذلك الكساء الأسود؟ فقال: كسوته. فقالت: ما رأيت شيئاً قط كان أحسن من بياضك على سواده.

وقال أنس: ربما رأيته يصلي بنا الظهر في شملة، عاقداً بين طرفيها، وكان يتختم وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء، وكان يختم به على الكتب، ويقول: «الخاتم على الكتاب خير من التهمة»[٤].

= والمتقي الهندي في كنز العمال (٧٣٥٠). وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢: ٢٥٣).

(١) رواه المنذري في الترغيب والترهيب (٣: ٥٦٠). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٨٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٧٣٠).

(٢) رواه أحمد في المسند (١: ٢٧٤).

(٣) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٢٨).

(٤) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٢٩). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٧٥).

وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة، وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلي إليها. وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته وكانت له عمامة تسمى السحاب، فوهبها من علي، فربما طلع علي فيها، فيقول ﷺ: **«أتاكم علي في السحاب»**[١].

وكان إذا لبس ثوباً لبسه من قبل ميامنه، ويقول: **«الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس»**[٢]. وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره.

وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً، ثم يقول: **«ما من مسلم يكسو مسلماً من كل ثيابه لا يكسوه إلا لله، إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حياً وميتاً»**[٣].

وكان له فراش من أدم، حشوه ليف، طوله ذراعان أو نحوه، وعرضه ذراع وشبر أو نحوه.

وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقين تحته، وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره.

وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه، وكان اسم رايته العقاب، واسم سيفه الذي يشهد به الحروب ذو الفقار، وكان له سيف يقال له: المخذم، وآخر يقال له الرسوب، وآخر يقال له القضيب.

وكانت قبضة سيفه محلاة بالفضة وكان يلبس المنطقة من الآدم فيها ثلاث حلق من فضة، وكان اسم قوسه الكتوم، وجعبته الكافور، وكان اسم ناقته القصوى، وهي التي يقال لها العضباء، واسم بغلته الدلدل.

وكان اسم حماره يعفور، واسم شاته التي يشرب لبنها عينة، وكان له مطهرة من فخار يتوضأ فيها ويشرب منها، فيرسل الناس أولادهم الصغار الذين قد عقلوا، فيدخلون على رسول الله ﷺ، فلا يدفعون عنه، فإذا وجدوا في المطهرة ماء شربوا منه، ومسحوا على وجوههم وأجسادهم يبتغون بذلك البركة.

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٣٠). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٧٥). والشجري في الأمالي (٢: ٣).

(٢) رواه ابن ماجه في السنن (٣٥٥٧). وأحمد في المسند (١: ٤٤). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ١٠١، ٧: ١٣٠).

(٣) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٣٠).

بيان عفوه ﷺ مع القدرة

كان ﷺ أحلم الناس، وأرغبهم في العفو مع القدرة، حتى أتي بقلائد من ذهب وفضة، فقسمها بين أصحابه، فقام رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل. فقال: «ويحك، فمن يعدل عليك بعدي؟» فلما ولى قال: «ردوه عليَّ رويداً»[١].

وروى جابر أنه ﷺ كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة في ثوب بلال، فقال له رجل: يارسول الله، اعدل. فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت إذاً وخسرت إن كنت لا أعدل»، فقام عمر فقال: ألا أضرب عنقه، فإنه منافق؟ فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي»[٢]، وكان ﷺ في حرب، فرأوا من المسلمين غرة، فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: «الله»، قال: فسقط السيف من يده، فأخذ رسول الله ﷺ بالسيف، وقال: «من يمنعك مني؟» فقال: كن خير آخذ. قال: «قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله»[٣] فقال: لا، غير أني لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلى سبيله، فجاء أصحابه، فقال: جئتكم من عند خير الناس.

وروى أنس أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها، فجيء بها إلى النبي ﷺ. فسألها عن ذلك، فقالت: أردت قتلك. فقال: «ما كان الله ليسلطك على ذلك»، قالوا: أفلا نقتلها؟ فقال: «لا»[٤].

وسحره رجل من اليهود، فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام، حتى استخرجه وحل العقد، فوجد لذلك خفة، وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهره عليه قط، وقال علي رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها، فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ، فقلنا: أخرجي الكتاب. فقالت: ما معي من كتاب. فقلنا لتخرجن الكتاب أو لننزعن الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ، فإذا فيه: «من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة، يخبرهم أمراً من أمر رسول الله ﷺ، فقال: يا حاطب، ما هذا؟ قال: يارسول الله لا تعجل عليّ إني كنت أمراً

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٣٤).
(٢) رواه الحميدي في المسند (١٢٧١). وابن أبي عاصم في السنة (٢: ٤٥٩).
(٣) رواه أحمد في المسند (٣: ٣٦٥). والحاكم في المستدرك (٣: ٣٩).
(٤) رواه ابن ماجه في السنن (السلام: ٤٥). وأبو داود في السنن (الديات: ٦).

ملصقاً في قومي، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب منهم أن اتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي. ولم أفعل ذلك كفراً، ولا رضى بالكفر بعد الإسلام، ولا ارتداداً عن ديني فقال رسول الله ﷺ: «**إنه صدقكم**». فقال عمر رضي الله عنه: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال ﷺ: «**إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»[١].

وقسم رسول الله ﷺ قسمة؛ فقال رجل: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله. فذكر ذلك للنبي ﷺ، فاحمر وجهه، وقال: **رحم الله أخي موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر**»[٢].

وكان ﷺ يقول: «**لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر**»[٣].

بيان إغضائه ﷺ عما كان يكرهه

كان رسول الله ﷺ رقيق البشرة، لطيف الظاهر والباطن، يعرف في وجهه غضبه ورضاه، وكان إذا اشتد وجده، أكثر من مسِّ لحيته الكريمة، وكان لا يشافه أحداً بما يكرهه. دخل عليه رجل، وعليه صفرة، فكرهها؛ فلم يقل له شيئاً حتى خرج، فقال لبعض القوم: «**لو قلتم لهذا أن يدع هذه**»[٤] يعني الصفرة. وبال أعرابي في المسجد بحضرته، فهم به الصحابة، فقال ﷺ: «**لا تزرموه**» أي لا تقطعوا عليه البول، ثم قال: «**إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء**»[٥].

وفي رواية قربوا ولا تنفروا. وجاءه أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً، فأعطاه ﷺ، ثم قال له: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا ولا أجملت، فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا. ثم قام ودخل منزله، وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً، ثم قال له: «**أحسنت إليك؟**» قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال له النبي ﷺ: «**إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي، حتى يذهب**

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٩: ١٤٦). وابن حجر في فتح الباري (١١: ٤٧).
(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٢٤).
(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى (٨: ١٦٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٣٧).
(٤) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٣٧). وصاحب الأخلاق (٧٠). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢: ٣٧٨).
(٥) رواه ابن ماجه في السنن (٥٢٨).

من صدورهم ما فيها عليك». قال: نعم. فلما كان الغد أو العشي، جاء، فقال النبي ﷺ: «إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي كذلك»، فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال ﷺ: «إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحب الناقة خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها وأعلم، فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردها هوناً هوناً، حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار»[1].

بيان سخاوته وجوده ﷺ

كان ﷺ أجود الناس وأسخاهم، وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئاً.

وكان علي رضي الله عنه إذا وصف النبي ﷺ، قال: كان أجود الناس كفاً، وأوسع الناس صدراً وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة. من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله. وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه، وإن رجلاً أتاه فسأله، فأعطاه غنما سدت ما بين جبلين، فرجع إلى قومه، وقال: أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة. وما سئل شيئاً قط، فقال: لا وحمل إليه تسعون ألف درهم، فوضعها على حصير، ثم قام إليها فقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

وجاءه رجل فسأله، فقال: «ما عندي شيء، ولكن ابتع علي، فإذا جاءنا شيء قضيناه»[2]. فقال عمر: يارسول الله، ما كلفك الله ما لا تقدر عليه. فكره النبي ﷺ ذلك، فقال رجل: أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالاً فتبسم النبي ﷺ، وعرف السرور في وجهه.

ولما قفل من حنين، جاءت الأعراب يسألونه، حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه، فوقف رسول الله ﷺ وقال: «أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمتها بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً»[3].

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩: ١٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٣٨).

(٢) رواه القاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٢٣٣). والترمذي في الشمائل (١٧٩).

(٣) رواه البخاري في الصحيح (٤: ١١٥). وأحمد في المسند (٤: ٨٢). والطبراني في المعجم الكبير (١٣٥).

بيان شجاعته ﷺ

كان ﷺ أنجد الناس وأشجعهم قال علي رضي الله عنه: لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ. وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً. وقال أيضاً: كنا إذا احمر البأس، ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله ﷺ. فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه.

وقيل: كان ﷺ قليل الكلام، قليل الحديث، فإذا أمر الناس بالقتال تشمر، وكان من أشد الناس بأساً، وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدو. وقال عمران بن حصين: ما لقي رسول الله ﷺ. كتيبة إلا كان أول من يضرب. وقالوا: كان قوي البطش. ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته، فجعل يقول: **«أنا النبي لا كذب. أنا ابن عبد المطلب»**[1]. فما رؤي يومئذٍ أحد كان أشد منه.

بيان تواضعه ﷺ: كان ﷺ أشد الناس تواضعاً في علو منصبه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: رأيته يرمي الجمرة على ناقة شهباء، لا ضرب ولا طرد، ولا إليك إليك. وكان يركب الحمار موكفاً عليه قطيفة، وكان مع ذلك يستردف. وكان يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجيب دعوة المملوك، ويخصف النعل، ويرقع الثوب.

وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم. وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهته لذلك. وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم. وأتي ﷺ برجل فأرعد من هيبته، فقال له: **«هون عليك فلست بملك. إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد»**[2].

وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم، فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل عنه، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلساً يعرفه الغريب، فبنوا له دكاناً من طين فكان يجلس عليها.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كل جعلني الله فداك متكئاً، فإنه أهون عليك. قال: فأصغى رأسه حتى كاد أن تصيب جبهته الأرض، ثم قال: **«بل آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»**[3].

وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق بالله تعالى، وكان لا يدعوه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال لبيك.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٤: ٣٧). ومسلم في الصحيح (الجهاد: ٧٨). ولترمذي في السنن (١٦٨٨). وأبو داود في السنن (٤٨٧).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٠٥).

(٣) رواه البغوي في شرح السنة (٥: ٩٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤٠٧٠٧).

وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم، وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم، وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم رفقاً بهم وتواضعاً لهم.

وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية، ويضحكون. . . فيتبسم هو إذا ضحكوا ولا يزجرهم إلا عن حرام.

بيان صورته وخلقته ﷺ

كان من صفة رسول الله ﷺ أنه لم يكن بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، بل كان ينسب إلى الربعة إذا مشى وحده، ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد من الناس ينسب إلى الطول إلا طاله رسول الله ﷺ. ولربما اكتنفه الرجلان الطويلان فيطولهما، فإذا فارقاه نسبا إلى الطول ونسب هو ﷺ إلى الربعة، ويقول ﷺ: «**جعل الخير كله في الربعة**»(١). وأما لونه، فقد كان ﷺ أزهر اللون. ولم يكن بالآدم، ولا بالشديد البياض. والأزهر هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولاشيء من الألوان. ونعته عمه أبو طالب، فقال:

وأبيضَ يستسقى الغمام بوجهه ... ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل

ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة، فقالوا: إنما كان المشرب منه بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح، كالوجه والرقبة والأزهر الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه.

وكان عرقه ﷺ في وجهه كاللؤلوء أطيب من المسك الأذفر وأما شعره فقد كان رجل الشعر حسنه، ليس بالسبط ولا الجعد القطط.

وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبك الرمل. وقيل: كان شعره يضرب منكبيه. وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه. وربما جعله غدائر أربعاً تخرج كل أذن من بين غديرتين، وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ.

وكان شيبه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة مازاد على ذلك. وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأنورهم لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر.

وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه لصفاء بشرته. وكانوا يقولون: هو كما وصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه حيث يقول:

أمين مصطفى للخير يدعو ... كضوء البدر زايله الظلام

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٤٦).

وكان ﷺ واسع الجبهة، زج الحاجبين سابغهما. وكان أبلج ما بين الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة. وكانت عيناه نجلاوين أدعجهما، وكان في عينيه تمزج من حمرة، وكان أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها. وكان أقنى العرنين، أي مستوي الأنف. وكان مفلج الأسنان أي متفرقها.

وكان إذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ، وكان من أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم.

وكان سهل الخدين صلتهما ليس بالطويل الوجه ولا المكلثم، كث اللحية، وكان يعفي لحيته ويأخذ من شاربه.

وكان أحسن عباد الله عنقاً لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر؛ ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهباً يتلألأ في بياض الفضة وفي حمرة الذهب.

وكان ﷺ عريض الصدر، لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً كالمرآة في استوائها وكالقمر في بياضه، موصول ما بين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضيب لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره.

وكانت له عكن ثلاث يغطي الأزار منها واحدة ويظهر اثنتان. وكان عظيم المنكبين أشعرهما، ضخم الكراديس أي رؤس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين. وكان واسع الظهر ما بين كتفيه خاتم النبوة، وهو مما يلي منكبه الأيمن فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس.

وكان عبل العضدين والذراعين، طويل الزندين، رحب الراحتين، سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة؛ كفه ألين من الخز كأن كفه كف عطار طيباً، مسها بطيب أو لم يمسها، يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه. وكان عبل ما تحت الإزار من الفخذين والساق. وكان معتدل الخلق في السمن، بدن في آخر زمانه.

وكان لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن. وأما مشيه ﷺ، فكان يمشي كأنما يتقلع من صخر وينحدر من صبب، يخطو تكفياً ويمشي الهوينا بغير تبختر ﷺ. والهوينا تقارب الخطا. وكان ﷺ يقول: «أنا أشبه الناس بآدم، وكان أبي إبراهيم أشبه الناس بي خلقاً وخلقاً»[1].

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٥٧). والبيهقي في دلائل النبوة (١: ٢٢٩).

وكان ﷺ يقول: «**إن لي عند ربي عشرة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد، وأنا الحاشر يحشر الله العباد على قدمي، وأنا رسول الرحمة، ورسول التوبة، ورسول الملاحم، والمقفى قفيت الناس جميعاً، وأنا قثم**»[1]. قال أبو البختري: والقثم الكامل الجامع. والله أعلم.

بيان معجزاته وآياته الدالة على صدقه ﷺ

اعلم أن من شاهد أحواله ﷺ، وأصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه وسياسته لأصناف الخلق وهدايته إلى ضبطهم، وتألفه أصناف الخلق، وقوده إياهم إلى طاعته... مع ما يحكي من عجائب أجوبته في مضايق الأسئلة، وبدائع تدبيراته في مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته في تفصيل ظاهر الشرع الذي يعجز الفقهاء والعقلاء عن إدراك أوائل دقائقها في طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولا شك في أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية، بل لا يتصور ذلك إلا باستمداد من تأييد سماوي وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه، حتى إن العربي القح كان يراه فيقول: والله ما هذا وجه كذاب. فكان يشهد له بالصدق بمجرد شمائله، فكيف من شاهد أخلاقه ومارس أحواله في جميع مصادره وموارده.

وإنما أوردنا بعض أخلاقه لتعرف محاسن الأخلاق، وليتنبه لصدقه ﷺ وعلو منصبه ومكانته العظيمة عند الله، إذ آتاه الله جميع ذلك وهو رجل أمي لم يمارس العلم، ولم يطالع الكتب، ولم يسافر قط في طلب علم، ولم يزل بين أظهر الجهال من الأعراب يتيماً ضعيفاً مستضعفاً... فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب، ومعرفة مصالح الفقه مثلا فقط دون غيره من العلوم، فضلاً عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة... لولا صريح الوحي، ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك؟! فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية.

وقد ظهر من آياته ومعجزاته ما لا يستريب فيه محصل، فلنذكر من جملتها ما استفاضت به الأخبار واشتملت عليه الكتب الصحيحة إشارة إلى مجامعها من غير تطويل بحكاية التفصيل. فقد خرق الله العادة على يده غير مرة، إذ شق له القمر بمكة لما سألته قريش آية.

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (٤ : ٢٨٩).

وأطعم النفر الكثير في منزل جابر وفي منزل أبي طلحة ويوم الخندق، ومرة أطعم ثمانين من أربعة أمداد شعير وعناق وهو من أولاد المعز فوق العتود ومرة أكثر من ثمانين رجلاً من أقراص شعير حملها أنس في يده، ومرة أهل الجيش من تمر يسير ساقته بنت بشر في يدها فأكلوا كلهم حتى شبعوا من ذلك وفضل لهم.

ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ فشرب أهل العسكر كلهم وهم عطاش، وتوضؤوا من قدح صغير ضاق عن أن تبسط ﷺ يده فيه، وأهرق ﷺ وضوءه في عين تبوك ولا ماء فيها، ومرة أخرى في بئر الحديبية فجاشتا بالماء فشرب من عين تبوك أهل الجيش وهو ألوف حتى رووا، وشرب من بئر الحديبية ألف وخمسمائة ولم يكن فيها قبل ذلك ماء، وأمر ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يزود أربعمائة راكب من تمر كان في اجتماعه كربضة البعير وهو موضع بروكه فزودهم كلهم منه وبقي منه بقية.

ورمى الجيش بقبضة من تراب فعميت عيونهم، ونزل بذلك القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧].

وأبطل الله تعالى الكهانة بمبعثه ﷺ فعدمت وكانت ظاهرة موجودة. وحن الجذع الذي كان يخطب إليه لما عمل له المنبر، حتى سمع منه جميع أصحابه مثل صوت الإبل، فضمه إليه فسكن.

ودعا اليهود إلى تمني الموت، وأخبرهم بأنهم لا يتمنونه، فحيل بينهم وبين النطق بذلك وعجزوا عنه.

وهذا مذكور في سورة يقرأبها في جميع جوامع الإسلام من شرق الأرض إلى غربها يوم الجمعة جهراً تعظيماً للآية التي فيها.

وأخبر ﷺ بالغيوب، وأنذر عثمان بأن تصيبه بلوى بعدها الجنة، وبأن عماراً تقتله الفئة الباغية، وأن الحسن يصلح الله به بين فئتين من المسلمين عظيمتين.

وأخبر ﷺ عن رجل قاتل في سبيل الله أنه من أهل النار، فظهر ذلك بأن ذلك الرجل قتل نفسه. وهذه كلها أشياء إلهية لا تعرف البتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة بها، لا بنجوم ولا بكشف ولا بخط ولا بزجر... لكن بإعلام الله تعالى له ووحيه إليه.

واتبعه سراقة بن مالك فساخت قدما فرسه في الأرض، واتبعه دخان حتى استغاثه، فدعا له فانطلق الفرس، وأنذره بأن سيوضع في ذراعيه سوارا كسرى فكان كذلك.

وأخبر بمقتل الأسود العنسي الكذاب ليلة قتله وهو بصنعاء اليمن، وأخبر بمن قتله.

وخرج على مائة من قريش ينتظرونه، فوضع التراب على رؤوسهم ولم يروه. وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له. وقال لنفر من أصحابه مجتمعين: «**أحدكم في النار ضرسه مثل أحد**»[١] فماتوا كلهم على استقامة، وارتد منهم واحد فقتل مرتداً. وقال لآخرين منهم: «آخركم موتاً في النار»[٢]. فسقط آخرهم موتاً في النار، فاحترق فيها فمات. ودعا شجرتين فأتتاه واجتمعتا، ثم أمرهما فافترقتا.

وكان ﷺ نحو الربعة، فإذا مشى مع الطوال طالهم. ودعا ﷺ النصارى إلى المباهلة وعرفهم أنهم إن فعلوا هلكوا، فعلموا صحة قوله فامتنعوا.

وأتاه عامر بن الطفيل وإربد بن قيس وهما فارسا العرب عازمين على قتله ﷺ، فحيل بينهما وبين ذلك، ودعا عليهما فهلك عامر بغدّة، وهلك إربد بصاعقة أحرقته.

وأخبر ﷺ أنه يقتل أُبيّ بن خلف، فخدشه يوم أحد خدشاً لطيفاً، فكانت منيته فيه. وأطعم ﷺ السم، فمات الذي أكله معه وعاش هو ﷺ بعده أربع سنين، وكلمه الذراع المسموم.

وأخبر ﷺ يوم بدر بمصارع صناديد قريش، ووقفهم على مصارعهم رجلاً رجلاً، فلم يتعد واحد منهم ذلك الموضع. وأنذر ﷺ بأن طوائف من أمته يغزون في البحر فكان كذلك.

وزُويت له الأرض فأُري مشارقها ومغاربها، وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ مازوي له منها فكان كذلك، فقد بلغ ملكهم من أول المشرق إلى آخر المغرب.

وأخبر فاطمة ابنته رضي الله عنها، بأنها أول أهله لحاقاً به فكان كذلك، وأخبر نساءه رضي الله عنهن بأن أطولهن يداً أسرعهن لحاقاً به فكانت زينب بنت جحش الأسدية أطولهن يداً بالصدقة وأولهن لحوقاً به.

ومسح ضرع شاة حائل لالبن لها فدرت، وكان ذلك سبب إسلام ابن مسعود. وفعل ذلك مرة أخرى في خيمة أم معبد الخزاعية.

وندرت عين بعض أصحابه فسقطت، فردها ﷺ بيده، فكانت أصح عينيه وأحسنهما. وتفل في عين علي رضي الله عنه وهو أرمد يوم خيبر، فصح من وقته وبعثه بالراية. وكانوا يسمعون تسبيح الطعام بين يديه ﷺ.

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٨١).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨: ١٨٢). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٩٠). والدولابي في الأسماء والكنى (٢: ٣٧).

وأصيبت رجل بعض أصحابه ﷺ، فمسحها بيده فبرأت من حينها. وقل زاد جيش كان معه ﷺ، فدعا بجمع ما بقي، فاجتمع شيء يسير جداً، فدعا فيه بالبركة، ثم أمرهم فأخذوا فلم يبق وعاء في العسكر، إلا ملئ من ذلك.

وحكى الحكم بن العاص: مشيته ﷺ مستهزئاً، فقال ﷺ: «كن كذلك»[1]، فكان فلم يزل يرتعش حتى مات. وخطب ﷺ امرأة، فقال له أبوها: إن بها برصاً. امتناعاً من خِطبته واعتذاراً، ولم يكن بها برص؛ فقال ﷺ: «فلتكن كذلك»[2]، فبرصت. وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر... إلى غير ذلك من آياته ومعجزاته ﷺ. وإنما اقتصرنا على المستفيض.

ومن يستريب في انخراق العادة على يده، ويزعم أن آحاد هذه الوقائع لم تنقل تواتراً، بل المتواتر هو القرآن فقط، كمن يستريب في شجاعة علي رضي الله عنه، وسخاوة حاتم الطائي. ومعلوم أن آحاد وقعائهم غير متواترة، ولكن مجموع الوقائع يورث علماً ضرورياً، ثم لا يتمارى في تواتر القرآن وهي المعجزة الكبرى الباقية بين الخلق، وليس لنبي معجزة باقية سواه، إذ تحدى به رسول الله ﷺ بلغاء الخلق وفصحاء العرب، وجزيرة العرب حينئذ مملوءة بآلاف منهم، والفصاحة صنعتهم، وبها منافستهم ومباهاتهم.

وكان ينادي بين أظهرهم أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله إن شكوا فيه، وقال لهم؟ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال ذلك تعجيزاً لهم فعجزوا عن ذلك وصرفوا عنه، حتى عرضوا أنفسهم للقتل ونساءهم وذراريهم للسبي، وما استطاعواأن يعارضوا ولا أن يقدحوا في جزالته وحسنه. ثم انتشر ذلك بعده في أقطار العالم شرقاً وغرباً، قرناً بعد قرن، وعصراً بعد عصر.

وقد انقرض اليوم قريب من خمسمائة سنة (وهو زمن حجة الإسلام الغزالي) فلم يقدر أحد على معارضته، فأعظم بغباوة من ينظر في أحواله، ثم في أقواله، ثم في أفعاله، ثم في أخلاقه، ثم في معجزاته، ثم في استمرار شرعه إلى الآن، ثم في انتشاره في أقطارالعالم، ثم في إذعان ملوك الأرض له في عصره وبعد عصره مع ضعفه ويتمه... ثم يتمارى بعد ذلك في صدقه ﷺ. وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه عليه الصلاة والسلام في كل ما ورد وصدر. فنسأل الله تعالى أن يوفقنا بمنه وسعة جوده للاقتداء به في الأخلاق والأفعال، والأحوال والأقوال ﷺ.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٢: ٦٢١).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٩١).

ومنهم الإمام العارف بالله سيدي الشيخ أحمد الصاوي[1] المتوفى سنة ١٢٤١ هـ

فمن جواهره رضي الله عنه

[تفسير عدة آيات قرآنية]

قوله في حاشيته على تفسير الجلالين، عند قوله تعالى في سورة ال عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١] الآية، الميثاق هو عهد مؤكد باليمين.

واختلف فيه هل كان ذلك في عالم الذر، وعليه يكون قوله تعالى: ﴿آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ [آل عمران: ٨١] في عالم الأشباح، فالمعاهدة لما يأتي؛ أو كان ذلك في عالم الأشباح، وكانت تلك المعاهدة تنزل في كتبهم وعليه تكون المعاهدة في الحالة الراهنة.

واختلف في الرسول المعاهد عليه في جميع الأنبياء، فذهب جماعة من الصحابة والتابعين، منهم سعيد بن جبير وطاووس إلى أن كل نبي يعاهد على من يأتي بعده من الأنبياء فأخذ العهد على آدم أن جاءه رسول مصدق لما معه ليؤمنن به ولينصرنه، وكذلك شيت أخذ عليه العهد، وهكذا إلى إبراهيم، إلى موسىٰ إلى بقية أنبياء بني إسرائيل، إلى عيسى عليهم الصلاة والسلام... فهو ﷺ معاهد عليه مع كل نبي في عموم الأنبياء، ومع عيسى عوهد عليه بالخصوص، وهي حكمة قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وذهب جماعة آخرون من الصحابة وغيرهم، منهم علي وابن عباس والسدي وقتادة إلى أن المراد بالرسول المعاهد عليه هو سيدنا محمد ﷺ، فأخذ الله العهد على كل نبي بانفراده لئن جاءه محمد ﷺ وهو حي مصدقاً لما معه ليؤمنن به ولينصرنه.

وعليه، فلو ظهر محمد ﷺ في زمن أي نبي من الأنبياء، لبطل شرع ذلك النبي، وكان

---

(١) هو أحمد بن محمد الخلوتي الشهير بالصاوي فقيه مالكي نسبته إلى «صاء الحجر» في إقليم العربية بمصر توفي بالمدينة المنورة سنة ١٢٤١ هـ وولادته كانت ١١٧٥ هـ.

هو وأمته من أتباعه ﷺ واقتصر على هذا القول الحافظ السيوطي في تفسير الجلالين.

قال السبكي: يؤخذ من الآية على هذا التفسير أنه ﷺ نبي الأنبياء، وأن الأنبياء نوابه. والحكمة في تلك المعاهدة ارتباط أولهم بآخرهم، وبيان عصمتهم من داء الحسد

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً:

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة آل عمران أيضاً ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] أي ذهبوا إلى الكفار، ولم يبق منهم أحد.

وما من قبله ﷺ من الأنبياء عليهم السلام فقد عاملوا قومهم بالجلال، كنوح عليه السلام حين قال: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وكهود وصالح عليهما السلام فنبينا ﷺ رحمة للعالمين، ولولا رحمته بنا ما بقي منا أحد، فكان شفيعاً عند ربه لنا في كل بلاء عام طلبه الأنبياء لأممهم.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة آل عمران أيضاً: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] هذا ترق في تعظيمه ﷺ فنزهه الله تعالى أولاً عن الغلول، أي الخيانة في الغنيمة في الآية السابقة ثم بين أن وجوده بينهم نعمة عظيمة أنعم بها عليهم، وفي الحقيقة هو ﷺ نعمة حتى على الكفار، وإنما خص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بها وتدوم عليهم.

وأما الكفار وإن آمنوا به ﷺ من الخسف والمسخ وكل بلاء عام، ورزقوا به إلا أن عاقبتهم الخلود في دار البوار، ويتبرأ منهم ولا يشفع لهم في النجاة من العذاب.

بشرى لنا معشر الإسلام أن لنا ... من العناية ركناً غير منهدم

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

اعلم أن ما أوحي إلى رسول الله ﷺ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

ما أمر بتبليغه، وهو القرآن والأحكام المتعلقة بالخلق عموماً، فقد بلغه ﷺ، ولم يزد عليه حرفاً، ولم يكتم منه حرفاً؛ ولو جاز عليه الكتم، لكتم آيات العتاب الصادرة له من الله تعالى، كآية ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١] وآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ [الأنفال: ٦٧] وسورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] ولفظ قل من ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١].

وقد شهد الله له بتمام التبليغ، حيث أنزل عليه قبل وفاته ﷺ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣]. وورد أنه قال لعزرائيل حين قبض روحه: «**اقبض فقد بلغت**».

وما أمر بكتمه، فقد كتمه ﷺ ولم يبلغ منه حرفاً، وهو جميع الأسرار التي لا تليق بالأمة.

وما خير في تبليغه وكتمه، فقد كتم البعض وبلغ البعض، وهو الأسرار التي تليق بالأمة؛ ولذا أورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: أعطاني حبيبي جرابين من العلم، لو بثثت لكم أحدهما لقطع مني هذا الحلقوم.

ثم قال عن عائشة رضي الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ في مقدمه المدينة ليلة فقال: «**ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة**». قالت: فبينما نحن كذلك، سمعنا خشخشة سلاح، فقال: «**من هذا؟**» قال: سعد بن أبي وقاص. فقال له رسول الله ﷺ: «**ماجاء بك؟**»[١] فقال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه. فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام.

وفي رواية أن الذي جاء سعد وحذيفة بن اليمان، فقالا: جئنا نحرسك. فنام ﷺ حتى سمعت غطيطه. ونزلت هذه الآية، فأخرج رأسه من قبة آدم وقال: «**انصرفوا أيها الناس، فقد عصمني الله تعالى**»[٢]. وورد أنه كان يحفظه ﷺ سبعون ألف ملك لا يفارقونه في نوم ولا يقظة.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٤: ٤١). وأحمد في المسند (٦: ١٤١).

(٢) رواه النسائي في السنن (٨: ٣٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٤٤٤).

ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧] عزروه وقروه ويجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل بسمته وصفته من كونه محمداً، وولد بمكة، وهاجر إلى المدينة، يقبل الهدية ويرد الصدقة، وهكذا من أوصافه وأخلاقه العظيمة ﷺ. قال في تاريخ الخميس إن محمداً ﷺ مذكور في التوراة بالسريانية بلفظ «المُنْحَمِنّا»، ومعناه محمد. وذكر الحسن عن كعب الأحبار أن اسم النبي ﷺ عند أهل الجنة عبد الكريم، وعند أهل النار عبد الجبار، وعند أهل العرش عبد المجيد، وعند سائر الملائكة عبد الحميد، وعند الأنبياء عبد الوهاب، وعند الشياطين عبد القاهر، وعند الجن عبد الرحيم، وفي الجبال عبد الخالق، وفي البر عبد القادر، وفي البحر عبد المهيمن، وعند الهوام عبد الغياث، وعند الوحوش عبد الرزاق، وفي التوراة موذموذ، وفي الإنجيل طاب طاب، وفي الصحف عاقب، وفي الزبور فاروق، وعند الله تعالى طه ومحمد ﷺ:

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢ - ٣٣] يريدون أن يطفئوا نور الله وشرعه وبراهينه الدالة على صدقه ﷺ وهي ثلاثة أمور:

أحدها: المعجزات الظاهرات، ثانيها: القرآن العظيم، ثالثها: كون دينه الذي أمر باتباعه وهو دين الإسلام، ليس فيه شيء سوى تعظيم الله والانقياد لأمره ونهيه والتبرؤ من كل معبود سواه. فهذه أمور نيرة واضحة في صحة نبوته ﷺ. فمن أراد إبطال ذلك، فقد خاب سعيه. و﴿ يُتِمَّ نُورَهُۥ ﴾ [التوبة: ٣٢] أي يعليه ويرفع شأنه. والهدى هو القرآن. ودين الحق هو دين الإسلام.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في آخر سورة التوبة: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] قوله ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة: ١٢٨] خطاب للعرب.

قال ابن عباس: ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبي ﷺ وله فيهم نسب. ﴿أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] بضم الفاء باتفاق السبعة، وقرئ من أنفسكم بفتح الفاء من النفاسة، والمعنى جاءكم رسول من أشرفكم وأرفعكم قدراً، لما في الحديث «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم. فأنا خِيار من خِيار من خيار»[1] ﷺ.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في أول سورة الإسراء ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] قوله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١] لم يقل بنبيه ولا برسوله إشارة إلى أن وصف العبودية أخص الأوصاف وأشرفها، لأنه إذا صحت نسبة العبد لربه بحيث لا يشرك في عبادته له أحداً، فقد فاز وسعد، ولذا ذكره الله تعالى في المقامات الشريفة كما هنا.

وفي مقام الوحي، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠]. وفي مقام الدعوة، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩] ولذا قال القاضي عياض، رحمه الله تعالى

وممـا زادنـي شـرفـاً وتيهـاً ... وكـدت بـأخمصـي أطـأ الثـريـا

دخـولـي تحـت قـولـك يـا عبـادي ... وأن صيّـرت أحمـد لـي نبيـا

وهناك وجه آخر، وهو خوف ضلال أمته به ﷺ كما ضلت أمة عيسى به عليه السلام حيث قالوا: ابن الله. وقوله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١] أي بروحه وجسمه على الصحيح.

ثم قال عند قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١] المشهور أن الضمير عائد على الله تعالى، أي هو السميع للأقوال، البصير بالأحوال والأفعال. وقيل الضمير عائد على النبي ﷺ وحكمة الإتيان بهذين الوصفين الثناء على رسول الله ﷺ، حيث شاهد ما شاهد، وسمع ما سمع، ولم يزغ بصره، ولم يدهش سمعه؛ فهو نظير قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] إشارة إلى علو مقامه ورفعة شأنه ﷺ.

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل: ١). والترمذي في السنن (٣٦٠٦).

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] أي للرحمة، فهو منصوب على أنه مفعول لأجله؛ ويصح أن يكون منصوباً على الحال أي أنه ﷺ نفس الرحمة، لما ورد أن الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، أو على حذف مضاف أي ذا رحمة أو راحماً لما في الحديث: «**إنما أنا رحمة مهداة**»[1]. انتهت عبارة الصاوي.

ولا يخفاك أن الحديث الذي ذكره، وهو قوله ﷺ: «**إنما أنا رحمة مهداة**»[2] يؤيد القول الثاني، وهو أنه ﷺ عين الرحمة، ولعله إنما جعله في وسط الأقوال الثلاثة لكونه هو المرجح عنده. كما أنه هو المرجح عند جميع ساداتنا الصوفية رضي الله عنهم ثم قال عند تفسير العالمين بالأنس والجن: أي براً وفاجراً، مؤمناً وكافراً، لأنه ﷺ رفع بسببه الخسف والمسخ وعذاب الاستئصال.

وهو ﷺ رحمة أيضاً من حيث أنه جاء بما يرشد الخلق إلى السعادة العظمى، فمن آمن به ﷺ فهو رحمة له دنيا وأخرى، ومن كفر فهو رحمة له في الدنيا فقط.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾ [الأحزاب:٦] أي أنه ﷺ أحق بكل مؤمن من نفسه كان في زمنه أولا، فطاعة النبي ﷺ مقدمة على طاعة النفس في كل شيء من أمور الدين والدنيا، لأنها طاعة لله.

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء:٨٠] وإذا كان ﷺ أولى بهم من أنفسهم، فهو أولى بمالهم وأولادهم وأزواجهم من أنفسهم بالأولى.

فحقه ﷺ على أمته أعظم من حق السيد على عبده، وهذه الآية أعظم دليل على أنه ﷺ هو الواسطة العظمى في كل نعمة وصلت للخلق، وإنما جعله الله أولى بالمؤمنين لأنه ﷺ لا يفعل شيئاً عن هوى نفسه بل عن وحي، فجميع أفعاله وأقواله عن ربه.

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٦٢). وابن كثير في البداية والنهاية (٦: ٢٩٩). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ٣٤٢). والبيهقي في دلائل النبوة (١: ١٥٨).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٦٢). وابن كثير في البداية والنهاية (٦: ٢٩٩). والسيوطي في الدر المنثور (٤: ٣٤٢). والبيهقي في دلائل النبوة (١: ١٥٨).

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

ما ذكره في حاشيته المذكورة عند قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] هذه الآية فيها أعظم دليل على أنه ﷺ مهبط الرحمات وأفضل الخلق على الإطلاق، إذ الصلاة من الله على نبيه ﷺ رحمته المقرونة بالتعظيم، ومن الله على غير النبي مطلق الرحمة، لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب: ٤٣] فانظر الفرق بين الصلاتين والفضل بين المقامين. والمراد بالملائكة جميعهم، والصلاة من الملائكة الدعاء للنبي ﷺ بما يليق به.

ولما كانت الصلاة عليه من الله تعالى هي الرحمة المقرونة بالتعظيم، وسعت رحمة النبي ﷺ كل شيء تبعاً لرحمة الله تعالى، فصار بذلك مهبط الرحمات ومنبع التجليات.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: ٥٦] أي ادعوا له بما يليق به. وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين على النبي ﷺ تشريفهم بذلك حيث اقتدوا بالله تعالى في مطلق الصلاة، وإظهار تعظيمه ﷺ، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق، لأنه ﷺ الواسطة العظمى في كل نعمة وصلت لهم، وحق على من وصلت له نعمة من شخص أن يكافئه، فصلاة جميع الخلق عليه ﷺ مكافأة لبعض ما يجب عليهم من حقوقه ﷺ.

إن صلاتهم طلب من الله تعالى أن يصلي عليه وهو مصل عليه مطلقاً طلبوا أولاً، أجيب بأن الخلق لما كانوا عاجزين عن كافأته ﷺ طلبوا من القادر المالك أن يكافئه. ولا شك أن الصلاة الواصلة للنبي ﷺ من الله لا تقف عند حد؛ فكلما طلبت من الله تعالى زادت على نبيه ﷺ فهي دائمة بدوام الله عز وجل.

وقوله: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] إن قلت لم خص السلام بالمؤمنين دون الله والملائكة أجيب بأن هذه الآية لما ذكرت عقب ذكر ما يؤذي النبي ﷺ والأذية إنما هي من البشر، فناسب التخصيص بهم، لأن في السلام سلامة من الآفات، وأكد السلام دون الصلاة، لأنها لما أسندت لله وملائكته كانت غنية عن التأكيد.

واعلم أن العلماء اتفقوا على وجوب الصلاة والسلام على النبي ﷺ ثم اختلفوا في تعيين الواجب، فعند مالك تجب الصلاة والسلام في العمر مرة، وعند الشافعي تجب في التشهد الأخير من كل فرض، وعند غيرهما تجب في كل مجلس مرة، وقيل تجب عند ذكره ﷺ، وقيل يجب الإكثار منها من غير تقييد.

وبالجملة فالصلاة على النبي ﷺ أمرها عظيم وفضلها جسيم، وهي من أفضل الطاعات وأجل القربات، حتى قال بعض العارفين: إنها توصل إلى الله تعالى من غير شيخ، لأن الشيخ والسند فيها صاحبها ﷺ، لأنها تعرض عليه ويصلي هو على المصلي عليه، بخلاف غيرها من الأذكار، فلا بد فيها من الشيخ العارف وإلا دخلها الشيطان ولم ينتفع صاحبها بها.

ثم قال: وصيغ الصلاة على النبي ﷺ كثيرة لا تحصى، وأفضلها ما ذكر فيه لفظ الآل والصحب، فمن تمسك بأي صيغة منها حصل له الخير العظيم. انتهى كلام العارف الصاوي.

يقول جامعه الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه: إني قبل اطلاعي بمدة طويلة على عبارة الإمام الصاوي المذكورة في تأكيد السلام بالمصدر وعدم تأكيد الصلاة، كتبت في هذا المعنى عبارة في ورقة، وتركتها لأذكرها مع ما يناسبها.

وها أنا أذكرها الآن بحروفها، وهي قولي:

فائدة: خطر لي معنى شريف في ذكر السلام في الآية، وتأكيده بالمصدر وعدم تأكيد الصلاة به، مع أنه لم يذكر في صدر الآية مع الصلاة من الله والملائكة عليه ﷺ وهو أن مشروعيته كانت سابقة على مشروعية الصلاة عليه بنزول الآية، كما يستفاد من حديث تعليمهم الصلاة المأمور بها فيها. وقوله ﷺ في آخره: «**وأما السلام فكما قد علمتم**».

فلذلك ذكرت الصلاة وحدها في صدر الآية، والأمر بها دون السلام؛ فلئلا يتوهم من ذلك عدم الاهتمام في شأنه أمر به تعالى مؤكداً بالمصدر، كما أن الأمر به تشريع مؤكد للتشريع السابق في شأنه، المفهوم من قوله ﷺ: «**وأما السلام فكما قد علمتم**». ولذلك لم يطلب منه ﷺ الصحابة أن يعلمهم السلام لسبق علمهم به.

أما الصلاة فقد ذكرت في الآية من أول الأمر مؤكدة بذكر صلاة الله وملائكته وتصدير الآية بها، فلم تحتج للتأكيد بالمصدر واحتاج له السلام. نعم يظهر من الآية الاهتمام بشأن الصلاة أكثر من السلام، وإن كان هو أيضاً مهتماً به للأمر به مؤكداً، لأن تأكيدها بذكر صلاة الله وملائكته أقوى من تأكيده بالمصدر بلا شك.

ويدل على ذلك ورود الأحاديث الكثيرة في فضل الصلاة عليه ﷺ أكثر من الواردة في فضل السلام أضعافاً مضاعفة. وكثير من صيغ الصلوات الواردة عن النبي ﷺ وعمن بعده من الصحابة ومن بعدهم لم يذكر فيها السلام بالكلية.

نعم كرهوا أفراد أحدهما عن الآخر في غير الوارد، فمن الوارد إفراد الصلاة في الصيغة الإبراهيمية، ومن الوارد إفراد السلام عند زيارته ﷺ فليس في ذلك كراهة، على أن الحافظ بن

حجر قال: إنما يكره إفراد الصلاة عن السلام إذا لم يأت به ولو في مجلس آخر، أما إذا أتى به في مجلس آخر فلا كراهة، والله أعلم. انتهت عبارتي.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨] إن هذه الآية دلت على أنه ﷺ مرسل لجميع الإنس بشيراً ونذيراً.

وأما إرساله لغيرهم، فمأخوذ من آيات أخر، منها قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] لكن إرساله ﷺ للإنس والجن إرسال تكليف، وللملائكة قيل إرسال تكليف، وقيل تشريف لسائر الحيوانات والجمادات إرسال تشريف.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة عند قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:٨ - ١٠] قوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ [الفتح:٨] امتنان منه تعالى عليه ﷺ حيث شرفه بالرسالة، وبعثه إلى كافة الخلق شاهداً على أعمال أمته بالطاعة والعصيان: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ [الفتح:٨] لهم في الدنيا بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الفتح:٨] أي منذرا مخوفاً من عمل سوءاً بالنار ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح:٩] بالياء والتاء، وهما قراءتان سبعيتان في هذه الألفاظ الأربعة. وضمير ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩] راجع لله تعالى أو لرسوله ﷺ ويؤخذ من هذه الآية أن من اقتصر على تعظيم الله وحده، أو على تعظيم الرسول وحده، فليس بمؤمن بل المؤمن من جمع بين تعظيم الله تعالى وتعظيم رسوله ﷺ ولكن التعظيم في كل بحسبه، فتعظيم الله تعالى تنزيهه عن صفات الحوادث ووصفه بالكمالات، وتعظيم رسوله ﷺ اعتقاد أنه رسول الله حقاً وصدقاً لكافة الخلق، بشيراً ونذيراً إلى غير ذلك من أوصافه السنية وشمائله المرضية ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح:١٠] الآية لما ذكر سبحانه وتعالى أنه أرسله ﷺ بشيراً ونذيراً بين أن متابعته ﷺ متابعة له عز وجل، وطاعته ﷺ طاعة له سبحانه وتعالى، وذلك يشعر بعظيم منزلته ورفعة قدره ﷺ عند ربه عز وجل. والبيعة في الأصل: العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد الذي التزمه له، والمراد بها هنا بيعة الرضوان بالحديبية، وهي قرية ليست كبيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة

أو مرحلة، سميت ببئر هناك واختلف فيها، فقيل من الحرم، وقيل بعضها من الحرم، ويجوز فيها التخفيف والتشديد. .

وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] هو نحو: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] أي من حيث إنه في المعنى يرجع له، إذ هو تعالى منزه عن الجوارح، فليست اليد على حقيقتها.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] أي أنه سبحانه وتعالى مطلع على مبايعتهم فيجازيهم عليها.

وقوله تعالى ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] أي وهو الجنة. وهذه الآية وإن كان سبب نزولها بيعة الرضوان، إلا أن العبرة بعموم اللفظ، فيشمل مبايعة الإمام على الطاعة والوفاء بالعهد، ومبايعة الشيخ العارف على محبة الله ورسوله والتزام شروطه وآدابه. ومن هنا استعمل المشايخ الصوفية هذه الآية عند أخذ العهد على المريد.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] يحتمل أن يكون أفعل تفضيل من المبني للفاعل.

والمعنى أكثر حامديه لله تعالى من غيره، ويحتمل أن يكون من المبني للمفعول أي أكثر محمودية من غيره، أي كون الخلق يحمدونه أكثر من كونهم يحمدون غيره.

وخص أحمد بالذكر دون محمد، مع أنه أشرف أسمائه ﷺ لوجوه. الأول كونه ﷺ مذكوراً في الإنجيل بهذا الاسم الثاني. كونه ﷺ مسمى به في السماء. الثالث أن حمده ﷺ لله تعالى سابق على حمد الخلق له عز وجل في الدنيا ويوم القيامة؛ فحمده لله قبل شفاعته لأمته، وحمد الخلق له تعالى بعدها وقال بعضهم: إنه ﷺ له أربعة آلاف اسم، منها نحو سبعين من أسمائه تعالى كرؤوف ورحيم.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في حاشيته المذكورة، عند قوله تعالى في سورة ن ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] قال ابن عباس: معناه على دين عظيم، لا دين أحب إليَّ ولا أرضى عندي منه، وهو دين

الإسلام. وقال الحسن: هو آداب القرآن بدليل أن عائشة لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ قالت: كان خلقه القرآن.

ولذا قال قتادة: هو ما كان يأتمر به ﷺ من أوامر الله، وينتهي عنه من نهي الله تعالى. والمعنى وأنك على الخلق الذي أمرك الله به في القرآن.

وهذا أعظم مدح له ﷺ ولذا قال العارف البوصيري:

فهـو الـذي تـم معنـاه وصـورتـه ثـم اصطفـاه حبيبـاً بـارئ النسـم

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

[كتابه شرح صلوات الدردير]

قوله رضي الله عنه في شرحه على صلوات العارف بالله سيدي أحمد الدردير رضي الله عنه عند الكلام على الصيغة المنسوبة لحجة الإسلام الغزالي، وهي... «اللهم أجعل أفضل صلواتك أبداً، وأنمى بركاتك سرمداً، وأزكى تحياتك فضلاً وعدداً... على أشرف الخلائق الإنسانية» أي وغيرها.

وإنما خص الإنسان لأنه أفضل الأنواع، فإذا فضلهم كان أفضل مما سواهم بالأولى. «ومجمع الحقائق الإيمانية» جمع حقيقة، فمنه ﷺ تؤخذ حقيقة الإيمان بجميع مراتبها من علم اليقين، وعين اليقين وحق اليقين.

«وطور التجليات الإحسانية» أي هو ﷺ موضع تنزلات الرحمات ومهبطها، كما أن جبل الطور مهبط تجلي الجلال عند سؤال موسى ﷺ رؤية ربه، فتجلى الله على الطور بالجلال فصار دكاً. ورسول الله ﷺ تجلى عليه بالإحسان، فوسع العالمين علماً وحلماً، فصارت مقامات الإحسان لا تؤخذ إلاّ منه من مراقبة ومشاهدة. «ومهبط الأسرار الرحمانية» جمع سر وهو ما يكتم، أي هو ﷺ موضع أسرار الله الناشئة من رحمانيته سبحانه، فلا تؤخذ إلا منه.

«وعروس المملكة الربانية» أي كما في بعض روايات هذه الصلاة من زيادة هذه الفقرة، أي المميز في عوالم الملك والملكوت بالفخر والبهاء كالعروس، فإنه ﷺ الخليفة على الإطلاق الذي صرّفه الله في الملك والملكوت بسبب أنه خلع عليه أسرار الأسماء والصفات، ومكنه من التصريف في البسائط والمركبات، فكان بذلك المعنى عروساً لأن العروس نافذ أمره والجميع خدمه.

«واسطة عقد النبيين» واسطة العقد جوهرته الكبرى، ووسط الشيء خياره، ومعناه خيار

النبيين، «ومقدم جيش المرسلين» أي الرافع لرتبتهم، الممد لهم، المقدم عليهم بالحس والمعنى. . . «وقائد ركب الأنبياء المكرمين» جمع نبي.

روي أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وقيل: مائتا ألف وخمسة وعشرون ألفاً، وقيل: ألف ألف ومائتا ألف وخمسة وعشرون ألفاً، الرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقيل: وأربعة عشر.

والمذكور منهم في القرآن خمسة وعشرون، ثمانية عشر في آية ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ﴾ [الأنعام:٨٣] إلى آخر آية الأنعام، والباقي محمد، وآدم، وصالح، وشعيب، وهود، وإدريس، وذو الكفل. أولو العزم منهم خمسة جمعهم بعضهم في بيت شعر بقوله

محمد إبراهيم موسى كليمه   فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

وفضلهم على هذا الترتيب، والحق أن عدة الأنبياء والرسل لا يعلمها إلا الله «وأفضل الخلق أجمعين» لقوله ﷺ «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».[1] ونوع الآدمي أفضل الخلق، فيكون ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق.

وفي خبر الترمذي «وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر»[2] «حامل لواء العز الأعلى» اللواء بالمد: الراية، والعز ضد الذل، والأعلى: الأشرف، والأرفع، والمعنى أن بيده ﷺ عز الدارين لمن انتسب إليه «ومالك أزمة المجد الأسنى» أي الشرف الأرفع، وهو كناية أيضاً عن عز الدارين لمن اتبعه ﷺ «شاهد أسرار الأزل» أي معانيها.

والأزل: القِدم. «ومشاهد أنوار السوابق الأول» جمع سابق وأول، فهو ﷺ وإن تأخر وجود جسمه الشريف على جميع الأنبياء، متقدم عليهم، بل وعلى جميع المخلوقات، باعتبار حقيقته، فأنوار السوابق الأول ناشئة منه وعارضة عليه، فكان بهذا المعنى مشاهدها. ويشهد لهذا حديث جابر المشهور. «وترجمان لسان القدم» الترجمان في الأصل اسم الملقن معاني الكلمات، والمراد منه هنا الملقن كل العلوم الغيبية التي نشأت عن ذي القدم سبحانه وتعالى «ومنبع العلم والحلم والحكم» أي محل نبع علوم الأولين والآخرين. وصح أنه ﷺ قال: «تعلمت علم الأولين والآخرين». وكفانا قول البوصيري: ومن علومك علم اللوح والقلم، ومحل حلم الأولين والآخرين. قال البوصيري في وصفه ﷺ:

وسع العالمين علماً وحلماً   فهو بحر لم تعيه الأعباء

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٥٧٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٠٤٠).

(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٤٩٧). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ٥٣٠).

والحكم جمع حكمة، وهي إتقان العلم والعمل، أي فهو منبعها أيضاً. «ومظهر سر الجود الجزئي والكلي» أي هو الذي به ظهور سر جود الله تعالى الدقيق والجليل، والمعنى أنه ظهرت به ﷺ بركات الدنيا والآخرة. «وإنسان عين الوجود العلوي والسفلي» أي هو ﷺ خيار الموجودات ونورها، كما أن إنسان العين نورها، فالعين بدونه لا تبصر، والموجودات من العالمين بدونه عدم، لما في الحديث «لولاك ما خلقت سماء ولا أرضاً»[1].

«روح جسد الكونين» أي العالمين عالم الملك وهو ما ظهر، وعالم الملكوت وهو ما خفي عنا، فالني ﷺ سره سار في الكونين كسريان الروح في الجسد.

«وعين حياة الدارين» أي حقيقة حياتهما، أو هو ﷺ كعين الحياة للدارين التي من شرب منها لا يموت.

«المتحقق بأعلى رتب العبودية» وهي غاية التذلل والخضوع، فتذلله ﷺ وخضوعه لربه عز وجل.

لا يدانيه فيه أحد، ولذلك كانت العبودية على الراجح أفضل أوصافه ﷺ «المتخلق بأخلاق المقامات الاصطفائية» أي المختارة، فالاصطفاء الاختيار، ومنه المصطفى أي المختار.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] ولا يعلم حقيقة العظم الذي وصفه الله به إلا خالقه.

أرى كل مدح في النبيّ مقصرا وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى

«الخليل الأعظم والحبيب الأكرم» أي الأعظم من كل عظيم، والأكرم من كل كريم.

تنبيه: الفرق بين الحبيب والخليل كما قال النيسابوري إن الخليل هو الذي امتحنه الله تعالى ثم أحبه، والحبيب الذي أحبه الله ابتداء تفضلاً. أو الخليل الذي جعل ما يملكه فداء خليله، والحبيب الذي جعل المولى مملكته فداءة.

وبهذا المعنى يكون وصف الحبيب أفضل من وصف الخليل، ولذلك اشتهر به ﷺ واشتهر إبراهيم عليه السلام بالخليل، وإلا فكل حبيب خليل، قال البرعي رحمه الله تعالى:

إذا ذكر الخليل فذا حبيب عليه الله في التوراة أثنى

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (٢: ٢٣٢). بمعناه.

وقال البوصيري رحمه الله تعالى:

أعلى المراتب عند الله رتبته فافهم فما موضع المحبوب مجهول

«سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، كلما ذكرك الذاكرون، وغفل عن ذكرهم الغافلون» وهذه الصلاة نقلها حجة الإسلام الغزالي عن القطب العيدروس، وتسمى شمس الكنز الأعظم، ومن قرأها حجب قلبه عن وساوس الشيطان.

وقال بعضهم: إنها للقطب الرباني، سيدي عبد القادر الجيلاني، وإن من قرأ بعد صلاة العشاء الإخلاص والمعوذتين ثلاثاً ثلاثاً، وصلى على النبي ﷺ بهذه الصيغة، رأى النبي ﷺ في المنام. انتهى كلام العارف الصاوي.

وقوله عن القطب العيدروس: هو محرف عن العبدوسي كما حققت ذلك في كتابي سعادة الدارين وغيره.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

[شرح بعض الصلوات الفاضلة]

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على صلاة قطب الأقطاب، سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه وهي: اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية» أي الشجرة التي هي الأصل.

وهو ﷺ أصل العوالم على الإطلاق، وأساس شرفها بالاتفاق والنورانية نسبة إلى النور، ويحتمل أن يراد به الرب سبحانه وتعالى فإنه قد ورد تسميته تعالى بالنور في الكتاب والسنة.

وحقيقة النور هو الظاهر بنفسه المظهر لغيره ونسب إليه تعالى، لأنه ﷺ نشأ من حضرة الله بدون واسطة مادة، ويحتمل أنه أراد بالنور خلاف الظلمة، وجمعه أنوار، فقد ورد أن ذات النبي ﷺ كانت نوراً، حتى أنه لا يظهر له ظل في الشمس.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «بينما أخيط ثوباً في السحر، فوقعت الإبرة مني، وانطفأ المصباح، إذ دخل عليَّ رسول الله ﷺ فالتقطتُ الإبرة من نور وجهه، فقلت: يارسول الله، ما أبهى وجهك، وما أنور طلعتك. فقال: «يا عائشة، الويل كل الويل لمن لم يرني يوم القيامة. فقلت: ومن ذا الذي لا يراك يوم القيامة؟ فقال: «البخيل الذي إذا ذكرت

عنده لم يصل علي»[١]. ففيه نسبة الشيء لنفسه على سبيل المبالغة، وزيادة الألف والنون لزيادة الشرف.

وعلى كل هو معنى الحديث الوارد عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله، فقال: «هو نور نبيك يا جابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير، وخلق بعده كل شر.

وحين خلقه أقامه قدامه في مقام القرب اثني عشر ألف سنة، ثم جعله أربعة أقسام: فخلق العرش من قسم، والكرسي من قسم، وحملة العرش، وخزنة الكرسي من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثني عشر ألف سنة. ثم جعله أربعة أقسام: فخلق القلم من قسم.

اللوح من قسم. والجنة من قسم، وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثني عشر ألف سنة. ثم جعله أربعة أجزاء: فخلق الملائكة من جزء، وخلق الشمس من جزء، وخلق القمر والكواكب من جزء.

وأقام الجزء الرابع في مقام الرجاء اثني عشر ألف سنة ثم جعله أربعة أجزاء: فخلق العقل من جزء، والحلم والعلم من جزء، والعصمة والتوفيق من جزء، وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثني عشر ألف سنة.

ثم نظر إليه فترشح النور عرقاً، فقطرت منه مائة ألف وعشرون ألفاً وأربعة آلاف قطرة، فخلق الله تعالى من كل قطرة روح نبي أو رسول. ثم تنفست أرواح الأنبياء، فخلق الله من أنفاسهم نور أرواح الأولياء والسعداء والشهداء والمطيعين من المؤمنين إلى يوم القيامة.

فالعرش والكرسي من نوري، والكروبيون والروحانيون من الملائكة من نوري، وملائكة السموات السبع من نوري، والجنة وما فيها من النعيم من نوري، والشمس والقمر والكواكب من نوري، والعقل والعلم والتوفيق من نوري، وأرواح الأنبياء والرسل من نوري، والشهداء والسعداء والصالحون من نتائج نوري.

ثم خلق الله اثني عشر حجاباً، فأقام النور، وهو الجزء الرابع، في كل حجاب ألف سنة، وهي مقامات العبودية، وهي حجاب الكرامة والسعادة والرؤية والرحمة والرأفة والحلم والعلم والوقار والسكينة والصبر والصدق واليقين، فعبد الله ذلك النور في كل حجاب ألف سنة، فلما خرج النور من الحجب ركبه الله في الأرض، فكان يضيء بين المشرق والمغرب

(١) رواه الترمذي في السنن (٢٥٤٦). والتبريزي في مشكاة المصابيح (٩٣٣).

كالسراج في الليل المظلم، ثم خلق الله آدم من الأرض وركب فيه النور في جبينه.

ثم انتقل منه إلى شيث ولده، وكان ينتقل من طاهر إلى طيب، إلى أن وصل إلى صلب عبد الله بن عبد المطلب، ومنه إلى وجه أمي آمنة، ثم أخرجني إلى الدنيا، فجعلني سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة للعالمين، وقائد الغر المحجلين. . . هكذا كان بدء خلق نبيك يا جابر». قال بعده العارف الصاوي: ذكره شيخنا الشيخ سليمان الجمل في أول شرحه على الشمائل، عن سعد الدين التفتازاني في شرح بردة المديح عند قوله:

وكل آي أتى الرسل الكرام بها ... فإنما اتصلت من نوره بهمِ

«ولمعة القبضة الرحمانية»وصف ثان له ﷺ باعتبار الحقيقة المحمدية. «وأفضل الخليقة الإنسانية» وصف ثالث له ﷺ باعتبار عالم الأجساد. «وأشرف الصورة الجسمانية» وصف رابع له ﷺ باعتبار عالم الأجساد أيضاً. والقبضة في الأصل مصدر بمعنى اسم المفعول أي النور المقبوض أزلاً.

وفي القبضة تجوز والمراد تعلق الإرادة والقدرة بالإبراز، لأن حقيقة القبض الأخذ باليد، وهو مستحيل على الله تعالى.

ونسبتها للرحمن إشارة إلى أنها أجل النعم كماً وكيفاً، لأن الرحمن هو المنعم بجلائل النعم كماً وكيفاً.

ومعنى لمعتها نشأتها التي جعلت مادة للعوالم كلها، وشرف صورتها باعتبار ما قام بها من كمال الخلقة وحسن الطلعة واعتدال القامة. قال شيخنا المؤلف يعني القطب الدردير، رضي الله عنه في معنى حديث: «**كنت كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق، فبي عرفوني**» اعلم أن الله تعالى كان في أزله لم يعرف لعدم وجود من يعرفه، فأحب أن يعرف، فقبض قبضة من نوره أي بذاته، فمن بمعنى الباء، والنور بمعنى الذات، والإضافة للبيان. والمراد أبرزه بقدرته من غير واسطة مادة.

وهذا المقبوض هو المسمى بالنور المحمدي، وبروح الأرواح، وبالسر المحمدي، وبعرش الله الأكبر، وبآدم الأول، وبالأب الأكبر، وبالإنسان الكامل. ومن ذلك قول ابن الفارض رحمه الله تعالى

وإني وإن كنت ابن آدم صورة ... فلي فيه معنى شاهد بأبوتي

وهو المسمى بسر الأسرار، وبإنسان عين الوجود، وبشجرة الأصل وغير ذلك من الأسماء المشهورة بين العارفين. . . ثم أفاض الله تعالى على تلك الحقيقة جلائل النعم بوصف

الرحمن، ودقائقها بوصف الرحيم؛ وأمد منها العوالم كلها كما يشهد له الحديث المتقدم عن جابر. «ومعدن الأسرار الربانية» أي محل ما أطلعه الله عليه، وأمره بكتمه عن غير أهله أو بكتمه مطلقاً. لأن له ﷺ علوماً لم يطلع عليها غيره.

والربانية نسبة إلى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة في النسبة، إشارة إلى أن علومه ﷺ بغير معلم كما قال البوصيري رحمه الله تعالى:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة ... في الجاهلية والتأديب في اليتم

«وخزائن العلوم الاصطفائية» أي المختارة. وعطف العلوم على الأسرار من عطف العام على الخاص. «صاحب القبضة الأصلية» المتقدم ذكرها. «والبهجة السنية» أي الطلعة الشريفة الرفيعة المضيئة. «والرتبة العلية» أي المنزلة المرتفعة حساً ومعنى «من اندرجت النبيون تحت لوائه»، ففي الحديث الشريف: «**بيدي لواء الحمد آدم فمن دونه تحت لوائي، وهو لواء ينصب يوم القيامة طوله ألف سنة، له ثلاث ذؤابات ذؤابة بالمشرق، وأخرى بالمغرب، وأخرى في الوسط**»[1]. «فهم منه وإليه» أي النبيون مستمدون حسا ومعنى منه، وراجعون ومنتسبون إليه ﷺ. «وصل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت، وأمتّ وأحييت، إلى يوم تبعث من أفنيت، وسلم تسليماً كثيراً. والحمد لله رب العالمين» ختمها بالحمد إشارة لعظم فضلها. وذكر بعضهم أنها تقرأ عقب كل صلاة سبعاً، وإن المائة منها بثلاث وثلاثين مرة من دلائل الخيرات.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على صلاة بحر الحقائق والعلوم، سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه وهي: «اللهم صل على من منه انشقت الأسرار» هو النبي ﷺ وأبهمه للعلم، وإشارة لمزيد تعظيمه، لأن الإبهام قد يؤتى به للتعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه:٧٨] وانشقت الأسرار أي انفتح بابها والمراد اتضح به ﷺ كل ما كان خضبا وانفلقت الأنوار أي انفتح باب الأنوار الحسية والمعنوية، وألف الأسرار والأنوار للاستغراق، وهذا مأخوذ من حديث جابر المتقدم، فالأشياء قبل وجوده ﷺ كانت مغلقة أي معدومة، ففتحت أي وجدت بوجوده ﷺ فتكون من ابتدائية أي نشأت من نوره، أو تعليلية أي انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار من أجل وجوده ﷺ. «وفيه ارتقت الحقائق» أي في

---

(١) رواه الهيثمي في موارد الظمآن (٢١٢٧).

المصطفى ﷺ ظهرت حقائق الأشياء، فهو بمنزلة السماء، والحقائق بمنزلة الكواكب. «وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق» أي وفيه ﷺ نزلت علوم آدم. والمراد بعلوم آدم علم جميع الأسماء فصار لا ينظر شيئاً إلا عرف اسمه، فأعجز بذلك الملائكة حيث أمرهم الله تعالى بقوله جل ذكره: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٣١] فعجزوا، فقال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة:٣٣] فجميع العلوم التي نزلت على آدم نزلت على المصطفى ﷺ وزاد على علم حقائق المسميات فأعجز جميع الخلائق من ملائكة وغيرهم حتى آدم؛ فعلم آدم لم يعجز إلا الملائكة، وعلمه ﷺ أعجز الأولين والآخرين.

إن قلت: يلزم من علم الأسماء علم المسميات، فلا فرق بين علم آدم ونبينا.

فالجواب: إن آدم علم المسميات إجمالاً، ونبينا ﷺ علم الأسماء والمسميات تفصيلاً، فلذلك ورد عنه ﷺ أنه قال: «رفعت لي الدينا فأنا أنظر فيها كما أنظر إلى كفي هذه» «وله تضاءلت الفهوم، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق» أي تصاغرت أفهام الخلائق عن إدراك حقيقة النبي ﷺ لذلك قال عليه الصلاة والسلام: «لا يعلمني حقيقة غير ربي»، وهذا معنى قول البوصيري رحمه الله تعالى

أعيا الورى فهم معناه فليس يرى للقرب والبعد فيه غير منفحم

فلذلك علله بقوله: «فلم يدركه منا سابق ولا لاحق» أي معشر المخلوقين من أول الزمان إلى آخره، فلم يقف له أحد على حقيقة في الدنيا.

وأما في الآخرة، فتدرك حقيقته ﷺ لكشف الحجاب عن الخلائق. قال البوصيري: إنما مثلوا صفاتك للنّاس، كما مثل النجوم الماء.

وقال في البردة: وكيف يدرك في الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم؟ «فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة» الرياض: جمع روضة بمعنى البساتين والملكوت ما غاب عنا، كالجنة والعرش والكرسي والزهر النوار... ومونقة مزينة، شبه تزيينه ﷺ للملكوت بتزيين الزهر للرياض، فكما أن البساتين مزينة بالزهر، فالملكوت مزين بجماله ﷺ وحاصل ما في المقام أن العوالم أربعة عالم الملك وهو ما ظهر لنا، وعالم الملكوت وهو ما غاب عنا من المحسوسات كالجنة والنار والعرش والكرسي، وعالم الجبروت وهو عالم الأسرار والعلوم والمعارف، وعالم العزة وهو ما اختص الله به من علم ذاته وصفاته سبحانه وتعالى.

«وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة» تقدم أن الجبروت هو عالم الأسرار والعلوم، والتدفق الامتلاء، فشبه قلوب العارفين بالحياض، وشبه علومه بالبحر.

فتلك الحياض أي القلوب متدفقة ممتلئة من ذلك البحر الذي هو علم النبي ﷺ والمعنى أن علوم الأولين والآخرين مكتسبة منه ﷺ «ولا شيء إلا وهو به منوط» أي معلق، أي لا موجود إلا وهو مستمد من وجوده ﷺ لأنه أصل الأشياء وأمها «إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط» وهو ﷺ الواسطة العظمى في وجود المخلوقات، وليس المراد من قوله قيل صيغة التضعيف وإنما المراد النسبة، أي كما قال العارفون قولاً قوياً يعتمد عليه، ومنه قول بعضهم، وهو سيدي محمد البكري الكبير رضي الله عنه:

وأنت باب الله أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخل

صلاة تليق بك منك إليه كما هو أهله

وقوله: تليق بك أي بجنابك وإحسانك، ومنك إليه أي واصلة منك إليه. وقوله: كما هو أهله. الكاف تعليلية أي لأجل أنه أهله، لأنه لا يعرف قدره إلا أنت.

«اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك» أي الجامع لجميع ما تفرق في غيره من الكمالات والعلوم والمعارف والبركات والمعجزات الذي يدل الخلائق ويوصلهم إليك، فمنهم من دله بواسطة كالأمم السابقة، لأنه دلهم بواسطة الأنبياء لكونهم نوابه عليه وعليهم الصلاة والسلام ومنهم من دله بغير واسطة، وهم من وجد في زمنه ﷺ إلى يوم القيامة.

«وحابك الأعظم القائم لك بين يديك» أي المانع الأعظم فهو ﷺ حجاب بين الله تعالى وبين خلقه، فلا يمكن أحداً الوصول لله تعالى إلا بواسطته ﷺ أو حجاب بمعنى مانع المضار الدنيوية والأخروية عن أمته ووصفه بالعظم، لأن الأنبياء حجب أيضاً لأممهم، فهو أعظمهم، وكذا الشيخ حجاب لتلميذه، فتلك حجب خاصة.

والمصطفى ﷺ هو الحجاب الكلي، ويسمى بالبرزخ الكلي لكونه حجاباً وبرزخاً بين الخلق وربهم.

ومعنى القائم لك بين يديك أي الداعي الخلق إليك من غير واسطة بينك وبينه، والمراد أنه ﷺ قائم بحضرة القرب المعنوي، منهمك في طاعتك.

ولما استحضر عظمة المصطفى ﷺ بتلك الأوصاف المتقدمة التي لم تكن لمخلوق سواه تضرع لربه بقوله: اللهم ألحقني بنسبه» أي دين الإسلام ولذا قال ﷺ: «آل محمد كل تقي»[1]

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ١٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٦٢٤).

وحققني بحسبه المراد بالحسب هنا التقوى، أي أرزقني تقواك بطاعتك وطاعة رسولك. فأكون محققاً بها، فان الحسب ما يفتخر به من مكارم الأخلاق.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال البوصيري في حق آل بيت النبي ﷺ ورضي عنهم:

سدتم الناس بالتقى وسواكم ... سودته البيضاء والصفراء

«وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل وأكرع بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك حملاً محفوظاً بنصرتك، واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أو حال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها».

ولما كان كمال العبودية وكمال التوحيد والمعرفة لا يتم لصاحبه إلا بالاستقاء من يد المصطفى ﷺ قال: «واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي، وروحه سر حقيقي وحقيقته جامع عوالمي» المراد بالحجاب الأعظم هو المصطفى ﷺ، والمعنى مدّ روحي من النبي ﷺ كما تمد العود الأخضر من الماء، فكما أن المياه حياة الأبدان والنباتات، وهو ﷺ حياة الأرواح وروحها، فالأرواح التي لا تشاهده وتستقي منه كأنها أموات، وهي أرواح أهل الكفر والعصيان.

واجعل روحه ﷺ سر حقيقي، أي اجعل روحه ذاكرة لإنسانيتي في الملأ الأعلى، متوجهة لي بكل خير لأني إذا لم يتوجه إليَّ خسرت وندمت. واجعل حقيقته ﷺ جامع عوالمي، أي اجعل جميع أجزائي مشغولة به ﷺ ظاهراً وباطناً، فلا أتعلق بغيره، بل أكون تابعاً له في كل ما أمر به ونهى عنه، كما قال أبو العباس المرسي رضي الله عنه: لو غاب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين «بتحقيق الحق الأول» أي العهد الأول يوم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أي اجعل الحجاب الأعظم ﷺ حياة روحي جعلاً مصاحباً للتوحيد الأول.

«يا أول، يا آخر، يا ظاهر، يا باطن اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا، وانصرني بك لك، وأيدني بك لك، واجمع بيني وبينك، وحل بيني وبين غيرك الله، الله، الله، ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥] ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠] ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٦٥] ولهذه الصلاة فضائل جمة، ذكرتها في كتبي المؤلفة في هذا الشأن، كأفضل الصلوات.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على صلاة القطب الحقيقي، سيدي إبراهيم الدسوقي رضي الله عنه وهي: «اللهم صل على الذات المحمدية» سميت بذلك لكونها أكثر المخلوقين حامدية ومحمودية. «اللطيفة الأحدية» اللطيفة ضد الكثيفة. ووصفها بذلك لكونها نورانية، ووصفها بالأحدية لكونها عديمة المثيل والنظير والشبيه في الذات والصفات من سائر المخلوقين، كما قال البوصيري رحمه الله تعالى:

منزه عن شريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم

«شمس سماء الأسرار» أي نورها وكاشفها كما تكشف الشمس ما كان مخبأ، وإنما شبهت الأسرار بالسماء لبعدها عن الإدراك. «ومظهر الأنوار» أي محل ظهور الأنوار الحسية والمعنوية، كما تقدم في حديث جابر. «ومركز مدار الجلال» عبارة عن العظمة والكبرياء، فقد شبه تجلي الجلال بفلك يدور حول مركزه.

«وقطب فلك الجمال» وهو عبارة عن تجلي الحق بالرحمة واللطف والإحسان والمعنى المراد هنا أن المصطفى ﷺ جعله الله مهبطاً للتجلي الجلالي والجمالي، فكل جلال في الخلق واصل من جلاله، وكل جمال في الخلق واصل من جماله ﷺ، «اللهم بسره لديك وبسيره إليك آمن خوفي، وأقل عثرتي، وأذهب حزني وحرصي، وكن لي، وخذني إليك مني، وارزقني الفناء عني، ولا تجعلني مفتوناً بنفسي محجوباً بحسي، واكشف لي عن سر كل مكتوم يا حي يا قيوم».

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على صلاة بعض العارفين التي وجدت على حجر بخط القدرة المسماة صلاة نور القيامة، لكثرة ما يحصل لذاكرها من الأنوار في ذلك اليوم، وهي «اللهم صلّ على سيدنا محمد بحر أنوارك» من إضافة المشبه به للمشبه، أي أنوارك التي هي كالبحر، فجميع الخلائق تقتبس من أنواره ﷺ كما يغترفون من البحر. قال البوصيري رحمه الله تعالى:

أنت مصباح كل فضل فما تصـ ـدر إلا عن ضوئك الأضواء

«ومعدن أسرارك ولسان حجتك وعروس مملكتك» أي مزين ملكك دنيا وأخرى. «وأمام حضرتك» أي أمام أهل حضرتك من الملائكة والأنبياء والأولياء. «وطراز ملكك» أي

مزينة كما يزين الطراز الثوب. «وخزائن رحمتك» أي إنعاماتك دنيا وأخرى، فمفاتيحها بيده ﷺ. «وطريق شريعتك المتلذذ بتوحيدك» أي ما جعلت لذته إلا في ذكرك وشكرك وشهودك. ومن هنا قال ﷺ: **«جعلت قرة عيني في الصلاة، ولي وقت لا يسعني فيه غير ربي»**(١) «إنسان عين الوجود» المعنى أن الوجود لولاه ﷺ لا تصف بالعمى. والمراد به العدم لما في الحديث: **«لولاك ما خلقت سماء ولا أرضاً ولا جناً ولا ملكاً»**(٢) قال البوصيري رحمه الله تعالى:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

ولذلك قال: «والسبب في كل موجود» أي هو ﷺ المادة لكل موجود، لأنهم مخلوقون من نوره كما تقدم في حديث جابر «عين أعيان خلقك» أي خير أخيار مخلوقاتك، فهو ﷺ خيار الخيار، ويشهد له قوله ﷺ: **«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم. فأنا خِيار من خِيار من خِيار»**(٣) «المتقدم من نور ضيائك» أي من نورك الذي خلقته بلا واسطة، والنور والضياء بمعنى واحد، فالإضافة بيانية، «صلاة تدوم بدوامك وتبقى ببقائك، لا منتهى لها دون علمك. صلاة ترضيك وترضيه، وترضى بها عنا، يا رب العالمين».

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على صلاة سيدي محمد البكري الكبير، المسماة صلاة الفاتح التي لها فضائل عظيمة جداً وهي: «اللهم صل وسلم، وبارك على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق» أي أنه ﷺ فتح ما كان غير مفتوح من الشرائع، لأن رسالته كانت بعد الفترة زمن الجاهلية، وفتح الله به على عباده أنواع الخيرات وأبواب السعادات الدنيوية والأخروية، فكل الأرزاق من كفه.

وفي الحديث **«أوتيت مفاتيح خزائن السموات والأرض»**(٤). أي التي قال الله تعالى فيها: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣] أي مفاتيحها، فقد أعطاها عز وجل لحبيبه ﷺ.

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣: ١٢٨). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٥٥٢).
(٢) رواه علي القاري في الأسرار المرفوعة (٢٩٥).
(٣) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٢٧٧).
(٤) رواه مسلم في الصحيح (الفضائل ١). والترمذي في السنن (٦: ٣٦). وابن أحمد في المسند (٤: ١٠٧). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٨٩).

وفي الحديث أيضاً «الله معط وأنا القاسم»[1] أو المعنى أن الله فتح بهﷺ باب الوجود، فهو أول صادر من الله تعالى، ولولاه لم يخلق شيء والعميم أولى.

«والخاتم لما سبق» من النبوة والرسالة، فإنه لا نبي بعده ولا رسول يجدد شريعته، وعيسى عليه الصلاة والسلام إذا نزل من السماء يكون على شريعة نبيناﷺ ومن أمته، كما أن الخضر وإلياس يعبدان الله بشريعته ومن أمته. «والناصر الحق بالحق» أي ناصر الدين الثابت عند الله الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] أي أنه في نصره لدينه ﷺ ملازم للحق ودائر معه، ومقوي الدين الحق بالحجج الحقة، وبالقتال الحق المأمور به من حضرة الله أو المراد بالحق الثاني هو الله تعالى، لأنه اسم من أسمائه، فيكون المعنى المؤيد الدين بربه تعالى ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] «والهادي إلى صراطك المستقيم ﷺ، وعلى آله وأصحابه حق قدره ومقداره العظيم».

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على صلاة القطب الشهير، سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه المسماة صلاة النور الذاتي، الواحدة منها بمائة ألف صلاة، وعدتها خمسمائة لتفريج الكرب، وهي «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النور الذاتي» أي نور ذات الله، أي الذي خلقه الله تعالى بلا مادة، لأنه ﷺ مفتاح الوجود، ومادة لكل موجود.

«والسر الساري في سائر الأسماء والصفات» أي أسماء الخلق باعتبار مسمياتها وصفاتهم، فيكون المعنى الممد لجميع ذوات الخلائق وصفاتهم، ويحتمل أن المراد أسماء الله تعالى وصفاته، ومعناه أنه مهبط التجلي للأسماء والصفات، فلا يستمد من اسم من أسمائه تعالى ولا صفة من صفاته إلا بواسطته ﷺ فكل من المعنيين صحيح، والأولى التعميم، أي هو ﷺ ممد لجميع ذوات الخلق وصفاتهم دنيا وأخرى، بواسطة أنه مهبط لتجلي أسماء الله تعالى وصفاته.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على هذه الصلاة: «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله، صلاة تليق بجماله وجلاله وكماله» إنه ﷺ احتوى على صفات جمالية

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٩٤). وفيه: «مفاتيح الأرض».

ظاهرة وباطنة لا تدخل تحت حصر وصفات جلالية كذلك. وقد تبحر في ذلك العارفون قديماً وحديثاً، كحسان وكعب من الصحابة، والبوصيري والبرعي، ولم يقفوا له ﷺ على حد وبالجملة، فيكفينا في جماله وجلاله قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وتفصيل ذلك تعجز القوى عن إدراكه. قال البوصيري: وكيف يدرك في الدنيا حقيقته قوم نيام تسلوا عنه بالحلم.

فغاية ما نعلم أن نقول كما قال: فمبلغ العلم فيه أنه بشر. وأنه خير خلق الله كلهم. والكمال كناية عن جميع الأخلاق ظاهرها وباطنها، جليلها وجميلها، فلذلك كان عطفه على ما قبله من عطف العام على الخاص.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على الصلاة الآتية وهي: «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله، وأذقنا بالصلاة عليه ولذة وصاله» أي قربه بسبب زوال الحجب بيننا وبينه، فإن شهود رسول الله ﷺ هو الغاية القصوى لأهل الله، ولذلك قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: «لو غاب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين» وقال البوصيري رحمه الله تعالى:

ليته خصني برؤية وجه	زال عن كل من يراه الشقاء

وقال ابن الفارض، نفعنا الله به:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة	سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقال ابن الرفاعي قدس الله سره:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها	تقبل الأرض عني فهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت	فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وقد قال هذين البيتين وهو واقف قبالة شباك المواجهة في ملأ من الناس، فخرجت له اليد الشريفة من القبر الشريف وقبلها.

وروى صاحب الدلائل أنه قيل لرسول الله ﷺ: من القوي في الإيمان بك؟ فقال: **«من آمن بي ولم يرني، فإنه مؤمن بي على شوق مني وصدق في محبتي، وعلامة ذلك أنه يود رؤيتي بجميع ما يملك»**. وفي رواية **«بملء الأرض ذهباً، ذلك المؤمن بي حقاً والمخلص في محبتي صدقاً»**.

وقيل لرسول الله ﷺ: أرأيت صلاة المصلين عليك ممن غاب عنك وممن يأتي بعدك ما حالها عندك؟ فقال: «**اسمع صلاة أهل محبتي وأعرفهم، وتعرض عليّ صلاة غيرهم عرضاً**».

وقال العارف بالله تعالى، سيدي علي وفا، رضي الله عنه:

قد كنت أحسب أن وصلك يشترى بكرائم الأموال والأشباح
وظننت جهلاً أن حبك هين تفنى عليه نفائس الأرواح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من أحببته بلطائف الأمناح
فعلمت أنك لا تنال بحيلة ولويت رأسي تحت طي جناحي
وجعلت في عش الغرام إقامتي فيه غدوي دائماً ورواحي

ومعلوم أن من ذاق لذة وصال المصطفى ذاق لذة وسال ربه، لأن الحضرة واحدة، ومن بلغ الوسيلة شهد المقصد، ومن فرق بين الوصالين لم يذق للمعرفة طعماً، وإنما العارفون تنافسوا في محبة الله ورسوله، فمنهم من طلب الوصال بالتغزل في الوسيلة كاليرعي والبوصيري، ومنهم من طلبه بالتغزل في المقصد كابن الفارض وأمثاله، ومنهم من تغزل في المقامين كسيدي علي وفا؛ ومقصد الجميع واحد.

ولما كان من أعظم أسباب الوصل التعلق بصفات الحبيب وبكثرة الصلاة عليه حتى يصير خياله بين عينيه أينما كان، وضع صاحب دلائل الخيرات صورة الروضة الشريفة، لينظر فيها البعيد عنها عند صلاته على الحبيب فينتقل منها إلى تصور من فيها، فإذا كرر ذلك مع كثرة الصلاة صار له المخيل محسوساً وهو المقصود، ولذلك أشار بعضهم بقوله:

فروضتك الحسنا مناي وبغيتي وفيها شفا قلبي وروحي وراحتي
فإن بعدت عني وشط مزارها فتمثالها عندي بأحسن صورة
وها أنا يا خير النبيين كلهم أقبلها شوقاً لأطفئ غلتي

وقال بعضهم في ذلك المعنى أيضاً:

إذا ما الشوق أقلقني إليها ولم أظفر بمطلوبي لديها
نقشت مثالها في الكف نقشاً وقلت لناظري قصراً عليها

وليس مقصود العارفين بكثرة الصلاة على النبي ﷺ حصول الثواب لهم أو نفعه بذلك، وإن كان ذلك حاصلاً في نفس الأمر.

قال العارف بالله الدمرداشي رضي الله عنه:

ليس قصدي من الجنان نعيماً غير أني أريدها لأراكا

وقال سيدي عمر بن الفارض، نفعنا الله به حين كشف له عن الجنة، وما أعد له فيها:

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي

ولم يقل هنا ثلاثاً إشارة لعظم فضلها، وأنها فريدة عديمة المثيل. ثم شرع في صيغة الطب الظاهري والباطني، تقرأ ألفين على أي مرض؛ وقيل أربعمائة فيشفى بإذن الله تعالى.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على هذه الصلاة: «اللهم صل على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها، وعافية الأبدان وشفائها» طب القلوب من الأمراض الحسية والمعنوية، كالكبر والعجب والحقد والحسد والشك والشرك وغير ذلك... وعافية الأبدان كذلك من الأمراض الحسية والمعنوية أيضاً؛ فالمعنوية في البدن كالمعاصي الظاهرية التي تباشر بالأعضاء، فهو ﷺ معاف لأحبابه منها.

«ونور الأبصار وضيائها وعلى آله وصحبه وسلم» أي منور ومزيل غشاوتها الحسية والمعنوية؛ ومعنى الجميع أن الله تعالى أجرى على يده ﷺ دفع المضار الظاهرية والباطنية، الدينية والدنيوية، كما أجرى على يده المنافع كذلك، وهو معنى تصريف الله له ﷺ في الدنيا والأخرى، على حد قوله تعالى في حق عيسى عليه السلام ﴿ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ﴾ [المائدة: ١١٠] فما ثبت لعيسى عليه السلام، فهو لنبينا ﷺ وزيادة.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

قوله في شرحه المذكور، عند الكلام على صلاة العالي القدر، التي قال السيوطي: من لازم عليها كل ليلة جمعة ولو مرة لم يلحده في قبره إلا النبي ﷺ، وهي: «اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي، الحبيب العالي القدر، العظيم الجاه، وعلى آله وصحبه وسلم. الأمي نسبة للأم، هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهذا وصف كمال في حقه ﷺ وفي حق غيره وصف نقص، وإنما جعله الله أمياً لدفع شبه الكافرين القائلين: إنما يعلمه بشر.

قال البوصيري رضي الله عنه:

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

وقيل نسبة لأم القرى، وهي مكة لأنه صلى الله عليه وسلم نشأ فيها، فإنه ولد في شعب أبي طالب يوم الإثنين، لاثني عشر خلت من ربيع الأول بعد قدوم الفيل بخمسين يوماً.

وقيل غير ذلك. وبعث بها ﷺ على رأس الأربعين، وأقام بها بعد ذلك ثلاث عشر سنة، ثم هاجر إلى المدينة المشرفة، ومكث فيها عشر سنين، وتوفي ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة بعد النصر والفتح المبين، ودفن في بيت عائشة في المكان الذي مات فيه.

وكانت وفاته يوم الإثنين، ودفن ليلة الأربعاء من ربيع الأول، وله صلى الله عليه وسلم أسماء كثيرة أنهاها بعضهم إلى ألف. وقد ورد في الحديث: توسلوا بجاهي، فإن جاهي عند الله عظيم».

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

ما ذكره في شرحه المذكور، عند الكلام على صيغة الطاهر المطهر، التي من لازم قراءتها جوزي بالطهارة، وهي «اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي، الطاهر المطهر، وعلى آله وصحبه وسلم» معنى الطاهر المنزه عن الأدناس الحسية والمعنوية.

وقد نص العلماء على طهارة النطفة التي تكون منها المصطفى ﷺ وأخرجوها عن الخلاف الذي في طهارة المني؛ كما أن جسده الشريف طاهر بعد الموت بالإجماع كأجساد الأنبياء، فهم مستثنون من الخلاف في طهارة الآدمي بعد الموت، ونصوا على طهارة جميع فضلاتهم الخارجية منهم في الحياة وبعد الممات.

وقوله: المطهر بمعنى الطاهر، إذا قرئ اسم مفعول: وإن قرئ اسم فاعل كان مغايراً، ويكون المعنى مطهراً لغيره، فهو ﷺ كالماء المطلق طاهر في نفسه مطهر لغيره من كل شين دنيوي أو أخروي.

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

ما ذكره في شرحه المذكور، عند الكلام على صيغة ذات المناقب الفاخرة، وهي: «اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ذي المعجزات الباهرة» أي الظاهرة أو القاطعة الحجج المعارضين.

قال صاحب الجوهرة رضي الله عنه: ومعجزاته كثيرة غرر، منها كلام الله معجز البشر، أي ومنها انشقاق القمر له فلقتين في السماء متباعدتين، بحيث كانت كل واحدة فوق جبل. قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

ومنها تسبيح الجماد في كفه ﷺ لما ورد أنه قبض على حصيات في كفه، فسبحن حتى

سمع لهن حنين كحنين النحل، ثم ناولهن عمر فسبحن، ثم ناولهن عثمان فسبحن، ثم وضعهن على الأرض فخرسن، ففي ذلك كرامة للصحابة أيضاً.

ومنها: نطق الحيوانات كالضب والظبية والبعير، لما روى أحمد والنسائي من حديث أنس أنه ﷺ دخل حائطاً لأنصاري وفيه جمل استصعب على أهله ومنعهم ظهره، فمشى رسول الله ﷺ نحوه، فقال الأنصاري: يارسول الله، قد صار مثل الكلب الكلب، وإنا نخاف عليك صولته، فقال رسول الله ﷺ: «ليس علي منه بأس»(١).

فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ خر ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته وأدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل. ونحن نعقل، فنحن أحق بالسجود لك. فقال ﷺ: **«لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر»**(٢). الحديث.

وروى البيهقي والقاضي في الشفاء: أن رسول الله ﷺ كان في محفل من أصحابه، إذ جاء أعرابي من بني سليم قد صاد ضباً جعله في كمه ليذهب إلى رحله، فيشويه ويأكله. فلما رأى الجماعة، قال: من هذا؟ قالوا نبي الله. فأخرج الضب من كمه، وقال: واللات والعزى، لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب. وطرحه بين يدي رسول الله، فناداه النبي ﷺ فأجابه بلسان يسمعه القوم جميعاً: لبيك وسعديك، يا زين من وافى القيامة، قال: **«من تعبد؟»** قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عقابه، قال: **«فمن أنا؟»**(٣) قال: رسول رب العالمين، وخاتم النبيين. قد أفلح من صدقك، وخاب من كذبك. فأسلم الأعرابي.

وروى الحافظ، عبد العظيم المنذري، في كتابه «الترغيب والترهيب»: بينما رسول الله ﷺ في صحراء، إذ بهاتف يهتف: يارسول الله ثلاث مرات. فالتفت، فإذا ظبية مشدودة في وثاق، وأعرابي نائم عندها. فقال لها: **«ما حاجتك؟»** قالت: صادني هذا الأعرابي، ولي خشفان أي ولدان، في ذلك الجبل، فأطلقني حتى أذهب فأرضعهما وآتي. قال: **«وتفعلين؟»** قالت: عذبني الله عذاب العشار ـ أي المكاس ـ إن لم أعد. فأطلقها، فذهبت ورجعت، فأوثقها ﷺ فانتبه الأعرابي، فقال: يا رسول الله ألك حاجة؟ قال: **«تطلق**

---

(١) رواه أحمد في المسند (٣: ١٥٩). والهيثمي في مجمع الزوائد (٩: ٤). والسيوطي في الدر المنثور (٢: ١٥٤).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣: ١٥٠). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢: ٢٠٦).

(٣) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ٢٩٢).

هذه الظبية»[١] فأطلقها فخرجت تعدو في الصحراء، وتضرب برجلها الأرض، وتقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وتعداد معجزاته ﷺ لا تحيط بها الصحائف. قال البوصيري رضي الله عنه:

إن من معجزاتك العجز عن وصـ ـفـك إذ لا يحـده الإحصـاء
كيـف يستـوعـب الكـلام سجـا يـاك وهـل تنـزح البحـار الـدلاء

«وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد ذي المناقب الفاخرة» المناقب: الكمالات ضد المثالب، والفاخرة العظيمة التي يفتخر بها دنيا وأخرى، لقوله تعالى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١] وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١]. وقال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥]. وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»[٢]. أي لا فخر أعظم من هذا. أو المعنى، ولا أقوله فخراً مغضباً لربي، بل تحدثا بنعمة ربي كما أمرني.

وهذه الكمالات ترجع إلى كمال صورته وكمال معناه ﷺ وهو غاية لا تدرك، كما قال البوصيري رضي الله عنه:

ليـس مـن غـايـة لـوصفـك أبغيـ ـهـا وللقـول غـايـة وانتهـاء
إنمـا فضلـك الـزمـان وآيـا تـك فيمـا نعـده الآنـاء

«وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد في الدنيا والآخرة، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وخلقنا بأخلاقه الطاهرة»

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

ما ذكره في شرحه المذكور، عند الكلام على الصلاة الآتية، وهي: «اللهم صل وسلم على سيدنا محمد الصادق الأمين» أي المعصوم من الخيانة في ظاهره وباطنه قبل النبوة وبعدها، ولذلك كان مسمى بهذين الاسمين من قبل البعثة. «وصل وسلم على سيدنا محمد الذي جاء بالحق المبين» أي الظاهر الواضح، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦] وفي الحديث: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ونهارها كليلها، لا يضل عنها إلا هالك»[٣]، وفي الحديث أيضاً: «الحلال بيّن والحرام بيّن»[٤].

---

(١) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٩٥). والقاضي عِياض في كتاب الشفا (١: ٦٠٣).
(٢) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ٥٧٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٠٤٠).
(٣) رواه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١: ١٨٢).
(٤) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٤: ٧٤).

«وصل وسلم على سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين» حتى للكفار بتأخير العذاب عنهم، وللمنافقين بالأمان. وفي الحديث: «أنا رحمة مهداة»[(١)] قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] فأمنت الدنيا من الخسف والمسخ ومن كل عذاب عام من أجل كونه ﷺ فيها إلى يوم القيامة «وصل وسلم على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آلهم وصحبهم أجمعين، كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرهم الغافلون».

ومن جواهر العارف الصاوي أيضاً

[الكلام على زيادة لفظ سيدنا في الصلاة عليه ﷺ].

قوله في أوائل شرحه المذكور، عند الكلام على الصلاة الإبراهيمية في المسبعات العشر، وهي: اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين. إنك حميد مجيد» فمعنى اللهم يا الله الجامع لجميع الأسماء والصفات.

وقوله: صل أي اجعل رحمتك المقرونة بالتعظيم والتكريم والتفخيم دائمة عليه بين أهل الدنيا والآخرة، في العالم العلوي والسفلي، نازلة عليه من سماء علاك.

ولما أمر الله عباده بالصلاة عليه، ولا قدرة لهم على جلب خير لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، كفى في خروجهم من عهدة التكليف طلبهم من الله أن يصلي عليه، فلذلك كانت الصلاة من الله أنعامه، ومن غيره الطلب من الله. ويشرفون بذلك في الدنيا والآخرة فضلاً من الله ونعمة على عباده.

وقوله: محمد هو علم على ذاته ﷺ وخص من بين الأسماء لأنه أشرفها وأعظمها، ولذلك قرن بكلمة التوحيد، وهو منقول من اسم مفعول الفعل المضعف، وهو أبلغ جميع الأسماء التي اشتقت من هذه المادة، لأن المحمد في اللغة هو الذي يحمد حمداً بعد حمد، لأن الصيغة تقتضي التكرار، فهو اسم مطابق لذاته، ومعناه أنه ذاته محمودة على ألسنة العالم من كل الوجوه حقيقة وأوصافاً وأخلاقاً وأعمالاً وأحوالاً وعلوماً وأحكاماً... فهو محمد في الأرض والسماء والدنيا والآخرة، فهو ﷺ خير من حمد، وأفضل من حمد. وكيف لا ولواء الحمد بيده، وهو صاحب المقام المحمود.

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٩٥). والقرطبي في التفسير (٤ : ٦٣).

وقد سماه الله بهذا الاسم قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، وقد سماه به جده عبد المطلب بسبب رؤيا كان رآها في المنام، كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف بالأرض وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، فإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها. فقصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتعلق به أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض.

وقد سمعت أمه قائلاً يقول لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعته فسميه محمداً. وآله ﷺ هم الذين حرمت عليهم الزكاة. وهنا سؤال، وهو إن المشبه بالشيء لا يكون أعلى بل أدنى أو مساوياً، ومن المقرر أن الصلاة على نبينا أفضل. وقد أجابوا عن ذلك بأجوبة كثيرة، ومنها: أن القاعدة أغلبية كما في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥] الآية، ومنها: إنما قيل ذلك لتقدم الصلاة على إبراهيم عليه السلام أي كما تقدمت منك الصلاة على إبراهيم، فصل على محمد بطريق الأولى.

والتشبيه إنما هو لأصل الصلاة بأصل الصلاة، لا للقدر بالقدر، فهو كقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النساء: ١٦٣] وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

ومنها: أنه قال ذلك تواضعاً، وشرعه لأمته ليكتسبوا بذلك الفضل والثواب... وغير ذلك من الأجوبة التي ذكرها شراح الدلائل، والمراد بآل إبراهيم أتباعه وذريته المؤمنون، أنبياء وغيرهم، فيشمل أولاد صلبه وجميع أنبياء بني إسرائيل؛ وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]. ومعنى بارك: أفض خيرات الدارين، وأدم ما أعطيته من التشريف والكرامة، وأدم ذكره وشريعته لأن البركة هي زيادة الخير في الشيء ومعنى في العالمين اجعل الصلاة منتشرة عليه في جميع الخلق كما جعلتها على إبراهيم وحميد، فعيل بمعنى مفعول، أي محمود لأن عباده حمدوه، أو بمعنى فاعل أي حامد لأنه الحامد لنفسه وللمطيعين من عباده.

ومجيد من المجد، وهو الشرف والرفعة وكرم الذات والفعال، والمعنى إنك أهل الحمد والفعل الجميل والأفضال، فأعطنا سؤلنا، وهذه الصيغة أخرج حديثها مالك في الموطأ، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي مسعود الأنصاري البدري رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال بشير ابن سعد: أمرنا الله أن نصلي عليك يارسول الله، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، حتى

تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال تلك الصيغة، وقد وردت بأوجه مختلفة كما ذكرها صاحب الدلائل، وتسمى الإبراهيمية، وليس فيها لفظ سيادة فمن أراد الاقتصار على الوارد تركها، وهو الأولى عند مالك وأصحابه.

وروى البخاري في كتبه أنه ﷺ قال: **«من قال هذه الصلاة شهدت له يوم القيامة بالشهادة، وشفعت له»**. وهو حديث حسن، ورجاله رجال الصحيح. وذكر بعضهم أن قراءتها ألف مرة توجب رؤية النبي ﷺ: انتهى. كلام العارف الصاوي.

يقول جامعه الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه قوله وهو يعني ترك السيادة الأولى عند مالك وأصحابه. هذه مسألة مهمة، وقد أشبعت فيها الكلام في كتابي «سعادة الدارين».

وبنقله هنا يعلم أن الذي استقر عليه الأمر عند علماء المذاهب، ولاسيما الشافعية والمالكية والحنفية ـ رضي الله عنهم ـ استحسان زيادة لفظ السيادة على كل حال. وهذه عبارتي فيه.

«الكلام على زيادة لفظ سيدنا في الصلاة عليه ﷺ» قال في القول البديع: ذكر المجد اللغوي ما حاصله أن كثيراً من الناس يقولون «اللهم صل على سيدنا محمد» وإن في ذلك بحثاً. أما في الصلاة فالظاهر أنه لا يقال اتباعاً للفظ المأثور ووقوفاً عند الخبر الصحيح، وأما في غير الصلاة فقد أنكر ﷺ على من خاطبه بذلك، كما في الحديث المشهور. وإنكاره يحتمل أن يكون تواضعاً منه ـ ﷺ ـ أو كراهية منه أن يحمد ويمدح مشافهة، أو لغير ذلك. . . وإلا فقد صح قوله ـ ﷺ ـ: **«أنا سيد ولد آدم»**. وقوله للحسن. **«إن ابني هذا سيد»**[1]. وقوله لسعد. **«قوموا إلى سيدكم»** وورد قول سهل بن حنيف للنبي ـ ﷺ ـ: **«يا سيدي»**، في حديث عند النسائي في عمل اليوم والليلة، وقول ابن مسعود «اللهم صل على سيد المرسلين». وفي كل هذا دلالة واضحة وبراهين لائحة على جواز ذلك، والمانع يحتاج إلى إقامة دليل سوى ما تقدم، لأنه لا ينهض دليلا مع حكاية الاحتمالات المتقدمة.

وقد قال الأسنوي رحمه الله في المهمات في حفظي قديماً إن الشيخ عز الدين بن عبد السلام بناه، أعني الإتيان بسيدنا قبل محمد في التشهد، على أن الأفضل هل هو سلوك الأدب أو متثال الأمر، فعلى الأول مستحب دون الثاني، لقوله ﷺ: **«اللهم صل على محمد»**. ثم قال الحافظ السخاري: وقول المصلين «اللهم صل على سيدنا محمد» فيه الإتيان بما أمرنا به وزيادة الأخبار بالواقع الذي هو أدب، فهو أفضل من تركه فيما يظهر من الحديث

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٧٦٥٤).

السابق، يعني ما ورد عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً، وهو أصح «أحسنوا الصلاة على نبيكم».

واتفق الإمامان الشمس والرملي والشهاب بن حجر على استحباب زيادة السيادة في الصلاة على النبي ﷺ في التشهد وغيره.

وقال الشيخ محمد الفاسي في شرح دلائل الخيرات.

«الصحيح جواز الإتيان بلفظ السيد والمولى ونحوهما، مما يقتضي التشريف والتوقير والتعظيم في الصلاة على سيدنا محمد - ﷺ - وإيثار ذلك على تركه.

ويقال في الصلاة وغيرها إلا حيث تعبد بلفظ ماروى، فيقتصر على ما تعبد به» أو في الرواية «فيؤتى بها على وجهها» قال البرزلي: ولا خلاف أن كل ما يقتضي التشريف والتوقير والتعظيم في حقه ﷺ أنه يقال بألفاظ مختلفة، حتى بلغها ابن العربي مائة فأكثر. وقال صاحب مفتاح الفلاح، وإياك أن تترك لفظ السيادة، ففيه سر يظهر لمن لازم هذه العبادة».

وسئل السيوطي عن حديث: «لا تسيدوني في الصلاة»[1] فأجاب بأنه لم يرد ذلك. قال: وإنما لم يتلفظ - ﷺ - بلفظ السيادة حين تعليمهم كيفية الصلاة عليه ﷺ لكراهيته الفخر. ولهذا قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

وأما نحن فيجب علينا تعظيمه وتوقيره، ولهذا أنهانا الله تعالى أن نناديه ﷺ باسمه فقال: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣] وقال الشيخ الحطاب: الذي يظهر لي، وأفعله في الصلاة وغيرها الإتيان بلفظ السيد.

قال: والذي جرى عليه عمل الأمة زيادة السيادة في غير الوارد، وتركها فيما ورد اتباعاً للفظه، وفراراً من الزيادة فيه لكونه خرج مخرج التعليم، ووقوفاً عندما حد لهم وكذا قال سيدي أحمد رزوق، ثم قال الحطاب: «وعلى هذا درج صاحب دلائل الخيرات رضي الله تعالى عنه فإنه أثبت اللفظ الوارد من غير زيادة سيادة، وزادها في غير الوارد.

لكن هذا بحسب الوضع في الخط، أما من حيث الأداء فالأولى أن لا تعرى عنها في الوارد وغيره، ملخصاً من كنوز الأسرار للهاروشي وكتاب الرماح لعمر الفوتي. قال صاحب كنوز الأسرار بعد ذكره ما تقدم عن الحطاب: وسئل شيخنا العياشي - حفظه الله تعالى - عن زيادة السيادة في الصلاة على النبي - ﷺ - فقال: السيادة عبادة، قال: قلت: وهو بين لأن

---

(١) رواه البغوي في شرح السنة (٣٨١). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٣٨١).

المصلي إنما يقصد بصلاته تعظيمه ﷺ فلا معنى حينئذٍ لترك التسييد إذ هو عين التعظيم.

قال ابن حجر في الدر المنضود: في زيادة سيدنا قبل محمد خلاف، فأما في الصلاة فقال المجد اللغوي الظاهر أنه لا يقال اقتصاراً على الوارد، وقال الأسنوي في حفظي أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام بناه على أن الأفضل امتثال الأمر أو سلوك الأدب، فعلى الثاني يستحب قال: وهذا هو الذي ملت إليه في شرح الإرشاد وغيره، لأنه ﷺ لما جاء وأبو بكر يوم الناس، فتأخر أمره أن يثبت مكانه، فلم يمتثل، ثم سأله بعد الفراغ عن ذلك فأبدى له أنه إنما فعله تأدباً لقوله: «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله».

فأقره النبي ﷺ على ذلك. وهذا فيه دليل أي دليل على أن سلوك الأدب أولى من امتثال الأمر إذا علم عدم الجزم بقضيته، ثم رأيت عن ابن تيمية أنه أفتى بتركها وأطال فيه، وأن بعض الشافعية والحنفية ردوا عليه وأطالوا في التشنيع عليه وهو حقيق بذلك وورد عن ابن مسعود مرفوعاً وموقوفاً ، وهو أصلح: «حسنوا الصلاة على نبيكم» وذكر الكيفية، وقال فيها على سيد المرسلين، وهو شامل للصلاة وخارجها.

وعن المحقق الجلال المحلي أنه قال: الأدب مع من ذكره ﷺ مطلوب شرعاً بذكر السيد، ففي حديث الصحيحين: «قوموا إلى سيدكم» أي سعد بن معاذ وسيادته بالعلم والدين. وقول المصلي: اللهم صل على سيدنا محمد، فيه الإتيان بما أمرنا به وزيادة الأخبار بالواقع الذي هو أدب، فهو أفضل من تركه فيما يظهر من الحديث السابق. انتهى كلام ابن حجر.

قلت ومما يستدل به لذلك ما حكاه في آخر الكتاب المذكور، في معرض تحريم ندائه ﷺ باسمه وكنيته عن قتادة أنه قال: أمر الله تعالى أن يهاب نبيه، وأن يبجل ويعظم، وأن يسود. والحق أن تسييده حسن في كل حال ﷺ.

ومنهم العارف بالله القطب الكبير الشهير سيدي أحمد بن إدريس[1] رضي الله عنه

ومن جواهره

[العقد النفيس]

ما في كتاب العقد النفيس لأحد أصحابه، ونص عبارته: سئل رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩] فأجاب: إن لها تفسيرين، أحدهما أن اليقين هو الموت وهو الظاهر، فتكون حتى للغاية، الثاني أن اليقين هو أن يرى الشيء عياناً، ألا ترى أن الواصف إذا وصف لك شيئاً، وإن كنت معتقداً اعتقاداً صحيحاً لا يختلجك شك ولا ريب عندك أنه صادق فيما وصف، لكنك لم تر ذلك الموصوف، فأنت لا تزال تتخيل هذا الموصوف وتتصوره.

ومعلوم قطعاً أن تخيلك وتصورك لهذا الشيء الذي لم تره لا يطابق حقيقته، كمن يصف لك مكة مثلا وأنت لا تعرفها، وتصورها تصويراً لا يطابق ماإذا رأيتها عياناً. فإذا رأى الإنسان حقيقة الأمر آمن به وهو يشاهده، وإذا آمن بما وصفه الواصف من دون مشاهدة فهو مؤمن بالغيب.

والمؤمن إذا عبد الله حق عبادته بقدر استطاعته، عرفه الله سبحانه وتعالى؛ وإذا عرفه فلا يشهد سواه، حتى أنه يحول بينه وبين قلبه، أي إذا رأى قلبه بعين البصيرة، وجد الله حائلا ما بينه وبين قلبه.

وبهذه المعرفة تنال المعارف الإلهية التي من لدنه تبارك وتعالى؛ وكلما صفا صوفي صفا قلبه، فقربت منه أشكال المعارف.

ألا ترى أن الزجاج أصله حجر كثيف، ثم لما صفا وزالت عنه الكدورات قرب الأشخاص البعيدة، فإن الناظور يقرب الشيء البعيد، حتى إن مازادت تصفيته يقرأ الإنسان به

---

(١) أحمد ابن إدريس بن عبد الرحمٰن أبو العباس مصري المولد والوفاة ولد سنة ٦٧٤ هـ، وهو الملقب بالعراقي.

مكتوباً من مسافة بريد؛ كذلك المنظرة تقرب الشمس من مسيرة أربعة آلاف عام، حتى تحرق ما وقعت عليه.

وهذا أعظم من آصف بن برخيا، فإنه أتى بعرش بلقيس من مسافة ثلاثة أشهر، قبل أن يرتد الطرف. وهذه أتت بالشمس من مسافة أربعة آلاف سنة قبل ارتداد الطرف، فإنك إذا ركبتها على شيء أحرقته بمجرد وقوعها عليه، فالنبي ﷺ هو عين الوجود وواسطة عقده، أخذ من أنوار الحق تعالى بقدر صفوه. فالآخذ من الله تعالى بواسطته ﷺ وله المثل الأعلى ولرسوله، هو في القوة كآخذ الضوء من الشمس بواسطة الزجاجة، وهذا تشريف لهذه الأمة وأيّ تشريف لأنهم الآخذون بواسطته.

والآخذ من الله تعالى من غير واسطته ﷺ كآخذ الشيء من الشمس من دون واسطة الزجاجة، وذلك لأن الرسول ﷺ هو النور الذي قبضه الله من قبضة نوره، قال تعالى: ﴿ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١٥] فالنور هو الرسول ﷺ إذ لو كان النور هو الكتاب، لكان لفظاً متكرراً. والحق تعالى هو سمعه وبصره وقلبه إلى آخره، فكله ﷺ نور، مع أنه متحيز في بشريته وفي عبوديته.

والحق تعالى مطلق في كبريائه وفي ملكوته، وهو الله في السموات وفي الأرض، في حال كونه على العرش استوى، في حال كونه قلب عبده المؤمن وبصره وسمعه سبحانه، فلرسول الله ﷺ وجهتان: وجهة إلى الحق تعالى، وهو المقام الذي قال الله تعالى فيه ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢] فأعاد الضمير بصيغة الإفراد، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥] ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفتح: ٩] فأعاد الضمير بصيغة الإفراد، وقال ﷺ في هذا المعنى: **«من رآني فقد رأى الحق تعالى»**[1].

وقال ﷺ: **«إن لي وقتاً لا يسعني فيه إلا ربي»**، ولذا قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥] فالحجاب المستور هو كونهم ما رأوا فيه إلا البشرية والعبودية، إذ لو صدقوه لرأوا ما رأى الذين قال تعالى في حقهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح: ١٠] فهو ﷺ أقرب الكون إلى الله، بل فوق العرش الحجب سبعون حجاباً، ما بين كل حجاب وحجاب مسافة سبعين ألف سنة، وغلظ كل حجاب سبعون ألف سنة، وفوق ذلك فضاء لا يعلم قدر مسافته إلا الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يقال له

(١) رواه البخاري في الصحيح (٩: ٤٣). وأحمد في المسند (٣: ٥٥).

عالم الرقا، وهو مظاهر أسماء الله، وهو فوق العرش والكرسي، ووراء هذا كله نور سيد الكونين والثقلين، الرسول الخاتم، خاتم الأنبياء والمرسلين، سيد ولد آدم أجمعين. . . ولذا قال ﷺ حين سأله الأعرابي: أين كان الله تعالى قبل أن يخلق الخلق؟ قال: **«كان في عماء بالمد والقصر»**[1].

فازداد السائل حيرة، لأنه إن كان بالمد وهو السحاب الرقيق، فيكون معناه يوم يأتيهم الله في ظل من الغمام، وإن كان بالقصر فهو الغشاوة على القلب أو على العين، فاستفاد السائل هذا العلم من رسول الله ﷺ، وبه ازداد حيرة، فالعلم بالله تعالى كلما زاد زاد صاحبه حيرة وفي هذا المعنى قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: **«لو عرفتم الله حق معرفته، لمشيتم على البحار، ولزالت بدعائكم الجبال. ولو خفتم الله عز وجل حق مخافته، لعلمتم العلم الذي ليس معه جهل، ولكن ما بلغ ذلك أحد»**. قالوا: ولا أنت يارسول الله؟ قال: ولا أنا. قالوا: ما كنا نظن أن الأنبياء تقصر عن ذلك، فإن الله أعظم من أن ينال أحد أمره كله ووراء ذلك ما لا يعلمه إلا الله. ومع هذا، فهو ﷺ في حيرة، ولذا قال: **«رب زدني فيك تحيراً»**. وهو أيضاً مع كونه في مقام الأمن والقرب أخوف الخلق من الله تعالى.

وفي مقام الخوف، قال ﷺ: **«ليت رب محمد لم يخلق محمداً»**. يعني أنه يتمنى أن لو لم يقبض الحق تعالى قبضة من نوره ولتحيز البشرية، بل كانت مطلقة في أصلها.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه «ليت أبا بكر كان شجرة» فعضدها جمل في فيه، فكان بعيراً، ولم يكن بشراً. فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف وله ﷺ وجهة إلى الخلق. قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ [الحجرات: ٧] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥] فقال لتؤمنوا وجعله المرسل والمرسل إليه، وقال ﷺ: **«لا تدخل الشوكة في رجل أحدكم إلا وجدت ألمها»**. فهو ﷺ حقيقة الكون، كما أن الشجرة لها ورق وغصون وفروع وعروق وجذوع وزهر وثمر. . . وحقيقة الكل شجر، فجميع دعائه ﷺ بصيغة الإفراد المراد به أمته، فدعاؤه لنفسه عين دعائه لأمته.

فمن صفا قلبه من أمته ﷺ وتوجه به إلى الله بواسطة رسول الله ﷺ تفجر من قلبه ينابيع الحكمة، وأخذ قلبه أنوار العلم الإلٰهي، فقوى بقوة قابلية الواسطة ﷺ ومن كان كذلك، فهو الوارث الذي قال فيه ﷺ: **«العلماء ورثة الأنبياء»**[2].

---

(١) رواه الخطابي في إصلاح خطأ المحدثين (٢١).

(٢) رواه ابن ماجه في السنن (٢٢٣). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١: ٧١، ٣٣٨، ٤٥٠).

ومنهم الإمام الكبير العارف الشهير، القطب سيدي السيد الشريف أبو العباس[1] التجاني الفاسي، صاحب الطريقة العلية التجانية من أهل القرن الثالث عشر

فمن جواهره رضي الله عنه

[صلاة الفاتح في جواهر المعاني]

ما نقله عند أجل خلفائه، سيدي العلامة الشيخ علي حرازم بن العربي براده الفاسي رحمه الله تعالى في كتابه «جواهر المعاني» الذي ألفه في مناقبه على شكل كتاب الإبريز، وقد طبع في مصر، قال خليفته المذكور في صفحة ١١٣ من الجزء الأول، وسألته رضي الله عنه عن معنى صلاة الفاتح لما أغلق، وهي لسيدي محمد البكري الكبير: «اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم».

فأجاب رضي الله عنه بقوله: معناه الفاتح لما أغلق من صور الأكوان، فإنها كانت مغلقة في حجاب البطون وصورة العدم، وفتحت مغاليقها بسبب وجوده ﷺ، وخرجت من صورة العدم إلى صورة الوجود من حجابية البطون إلى نفسها في عالم الظهور، إذ لولا ما خلق الله موجوداً ولا أخرجه من العدم إلى الوجود.

فهذا أحد معانيه. والثاني أنه فتح مغاليق أبواب الرحمة الإلهية، وبسببه افتحت على الخلق، ولولا أن الله تعالى خلق سيدنا محمداً ﷺ ما رحم مخلوقاً. فالرحمة من الله تعالى لخلقه بسبب نبيه ﷺ والثالث من معانيه هي القلوب أغلقت على الشرك به، ولم يجد الإيمان مدخلا، ففتحت بدعوته ﷺ حتى دخلها الإيمان وطهرها من الشرك، وامتلأت بالإيمان

---

(١) هو أحمد ابن إدريس الحسني أبو العباس صاحب الطريقة الأحمدية المعروفة في المغرب من ذرية الإمام إدريس بن عبد الله المحض مولده في سبور ١١٧٢ هـ ووفاته في اليمن ١٢٥٣ هـ.

والحكمة: وقوله والخاتم لما سبق من النبوة والرسالة، لأنه ختمهما وأغلق بابهما ﷺ فلا مطمع فيهما لغيره، وكذلك الخاتم لما سبق من صور التجليات الإلهية التي تجلى الحق سبحانه وتعالى بصورها في عالم الظهور، لأنه ﷺ أول موجود أوجده الله في العالم من حجاب البطون وصورة العماء الرباني، ثم مازال يبسط صور العالم بعدها في ظهور أجناسها بالترتيب القائم على المشيئة الربانية جنسياً بعد جنس، إلى أن كان آخر ما تجلى به في عالم الظهور الصورة الآدمية على صورته ﷺ وهو المراد في الصورة الآدمية، فكما افتتح به ظهور الوجود، كذلك أغلق به ظهور صور الموجودات ﷺ وعلى آله.

وبعبارة أخرى رضي الله عنه: أول موجود أوجده الله تعالى من حضرة الغيب هو روح سيدنا محمد ﷺ ثم نسل الله أرواح العالم من روحه ﷺ والروح هٰهنا هي الكيفية التي بها مادة الحياة في الأجسام، وخلق من روحه ﷺ الأجسام النورانية كالملائكة ومن ضاهاهم؛ وأما الأجسام الكثيفة الظلمانية فإنما خلقت من النسبة الثانية من روحه ﷺ فإن لروحه ﷺ نسبتان أفاضهما على الوجود كله، فالنسبة الأولى نسبة النور المحض ومنه خلقت الأرواح كلها والأجسام النورانية التي لا ظلمة فيها. والنسبة الثانية من نسبة روحه ﷺ نسبة الظلام، ومن هذه النسبة خلق الأجسام الظلمانية كالشياطين، وسائر الأجسام الكثيفة، والجحيم ودركاتها؛ كما أن الجنة وجميع درجاتها خلقت من نسبة النورانية، فهذه نسبة العالم كله إلى روحه ﷺ.

أما حقيقته المحمدية ﷺ فهي أول موجود أوجده الله تعالى من حضرة الغيب، وليس عند الله من خلقه موجود قبلها. لكن هذه الحقيقة لا تعرف بشيء، وقد تعسف بعض العلماء بالبحث في هذه الحقيقة، فقال: إن هذه الحقيقة ليس معها شيء، فلا تخلوا ما إن تكون جوهراً أو عرضاً؛ فإنها إن كانت جوهراً افتقرت إلى المكان الذي تحل فيه، فلا تستقل بالوجود دونه، فإن وجدت مع مكانها دفعة واحدة، فلا أولية لها، لأنهما اثنان. وإن كانت عرضاً ليست بجوهر فالعرض لا كلام عليه، إذ لا وجود للعرض إلا قدر لمحة العين ثم يزول. فأين الأولية التي قلتم؟ والجواب عن هذا المحط أنها جوهر حقيقة له نسبتان نورانية وظلمانية.

وكونه مفتقراً إلى المحل، لا يصح هذا التحديد لأن هذا التحديد يعتد به من تثبط عقله في مقام الأجسام والتحقيق أن الله تعالى قادر على أن يخلق هذه المخلوقات في غير محل تحل فيه، وكون العقل بقدر استحالة هذا الأمر بعدم الإمكان بوجود الأجسام بلا محل، فإن تلك عادة أجراها الله تعالى تثبط بها العقل، ولم يطلق سراحه في فضاء الحقائق. ولو أطلق سراحه في فضاء الحقائق، لعلم أن الله تعالى قادر على خلق العالم في غير محل، وحيث كان الأمر

كذلك، فالله تعالى خلق الحقيقة المحمدية جوهراً غير مفتقر إلى المحل. ولا شك أن من كشف له عن الحقيقة الإلهية، علم يقيناً قطعياً أن إيجاد العالم في غير محل ممكن إمكاناً صحيحاً. أما الحقيقة المحمدية، فهي في هذه المرتبة لا نعرف ولا ندرك ولا مطمع لأحد في نيلها في هذا الميدان، ثم استأثرت بألباس من الأنوار الإلٰهية واحتجبت بها عن الوجود، فهي في هذا الميدان تسمى روحاً بعد احتجابها بالألباس.

وهذا غاية إدراك النبيين والمرسلين والأقطاب يصلون إلى هذا المحل ويقفون ثم استأثرت بألباس من الأنوار الإلهية أخرى، وبها سميت عقلا، ثم استأثرت بألباس من الأنوار الإلهية أخرى فسميت بسببها قلباً، ثم استأثرت بألباس من الأنوار الإلهية أخرى فسميت بسببها نفساً. ومن بعد هذا ظهر جسده الشريف ﷺ فالأولياء مختلفون في الإدراك لهذه المراتب، فطائفة غاية إدراكهم نفسه ﷺ وفي ذلك علوم وأسرار ومعارف، وطائفة فوقهم غاية إدراكهم قلبه ﷺ. ولهم في ذلك علوم وأسرار ومعارف أخرى، وطائفة فوقهم غاية أدراكهم عقله ﷺ ولهم في ذلك علوم وأسرار ومعارف أخرى؛ وطائفة وهم الأعلون بلغوا الغاية القصوى في الإدراك، فأدركوا مقام روحه ﷺ وهو غاية ما يدرك ولا مطمع لأحد في [إدراك][1] الحقيقة في ماهيتها التي خلقت فيها.

وفي هذا يقول أبو يزيد: «غصت لجة المعارف طالباً للوقوف على عين حقيقة النبي ﷺ فإذا بيني وبينها ألف حجاب من نور، لو دنوت من الحجاب الأول لاحترقت به كما تحترق الشعرة إذا ألقيت في النار». وكذا قال الشيخ مولانا عبد السلام في صلاته: «وله تضاءلت الفهوم، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق».

وفي هذا يقول أو يس القرني رضي الله عنه لسيدنا عمر وسيدنا علي رضي الله عنهما: «لم تريا من رسول الله ﷺ الإ ظله، قال: ولا بن أبي قحافة؟ قال: ولا ابن أبي قحافة. فلعله غاص لجة المعارف طالباً للوقوف على عين الحقيقة المحمدية، فقيل له: هذا أمر عجز عنه أكابر الرسل والنبيين، فلا مطمع لغيرهم فيه والسلام انتهى ما أملاه علينا سيدنا رضي الله عنه.

ومن جواهر العارف التجاني أيضاً

[تفسير قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ. . .﴾]

جوابه رضي الله عنه في صفحة ١٨٠ عن معنى قوله تعالى في حق النبي ﷺ: ﴿مَا كُنتَ

(١) ورد في الأصل: «درك».

تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢] وفي الآية الأخرى ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف:٩] إلى غير ذلك من الآيات التي تحت هذا النحو مع حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من قال إن النبي ﷺ يعلم ما في غد، فقد كفرا.

وما هذا معناه مع أن علم الأولين والآخرين محمول في ذاته الشريفة، وهو الموصول إلى كافة الخلق كل ما قدرة الجواب: أعلم أن النبي ﷺ كان يعلم علوم: الأولين والآخرين إطلاقاً وشمولا، ومن جملة ذلك العلم بالكتب الإلهية فضلا عن القرآن وحده؛ ويعلم مطالبة الإيمان بدايته ونهايته، وماهية الإيمان، وما يفسده وما يقويه . . . كل ذلك هو ثابت في حقيقته المحمدية ﷺ.

وإما قوله سبحانه وتعالى: وما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان فإن هذا الحال كان له قبل النبوة لم يعلمه الله بحقيقة الإيمان، ولا بكيفية تنزيل الكتب، ولا بماهية الرسالة وتفصيل مطالبها، كل ذلك حجبه الله عنه قبل النبوة، وهو مكنوز في حقيقته المحمدية ولا يعلمه ولا يشعر به، حتى إذا كان زمن النبوة رفع الله عنه الحجب، وأراه ما في حقيقته المحمدية، يشهد لذلك قوله ﷺ: «رأيت ربي في صورة شاب». إلى أن قال: «وضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، فعلمني علوم الأولين والآخرين».

وهذا كان في زمن النبوة رفع الله عنه الحجاب، وأراه ما أدرجه الله له في حقيقته المحمدية من كنوز المعارف والعلوم والأسرار، التي لا يحاط بساحلها، ولا ينتهي إلى غايتها. وإياك أن تفهم من هذا أن حقيقته المحمدية كانت عارية عن هذا قبل النبوة، فلا يصح هذا الظن، بل حقيقته المحمدية لم تزل مشحونة من جميع هذه المعارف والعلوم والأسرار من أول الكون، من حيث أنه أول موجود أوجده الله تعالى قبل وجود كل شيء، وفطره على هذه العلوم والمعارف والأسرار، ولم يزل مشحوناً بها إلى أن كان زمن وجود جسده الكريم ﷺ فضرب الحجاب بينها وبين علمه بها ﷺ إلى أن كان زمن النبوة، فرفع الحجاب وأطلعه على ما أودعه في حقيقته المحمدية مما ذكر أولا، وما خاطبه به في قوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى:٥٢] أخبر عن حالة احتجاب ما كان في حقيقته أولا عن علمه ﷺ بها فقط، إلا أنها لم يكن العلم بها في حقيقته.

وقد كان ﷺ قبل النبوة، من حين خروجه من بطن أمه لم يزل، من أكابر العارفين، ولم يطرأ عليه حجاب البشرية الحائل بينه وبين مطالعه الحضرة الإلهية القدسية. وكان من أفراد العالم، والفرد.

نسبته إلى عموم العارفين والصديقين كنسبة العارف بالله إلى العامة، لا يعرفون شيئاً،

وكان في تلك المرتبة ﷺ متحققاً بمرتبة أن يأخذ العلم عن الله بلا واسطة، ولا يجهل شيئاً من أحوال الحضرة الإلهية، ولم يطرأ على شمسه في هذا المحل أفول ﷺ. والعلم بالله تعالى الذي هو عند الأفراد العارفين ثابت له في هذه المرتبة، وإنما حجب الله عنه في هذا الميدان ماهية الرسالة، ومطالبها، وما تؤول إليه، وما يراد منها. وكذا حجب الله عنه العلم بكيفية نزول الكتب، وما يؤول إليه، وما يراد منه، وما الأمور التي تطلبه في نزول الكتب؛ حتى إذا بلغ مرتبة النبوة، رفع الحجاب بين علمه وبين ما كان مودعاً في حقيقته المحمدية من العلوم والمعارف والأسرار. ويدل على هذا الذي ذكرناه قوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين».

وحيث كان في ذلك الوقت نبياً يستحيل أن يجهل الرسالة، والنبوة، والكتاب، ومطالبات الجميع، وما يؤول إليه كل منها، وما يراد من جميعها فالحديث شاهد على ما ذكرناه. ويدل على ذلك أيضاً أنه ﷺ قبل وجود جسده الكريم ما بعث الله نبياً ولا رسولاً في الأرض إلا كان هو ﷺ ممد ذلك الرسول أو النبي من الغيب، من حيث أنه لا يتأتي نبي ولا رسول أن ينال من الله تعالى قليلاً ولا كثيراً من العلوم والمعارف والأسرار والفيوض والتجليات والمواهب والمنح والأنوار والأحوال... إلا بواسطة الاستمداد منه ﷺ وهو الممد لجميعهم في عالم الغيب، فكيف يمدهم بما هم علماء به وهو جاهل به ﷺ ولم يزل يركض في هذا الميدان ركضاً لا تماثله فيه الأرواح، ولا تشم لمقامه الأعظم فيه رائحة.

وهو فيما قبل وجوده ﷺ كحالة علمه بعد رسالته في الفيض والمدد على جميع الأرواح، وإنما حجب الله عنه هذه الأمور أعني عن علمه ﷺ بعد وجود جسده الشريف وقبل نبوته، وهي مكنوزة في حقيقته المحمدية لسر علمه الله.

فالاحتجاب لا يطلع عليه غيره، وسر ذلك سدل الحجاب على النبي ﷺ، إذا لو كشف الله له قبل النبوة ما أدرجه في حقيقته المحمدية، وتكلم به قبل زمن الرسالة والبعث، لوقع الريف في نفس المدعوين فيما تحدى لأم به من الرسالة يقولون له إنما كنت تتكلم بهذا الأمر من أول أمرك، نقلته عن غيرك لست نبياً فستره الله عنه كي لا ينطق به، فلما كان زمن النبوة، رفع الله الحجاب عنه، وما أرى الله الناس فيه ﷺ قبل نبوته من كونه أمياً لا يعلم شيئاً ولا يدري شيئاً، ولا وقعت له مخالطة أحد من أهل الكتاب أو القرب منه، ليكون إذا كلمهم بما كلمهم به من أحوال الرسالة والنبوة، ويعلمون أن ذلك حق لكونه صدر من أمي لا يعلم شيئاً ولم يكن ذلك ولا نبوة. فهذا سر الاحتجاب، وشاهد هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

الآية: الجواب أنه ﷺ عنده العلم القطعي بأنه عروس المملكة الإلهية، وأنه ليس في جميع الخليقة أكرم منه على الله تعالى، ولا أحب عليه منه، ولا أعز ولا أكبر خطوة عند الله منه، وأنه مأمون العاقبة في الآخرة لا يلحقه لا ألم ولا عذاب، وأنه في الدرجة العالية من النعيم الدائم المقيم ورضا الله الأبدي السرمدي، كل هذا لا يدخله فيك ريب ولا شك. وما ذكر ﷺ من قوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٩].

يحتمل أنه أراد تفصيل ما يقع به من النعيم، وتفصيل العطايا والمنح الواردة عليه من الله تعالى؛ فإنه إن علمه بجملها يمكن أن لا يحيط بتفاصيلها على دوام الأبد في الجنة. فإن في علم الله ما لا تسعه العقول. وإن قلنا إنه ﷺ محيط علماً بجميع هذا، فيقع له في باله أن يكون عند الله ما لا يعلمه من العطايا والمنح التي يصبها عليه في دار النعيم ولا يعلمها إلا عند وجودها، فهذا غير مستبعد، ويحتمل أن يكون أراد بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٩] فإنه رد الأمر إلى إحاطة العلم الأزلي الإلهي، فإن علم الله في هذا الميدان لا يحيط به محيط، لا نبينا ﷺ ولا غيره، يشهد لذلك قوله ﷺ: «ولا أعلم إلا ما علمني الله» وقوله حاكياً عن نفسه بما ذكر الله عنه في الآية ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] فيحتمل أنه رد الأمر إلى حقيقة العلم الأزلي لأنه لا يحاط به وإن كان عالماً بما ذكر أولاً.

وأما أن يتوهم من هذا الخبر أنه لا يعلم هل يرحمه الله أو يعذبه، ويقربه أو يطرده في الدار الآخرة؛ فهذا لا تقبله الحقيقة، يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] وقوله: ﴿وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣] ومحال أن يكون هذا الأمر منه سبحانه وتعالى، وهو يتخوف عليه العذاب، فإن وعده لا يخلف.

أما الخبر الوارد عن عائشة إن صح، وهو قولها: من قال إن النبي ﷺ يعلم ما في غد فقد كفر. وما هذا معناه، فلا يتأتى هذا إن سمعته من النبي ﷺ إلا أن يكون كتم الأمر عنها لسر ظهر له في ذلك الوقت لا يمكن كشفه لها، كما كتم عنها رؤيته للذات العلية بعيني رأسه، وهو واقع له ﷺ بالإجماع. فيكون كتمه له عنا لسر ظهر له في ذلك الوقت.

والأخبار والآثار وكتب الحديث كلها مشحونة بإخباراته بالغيوب التي تأتي من بعده المتقاربة والمتباعدة، حتى قال بعض الصحابة رضي الله عنه: ما ترك ﷺ أمراً يكون في أمته من بعده إلا ذكره إلى قيام الساعة. وقوله ﷺ: «ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار»[1]. الحديث، والأخبار كثيرة متواترة حتى لا يكاد أن يرتاب فيها أحد

---

(١) رواه ابن شيبة في المصنف (١٥: ١٥٠). والمتقي الهندي في كنز العمال (١: ٤٢٥٠). وابن حجر =

من المسلمين والسلام. ويبقى اعتراض على ما ذكرنا، وهو أن يقال: إذا صح ما ذكرتم، وكان هذا السر هو المانع من ظهور ما في حقيقته المحمدية قبل النبوة فلم لا يكون رسولاً ولا نبياً من أول نشأته، حتى لا يحتجب عنه ما في حقيقته المحمدية، كما كان حال الغيب قبل وجود جسده الكريم. فالجواب عن هذا الاعتراض أن منع الله له من الرسالة والنبوة قبل بلوغه أربعين سنة أن النبوة والرسالة لا تكون إلا عن تجلٍ الهي، ولو وضع أقل قليل منه على جميع ما في كرة العالم كله، لذابت كلها لثقل أعبائه وسطوة سلطانه، فلا تقدر الأنبياء على تحمل أعبائه والثبوت لسطوة سلطانه، إلا بعد بلوغهم أربعين سنة.

وأما قبل بلوغ الأربعين سنة، فلا قدرة لأحد على تحمل أعباء ذلك التجلي، لما فطرت عليه البشرية من شدة الضعف، حتى إذا بلغ الإنسان أربعين سنة، وكان في علم الله نبياً أو رسولاً، أفاض على روحه من قوته الإلهية ما يقدر به على تحمل أعباء ذلك التجلي، فلهذا السر لم يتنبأ أحد إلا بعد أربعين سنة. وهذا هو المانع له من النبوة قبل ذلك ﷺ ولغيره من النبيين.

وأما سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام كونه نبياً قبل الأربعين، فالجواب لم يكن بشرياً محضاً إنما كان نصفين: نصف بشري ونصف روحاني، إذ نشأ من نفخة الروح الأمين في أمه، فقوي فيه ضعف البشرية، وزاد بذلك قوة على النبيين. فلذلك بعث قبل الأربعين للقوة التي أعطيها من نفخ الروح الأمين في أمه.

ومن جواهر العارفي التجاني أيضاً

[قول الغزالي ليس في الإمكان أبدع مما كان]

أنه سئل رضي الله عنه عن قول الإمام الأكبر والقطب الأشهر، أبو حامد الغزالي رضي الله عنه «ليس في الإمكان أبدع مما كان» فأجاب رضي الله عنه بقوله: أعلم أنه ليس في الإمكان أشرف وأعلى وأجمل وأكمل من صورة الكون كله، ولا أشرف ولا أعلاى وأجمل وأكمل من صورة الكون كله إلا سيدنا محمد ﷺ وكل ما تراه في الكون، فالصور والأشكال مختلفة المباني والمعاني المتحدة الواقعة في جسم واحد ما. ثم ألا هو ﷺ، لأنه ﷺ خلق من السر المكتوم ﷺ.

= في فتح الباري (١: ١٨٢).

والدليل على شرفه ﷺ من النقل قوله ﷺ **«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»**. وقال عليه الصلاة والسلام: **«إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه اختار منهم قسم بني آدم هذا من النقل»**[1].

وفي بساط الحقائق أنه لما تعلقت مشيئة الحق بإيجاد خلقه، وكان ذلك من ثوران الميل الحبي، حيث يقول: **«كنت كنزاً لم أعرف، فأحببت أن أعرف، فخلقت خلقاً، فتعرفت إليهم فبي عرفوني»**.

وهذه المحبة من الحق في إيجاد الخلق كان أول موجود عن هذه المحبة روح سيدنا محمد ﷺ إذ هو الذي وقعت فيه المحبة الكلية من الحق وعنه. وعن تلك المحبة تفرع وجود الكون، فهو الأصل ﷺ والكون كله فرع عنه، فلا يشك في شرف الأصل على فرعه، لأنه لما كان أول موجود تضمن بحكم محبة الحق جميع ما أراد إبرازه للوجود من الجواهر والأعراض والمنح والمواهب وجميع آثار الكرم والمجد وجميع آثار السطوة والقهر... فجمع سبحانه وتعالى في تلك الحقيقة المحمدية جميع ما ذكر إجمالاً وتفصيلاً، ثم جعله منبعاً وعنصر الجميع ما يصل إلى الأكوان من جميع ما ذكر جملة وتفصيلاً أزلاً وأبداً.

ومحال بحكم المشيئة الإلهية أن يبرز شيء في الوجود جوهراً أو عرضاً، مما دق أو جل، خارجاً عن الحقيقة المحمدية.

وإذا عرفت هذا، اتضح لك شرف هذه المرتبة مع ما فيها من تجلي السر المكتوم، وما اختصت به من المنح والمواهب والعطايا والتحف الظاهرة والباطنة... التي لا مطمع لغيرها في نيل أقل القليل منها بوجه أوضح من وضوح الشمس. وحيث عرفت هذا، عرفت أنه ليس في الإمكان أشرف وأكمل وأعلى وأجمل من هذه الصورة المعلومة الكونية، وهي الحقيقة المحمدية عليها من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ومن جواهر العارف التجاني أيضاً

[عدة صلوات تلقاها]

عدة صلوات تلقاها عن رسول الله ﷺ يقظة، ومنها الصلاة المسماة «ياقوتة الحقائق» وفيها ألفاظ دقيقة المعاني لا يدركها إلا أهل العرفان، قال في شرحها عند قوله: وأنشأت من

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٨: ٦). ومسلم في الصحيح (البر والصلة ١٦) والبيهقي في السنن الكبرى (٧: ٢٦).

نورك الكامل نشأة الحق، وأناطتها وجعلتها صورة كاملة تامة. معنى نشأة الحق هٰهنا هي الحقيقة المحمدية عليها من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام وسماها نشأة الحق لأنها حق، في حق، بحق، عن حق، فلا يحوم الباط حولها بوجه من الوجوه، فهي في غاية الصفاء والطهارة والعلو، فليس في جواهر الوجود أشرف وأعلى منها، ولا أصفى، ولا أطهر، ولا أكمل منها. ثم أنها في حقيقتها لا تدرك ولا تعقل. «وأنطتها» يعني جعلت الوجود كله منوطاً بها من أوله إلى آخره، من الأزل إلى الأبد، لا وجود لشيء بدونها فإن الوجود كله وجد لأجلها فقط، لا لذاته. وهي مطلوبة لذاتها، لا علة لها إلا الذات. فهي موجودة لأجل الذات المقدسة، فلا واسطة بينها وبينها؛ والوجود كله منوط بها، فهي الواسطة بين الوجود وبين الله تعالى، إذ لولا هالتلاشي الوجود كله في أسرع من طرفة العين، فالوجود كله قائم تحت ظلها. قال الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه في صلاته: ولا شيء إلا وهو به منوط إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل الموسوط».

وقوله: «وجعلتها صورة» الصورة هنا هي أول أمر برز من حضرة الشؤون التي هي الحقيقة المحمدية. وقوله: «كاملة تامة» اعلم أن الكامل والتام لم يعرف عند العرب، إلا أنهما مترادفان: الكامل هو التام والعكس.

وأطلق هٰهنا في التفنن للمدح، ويلوح في هذا المحل للفهم أن الكامل هو الذي يفيض الكمال على غيره، والتام هو الذي لا يتعداه إلى غيره بل هو مقصور على نفسه. ولا شك أنه ﷺ تام في نفسه لا يطرأ عليه النقص بوجه من الوجوه، كامل ﷺ يفيض الكمالات على جميع الوجود، من العلوم والمعارف... والأسرار والأنوار والأعمال والأحوال والفيوضات والتجليات والمواهب والمنح وجميع وجوه العطايا... فكل ما يفيضه الحق سبحانه وتعالى على الوجود مطلقاً ومقيداً، كثيراً أو قليلاً، ما اشتهر أو شذا... إنما يفيضه بواسطة رسول الله ﷺ، فمن ظن أنه يصل من عند الله تعالى شيء للوجود بغير واسطة رسول الله ﷺ، فقد جهل أمر الله، وإن لم يثب خسر الدنيا والآخرة بهذا الإعتقاد. نسأل الله السلامة والعافية من بلائه بجاه رسله وأنبيائه.

ثم قال: «والوجود كله منوط بها أي بالحقيقة المحمدية وليست هي منوطة بشيء، إذ لا واسطة بينها وبين الذات المقدسة، كما ورد في الخبر: «**يقول الله تعالى: خلقت كل شيء من أجلك وخلقتك أنت من أجلي**» فدل هذا الخبر أن الوجود كله لا يراد لذاته، إنما خلق لأجل الحقيقة المحمدية، وهي لم تكن منوطة بشيء تخلق لأجله، ليس لها تعلق إلا الذات المقدسة من حيث ما هي هي. وإلى هذا يشار في الصلاة البكرية التي هي من إملائه ﷺ عليه رضي الله

عنه بقوله فيها: «عبدك من حيث أنت، كما هو عبدك من حيث كافة أسمائك وصفاتك»، معنى هذا أنه عبد الله وحده من حيث الوجود المطلق، وهي الذات الصرفة، الساذج من حيث أن لا تعلل له في شيء. فلو بقي في هذا المحل ﷺ لكان غيباً من غيوب الذات لا يصح أن يناط الوجود المعلل به.

ولما كان المراد منه ﷺ الكمال العالي الذي به يستمد منه الوجود، ويكون سبباً في وجود الوجود، أعطي الرتبة الأخرى، وهي قيامه بحقوق الصفات والأسماء اتصافاً بها وتحقيقاً بها وبذا استمد منه الوجود حياة وقياماً ووجوداً، فهذا قيامه ﷺ بعبادة الله وصفاته وأسمائه؛ فكان عبد الله من حيث الذات المطلقة، وكان عبد الله تعالى من حيث الصفات والأسماء، فبهذا حمل سر الخلافة عن الله تعالى في جميع المملكة الإلهية من غير شذوذ.

ثم قال عند قوله «وجعلت الكل قبضة من نور عظمتك» المراد بها هٰهنا هي الصورة المخلوقة أولاً من النور الكامل، وهي الحقيقة المحمدية، وما تولد عنها من ذوات الوجود. فإنه لها هو الأب الأول، وعن تلك الحقيقة وجدت تلك الموجودات كلها بها قوامها، وعنها نظامها ومنها مددها، إذ من تلك الحقيقة استمد الوجود كله.

ثم قال: والروح عام وخاص، فالروح العام هو سريانه ﷺ في كلية العالم جزءاً جزءاً حتى لا يشذ شيء منه، وسريانه فيه به تمام قيامه، وبه قوام نظامه، فلا شيء في الوجود يستبد بصريح الوجود في ذاته دون سريانه فيه ﷺ بحكم السراية. وتلك السراية وسريانها في كليات العالم هي المعبر عنها بالروح، يعني روحاً لجميع العوالم كليتها وجزئيتها، حتى الكفار ومن أشرك بالله تعالى، فإن قيامهم بسريان روحه ﷺ فيهم، وهو ﷺ روح لجميع وجودها، سار فيها كسريان الماء في الأشجار في الأرض كلها تستمد من الماء، ولولا الماء لهلكت كلها ويبست، فهذا معنى روحيته لجميعها ﷺ وأما الروح الخاص منه ﷺ فالمراد به ما كان للحق يحكم الخصوصية، والعناية، وشفوف الرتبة، وعلو الولاية كالخاصة العليا من بني آدم من النبيين والمرسلين، وكافة الأقطاب والصديقين، بل وعموم الصالحين من المؤمنين، وكجميع الملائكة عليهم الصلاة والسلام على اختلاف رتبهم، وكاهل أرض السمسمة ومن ضاهاهم من الموجودات. . . فإن هذه الطوائف لها الأهلية من الحق وللحق، منهم الأهلية بحكم التعظيم والاجلال والتخصيص والعناية وشفوف الرتبة من حيث ان جميعهم معظمون في حضرته دائماً سرمداً، لا يطرأ على أحد منهم أفول عن هذا المطلع، وشموسهم أبداً طالعة في سماء هذا الوصف، من حيث أن الله تعالى جعل جميعهم مطيعين لأمره، منهمكين في حبه أبداً، سَريانهم في رياض قربه، لا يخرجون عن هذا الميدان.

فمن هذه الحيثية حصلت لهم أهلية الحق، فهم أهل للحق بهذا الوصف، والحق أهل لهم بما اختصهم به بشفوف المراتب والمزايا العلية، وهو في هذا الوصف ﷺ روح في جميع مانالوه من الحق من الأهلية، وبما اختصهم به من المراتب العلية.

فهذا الروح خرج عنه الكفار، ومن أشرك بالله تعالى، ومن خلط في إيمانه، فليس له من هذا الروح شيء.

ثم قال عند ذكر . ، في صلاته المذكورة، اللوح المحفوظ «اعلم أن اللوح المحفوظ هنا نبينا وسيدنا محمد ﷺ جمع ما في حقائق الأشياء، فكما أن اللوح المحفوظ اجتمعت فيه علوم الأكوان من منشأ العالم إلى النفخ في الصور، أحاط بها جملة وتفصيلاً مما دق أو جل من الجواهر والأعراض. . . كذلك هو ﷺ اجتمعت في حقيقته المحمدية ﷺ جميع حقائق العلوم الإلهية، وتشبيهه هنا ﷺ باللوح المحفوظ يسمى عند المتكلمين تشبيه التسامح، وإلا فهو ﷺ أكبر وأوسع من اللوح المحفوظ بأضعاف مضاعفة، لأن غاية علوم اللوح وما سطر فيه إنما هو من منشأ العالم إلى النفخ في الصور فرداً فرداً بلا شذوذ، وأما ما وراء ذلك من أحوال يوم القيامة، وأحوال أهل الجنة والنار، وما يتعاقب عليهم فيهما من الأدوار والأطوار من جميع الشؤون والأمور والاعتبارات واللوازم والمقتضيات كلها. . . ليس في اللوح منها شيء إلا أمور قليلة، مثل فلان يعمل كذا وكذا من الأعمال، وجزاؤه في جنة الخلد أو جنة النعيم أو جنة المأوى، له فيها كذا وكذا. أو فلان يعمل كذا وكذا من الشر، ومستقره في الدرك الثانية أو الثالثة. وهكذا. . . وهو قليل بالنسبة لأحوال أهل الجنة والنار وأحوال يوم القيامة، وأما هو ﷺ فإنه جمع في حقيقته المحمدية كل ما أحاط به علم الله تعالى من الأزل إلى الابد، من علوم المخلوقات بأسرها، ومعرفة مقتضياتها ولوازمها. وأماما وراء ذلك، فلا يحيط بجميع علم الله محيط أصلاً.

ثم قال في شرح قوله: «والنور الساري الممدود» الوجود كله ظلمة من حيث أنه عدم محض، لا نورية فيه، إنما وجوده استمد من نوره ﷺ وعنه وجد، ومنه تصور، وبه كان، وأما نوريته ﷺ فلا يقال فيها نور مطلق لأنها مستمدة من نوره سبحانه وتعالى، لأنه هو الوجود المطلق، ومعنى استمداده هو أنه خلق من أجل الذات المقدسة، لا لأجل شيء دونها، جلت وتقدست، فلا علة ولا واسطة بينه وبين الحق تعالى، خلق من أجل الحق لا غير، والوجود كله على العموم والإطلاق معلل بوجوده ﷺ ومن أجله وجد الكون كله، فهو له كالخادم، ولولاهو ﷺ ما أوجد الله شيئاً من الأكوان. وقد استراب في هذه القولة من لا علم له، حتى قال: إن الرب سبحانه وتعالى يلزم عليه أنه عاجز عن خلق الأكوان، لا يتأتى له إيجادها إلا

بوجوده ﷺ استعانة به وخروجاً به عن العجز، قلنا له: «ليس المراد هذا الذي ذكر، وإنما هو أنه لو سبق في حكمه وعلمه أن لا يخلق محمداً ﷺ لنفذ الحكم منه تعالى أنه لا يخلق شيئاً من الأكوان، فهذا معنى توقف الكون عليه ﷺ إذ هو ﷺ في جملة الأكوان بمنزلة إنسان العين من العين، إليه النظر من ربه سبحانه وتعالى، وعليه المدار، وفيه جميع الاعتبارات التي يتوقف عليها الوجود. كما أن الإنسان إذا أزيل من العين ليست العين بشيء.

وهذا النور هو سيد الوجود، وعلم الشهود ﷺ وهو المراد بقوله ﷺ في حديث أبي سعيد: **حماية النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه، ما أدركه بصره من خلقه**».

وهذا النور هو سيدنا محمد ﷺ إذ هو القائم بين يدي الحق سبحانه وتعالى بالمباشرة ﷺ والوجود كله تحت ظله ﷺ مستتر به عن جلال الحق وعظمته.

ولو أنه سبحانه وتعالى كشف هذا النور، وكشطه حتى رآه الوجود بعينه من غير واسطة النور لاحترق كل ما أدرك بصره تعالى من المخلوقات، ويصير محض العدم في أسرع من طرفة عين. فيوحد هذا النور تمتع الوجود بالوجود، وتقلب في أطوار المصادر والورود.

وقوله: «الساري» معناه أنه ﷺ سار في جميع الموجودات كسريان الماء في الأشجار، لا قيام لها بدونه. وتلك السراية منه ﷺ لفي الموجودات لا طمع للعقل في دركها، ولا أن يحوم حول حماها. فما وصل إليها أحد من خلق الله تعالى، ولا عرف لها كيفية ولا صورة، وكل الوجود في حجاب عن هذا الإدراك، يعني إدراك السراية منه في الموجودات. فما أدركتها أكابر الملائكة العالين، ولا أكابر الأنبياء والمرسلين. عليهم الصلاة والسلام. كلهم لم يشموا لها رائحة، فمن دونهم أحرى وأولى لا يذوق منها شيئاً. وغاية السريان أنه ﷺ لو فقد سريانه في ذات من ذوات الأكوان لصارت محض العدم من ساعتها، وإلى هذا الإشارة بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقوله: «الممدود» معناه هو الذي لا غاية له.

وهو أنه امتدت سرايته في جميع الأكوان من كل ما انطبقت عليه كثرة العالم وجميع مخلوقات الله، وزاد امتداده ﷺ حتى سرى في جميع المعلومات التي أحاط العلم الإلهي بها، ونفذت المشيئة الربانية بأن لا خروج لها من العدم إلى الوجود أصلاً وكيفية السراية في هذا المعدوم أيضاً لا يطيقها العقل تصوراً وقبولاً، بل هي في إحاطة العلم الإلهي، فلا يعلم كيفيتها وصورتها إلا الله تعالى.

وقال عند قوله: «الذي لا يدركه دارك ولا يلحقه لاحق» وصفه بكونه لاعلم لأحد به من الموجودات أصلاً إلا الحق سبحانه وتعالى. وفي هذا يقول بعض العارفين: «ما عرف قدر

محمد ﷺ إلا الله تعالى» وقال عند قوله «الصراط المستقيم» اعلم أن الصراط المستقيم هو النبي ﷺ وسمي به لكونه طريقاً ممدوداً إلى الحق، لا وصول لأحد إلى الحضرة القدسية، وذوق أسرارها، والابتهاج بأنوارها، إلا بالسلوك على الصراط المستقيم، وهو باب الله الأعظم. فمن رام من السالكين الدخول على الله تعالى في حضرة جلاله وقدسه، معرضاً عن حبيبه ﷺ طرد ولعن، وسدت عليه الطرق والأبواب، ورد بعصا الأدب إلى اصطبل الدواب.

وقال عند قوله: «اللهم صل وسلم على أشرف الخلائق الإنسانية والجانية» يعني أنه هو زبدتها وياقوتها. قال: ﷺ : «إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه اختار منهم بني آدم» الى قوله: «واختارني من بني هاشم» ودل الحديث، بل صرح أن هذا الجنس من الآدمي هو صفوة الله من خلقه، وهو محل تنزل الرحمة الإلهية، وهو محل نظر الله تعالى من جميع الموجودات. فجنس الإنسان خلق من أجل الله تعالى، وخلقت الأكوان كلها من أجله، وكان التخصيص لهذا الجنس من الإنسان، أن الله تعالى اتخذ خليفته في الأكوان منه، وهو الفرد الجامع المحيط بالعالم كله، والعالم كله في قبضته وتحت حكمه وتصرفه، يفعل فيه كل ما يريد بلا منازع ولا مدافع.

وقصارى أمره أنه كان حيثما كان الرب إلهاً، كان هو خليفته، فلا خروج لشيء من الأكوان عن ألوهية الله تعالى، كذلك لا خروج لشيء من الأكوان عن سلطنة هذا الفرد الجامع، يتصرف في المملكة بإذن مستخلفه، وحيث كان ﷺ أشرف الخلائق الإنسانية، كان أشرف العوالم كلها، لأن الإنسان كما في الخبر هو صفوة الله من جميع خلقه، فبالضرورة غير الإنسان داخل تحت حكمه في الأفضلية.

وقوله: «والجانية» الجان: ما غاب عن الأبصار واستتر، وذلك شامل للجن والملائكة، ولجميع ما غاب مثلهم عن عين الإنسان... فهو ﷺ أفضل الجميع، وقال عند قوله: «صاحب الأنوار الفاخرة»: يعني أن الأنوار هي أمور فائضة من حضرة الغيب، وهي حضرات الصفات والأسماء، وهي التي تأتي بالعلوم والأسرار والمعارف والأنوار والأحوال العالية إلى ما لا غاية له من الفيوض والمواهب... وهو ﷺ في هذا الميدان أكبر خلق الله حظاً من هذه الأنوار، وأوسعهم دائرة، وأعظمهم خطوة. فلو صب على جميع العالم جزءاً من ألف جزء مما يهب عليه من تلك الأنوار، لصار محض العدم في أسرع من طرفة العين.

ثم قال عند قوله: «اللهم واجعله لنا روحاً ولعبادتنا سراً»: طلب المصلي من الله تعالى أن يكون له ﷺ روحاً.

وقد تقدم كونه ﷺ روحاً في نفس الأمر في كل شيء من العالم، حتى لا وجود لشيء

بدونه حتى الكافر. وهذه المرتبة الأولى له ﷺ في الوجود، وبها حياة الوجود كله في كل شيء شيئاً شيئاً، والمرتبة الثانية كونه ﷺ روحاً لجميع الموجودات خاصاً لا عاماً، وهذه الروحانية في المرتبة الثانية سرت بكليتها في جميع العارفين والصديقين والأقطاب والنبيين والمرسلين والمقربين... وهذه المرتبة له ﷺ التي هي روحانيته، بها قيام أهل الطوائف المذكورين بين يدي الله تعالى بتوفية حقوقه، وتكميل الأدب معه والاستهلاك في عين الجمع، والغرق في بحار التوحيد. فهم في هذا الميدان لله بالله في الله عن الله على الله، ليس في جميع حواسهم وأوهامهم وتخيلاتهم ومساكنتهم وملاحظتهم... إلا الله تعالى وحده، لا يخطر عليهم غير الله. وهذا القيام لهم مع الله بسبب سريان روحانية فيهم ﷺ ولولا ذلك ما قاموا هذا القيام. وهذا هو الروح الذي طلب المصلي، ليس الروح الأول الذي هو عام في كل شيء. وقوله: «ولعبادتنا سراً» المراد بالسر هنا أن يكون باطناً فيها ﷺ لقبول الله إياها أي الأعمال. والسرية التي منه ﷺ في الأعمال والعبادات أن تكون صادرة من العبد بملاحظة وساطته ﷺ بين الله وبين العباد. والوساطة هي ما قاله الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش بقوله وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك». فمن لم يلاحظ هذه الحجابية في أعماله، كانت أعماله غير تامة، والحجابية هي أن يكون ﷺ وسيلة بين الله وبين عباده، يتوسل به جميع العباد إلى الله تعالى. فهذا هو سر العبادة التي يؤذن بقبولها.

ومن جواهر العارف التجاني أيضاً

[صلاته جوهرة الكمال]

قوله رضي الله عنه في شرح صلاته «جوهرة الكمال»، وهي إحدى صلواته الثلاث، عند قوله فيها: «اللهم صل وسلم على عين الرحمة الربانية»: اعلم أن الحق سبحانه وتعالى اقتطع قطعة من النور الإلهي في غاية الصفاء والتجوهر، ثم أبطن في تلك القطعة ما شاء أن يقسمه لخلقه من العلم بصفات الله تعالى وأسمائه. وكمالات ألوهية، وبأحوال الكون وأسراره ومنافعه ومضاره، وبالأحكام الإلهية أمراً ونهياً وجعل تلك القطعة من النور مقراً لانصباب كل ما قسمه لخلقه في سابق علمه من الرحمة الإلهية، ثم صار يفيض على خلقه ما أقره في الحقيقة المحمدية من العلم والرحمة، فكان بهذه المثابة هو عين الرحمة ﷺ وكان ذلك النور هو الحقيقة المحمدية، وتلك الرحمة المفاضة في ذاته هي التي يفيضها على الوجود من ذاته الكريمة، فلا يصل شيء من الرحمة إلى الوجود إلا من ذاته ﷺ فذاته الكريمة بمنزلة المقر للمياه التي تجتمع فيه، وتتفرق من ذلك المقر سواق للسقي والانتفاع، ولذلك قال ﷺ «إنما

أنا قاسم، والله معط»[1]. أي ينظر إلى ما سبق في العلم الأزلي من الاقتطاع، ثم يفرق ﷺ تلك الرحمة على حسب ذلك الاقتطاع، فلهذا سمي عين الرحمة ﷺ وأيضاً لنسبة أخرى في عين الرحمة، يعني أنه الأنموذج الجامع في إفاضة الوجود على جميع الوجود، فإنه لولا وجوده ﷺ ما كان وجود لموجود أصلاً من غير الحق سبحانه وتعالى، فإن وجود كل موجود من ذوات الوجود متوقف على سبقية وجوده ﷺ لذلك الوجود؛ فإنه لولاهو ﷺ ما خلق شيء من الأكوان ولادهم شيء منها لا بالوجود ولا بإفاضة الرحمة فإنه ﷺ كلية مراد الحق وغايته من الوجود، فإنه تعالى ما خلق الكون إلا من أجله ﷺ ولا أفاض الرحمة على الوجود إلا بالتبعية له ﷺ فوجود الأكوان كلها مناط بوجوده ﷺ وجوداً وإفاضة.

فإنه ﷺ ما خلقه إلا من أجل ذاته العلية المعظمة المقدسة، وما خلقه من أجل شيء دون الحق، حتى يكون علة له، ويتوقف وجوده على وجوده، بمعنى أن يكون وسيلة بينه وبين الحق، فإنه لا واسطة بينه وبين الحق لكونه مراداً لحق لذاته، والأكوان كلها مرادة لأجله ﷺ معللة بوجوده. فإفاضة الوجود على جميع وجود الأكوان مفاضة من ذاته الكريمة ﷺ، وإفاضة الرحمة على جميعها مفاض من ذاته الكريمة، ﷺ فإن ذلك الفيض من ذاته ﷺ ينقسم إلى رحمتين:

الرحمة الأولى: إضافة الوجود على جميع الأكوان حتى رجت من العدم إلى الوجود، والرحمة الثانية: إضافة فيض الرحمات الإلهية على جميعها من جملة الأرزاق والمنافع والمواهب والمنح. . . فإنه بذلك يدوم تمتعها بالوجود.

فإذا علمت هذا. علمت أنه ﷺ عين الرحمة الربانية، لأنه رحم جميع الوجود بوجوده ﷺ ومن فيض وجوده أيضاً رحم جميع الوجود فلذا قيل فيه إنه عين الرحمة الربانية ﷺ وعلى هذا إن جميع الوجود كله نشأ عن الرحمة الربانية، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] لأن أصله ﷺ رحمة، ولا يلزم من شمول الرحمة عدم وقوع العذاب والوعيد والغضب، لأن تلك مقتضيات الكمالات الإلهية. فإن الكريم وإن عظم كرمه، لولا بطشه وغضبه وعذابه ما خيف جانبه. ولو أمن منه هذا الحال احتقر جانبه، وليست هذه صفة الكرم، ولا ينبغي له هذا افتبين لك أن من صفة الكمال الغضب والبطش والعذاب، ليكون جانبه معظماً مخافاً مهاباً، كما كان جانبه مرجواً لعفوه ورحمته.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ٢٧). ومسلم في الصحيح (الزكاة: ٩٨). وأحمد في المسند (٢: ٢٣٤).

ثم قال عند قوله: «اللهم صل وسلم على عين الحق»: اعلم أن الحق له إطلاقان: الأول: إطلاق الحق من حيث الذات، والثاني: إطلاق صفة الذات.

فإطلاق الحق من حيث الذات، لأن الحق يقابله الباطل من كل وجه، فالحق المحض هو الذات العلية المقدسة وما عداها كله باطل، وإلى هذا الإشارة بقول الشاعر لبيد، الذي شهد له رسول الله ﷺ بالصدق والتحقيق «إلا كل شيء ما خلا الله باطل». وهذا لا يطلق عليه ﷺ إذ هذا الإطلاق عين الذات المقدسة لا يطلق على غيرها أصلاً.

والإطلاق الثاني: هو العدل الذي هو صفة الحق سبحانه وتعالى، القائم بصورة العلم الأزلي، والمشيئة الإلهية، والقدرة الربانية، والحكم الإلهي الأزلي النافذ في كل شيء.

وهذا العدل المذكور هو الساري في آثار جميع الأسماء والصفات الإلهية، ومجموع هذا العدل كلاً وبعضاً هو مجموع في الحقيقة المحمدية، فلهذا أطلق عليه «عين الحق» من هذا الاعتبار، فكلها حق لا تنحرف عن ميزان العدل الإلهي الذي هو عين الحق في الإطلاق الثاني.

ثم قال عند قوله: «عين المعارف»: يعني أنه لما كانت المعارف الإلٰهية المفاضة على الخاصة العليا من النبيين والمرسلين والأقطاب والصديقين والأولياء... كلها فائضة من الحقيقة المحمدية، وليس شيء منها أعني من المعارف يفاض من حضرة الحق خارجاً عن الحقيقة المحمدية، فلا شيء مفاضاً من المعارف إلا وهو بارز من الحقيقة المحمدية، فهو ﷺ خزانتها وينبوعها، فلذا أطلق عليه عين المعارف من هذا الاعتبار.

ثم قال عند قوله: «صراطك التام»: استعير له ﷺ اسم الصراط، لكونه صراطاً بين يدي الحق، لا عبور لأحد إلى حضرة الحق إلا عليه ﷺ فمن خرج عنه انقطع عن حضرة الحق وانفصل، فهو مشبه بالصراط الذي يكون عليه عبور الناس في المحشر إلى الجنة، لا مطمع لأحد من الخلق في الوصول إلى الجنة من أرض القيامة إلا على الصراط الذي عليه العبور، فمن رام الوصول إلى الجنة من أرض القيامة على غير الصراط المعلوم للعبور، انقطع عن الجنة، وانفصل، ولا مطمع له في الوصول إليها. كذلك هو ﷺ هو الصراط المستقيم بين يدي الحق، لا مطمع لأحد في الوصول إلى حضرة الحق إلا بالعبور عليه ﷺ ومن رامها بغير العبور عليه ﷺ انقطع وانفصل وطرد ولعن.

ثم قال عند قوله: «الكنز الأعظم»: يعني الذي هو جامع لجميع الأسرار والعلوم والمعارف والفتوحات والفيوض والتجليات الذاتية والصفاتية والأسمائية والفعلية والصورية... فلما كملت فيه ﷺ هذه الجمعية، كان هو الكنز الأعظم، إذ بسبب ذلك تستفاد

منه جميع المطالب والمنح والفيوض الدينية والدنيوية والأخروية إلى العلوم والمعارف والأسرار والأنوار والأعمال والأحوال والمشاهدات والتوحيد واليقين والإيمان وآداب الحضرة الإلهية... إذ هو المفيض لجميعها على جميع الوجود جملة وتفصيلاً، فرداً فرداً، من غير شذوذ، إذ من فائدة الكنز تحصيل المطالب والمنافع، وهي كلها حاصلة منه ﷺ.

ثم قال عند قوله: «إفاضتك منك إليك»: اعلم أنه لما تعلقت إرادة الحق تعالى بإيجاد خلقه، برزت الحقيقة المحمدية، وذلك عندما تجلى سبحانه وتعالى بنفسه لنفسه من سماء الأوصاف، وسأل ذاته موارد الألطاف، فتلقى ذلك السؤال منه بالقبول والإسعاف، فأوجد الحقيقة المحمدية من حضرة علمه، فكانت عيوناً وأنهاراً، ثم سلخ العالم منها واقتطعه كله تفصيلاً على تلك الصورة الآدمية الإنسانية، فإنها كانت ثوباً على تلك الحقيقة المحمدية النورانية، شبه الماء والهواء في الدقة والصفاء، فتشكل الثوب بشكل الصورة النورانية، فكان محمد صلوات الله عليه مجمع الكل، وبرهان الصفات، والمبدأ الأعلى، وكان آدم عليه السلام نسخة منه على التمام، وكانت نسخة الذرية من آدم عليه السلام.

وكان العالم برمته علوية وسفلية نسخة من آدم. فتحقق هذا النسخ تعش سعيداً. غير أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من كتابي محمد وآدم على الكمال، والعارفون الوارثون نسخة من أدم، وظاهر سيدنا محمد ﷺ وأما أهل الشمال فنسخة من طينة أدم لا غير.

وأما التناسل إلى أن جاء زمانه عليه الصلاة والسلام فصير الله العالم في قبضته، ومخضة جسم محمد ﷺ زبدة مخضته كما كانت حقيقة أصل نشأته، فله الفضل بالإحاطة، إذا كانت البداءة والختم به فقد حصلت في علمك نشأة أول كل موجود، وأين مرتبته من الوجود، ومنزلته من الجود.

والحاصل أن سيدنا محمداً ﷺ هو أول الموجودات وأصلها، وببركاته وجدت، وبه استمدت، وقال عند قوله: «أحاطه النور المطلسم»: يعني أن النور المطلسم هو سر الألوهية المكتم.

وكان هذا السر قسمه ألحق سبحانه وتعالى بحكم المشيئة الربانية قسمين، قسم منه استبد بعلمه لا يطلع عليه غيره، وقسم اختار أن يطلع عليه غيره من خلقه من ذوي الاختصاص.

وكان مقسوماً بينهم بالمشيئة الأزلية لكل واحد منهم ما قدر له من سر الألوهية.

وكان ذلك المقسوم لخلقه أن يطلعوا عليه كلما أحاط به ﷺ علماً وذوقاً، واجتمع في

ذاته الكريمة في حقيقته المحمدية، وتفرق في الخلق، وبعبارة أخرى النور المطلسم هو الكمالات الإلهية التي سبق في سابق علمه تعالى أن يكشفها لخلقه، ويطلعهم عليها جملة وتفصيلاً، لكل فرد من الوجود ما يناسبه وما يختص به، من أول ظهور العالم إلى الأبد.

وكان ذلك النور المذكور مطلسماً في حجاب الغيب، معناه أن عليه حجباً عظيمة، ليس لأحد الوصول إلى الاطلاع عليه أو على شيء منه. فأشهده الله نبيه ﷺ دفعة واحدة، وأطلعه عليه في حقيقته المحمدية من غير شذوذ. فالإحاطة المذكورة، والنور هي طوالع الكمالات الإلهية، والطلاسم المضروبة عليها هي الحجب المانعة من الوصول إلى معرفة حقائقها.

وقال عند قوله: «صلى الله عليه وعلى آله»: اعلم أن الصلاة في حق الله تعالى على نبيه ﷺ وصف قائم بذاته على الحد اللائق الذي يليق بعظمته وجلاله هو أمر فوق ما يدرك يعقل، فإن الوصف الوارد في حق كل موجود، وإن اشترك في اللفظ والاسم، فالحقيقة مباينة في حق الموجودات.

فالصلاة في حقنا عليه ﷺ هي الألفاظ البارزة من ألسنتنا بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى فيما ينبي عن تعظيم نبيه ﷺ منا وليست كذلك صلاته سبحانه وتعالى على نبيه ﷺ فهو فوق ما يدرك ويعقل، فلا تفسر بشيء، بل نقول: يصلي على نبيه ﷺ ولا تكيف صلاته ألا ترى أن السجود في حق الموجودات لله تعالى، فكلها ساج لله. وليس السجود المعهود في حق الآدمي لله تعالى بماثل سجود الجمادات والحيوانات والأشجار فرداً فرداً، فإن لكل واحد من تلك الأفراد سجوداً يليق بحاله.

فإن السجود في حق جميعها متماثل في الاسم والإطلاق، والحقيقة متفرقة في جميعها. وسجود كل واحد غير سجود الآخر. وأما صلاة الملائكة على النبي ﷺ فتعلقها في حقهم كتعلقها في حقنا.

وقال بعد قوله: «صلاة تعرفنا بها إياه»: يعني أن المصلي طلب من الله تعالى أن يعرفه إياه في مراتب بطونه ﷺ إما بالوصول إلى معرفة روحه أو حقيقة عقله أو قلبه أو نفسه فأما حقيقة مقام روحه، فلا يصل إليها إلا الأكابر من النبيين والمرسلين والأقطاب، ومن ضاهاهم من الأفراد؛ ومن العارفين من يصل إلى مقام عقله ﷺ فتكون معارفه وعلومه بحسب ذلك، إذ ليس مقام العقل وعلومه كمعارف مقام الروح وعلومها، ومن العارفين من يصل إلى مقام قلبه ﷺ فتكون معارفه وعلومه بحسب ذلك، وهي دون مقام العقل في المعارف والعلوم، ومن العارفين من يصل إلى مقام نفسه ﷺ فتكون معارفه وعلومه بحسب ذلك، وهي دون مقام القلب.

وأما مقام سره ﷺ فلا مطمع لأحد في دركه. والفرق بين مقام سره وروحه وعقله وقلبه ونفسه، فأما مقام سره ﷺ فهي الحقيقة المحمدية التي هي محض النور الإلٰهي، التي عجزت العقول والإدراكات من كل مخلوق من الخاصة العليا عن إدراكها وفهمها. هذا معنى سره ﷺ ثم ألبست هذه الحقيقة المحمدية لباساً من الأنوار الإلٰهية، واحتجبت بها عن الوجود، فسميت روحاً، ثم تنزلت بلباس آخر من الأنوار الإلٰهية،فكانت بسبب ذلك تسمى عقلاً، ثم تنزلت بلباس من الأنوار الإلهية آخر، واحتجبت به، فسميت بذلك قلباً. ثم تنزلت بلباس من الأنوار الإلهية، واحتجبت به، فكانت بسبب ذلك نفساً.

تنبيه شريف: اعلم أنه لما خلق الله الحقيقة المحمدية، أودع فيها سبحانه وتعالى جميع ما قسمه لخلقه من فيوض العلوم والمعارف والأسرار والتجليات والأنوار والحقائق بجميع أحكامها ومقتضياتها ولوازمها، ثم هو ﷺ إلى الآن يترقى في شهود الكمالات الإلهية مما لا مطمع فيه لغيره، ولا تنقضي تلك الكمالات بطول أبد الآباد.

ومن جواهر العارف التجاني أيضاً

[الصلاة الغيبية في الحقيقة الأحمدية]

قوله رضي الله عنه في أول شرح «الصلاة الغيبية في الحقيقة الأحمدية»: اعلم أن معنى الصلاة الغيبية يعني أنها برزت من الغيب، ليست من إنشاء أحد وأما الحقيقة الأحمدية، فهي الأمر الذي سبق به ﷺ في الحمد لله كل حامد من الوجود، فما حمد الله أحد في الوجود مثلما حمده النبي ﷺ في الوجود.

ثم إنها في نفسها، أي الحقيقة الأحمدية غيب من أعظم غيوب الله تعالى، فلم يطلع أحد على ما فيها من المعارف والعلوم والأسرار والفيوضات والتجليات والمنح والمواهب والأحوال العلية والأخلاق الزكية... فما ذاق منها أحد شيئاً، ولا جميع الرسل والنبيين، اختص بها ﷺ بمقامها.

وكل مدارك النبيين والمرسلين وجميع الملائكة والمقربين وجميع الأقطاب والصديقين وجميع الأولياء والعارفين... كل ما أدركوا على إجماله وتفصيله إنما هو من فيض حقيقته المحمدية.

وأما حقيقته الأحمدية، فلا مطمع لأحد بنيل ما فيها، فالحاصل أن له ﷺ مقامين، مقام حقيقته الأحمدية وهو الأعلى، ومقام حقيقته المحمدية وهو أدنى ولا أدنى فيه وكل ما أدركه

جميع الموجودات من العلوم والمعارف والفيوضات والتجليات والترفيات والأحوال والمقامات والأخلاق. . . إنما هو كله من فيض حقيقته المحمدية ﷺ.

وأما ما في حقيقته الأحمدية، فما نال منه أحد شيئاً، اختص به وحده ﷺ لكمال عزها وغاية علوها. فهذه هي الحقيقة الأحمدية.

ثم قال عند قوله «المفيض على كافة من أوجدته بقيومية سرك»: هذا وصف للنبي ﷺ لأنه مفيض على كافة خلق الله على العموم، والاطلاق في كل ما ينالهم من المنافع ديناً ودنيا وأخرى، ومن جميع المضار كذلك، فإنه مفيض لجميعها ﷺ على جميع الوجود ثم وصف جميع الوجود بأنه كافة من أوجدته بقيومية سرك والخلق كلهم أوجدهم الله تعالى بقيومية السر الإلهي.

ثم قال عند قوله: «المدد الساري في كلية أجزاء موهبة فضلك»: معناه هو المفيض على كافة الوجود. والشيء الذي يفيضه هو مدده الساري في جميع الوجود، فإن الفيض الإلهي من الحضرة الرحمانية لجميع الوجود، ومن الأزل إلى الأبد يجتمع ذلك الفيض كله في الحقيقة المحمدية، ثم يسري منه ﷺ منقسماً على جميع الوجود على حد قوله ﷺ: «إنما أنا قاسم والله» معط. أخبر أن العطاء الأول وهو الاقتطاع الإلهي كان مفصلاً في القسمة على ما نفذت به المشيئة الإلهية، والاقتطاع أولاً كان من الله لجميع خلقه، والتقسيم هو تناوله من يد الملك أو من حضرته وتوصيله إلى من أمر بإعطائه كان نائباً عنه ﷺ فهو في ذلك بمنزلة العبد الذي يأمره الملك بتوصيل العطايا إلى الناس، فهو يوصلها إلى أربابها على قدر ما أراده الملك، فهذا معنى الحديث وهو «إنما قاسم والله معطِ» وكما قال الشيخ الأكبر في صلاته، في وصفه ﷺ: «القلم النوراني، الجاري بمداد الحروف العاليات والنفس الرحماني، الساري بمواد الكلمات التامات» فهذا السريان منه ﷺ بجميع الوجود ما نفذت به مشيئة الله لجميع الوجود لا يتأتى إيصاله إلى أربابه الا بنيابة رسوله ﷺ فيه مطلقاً وعموماً من غير شذوذ ولا تخصيص. ثم ذكر أن الناس على أربعة أصناف في الاقتداء به ﷺ.

الصنف الأول: العلماء اقتدوا به ﷺ في أقواله، **والصنف الثاني**: العباد اقتدوا به ﷺ في أفعاله، **والصنف الثالث**: الصوفية اقتدوا به ﷺ في أخلاقه، **والصنف الرابع**: العارفون المحققون اقتدوا به ﷺ في أحواله.

ثم ختم شرح هذه الصلاة بفائدة عظيمة في مسألة إهداء الثواب له ﷺ فقال رضي الله عنه في جواب سؤال خليفته عن ذلك: اعلم أنه ﷺ غني عن جميع الخلق جملة وتفصيلاً، فرداً فرداً، وعن صلاتهم عليه، وعن إهدائهم ثواب الأعمال له ﷺ بربه أولاً وبما منحه من سبوغ فضله وكمال طوله، فهو عند ربه ﷺ في غاية لا يمكن وصول غيره إليها، ولا يطلب معها من غيره زيادة أو إفادة، يشهد لذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] وهذا العطاء، وإن ورد من الحق بهذه الصفة السهلة المأخذ، القريبة المحتد، فإن لها غاية لا تدرك العقول أصغرها، فضلاً عن الغاية التي هي أكبرها. فإن الحق سبحانه وتعالى يعطيه من فضله على قدر سعة بوبيته، ويفيض على مرتبته ﷺ على قدر حظوته ومكانته عنده.

وما ظنك بعطاء يرد من مرتبة لا غاية لها، وعظمة ذلك العطاء على قدر تلك المرتبة، ثم يرد على مرتبة لا غاية لها أيضاً، وعظمته على قدر وسعها أيضاً، فكيف يقدر هذا العطاء، وكيف تحمل العقول سعته؟.

ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:١١٣] وأقل مراتبه في غناه ﷺ أنه من لدن بعثته إلى قيام الساعة كل عامل يعمل الله ممن دخل في طوق رسالته ﷺ يكون له مع ثواب عمله بالغاً ما بلغ، فليس يحتاج مع هذه المرتبة إلى زيادة لهذا الثواب، لما فيها من كمال الغنى الذي لا حد له.

وهذه أصغر مراتب غناه ﷺ فكيف بما وراءها من الفيض الأكبر، والفضل الأعظم الأخطر، الذي لا نطيق حمله عقول الأقطاب فضلاً عمن دونهم؟ وإذا عرفت هذا، فاعلم أنه ليست له حاجة إلى صلاة المصلين عليه ﷺ ولا شرعت لهم ليحصل له النفع بها ﷺ وليست له حاجة إلى إهداء الثواب ممن يهدي له ثواب الأعمال.

وما مثل المهدي له في هذا الباب ثواب العمل متوهماً أنه يزيد به ﷺ أو يحصل له به نفعاً، إلا كمن رمى نقطة قلم في بحر طوله مسيرة عشر مائة ألف عام، وعرضه كذلك، وعمقه كذلك متوهماً أنه يمد هذا البحر بتلك النقطة ويزيده.

فأي حاجة لهذا البحر بهذه النقطة، وماذا عسى أن تزيد فيه؟ وإذا عرفت رتبة غناه ﷺ وحظوته عند ربه، فاعلم أن أمر الله للعباد بالصلاة ﷺ ليعرفهم علو مقداره عنده، وشفوف مرتبته لديه، وعلو اصطفائه على جميع خلقه، وليخبرهم أنه لا يقبل العمل من عامل إلا بالتوسل إلى الله به ﷺ، فمن طلب القرب من الله تعالى، والتوجه اليه دون التوسل به ﷺ معرضاً عن كريم جنابه، ومدبراً عن تشريع خطابه، كان مستوجباً من الله غاية السخط والغضب، وغاية اللعن والطرد والبعد، وضل سعيه، وخسر عمله، ولا وسيلة إلى الله إلا به ﷺ كالصلاة عليه ﷺ وامتثال شرعه، فإذاً فالصلاة عليه ﷺ فيها تعريف لنا بعلو مقداره عند ربه، وفيها تعليم لنا بالتوسل به ﷺ في جميع التوجهات والمطالب، لا غير هذه من توهم النفع له بها ﷺ لما ذكرناه سابقاً من كمال الغنى.

وأما إهداء الثواب له ﷺ فتعقل ما ذكرنا من الغنى أولاً، ثم تعقل مثالاً آخر يضرب لإهداء الثواب له ﷺ بملك عظيم المملكة، ضخم السلطنة، قد أوتي في مملكته من كل متمول خزائن لا حد لعددها كل خزانة عرضها وطولها من السماء إلى الأرض مملوءة، كل خزانة على هذا القدر ياقوتاً أو ذهباً أو فضة أو زروعاً أو غيرها من المتمولات... ثم قدر فقير لا يملك مثلاً غير خبزتين من دنياه، فسمع بالملك، واشتد حبه وتعظيمه له في قلبه، فأهدى

لهذا الملك إحدى الخبزتين معظماً له ومحباً، والملك متسع الكرم، فلا شك أن الخبزة لا تقع منه ببال، لما هو فيه من المغنى الذي لا حد له.

فوجودها عنده وعد بها على حد سواء ثم الملك لاتساع كرمه علم فقر الفقير وغاية جهده، وعلم صدق حبه وتعظيمه في قلبه، وأنه ما أهدى له الخبزة إلا لأجل ذلك، ولو قدر على أكثر من ذلك لأهداه له، فالملك يظهر الفرح والسرور بذلك الفقير وبهديته لأجل تعظيمه له، وصدق حبه لا لأجل انتفاعه بالخبزة، ويثيب على تلك الخبزة بما لا يقدر قدره من العطاء لأجل صدق المحبة والتعظيم، لا لأجل النفع بالخبزة، وعلى هذا التقدير وضرب المثل قدر إهداء الثواب له ﷺ.

وأما غناه عنه ﷺ فقد تقدم ذكره في ضرب المثل بعظمة البحر المذكور أولاً، وأمداده بنقطة القلم.

وأما إثابته ﷺ فقد ذكر المثل لها بإهداء الخبزة للملك المذكور والسلام.

ومنهم الإمام العلامة شرف الدين، أبو العباس، أحمد بن عبد الله بن محمد ابن قدامة المقدسي الحنبلي رضي الله عنه ولا يحضرني تاريخ وفاته

فمن جواهره رضي الله عنه

[تحقيق البرهان في رسالته ﷺ إلى الجان]

«كتابه تحقيق البرهان في رسالة محمد ﷺ إلى الجان»، وهو فتوى عن سؤال ورد عليه في هذا الشأن، ونص ذلك:

بسم الله الرحمن الرحيم، وعليه اعتمادي: ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين فيمن ذهب من العلماء المحققين إلى وجوب الإيمان بكونه ﷺ مبعوثاً إلى كافة الجن؟ ما دليله على ذلك؟ إذ لا يجوز أن يستند إلى الأنبياء ما لادليل عليه وثبوت رسالة الله من غير دليل تقوّل وافتراء عليه، وهذا حرام لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٦٩] ولا دليل في قوله: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف:٣١] للإجماع على وجوب الإيمان بجميع أنبياء الله كتبه على جميع المكلفين، كما وجب علينا الإيمان بموسى وعيسى، ولم يكونا مرسلين إلينا، ولا في سورة الجن بيان عقائدهم وتنزيه الله تعالى عن الشرك، ولا في قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

وقوله ﷺ: «بعثت إلى الأسود والأحمر» لعدم نصه صريحاً على ذلك، ولا تثبت الرسالة باحتمال مرجوح لا دليل عليه، ولا فيما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ استتبعه ليلة الجن لضعفه، ولقول علقمة: سألته هل كنت معه ﷺ ليلة الجن؟ قال: لا.

وثبت في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم ير النبي ﷺ الجن، ولا تلا عليهم القرآن. فإن ثبت أنه ﷺ ادعى ذلك، وجب الإيمان به وزال الإشكال، إذ لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا منه، وإلا فهل يجب تقليد من ذكر ذلك من العلماء؟ ولا تبعه على المقلد عند الله إذا سأله، ولا يخفى مافي التقليد في مثل ذلك، أو لا يكفي الإيمان بالنبي ﷺ وجميع ما جاء به، وإن لم يكن معلوماً لنا، كالإيمان بأنبياء الله الذين لم يقصصهم علينا.

وما معنى قوله ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». هل التخصيص باعتبار ما بعثوا به من الشرائع المختصة بأمة دون أخرى لا تفاقهم على أصول الدين، أم باعتبار مجموع الأمرين، أعني الأصول والفروع حتى لا يكون الرسول الخاص منذراً بالأصول والفروع سوى قومه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] الآيات لأن موسى عليه السلام بيّن لقومه ضلال أولئك.

ولم يصرح القرآن العزيز بأنه نهاهم عن ذلك ودعاهم افتونا مثابين رحمكم الله. فأجاب شيخ الإسلام شرف الدين أبو العباس، أحمد بن الحسن بن عبد الله بن قدامة الحنبلي: أمتع الله بطول بقائه أما بعد حمد الله ذي القدرة الظاهرة والسلطان، والرأفة الباهرة، والإحسان والصلاة على سيدنا محمد المنبعث إلى الأنس والجان، بحقائق الإيمان، وعلى آله وصحبه ما اختلف العصران، وتعاقب الجديدان فهذا جواب عن السؤال المذكور في طلب الدلائل على تناول رسالة سيدنا محمد ﷺ الجن، وتحقيق ذلك ببراهينه، وإن رسالته الشريفة اشتملت على دعائه الثقلين إلى طاعة الله تعالى والائتمار بالأوامر الشرعية والتكاليف الخفية، ويعرف ذلك بمسالك.

المسلك الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

وأخبر الله تعالى أنه صرفهم إلى رسوله ﷺ ليستمعوا القرآن، وأنهم ولوا إلى قومهم منذرين آمرين لهم بإجابة داعي الله، وهو محمد ﷺ والإيمان به، وأن من لا يجب داعي الله، فليس بمعجز في الأرض. وقوله: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ [الأحقاف: ٢٩] يعني القرآن، وكذلك ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] أي فرغ الرسول ﷺ من تلاوته. وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

قال عطاء: كان دينهم اليهودية، ولذلك قالوا من بعد موسى. والقصة ثابتة مشهورة. قال ابن عباس: كانوا سبعة من جن نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم. وقالت طائفة: كانوا تسعة. قال زر بن حبيش: كانوا أربعة من النفر الذين استمعوا القرآن.

«وقول السائل»: لا دليل في قوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٣١] للإجماع على وجوب الإيمان بجميع أنبياء الله، وكتبه على جميع المكلفين، كما وجب الإيمان بموسى وعيسى، وإن لم يكونا مرسلين إلينا، فيقال: إن الأمر بإجابة داعي الله

والإيمان به، وهو محمد ﷺ يقتضي الدخول في شرعه، والانقياد لأوامره، والانزجار عن نواهيه، والتلبس بأحكامه وتكاليفه على الوجه المأمور به.

فهو يقتضي طاعته فيما أمر به، وتصديقه فيما أخبر، ليس مقتصراً على مجرد الاعتراف فقط ووجوب الإيمان بأنبياء الله تعالى وكتبه حق، لكن شريعة محمد ﷺ جاءت ناسخة ورافعة أحكاماً، ومقررة أحكاماً، ومنشئة أحكاماً؛ فالأمر بالإيمان بمحمد ﷺ، وإجابة أمره بما دل شرعه عليه من النسخ والتقرير والإنشاء، وهو يقتضي الدخول فيه والتلبس به اعتقاداً وفعلاً، فليس ذلك مماثلاً لما ذكره السائل ومما يؤكد الحكم أن الله تعالى عطف الإيمان به على إجابته، وإن كان الإيمان داخلاً في الإجابة، لكن ذكره ذكر تنصيص، فهو كقوله تعالى وملائكته وجبريل وميكائيل تأكيداً وتعظيماً لشأنه.

المسلك الثاني: ثبت في صحيح مسلم عن علقمة، قال: قلت لابن مسعود، هل صحب النبي ﷺ ليلة الجن منكم أحد؟ قال: ما صحبه منا أحد، ولكنا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب، فقلنا استطير أو اغتيل.

فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فقلنا: يارسول الله؛ فقدناك فطلبناك، فلم نجدك، فبتنا بشر ليلة بات بها قوم.

قال: أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن. قال: فانطلق بنا فأرانا آثار نيراهم.

وسألوه الزاد، فقال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم. فقال رسول الله ﷺ: فلا تستنجوا بهما، فإنهما لعام إخوانكم زاد.

في رواية قال الشعبي: وكانوا من جن الجزيرة. وهذا إخبار بأن النبي ﷺ ذهب إليهم، وتلا عليهم القرآن، وأباح لهم، وحظر عليهم... وهو تحقيق كونه مرسلاً إليهم.

وقد روى أنهم بايعوه ﷺ وكانوا سبعين ألفاً. كذا أخرجه القاضي أبو يعلي وغيره بأسانيدهم، لكن هو عن ابن مسعود، وهو قد قال: إنه لم يكن معه تلك الليلة هو ولا غيره.

وأما حديث ابن مسعود الذي فيه ذكر الوضوء بنبيذ التمر، فله طرق كثيرة أخرجها الإمام أحمد والدارقطني وغيرهما، كحديث أبي زيد وأبي فزارة العبسي بأسانيد متكلم فيها. وقد قال الإمام أحمد أبو فزارة في حديث ابن مسعود: رجل مجهول.

وقال الترمذي: أبو زيد مجهول، وكطريق عبد الله بن لهيعة، وعلي بن زيد، والحسن

العجلي قلت: وطرفه كثيرة، وقد ضعفه كثير من الأئمة كاللالكائي والبيهقي، وضعفه أبو جعفر الطحاوي تارة لضعف الأسانيد، وتارة لقول ابن مسعود: إنه لم يصحب النبي ﷺ تلك الليلة، ومداره عليه ويمكن أن يقال لا بأس به لتعدد طرقه، ولا منافاة بينه وبين نفي ابن مسعود، كونه كان مع النبي ﷺ تلك الليلة، فإنه لا ينفي أن يكون رسول الله ﷺ طلب الماء منه في حالة الرجوع حيث وجدوه، كما ذكرنا من الحديث الصحيح، من لقيهم له ﷺ وانطلاقهم معه، فيمكن الجمع بين الروايتين، فإن في لفظه ما كان ليلة الجن، وهذا كان بعد انفصاله ﷺ منهم حديث النبيذ وإن صح فمدلوله جواز التوضؤ بالماء المتغير بالطاهرات، لا بما انتقل عن مسمى الماء.

ولهذا «قال ثمرة طيبة وماء طهور»، وهذا لا يقال إلا فيما إذا كان الماء قائماً بصفاته إذ لا يقال فيما انتقل عن مسمى الماء كالخل مثلاً عنبة طيبة وماء طهور لعدم كون الماء قائماً بصفاته في الخل. والمقصود هنا أن الحديث الثابت، الذي لا مطعن فيه، أنه ذهب إليهم وتلا عليهم القرآن، وسألوه الزاد، وأباح لهم مشروطاً، كما تقدم وهو دليل صريح فيما ذكرناه.

فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن، ولا رآهم. انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسل إليهم الشهب؛ فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم قالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب. قالوا: وماذاك إلا لشيء قد حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فمر النفر الذين أخذوا إلى تهامة بالنبي ﷺ وهو في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بهم صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن، استمعوا له، وقالوا: هذا الذي حال بيننا وبين خبر السماء. فرجعوا إلى قومهم ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١ - ٢] فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ؟ قل: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الجن: ١] زاد في رواية أن ما أوحي إليه قول الجن. قيل الجواب من أوجه.

أحدها: أن ابن مسعود مثبت، وهذه الرواية نافية. والمثبت مقدم على النافي، كما قالوا في رواية من أثبت صلاة الرسول ﷺ داخل الكعبة، ورواية من نفاها. ولا شك أن المثبت معه علم خفي عن النافي.

الثاني: أن نفي ابن عباس رضي الله عنهما لقراءة رسول الله ﷺ إنما هو حيث استمعوا التلاوة في صلاة الفجر لم يرد به، نفي الرؤية والتلاوة في عموم الأحوال يحققه قول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية. قال: كانوا سبعة من جن

نصيبين، فجعلهم رسول الله ﷺ رسلاً إلى قومهم فعلم أن ابن عباس لم ينف كلامه ﷺ إلاّ حيث سمعوه، وهو يصلي الفجر بأصحابه. لم يرد في كل حالة وإن كان في الكلام نفي عام، فهو محمول على تلك الصورة الخاصة.

وقد قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]: كادوا يعني الجن يركب بعضهم بعضاً، ويزدحمون عليه حرصاً على استماع القرآن.

الثالث: أن يقال: لا معارضة بين الخبرين، فإن ابن مسعود أثبت التلاوة والمسألة ليلة استماع الجن لها، وابن عباس لم يثبتها ليلة استماع الجن لها. أعني التلاوة ولم يثبت أن الجن الذين استمعوا التلاوة في صلاة الصبح هم الذين ذهب إليهم النبي ﷺ وصلى الله تعالىٰ عليهم، بل الظاهر أنهم غير أولئك، كما يشهد له ظاهر القصة، فهي إذاً صورتان وحالتان.

ومعنى قول ابن عباس: لم يتل عليهم يعني لم يقصدهم، وإلا فهو قد أخبر أنهم استمعوا لتلاوته ﷺ قال القرطبي في حديث ابن عباس هذا: معناه لم يقصدهم بالقراءة، بل لما تفرقوا يطلبون الخبر الذي حال بينهم وبين استراق السمع، صادف هؤلاء النفر رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه، وعلى هذا فهو ﷺ لم يعلم باستماعهم ولا كلمهم، وإنما أعلمه الله عز وجل في قوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الجن: ١].

وأما حديث ابن مسعود، فقصة أخرى وجن آخرون. والحاصل من الكتاب والسنة العلم القطعي بأن الجن والشياطين موجودون، متعبدون بالأحكام الشرعية على النحو الذي يليق بخلقهم وحالهم، وأن نبينا ﷺ مبعوث إلى الإنس والجن، فمن دخل في دينه، فهو من المؤمنين ومعهم في الدنيا والآخرة والجنة، ومن كذبه فهو الشيطان المبعد من المؤمنين في الدنيا والآخرة، والنار مستقرة.

وهذا الحديث يعني حديث ابن عباس يقتضي أن الرجم بالنجوم لم يكن قبل البعث، وذهب قوم إلى أنه كان قبل البعث، وذهب آخرون إلى أنه كان لكن زاد بعد البعث، وهذا القول يرفع التعارض بين الخبرين انتهى كلام القرطبي.

قلت: كون حديث ابن عباس رضي الله عنهما في غير حالة استماع الجن للتلاوة في صلاة الفجر ظاهر جداً لكن قول القرطبي... إن النبي ﷺ لم يعلم بهم يخالف قول ابن عباس إن النبي ﷺ جعلهم رسلاً إلى قومهم. ويحتمل أن يقال: كان إرساله ﷺ إلى قومهم قبل ذلك والله اعلم.

المسلك الثالث: أن الجن سألوه الزاد، ولو لم يكونوا مرتبطين بأحكامه ومتعبدين بأوامره، لكانوا مطلقين في اختياراتهم وتصرفاتهم بحسب شرعهم، فلما سألوه الزاد ومن

المعلوم أنهم كانوا يأكلون قبل رسالته إليهم علم أنهم احتبسوا عن التناول وقوفاً لمراسمه وتعبداً بإباحته.

المسلك الرابع: الاحتجاج بقوله ﷺ: «**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه**» واللام في لكم لام إباحة، فدل على أنه شرع لهم، وأذن لهم في كل عظم ذكر عليه اسم الله، فدل بمنطوقه على إباحة العظام التي سمي عليها الله سبحانه لهم، وبمفهومه على تحريم ما لم يذكر عليه اسم الله من العظام، وهو يدل على تحريمه علينا بالطريق الأولى، ثم أنه ﷺ أباح لهم إطعام دوابهم كل بعرة، ثم نهى عن الاستنجاء بهما قال: «**لأنهما زاد إخوانكم**» ومن المعلوم أن الأخوة ليست أخوة نسب، فهي أخوة دين وإيمان بمحمد ﷺ تصديقاً وانقياداً ويقتضي الحديث النهي عن الاستنجاء بعموم الطعام.

المسلك الخامس: الاستدلال بقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١ - ١٥] فأخبر الله تعالى أنهم آمنوا بالقرآن حيث استمعوه والإيمان به يقتضي الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به، وبكونه خاتم النبيين، وهو نص في كونه مرسلاً إليهم.

وقول السائل: «لا حجة فيها، لأنها ليس فيها بيان عقائدهم» فيقال: إذا أخبر الله تعالى عنهم أنهم استمعوا القرآن وآمنوا به، كيف لا يكون هذا من الحجج القواطع في إيمانهم به، وثبوت رسالته إليهم، لما تقدم أن الإيمان به مقتض تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر؟.

وقوله: «لا حجة فيها لكونها وصف عقائدهم» فيقال: وصف عقائدهم بكونهم آمنوا قاطع بإيمانهم، فكيف لا يكون حجة على إيمانهم؟ فالتعلق بما ذكره السائل في سلب الحجة منها محال.

المسلك السادس: الاستدلال بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] والعبد المذكور هو محمد ﷺ بإجماع الأمة. والضمير في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ [الفرقان: ١] عائد إليه عند جمهور العلماء.

ومن الناس من ذهب إلى أن النذير المذكور هنا هو القرآن، والحجة قائمة بهذا أيضاً، لكن القول الأول أرجح، لأن النذير من صفات الرسول حقيقة لحصول الإنذار بقوله: وإذا أخبر الله تعالى أنه أنزل على عبده الكتاب الذي هو الفرقان، ليكون للعالمين نذيراً، ادخل في ذلك الجان كدخول الإنس لا محالة، لأنهم من العالمين.

وعلى هذا فيترجح تفسير العالمين هنا بمن يعقل أخذاً من العلم، لا من مجرد العلامة لاختصاص الإنذار بمن يعقل. والحجة ظاهرة من هذه الآية الكريمة، وقد قرئ في الشاذ على عباده، فيكون الإنذار عائداً إلى الله سبحانه وتعالى.

المسلك السابع: الاستدلال بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] فالله تعالى أنزل القرآن على عبده لينذر العالمين، وقد ثبت أنه أنذر الجن كما أنذر الإنس، وأن القرآن بلغهم.

والمراد به من بلغه القرآن، وليس المراد به البلوغ بمعنى الاحتلام، لأن خطاب ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ [الأنعام:١٩] إنما تناول المكلفين، فاشتراط التكليف في المعطوف يقتضي عدم كونه شرطاً في الأول، وهو خلاف الإجماع، ولهذا قال السلف رضوان الله عليهم من بلغه القرآن فقد أنذر بإنذار النبي ﷺ.

وقول السائل: لا حجة في هذه الآية، ولا في قوله ﷺ: «بعثت إلى الأسود والأحمر»[١] لعدم نصه صريحاً على ذلك، فلا تثبت الرسالة باحتمال مرجوح ساقط جداً، وذلك أن العموم إذا كان قائماً كان المقتضى للتناول ظاهراً، فإذا انضم إلى ما ذكرناه صار قاطعاً، فكيف يكون مرجوحاً؟ وهل قال أحد ممن اعترف بصيغ العموم إن تناول العام لبعض أفراده مرجوح، أو أنه إذا لم يكن نص صريح، لم تكن فيه حجة هذا سلب لجميع صيغ العموم من الاحتجاج بها، وجعل بعض أفراد بها مرجوح التناول بمجرد الرأي العاري عن دليل، ولا يقول هذا أحد من العلماء.

فصل: فأما قوله ﷺ: «بعثت إلى الأحمر والأسود» فهو حديث ثابت في الصحيحين من حديث أبي هريرة، وقد اختلف العلماء وأرباب اللغة في المعنى المراد من الأحمر والأسود هنا، فقيل هم العجم والعرب، لأن الغالب على العجم الحمرة والبياض، وعلى ألوان العرب الأدمة والسواد. وقيل: أراد الجن والإنس. وقيل إراد بالأحمر الأبيض مطلقاً، فإن العرب تقول: امرأة حمراء أي بيضاء وسئل ثعلب: لم خص الأحمر دون الأبيض؟ قال: لأن العرب لا تقول: رجل أبيض من بياض اللون، إنما الأبيض عندهم الطاهر النقي من العيوب.

فإذا أرادوا الأبيض من اللون، قالوا: الأحمر. قال ابن الأثير: وفي هذا القول نظر، فإنهم قد استعملوا الأبيض في ألوان الناس وغيرهم، ومنه الحديث: «أعطيت الكنزين الأحمر

(١) رواه أحمد في المسند (٤: ١١٦). والهيثمي في مجمع الزوائد (٦: ٦٥).

والأبيض»[(١)] وهما ما أفاء الله على رسوله وأمته من كنوز الملوك؛ فالأحمر الذهب، والأبيض الفضة كنوز الروم، لأنها الغالب على نقودهم. قلت: ويترجح التفسير بالجن والإنس، لأن الحديث قد جاء من طريق أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «**وبعثت إلى الخلق كافة**» كما نذكره، وهو يرجح أن المراد بالأسود الجان.

الثاني: إن إطلاق السواد على الجن صحيح باعتبار مشابهتهم الأرواح، والأرواح يقال لها: أسودة، كما في الحديث الصحيح حديث الإسراء وأنه رأى آدم ﷺ في سماء الدنيا وعن يمينه أسودة، وعن يساره أسود، وأنها نسم بنيه المؤمنين وغيرهم.

المسلك الثامن: أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ «**فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة**»:[(٢)] قال البخاري: ويكفي من جوامع الكلم أن الله تعالى يجمع له الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد، أو الاثنين قلت قوله ﷺ: «**وأرسلت إلى الخلق**» يعني المخلوقين كافة، أي جميعاً، وهو حجة ظاهرة في تناول رسالته الشريفة الجن والإنس.

المسلك التاسع: أخرج الترمذي وغيره من الحفاظ عن جابر بن عبد الله، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها، فسكتوا، فقال: «**لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم**». كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣] قالوا: «**ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد**».

وفي رواية بعضهم: «**فكانوا أحسن رداً وثناء، ولا بشيء من آلائك**»، وهذا الحديث شاهد لحديث ابن مسعود في ذهاب النبي ﷺ إلى الجن وتلاوته عليهم القرآن، ووجه الاحتجاج منه أنه ﷺ قرأ عليهم سورة الرحمن على ما فيها من الأمور المتعلقة بالجان، وقالوا عند ذكر آلاء في كل مرة: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب والآلاء هي النعم، قال الشاعر:

أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحماً ولم يخن آلاء

أنشده الأزهري، وذكر أن ألاً واحد الآلاء، وهي النعم، ومن أكبر نعمه سبحانه على عباده إرسال محمد ﷺ بالهداية إلى الإيمان، وأخبر عنهم أنهم لا يكذبون بذلك، فدل على

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (المساجدة) والترمذي في السنن (١٥٥٣). وابن حنبل في المسند (٢: ٤١٢). والبيهقي في السنن الكبرى (٢: ٤٣٢، ٩: ٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٢٣، ٢٨٤).

إيمانهم بالرسالة إليهم، وثبوت تكليفهم بحكمها. وهذه الصورة الشريفة تضمنت أموراً متعلقة بالجان، كقوله: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٍ﴾ [الرحمن:٣٣] وقوله: ﴿ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢] ﴿ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن:٧٤] أي قبل أزواجهن في موضعين من السورة.

المسلك العاشر: إن الجن داخلون في مسمى الناس لغة، لأن الناس من ناس ينوس إذا تحرك، والألف منقلبة عن واو، هي عين الكلمة، وتصغيره نويس، قال الرغب: الناس جماعة حيون ذوو فكر وروية والجن لهم فكر وروية ويتركون فيي مراداتهم، ولهذا دخلوا في عموم الناس في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١] وفي قوله ﴿ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥ - ٦] بناء على أن الجن موسوس لهم. قال العلماء: فسموا أناساً، كما سموا رجالاً في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الجن:٦] فسمى الجن رجالاً كما سمى الإنس رجالاً وإذا ظهر هذا، فقوله تعالى ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨] وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١] الآيات، وقوله ﷺ: «وبعث إلى الناس كافة» يتناول جميع ذلك الجن، ويقتضي ثبوت رسالته إليهم دخولهم تحت شرعه. وهذا ظاهر.

المسلك الحادي عشر: إن الله تعالى يهدي الإنس والجن جميعاً بالقرآن تخصيصاً بحقيه إعجازه، وعجز الخلق عن الإتيان بمثله، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء:٨٨] وأخبر أنهم لا يأتو بسورة مثله، فقال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ﴾ [البقرة:٢٤] فتناول هذا الجن لكونهم من الناس، وقد قال في أول الآية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة:٢١] فذكرهم في معرض التحدي لهم مع الإنس دليل على تناول الرسالة لهم، ودخولهم تحت الأمر والنهي من جهة النبي ﷺ وبدأ في هذه الآية الكريمة بالإنس قبل الجن، لكونهم أفضل وأفصح، وبدأ بالجن في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] لأن الجن وجدوا قبل الإنس، فالبداءة هنا لأجل السبق الوجودي، والبداءة هناك لأجل التمييز في الفضل والاقتدار على الفصاحة.

المسلك الثاني عشر: العلم القطعي من الكتاب والسنة حاصل بوجود الجن، ولم ينكرهم سوى قوم جهال كالفلاسفة والدهرية وبعض القدرية، وثبت أنهم مكلفون، ولا يجوز أن يكونوا خارجين عن شريعة محمد ﷺ لأنها ناسخة ورافعة وباقية مستمرة، لأنه ﷺ هو العاقب الذي لا نبي بعده، وهو الحاشر. وفي الصحيح من حديث جبير بن مطعم - رضي الله

عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ **«لي خمسة أسماء أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»**(١).

وفي رواية في الصحيح والعاقب الذي ليس بعده نبي وفي رواية في الصحيح أيضاً: وقد سماه الله رؤوفاً رحيماً، وكذلك قال أبو عبيد، قال يزيد بن هارون: سألت سفيان عن العاقب، قال: آخر الأنبياء. وفي الكتاب العزيز وصفه الله ﷺ بكونه خاتم النبيين. قال أبو عبيدو: كذلك كل شيء خلف شيئاً، فهو عاقب. وقد عقب يعقب. قال ابن فارس: وكل شيء جاء بعد شيء فقد عاقب ذلك الشيء، وتعاقب الرجلان الناقة إذا ركباها كل واحد منهما بعد صاحبه. قال الشاعر:

أنخهـا فـأردفـه فـإن حملتكمـا وإلا فـإن كـان العقـاب فعـاقـب

هذا مع أخبار النبي ﷺ، بنزول عيسى على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويقتل الدجال بباب لد، فشرع محمد ﷺ لا ينسخ، بل هو باق ومستمر، وعيسى ﷺ يكون حاكماً بالشريعة المحمدية عند نزوله. وإذا كان عيسى متبعاً شريعته وحاكماً بشريعته ﷺ كيف لا يكون ذلك لازماً من اتبعه؟ فبالطريق الأولى تحقيق ذلك في التابع، وكذلك موسى ﷺ أخبر الرسول ﷺ أنه لو كان حياً، ثم تركوا اتباع الرسول واتبعوه، لضلوا.

كما في الحديث الثابت أنه رأى بيد عمر ورقة من التوراة، فقال **«أمتهوكون(٢) يا بن الخطاب، لقد جئتكم بها بيضاء نقية. لو كان موسى حياً ثم اتبعتموه»**، لضلوا. كما في الحديث الثابت أنه رأى بيد عمر ورقة من التوراة، فقال: **«أمتهوكن يا ابن الخطاب، لقد جئتم بها بيضاء نقية. لو كان موسى حيا ثم اتبعتمون وتركتموني لضللتم»**(٣) وأخرجه الإمام أحمد وغيره **«لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»**. وإذا كان هذا موسى الكليم، كيف يكون التابع له؟ وقد قال السلف: إن الجن كانوا من يهود الجزيرة، ولهذا قالوا من بعد موسى: فإذا كان موسى لو كان حيا لاتبع محمدا ﷺ فكيف بأتباعه من الإنس؟ وكيف باتباعه من الجن؟ وهذا ظاهر.

المسلك الثالث عشر: ما ثبت في الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢: ١٢٣). والسيوطي في الدر المنثور (٦: ٢١٤).
(٢) متهوكون: متحيّرون [لسان العرب، مادة: هوك].
(٣) رواه أحمد في المسند (٣: ٣٨٧). والبغوي في السنن (١: ١٩٧). والسيوطي في الدر المنثور (٥: ١٤٩).

تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال: نفر من الإنس يعوذون بنفر من الجن، فأسلم النفر من الجن واستمسك الآخرون بعبادتهم، فنزلت: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهو دليل على تناول الرسالة للجن، ودخولهم تحت الخطاب الشرعي، والحكم بصحة الإسلام لمن أسلم منهم يحققه ما بعده.

المسلك الرابع عشر: وهو ما أخرجه مسلم في صحيحه عن عبد الله ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ **«ما منكم من أحد، إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة»** قالوا: وإياك يارسول الله؟ قال: **«وإياي. ولكن الله أعانني عليه، فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»**.

المسلك الخامس عشر: إن الله تعالى خلق الخلق لعبادته والقيام بامتثال أوامره، والا نزجار عن نواهيه، سواء في ذلك الجن والإنس. قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وكما في الحديث المشهور الصحيح، حديث معاذ أتدري ما حق الله على العباد إن يعبدوه ولا يشركوا به؟ واللام في قوله ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ليست معارضة للام في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩] فإن تلك دلت على أن الله سبحانه خلقهم للعبادة.

وهذه على أنه خلقهم للاختلاف، أو الرحمة أولهما. ورحمة غير المؤمنين واقعة في الدنيا بخلاف المؤمنين، فإنها لهم في الدنيا والآخرة، لأن المفعول لأجله تارة يكون مطلوبا بمعنى أنه غاية طلبته، وتارة واقعا فاللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] لام غاية طيبة لأن العبادة وقعت من البعض، والكفار لم يعبدوه سبحانه واللام في قوله: ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ [هود: ١١٩] لام غاية واقعة، فإنهم اختلفوا فتلك مطلوبة من الكل مفعولة من البعض.

إذا ظهر هذا وإن الله تعالى خلقهم لعبادته سبحانه كما أخبر وأمرهم ونهاهم، وأوجب عليهم أشياء، ثم نسخ بعضا منها إلى أن استقرت الأحكام بالشريعة المحمدية التي أكمل الله تعالى النعمة على الأمة وكملها، حيث قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

كان إرسال محمد ﷺ رحمة لجميع الخلائق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال ﷺ: **«انما أنا رحمة مهداة»**، وجعل الله تعالى شريعته أكمل الشرائع، وأمته خير الأمم كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] أي أنتم خير أمة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]

والوسط هو الخِيار، ومنه الصلاة الوسطى، وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨] قال الشاعر:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

قال الراغب: الوسط في الأصل اسم المكان الذي يسوي إليه المساحة من الجوانب في المدور، ومن الطرف في المطول؛ كالنقطة من الدائرة وكفتي الميزان من العمود، وجعل عبارة عن العدل وكذلك السوا والنصف، ويشبه به كل ما وقع بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين السرف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم جعل عبارة عن المختار من كل شيء قيل: فلان من أوسطهم نسبا، وكما جعلهم وسطا جعلهم خيرا في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ثم قال: فإن قيل: كيف جعلهم وسطاً أبخلق، أم بخُلق خصمهم به، أم بعلم ركزه فيهم، أم بشرع شرعه لهم؟ قيل: قد خصهم بكل ذلك، والظاهر من ذلك هي الشريعة التي إذا اعتبرت بسائر الشرائع، وجد لها حد الاعتدال وهو أن بني إسرائيل لماعتوا، حكى الله تعالى عنهم في غير موضع، شدد عليهم أشياء صارت عليهم آصاراً وأغلالاً، نحو: ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وكذلك أمرنا تعالى فيما ندعو به أن نقول: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ثم خفف عنهم على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام بعض التخفيف، ولذلك حكى عنه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] وتمم ذلك بمحمد ﷺ فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨][1] وقال ﷺ: «بعثت بالحنفية السمحة».

فصارت شريعته متوسطة بين الإفراط الذي هو الآصار والأغلال، وبين التفريط الذي هو الإضاعة والإهمال، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولكون هذه الأمة وسطاً، سمي مقتضاها عدلاً باتفاق العقول، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ [آل عمران: ٦٤] الآية انتهى كلامه.

---

(١) ورد في الأصل: «ميريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج» هذه الآيات بهذا الترتيب غير واردة في القرآن، بل كما أثبتناها في المتن.

وقد جمع الله تعالى في شريعة محمد ﷺ ما فرقه في الشرائع من المحاسن، ورفع عن أمته آصاراً كانت على من قبلهم وأغلالاً، كانت لازمة لهم، وكان بعض من قبلنا من توبة أحدهم إذا أذنب أن يقتل نفسه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] الآية.

فرفع الله تعالى هذا، وشرع التوبة، ونهى عن قتل الرجل نفسه، وبين تعالى أنه لو كتب عليهم ذلك ما فعله منهم إلا قليل، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦] ولو كتب ذلك لم يفعله إلا قليل، وكان التاركون مستحقين للعقوبة؛ فمن رحمته عدم كتابه ذلك عليهم، وكذلك كان في شريعة موسى ﷺ جزاء القاتل القتل عيناً، لا يجوز سواه من دية ولا غيرها. وفي شريعة عيسى عليه السلام الدية من غير قتل، وجمع الله هذا وهذا في شريعة نبينا محمد ﷺ فإن شاء الولي الاقتصاص أوقعه، وإذا أراد الدية أخذها رحمة وتوسعة.

وكذلك إزالة النجاسات طائفة تلابسها وطائفة تقرضها، وجاءت الشريعة المحمدية بغسلها من غير إيجاب قرض ولا جواز ملابسة. وكذلك غلت اليهود في أشياء ورخصت النصارى في أشياء، وجاءت هذه الشريعة المحمدية بالحكم الوسط والأمر العدل. وإذا تحقق هذا، فالجان خلق من خلق الله تعالى، خلقهم لعبادته ليثيب مطيعهم ويعاقب ممتنعهم، فكان من الواضح تعبدهم بشريعة محمد ﷺ لما جمع الله تعالى فيها من المحاسن، وحققه من الفضائل.

قال الراغب أيضاً: علمنا تأييد شرع محمد ﷺ حصل لنا بقوله ﷺ وبرهان، وهو أن دينه ﷺ بالاعتبار العقلي وسط، كما وصفه الله تعالى بقوله سبحانه وتعالى: ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وأنه مصون عن الإفراط والتفريط، والوسط الذي هذا صفته هو الحق الذي قال تعالى فيه: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢] قال ولشرح هذا موضع غير هذا.

«فصل» في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] قال العلماء: المعشر جماعة أمرهم واحد، والجمع المعاشر. واختلف العلماء هل كان من الجن رسل أم لا فذهب الجمهور من العلماء إلى أنه لم يكن من الجن رسول، وإنما كانت الرسل من الإنس.

وأجابوا عن قوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] يعني من أحدكم، وهو الإنس، وهو كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] وإنما يخرج من أحدهما، وهو الملح دون العذب.

وإنما جاز ذلك لأن ذكرهما قد جاء في قوله: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الفرقان: ٥٣] قالوا: وهذا جائز في كل ما اتفق في أصله، فلذلك لما اتفق ذكر الجن مع الإنس، جاز مخاطبتهما بما ينصرف إلى أحد الفريقين وهو الإنس.

وهذا قول الفراء والزجاج، وهو مذهب جماعة من العلماء. قال الواحدي: ودل عليه كلام ابن عباس، لأنه قال: يريد أنبياء من جنسكم، ولم يكن من جنس الأنبياء جن. وذهب قوم إلى أنه أرسل من الجن رسل منهم، كما أرسل إلى الأنس رسلاً منهم، قال الضحاك: من الجن رسل كما من الإنس رسل، واحتج قائل: هذا بالآية، وأجيب عنه بأن الله تعالى قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا يقتضي أن تكون الرسل بعضاً من أبعاض هذا المجموع، ففيه وفاء بمدلول الآية، مع عدم إرسال الرسالة من الجن، وقيل إن الرسل جميعهم من الإنس إلا أن الله تعالى يلقي الداعية في قلوب قوم من الن، حتى يسمعوا كلام الرسل من الإنس، ثم يأتوا قومهم من الجن، فيحدثونهم بما سمعوا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وهذا يقتضي أن تكون الرسل بعضاً من أبعاض هذا المجموع، ففيه وفاء بمدلول الآية، مع عدم إرسال الرسالة من الجن.

وقيل: إن الرسل جميعهم من الإنس إلا أن الله تعالى يلقي الداعية في قلوب قوم من الجن، حتى يسمعوا كلام الرسل من الإنس، ثم يأتوا قومهم من الجن، فيحدثونهم بما سمعوا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

المسلك السادس عشر: في الكلام على مفردات السؤال قوله كافة الجن ينبغي أن يقال: الجن كافة لأن كافة لا تأتي إلا متأخرة منصوبة، غير مصحوبة بالألف واللام، ذكر هذا غير واحد كالكرماني وغيره.

قوله: ما دليله على ذلك؟ قلنا قد ذكرنا الأدلة، وذكرنا ما قاله القرطبي أن العلم القطعي من الكتاب والسنة حاصل بذلك.

قوله: إذ لا يجوز أن يسند إلى الأنبياء ما لادليل عليه؟ قلنا: ولم يسند هذا أحد من العلماء، ولم يدعه أحد من الفضلاء، بل لو نظر في هذا عرف دليله كالشمس ضحى.

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

قوله: ولا دليل في قوله تعالى: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١] قلنا: قد ذكرنا إن هذه الآية الكريمة نص صريح في ثبوت دعايتهم وحقيقة الإرسال إليهم، وإن الإيمان به ﷺ يقتضي الدخول في شرعه. قوله: ولا في سورة الجن؟.

قلنا: قد تقدم الكلام على هذا، وإن احتج السائل بكونها وصفاً لعقائدهم ليس مستمسكاً لما يدعيه، ففيها ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن:١٣] وأي دليل أصرح من هذا قوله: ولا في قوله تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩] قلنا: قد تقدم الكلام، وبينا أن ما ذكره السائل لا يقوله أحد ممن يعترف بصيغ العموم، فإن الصيغة إذا كانت قائمة كان التأول ظاهر، أو يمنع أن يكون مرجوحاً.

قوله: ولا فيما روى عن ابن مسعود؟ قلنا: حديث ابن مسعود المشتمل على ذكر نبيذ التمر، وقد ذكرنا كلام الأئمة فيه.

وأما حديث علقمة عن ابن مسعود، فهو نص صريح في كونه ﷺ ذهب إليهم وتلا عليهم القرآن، وأي حجة أصرح من هذا.

وكان السائل لم يتأمل الحديث إلى آخره، قوله: وثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لم ير الجن، ولا تلا عليهم القرآن.

قلنا: قد أجبنا عن هذا بأجوبة، وحققنا أن هذا النفي لم يتناول ما ذكره ابن مسعود من ذهابه ﷺ إليهم، وتلاوته عليهم، وإنما المراد به حالة واحدة ووقت خاص. قوله: فإن ثبت أنه ﷺ ادعى ذلك وجب الإيمان به.

قلت: قد ذكرنا الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة، والاعتبار العقلي والإتفاق من العلماء، إذ لا نعلم إماماً من أئمة المسلمين نفي ذلك، وأقوال الصحابة والأئمة مشهورة معلومة، كما قد ذكرنا بعضاً منها.

قوله: وما معنى قوله ﷺ **«وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة»** هل التخصيص باعتبار ما بعثوا به من الشرائع المختصة بأمة دون أخرى، لا تفاقهم على أصول الدين، أم باعتبار مجموع الأمرين أعني الأصول والفروع إلى آخره؟.

فيقال: ذكر الشيخ الإمام العلامة تقي الدين شارح الأحكام في قول النبي ﷺ: **«أعطيت خمساً»**، الحديث ظاهره يقتضي أن كل واحدة من هذه الخمس لم تكن لأحد قبله صلوات الله عليه قال ولا يعترض على هذا بأن نوحاً ﷺ بعد خروجه من الفلك كان مبعوثاً إلى أهل الأرض، لأنه لم يبق إلا من كان مؤمناً معه، وقد كان مرسلاً إليهم.

قال لأن هذا العموم في الرسالة لم يكن في أصل البعثة، وإنما وقع لأجل الحادث الذي حدث، وهو انحصار الخلق في الموجودين بهلاك سائر الناس.

وأما نبينا ﷺ فعموم رسالته في أصول البعثة، وأيضاً فعموم الرسالة بوجوب قبولها عموماً في الأصول والفروع.

وأما التوحيد وتمحيض العباد لله، فيجوز أن يكون عاماً في حق بعض الأنبياء، وإن كان التزام فروع شرعه ليس عاماً، فإن من الأنبياء المتقدمين صلوات الله عليهم من قاتل غير قومه على الشرك وعبادة غير الله، ولو لم يكن التوحيد لازماً لهم بشرعة أو شرع غيره، لم يقاتلوا لم يقاتلوا إلا على طريقة المعتزلة القائلين بالحسن والقبح، وهذا آخر الجواب.

والحمد لله وحده، وصلى الله عليه سيدنا ومولانا محمد وآله وأصحابه وعترته الطيبين الطاهرين، وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين. كلام الإمام أبي العباس ابن قدامة. وقد كُتبت النسخة المنقول عنها في أواخر رجب سنة ٩٤١.

ومنهم الشيخ الجليل نور الدين علي بن زين الدين أبي المواهب سليم[(١)] الشهير بابن الجزار، وهو من أهل القرن العاشر من تلاميذ الشهاب الرملي رحمه الله تعالى

فمن جواهره

[محمد ﷺ أفضل الخلق]

كتابه «القول الحق في أن محمداً ﷺ أفضل الخلق» وهذا نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، وهو حسبي ونعم الوكيل. إن أحق السبل بالاتباع، وأبدع الكلمات في رد الابتداع.

نظر الاذهان النافذة في الاتقان، الجازمة بالإيقان، القائمة بالبرهان، إلى مراد الحق ونصرته، وإلى خذلان كلمة من ائتمر بأمر إبليس وأهل بدعته، وحق على أهل الملل والنحل.

ثابت واجب لم يزل، خصوصاً الفرقة الإسلامية، ولا سيما أمة الإجابة من الأمة المحمدية، امتثال أمر الله تبارك وتعالى بالتشبث بأذيال شرائع الكتاب والسنة، والعمل بقوله عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

فنصرة هذا النبي الكريم المستجمع لكمالات محاسن كل خلق عظيم واجبة في جميع الأديان، ثابتة بنص القرآن. فيا من أرشد عباده وعباده، ووفق أصفياءه وأجناده، واتخذ محمداً صفوة الصفوات. وقربه من حضرة قدس الكرامات، وأمده من مدده الأعظم حتى فضل على جميع المخلوقات، وأعز أوصافه المختصة به عن المشاركة، وجعله رسولاً ونبياً ومبشراً ونذيراً للجن والإنس والملائكة... فنحمدك على نعمة الإسلام، وكفى بها من نعمة يؤذن الحمد بازديادها، ونشكرك على منن عن رقم سطور طروسها عجزت يد مدادها.

ونصلي صلاة مشفوعة منك يا سلام بسلام على روح ذات الكمالات، وجامع أسرار ملكوت الأرضين والسموات، سر لوح الوجود، إنسان عين الشهود وعين كل إنسان موجود،

(١) ورد في الأعلام للزركلي هو علي بن سليم بن ربيعة بن سليمان الأذرعي توفي بالرملة ٧٣١ هـ.

قطب دائرة المحيط المفرد والمركب والبسيط أحد ركني التوحيد، واسطة العقد الفريد، قاضي قضاة الأنبياء، ورسول الله تعالى إلى رسله المرسلين وصفوته من الأصفياء ممد الهمم، سيد سادات الأمم، المستجمع لشرف الأشراف، الموجب له السيادة والكرم والفضل على العرب والعجم، مصطفى الله تعالى من سائر النسم، أول خلقه قبل إبراز الموجود إلى الوجود من العدم، سيد ولد عدنان، نقطة دائرة الفلك في كل زمان، خاتم النبيين، مقدم جيش المرسلين، أولى الخلق على الإطلاق برب العالمين، من إليه في المعهات يصمد، وفي الملمات يقصد، سيدنا محمد سيد عبادك وعبادك، صلاة وسلاماً دائمين بدوامك.

أما بعد فيا أيها الواقفون على هذا السلك المنير والفلك المستنير، عنّ لي رجاء الانتظام في سلك عقد المادحين لهذا الرسول، والتطفل على موائد كرمه المأمول، لأني أشد احتياجاً إلى جنابه الرفيع، وعزه المنيع من العامل إلى المعمول.

وقد دعاني إلى ذلك، وبعثني لذكر ماهنالك، وحملني على سلوك شريف هذه المسالك... ما بلغني عن المتبدع الهالك، الواقع في المهالك، الذي هوى به حب الشهرة والافتخار إلى شفا جرف هار. ظن أنه يحدو بذكره ويترنم، فانهار به في نار جهنم، الذي قال أن محمداً ﷺ ليس أفضل خلق الله، فاستحوذ عليه الشيطان، فلم يأتمر بأمر الله.

فيا خسارته إن لم يتب، وتباً له إن لم يرجع، وسيجعل الله تعالى إن لم يعد إلى الحق جهنم مأواه ومثواه. والله أرجو أن يتوب عليه إن تاب، وأن يوفقني وإياه وسائر هذه الأمة المحمدية لإصابة الصواب، وأن ينفع بهذه الكلمات اللطيفة من وقف عليها، ونظر بعين التجاوز والعفو إليها، وإن نظر عيباً ستره، أو ذنباً غفره.

فمن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء فخراً أن تعد معايبه
وإنما هي أقوال برمتها خذ ما صفى واحتمل بالعفو ما كدرا

وفقني الله تعالى والمسلمين لحب الرسول وآله، وجعلنا من خدمة جنابه، ومن المحبوبين لعباده، وأماتنا على سنته، وجعلنا في الرعيل الأول من أهل شفاعته، إنه جواد كريم عظيم جليل، وهو يقول الحق وهو يهدي السبيل، وسميت هذا التأليف «القول الحق في أن محمداً ﷺ أفضل الخلق».

وهو على سبيل التذكر للعالم، وإلا فما يقال في من فضله معلوم من قبل وجود آدم. وما أحسن قول الشاعر.

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

لكن لما كان قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد، وينكر الفم طعم الماء من سقم،

جرى القلم بإهداء هذه الكلمات إليه ﷺ وإن كنت في ذلك كمهد إلى الرحمن ما هو واهبه أو كمهدي الخضاب إلى الشباب، فأقول وبالله المستعان، ومن ممد الكون استمد التوفيق والعون: اعلم أن سبيل تقرير هذا الكلام، وطريق حسن نظم عقد هذا النظام، يتطرق إلى استدعاء تقرير مسألتين، وإلى ذكر طريقتين.

المسألة الأولى في تحقيق تفضيل البشر على الملك.

المسألة الثانية في تفضيله ﷺ على سائر الأنبياء.

اعلم أن علماء المعتزلة ذهبوا إلى تفضيل الملك على البشر، وتمسكوا في اعتقادهم ذلك بأدلة سنجيب عنها إن شاء الله تعالى ووافقهم على تلك المخالفة بعض الأشاعرة وسائر الفلاسفة، يقولون: إن الأنبياء والرسل إنما تخلقوا بهذه الكمالات بواسطة تعلمهم من الملائكة، بدليل قوله عز من قائل: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وبقوله جل ذكره ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وإذا كان كذلك، فالمعلم له فضل على المتعلم هذا أحد ما أبدوه من البراهين على نصرة مذهبهم. البرهان الثاني: يقولون: إن الله تبارك وتعالى يقول ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] فإن أهل اللسان يفهمون من ذلك أفضلية الملائكة على عيسى، إذ القياس في مثله الترقي من الأدنى إلى الأعلى. يقال: لا يستنكف من هذا الأمر الوزير، ولا السلطان، ولا يقال: السلطان ولا الوزير. ومن براهينهم على ذلك، كونهم قدموا في الذكر في كثير من أصول الكتاب والسنة، وبرهنوا على ذلك أيضاً بأن الملائكة أرواح مجردة كاملة بالفعل، مبرأة عن مبادئ الشرور والآفات، كالشهوة والغضب، وعن ظلمات الهيولي والصورة، قوية على الأفعال العجيبة، عالمة بالكوائن ماضيها وآتيها من غير غلط. . . إلى غير ذلك من البراهين التي أقامها المعتزلة، وتقرير بطلان احتجاجهم بكون المعلم أفضل من المتعلم: إنا نقول: سلمنا ذلك لو كان الأمر كما ذكرتم من أن الأنبياء سادات الخلق وسراتهم يتعلمون من الملائكة، وإنما المعلم والمرسل بذلك العلم إنما هو الله تعالى، والملائكة وسائط في ذلك لا ينتسب إليهم العلم المذكور إلا من حيث كونهم وسائط في مجرد التبليغ إليهم. والله تعالى أعلم، وما أحسن قول بعض العلماء مثل الذي ينسب الأفعال إلى من تجري على يده من غير بحث عن حقيقة الفاعل، كمثل البهيمة تألف سائسها وترفض مالكها، أو كالكلب يرمى بحجر فيلتقم الحجر يظن أنه الضارب له. قلت: فالمعتزلة لهم علقة في هذا المعنى في الجملة، من حيث نسبة التعليم إلى الملائكة والله تعالى أعلم: وأما احتجاجهم بقوله عز وجل ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ﴾ [النساء: ١٧٢] الآية، فالجواب إنا نمنع كونه كلما سيق كهذا السياق يكون من باب الترقي، وإلا فيلزم المحذور

بدليل ﴿لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ [النساء: ١٦٦] أي والملائكة وبدليل ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ﴾ [التحريم: ٤] أي والملائكة، بل بحسب المقام وعلى تقدير تسليمنا لهم أن الآية مساقها من باب الترقي كما زعموا ولا نفر من ذلك، لكنا نقول: لما كانت النصارى قاتلهم الله أنى يؤفكون توغلوا في نسبة المسيح وفي أوصافه التي نهينا نحن عنها بقول نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم»، وذلك أنهم لما رأوا المسيح مجرداً عن الأب، وفيه أوصاف شريفة كاملة الاقتدار من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى إلى غير ذلك. . . زعموا أنه ابن الله. كذبوا وافتروا وضلوا ضلالاً مبيناً بعيداً، وتعالى الله عما يصفون وعما يشركون، واستعظموا أن يكون المسيح لهذه الأوصاف ولذلك التجرد عبداً لله تعالى، فرد الله عليهم بأنه لا يستنكف عن ذلك المسيح، ولا من هو أرقى منه في هذا المعنى، وهم الملائكة الذين لا أب لهم ولا أم أيضاً، ويقدرون بإذن الله تعالى على أفعال أقوى وأعجب من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى.

فالترقي والعلو إنما هو من أمر التجرد وإظهار آثار القوة لا في مطلق الشرف والكمال، فلا دلالة في ذلك على أفضلية الملائكة.

وأما احتجاجهم بتقدم ذكرهم، فلتقدمهم في الوجود.

وأما احتجاجهم بكونهم يعلمون الكوائن والحادثات وما سلف منها وما هو آتٍ فهو أمر باطل، ولا يصح إلا على الأصول الفلسفية، إذ القواعد والأحوال الإسلامية تأبى ذلك.

إذا علمت ذلك، فحيث قررنا مذهبهم في هذه المسألة، فلنرجع إلى تقرير مذهب أهل السنة والجماعة فيها ببعض دلائل جانحين إلى الاختصار، مستمدين المعونة من الملك الغفار، فنقول: اعلم أن أهل السنة قاطبة، إلا من شذ من النادر الذي لا حكم له مجمعون على أن رسل البشر أفضل من رسل الملائكة، وعلى أن رسل الملائكة أفضل من عامة البشر، وعلى أن عامة المؤمنين أفضل من عامة الملائكة، والجنس البشري أفضل من الجنس الملكي بدلالة قوله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

لكن لا يقال إن خواص البشر أفضل من خواص الملائكة، إلا إن أريد بخواص البشر الأنبياء، والله تعالى أعلم. وإذا قد علمت الحكم المقرر لمذهبنا في ذلك، فلنذكر لك بعض دلائله، فنقول: أما تفضيل رسل الملائكة على عامة البشر فبالإجماع، بل بالضرورة وأما تفضيل رسل البشر على رسل الملائكة، وعامة البشر على عامة الملائكة، فلوجوه منها: إن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام فسجدوا سجود تحية بالانحاء على الأصح، كسجود أخوة يوسف له. وقيل بالجبهة، فجعلوه قبلة. والسجود حقيقة لله تعالى، كما نجعل

نحن الكعبة قبلة في سجودنا وقيل: كان حقيقة له طاعة لله تعالى. ونسخ هذا الإسلام وأصحها أولها وبالجملة، فكان ذلك كذلك لا شراق النور المحمدي في جبهة آدم، فكان ذلك له على وجه التعظيم والتكريم بدليل قوله تعالى ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣] والملائكة من جملة العالمين، وخص من ذلك بالإجماع عدم تفضيل عامة البشر على رسل الملائكة، فيبقى معمولاً به فيما عدا ذلك. قال سعد الدين التفتازاني وغيره: ولا خفاء في أن هذه المسألة ظنية يكتفى فيها بالدلالة الظنية. انتهى قلت، بل العقل في تفضيل نبينا مطابق للنقل، كما سنقرره في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ [الأنعام:٩٠] إلى غير ذلك، فتكون الدلائل قطعية. لا يقال المراد ملائكة الأرض في السجود بعد قوله عز من قائل ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:٣٠] فأكد «بكل وأجمع»، فلا يخرج أحد منهم إلا بدليل شرعي، ولم نجد ذلك إلا إبليس كان من الجن، وهو نوع من الملائكة يسمون بذلك منهم إبليس بدليل ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات:١٥٨] أي في افترائهم وكذبهم في قولهم: إن الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً. قلت ونفس مسألتنا المثبتة لتفضيل البشر على الملك يساعدها البراهين العقلية أيضاً، فمنها أن الإنسان يحصل الفضائل والكمالات العلمية والعملية مع وجود العوائق والموانع والصوارف من الشهوة والغضب وسنوح الحاجات الضرورية الشاغلة عن اكتساب الكمالات، ولا شك أن العبادة، وكسب الكمال مع الشواغل والمصارف أشق وأدخل في الإخلاص، فيكون أفضل وقد جمع الله تعالى في الجنس الآدمي من الكمالات المطلقة ما لم يجتمع في غيره، حتى أن تعبدنا بصلاة ركعة مستجمع لصور تعبدهم كلها إذ ما منهم إلا من هو قائم إلى يوم القيامة أو راكع أو ساجد، وذلك كله موجود في الركعة التي نصليها إلى غير ذلك من شواهد العقل.

وما أحسن قول العارف:

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومن الأدلة التي لنا أيضاً قول الله تعالى بعد ذكر جماعة من الأنبياء: ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٦] وقد قدمنا أن الملائكة من جملة العالمين.

ومن الحجج المقررة لمذهبنا أيضاً قوله جل ذكره ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [البينة:٧ - ٨] أراد تعالى، وهو أعلم كما قال أهل التحقيق، بني آدم لأن الملائكة لا يجازون، وإنما هم خدم لأهل الجنة.

قال العز بن عبد السلام: ﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧] أي خير الخليقة، والملائكة من جملة الخليقة، لا يقال: إن الملائكة ممن آمن وعمل الصالحات في هذه الآية، لأن هذا اللفظ

تخصص في عرف الشرع بمن آمن من البشر لا تندرج فيه الملائكة بعرف الاستعمال. ومنها أن الناس في الموقف يستشفعون إلى ربهم بخواصه من خلقه وهم الأنبياء، لا بالملائكة.

وجعل عز الدين بن عبد السلام في موضع من قواعده تفصيلاً بين التفضيل، فقال إن نظرنا إلى الأرواح، فأرواح الأنبياء أفضل، أو إلى الأجسام فأشكال الملائكة نورانية علوية قادرة على التشكل، مطهرة من كثيف اللحم والدم فتكون أفضل. وقال في موضع آخر: قد ثبت لأجسام البشر من الجهاد والغزو والصبر على النوائب والمحن ما لم يثبت للملائكة، وقد وعدنا ربنا بالنظر إليه تعالى، وبشرنا برضوانه، فيكون البشر على هذا أفضل. انتهى.

وذهب الكيا إلى قول آخر في المسألة، زائد على هذا القدر، وهو الوقف والسكوت عن ذلك، وقال هو وغيره: الفضل لمن فضله الله تعالى. وقال: شرط المفضل أو المساوي أن يعرف الأوصاف الموجبة للتفاضل أو التساوي. انتهى.

قلت: قد أغرب في وهذه المقالة كلها، فإن قوله: الفضل لمن فضله الله يشبه أن يكون تحصيل حاصل، وقوله: شرط المفضل إلى آخره كلام صحيح في حد ذاته، غير أنه علم أن المفضلين أقاموا حججاً وبراهين، ولم يهجموا على هذا الحمى الأحمى، بل حصنوه بالأدلة التي احتج بها العلماء.

هذا وقد علمت وفقك الله ما في المسألة من الكلام، وأنها طويلة الذيل، حتى أن البيهقي في شعب الإيمان لطول الكلام فيها قال: ليس للخلاف ثمرة إلا معرفة الشيء على ما هو به انتهى.

قلت: والعجب منه، فإن معرفة الشيء على ما هو به، على تقدير صحة كلامه، من أجل المعارف الإنسانية والعلم بالشيء ولا الجهل به ولو لم يكن، إلا أن البحث في إتقانها يستلزم التفضيل لنبي الأنبياء وسلطان الأتقياء محمد ﷺ وشرف وكرم وبجل وعظم على سائر الوجود والموجود، المستلزم ذلك لجزيل الثواب في اليوم المشهود. . . كان ذلك كافياً، لكن بلغني عن بعض العلماء أن المعتزلة، القائلين بتفضيل الملك على البشر، استثنوا في هذا محمدا ﷺ وقد سمعت من لفظ بعض أصحابنا المشايخ الموجودين أنه وجد ذلك منقولاً، فمن ظفر به فليعزه إلى ناقله.

واعلم أن بعض المشايخ كان يقرر أن في المسألة قولاً آخر، وهو التفضيل بين ملائكة السماء والأرض، ويقول: إن ملائكة السماء أفضل من البشر دون ملائكة الأرض، والله تعالى أعلم.

وإذ قد عرفت أن خواص البشر، وهم الأنبياء خاصة في هذا المقام، أفضل من خواص الملائكة، فاعلم أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بمنزلة الأجساد القائمة بأعباء النبوة والرسالة، ونبينا محمد ﷺ بمنزلة الروح لتلك الأجساد فهو سيدهم، وسندهم، وكنزهم، وذخرهم، وحاميهم، وكافيهم، وقطب دائرتهم، ونقطة فلكهم، ونقش فصهم، وإنسان عينهم، وعين إنسانهم، وبيت قصيدتهم، وعقد قلادتهم، وسر سريرتهم وروح ذاتهم، وهو أفضل الخلق على الإطلاق، ورسول إليهم حتى إلى الملائكة إرسال رحمة وتعليم وحكمة بدليل ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان: ١] وهم من العالمين؟ والدليل على أفضليته على الخلق قاطبة ثلاثة أشياء الكتاب والسنة والإجماع.

فأما الكتاب الدال على فضله وتعظيمه وتبجيله، فآيات بينات وحجج ناطقات، وهي أكثر من أن تحصى، وأشهر وأعظم من أن تستقصى منها ما هو بالتصريح، ومنها ما هو باللازم، ومنها ما يؤخذ بالاستنباط من تدقيق أحوال تلك المعالم، فمن الصرائح الدالة، على فضله على الأنبياء، إيجاب الله تعالى عليهم اتباعه، والإيمان به، ونصرته في قوله عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] وأجابوا كلهم بقولهم: أقررنا، وشهدوا على أنفسهم بذلك، وشهد الله عليهم، وكفى بالله شهيداً.

وقد أجمع المحققون على أن المراد بالرسول في الآية محمد ﷺ ومن الأدلة الشريفة على ذلك قوله جلت آلاؤه، وتقدست أسماؤه: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فإن أجلاء المفسرين، كما هو مبسوط في محله، على أن المراد بالرسول في هذه الآية محمد ﷺ لا يقال انه ﷺ أمر باتباعهم، كما أمروا باتباعه في قوله عز من قائل: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣] الآية لأنه إنما أمر بالإيمان بما أنزله الله إليهم من الحق، الموافق لملة إبراهيم، لا بالاقتداء بهم نفسهم بمعنى أن يكون داخلاً تحت دعوتهم، فيلزم أن نكون كالفنا باتباع شريعة إبراهيم، ولم يكن لشريعتنا التي هي ناسخة لشريعته ولجميع الشرائع عظيم فائدة.

واختلف فيما كان ﷺ يتعبد به قبال الوحي والنبوة، فقيل: بشريعة إبراهيم، وقيل بغيرة مذاهب، أصحها وأجلها وأولاها مذهب من ذهب إلى الوقوف عن ذلك، والسكوت، وهو ﷺ مطبوع على الحق والخير وأخلاق الكرام، الموافقة لما جاءت به شريعته بإلهام الله تعالى له من حين نشأ صغيراً وما أحسن قولي في قصيدتي الميمية النبوية التي وازنت بها بردة المديح:

ومـن تـربـى صغيـراً بـالأمـانـة لا يـأتـي حـرامـاً ولا يعـدو علـى حـرم

وهذا الكلام له التفات أيضاً من حيث الاستطراد، أي أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا؟ فقيل: نعم بشرط أن يرد في شرعنا ما يقرره، وقيل: لا وهذا هو الحق المفتى به وأيضاً فالملة غير الشريعة، فإنها أصل الدين، والشريعة قواعدها. وليس مساق الآية التي أمرتهم بالإيمان به نفسه وبنصرته كهذه، بل نص بعضهم على أن الضمير في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات:٨٣] راجع إلى النبي ﷺ ويساعد ما قلناه قوله تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[الأنعام:٩٠] فإنما أمره باتباع ما اهتدوا به، بل أخذ بعض العلماء المحققين تفضيله ﷺ على جميع الأنبياء من هذه الآية.

قال لأن الواحد إذا أمر بفعل ما تفعله الجماعة، واتصاف بما اتصفوا به كلهم وامتثل ذلك، كان أفضل منهم بلا نزاع. وهذا دليل عقلي. ومن الآيات القائمة بالحجة على ذلك قول الله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠] فإن شرف التابع إنما هو لشرف المتبوع، فكما أن أمته خير الأمم فهو خير الأنبياء. ومن الآيات المطهرة لشرفه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات:١٣] وقد قال ﷺ في الصحيح «إن أعلمكم بالله وأتقاكم أنا». إلى ذلك الإشارة بقولي في قصيدتي.

أتقى التقاة وأولاهم بربهم.

ومن الآيات المثبتة لكماله عليهم قول الله تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١] فإن الباري تبارك وتعالى غير محتاج إلى الشهادة، وإنما أراد تعالى وهو أعلم، الإعلان بذكره وشرفه وفضله عليهم.

وأما ماورد في السنة مما يدل على ذلك، فأحاديث كثيرة، وروايات صحيحة ثابتة شهيرة، منها قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

لا يقال: الاستدلال بهذا ضعيف لأنه لا يشمل آدم، لأنا نقول: قد وجد في الأنبياء الذين هم من نسل آدم من هو أفضل منه، كإبراهيم مثلاً، فإذاً يدخل آدم بطريق الأولى، ولك أن تقول أيضاً: أراد ببني آدم الجنس الآدمي، فعلى هذا أول من يدخل فيه آدم.

وما أحسن قول الإمام الأبوصيري في همزيته:

لـك ذات العلـوم مـن عـالـم الغيـ ـب ومنهـا لآدم الأسمـاء

على أنه قد ورد عنه ﷺ أنه قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة» فدخل فيه آدم وغيره، وخص يوم القيامة بالذكر لانقطاع النزاع فيه، لقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [غافر:١٦]

نعم إن قيل: السيادة لا تقتضي التفضيل، قلنا: ممنوع هنا، بل اقتضته بدليل الرواية الأخرى «أنا أكرم الخلق على الله» لأنه لو لم يرد التفضيل، لما جيء بصيغة أفعل التفضيل الدالة على زيادة الأكرمية. ولعل الباعث على الإتيان بصيغة السيادة في رواية الصحيح، لكون السيد له أمر على من ساد عليه، ففيه إشارة إلى كونهم مأمورين بامتثال أمره واجتناب نهيه، وإلى ذلك الإشارة بقوله ﷺ الموافق لمعنى الآية«لو أدركني أخي موسى، ما وسعه إلا اتباعي». وفي ذلك أقول:

ولـو أتـى الـروح عيسـى حيـن بعثتـه   لكــان مــن جملــة الأتبــاع والخــدم

وإنما قلت عيسى، لأن ذكر موسى في الحديث الشريف إنما خرج مخرج التمثيل، فعيسى وغيره من الأنبياء كذلك، وإنما مثل بموسى دون غيره لأن قومه وهم اليهود أشد كفراً ونفاقاً وعناداً قاتلهم الله أني يؤفكون على أنه ورد في بعض الروايات ذكر عيسى مع موسى، فإذا كان نبي تلك الأمة الطاغية الشديدة العداوة لنا لو أدركه اتبعه، كان غيره بذلك أولى، فإنه نبي إليه وإلى غيره، حتى لأبيه آدم. ففي الحديث الشريف: «كنت نبينا وآدم بين الماء والطين» والمراد كان نبياً بالفعل، فإن الله تعالى لما اطلع على عالم الأرواح في عالم الذر وقال لهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فأول من قال بلى محمد ﷺ فوهبه مواهب شريفة تليق بذاته، وأرسل روحه إلى أرواح الأنبياء، فآمنوا بها وسبب ذلك أنه لو قيل بأنه كان نبياً في علم الله تعالى وآدم بين الماء والطين، لم يكن في التنصيص على قوله: «كنت نبياً» إلى آخره عظيم فائدة، إذ هم مستوون معه في ذلك، فتعين تقريره على ما ذكرنا. قال أكابر الصوفية: ولما اطلع الله تعالى على قلوب العوالم سرها، وجد قلب محمد ﷺ أعظم كسراً من سائر القلوب.

ولعل ذلك لما سبق في علم الله تعالى من تربيته يتيماً غريباً، ومن إيثاره الفقر على الغنى، مع ما جبل نفسه الشريفة عليه من عظمة الجلال، فعند ذلك جبر قلبه جبراً لم يحط به أحد من المخلوقين.

وفي حديث الشفاعة العظمى ما يرشدك به الله إلى الجزم بفضله عليهم، حيث يحتاجون كلهم إليه، ويعولون أجمعين عليه، وينتفعون إذ ذاك بدعائه، ويمشون في ركابه تحت لوائه وفي حوضه العميم ما يهديك إلى الصراط المستقيم، وفي إعطائه من الخصوصيات، فما أعطي نبي خصوصية حتى أعطي مثلها أو أفضل منها وخخص بعد ذلك بخصائص لم يختص بها أحد غيره منهم ولا من غيرهم بطريق الأولى، ما يؤديك إلى اعتقاد فضله عليهم وشرفه لديهم.

وفي حديث الإسراء: لما أثنى كل نبي على ربه، وقام محمد ﷺ فأثنى على ربه وبسط

ذلك في محله، فقام إبراهيم خليل الرحمن عند ذلك، وقال للأنبياء وللمرسلين كلهم. «بهذا فضلكم محمد ﷺ» ما يهديك إلى سواء السبيل وكيف لا، وهذا مذهب إبراهيم الخليل.

وفي السنة الشريفة أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ يوماً، فقال: إني قلبت مشارق الأرض ومغاربها، فلم أجد أفضل من محمد، وقلبت مشارق الأرض ومغاربها، فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم. ومن أراد الاطلاع على طرق هذه الأحاديث الصحيحة ومخرجيها، وغيرها مما هو في هذا المعنى وأصرح منه، فعليه بالكتابة التي كتبها في هذا الباب سيدنا ومولانا ولينا وأولانا، الشيخ الإمام الرحلة الهمام، الشيخ شمس الدين محمد بن شيخنا شهاب الدين الرملي سقاه الله تعالى زلال كرمه، وأفاض عليه سجال نعمه. إذا علمت ذلك، فانظر إلى أثر فضل الله تبارك وتعالى على رسوله المصطفى، زاده الله تعالى كمالاً وشرفاً، حيث أظهر التفاوت في مرتبتي محمد وموسى عليهما من الله الصلاة والتسليم اذ يحكي القرآن قول موسى: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي﴾ [طه: ٢٥] ويحكى قول الله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ١] بالاستفهام التقريري. لا يقال إن قوله تعالى قال: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] دال على انه أعطاه ذلك قبل السؤال لوروده بصيغة الماضي، لأنه ليس من عادة الكريم إذا سئل في شيء أن يقول على وجه المن قد أعطيتك ذلك أولاً مثلاً ولو فرض التنزل ورخي العنان، فلا يخلو إما أن يكون موسى علم بالانشراح أولاً لا جائز أن يقال: لا، لأن انشراح الصدر من الأمور الضرورية المستلزمة للعلم بها عند وجودها، وإذا كان علم بذلك، فلا يخلو إما أن يكون السؤال لانشراح خاص أولاً، فإن كان لانشراح خاص لم يبق لصيغة الماضي موضع، وإن لم يكن فيكون السؤال من موسى عبثاً. وذلك لا يجوز على الأنبياء، فتعين حمل ذلك على أن المراد بصيغة الماضي الإعطاء النافذ القوي على عادة العرب في مثل ذلك، فإنهم إذا سئلوا مثلاً يقول المسؤول: أعطيتك تحكيماً لقوة الإعطاء. فيكون بصيغة الماضي، فيكون منه الإنشاء كبعتك، واشتريت منك، وغير ذلك... وانظر إلى معنى قوله عز من قائل: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤] أي لا أذكر إلا وتذكر معي وانظر إلى مخاطبة الله تعالى لأنبيائه بأسمائهم، ومخاطبته له بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ وقس ما بين تلك المراتب. ومن تأمل ما ردع الله به المشركين، ومن قال فيه ﷺ أنه صار أبتر لما مات ولده إبراهيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ [الكوثر: ٣] أي إن مبغضك هو الا بتره، فهذا يدل على غاية عظمة الجلال، ونهاية غاية الكمال زاده الله جلالاً وكمالاً.

وانظر إلى حفظه تعالى لخاطره الشريف، إذ بدأه بالعفو قبل ذكر العتب في قوله عز من قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣] وانظر إلى إبدال الله سبحانه وتعالى لفظ الشمال

بالغرب، في خطابه له في قوله عز من قائل: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤] الآية.

وهذا هو النوع المسمى عند أهل البديع بالاحتراس، وإلى ذلك الإشارة بقولي في قصيدتي الميمية النبوية:

بـداه بـالعفـو قبـل العتـب تسليـة ... لقلبـه فـي عفـاالله والعظـم

كـذاك بـالجـانـب الغـربـي لـم يقـل الـ ... ـشمـال إذ خصـه بـالفضـل والكـرم

ومن أعظم الأدلة الموجبة لتفضيله قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فإن هذا المقام يغبطه فيه الأولون والآخرون من الأنبياء وغيرهم.

وما أحسن قولي:

والأرض أول مـن تنشـق عنـه وجبـ ... ـرائيـل قـدامـه مـن جملـة الحشـم

والـرسـل تحـت لـواء الهـاشمـي غـدا ... الكـل يـرجـون منـه فـائـض الكـرم

هـذا المقـام الـذي مـا نـالـه أحـد ... سـوى محمـد المبعـوث بـالحكـم

نـاهيـك مـن شـرف نـاهيـك مـن عظـم ... نـاهيـك مـن شـرف نـاهيـك مـن عظـم

وقولي فيها:

ومـن تقـدم صلـى بـالمـلائـك بـل ... والأنبيـا يقظـة لـم يجـر فـي الحلـم

وظـل يختـرق السبـع الطبـاق بهـم ... حتـى تقـدم عنهـم حضـرة الكـرم

ونلـت يـا خيـر خلـق الله منـزلـة ... مـا نـالهـا أحـد فـي الأعصـر القـدم

إلى آخرها وحكى بعض شراح بردة البوصيري عند قوله:

بشـرى لنـا معشـر الإسـلام أن لنـا ... مـن العنـايـة ركنـاً غيـر منهـدم

فقال: وماذاك إلا أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: إن الله يريد أن يدينك منه، فإذا وصلت إلى مالم يصل إليه أحد، فسله لي أن يؤمنني من مكره. وإنه ﷺ سأل الله تعالى في ذلك، فأجابه إلى سؤاله وانه رجع إلى جبريل وأخبره بذلك، فإن جبريل تأخر عنه في حد مقامه، وتقدم عنه النبي ﷺ تقدماً كلياً بحيث خرق الحجب والأستار، وانكشفت له المشاهد العظيمة وتلك الأنوار، واتصل سره بتلك الأسرار، وأعطي في بصره الشريف قوة قدسية فرأى ربه تعالى بعيني رأسه وقلبه على صيغة تشريفية تليق بكمال جلال ربه، ووصل إلى حضرة لم يصل إليها آمر ولا مأمور، فلما أخبر جبريل بذلك، فرح واستبشر، وقال: سأقف لأمتك عند الصراط، وأنشر جناحي لمن زل منهم قدمه؛ والله أعلم. وقلت:

لاغـرو يـا معشـر الإسـلام أن لنـا ... بـه مـن الفضـل أوفـى أوفـر النعـم

وقلت في أولها:

هـو الشفيـع لمـن زلـت بـه قـدم   وكلنـا خـائـف مـن زلـة القـدم

أعني به النبي ﷺ فإن جبريل بركة من بركاته ومؤتمر بمأموراته.

فإن قلت: قد جاء في الصحيح. لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن الساعة قال له النبي: **«أما السؤال عنها فليس المسؤول بأعلم من السائل»** وقال في آخر الحديث: **«هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»**.

فهذا إقرار بأن جبريل معلم، وبأنه أعلم بالساعة منه. قلنا هو معلم لا شك للصحابة، ومخبر للنبي، بل قد يقال: سماه معلماً لكونه الموجب لذكر ما ذكر في الحديث، ولكونه سبباً لذلك؛ إلا فهو إنما قال: «أخبرني». والنبي هو الذي أفاد وعلم.

وأما «ماالمسؤول» إلى آخره، فمعناه أن علمها مستور، لأنه من العلم الذي استأثر الله تعالى به. فكأنه قال لم يزد عندي عن علمك فيما تعلمه منها شيء، وهو الوقوف عن أمرها، ولهذا قال له: «أخبرني عن إماراتها». فأخبره بذلك، وإلا لما كان لإخباره عن الإمارات عظيم فائدة، إذا قلنا: إنه يعلم حقيقة أمرها، وإن عنده علم زائد على الذي فيها. والحق أن النبي ﷺ عنده علم مكنون، لم يبث لجبريل ولا لغيره، فإن قيل: لاشك أن جبريل هو الحامل لذلك له، فكيف لا يحيط به علماً قلنا: هو حامل لأصوله جملة من غير كشف عن حقيقة أفراد جزئياً، فهو في ذلك كقاصدٍ حمل أحكاماً من تلك منطوية في حجاب لا يدري حقيقتها، بل نقول: إن رسول الله ﷺ لما تقدم عن جبريل في المعراج، علمه الله تعالى علماً بغير واسطة ولا ترجمان، لا يقدر أن يتحمله غيره. وقد صح أنه علم بعض أصحابه بعض علم وألزمه بكتمه، حتى قال الصحابي.

«لو قلته لكم لوضعتم الصمصامة على رأسي»، ولأطحتم هذه» إلى غير ذلك مما قاله العلماء... فإن قلت إنه أول من تنشق عنه الأرض يقوم من قبره، يلقي موسى آخذاً بساق العرش، وإن إبراهيم يكسبه الله حلتين يوم القيامة. قلنا للعلماء أجوبة عن ذلك. وحاصل الأمر أن الأمر الجزئي لا يقابل بالكلي وكون إبراهيم خص بخصوصية، فكونه في الدنيا ألقي في نار النمرود.

وكما أن هارون يبعث ملتحياً، لكون موسى أخذ بلحيته فطلعت في يده، فلا تقابل تلك الخصوصية بخصوصيات جمة.

وقد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل، على أن نبينا يبعث مكسياً راكباً، كاملاً مكملاً، على أكمل الأحوال وأجلها؛ والله تعالى أعلم.

ما يدل على تقدمه ﷺ على موسى في الشرف والرتبة والوجود، أنه سأل ربه تعالى كما في السنة الشريفة الشهيرة فقال «رب إني أجد في التوراة أقواماً صفتهم كذا وكذا، فاجعلهم من أمتي».

فقال هم أمة أحمد يا موسى إلى آخره، حتى تمنى موسى أن يكون من أمته. وفي حديث الإسراء: أن موسى لما رآه ﷺ أحاط بما لم يحط به، جعل ينادي بأعلى صوته ويبكي، ويقول: شاب أرسل من بعدي أعطيته كذا وكذا الحديث الشهير، قال العلماء: وبكاء موسى شفقة على أمته، لكونهم مع مزيد تكاليفهم الشاقة لم يبلغوا معشار ما بلغت هذه الأمة.

لا حسداً، لأن الأنبياء معصومون عن ذلك، ولهذا حصل من موسى جبر لذلك بكلامه مع النبي ﷺ في شأن الصلوات، حتى استقر الحال على ما استقر عليه والله تعالى أعلم.

ولما كان في الآثار الشريفة كتابة كل أمة في اللوح المحفوظ، من أطاع له الجنة، ومن عصى فله النار؛ كان كتابة هذه الأمة أمة مذنبة ورب غفور.

وذلك أن الحال في الأمة استقر على أن الناس على قسمين: مؤمن وكافر، والكافر في النار إجماعاً والمؤمن على قسمين: طائع وعاص، والطائع في الجنة إجماعاً، والعاصي على قسمين: تائب وغير تائب، والتائب في الجنة إجماعاً، والعاصي الذي مات ولم يتب أمره إلى الله تعالى، إن شاء الله عذبه، وإن شاء غفر له.

ولا يشك عاقل في تخفيف التكليف عن هذه الأمة ببركة نبيها المجتبى ﷺ وذلك أنه طلب، فقال: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] الآية، فأجيب إلى ذلك بأن كفانا مؤنة العذاب من السماء والخسف، وغيرهما مما لا تعذب به هذه الأمة.

ومنها أننا نأكل صدقاتنا في بطوننا وكانت الأمم تخرج ناراً تأكل صدقاتهم، ولم نفتضح بكشف ما نعصي به كما فعل بمن قبلنا، ولم نكلف بقطع موضع النجاسة من الثوب ونحوه كمن قبلنا.

وفي الحديث: «بعثت بالملة الحنيفية السمحة». وفيه: «الدين يسر». ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه وكان ﷺ يؤلف قلوب الناس بالإسلام بالتخفيف في التكليف، وبالذهب والفضة، وبايع رسول الله ﷺ ثقيفاً على أن لازكاة عليهم ولا جهاد، وقال يزكون ويجاهدون.

وكان كذلك، فإن هذا شأن الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، بل فرض الله تعالى بنفسه من مال الصدقات والغنيمة للمؤلفة قلوبهم، فهذا كله من مكارم هذا النبي الكريم الذي أنزل الله تعالى فيه عليه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وكيف لا يكون كذلك، وقد جمع الله تعالى فيه فضل الأولين والآخرين، ومحاسن أخلاق الأنبياء والمرسلين؟ وقد أغرب

العز بن عبد السلام في بعض مقالاته، حيث زعم أنه ﷺ إذا قوبل بواحد من الأنبياء كائناً من كان كان نبيناً أفضل منه، ولا يقال: أفضل من جميعهم.

وفي بعض مقالاته ما يقتضي تفضيله على جميعهم انفردوا واجتمعوا؛ فإذاً هذه المقالة مردودة، وليست في مقالات الصواب معدودة، فالذي عليه العلماء والشافعي، وناهيك به عظماً وتقديماً، أنه مفضل على جميع العالمين.

ومما يشهد لرد تلك المقالة قول إبراهيم الخليل للأنبياء «بهذا فضلكم محمد ﷺ».

ومن أراد استقصاء أفعال النبي ﷺ وأقواله وأحواله وكمالاته ومعجزاته... وجعل البحر له مداداً، والأشجار أقلاماً، وأمده الله بعمر، بحيث يفني الأقلام والمواد لفنيا، ولم يبلغ ذلك لأن فضل الله تعالى واسع، ومواهبه جزيلة؛ وقد أسبغ على نبيه منهما مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر... وقد رأينا أن الجم الغفير من العلماء قصدوا حصر السنة الشريفة، مع ما كان لهم من القوة والأحوال المساعدة على ذلك، من العلم والعمل، واتساع الاطلاع، ومن المال والكتب والجاه والعمر... فلم يتفق لهم ذلك، وما توادونه، ولم يبلغوا معشار فضله ولو عمروا من بعد ذاك قروناً.

وحكى الحافظ السيوطي ذلك عنهم، وصنف جامعه الكبير، فمات هو أيضاً دون ذلك، ولم يكمل الجامع إلى الآن.

لكن من أراد بسط الأدلة العقلية والنقلية، فعليه بكتاب «الشفا» أو «المواهب اللدنية» أو غيرهما، وفيما أوردناه كفاية للمحبين؛ والمسؤول من الله، والمرجو من فائض فضله أن يجمعنا على النبي ﷺ يوم الدين وما أحسن قول الإمام البوصيري.

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

القصيدة بطولها وإلى ذلك الإشارة بقول الإمام ابن عباس، وناهيك به معرفة بأسرار القرآن إذ هو ترجمانه، وقد دعا له النبي ﷺ بقوله: **«اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»**(١). وبقوله: **«اللهم علمه الكتاب»**.

إذ يقول: إن الله فضل محمداً على أهل السماء وعلى الأنبياء إلى آخره. فهذا مذهب ابن عباس رضي الله عنهما، كما إنه مذهب إبراهيم الخليل ﷺ وانظر إلى ما وصفه الله تعالى به من الأوصاف، إذ يقول عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (١: ٤٨). ومسلم في الصحيح (فضائل الصحابة ١٣٨). وأحمد في المسند (١: ٢٦٦).

﴿بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦] وانظر إلى البراء التي كتبها الله تعالى له، ولم يتفق ذلك لغيره من الأنبياء البتة، وإن كانوا معصومين من الكبائر والصغائر والعمد والسهو قبل النبوة وبعدها كما نعتقد إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١ - ٣] فإن قلت: فما معنى مارود في الصحيح من قوله ﷺ: «**والحاصل أن الأمة افترقوا إلى بضع وسبعين فرقة، تجمعها ثلاث فرق؛ فمنهم المفضلون لآدم على سائر البشر، ومنهم المفضلون لإبراهيم، ومنهم المفضلون لمحمد ﷺ**» ولكل دليل، غير أن الدليل المصيب الموافق لما عند الله تعالى إن شاء الله تعالى دليل الفرقة الثالثة، وهم الأكثرون.

وبهذا ضعفت مقالة أولئك حتى صار خلافهم كلا خلاف، وصار هذا إجماعاً إذا تقرر ذلك، فالذي يجب أن نلقي الله تعالى به أن فضله ﷺ لو وزن في كفة، وقوبل به فضل المخلوقين الشامل لفضل جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة أجمعين، وشرفه بشرفهم، وعلمه بعلمهم إلى غير ذلك... لرجح عليهم، ولو أتى بأضعاب أضعاب أضعاف فضلهم، لم يؤثر في ذلك الرجحان، وليس ذلك بعجيب، فإنك تعلم أنه:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

قلت: وهو محمد ﷺ والله تعالى أعلم، ومن أعظم الدلائل الصريحة المعلنة بفضله على عيسى ﷺ وغيره قول الله تبارك وتعالى عن عيسى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ومعلوم عند سائر العقلاء أن المبشر إذا قدم بالبشارة بقدوم الملك، فلا خفاء على أحد في تفاوت المرتبتين وبلغنا فيما نقل إلينا أن العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ احتج بهذه الآية على نصراني زعم أن الحي أفضل من الميت، وعنى محمداً وعيسى، وأن النصراني قال له لما سمع الحجة أبلعني ريقي. فقال له: أبلعتك الدجلة. ولا خفاء فيه أنه كان من أرباب الأحوال، فانفقأ قلب النصراني، وانفجرت بطنه، ومات لوقته. قلت وأيضاً فأنت خبير بأن ليس كل حي أفضل من كل ميت من كل وجه وإطلاق هذه المقالة جهل، على أنا نقول: إذا كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، فكيف الأنبياء؟ وفي السنة الشريفة: «**رأيت أخي موسى قائماً في قبره يصلي**»[1]. على أن الحق أنه ﷺ حي في قبره يصلي ويصوم، ويتعبد، ويطوف على أمته ويبلغه أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم... ولهذا رأى الصديق الأكبر أن ملكه باق لم

---

(١) رواه أبو عوانة في المسند (١: ١٣١).

يخرج عنه بالموت، وكان ينفق منه على عياله فإن قلت: قال ﷺ «**إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة**»[1] والاستغفار يكون عن الذنب. قلنا: لا يلزم ذلك، فإن قول «أستغفر الله» ونحوه عبادة يثاب الشخص عليها. وللعلماء أجوبة عن هذا كثيرة ومقالات شهيرة، أجلها أنه ﷺ كان يترقي في كل يوم، بل في كل ذرة بحسب تكميل الله تعالى له إلى مقامات لا تجوز لغيره متفاوتة في الترقي والكمال، فحيث أنه كان يرى المقام السابق بالنسبة إلى اللاحق غير كامل، من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين، كان يستغفر من ذلك المقام.

فإنه طالب للزيادة من واسع الفضل الذي لا يدرك أمره، ولا ينقطع مدده.

ولهذا قام على سبيل الشكر المستلزم للزيادة من المفضل بعد أخذ هذه البراء، حتى تورمت قدماه، وكلمته عائشة في ذلك، فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**». فاستنفد ذلك، والله أعلم.

وانظر إلى تأديب الله تعالى لخلقه توقيراً لنبيه، وتعريفاً بمقامه وشأنه، إذ يقول عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] الآية حتى قال علماء السنة إن حديثه المدون عنه كهو في ذلك. وانظر إلى قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٦]الآية وإلى قسم الله تعالى بحياته في قوله عز وجل: ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢] الآية وإلى ذلك الإشارة بقولي:

في الحجر قد أقسم الله العظيم به لعمره إن هذا أشرف القسم

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦] وإلى تبرئته تعالى لعائشة، وإلى تعليمه لأزواجه وإرشادهم إلى سلوك طريقه بقوله عز وجل: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وإلى سلامه تعالى على لسان ملك على زوجته خديجة، وتبشيره لها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه، ولا نصب إلى غير ذلك... فكل ذلك مما يدل على توقير الباري تبارك وتعالى له، ورعاية الخاطره وتعظيمه.

ومن البراهين القطعية على فضله على الأنبياء، كونه خاتم النبيين فإن ختام الشيء نهاية كماله. قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وحديث: «لا نبي بعدي».

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الذكر ٤١). وأبو داود في السنن (١٥١٥). وأحمد في المسند (٤ : ٢١١). والبيهقي في السنن الكبرى (٧ : ٥٢).

وهذا بالإجماع، ولم يخالف فيه أحد من أمته ﷺ فإن قلت: إذا حكم عيسى بشريعتنا على اختلاف مذاهبها الكثيرة، فبأي مذهب يحكم؟ قلنا: عيسى ﷺ أجل مقاماً، وأرفع مقداراً، وأصح فهماً ومقالاً من أن يقلد أحداً من الأئمة الأربعة أو غيرهم، بل ينظر بنفسه الشريفة في الحديث الشريف نفسه.

وإذا أشكل عليه أمر، جاء إلى قبر النبي ﷺ فيسأله عنه. ففي السنة الشريفة في ضمن حديث: «وإن جاء قبري عيسى، وسألني عن شيء لأجيبنه».

أو كما قال، كما في كتاب الأعلام بحكم عيسى عليه السلام للحافظ السيوطي، فاستفد ذلك، والله تعالى أعلم، إذا فهمت ذلك، فنقول: وبالله المستعان أن رجع هذا المعاند عما اقترفه فضل وأضل، فبها ونعمت والعود أحمد، وإلا فهذا رجل أشبه في الناس بالفرقة السوفسطائية المنكرين لحقائق الأشياء وطريق مناظرتهم أن يعذبوا بالنار.

فإما أن يحترقوا أو يعترفوا.

فإذا أصر هذا المخالف على ضلاله وجهله وبلائه، فيجب على الحاكم الشرعي وولي أمور المسلمين أيد الله به الدين وجوباً متأكداً ثابتاً أن يردعه عن ذلك إذا وصل إلى علمه ذلك، ويزجره الردع والزجر الشديدين، ويعزره التعزير البليغ من الضرب والحبس والصفع بالنعال... وغير ذلك مما يراه ولي الأمر سدد الله أحواله حتى إذا رأى أن يبلغ به أنواع التعازير إلى غايتها ونهايتها، كان له ذلك، كما يفعل بالجاهلين والمارقين المخالفين المعاندين، فإن للشريعة قوانين.

وأسأل الله أن يتوب عليه مما قال، وأن يعيذني وهو سائر المسلمين إلى أحسن الأحوال، وأن يرينا وجه نبينا محمد ﷺ أفضل الخلق على الإطلاق جالاً ومآلاً، وأن يجمع بيننا بفضله وكرمه سبحانه وتعالى. آمين آمين آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحان ربنا رب العظمة والكبرياء عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

تنبيه يقول جامعه الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه قد ذكر مؤلف هذه الرسالة، نور الدين بن الجزار فيها أن الإمام شمس الدين الرملي ابن شيخه الإمام شهاب الدين الرملي، هو أيضاً ألف في هذه المسألة مؤلفاً، ومن سبب التأليف الذي ذكره في أول هذه الرسالة من أن المقصود بها الرد على المبتدع الهالك، القائل: إن محمداً ﷺ ليس أفضل خلق الله تعالى:

علمنا أن هذا الرجل الخبيث هو الذي ذكر قصته الإمام الشعراني في الطبقات، ونقلت كلامه عند ذكره رضي الله عنه فيما سبق من هذا الكتاب «جواهر البحار» في صفحة ٤٢١، وهو قوله، وقد وقع في سنة إحدى وأربعين وتسعمائة أن شخصاً زعم أن سيدنا إبراهيم عليه السلام أفضل من سيدنا محمد ﷺ إلى أن قال: وقد انتصر علماء مصر، وصنفوا مصنفات في الرد على هذا الشخص بتقدير ثبوت ذلك عنه، كسيدي محمد البكري، وسيدي محمد الرملي، والشيخ ناصر الدين الطبلاوي، والشيخ نور الدين الطنتدائي... وقرئت تلك المصنفات على رؤوس الأشهاد بحضرة خلائق لا يحصون، فإنهم ذلك.

والحمد لله رب العالمين هو راجع عبارته تجد التصريح بالجواب، والحمد لله ملهم الصواب، فمن هنا يعلم أن مؤلف هذه الرسالة القول الحق كان معاصراً للإمام الشعراني، وكان من جملة المؤلفين في هذا الشأن رضي الله عنهم أجمعين.

ومنهم الإمام الأديب بدر الدين حسن بن عمر بن حبيب الحلبي(١) صاحب كتاب نسيم الصبا المتوفى سنة ٧٧٩

ومن جواهره رحمه الله تعالى

[أشراف المناقب]

كتابه «النجم الثاقب في أشرف المناقب» الذي رتبه على ثلاثين فصلاً مثل كتابه «نسيم الصبا» مسجعاً بالسجع البديع، المشتمل على أبلغ المعاني وأفصح البيان والبديع من أوصاف سيدنا محمد الحبيب الشفيع ﷺ وهذا نص كتابه المذكور بحروفه:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الولي الحميد، المبدئ المعيد، الفتاح العليم، رب العرش العظيم، الذي يخص من يشاء بمناجاته، ويعلم حيث يجعل رسالاته والصلاة والسلام على رافع قواعد الإسلام، المرسل بالرأفة والرحمة، والمبعوث لكشف الظلم والظلمة، الذي عم بفضله المقترب والمغترب، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وعلى آله الأبرار، وأصحابه الأخيار ما جرت الأنهار، وتعاقب الليل والنهار.

وبعد،

فهذه أوراق أينع ثمر أغصانها وراق، تشتمل على ثلاثين فصلاً، محرزة في ميدان الإيمان للسبق خصلاً، حاملة ألوية الشرف، رافلة في مطارف الطرف، مفصحة بتعريف أحوال المصطفى، منجحة قصد من اتبع آثاره واقتفى، نحوت بها نحو القاضي عياض في شفائه، مهتدياً بالناشطات السابحات في فلك سمائه، وسميتها «النجم الثاقب في أشرف المناقب».

---

(١) هو الحسن بن عمر بن الحسن بن حبيب أبو محمد بدر الدين الحلبي، مؤرخ من الكتّاب المترسلين. ولد في دمشق ونصب أبوه محتسباً في حلب، فانتقل معه فنشأ فيها ونسب إليها، ثم رحل إلى مصر والحجاز وعاد للاستقرار في حلب ولد سنة عام ٧١٠ هـ. وتوفي في سنة ٧٧٩ هـ.

وعلى الله أتوكل في الحركة والسكون، وبرسوله أتشفع يوم لا ينفع مال ولا بنون.

يــا خيــر مبعــوث لــه طلعــة	نــور الهــدى منهــا أقــر العيــون
جئــت إلــى ناديــك أرجــو النــدى	مــن غيــث كفيــك المغيــث الهتــون
كــن لــي شفيعــاً فــارتكــاب الهــوى	أوقعنــي بيــن الشجــى والشجــون
صلــى عليــك الله سبحــانــه	مــا هــزت الــريــح قــدود الغصــون

الفصل الأول: في جليل فضله وعظيم قدره عند ربه ﷺ

اعلم وفقنا الله واياك، وأتحفك بهدية الهداية وحياك أن رسول الله ﷺ أفضل البشر على الإطلاق، وأن لسيادته على ولد آدم أدلة ظاهرة الإشراف والإشراق، وأنه أرفع الناس درجة، وأقربهم زلفى، وأكرمهم منزلة عند من يعلم السر وأخفى، وأن الله تعالى خصه بمناقب عديدة وفضائل مديدة ومحامد كثيرة ومآثر أثيره، ومنحه بكرائم الكرامة، وأعلى في الدارين مقاله ومقامه، وأظهر على يديه الآيات، وأقام له الألوية والرايات، وكمل فيه جميع المحاسن، وأفاض عليه من عين العناية ماء غير آسن، وفضله على خاصته وأحبابه، وأثنى عليه في مواضع من كتابه، ونصره بالرعب مسيرة شهر وأبقى معجزته ما بقي الدهر، وجعل له الأرض مسجداً وطهوراً، ولقي من نظر إلى وجهه الكريم نضرة وسروراً وأحل له الغنائم، ودفع به العظائم، وبعثه إلى الناس كافة، وكلأه بحفظة لم تزل من حوله حافة، ونوله الشفاعة، وأرسله بين يدي الساعة، وصرف عنه الأذى، وأنزل عليه مَنَّ المنة، وكتب اسمه على العرش وعلى مواضع من الجنة، وأطال في وصفه وأطنب، وأعطاه أن لا تجوع أمته ولا تُغلب، وأيده بالبراعة واللسن، وركب فيه كل خلق حسن.

تبــارك مــن حمــاه ومــن حبــاه	بحســن الخَلــق والخُلــق العظيــم
وأغنــى أهــل ملتــه بــدرّ	أتــى مــن بحــر منطقــه نظيــم
وصيــره لمــن يــرجــوه كهفــاً	وعــرفــه بــأصحــاب الــرقيــم
وســدد قــولــه وبــه هــدانــا	جميعــاً للصــراط المستقيــم

وآتاه جوامع الكلم وخواتمه، وملكه خوافي الفضل وقوادمه، وألبسه خلع الجلال والجمال، وأجلسه على ذروة الشرف والكمال، وحض على الاقتداء بهديه، وأمر بامتثال أمره ونهيه، وألزم بالدخول في طاعته، وحث على اتباع سنته وجماعته، ونبه على علو شأنه لديه، وفرض الإيمان به والصلاة عليه، وأيده بالملائكة، وأجرى جواري الخيرات على يده المباركة، وقرَّبه وأدناه، وأوحى إليه وناجاه، وأراه من آياته الكبرى، وكرمه وعظمه في الدنيا

والأخرة، ونصب منصبه على بقاع الشرف، ورفع رتبته إلى أعلى الغرف، وأعزه بالطاعة، وأغناه بالقناعة، وقلب له الأعيان، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأطلعه على جميع المعارف، وأسبغ عليه من القبول أحسن المطارف، وأولاده كثيراً من الخصائص، وحماه من العيوب والنقائص، وسواه فعدل تركيبه، وأدبه فأحسن تأديبه، وعلمه ما لم يكن يعلم، وأرشده إلى حل كل مشكل ومبهم، واتخذه حبيباً وخليلاً، وأحله من دار السعادة محلاً جليلاً، وأناله من حاصل حب الحب غاية المطلوب، وغفر له الماضي والمستقبل إذ المحبوب لا يؤاخذ بالذنوب.

هو الحبيب الذي أنوار طلعته ... تخفى إذا عاينتها الشمس والقمر
هو الإمام الذي مذ آن طالعه ... سر الزمان به واستبشر البشر
قد خص بالخلة المأنوس معهدها ... وبالمحبة ممن أمره قدر
لاغرو أن عاد بالغفران مغتبطاً ... إن الذنوب من المحبوب تغتفر

ونص على وجوب توقيره وبره، وحكم بلزوم نصحه، وتعظيم قدره، وجبله على الصيانة والعفاف، وعدل به ميزان العدل والإنصاف، وزين به الوجود، وقلده عقود العهود، وأفرده بإيداع سره المصون، وعضده بقرآن كريم، في كتاب مكنون، وسماه بجملة من أسمائه، وختم بمسكه رحيق أنبيائه، ونوه برفعة مكانته وشرف محتده، وأنزله منزلاً فاق الأفق وعلا على فرق فرقده، ومنح جانبه العزيز ليناً، وذاته الكريمة لطفاً وفتح به أعيناً عميا وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، ورقى به أمته إلى أرفع الدرج، ولم يجعل عليه ولا عليهم في الدين من حرج، وعرفه بما أخرج لعباده من زينته، وأوجب له النبوة وآدم منجدل في طينته، ولم يبعث نبياً إلا ذكر له نعته ومسلكه، وأخذ عليه الميثاق بالإيمان به ونصره إن أدركه.

ولم يعط أحداً من الأنبياء فضيلة مستفادة، إلا وقد أعطاه مثلها وزيادة، وأجرى عليه من مواد الفضل ما توقف عند مجاراته الغيث وتجمد.

قال جبريل: «قلبت مشارق الأرض ومغاربها، فلم أر رجلاً مثل محمد».

يا راغباً في حصر فضل محمد ... خفض عليك ففضله لا يحصر
إن قلت مثل الرمل أو مثل الحصا ... أو مثل قطر الغيث قلنا أكثر
أكرم به مولى علياً قدره ... متقدماً كل له يتأخر
ذا رتبة عند الإله عظيمة ... معروفها بين الورى لا ينكر
صلى عليه الله ما هب الصبا ... من نحو روضته الحظيرة يحظر

الفصل الثاني: في ثناء الله تعالى عليه في كتابه العزيز ﷺ

أخبر الله تعالى في كتابه العرب أنه بعث إليهم رسولاً من أنفسهم عليّ القدر لديهم يعرفون فضله ومكانته، ويتحققون صدقه وأمانته، عزيزاً عليه ما يهوى بهم في الهوان، حريصاً على دخولهم إلى دار أمان الإيمان، شريف النسب فيهم، رؤوفاً رحيماً بمؤمنيهم. وأناله من نيل الكرامة غاية السؤل، وقرن طاعته بطاعته في قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ﴾ [النساء: ٨٠] وأطلع في أفق التوفيق نجمه، ورحم العالمين به، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فمن أصابه شيء من رحمته فقد فاز، ووصل إلى كعبة النجاة من غير حجاز، وحصنه من سور كتابه العزيز بأمنع سور، وسماه فيه نوراً بقوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥] وأرسله شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وشرح بالرسالة صدره ووضع عنه وزره الذي انقض ظهره، ورفع بذكره معه في الشهادتين ذكره، وأظهر دينه على الدين كله وعظم أمره، ورمى المشركين منه بالمقعد المقيم، ونعته في أم الكتاب بالصراط المستقيم، وآتاه سبعاً من المثاني، وأكرمه بمنزلة محكمة المباني.

آتـاه سبعـاً شمـس آيـاتهـا	أضحـت بـآفـاق الهـدى واضحـه
فيهـا معـان سـرهـا غـامـض	يعـرفهـا ذو الصفقـة الـرابحـه
سـور كتـاب الله مـا حلـه	أعظـم منهـا سـورة صـالحـه
تختـم بـالخيـر لقـرائهـا	وهـي لأبـواب الـرضـى فـاتحـه

وبعثه حرزا للأميين، ووضع كتاب الأبرار به في عليين، ورفعه إلى المحل الأسنى، وقربه منه فكان قاب قوسين أو أدنى، ونزه لسانه عن النطق بهواه، وفؤاده عن الكذب فيما رآه، وبصره عن الزيغ والالتفات، وزكى جملته الجميلة وعصمها من الآفات، وأقسم على أنه ما ودعه ولا قلاه، ولم يقسم بحياة أحد في قوله: «لعمرك» من الخلق سواه، وزوى له أرض الخيرات طولاً وعرضاً، حيث أنزل عليه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] وأيده بأظهر البراهين وأبهر المعجزات، وأراده من تلك الرسل بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ودرأ العذاب عن أهل مكة لكونه بواديهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وأمر الذين هم في حلبة الإيمان به مجلين، أن يصلوا ويسلموا عليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ﴾ [الأحزاب: ٥٦] وأعطاه الكوثر، ورد على عدوه بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] وطهره من الأقذار والأدناس، وبين عصمته في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وحماه ممن كان يقصد ضره ... بيد له مغلولة ولسان
ورعاه من نظر العيون بعينه ... وكفاه شر طوارق الحدثان
وأمده بحراسة وعناية ... محفوفة باللطف والإحسان
وهو الجدير بأن يعظّم قدره ... عند القدير مدبِّر الأكوان

وأحسن مخاطبته في سورة نون، ووعده فيها بأجر غير ممنوع ولا ممنون، وأثنى عليه ثناء يجل أن يحمله رسول النسيم، وبالغ في التمجيد والتأكيد بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وأتحفه تبارك اسمه في سورة الفتح، بجزيل الصلات الواصلات والمنح، من ظهوره وغلبته، وعلو شراع شريعته وكلمته، وخضوع من ترفع من أعدائه وتكبر، وغفران ما تقدم من ذنبه وماتأخر، وإتمام النعمة عليه، وإرسال الهداية إليه، ونصره النصر العزيز، ونصب حال من حوله على التمييز، وأنزل السكينة على قلب من تابعه، ورضاه عمن تحت الشجرة من أصحابه بايعه. إلى غير ذلك مما تضمنته آيات السور المشهورة، وكم له ﷺ من معارف معروفة ومآثر مأثورة.

شهد الكتاب بأن أحمد مرسل ... من صاحب الملكوت جل جلاله
كم آية فيها اسمه يتلى وكم ... أخرى بها أوصافه وخلاله
والله أقسم صادقاً بحياته ... في محكم شرح الصدور مقاله
سبحان من أولاه أنواع الولا ... وأناله ما لا يرام مناله
أزكى الصلاة عليه من رب العلا ... أبداً وخصص بالتحية آله

الفصل الثالث: في مولده وشرف نسبه ﷺ

ولد النبي ﷺ بمكة أشرف البلاد، وأكرمها على الله سبحانه وعلى العباد. ومن بحر بحرتها ظهرت درته اليتيمة، وفي أفق سمائها طلعت شمس طلعته الوسيمة، يا لها بلدة بركاتها نامية، وموارد فضائلها طامية، وأركان بيتها بالأمن مأهولة، وأدعية اللطائف بكعبتها مقبولة، وحظ القائم بمقامها من السعادة وافٍ، وعيش الساعي بين صفاها ومروتها صافٍ.

طوبى لمن أقبل على حِجرها وقبّل حجرَها، وبلغت نفسه من مِنى مُناها وقضت من عَرْف عِرفة وطرها، وهو دعوة أبيه إبراهيم، وبشارة عيسى عليه الصلاة والتسليم، وصفوة سلالة قريش وصميمها، ونخبة بني هاشم راحلها ومقيمها، وأشرف العرب بدواً وحضراً، وأفضلهم بيتاً وأعزهم نفراً. من قبل أبيه ذي النسب الزاكي نور نضرته. وجهة أمه ذات الحسب الزاهر ضوء زهرته.

إذا افتخرت قريش بالمعالي وبالشرف الرفيع لدى الكرام
فهاشمها خلاصتها ومعنى عبارة مجدها بين الأنام
وسر صميمها من لا يسامى رسول الله مصباح الظلام

بعثه الله من خير القرون والقبائل، واختاره من أرفع البيوت والمنازل، لأنه اصطفى من ولد إبراهيم الخليل، رافع قواعد البيت معه إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، ومن بني كنانة قريشاً المعروف بالشرف والمكانة. واصطفى من قريش بني هاشم، ومن بني هاشم سر السراة أبا القاسم. ولم يزل ينقله من الأصلاب المأهولة بأهله الصلاح، حتى أخرجه من بين أبويه لم يلتقيا قط على سفاح.

تنقلت في أصلاب أرباب سؤدد كذا الشمس في أبراجها تتنقل
وسرت سرياً في بطون تشرفت بحمل عليه في الأمور المعول
هنيئاً لقوم أنت منهم وفيهم بدا بك بدر بالجلال مسربل
ولله وقت جئت فيه وطالع سعيد على أهل الوجود ومقبل

ولا يخفى ما جرى عند مولده وانتشر، وما وافى حين مقدمه المبارك واشتهر، من ظهور النور الباهر، وتدلي النجوم الزواهر، وارتجاج إيوان ملك الفرس كسرى، وسقوط شرفاته التي كادت أن تعقد بالشعرى، وخمود نارهم الألفية، وغيض الماء من بحيرة طبرية، وحراسة السماء بالكواكب، وإضاءة ما بين المشارق والمغارب، وأنه عليه الصلاة والسلام أقبل مختوناً مسروراً، وتجلى في حلل النبوة محبوباً محبوراً، واسترضع من بني سعد بن بكر، وبرئ من أقوال أهل المين والمكر، وشق قلبه الحي المتقي، وغسل بثلج الإرادة وهو نقي، وختم بخاتم من نور، تخفي بهجته الشموس والبدور، وملئ إيماناً وحكمة، وحشي بالرأفة والرحمة، ووزن بمائة من أمته فرجح، ولو وزن بجميعهم لتبين ترجيحه ووضح.

نبيٌّ طما بحر تشريفه وميزان تعظيمه قد رجح
بمقدمه زال عنا العنا وآب الهدى والهنا والفرح
لقد رفع الله من قدره كثيراً وللصدر منه شرح
وأورثه حكمة حكمها به الحق بعد الخفاء اتضح
ألا إن من يقتفي نهجه أصاب ومقصده قد نجح

وما رفع به عن حليمة من الضير، وما حصل لها ولقومها ببركته من أنواع الخير، وما نشأ عليه من بغض الأصنام، والعفة عن أمور الجاهلية قبل الإسلام، وما ترادفت به الأخبار،

عن علماء الملل والأحبار، وما عرف به الأساقف، وطرق الأسماع من الهواتف، وما أنذر به الكهان، ونقل عن القسوس والرهبان، من أنبائه وصفاته، وأسمائه وعلاماته، ونبوته وملته، وبعثته ونعت أمته، وما وجد من ذلك في أشعار الموحدين، وذكر من كلام من مضى من المتقدمين، وما ألقي في التوراة والإنجيل، وبينه من أسلم من أهل الكتاب والتنزيل، وما برز على ألسنة الأصنام وظهراً وسمع من ذبائح النصب وأجواف الصور، وما رؤي مكتوباً على الحجارة بالخط القديم، من ذكر اسمه والشهادة له بالرسالة والتعظيم، ولقد خصه الله تعالى بمزايا الرتب، وأعرب عن تفضيله على العجم والعرب، ونظر إلى قلوب عباده فانتقى منها قلبه، وسبر أحوال خلقه للتقريب منه فلم يختر إلا قربه، وقسم الناس قسمين فجعله من خيرهم قسماً، وزكاه أباً وأماً، وأصلاً وفرعاً وروحاً وجسماً.

لمولد خير الرسل أحمد أصبحت ... وجوه الهدى وضاحة متبلجه
وأشرقت الدنيا بأنوار بدره ... وعادت به أرجاؤها متأرجَه
وإيوان كسرى أسقطت شرفاتَه ... وحلت عرى أبراجه المتبرجه
ونيران بيت الفرس باخ لهيبها ... وكانت لديهم ألف عام مؤججَه
وكم آية جاءت قريب قدومه ... تنير من الحق المطهر منهجَه
عليه من الرحمن أزكى تحية ... بأفضل تيجان الصلاة متوجَه

الفصل الرابع: في أوصافه ونعوته الشريفة ﷺ

كان النبي ﷺ عظيم الهامة معتدل القامة، أزهر اللون أدعج، أهدب الأشفار أبلج، كث اللحية واضح الجبين، مفلج الأسنان أقنى العرنين، متماسك البدن، أزج الحواجب من غير قرن، سهل الخدين، طويل الزندين، عبل العضدين، بعيد ما بين المنكبين، رحب الكفين، مسيح القدمين، أشم، ضليع الفم، أشنب، أطول من المربوع وأقصر من المشذب، ليس بمطهم، ولا قصير الذقن مكلثم، ، رجل الشعر لجيني الجيد، أحلى الناس من قريب وأجملهم من بعيد، دقيق المسربة واسع الصدر، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، الشكَل ظاهر بعينيه، لا يجاوز شعره شحمة أذنيه، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا نطق أتى من جوامع الكلم بالعجب.

جميل الصفات جزيل الصلات ... غزير الهبات كثير الأدب
بديع الجمال رفيع المنال ... عديم المثال عظيم الحسب
مليح الشمائل بادي السنا ... بسيط الأنامل عالي الرتب

بـه أرشـد اللـه أهـل النهـى ... بـه شـرف اللـه جيـل العـرب

وكان طيب الريح والاسم، نظيف البدن والجسم، أطيب ريحاً من العنبر، وأذكى عرفاً من المسك الأذفر، يتضوع طيباً، ويهتز غصناً رطيباً. تختفي من شذاه جونة العطار، وتتأرج بنشره الأرجاء والأقطار. يصافح الرجل فيظل يومه يجد في كفه نشراً، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان عطراً. ما مشى في طريق فمشى فيه أحد من بعده، إلا عرف أنه سلكه من ريحه الذي لا ند لنده.

وجـه الـوجـود بنـور أحمـد مشرق ... وبعـرفـه أرجـاؤه تتـأرج

الطيـب يطـوى عنـد فـائـح نشـره ... والـروض يخفـى زهـره المتبـرج

وكان دمث الأخلاق، وافر الأرفاد والأرفاق، خافض الطرف سائل الأطراف، جزيل المحاسن جميل الأوصاف، ثابت الأساس، قوي الحواس، يرى الشياطين ويرى الملائكة، وكما يبصر في الضوء يبصر في الظلمة الحالكة. وينظر من ورائه كما ينظر من بين يديه، ويرى في كف الثريا أحد عشر نجماً إذا نظر اليه. ضحكه التبسم، وشيمته التكرم، يفتر عن مثل حب الغمام، ويبدأ من لقيه بالسلام. يخرج النور من بين ثناياه، ويغار النسيم من لطف سجاياه. الملاحظة جل نظره، والمناصحة غاية وطره. يمشي هوناً لا سريعاً، وإذا التفت التفت جميعاً.

أكـرم بـه ذا وقـار ... يمشـي علـى الأرض هـونـا

عنـد المهمـات ذخـراً ... وفـي الملمـات عـونـا

سـاد النبييـن طـراً ... علمـاً وفضـلاً وصـونـا

لأن بيـن عـلاهـم ... وبيـن علياه بـونـا

وكان طويل السكوت، مواظباً على القنوت، دائم الفكرة، ملازم العبرة، مواصل الأحزان، متحلياً بالعدل والإحسان، لا يعجبه من مال إلى المال ولها، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. يعظم النعمة وإن دقت، ويصبر على المحنة وإن شقت. من رآه بديهة هابة، ومن خالطه معرفة أحبه ولزم بابه. لم ير أحسن منه منظراً، ولا أطيب خبراً ومخبراً. يبادر إلى قضاء حاجة من يبتغي فضله، يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله.

مـن أيـن يـوجـد قبلـه أو بعـده ... مثـل لـه وهـو الحبيـب المصطفـى

اللـه فضلـه وحسـن خلقـه ... مـع خلقـه وبـه الأذى عنـا نفـى

طوبى لمن بجميل سيرته اقتدى ... وطـريـق سنتـه المعظمـة اقتفـى

صلـى عليـه منيـر بـدر صفـاتـه ... مـالاح فـي الآفـاق نجـم واختفـى

الفصل الخامس: في فصاحته وأدبه وحلمه ﷺ

كان رسول الله ﷺ يعرف ألسنة العرب، ويعلم لغة من بعد منهم واقترب، ويخاطب كل طائفة منهم بلسانها، ويجري مع كل فرقة في ميدان بيانها، فصاحته إليها المنتهى، وبلاغته حيرت ألباب أرباب النهى، وجوامع كلمه مأثورة، وبدائع حكمه مشهورة، وعيون معانيه منسجمة، ودرر ألفاظه منتظمة، وإيجاز مقاطعه يطرب الأسماع، وحسن منازعه لا شك فيه ولا نزاع، وطلاوة قوله تجل عن الصفة، وحلاوة منطقه لا يذوقها إلا أهل المعرفة، أنزل القرآن الكريم بلسانه، تعظيماً لأمره ورفعة لشأنه ما أعذب لفظه، وأنفع وعظه، وأجزل فوائده، وأجمل فرائده، وأبلغ خطابه وخطبه، وأبدع رسائله وكتبه.

نشأ في بني سعد ورتبته في قريش عالية، فجمع من الكلام رونق الحاضرة وجزالة البادية، وأيد ببراعة خص بها من حكم بتوفير قسمه، لأن مدده الوحي الذي لا تدركه البشر ولا يحيطون بشيء من علمه.

محمد أبلغ العُرْب الذين مضوا	نعم وأفصح من بالضاد قد نطقا
جوامع الكلم المأثور طيبها	آتاه من أوجد الأصباحَ والغسقا
لله ألفاظه اللاتي لنا نشرت	جواهر العلم في تبيانها نسقا
من قال إن رسول الله ليس له	كفؤ من الناس في الدارين قد صدقا

وكان ذا آداب شريفة، ومعارف منيفة، ونظر ثاقب، ورأي صائب، وظن صادق. وحدس موافق، وسياسة شاملة، وحماسة كاملة، وفضائل مقصودة، وأخلاق محمودة، دينه الإيمان، وخلقه القرآن، يسخط لسخطه ويرضى لرضاه، ويحذو حذوه ويهتدي بهداه.

بعث ليتمم مكارم الأخلاق، ويرحض[1] شقة الأرض من دنس النفاق. مقرراً للشرائع، حافظاً للودائع، مجتهداً في المصالح، رائضاً للجوامح، ناظراً في المهمات، رافعاً أثقال الملمات.

آداب خير الرسل قد قارنت	أخلاقه الحسنى وتهذيبه
لا يحصر الخاطر أوصافها	ولو أثار الفكر تلهيبه
وكيف لا والله ذو العرش إذ	أدَّبه أحسن تأديبه

وكان النبي ﷺ عزيز الحلم والاحتمال، كثير الفضل والأفضال، يصل من قطعه، ويعطي من منعه، ويبذل لمن حرمه، ويعفو عمن ظلمه، ويغضي طرفه على القذى، ويحبس

---

(١) رحض الأرض: غسلها. [لسان العرب، مادة: رحض.

نفسه عن الأذى، ولا ينتقم مع القدرة، ويصبر على ما يشق ويكره، ولا يزيد مع أذى الجاهل وإسرافه إلا صبراً وحلماً.

وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً. ولم يؤاخذ الذين كسروا رباعيته وشجوا محياه، وقصدوا خفض المرفوع من عرفه ورياه، بل دعا لهم واعتذر من جهلهم، وعفا عنهم وكم عفا عن مثلهم، وتجاوز عما بدا من المنافقين في حقه قولاً وفعلاً، ولم يقابل من شتمه ولا من أراده بسوء طَوْلاً، وفضلاً وكم أعرض عن جاهل ومعاند، وما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد، وصبر على مقاساة الجاهلية، وما لقي منهم من الشدة والبلية، إلى أن سلطه الله عليهم، وحكمه فيهم وأظفره بما لديهم.

كان النبي وقد راقت شمائله	بالحلم مؤتزراً والصبر مشتملا
يعفو ويصفح فضلاً بعد مقدرة	ويحبس النفس عند الشر محتملا
وما يقابل من يأتي بمظلمة	في حقه معرضاً عن قول من جهلا
وكم غدا آمراً بالعرف مجتهداً	وكم أنال وكم أعطى وكم بذلا
تفصيل تفضيله لا ينتهي أبداً	ياذا الولاء فخذ أوصافه جملا
مني عليه سلام نشره عطر	ما سار بدر الدجى في الأفق منتقلا

الفصل السادس: في جوده وكرمه وشجاعته ﷺ

كان النبي ﷺ عالي الهمم، وافر الفضل والكرم، طويل الباع، مديد الذراع، بسيط الأنامل، كريم الشمائل، جميل العواطف، جليل العوارف، محلى بالحياء، مطبوعاً على السخاء، سهل الإنفاق، جزل الإرفاق، مهتماً بصلة الأرزاق، أين منه الغيث المغيث والبحر الغيداق، يحقق الوسائل، ولا يخيب أمل الآمل، يبذل الرغائب، ويعين على النوائب، يحمل الكل ويكسب المعدوم، ويجري سيل السيب على السائل والمحروم، ويمد أطناب الرفد ورواقه، ويعطي عطاء من لا يخشى الفاقه، وينيل من أخلد إليه ما لم يكن في خلده، ولا يدخر شيئاً من يومه لغده.

أسخى من الغمائم المثقلة، وأجرى بالخير من الريح المرسلة ظلال عطاياه مديدة، وحلل مكارمه لا تبرح جديدة. تمتار السحائب من يم أياديه، وتهرع الركائب إلى ندى ناديه، ما سئل عن شيء فقال لا، ولا أعرض عن طالب عَرْض ولا قلى. أعطى رجلاً سأله غنماً بين جبلين، ولم يزل معروفه معروفاً عند الثقلين، وقسم في مجلس واحد تسعين ألف درهم، وكم أنجد بعطائه من أنجد ومن أتهم، وأعطى مائةً مائةً من الإبل غير واحد من العرب، وجاد

للعباس بما لم يطق حمله من الذهب، ورد سبايا هوزان وكانوا ستة آلاف، وخبرما منح به صفوان وغيره عن علم الرواة غير خاف:

لقد كان المقفّي سيلَ سيب ... وبحر تكرم وسحاب وبل
طويل الباع منشرح العطايا ... بسيط الكف ذا جود وفضل
شريف المنتهى جزل الأيادي ... حليف تقى وإحسان وعدل
يجود على العفاة بلا سؤال ... وينجز وعده من غير مطل
له شيم وأوصاف حسان ... يفوح عبيرها في كل حفل
يجل من البرية عن نظير ... وعن كفؤ يقاس به ومثل

وكان ذا شجاعة ونجدة، وبسالة وشدة، وبأس وشهامة، وحماسة وصرامة، وصولة وإقدام، وإرغام للضرغام. يشتت شمل الكماة، ويهتك وجوه الحماة، ويبطل حيلة الأبطال، ويفرق جمع الأفيال. نفوذ النبال من شدة عزماته، ومضاء المرهفات من صدق رأيه وخفق راياته. أذهب الشك بحق اليقين، وأرهب العدا بسيفه المتين، وسفه أحلامهم، ونكس أعلامهم، وزيف أقوالهم وأفعالهم، واستباح أرضهم وديارهم وأموالهم، وأباد أهل العناد بعضبه البتار، وأظهر دين المسلمين بصحبه الأشداء على الكفار. غزواته معدودة، ومشاهده مشهودة، وحروبه لا تنكر، ومواقفه أشهر من أن تذكر.

حضر الوقائع الحامي وطيسها، وشهد الملاحم العرمرم خميسها، وتولى الكماة عنه، وهو مستقر غير مرة، وفر المسلمون من حوله يوم حنين فرة مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح، قائلاً أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب. ما قرب منه أحد إذا التقى الجمعان، إلا وعده من أشد الكماة والشجعان.

وما لقي كتيبة إلا وكان أول ضارب، ولا توانى القوم لوقوع صوت إلا وكان أسرع واثب. لم يُر أثبت جأشاً منه في الجهاد، ولا أقرب لجهة المشركين وقت الجلاد، قال ابن عمر: ما رأيت أشجع ولا أنجد، ولا أسخى من رسول الله ولا أجود، وقال علي: «كنا نتقي برسول الله إذا اشتد البأس واحمرت الحدق»، وفي هذا الحديث الحسن مافيه مما يخضب كاعب السرور ويجلب غائب الأنق.

بأس وشدة نجدة وحماسة ... ركبن فيمن وجهه يجلو الغسَق
ذاك النبي المصطفى الهادي الذي ... سبق النبيين الكرام بما سبق
كم شت شمل المشركين بسيفه ... وأحلَّهم سجين الحفيظة والحنق
كم ألبوا وتجمعوا للقائه ... فتفرقوا لما رأوه من الفَرَق

مـن قـال إن محمـداً أوفـى الـورى	يـوم الـوغـى عـزمـاً وإقـدامـاً صـدق
صلـى عليـه المـالـك القـدوس مـا	هتـف الحمـام الـورق مـا بيـن الـورق

الفصل السابع: في حيائه وأنسه ولطفه وشفقته ﷺ

كان رسول الله ﷺ أكثر الناس حياء، وأوفرهم عن العورات إغضاء، وأوسعهم صدراً، وأنورهم بدراً، وأجملهم وصفاً، وأجزلهم لطفا، وأعطفهم نائلاً، وألطفهم شمائلاً، وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة، وأحسنهم أدباً وأبهجهم نضرة، وأظهرهم بشراً وإنساً، وأبسطهم خلقاً وأطيبهم نفساً، أشد حياء من العذراء في خدرها، وألطف من نسمات الأسحار عند هبوبها، وممرها. ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب، ولا فحاش ولا مداح ولا عياب.

يؤلف الناس ويحسن إليهم، ويكرم كريم قوم ويوليه عليهم. لا يطوي عن بشر بشره، ولا يشافه أحداً بما يكره، ولا يثبت بصره في وجه أحد من حيائه، ولم يرقط ماداً رجليه بين جلسائه، ويتفقد أصحابه، ولا يغلق عن الوفد أبوابه، ولا يقطع عن أحد حديثه، ولا يمنع عن الملهوف سحبه المغيثة، ولا يعدل عمن جالسه لحاجة ولا ينحرف، ولا ينصرف عنه حتى يكون هو المنصرف.

وما التقم أحد أذنه فنحى رأسه حتى يتنحى الملتقم، ولا يحب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه لما يرى من إحسانه المرتكم.

لـه سيـرة مـأثـورة سـار ذكـرهـا	وبشـر لمـن يلقـاه لاحـت بشـائـره
وأنـس يـرى الإنسـان منـه مسـرة	وفيـه حيـاء طـار فـي الحـي طـائـره
وبسطـة نفـس للنـزيـل نفيسـة	وغيـث يجيـب الغـوث عمـت مـواطـره
أيا من يروم الحصر من نعت أحمد	أفـقْ فهـو بحـر لا تعـد جـواهـره

وكان يقبل الهدية ويكافئ عليها، ويثابر على المعونة ويسارع إليها، ويجيب دعوة المسكين والمسكينة، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويخفف الصلاة بسبب طالب الحاجة، ويكثر إلى التغافل معاده ومعاجه، ويقابل عذر المعتذر بالقبول، ويطلع لزائره نجوم إكرام ليس لها أفول، ويؤثر من يدخل عليه بوسادته.

ولا يخرج في مكارم الأخلاق عن عادته، ويدعو أصحابه بكناهم وأحب أسمائهم، ويميل إلى مخاطبتهم ومحادثتهم ومداعبة أبنائهم، ولا يجيب أحداً منهم ومن أهل بيته إلا بالتلبية، ويعم كلاً من جلسائه من مودته بالتسوية، ويجري على من أمه وأمله نيل النول، ولا يرد ذا الحاجة إلا بها أو بميسور من القول، قال أنس رضي الله عنه: خدمته عشر سنين، فما

قال لي لشيئ صنعته: لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته.

رسـول حلـم ورحمـة ورضـى ... مقـدس الخبُـر طيـب الخبـر
أنـسُ وحيـدٍ وغيـث منتجـع ... كهـفُ طـريـد وعـونُ مفتقـر
مـاذا يقـول البليـغ مجتهـداً ... فـي حقـه وهـو سيـد البشـر
يكـرم أصحـابـه وزمـرتـه ... ويلتقيهـم بـأحسـن الصـور

وكان ذا شفقة تامة، ورأفة عامة، ورحمة شاملة، وحنو سحائبه هاملة، يحب الرفق ولا يعدل عن جهاته، وإذا سمع بكاء الصبي تجوّز في صلاته. ويأمر بالحسنة ويدني أهلها، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح، ويتجاوز عن المسيء ويسمح، ويدفع بالتي هي أحسن، ويأتي من المعروف بما أمكن، ويصل الرحم ويقري الضيف، ويقطع أسباب الحتف والحيف، ويحرص على دخول المسلمين إلى دار السلامة.

قال ابن مسعود: كان يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة. خفف عن أمته وسهل، وتوقف فيما يشق عليهم وتمهل، وبالغ في إسداء الإحسان إليهم، وكره أشياء مخافة أن تفرض عليهم، وأطلع لهم شفقاً من الشفقة لا يغيب، وخصهم من مناهل خيره وموارد ميره بأوفر نصيب.

يـا أمـة المختـار بشـراكـمُ ... بـالفـوز مـن قـرب الحبيـب النسيبْ
المحسـن الهـادي البشيـر الـذي ... خفـف عنكـم كـل أمـر عصيـب
وكثـر الخيـر عليكـم ومـن ... بحـر القـرى جـاءكـم بـالعجيـب
صلـى عليـه اللـه مـا غـرّدت ... حمـامـة مـن فـوق غصـن رطيـب

الفصل الثامن: في وفائه وتواضعه وعدله ووقاره ﷺ

كان النبي ﷺ أجمل الناس وداً، وأحسنهم وفاء وعهداً، وأعدلهم حكماً وأسعدهم نجماً، وأعلاهم منالاً ومناراً، وأوفاهم سكينة ووقاراً، وأوفرهم للحقوق ذكراً، وأكثرهم تواضعاً وأقلهم كبراً، وأظهرهم بشراً.

يركب الحمار ويردف خلفه، ويبدي للفقير والمسكين لطفه. ويأكل مع الخادم، ويبادر إلى خدمة القادم، ويرقع ثوبه ويخصف نعله، ويقم بيته ويخدم أهله، ويحلب الشاة ويعقل البعير، ويجيب إذا دعي حتى إلى خبز الشعير، ويتوكأ على العصا، ويضطجع على الرمل والحصا، ويحمل بضاعته من السوق، ويقوم بما يتعين عليه من الحقوق، ويرى أن حسن العهد من الإيمان.

ويعامل من أكرم أصحابه بأتم الإحسان، وينظر في حال المديون والمفلس، ويجلس حيث انتهى به المجلس، ويكره أن يقام له إذا أتى، وينصف المظلوم ممن تعدى عليه وعتا، ويسكن من ريح العز والكبرياء عجاجتها، وينطلق مع الأمة حيث شاءت حتى يقضي لها حاجتها. حج على رحل رث الهيئة والصورة، وأهدى مائة بدنة في تلك الحجة المبرورة، وأدار في سماء السعادة لنجوم أصحابه فلكاً.

واختار أن يكون نبياً عبداً لا نبياً ملكاً، على أنه سيد البشر بلا شك ولا ريب، وأكرم الخلق على عالم الشهادة والغيب.

كان الرسول المصطفى ... أوفى الأنام بعهده
وأجلهم قدراً وأكـ ... ـرمهم بخالص وده
وأسرهم بِشْرا وأنـ ... ـجزهم لصادق وعده
متلطفاً متعطفاً ... متواضعاً في مجده
يسعى لخدمة ضيفه ... ويرى السماح برفده
والحقَّ يتبع دائماً ... في حله أو عقده

وكان أكثر الناس أمانه، وأجزلهم عفة وصيانة، وأنضرهم بهجة، وأصدقهم لهجة، وأجملهم سراً وإعلاناً، وأغزرهم عدلاً وإحساناً، صادقاً في الكلام، صادعاً بالحق في الأحكام، أميناً في السماء والأرض، مكيناً عند من إليه النشور والعرض.

وعده مقرون بالإنجاز، ولفظه مشتمل على الإيجاز، لا يأخذ أحداً بقرف أحد، ولا يقبل على من مال إلى العناد وعند، يحكم عدلاً، وينطق فضلاً، ويشفع فرض الصلاة بنفلها، ويؤدي الأمانات إلى أهلها، تعرف الجاهلية فضله قبل الإسلام، وكانوا يتحاكمون إليه في النقض والإبرام، يشهد وليه وعدوه بعلمه وعدله، والفضل ما شهدت به الأعداء لأهله.

نعم يعرفون الفضل منه وكيف لا ... وقد عاينوا منه الأمانة والعدلا
ويكفيه أن الله أنزل فضله ... وفي محكم القرآن أوصافه تتلى

وكان ذا مروءة وافرة، وتؤدة عن وجه السداد سافرة، جزيل الصمت والوقار، جميل المآثر والإيثار. يرعى حق الصحبة القديمة، ويجود بجَوْد نعمه العميمة، ويتعطف على ذوي رحمه برحمته وصلاته، ويتلطف بالصغار من أولاده حتى في صلاته، ويأمر باستعمال خصال الفطرة، ويسكت على الحلم والحذر والتقدير والفكرة، ويسكن إلى قلة الكلام ويميل، ويعرض عمن تكلم بغير جميل، مجلسه مجلس هدى وعلم، ومحل خير وحياء وحلم، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تذكر فيه العورات، ولا تؤبن في حرمه الحُرم، ولا تخفر في أرجائه

الذمم، إن تكلم أطرق جلساؤه، وإن صمت زاد وقاره وبهاؤه، لا يكاد يخرج في مجلسه شيئاً من أطرافه، ولا يعدل عن طريق عدله وأدبه وانصافه.

يا حبذا أوصاف عدل منصف قد حارت الأفكار في أوصافه
ولاج أبواب المروءة والحيا فراج ضيق المعتفي كشافه
ذي مجالس لا يحتوي إلا على قوم يسر بملتقى أضيافه
العلم في أقطاره والحلم في أرجائه والسلم في أكنافه
صلى عليه إلٰه ومحبه مالاح برد الرّوض في أفوافه

الفصل التاسع: في زهده وقناعته وعبادته ﷺ

كان رسول الله ﷺ زاهداً في الدنيا، نازلاً من تركها بالمنزلة العليا، متنزهاً عنها، متقللاً منها، معرضاً عن زهرتها، غير ناظر إلى نضرتها، متحلياً بالطاعة، متلفعاً بمروط القناعة، مزيناً بالعفاف والكفاف أحواله وأموره، مقتصراً من نفقته وملبسه على ما تدعو إليه الضرورة، يلبس البرد الغليظ والكساء والشملة، ويقسم حلل الديباج على أصحابه حلة بعد حلة.

عيشه ظليف، ومأكله طفيف، وملبسه خشيف، وفراشه من أدَم حشوه ليف، يقل المنام، ولا يستكثر من الطعام، يبيت جائعاً طاوياً، ويصبح صائماً خاوياً، لا يسأل أهله طعاماً، ولا يظهر لهم غرثاً ولا أواماً. إن أطعموه أكل، وإن سقوه قنع بالنهل.

زهد عظيم واقتصار زائد في مأكل ومشرب وملبس
وعفة يتبعها صبر على صوم نهار وقيام حندس
وفرط أعراض عن الدنيا وما تلهى به من وشيها المدلس
يا سيد الرسل ويا أعلى الورى منزلة تفديك كل الأنفس

ما أكل قط على خِوان، ولا خبز له المرقق حيناً من الأحيان، ولا شبع من خبز شعير يومين متواليين، ولا من خبز بر ثلاثة أيام تباعاً حتى أدركه الحين، ولا رأى أبداً لحم شاة سميط، ولقد نام أحياناً على سرير مرمول بشريط، وما خلف ديناراً ولا درهماً ولا نفقة، ولم يترك إلا سلاحه وبغلته وأرضاً جعلها صدقة.

هذا وقد أوتي خزائن الأرض ومفاتيح الكنوز، وأبرز له من الإبريز كل محجوب ومحجوز، وأظلته غمائم الغنائم، وجاءته هدايا أهل التيجان والعمائم، وحملت إليه الجزي والصدقات، وانثالت عليه الأموال والنفقات، وسيقت إليه الدنيا بحذافيره، وترادفت عليه الفتوحات بجماهيرها، فقابل الإيراد من ذلك بالإصدار، وما استأثر منه بدرهم ولا دينار، بل

أنفقه بالخير، وأغنى به فاقة الغير، وفرقه في مصالح المسلمين، وكف به أكف المشركين، وبذله لطالب رفده وقاصد نواله، حتى إنه توفي ودرعه مرهونة في نفقة عياله.

نبـــيّ وافــت الــدنيــا إليــه ... وجــاءتــه مفــاتيــح الكنــوز
ومــالــت نحــوه فــأبــى عليهــا ... وقــابلهــا بــإفــراط النشــوز
تجنبهــا وأعــرض عــن جنــاهــا ... ولاذ بجــانــب الملــك العــزيــز
رعــاه اللــه مختــاراً هــدانــا ... إلــى المنهــاج بــاللفــظ الــوجيــز

وكان شديد الخوف والعبادة، وافر الطاعة والمحبة والإفادة. طاعته نظير حبه، وخوفه على قدر علمه بربه، عمله ديمة، وطريقته مستقيمة. يصلي طويلاً، ويقوم الليل إلا قليلاً، ينام على شقه الأيمن بغير مهاد، ليستظهر على قلة النوم والرقاد، يراقب من يحاسب على الدرة والذرة، ويستغفر الله تعالى في اليوم مائة مرة.

قام حتى انتفخت قدماه، وهجر الطعام في الهواجر طاعة لمولاه، المحبة أساسه، والصبر لباسه، والزهد حرفته، والصدق سجيته، واليقين قوته، والرضى مطيته، والمعرفة رأس ماله، والطاعة منتهى آماله، والشوق مركبه والفكر أنيسه، والثقة كنزه والحزن جليسه، والفقر فخره والعقل مصباحه، والجهاد خلقه والعلم سلاحه، وقرة عينه في الصلاة، وثمرة فؤاده ذكر من لا إله سواه.

الخــوف مــألفــه والصبــر مطــرفــه ... والعلــم مــرهفــه والشــوق مــركبــه
عبــادة الخــالــق الجبــار همتــه ... وطــاعــة الــواحــد القهــار مطلبــه
وديمــة العمــل المبــرور شــرعتــه ... ومــذهــب الحــق والإيمــان مــذهبــه
أزكــى التحيــات منــي لا تفــارقــه ... مــا طــاب مــن سلسل الأمطــار مشربــه

الفصل العاشر: في الإسراء به وعروجه إلى السموات ﷺ

سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً، وسحب له على سحب المعالي ذيلاً، ونقله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأتحفه من نعمه الظاهرة والباطنة بما لا يحصر ولا يحصى. أتي ﷺ بالبراق، فركبه ليخترق به السبع الطباق، وهودابة أبيض طويل، يضع حافره عند منتهى طرفه الكحيل.

فلما وصل بيت المقدس صلى في مسجده امتثالاً للأمر، وأصاب الفطرة باختياره اللبن دون الخمر، ثم عرج مع جبريل إلى السموات، ومنح في العالم العلوي بأعلى المقامات، ورأى آدم في السماء الدنيا، وفي السماء الثانية عيسى ويحيى، وفي السماء الثالثة يوسف

الصديق، وفي الرابعة إدريس الحقيق بأسرار التحقيق، ولقي هارون في السماء الخامسة، وأخاه موسى في السماء السادسة، وفي السابعة إبراهيم المشهود فضله المشهور، وإذا هو مسند ظهره إلى البيت المعمور؛ يا له بيتاً يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه إلا بمشيئة من أدار الفلك، واستأنس بالأبوين والإخوة وابني الخالة، وكل منهم أشار إلى صلاحه ورحب به ودعا له. وعند كل سماء يستفتح لجبريل فيفتح له الباب، ويسأل عن بعثة من معه فيرد على سائله الجواب.

ركب البراق محمد ليلاً ولم ... يركبه أفضل منه عند الخالق

ورقى ليحظى بالنعيم من اللقا ... والقرب مخترقاً لسبع طرائق

ورأى النبيين الكرام ورحبوا ... بقدومه ترحيب خل صادق

وسما إلى رتب هناك يحار في ... أوصافها فكر البليغ الحاذق

ثم ذهب به جبريل إلى سدرة المنتهى، ذات الأغصان الوريقة والثمر المشتهى، وهي شجرة تخرج أنهار الجنة من أصلها، ويسير الراكب سبعين عاماً في ظلها، وإليها ينتهي، ما من الأرض يعرج، وما يهبط من فوقها عندها يقف ومنها يخرج، فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت، فما أحد يستطيع نعت حسنها الذي لو أدركته الأبصار لتحيرت، فأوحى الله تعالى ما أوحى إليه، وفرض ما فرض من الصلاة عليه، ثم تصدق برحمته وخفف، وزاد الأجر مع التخفيف وضعف، بعد أن كلمه في ذلك موسى شكر الله علو همته، وأشار عليه بسؤال الله تعالى في التخفيف عن أمته، ورفعه حتى بلغ مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، وملأ في الملأ الأعلى أذنيه من ترجيع الكلام.

وأنزله في روضة القرب والرضى ... وأكرمه بالمنزل الأفضل الأسنى

دنا فتدلى وهو خير مقرب ... فكان اقتراباً قاب قوسين أو أدنى

وعظمه بإمامة أهل السماء، وقدمه للصلاة بالملائكة والأنبياء، وأحضره لمشاهدة حضرته، وكشف له حجب غيبه وقدرته، وأعانه على معاينة النور الأعظم، وأعلم المقربين إليه بأنه أفضل خلقه وأعظم، وأسمعه الآذان من لفظ ملك الحجاب، واستخرج لرؤيته من بحر قدرته ما يقضى له بالعجب العجاب، وأكرم له المثوى، وأدخله جنة المأوى، وأوضح له الطرائق، وأظهره على الحقائق، وأودعه الأسرار المكنونة، وأطلعه على الغرائب المخزونة، وأشهده عجائب سلطانه وملكوته، وأفرده بالنظر إلى عظمة كبريائه وجبروته، وشمله بعنايته الوافرة وألطافه الخفية، وأدناه دنواً تنقطع عنه الكيفية، ومهد له بساط التلطف والتأنيس، وأعلاه على المقربين من أهل التسبيح والتقديس، وأراه من آياته الكبرى، وذكره فيمن عنده إن في ذلك لذكرى.

نبــيٌّ قــد ســرى ليــلاً فسبحـــان الـــذي أســـرى
نبـــيّ قـــد أراه اللـــه مـــن آيـــاتـــه الكبـــرى
نبـــيّ خـــص بـــالعليـــا ورتبتـــه بهـــا أحـــرى
نبـــيّ جـــاء بـــالإيمـــان والإحســـان والبشـــرى
نبـــيّ شـــامـــخ المقـــدار فـــي الـــدنيـــا وفـــي الأخـــرى
ســلام اللـــه مـــوصـــول بـــه مـــا دامـــت الشعـــرى

الفصل الحادي عشر: في تعظيمه وتكريمه يوم القيامة ﷺ

النبي ﷺ أول الناس خروجاً، إذا نشروا، وقائدهم إذا حشروا، ومبشرهم إذا يئسوا، وشفيعهم إذا حبسوا، وخطيبهم إذا أنصتوا، ومنجدهم إذا ذهلوا في ذلك اليوم وبهتوا، لواء الحمد بيده المغيرة للغيث وأنوائه، وما من نبيّ آدم فمن سواه إلا تحت لوائه، وهو أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يدخل الجنة بمن معه يوم العرض، وأفضل السابقين، وأكرم عباد الله الصادقين، وخير أصحاب اليمين، وأجل من نزل عليه الروح الأمين.

وهو صاحب الحوض الشهير بالكوثر الذي ريحه أطيب من المسك الأذفر، وحافتاه قباب اللؤلؤ المتسق، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الورق، طوله ما بين أبلة إلى عمان، يشخب فيه من الجنة ميزابان، أحدهما من اللجين، والآخر من خالص العين، كيزانه كنجوم السماء بهجة وعدداً، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً.

حـــوض بعيـــد المـــدى أرواح مـــورده تفـــوح بـــالطيـــب يـــا طـــوبـــى لمـــن ورده
يـــأتيـــه مـــاء مـــن الفـــردوس مطـــرد أحلى من الشهد يحيى نفس من شهده
كيـــزانـــه كـــالنجـــوم الـــزُّهـــر طـــالعـــة أوصـــافـــه بمـــزايـــا الحســـن منفـــرده
مـــن أمـــه داخـــلاً فـــي ظـــل صـــاحبـــه قـــد هيـــأ اللـــه فـــي الأخـــرى لـــه رشـــده

وهو أول شافع وأول من يقول فينصت لقوله ويسمع. وهو أعظم الأنبياء أجراً، وأرفعهم ذكراً، وأبهرهم آية، وأبعدهم غاية، وأبدعهم تبياناً، وأقطعهم برهاناً، وأجلهم مقداراً، وأعزّهم أنصاراً، وأجزلهم حمداً وشكراً، وأوفاهم توكلاً وصبراً، وأعلمهم بالله وصفاته وأسمائه، وأكملهم قلباً بعظمته وجلاله وكبريائه، وأعرفهم بشريعته وأحكامه، وأفهمهم لمعاني وحيه وكلامه، وأغزرهم إحاطة بالمدارك العقلية، وأقربهم مجلساً من الحضرة القدسية الإلٰهية، وأظهرهم سيمة وعلامة، وأكثرهم تبعاً يوم القيامة، يوم يؤتى الوسيلة المَحفوفة بأصناف المنة، قال أبو هريرة هي أعلى درجة في الجنة، يوم يعطى ألف قصر من

اللؤلؤ ترابها من المسك السحيق، وفيها من الأزواج والخدم ما يصلح لمثله ويليق.

يـــوم يقـــوم النـــاس أفـــواجـــاً إلـــى بـــاريهـــم ذي العـــز والتنـــزيـــه
يـــوم المـــآب والحســـاب واللقـــا يـــوم يفـــر المـــرء مـــن أخيـــه

يوم يصير الناس فيه حيارى، ويرون سكارى وما هم بسكارى. يوم يلجأون إليه في أمر الشفاعة، حيث يرون تأخر غيره عنها وانقطاعه. يوم يقوم عن يمين عرش الرحمن، ويكسى حلة خضراء مُعْلَمة ببلوغ المنى والأمان، ويؤذن له فيقول ماشاء الله أن يقول، ويفتح عليه من الحمد والثناء ما وردت به النقول. ياله موقفاً تقصر عن الوصول إليه المقربون، ومقاماً محموداً يغبطه فيه الأولون والآخرون.

يشفع لأكثر مما في الأرض من شجر، ولأزيد مما حملت على ظهرها من حجر، ويشفع في تعجيل من لاحساب عليه إلى دار القرار، وفيمن وجب عليه العذاب وأدخل إلى النار، وفيمن تلفظ بالشهادة المعظمة.

وهذه المنزلة الجليلة لا تحصل لغير ذاته المكرمة، وكم حوى فضيلة ليس فيها من الخلق مشارك، على أنه ﷺ لم يفتخر بشيء من ذلك. شكر الله جميل سعيه وجليل همته وجزاه الله أفضل ما جزى نبياً عن أمته.

رســـول لـــه يـــوم القيـــامـــة منـــزل علـيٌّ الـذرى أعـلامـه الـزهـر تلمـع
ومـــوقـــف قـــرب لا يـــدانيـــه غيـــره يقـــول الـــذي فيـــه يقـــول فيسمـــع
ويســـأل والبـــاري يجيـــب ســـؤالـــه ويشفـــع فيمـــن جـــاءه فيشفـــع
نبـــي أبـــيٌّ كـــان ينهـــى عـــن الأذى ويـأمـر بـالحسنـى وبـالحـق يصـدع
عليـــه ســـلام اللـــه مـــالاح بـــارق ومـا أنهـل مـن جفـن السحـابة مـدمـع

الفصل الثاني عشر: في أسمائه وكناه وألقابه ﷺ

أسماء رسول الله ﷺ وألقابه كثيرة، وأوصافه حوت درر المحاسن ولم تغادر منها صغيرة ولا كبيرة، فمن أسمائه محمد وأحمد، وهما اسمان مخصوصان بالطالع الأسعد، منع الله تعالى أن يسمى بهما قبل زمانه أحد من الناس، لئلا يدخل على القلوب الضعيفة شك والتباس وهو أحمد الحامدين والمحمودين وأكثر الناس حمداً، وهو حامل لواء الحمد يوم يحشر المتقين إلى الرحمن وفداً، ومنها الماحي والحاشر، والمقدس والطاهر، فالماحي الذي يمحي الكفر بكلمه، والحاشر الذي يحشر الناس على قدمه، والنجم الثاقب والمصلح والعاقب، وهو الذي لا نبي بعده ولا يعقب جزر ذي رسالة مدّه، والشاهد والمبشر والنذير،

والداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، والمقفي والقثم والقثوم. وهذا الاسم الأخير في آل بيته معلوم.

يا سيداً أسماؤه قد سمت ... وفي معانيه تحار الحلوم
ومن حوت أزهار ألقابه ... نشر شذى تطوي عليه الرقوم
أنت الذي أنوار أعلامه ... تهدي إلى الكمة أهل العلوم
ومن له فضل أياديه لا ... تحصى وهل تحصى دراري النجوم

ومن أسمائه المدثر والمزمل، والمختار والمتوكل، والرؤف الرحيم، والصراط المستقيم، والحق المبين، والصادق الأمين، فالحق هو المحقق صدقه وأمره، والمبين الذي تبين ما بعثه به من جل ذكره. وطه ويس، ورحمة للعالمين، وسيد المرسلين، وخاتم النبيين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، ونعمة الله على الخلائق، وعبدالله المعبَّد للطرائق، ونبي الراحة والرحمة، ورسول التوبة والملحمة، وهي إشارة إلى ما بعث به من القتال، وما أمر به من ردع المشركين بحد النصال، وخليل الرحمن، وحبيب الملك الديان، ومقيم السنة وروح الحق، والشفيع المشفع في الخلق، وصاحب الوسيلة، والدرجة الرفيعة والفضيلة، والحوض المورود، والمقام المحمود، والبراق والمعراج، والهراوة والتاج. وما المراد به تاج ملك مُوّه بالذهب، بل العمامة لأن العمائم تيجان العرب.

بك يارسول الله يا علم الهدى ... تتشرف الألقاب والأسماء
ويمن طالعك السعيد قدومه ... ذهب الظلام وآبت الأضواء
وبنصر نصلك سر كل موحد ... وبعز عزمك ذلت الأعداء
سقياً لأمتك التي طابت لهم ... بنبيهم بين الورى الأشياء

وهو عليه السلام ذو الحجة والسلطان، والعلامة والبرهان، ورب اللواء والقضيب، وراكب الناقة والنجيب، وسيد ولد آدم، والمهيمن والفاتح والخاتم، والمصطفى والمجتبى والكريم، وأبو القاسم وأبو إبراهيم، والنبيّ الأمي والهادي والنور، والعروة الوثقى التي من تمسك بها نال الغبطة والسرور، والبار قليط وهو الذي يفرق بين الحق والباطل، وحمطايا حامي الحرم بالمرهفات والذوابل. ولعمري إنها أسماء على مسمى جليل، وألقاب علت بذي فضل أثير وقدر أثيل، فمنها ما ورد في حديثه الصحيح، ومنها ما ذكر في القرآن الكريم باللفظ والتصريح، ومنها ماجاء في التوراة والإنجيل، ومنها ما عرف من الكتب البعيد عهدها من التنزيل. ومنها ما سماه الله به من أسمائه الحسنى؛ وفي ذلك ما فيه من التعظيم الأسمى والتشريف الأسنى.

أسمـــاؤه وسمـــاتـــه معلـــومـــة عنـــد الـــرواة وعـــرفـــه معـــروف
وخـــلالـــه مـــأثـــورة وخصـــالـــه مسطـــورة وجـــلالـــه مـــوصـــوف
أكـــرم بـــه سمحـــا عطـــاف نـــوالـــه أبـــداً علـــى قصـــاده معطـــوف
بـــراً أمينـــاً صـــادقـــاً صـــدقـــاتـــه المـــن عنهـــا والأذى مصـــروف
منـــي عليـــه تحيـــة مسكيـــة بفنـــاء طيبـــة طيبهـــا معكـــوف

الفصل الثالث عشر: في معجزته القرآن الكريم ﷺ

اعلم أن النبي ﷺ له معجزات أدلتها قاطعة، وكرامات لأنواع الغرائب جامعة، وكلمات صادعة صادقة، وآيات للعادات خارقة، رآها في محافل المسلمين الجم الغفير، ورواها الثقات عن العدد الكثير. لا تزداد مع تقادم العهد إلا ظهوراً، ولا يزيد سراجها مع اجتهاد الملحد على إطفائه إلا نوراً. فمن معجزاته ماجاء به من القرآن المجيد، المنزل عليه بالحق من حكيم حميد، الذي عقل بحسن تأليفه العقول، وأناف بالنيام كلمه على كل مقول، وأخرس بإيجازه فصحاء العرب، ورمى بلغاءهم من إعجازه بحراب الحرب، وخرق عادتهم بأسنة بلاغته، وأوقعهم في الحفر بسعة فصاحته، على أنهم كانوا فرسان الكلام، وزعماء النثار والنظام، لا يشكون أن البيان طوع مرادهم، وأن الحكمة جارية في ملك سعدهم وسعادهم.

كـــانـــوا ذوي فصـــاحـــة ومقـــول مستملـــح الأوصـــاف والنعـــوت
لكـــن أتـــاهـــم بـــالصـــواب نـــاطـــق ألقـــاهـــم فـــي علـــة السكـــوت

يا له كتاباً أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت مطالعه، وزهرت مقاطعه، وقهرت جوامعه، وظهرت بدائعه، وأنارت زجاجة براعته، وأضاءت ديباجه عبارته، ورست قواعد إيجازه وإعجازه، ورقت وطائد حقيقته ومهازه، واعتدل حسن نظمه، وزها فريد حكمه وحكمه، واتسقت عقود فرائده، وأطردت أنهار فوائده، وحسن ترصيعه وترصيفه، وخص بالبيان والبديع تأليفه، وجمع بين فصاحة الألفاظ وقوة الجزالة، وأقام من بلاغته على وجود العجز عنه أوضح الدلالة، وأدهش النواظر بطلاوته، وحرك الألسن بوصف حلاوته، وحير الأفكار فنه العجيب، وسلب الألباب أسلوبه الغريب.

وأنـــار مشكـــاة الـــوجـــود وقـــد غشـــى ديجـــورهـــا بـــالضـــوء مـــن آيـــاتـــه
وأراح أرواح السعـــاة لـــروضـــه بلـــذيـــذ عـــرف الـــزهـــر مـــن زهـــراتـــه
وأمـــد طـــالبـــه وقـــاصـــد بحـــره بـــاللـــؤلـــؤ المكنـــون مـــن كلمـــاتـــه
وأثـــاب حـــاملـــه وســـامعـــه ومـــن يتلـــوه مـــا يجنيـــه مـــن جنـــاتـــه

واشتمل على العلوم والمعارف، وذكر الشرائع القديمة وأخبار القرون السوالف، وأنباء الأمم الخالية، وسرد القصص الماضية، وشرح أحوال الدار الآخرة، ونشر ما انطوت عليه الكتب الغابرة، من بدء الخلق وإعادتهم، وأسباب شقاوتهم وسعادتهم، والتنبيه على طرق الحجج العقلية، والرد على الفرق بالبراهين البينة والأدلة القطعية، وكشف أسرار المنافقين وأهل الكتاب، ووبخهم على الكذب والعدول عن الصواب... إلى غير ذلك من النواهي والأوامر، والموانع والزواجر، والسير والأمثال، والتحريض على القتال، والمواعظ والحكم، ومحاسن الآداب والشيم، والوعد والوعيد، والتنزيه والتوحيد، والتقرير والترتيب، والترغيب والترهيب، والروعة التي تعتري القلوب عند سماع قراءته، والهيبة التي تطرق الأسماع لدى تلاوته.

كتاب يخص المؤمنين بوعده ويحيي قلوب العارفين بوعظه
ويهدي سناهدي لتالي حروفه ورامقها بين الرقوم بلحظه
لقد حارت الأفكار من حسن نظمه وسر معانيه وجوهر لفظه
فسقياً لمن يقفو مناهج حقه ورعياً لعبد عد من أهل حفظه

وكم حوى مجموعه وحاز، نوعاً من أنواع الإعجاز، قصرت العرب عنها، وعجزت عن الإتيان بواحد منها، إذ كانت خارجة عن قدرتهم، مباينة لكلامهم وفصاحة ألسنتهم، وما منهم إلا من بذل جهده، واستنفذ جميع ما عنده، وقصد إطفاء نوْره، واجتهد في إخفاء ظهوره، فما جلوا خبيئة من بنات شفاههم، ولا بزوا بقطرة من معين مياههم، مع طول المدة وكثرة العدد، وتظافر الوالد وما ولد، بل أبلسوا فما نبسوا، وجلسوا صاغرين لما أيسوا، ثم إنه لا يعد من سعى من المعطلة في تعطيله، ولا يحصر من ثار من الملحدة على تغيير محكمة وتبديله، وأجمعوا كيدهم وقولهم، واستفرغوا قوتهم وحولهم، فما قدروا على تحويل كلمة من تأليفه، ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه، لأن الله تكفل بحفظه، ومنع من التعرض إلى شيء من لفظه.

وبالجملة فلم يوجد قبله ولا بعده له نظير، ولا استطاع أحد مماثلة فصل منه طويل ولا قصير، بل حارث فيه العقول وتاهت الأحلام، وجفت الصحف عن معارضته ورفعت الأقلام، وهو من باب الخوارق الممتنعة عن البدو والحضر، ولا يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر ولا غير البشر، يعرف ذلك من تفنن في علوم هذا الشأن، وأرهف خاطره الخطار أدب صناعة اللسان.

تباً لآراء ذي عناد لا يهتدي خاسر التجاره

يـريـد إطفـاء نـور ذكـر ... ألـلـه رب العـلا أنـاره
قـد خـاب مـن رام أن يغشـى ... حـلاوة الحـق بـالمـراره
يـا ويلـه مـن لهيـب نـار ... وقـودهـا النـاس والحجـاره

وهو الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، والفوز المبين وحبل الله المتين، والربيع للقلوب، والماحي للذنوب، والنافع الشافي، والكافل الكافي، والنجاة لمن تبعه، والهدى لمن قرأه أو سمعه، ينفر عنه الذين أذهب الشرك لبهم، وتقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم.

يؤتي تاليه طلاقة وبشاشة، ويكسب قارئه ارتياحاً وهشاشة، لا يمله القارئ لا المستمع، ولا تحصي الألسنة ثناء على فضله المجتمع. حجته قاهرة ودرجته عليا، وآيته البينة باقية ما بقت الدنيا، لا يزال غضاً طرياً، ولا يبرح عذباً شهياً. تكريره يزيده حلاوة ظاهرة، وترديده يوجب له المحبة الوافرة، يستأنس به في الخلوات، ويستلذ بترتيله في الصلوات، لا تفنى عجائبه، ولا تطوى غرائبه، ولا تنقضي عبره، ولا تضمحل درره، ولا يبلى على كثرة التردا:د جديد وصفه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

من قال به صدق، ومن رمى به خرق، ومن حكم به عدل، ومن قسم به برئ من العذل، ومن عمل به حصل على الأجر العظيم، ومن تمسك به هدي إلى صراط مستقيم.

تمسـك بحبـل اللـه أعنـي كتـابـه ... وقـف عنـده فهـو المجيـد المعظـم
يبشـر أهـل الصـالحـات بنعمـة ... وفضـل ويهـدي للتـي هـي أقـوم
وينـذر أقـوامـاً عـن الحـق أعـرضـوا ... وبـالعـدل والإنصـاف يقضـي ويحكـم
بـه نـزل الـروح الأميـن منجمـاً ... علـى خيـر مبعـوث يـرق ويـرحـم
محمـد الهـادي الـذي بجنـابـه ... يلـوذ فصيـح فـي المعـاد وأعجـم
عليـه صـلاة مـن سـلام مهيمـن ... مـدى الـدهـر لا تفنـى ولا تتصـرم

الفصل الرابع عشر: في انشقاق القمر وحبس الشمس وتكثير الماء له ﷺ

ومن معجزات رسول الله ﷺ أن أهل مكة سألوه أن يريهم آية. وذلك لقلة اليقين منهم وكثرة الغواية، فأراهم انشقاق القمر فرقتين، حتى رأوا حراء بينهما علماً بين شعلتين، وقال: اشهدوا، وهم حينئذ بمنى، فانصب على أعدائه الأذى كما حصل أصحابه على المُنى، فجعلها أبو جهل من حمقه سحراً.

وقال: ابعثوا إلى أهل الآفاق طراً، فأخبر أهل الآفاق أن معجزته كانت حقاً، وأنهم عاينوا القمر تلك الليلة منشقاً.

ومنها: أن الشمس ردت لعلي بدعائه، وكلاهما زهرة من أرضه وقطرة من سمائه، طلعت بعدما غربت، وشبت نار ذهبها بعد أن ذهبت، ووقفت على الأرض وقفة ممتثل لما يؤمر، وكان ذاك بالصهباء في خيبر، وحبست بدعائه الشمس ساعة وقريش ينظرون، وزيد له في النهار بعد أن اكتحلت بالقار منه الجفون، وجرت هذه الكرامة التي ليس لها نظير، في واقعة الرفقة والعلامة التي في العير، وكان الغمام يظلله حيث سار، وفيء الشمس يدور معه كيفما دار.

سبحان من أيد خير الورى	بمعجزات خارقات غزار
وأمسك الشمس له ساعة	وردها طوعاً وزاد النهار
وشق بين الناس بدر الدجى	شقاً أولو الألباب فيه تحار
هذا عطاء ممن اختاره	من هاشم من مضر من نِزار

ومنها أن الناس التمسوا الماء فلم يصلوا إليه، فطلب فضل ماء وصبه في إناء وضع بين يديه، ثم أنه عليه ﷺ فيه كفه الميمون، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فتوضأ الناس عن آخرهم وكانوا ألفاً وخمس مئين ولو كانوا مائة ألف لكفاهم ببركة يمين من لا يمين، وأقبل الناس في غزوة تبوك إلى العين، وهي تبض بشيء من الماء دون عشر القلتين، فغسل منه وجهه ويديه، ثم أمر بإعادة الغسالة إليه، فجرت بماء كثير ارتوى منه الجيش، وزال ببركته الظمأ وطاب العيش، وورد الناس ببئر الحديبية، وهو إذ ذاك أربع عشر مائة، فلم يتركوا منها قطرة، وأذهبوا قُلَّ مائها وكُثره، فقعد على جباها، ودعا لها واستدعاها، فجاشت كبحر طما أو غيث هتن، فروي الناس حتى ضربوا بعطن.

من كف مختار الكفاف محمد	خير الورى نبع الزلال الطاهر
رؤى من الماء القليل جيوشه	حيث الأوام له دليل ظاهر
ومن العيون الناضبات أسال ما	هو للعيون من العساكر باهر
لا غرو أن يجري لديه معينه	ومعينه الملك العزيز القاهر

وشكا إليه الناس العطش في بعض الأسفار، فدعا بالميضأة وجعلها من جنبه في محل الإزار، ثم التقم فمها فحلت عليها البركة والسعادة، فشرب الناس وملأوا آنيتهم وكانوا سبعين رجلاً وزيادة.

وأما الحديث المروي عن عمران بن حصين، في قضية المرأة والبعير والمزادتين، وما شرب الناس من مائهما عند الظمأ في السفر فهو حديث يعرفه الثقات من أهل العلم والأثر، ولقد أصاب الناس شدة من العطش في جيش العسرة، حتى أن الرجل لينحر بعيره فيشرب

عصير فرثه من فرط الحرة، فرغب أبو بكر في الدعاء إليه، فرفع: أده الله شرفاً لديه يديه، فلم يرجعا حتى أتت السماء من ديمها بما لا يحصر فملأوا ما معهم من الآنية ولم تجاوز العسكر، وعطش أبو طالب وهو رديفه بذي المجاز، وليس هناك ما يملك ولا يجاز، فنزل وضرب الأرض بقدميه، فخرج الماء يفور ببركته ﷺ.

قف سائلاً أرض المجاز وما جرى منها وسال بجانب المنهاج
وسل الحديبية النزوحة بثرها وتبوك عند تلاطم الأمواج
وبقاع جيش العسرة اللاتي همت بركات ماء سمائها الثجاج
تخبرك عن آيات أشرف مرسل ركب البراق وسار للمعراج
صلى عليه الله ما ذهب الدجا وأتى الضحى بسراجه الوهاج

الفصل الخامس عشر: في تكثير الطعام ببركته ﷺ

ومن معجزات النبي ﷺ أنه أطعم سبعين رجلاً من أقراص شعير، كان أنس قد جاء منها تحت إبطه باليسير وهو يسير، بعد أن تقبلها بالقبول، وقال ماشاء الله أن يقول. وأطعم يوم الخندق باتفاق الحذاق، ألف رجل من صاع شعير وعناق، بعد أن بصق وبارك في العجين والبرمة، والقصة معروفة من حديث جابر تغمده الله بالرحمة. وصنع أبو أيوب له عليه ﷺ ولأبي بكر معه زهاء ما يكفيهما من الطعام، قال: فأجبت أمره ودعوت الأنصار ممتثلاً، فأكل من طعامي يومئذ مائة وثمانون رجلاً، وأتى بقصعة فيها لحم فتعاقبها الصادرون والواردون، ولم يبرحوا من الغداة إلى العشي يقوم قوم ويقعد آخرون، وصنعت شاة فشوى سواد بطنها لديه، وكان معه ثلاثون ومائة من أصحابه ﷺ. قال عبد الرحمن بن أبي بكر في حديثه المشهور: وأيم الله ما منهم إلا وقد حزة من السواد المذكور.

يا مطعم المسكين والأسير وجابر اليتيم والكسير
ويا جواداً زاد زاد صحبه ومن قليل جاء بالكثير
من ذا الذي ينكر ما تأتي به يا رحمة المهيمن القدير
كم آية جئت بها بينة ليس لها في الخلق من نظير

وأصابت الناس مخمصة في بعض مغازيه، فجمع من الأزواد ما ربضة العنز توازيه، ثم دعا الناس بأوعيتهم الخلية، فلم يبق في الجيش وعاء إلا ملئ وبقيت بقية، وأمر أبا هريرة أن يدعو له أهل الصفة، فتتبعهم حتى جمعهم ووضعت بين أيديهم صحفة، يا لها صحفة تخجل مَنْ جفانه الغر، في الضحى لمعت، أكلوا ما شاؤوا وفرغوا وهي مثلها حين وضعت، وسقى

جميعهم من قدح لبن، فرووا منه حتى كادوا أن يضربوا بعطن، وجمع بني عبد المطلب وكانوا أربعين، فصنع لهم مدا من الطعام فأكلوا وشبعوا أجمعين، ودعا بعس فشربوا حتى بلغوا من ريهم المطلب، وبقي الطعام والشراب كأنه لم يؤكل ولم يشرب، وأمر مرة عمر بن الخطاب أن يزود أربع مائة من الركاب، وعين له تمراً قدر الفصيل الرابض، فأعطى منه، كلاً منهم ما شاء، وهو به راض وعليه قابض.

افـــاد صحـــابـــه خيـــراً وميـــراً	وقـــد جـــاؤوا بـــأوعيـــة خليـــه
وأطعمهـــم كثيـــراً مـــن قليـــل	وأرشـــدهـــم إلـــى الطـــرق الجليـــة
وأتحـــف مـــن دنـــا منـــه ووافـــى	إليـــه مـــن الهـــدايـــة بـــالهـــديـــة
وكـــم للمصطفـــى مـــن مكـــرمـــات	تفيـــد ومـــن كـــرامـــات عليـــه

وحديث مزود أبي هريرة معروف، وما حصل فيه من بركة يده الكريمة موصوف، وأطعم منه الجيش وجماعة من صحبه، وحمل من تمره كذا وكذا وسقا في سبيل ربه، وآثر الناس منه مدة من الزمان، واستمر على ذلك إلى أن ذهب منه في قتل عثمان، وخبر جابر مع غرماء أبيه مذكور، وتكثير التمر عند وفاء دير نهم بدعائه مسطور، وقصة قدر فاطمة سيدة نساء العالمين، وفيضه بعد أكل الجمع الكثير منه لا تخفى على أئمة المحدثين، وكذا حديث وليمتها بالإمداد والجزور، وما فضل من ذلك بعد أكل الناس كافة مأثور، ولما ابتنى بزينب أمر بأن يدعى له الناس، ويقدم إليهم مداً من تمر بعد أن يجلس، فجعلوا يأكلون ويخرجون زمراً زمراً، قال أنس: وكان القوم أكثر من سبعين نفراً، بل كانوا زهاء ثلثمائة في رواية أخرى، وهذا أسهل لديه ﷺ ولو كانوا عدد جيش كسرى.

أنـــس ونجـــل عتيـــق العـــدل الـــرضـــا	وأبـــو هـــريـــرة وابـــن خطـــاب عمـــر
وكـــذا أبـــو أيـــوب يتبـــع جـــابـــراً	كـــل روى مـــا قـــد رواه مـــن الخبـــر
ذكـــروا الطعـــام ومـــا تـــزايـــد فيـــه مـــن	بـــركـــات مـــن بـــدعـــائـــه نـــزل المطـــر
هـــو أحمـــد رب القـــراءة والقِـــرى	صلـــى عليـــه اللـــه مـــا طلـــع القمـــر

الفصل السادس عشر: في كلام الشجر والحجر وطاعتهما له ﷺ

ومن معجزات رسول الله ﷺ أن المسجد كان على جذوع نخل مسقوفاً، وكان إذا خطب يلازم في قيامه جذعاً منها معروفاً، فلما صنع منبره العلي الدرج الرفيع المنار، سمع الناس لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار، حتى ارتج المسجد بخواره، وكثر البكاء لتصدعه وانكساره، فوضع يده الكريمة عليه فسكت، والتزمه لما علم حنينه إليه فصمت، ولو لم يلتزمه

أعلى الله مقامه، لبقي كذلك إلى يوم القيامة. وفي رواية: أنه دعاه فجاء يخرق الأرض طائعاً، فالتزمه ثم أمره فعاد إلى مكانه راجعاً. وفي أخرى قال له: إن شئت أردك إلى ما كنت فيه مع الشجر، تنبت عروقك ويكمل خلقك ويجدد لك خوص وثمر، وإن شئت أغرسك في الجنة، فقال: بل تغرسني فيها ولك المنة، رغب لسعادته في دار البقاء، واختارها لخيره على دار الفناء، وفي رواية فأمر به فدفن تحت منبره ليصلي إليه، فلما هدم المسجد أخذه أبي فكان عنده رحمة الله عليه.

الجذع حن إلى الرسول المصطفى ... بالله أقسم أنه معذور
قد كان حال القرب من أنواره ... في نعمة إقبالها مأثور
فغدا لفرقة بدره متصدعاً ... يبدي الأنين وقلبه مكسور
من ذا الذي يقوى على هجران من ... بين البرية فضله مشهور

وخرج إلى نواحي مكة في بعض الأيام، فما استقبله شجر ولا حجر إلا شافهه بالسلام، ولما أتى جبريل بالرسالة المعظمة إليه، جعل لا يمر بحجر ولا شجر إلا سلم عليه، وآمنت الأبواب والجدران على دعائه، وكان كل من الحجر والشجر يسجد له إذا أمر بإزائه، وعرض الإسلام على بعض الأعراب، فقال: من يشهد لك على ما تقول بالصواب؟ فأشار إلى سمرة بشاطئ الوادي، فأقبلت تخدّ الأرض بحضرة الحاضر والبادي، حتى قامت بين يديه فشهدت، ثم صدمت إلى مكانها بعدما وردت، وسأله أعرابي آية، تكون سبباً للهداية، فأمر بدعوة بعض الشجر فأقبلت الشجرة إليه، ممتثلة لما أمر فسلمت عليه، ووقفت بين يديه، ثم رجعت بإشارته إلى منبتها، وكم له من آية منقولة عن مثبتها. وذهب يقضي حاجته في بعض الأحيان، فلم ير شيئاً يستتر به عن العيان، فلحقت بصاحبتها إحدى شجرتين، وعادتا على شخصه الكريم ملتئمتين، ثم افترقتا بعد الاتفاق، وقامت كل واحدة منهما على ساق.

إذا جاء الجماد إليه طوعاً ... وخاطبه فلا تعجب لذاكا
أتى يبغي التداني من نبي ... علا مقداره فسما السماكا
رسول الله أفلح من ترامى ... عليك وفاز من وافى حماكا
وفي ناديك من حُلت حباه ... تلفع بالملابس من حباكا

وذهب لحاجته في بعض مغازيه، وأسامة بن زيد صحبته يناجيه، فأمره أن يدعو له نخلات وحجارة، ليكن له بمنزلة الوقاية والسارة، فتقاربت النخلات حتى عدن لزاماً، وتعاقدت الحجارة حتى صرن خلفهن ركاماً، فلما قضى حاجته من منافعهن، رجعن بإشارته إلى مواضعهن. وجاءت للسلام عليه طلحة أو سمرة من قبل نفسها، فأطافت مُلمة به ثم

رجعت إلى منبت غرسها. ومن حديث ابن مسعود أن الجن قالوا: من يشهد لك بما عنه تدافع؟ قال هذه الشجرة فجاءت تجر عروقها ولها قعاقع، وسار في غزوة الطائف ليلاً، وقد أسبل الوسن من جفنيه ذيلاً، فاعترضته سدرة فانفجرت له نصفين، واستمرت باقية قائمة على ساقين، ودعا ببعض الأودية غصناً من شجرة، فجاء يخط الأرض مطيعاً لما أمره، فحبسه بمشيئة من أعطى ومنع، ثم قال له: ارجع كما جئت، فرجع وقصد هداية أعرابي إلى السبيل، فدعا بحضرته عذقاً من النخيل، فجعل ينقز حتى أتاه، ثم رجع بأمره إلى مكانه ومثواه.

نبيّ لـه الأشجـار جـاءت مطيعـة ... نبـيٌّ عليـه سلـم الحجـر الصلـد
نبـيٌّ هُـدى حتـى الجمـاد يجيبـه ... نبـيٌّ كـريـم مـا لـدعـوتـه رد
لـه الفضـل والأفضـال والبـر والتقـى ... له العدل والإحسان والجود والمجد
عليـه سـلام الله مـا ذر شـارق ... ومـا مـال فـي كثبـانـه البـان والـرنـد

الفصل السابع عشر: في كلام الحيوان والجماد وطاعتهما له ﷺ

ومن معجزات النبي ﷺ أن الضب كلمه في محفل من أصحابه، وقال له لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة حال خطابه، ونطق بربوبية إله الأولين والآخرين، وشهد أنه رسول رب العالمين وخاتم النبيين، وأخبر الذئب راعي الغنم بنبوته وعظمته، وقتاله المشركين حينئذ وعلو كلمته، فحكمه الراعي في غنمه، ومضى ليحقق صدق كلمه، فوجده في القتال كما قال، فأسلم وعاد واجداً غنمه على أكمل حال. وسبح المأكل بين يديه بلغة فصيحة، قال ابن مسعود: كنا نأكل معه الطعام ونحن نسمع تسبيحه، وأخذ كفاً من حصى فسبحن في يده.

وهو حديث رواه الثقات عن أنس بسنده. ومرض فجاءه جبريل بطبق فيه عنب ورمان، فلما أكل منه ﷺ سبح للملك الديان.

يـا مـرسـلاً خـاطبـه ضـب الفـلا ... وأخبـر الـذئـب بـه راعـي الغنـم
وسبحـت فـي كفـه صـم الحصـى ... وأظهـر الأنـوار مـن بعـد الظلـم
لـولاك مـا غـاب العـدى لـولاك مـا ... آب الهـدى كـلا ولا أم الأمـم
أقسـم يـا رب المقـام المجتلـى ... إنـك خيـر النـاس عـرب وعجـم

وكان حول البيت ثلثمائة وستون صنماً، أرجلها مثبتة بالرصاص في الحجارة إثباتاً محكماً، فلما دخل عام الفتح إلى المسجد الحرام، جعل يشير بقضيب في يده إلى تلك الأصنام، فوقعت لوجوهها وظهور ما حسب إشارته. وكم له من آية بينة تدل على كثرة فضله وغزارته، وكلام ضمار صنم عباس بن مرداس، وإنشاده للشعر الذي ذكره لاشك فيه ولا

التباس، وكذا كلام الطائر الذي عند ضمار سقط، وشهادته برسالته غير خاف عمن روى وضبط. وسجدت له الغنم في حائط بعض الأنصار، والبعير برك بين يديه ومن الذبح به استجار.

أشار إلى الأصنام في فتح مكة فخرت وعاد البيت منها مطهرا
وأخبر عن إرساله الطائر الذي أفاد ضماراً ما أسر وأضمرا
كرامات معروف المكارم عارف يفوق الورى فضلاً وخبراً ومخبرا

وحديث ناقته العضباء وكلامها له مشهور، ومبادرة العشب إليها وتجنب الوحوش عنها في الكتاب مسطور، على أنها بعد وفاته ما اقتاتت، ولم تأكل ولم تشرب حتى ماتت.

وأظلته حمام مكة يوم فتحها، وازدلفت إليه البدن في بعض الأعياد لذبحها، ونبتت بأمر الله تجاهه شجرة ليلة الغار، ونسجت العنكبوت ووقفت الحمامتان ستراً له من الكفار، واستجارت به الظبية الموثقة في الحبالة، وخصته بياء النداء في البيداء شاهدة له بالرسالة، وسألته إطلاقها لترضع خشفيها ثم تعود، فعاهدها وأطلقها فغابت ثم أتت وافية بالعهود، فلما عادت أوثقها نظراً في حال الصياد، ثم أعتقها بإذنه لما استيقظ من الرقاد.

حام الحمام عليه إجلالا له وبه استجارت ظبية القناص
شهدت بمبعثه وأبدت شجوها بلسان لا هدر ولا خراص
آيات حق حار كل مؤرخ في حصرها ومحدث قصاص

وتنحى الأسد عن طريق مولاه سفينة، حين علم أنه مجهز من حضرته العالية المكينة، وقصة الحمار الذي كلمه حين أصابه بخيبر، وذكر أن اسمه يزيد بن شهاب معروفة لا تنكر.

وشهدت الناقة عنده على مدعيها بأفكه، واعترفت أن صاحبها لم يسرقها وأنا جارية في ملكه.

وأتت إليه عنز في عسكره المنصور، وذيل الماء على منزلهم غير مجرور، وهم زهاء ثلثمائة بالعطش محصورون، فحلبها ورواهم ثم انطلقت وهم لا يشعرون.

وأمر فرسه وقد قام إلى الصلاة بالوقوف، فما حرك عضواً حتى فرغ من صلاته وتفرقت الصفوف. وكان الداجن في بيته يقر إذا دخل إليه، ويجيء ويذهب إذا خرج منه ﷺ.

نبيٌّ وبل مركزه غزير فدع طل السحائب والرذاذا
نبيٌّ أمر معجزه كبير به حتى جماد الأرض لاذا
وأقبل نحوه الحيوان طوعاً يروم بكهفه العالي عياذا
غدت دعواته تحكي سهاماً إذا ما أرسلت نفذت نفاذا

الفصل الثامن عشر: من كلام الموتى والأطفال وإبرائه ذوي العاهات ﷺ

ومن معجزات رسول الله ﷺ أن الشاة المصلية، التي بخيبر أهدتها له اليهودية أخبرته بأنها مسمومة، وأن عاقبة الأكل منها مذمومة، فمات بشر بن البراء وهو أحد من أكل منها. وفي رواية أن ذراعها أو فخذها تكلم عنها، ثم أن اليهودية اعترفت بما عملت، فأمر بها ﷺ فقتلت، وأتي بغلام يوم ولادته، فنطق بين يديه شاهداً برسالته، ولم يتكلم الغلام بعدها حتى شب، وليس ذاك بمستنكر بعد كلام الظبية والضب.

وانطلق مع الرجل الذي طرح ابنته بالوادي، فناداها باسمها فخرجت وهي بتلبيته تنادي، فقال: إن أحببت أن أردك على أبويك فقد أسلما، قالت: لا حاجة لي فيهما، وجدت الله خيراً لي منهما، وأما حياة الشاب الأنصاري الذي مات، وما دعت به أمه العجوز العمياء من الدعوات، وما ذكرته من هجرتها إلى الله ورسوله، فعن أنس نقل حديثه من لا يرتاب في نقوله، وتكلم ثابت بن قيس حين أدخل إلى قبره، فشهد له بالرسالة وذكر اسمه السامي نجم قدره، وكان قد قتل باليمامة، تغمده الله بالرحمة والكرامة.

وتكلم أيضاً زيد بن خارجه بعد وفاته، فذكر اسمه الكريم ورسالته المعظمة وبعض صفاته، وسلم عليه بأفصح لسان، ثم عاد ميتاً كما كان.

تكلمت الموتى بحضرة أحمد ... وخاطبه في يوم مولده الطفل
وما ذاك بدعا بعد تكليم بعضهم ... لعيسى كما وافى إلينا به النقل
وقد أخبر الرحمن أن محمداً ... على سائر الرسل الكرام له الفضل
هو المصطفى المختار والشاهد الرضى ... هو المنعم الوهاب والحكم العدل

وكان قتادة أسكنه الله بحبوحة جنته، قد أصيبت عينه يوم أحد حتى وقعت على وجنته، فردها ﷺ وكانت بعد أحسن عينيه. وأصيب وجه أبي قادة بقدح من القداح، فبصق على جرحه فما ضرب عليه ولا فاح. وتشفع به إلى الله بعض العميان، فكشف عن بصره كشفاً عوضه عن الخبر بالعيان. وابن ملاعب الأسنة نهكه استسقاء طرأ عليه، فشفي بحثوة من الأرض نقل عليها وجهزها إليه.

ولما ابيضت عينا فديك وذهب نظره، نفث في عينه ﷺ فارتد إليه بصره، حتى كان يدخل الخيط في الإبرة، والقوم يرفعون إلى ثمانين حجة عمرة. ورُمي كلثوم بن الحصين يوم أحد في نحره، فبصق فيه فبرأ بأمر من لاراد لأمره، ولم تدم شجة عبد الله بن أنيس، حيث تفل عليها من شهد بنبوته أو يس. وفي عيني علي نفث يوم خيبر، فأصبح رمده لم يكن شيئاً يذكر.

كف رسول الله كم أبرأت ... عيناً وأجرت في الفلا من عيون

وكـــم سقيـــم مـــدنـــف صيـــرت ... تحـــريـــك مـــا أسقمـــه فـــي سكـــون
واســـأل فُـــديكـــا إن تشـــا أو فســـل ... قتـــادة تظفـــر بســـر مصـــون
واعلـــم بـــأن الصـــادق المجتبـــي ... أصعـــب مـــن هـــذا عليـــه يهـــون

ونفث على ساق سلمة بن الأكوع، فبرأت من ضربة أصابتها في يوم هو سماه يوم الرضع. وأصاب رجب ابن معاذ السيف، فبرأت بنفث من ببركته يذهب الجنف والحيف. وانكسرت يوم الخندق ساق ابن الحكم، فنفث عليها فبرأ مكانه ولم يحصل له ألم. واشتكى علي فدعا له ثم ضربه برجله، فلم يعد إليه ذلك الوجع أبداً من أجله.

وقطع أبو جهل يد معوذ بن عفراء يوم بدر، فبصق عليها وألصقها بإذن من شرح له الصدر. وضُرب خُبيب على عاتقه فتهدل شقه ومال، فنفث عليه ورده إلى ما كان عليه من القتال.

وبرأ صبي الخثعمية بغسالة يديه، وعقل عقلاً كثيراً ببركته ﷺ. وانكفأت القدر على ذراع ابن حاطب وهو صغير، فمسح عليه ودعا له فبرأ لوقته بإذن اللطيف الخبير.

وكانت في شراحيل سلعه، منعته القبض على السيف وضيقت ذرعه، فما زال يطحنها بكفه حتى ذهبت، وزال أثرها ببركة يده الشريفة التي كم أبرأت وكم وهبت. وأبرأ غير واحد من ذي جنة وذي وصب، ولم يؤت بأحد به مس وصك في صدره إلا ذهب.

يـــامـــن لـــه الـــرتـــب العليـــة والحســـب ... يامَن حوى شرف المغارس والنسب
دعـــواتـــك الـــلاتـــي نمـــت بـــركـــاتهـــا ... كـــم أذهبـــت مـــا كـــان يغضـــي للعطـــب
مـــن ضـــربـــة عنـــد النـــزال وطعنـــة ... تـــأتـــي ومـــن مـــس يصيـــب ومـــن وصـــب
أنـــت الـــذي بلـــغ المنـــى مـــن عـــد مـــن ... خـــدام سنتـــك الشـــريفـــة والأدب
صلـــى عليـــك مـــدبـــر الأكـــوان مـــا ... ظهـــر الضيـــاء مـــن الغـــزالـــة واحتجـــب

الفصل التاسع عشر: في دعائه المستجاب ﷺ

ومن معجزات النبي ﷺ لا تفنى مواد مدده، أنه كان إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده، دعا لأنس بالبركة وتكثير الولد والمال، فلم يعلم أحد نال من كثرة الولد ورخاء العيش مانال، تمتع بالمال الكثير في سلمه وحربه، ودفن بيديه مائة ولد من صلبه. ودعا بالبركة لعبد الرحمن بن عوف، فطافت الأموال حول بيته أجزل طوف، حتى تصدق مرة بعير، كان فيه سبع مائة بعير، وأطلق جزلاً وأنجز وعداً، وأعتق في يوم ثلاثين عبداً، وظهر في تركته من الذهب ما ثقل حملاً وعز وصفا، حتى أخذت كل زوجة من زوجاته الأربع ثمانين ألفاً.

ودعا لمعاوية بالتمكين في البلاد، فنال الخلافة وحكم في الطريف والتلاد. ودعا لسعد بن أبي وقاص بإجابة دعوته، فما دعا لأحد بعد إلا استجيب له ببركته. واستجيب له في عز الإسلام بالفاروق من رب البشر. قال ابن مسعود رضي الله عنه: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر.

نعـــــم أعـــــز ديننــــا إســـلام ذي العـــز عمـــر
الـــزاهـــد العـــدل الـــرضـــى رب الفتـــــوح والظفـــر
مــــاذاك إلا بـــــدعـــــا المصطفــــى خيـــر البشـــر
كمـــــا دعـــــا لأنـــس فنـــال بـــاليمـــن الـــوطـــر
ولابـــــن عـــــوف الجـــــواد فـــاجتلـــى بـــدر البـــدر
طـــوبـــى لقـــوم أدركـــوا أيـــامـــه البيـــض الغـــرر

وقال للنابغة: لا يفضض الله فاك، فأدرك بدعائه غاية تعلو على الأفلاك، وعُمِّر وكان أحسن الناس ثغراً، كما سقطت له سن أنبت الله له أخرى.

ودعا لابن عباس بالتفقه في الدين وعظيم التأويل، فكان بعد يسمى حبر الأمة وترجمان التنزيل.

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه، فكان يربح في جميع ما يشتريه بنفسه ونائبه وأمينه. ودعا بالبركة للمقداد أيضاً، ففاضت عليه عيون المال فيضاً.

ودعا بمثل ذلك لعروة بن الجعد، فدار بنجوم ربحه الجزيل فلك السعد. وكُفي علي كرم الله وجهه الحر والقر بدعائه، فكان يلبس في الشتاء ثياب صيفه وفي الصيف ثياب شتائه. وأعطى طفيل بن عمر آية بدعوته عليه السلام، وهي نور يضيء بطرف سوطه في جنح الظلام.

هـــذا ابـــن عبـــاس بـــه قـــد غـــدا فـــي الفقـــه والتـــأويـــل نعـــم الإمـــام
وعـــروة بـــن الجعـــد مـــن ربحـــه فـــي المـــال قـــد فـــاز بـــأعلـــى السهـــام
والحَـــــر والقُـــــر علـــــي رأى حـــربهمـــا سلمـــا عليـــه الســـلام
وأيُّ خيـــــر لـــــم يكـــــن أصلـــــه مـــن أحمـــد بيـــت قصيـــد الكـــرام

ودعا على مضر فأقحطوا ولم يصف لهم عيش، ثم دعا لهم فسقوا حين استعطفته قريش. ودعا على كسرى بتمزيق ملكه فتمزق، وتشتت شمل ذريته وتفرق.

وقطع بعض الصبيان عليه الصلاة، فدعا عليه فأقعد إلى أن أدركته الوفاة. وقال لرجل: كل بيمينك. فقال: لا أستطيع، فلم يرفعها إلى فيه إذا لم يكن لأمره بمطيع.

وأكل عتبة بن أبي لهب أسد سيق إليه، حيث دعا بتسليط كلب من كلاب الله عليه. وقابلته جماعة من قريش بإساءة الأدب، فانقلبوا بعد القتل بدعائه إلى أسوأ منقلب. وكان الحكم بن أبي العاص يغمز عنده، ويختلج بوجهه حيث لم يبلغ رشده، فدعا عليه باستمراره على هيئته، فلم يزل يختلج إلى أن نزل بحفرته.

ومات ابن جثامة بعد سبع من دعائه عليه، فلما دفن لفظته الأرض مرات ولم تركن إليه. وكم له من دعاء مستجاب في الاستسقاء وغيره، ومن كرامة ظاهرة تدل على عظمته ونبوته وخيره.

إن الذي يدعو له من لا يُردُّ	دعاؤه لموفق وسعيد
والويل للعاصي الذي يدعو عليه	وإنه لمشرد وطريد
يا سيد الكونين يامن ظله	كنواله للوافدين مديد
كم آية وكرامة لك ذكرها	أبداً على مر الزمان جديد
مني إليك سلام عبد ماله	إلا الصلاة عليك والتوحيد

الفصل العشرون: في انقلاب الأعيان له وتأثير بركته ﷺ

ومن معجزات رسول الله ﷺ أنه ركب لأبي طلحة فرساً قطوفاً غير لاحق، فرجع ببركته بحراً لا تجري معه السوابق. ونخز لجابر جملاً أفسد اللغوب نظامه، فنشط حتى كان لا يقدر أن يملك زمامه. وبرَّك على فرس جعيل فحسنت وصفاً، وباع من بطنها باثني عشر ألفاً، وركب لسعد بن عبادة حماراً به قطاف، فرده هملاجاً لا يسايره ذو أكاف. وكانت في قلنسوة خالد بن الوليد شعرات من شعره، فلم يشهد بها قتالاً إلا أيده الله فيه بنصره. وكانت المرضى تستشفى بغسالة ما يلبسه من الثياب، وتعافى بما يوضع في الآنية المعدة له من الشراب.

وسكب من فضل وضوئه في بئر فلم يتحدث بعد بالنزح عنها. وبصق في بئر دار أنس فلم يكن بالمدينة أعذب منها. ومر على ماء ملح فسماه طيباً فطاب، ومج في بئر زمزم وغيرها ففاح منها ريح الأناب. وكان يتفل في أفواه صبيان المراضع، فيجزيهم ريقه إلى أن يجمعهم والليل جامع.

رسول كم حديث عنه يروى	جواهره شنوف للمسامع
نمت بركاته وسما سناها	يشير بلامح في الكون لامع
بها الحيوان أضحى ذا نشاط	وزالت عن ذوي السقم الموانع
بها عذبت مياه كن ملحاً	وصار لها شذًى كالمسك ضائع

وحديث عكة أم مالك وأمره لها أن لا تعصر، وما كانت تجد فيها من السمن حتى عصرتها لا ينكر. وغرس لسلمان عند مكاتبته ثلثمائة ودّية، فأطعمت من عامها ببركة يدها الندية، وأعطاه ذهباً وزن منه لمواليه أربعين أوقية، على أنه كان مثل بيضة الدجاجة وبقيت منه بقية. وسقى رجلاً من سؤره الذي به الأرواح تنتعش، فلم يزل يجد شبع شربته إذا جاع وريها إذا عطش، وأعطى قتادة عرجوناً في ليلة مظلمة، فلم يبرح العرجون يضيء له حتى أتى مجثمه.

وانكسر سيف عكاشة يوم أحد فأعطاه جذل حطب، فعاد في يده سيفاً صارماً يدني من قاربه إلى العطب، ثم لم يزل يشهد به المواقف، وكان يعرف بالعون بين تلك الطوائف. وذهب سيف عبد الله بن جحش فدفع إليه عسيباً، وكان يوم أحد فرجع في يده سيفاً خشبياً.

وبركته على الشياه الحوامل مأثورة، ودرورها باللبن الكثير في صحف المحدثين مسطورة، كغنم حليمة السعدية، وشاة أم معبد الخزاعية، وأعنز معاوية بن ثور وشاتي أنس والمقداد، وشاة عبد الله بن مسعود وغيرهم ممن لا يحصره التعداد.

لخير البرايا معدن الجود والندى ... فضائل آيات وسل أم مالك
وسلم علي سلمان وأقصد نخيله ... تجد حسن آثار النبيّ المبارك
وعُكاشة أسمع قوله وحديثه ... عن الجذل بل عن مرهف الحد فاتك
ولذ بجناب المصطفى وامش خلفه ... تنل جنة محفوفة بالأرائك

وزوّد أصحابه سقاء ماء أو كأه ودعا فيه، فلما حلوه وجدوا لبناً طيباً ذا زبدة في فيه. وبرك على رأس عمير بن سعد، فمات ابن ثمانين ولم يشب من بعد. ومسح على بطن عتبة بن فرقد وظهره، فكان يغلب طيب نسائه طيب نشره. وجرح عائذ بن عمرو يوم حنين، فسلت الدم عن وجهه فعاد ذا غرة كاللجين. ومسح رأس قيس بن زيد وأشار بالدعاء إليه، فعمر وابيض رأسه خلا ما مرّت يده عليه.

ومسح وجوهاً فكان عليها نور وجمال، وكثير من العاهات مرَّ ببركته وزال. ورمى يوم حنين في وجوه الكفارة قبضة من التراب، فانصرفوا مكسورين مأزورين متقطعة بهم الأسباب. وكان جرير بن عبد الله لا يثبت على الأفراس، فضرب في صدره ودعا له فكان أفرس الناس. وشكا أبو هريرة النسيان إليه، فأمره ببسط ثوبه وضمه بعد أن غرف فيه بيديه، فما نسي شيئاً مما حفظه بعد ذلك. وكم له من معجزة ليس له فيها من الأنبياء مشارك.

للّه دَر نبيّ دُر منطقه ... ألبابَ أهل الحجى والعلم يستلب
والنشر من وصفه لا ينطوي أبدا ... كلا ولا ينقضي من بحره العجب

به وجوه ذوي الإقبال ناضرة أضت وعادت له الأعيان تنقلب
وأبرأت كفه العاهات مسرعة وكم له آية تملي وتكتتب
صلى عليه الذي أعلى مراتبه ما هبت الريح فاهتزت لها القضب

الفصل الحادي والعشرون: في إخباره بالكائنات والغيوب ﷺ

ومن معجزات النبي ﷺ ما أطلعه الله عليه من الغيوب، وما عرفه سبحانه مما ذهب ومما يؤوب، وما أخبر بوقوعه فوقع، وأنه سيكون فلاح ضوء صبحه ولمع، فمنه ما ذكره من الظهور على أعدائه، وإعلاء أعلام أنصاره وأوليائه، وإلا من الموجود بيمنه في الرحلة والمقام. وفتح مكة وخيبر واليمن والعراق والشام، ودنو أمته من الدنيا وزهرتها، وتقلبهم في جزيل نضارتها ونضرتها، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر، وأخذهم من الاختلاف بالمكيال الأوفر، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة ليس بينها وبين الحق فرقة، وإن أحدهم يغدو في حلة ويروح في أخرى، وتوضع الصحاف بين يديه تنعماً وفخراً، ويكون لهم عدة أنما طرحبة، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة، وإن ملكهم يبلغ مازوي له من الغرب والشرق، وإنه لا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق.

نبيّ أمانة ورسول صدق جدير بالنبوة والرساله
إذا ما قال قولاً فانتظره فسوف يكون حتما لا محاله
إله العرش بالأنوار منه هدى من شاء من ظلم الضلاله
وعلم أمة من بعد جهل به وعلى الورى أعلى مقاله

وما أشار إليه من قتال الخزر والترك، وزوال ملك فارس والرُّوم بأمر مالك الملك، وقبض العلم وظهور الهرج والفتن وذهاب الأمثل فالأمثل وتقارب الزمن، وملك بني أمية واتخاذهم المال دولاً، وخروج بني العباس لا يبغون عن الملك حولاً، وقتل عليّ بعد قتل عثمان، وخروج المهدي في آخر الزمان، وما ينال أهل بيته الأطهار، وما يلقونه من القتل والتشريد في الأقطار، وأن الزبير يحارب علياً، وأن الفتن لا تظهر ما دام عمر حياً، وينبح على بعض أزواجه كلاب الحوأب، ويقتل حولها كثير وتنجو بعدما كادت تذهب، وأن عماراً تقتله الفئة الباغية، وأن الأمر في قريش ما أقاموا للدين أعلاماً عالية، وأن يكون في ثقيف كذاب ومبير، وأن مسيلمة يعقره من هو على كل شيء قدير.

بعض الذي قاله خير الأنام جرى والبعض يأتي كما قد نص في الخبرِ
أما الصحاب وأهل البيت منه وما قد نالهم فهو أمر غير مستتر

وســوف تظهــر تصــديقــاً لــه فتــن   كفطــع ليــل خــلا مــن غــرة القمــر

وما أخبر به من سحر لبيد بن الأعصم حليف الشيطان، وأنه في جف طلع نخلة ذكر ملقى في بئر ذروان، وأكل الأرضة ما كتبته قريش في الصحيفة، وأنا أبقت فيها كل اسم لله تنزيهاً لأسمائه الشريفة، وأن العرب سوف يرتدون، وأن الخلافة بعده ثلاثون، وأن الأمر بدأ نبوة ثم تكون خلافة ورحمة، ثم ملكا عضوضاً ثم عتواً وفساداً في الأمة، وكثرة العجم في أمته وضربهم الرقاب، وأن الكذابين ثلاثون آخرهم الدجال الكذاب.

وشأن الأمراء والذين يؤخرون الصلاة، والرجل الذي يخرج من قحطان يسوق الناس بعصاه، وأمر أو يس القرني وما قال عنه، وأنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه، ووقع آخر هذه الأمة بسبب أولها في الآثام، وقلة الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، وخروج الخوارج وأن سيماهم التحليق، وظهور القدرية والرافضة وعدولهم عن الطريق.

تبــاً لقــوم رفضــوا عصبــة   محمــدٌ شــانئَهــم يــرفــض
عصبــة خيــر صحبــوا المصطفــى   واللــه قــرضــاً حسنــاً أقــرضــوا
وجــه الــذي يكــرههــم أســود   ووجــه كــلّ منهــم أبيــض
طــوبــى لمــن كــان حليفــاً لهــم   وويــل مطــرود لهــم يبغــض

وما حدث به من أمر فاطمة الزهراء نجله، وأنها أول من يلحق به من أهله، وأن أرض الطف بها يقتل الحسين، وأن الله تعالى يصلح بالحسن بين فتتين، وأن رعاء الغنم يُرَون رؤساء عليهم التيجان، وأن الحفاة الرعاة يتطاولون في البنيان، وولادة الإماء الربات، وموت النجاشي يوم مات، وكتاب حاطب وقصة عمير مع صفوان، وما يكون بعد فتح بيت المقدس من الموتان، ومن غل الشملة بتفريق شمله، ومن أخذ حرز يهود فوجدت في رحله، وقتل أهل مؤتة يوم قتلوا، ومصارع أهل بدر ومقابلتهم بما فعلوا، وبناء مدينة بين دجلة ودجيل يعني بغداد، وما وعد به من سكنى البصرة ولم يخلف عليه السلام الميعاد. . . إلى غير ذلك من الحوادث ونزولها، واشراط الساعة وحلولها، وذكر البعث والنشر، وآيات الموقف والحشر، وأحوال الأبرار والفجار، وأهوال القيامة ووصف الجنة والنار، والجمل يستغنى بها عن التفصيل، والأقلام لا تحصر ما له ﷺ من االتفضيل.

نبــيٌّ عظيــم القــدر نــوّر قلبــه   وعلمــه مــن يعلــم الســر والنجــوى
وعــرفــه بــالكــائنــات وغيبهــا   فــأصبــح منشــوراً لــه كــل مــا يطــوى
أيــا حبــذا منــه إمــام وقــدوة   شــرائــع ديــن اللــه مــن لفظــه تــروى
لــه روضــة تهتــز بــالنــد والنــدى   سحــائبهــا تنهــل بــالجــود والجــدوى

تحف ضريحاً ضم هدياً ورحمه — وحاز العلا والعلم والبر والتقوى
عليه سلام لم يزل غصن دوحة — رطيباً سريع الميل ينمي ولا يذوى

الفصل الثاني والعشرون: في عصمته من الناس ﷺ

ومن معجزات رسول الله ﷺ أنه جلس في بعض منازلة تحت شجرة، فاخترط أعرابي سيفه عليه يريد الله ما عظم خطره، فارعدت يده وسقط منها السيف، وضرب الشجرة برأسه كمن ألمَّ به من الشيطان طيف، فعفا عنه وأقامه بعد إلا بلاس، فرجع إلى قومه قائلاً جئتكم من عند خير الناس. وانفرد يوم بدر لقضاء الحاجة من أصحابه، فتبعه رجل من المنافقين مصلتاً سيفه من قرابه، فعصمه الله من شره، ورد كيده في نحره، وقصده دعثور بن الحارث، وفي يده عضب مرهف الحد فارث، وذلك في غزوة غطفان فوقع لظهره ثم هدي بعدها للإيمان.

وكانت حمالة الحطب تضع على طريقه الغضا وهو جمر، فكأنما يطؤه كثيباً مهيلاً بقدرة صاحب الأمر، وتواعده المشركون مرات عديدة، وأتوا للفتك به بكل حيلة ومكيدة، فمنهم من هرب وفر، ومنهم من مر عيشه بعد أن مر، ومنهم من وقع مغشياً عليه، ومنهم من ضرب الله على عينيه، ومنهم من أصابته زلجة وسقط بين يديه، ومنهم من صدته الملائكة فلم يصل إليه.

رامـوه بـالسـوء والجبـار يحفظـه — مـن كـل ذي حسـد للشـر منتصـب
وأقبلـوا نحـوه للكيـد فـانقلبـوا — بجهلهـم وعمـاهـم أيّ منقلـب
لمـا مشـوا فـي ظـلام الظلـم أورثهـم — خبطـاً وخلطـاً بهـم أدّى إلـى العطـب
تبـاً يـلاقيهـم لقيـا أبـي لهـب — وبئس مـا صنعـت حمـالـة الحطـب

واجتمعت قريش على قتله وبيتوه لعكوَسهم، فخرج عليهم من بيته وذر التراب على رؤوسهم، وخلص منهم وهم له ينتظرون، ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]. واتبعه سراقة حين الهجرة اتباع قاتل، وقد جعلت قريش فيه وفي أبي بكر الجعائل، فلما قرب منهما دعا عليه سيد الثقلين، فخر عن فرسه بعد أن ساخت قوائمها مرتين، فناداه بالأمان، فأمنه وقابله بالإحسان، وعرف بعض الرعاة حقيقة خبرهما، فخرج يشتد ليعلم قريشاً بأمرهما، فلما ورد مكة ضرب على جنانه، وأنسي ما خرج له حتى رجع إلى مكانه، وجاء أبو جهل بصخرة ليطرحها عليه، وكان إذ ذاك ساجداً وقريش تنظر إليه، فيبست يداه إلى عنقه ولم ينفعه هُبَل، ثم سأله أن يطلق يديه بدعائه ففعل، وأتاه مرة أخرى وهو يصلي ﷺ فلما قرب منه ولى ناكصاً

على عقبيه، وأشرف على خندق نار كاد يهوي فيه، وأبصر من الهول العظيم ما يحزنه ويخزيه.

تـدانـت منـه واجتمعـت قـريـش عليـه وبيتـوه للعكـوس
فلـم يحصـل لهـم ممـا أرادوا سـوى ذر التـراب علـى الـرؤوس
وأسـر سـراقـة إذ خـر ملقـىً وراعـى الشـاء دون فـي الطـروس
ويبـس يـدي أبـي جهـل شهيـر وكـم آي لأحمـد كـالشمـوس

وجاءه عازماً على قتله رجل من بني المغيرة، فطمس الله بصره على أنه كان أعمى البصيرة، وأدركه يوم حنين رجل من خلفه، ورفع سيفه عليه عازماً على حتفه، فلما دنا ارتفع إليه شواظ من نار، فولى ثم أقبل فأسلم وقاتل في صف الأبرار، وخبر عامر بن الطفيل حين قصد قتله مذكور، وما اتفق عليه مع إربد بن قيس من الكيد المردود عليهما مشهور، وكثير من اليهود والكهان، أنذروا به وعينوه لأصحاب الأوثان، وأخبرهم بنبئه وحضوهم على قتله، فعصمه الله تعالى منهم بنصره وفضله، وحرسه بعينه التي لا تنام، وكلأه بعنايته في الرحلة والمقام، وجعل في أعناقهم أغلالاً وألبسهم من العكس والطرد سربالاً، وكف أيديهم عنه إذ هموا ببسطها، وقابل عزائمهم السيئة بطي نشرها وحل ربطها، ورد كلاً منهم خاسئاً وأطال بعده، وحمى رسوله ﷺ وكفاه ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

سبحان من عصم الرسول من الأذى ولـه أذل عصـابـة الأوثـان
وحمـى حمـاه وعنـه كـف أكفهـم ورمـاهـم فـي هـوة الخسـران
وأعـزه وكفـاه مـا يخشـاه مـن شـر اليهـود البهـت والكهـان
وأقـام دولتـه وأعلـى دينـه فضـلاً وإحسـانـاً علـى الأديـان
صلـى عليـه اللـه رب العـرش مـا عطـف النسيـم معـاطـف الأغصـان

الفصل الثالث والعشرون: في ما جمع له من المعارف والعلوم ﷺ

ومن معجزات النبي ﷺ ما جمعه الله له من المعارف الوافرة، والعلوم التي لم تزل عن وجوه الهداية سافرة، وما خصه به من ورود عين اليقين، والاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين، وعرفه من قوانين شريعته، وحفظ أسرار وديعته، وسياسة عباده، ورعاية ساكني بلاده، وقصص الأنبياء والرسل والجبابرة، وما كان في الأمم قبل بعثته الزاهرة، وأحاديث القرون الماضية، وإظهار شرائعهم النائية، ووعي سيرهم وسرد أنبائهم، وأيام الله فيهم واختلاف آرائهم، والمعرفة بمدذهم وأعمارهم، وحكم حكمائهم وأخبار أخبارهم، ومحاجة كل أمة من الكفرة، ومعارضة أهل الكتابين بما في كتبهم المسطرة، وأعلامهم بمخبآتها

وأسرارها، والمكتوم والمغير والمبدل من أسفارها، وما أحاط به من لغة العرب وغريب ألفاظها، وضروب فصاحة خطبائها وبلاغة وعاظها، وما خص به من جوامع كلمها، وحفظ أيامها وأمثالها وحكمها، ومعرفة معاني أشعارها، وبيان مشكل نظامها ونثارها.

وبنـــاء أركـــان العلـــوم ورفـــع ذكـــر منـــارهـــا
وشفـــاء صـــدر مـــريـــدهـــا الظـــامـــي إلـــى أنهـــارهـــا
وبلـــوغ مـــا يـــدنـــي إلـــى استخـــراج در بحـــارهـــا
وسلـــوك أوضـــح طـــرقهـــا فـــي النـــور مـــن أقمـــارهـــا

وتفهيم الغامض الذي لا يظهر، وتمهيد قواعد الشرع المطهر، المشتمل على محاسن الأخلاق، ونفائس الأعلاق، ومحامد الآداب، وطرائف طرائق الصواب، وتسكين حركة العائب والعابث، وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وصون الأعراض والأموال بالحدود، وحماية الأنفس بالوعيد لا بالموعود، وما علمه مما كان ويكون، وما حواه من سائر الفنون، كالفرائض والحساب، والتعبير والأنساب، والطب المحقق شفاؤه، والعلاج المجرب دواؤه، كقوله في حديثه المعروف عند أصحاب الأثر: ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأولى رجل ذكر، وقوله ﷺ صلاة متصلة بيوم العرض.

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وقوله ﷺ عليه رب العزة والسلطان: الرؤيا الصادقة من الله والحلم من الشيطان، وقوله في خبر رواه من شنف به مسمعه: إن سبأ رجل ولد عشرة تيامن منهم ستة وتشاءَم أربعة، وقوله عليه أفضل الصلاة والسلام: في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام.

للـــه مـــا أفضلـــه مـــرســـلاً حـــاز علـــومـــاً حصـــرهـــا لا ينـــال
بحـــر شـــراع الشـــرع أضحـــى بـــه مـــرتفعـــاً يعلـــو رؤس الجبـــال
لـــولاه مـــا وافـــى محيـــا الهـــدى مبتســـم الثغـــر وزال الضـــلال
طـــالـــب حصـــر الـــوصـــف منـــه انتهـــى من ذا الذي يحصي الحصى والرمال

إلى غير ذلك من لغات الأمم، وتصوير حروف الخط بالقلم، وما لا يعلم بعضه، ولا يدري إبرامه ونقضه، إلا من لازم الدروس واقتفى سبلها، وعكف على مطالعة الكتب وثافن أهلها، وما اتخذ أهل هذه المعارف كلامه فيه قدوة، وجعلوه أصلاً في علومهم ليفرعوا عليه ويحذو حذوه، على أنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، ولا عرف بصحبة من يعلم الكتابة أو يحسب، ولا نشأ بين قوم لهم مدارسة، ولا قراءة لشيء من هذه الأمور ولا ممارسة، ولا اختلف إلى حبر من الأحبار، ولا اجتمع بمنجم ولا كاهن ولا صاحب أخبار... إنما كانت

غاية معارف العرب الشعر والبيان، وأخبار من سلف من أوائلها وبان، وذلك نقطة من بحر علمه، وقطرة من غيث حكْمه وحكَمه. وبالجملة فقد كانوا يسألونه عما اضطروا من ذلك إليه، وعما اختلفوا فيه ﷺ.

إن المعـارف عـرفهـا مـن زهـره ... ونمـو أفنـان الفنـون بقطـرِهِ
ومعـالـم العلـم الشـريـف بـه سمـت ... وطـريقهـا وضحـت بطـالـع فجـره
كـم حكمـة ظهـرت معـانـي حكمهـا ... بيـن البـرايـا درهـا مـن بحـره
صلـى عليـه وزاده مـن فضلـه ... مـن خصـه شـرفـاً بغـامـض سـره

الفصل الرابع والعشرون: في خبره مع الملائكة والجن ﷺ

ومن معجزات رسول الله ﷺ إمداد الله بملائكته، وإدخال طائفة من الجن في طاعته، وصرفهم إليه لاستماع القرآن، ورؤية عدة من أصحابه لهم في كثير من الأحيان، وخبر محادثته مع الملائكة في العالم العلوي مأثور، وما شاهده من كثرتهم وعظم صورهم ليلة الإسراء مشهور، رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح، وتكلم مع إسرافيل وغيره في مكان تصعد إليه الأرواح، وعاينهم جماعة من أصحابه في مواطن بحضرته، ورأى ابن عباس وغيره جبريل في صورة دحية وهيئته، ورؤي الناموس الأعظم في مجلسه العليّ الأركان، وهو في صورة رجل يسأله عن الإسلام والإيمان، وجلس على يمينه المعروفة باليمن جبرائيل، وعلى يساره المشهورة باليسر ميكائيل، وكانا في صورة رجلين بيض الأثواب، فرآهما سعد وغير واحد من الأصحاب.

مـلائكـة الـرحمـن تطـرق بـابـه ... ونحـو حمـاه لـم تـزل تتـردد
لتـأييـد جيـش أو أداء رسـالـة ... وكـم قـد أتـت معنـى الـزيـارة تقصـد
وأمـر سمـاع الجـن للـذكـر عنـده ... وإيمـانهـم طـوعـاً بـه ليـس يجحـد
كـرامـات ذي فضـل علـيّ محلـه ... لـه كـرم كـالغيـث لا يتعـدد

وأخبر بعض من شهد يوم بدر، أنه سمع أصوات الملائكة على خيلها بالحث والزجر، ورأى تطاير الرؤس من الكفار، ولم يشاهد ضارباً بعضب ولا بتار، ورأى بعضهم رجالاً بيضاً بلق الأفراس، يجولون بين السماء والأرض على رؤوس الناس.

وحين رأى حمزة جبريل في الكعبة خر مغشياً عليه، وكانت الملائكة تصافح ابن الحصين ببركة من صحبه وانتمى إليه. ولما قتل يوم أحد مصعب بن عمير، أخذ الراية ملك على صورته مساعدة لأهل الخير.

وأما ابن مسعود أتحفه الله بالكرامة، فإنه ليلة الجن رأى من حضر منهم وسمع كلامه، وأقبل شيخ بيده عصا في بعض الأيام، فسلم على رسول الله فرد عليه السلام، ثم ذكر اسمه ونسبته إلى إبليس اللعين، وأخبره أنه لقي نوحاً ومن بعده من النبيين إلى ذلك الحين. قال عمر بن الخطاب: وعلمته سوراً من الكتاب، وتفلت شيطان ليقطع صلاته في تهجده، فأخذه وأراد ربطه في بعض سواري مسجده، ثم أطلقه لدعوة أخيه سليمان، ورده الله خاسئاً بالخزي والخذلان.

رسـول حـاز آيـات ... وغـايـات مـن السبـق
أميـن جـاء بـالإيمـان ... والإحسـان والصـدق
جميـل الخلـق والأخـلاق ... جـم الـرفـد والـرفـق
أفـاد الجـان والإنسـان ... علمـاً بـاسِـمَ البـرق
بـه أضحـت منيـرات ... نـواحـي الغـرب والشـرق

ولما هدم خالد مكان العزى وحطم جدرانه، خرجت له سوداء ناشرة شعرها عريانة، فجزلها بمهنده، واستمر على ما هو بصدده.

وكرامات أصحابه من بعض معجزاته، عليه أفضل صلوات الله وتحياته، فهذه نبذة من معجزاته الواضحة، وفلذة من أنوار آياته اللائحة، وبضعة من علامات نبوته الهادية، وقطعة من سحائب كراماته الرائحة والغادية، مقتصراً من جزيلها على اليسير، ومقتنعاً من طويلها بقليل من كثير، إذ لو حصل الاستقصاء لكانت ديواناً، بل دواوين تطير أوراقها إلى طالبها زرافات ووحداناً، وبالجملة فالأدلة على فضله لا تعد ولا تحصر، واختصار القول في أهل الشرف والطَّوْل أولى وأجدر.

نعـم نِعَـمُ المقفّـي ليـس تحصـى ... وتلخيـص المقـالـة فيـه أجـدر
لأن الأفـق مهمـا قلـت فيـه ... مـن الـزهـر الـدراري فهـي أكثـر
وفضـل البحـر لـم يـدركـه وصـف ... وعـد المـوج منـه ليـس يحصـر
أيـا لَلّـه مـن ذي معجـزات ... لهـا نـور لعيـن الشمـس يبهـر
عظيـم الخلـق معـروف السجـايـا ... إلٰـه العـرش قـدسـه وطهـر
سـلام اللـه لا ينفـك يهفـو ... لـه مـا هلـل الـداعـي وكبـر

الفصل الخامس والعشرون: في وجوب الإيمان به وطاعته واتباع سنته ﷺ

الإيمان بالنبي ﷺ واجب، وشهاب التصديق برسالته في سماء الهداية ثاقب، وهو أمر

متعين لا يصح إلا معه الإسلام، وكل إيمان خلا عن الإيمان به فهو غير تمام، والإيمان به هو الشهادة له بالرسالة، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله.

فمن آمن به عصم دمه وماله، وأحرز ما يصلح عاقبته ومآله، والإيمان محتاج إلى العقد بالجنان، كما أن الإسلام مضطر إلى النطق باللسان، فإذا اجتمع التصديق بالقلب والنطق بالمذود، تم الإيمان وفاز صاحبه بالجد الأسعد، وطاعته أيضاً واجبه، لأنها لطاعة الله مصاحبة، فمن أطاعه هدى إلى سواء الطريق، ومن مد باعه إلى أفقه ظفر بالتوفيق، ومن امتثل أمره رفل في أثواب الثواب، ومن خالفه سلك به عُقاب العِقاب، وطاعته هي الالتزام بسنته، والتسليم لما جاء به ورفع كلمته، فاتبعوه وأطيعوه، وانقلوا خبر أمره وأذيعوه، وإذ انهاكم عن شيء فانبذوه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

خـذوا مـا أتـاكـم بـه المصطفـى	وأقـوالـه صـدقـوا تغنمـوا
ومـا جـاء مـن عنـد رب العـلا	إليكـم بـه سلمـوا تسلمـوا
ووالـوه وامتثلـوا أمـره	وطـرق هـداه الـزمـوا تكـرمـوا
وسنتـه تـابعـوا واسمحـوا	ببـذل النـدى وارحمـوا تـرحمـوا

ولا تعوجوا عن مناهج الحق وسبله، وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، واجتهدوا في تصميم الاعتقاد وحضور الجَنان، واجمعوا بين التصديق بالقلب والشهادة باللسان، فالشهادة باللسان دون التصديق بالقلب نفاق، ومن نطق بها هو غير معتقدها ماله في الآخرة من خلاق ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢] ﴿وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

ويجب اتباعه وامتثال سنته السنية، واقتفاء طريق هديه وسيرته الزكية، والاقتداء به في الأخلاق والأفعال، والانقياد لأوامره في جميع الأعمال، والتأسي به في حربه وسلمه، والأخذ بقوله والرضا بحكمه، فخير الهدى هداه؛ ومن اتبعه أحبه الله، فعليكم بإحياء سنته، لتعدوا من صالحي أمته، أفلح من عض عليها بالنواجذ، وفاز من رؤي وهو بجنابها لائذ، من انتصر بها فهو منصور، ومن اقتدى بها وفق في سائر الأمور.

ومـن إليهـا جـاء يـرجـو الهـدى	ألقـت إليـه حبـرات الحبـور
ومـن أتـى يطـوي الفـلا نحـوهـا	فـاز بنشـر الخلـد يـوم النشـور

ومن اعتصم بها نجا من النار، ومن حافظ على برها حشر مع الأبرار، ومن رضي بقول صاحبها رضي بالقرآن المجيد، ومن تمسك بها عند فساد الأمة فله أجر مائة شهيد، ومن رغب عنها فليس من سيد البشر، ومن آثرها على نفسه نال غاية الأمل ونهاية الوطر، ومن خالفها

واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله ما تولى وأصلاه مثوى الكافرين، فتلقوا ما صدر عن صدر المصطفى بالقبول. ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]. ولازموا طريقته واتبعوا سنته، ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]. ولا يغرنكم بالله الغرور، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وأيقظوا قلوبكم بمعرفة السنة من سِنَة الجهالة، ولا تتعرضوا إلى مخالفته والاعتراض على طريقه المستقيم ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

لا يكمل الإيمان في قلب امرىء — إلا بتصديق النبيّ المرسل
ذاك الذي في الخلق طاعة أمره — وجبت بأخبار الكتاب المنزل
يا فوز ناج أمرَ سنته اقتفى — وبه اهتدى في كل أمر مشكل
صلى عليه الله ما أحيا الحيا — ميت النبات بعارض متهلل

الفصل السادس والعشرون: في لزوم محبته ﷺ

محبة رسول الله ﷺ لازمة، والآية الكريمة بوجوبها وعظم خطرها جازمة، ولن يؤمن أحد حتى يكون أحب إليه من نفسه، ومن ولده ووالده وسائر أبناء جنسه. ومن أحبه وجد حلاوة الإيمان، ودخل في زمرته إلى محل الروح والريحان، وفاز بمرافقة الذين أنعم عليهم الرب، وكان معه يوم القيامة لأن المرء مع من أحب.

ولقد كان أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنة الخلد مسكنهم ومثواهم يحبونه أشد المحبة، ويختارون لقاءه وقربه، ويعظمونه أتم التعظيم، ويكثرون من الصلاة عليه والتسليم. أما أبو بكر فمحبته مشهورة، وهجرته إلى الله ورسوله معروفة مذكورة.

وحلف عمر له ﷺ أنه أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه. وعن علي كان والله أحب إلينا من الأموال والأولاد، ومن الآباء والأمهات والماء البارد على ظمأ الأكباد. وقال عمرو بن العاص ما كان أحد أحب إلي من النبي ﷺ وكان خالد بن معدان يتمنى لقاءه كثيراً وبشوقه إليه يتكلم.

وقيل لابن عمر اذكر أحب الناس إليك فصاح: يا محمداه. ولما احتضر بلال ذكر لقاءه ورؤية صحبه فقال: واطرباه.

ومنهم من فارق ماله وأهله ودياره في موالاته، ومنهم من قتل صاحبه وقاتل أباه وابنه طالباً لمرضاته.

كيف لا يفعل الصحاب الكرام — ذاك مع خير من أظل الغمام

كيف لا يمنحونه الود صرفاً ... وهو بدر به استنار الظلام
صانهم زانهم هداهم حماهم ... وبه نحوهم تدانى المرام
حبذا مرسل عطوف رؤوف ... كاشف كربة الهموم همام
لمحبيه في الوجود مقال ... ولهم في جنان عدن مقام
إن من في ولائه يتغالى ... لسعيد موفق والسلام

ومن علامات محبته توقيره وتعظيم قدره، وإظهار الخضوع والخشوع عند سماع ذكره، والشفقة على أمته وبر صالحهم، والنصح لهم والسعي في مصالحهم، فطوبى لمن عد من جملة محبيه، وامتثل أوامره واجتنب نواهيه، وبذل الجهد في موازرته ونصره، وتأدب بآدابه في عسره ويسره، وآثر ما شرعه على هواه، وأسخط العباد في رضى الله ورضاه، وثابر على العمل بسنته، وافق ما حض عليه مخالفاً لشهوته، وتفقه في دينه وشريعته، وتخلق بخلقه وتطبع بطبيعته، وأحب من أحبه، وعظم آل بيته وصحبه، وجانب كل أمر يخالف شرعه، وأعرض عمن تعرض لمحدثة فيه أو بدعة، ونهض للوقوف عند حدوده، ورفض أقوال شانئه وحسوده، وبذل النفس والمال دونه، ومال إلى الذين يحبهم ويحبونه، فأي كرم أجزل من كرمه، وأي نعم أكمل من نعمه، وأي أفضال أعم من أفضاله، وأي نوال أتم من نواله... وقد جاء بالرأفة والرحمة، وعلم الكتاب والحكمة، وبشر وأنذر، ونهى عن التعسير ويسر، وبالغ في النصيحة، وسلك المحجة الصحيحة، واجتهد على الهداية، وأنقذ من العماية، ودعا إلى الفلاح، وبين سبيل النجاح، وأوجب البقاء الدائم والنعيم السرمد... صلى الله عليه صلاة متصلة لا تنقطع ولا تنفد.

يا صاحب العز والقبول ومَن ... حير أهل العقول معجزه
يا من له مجلس حوى شرفاً ... بالقطر من سحبه يطرزه
ويظهر العلم في جوانبه ... والدُّر من فيه فيه يبرزه
حبك يا أشرف الخلائق في ... قلوب أهل الرشاد مركزه
أنت الذي تبطل الوعيد كما ... وعد المرجيّ نداك تنجزه
صلى عليك الإله ما خطرت ... ريح بغصن النقا تهزهزه

الفصل السابع والعشرون: في تعظيمه وتوقيره ﷺ

أوجب الله تعالى تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، وفرض إعانته ونصره وإجلاله وتعزيزه، ونهى المؤمنين عن التقدم بالقول بين يديه، وعن سبقه بالكلام وإساءة الأدب عليه، وأمرهم

أن يستمعوا لما يخرج من فيه، ولا يتعجلوا بقضاء أمر قبل قضائه فيه، ولا يقتدوا إلا بأمره، وحذرهم مخالفته في قُلْ الأمر وكُثره، وأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، وأن يحترموه ويعظموه في حياته وموته، ولا يدعوه كدعاء بعضهم بعضاً، ويتركوا من لا يرعى حقه مقتاً ورفضاً وبغضاً، وأن ينادوه بأشرف ما يحب من أسمائه، وأن أحداً منهم لا يجهر له بالقول في ندائه، وأثنى على الذين يغضون من أصواتهم عنده، ووعدهم بالمغفرة والأجر العظيم وسينجز لهم وعده.

عظم نبياً عالماً عاملاً ... رب العلا أوجب تعظيمه
والزم هديت الرشد توقيره ... مادمت في الدنيا وتكريمه
واحذر خلاف أمره واتبع ... تحليله طوعاً وتحريمه
واصبر لكَلْم الضد فيه عسى ... في الحشر أن تسمع تكليمه

فقد كان أصحابه الأبرار يعظمونه كثيراً، ولا يملأون عيونهم منه إجلالاً وتوقيراً، وإذا خرج لا يحدون إليه النظر، ولا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر، ويجلسون حوله كأنما الطير على رؤوسهم، ويسمحون في الذب عنه بأموالهم ونفوسهم، وإذا توضأ ابتدروا إلى وضوئه وأسرعوا إليه، وكانوا حرصاً على التبرك به يقتتلون عليه ويتلقون بصاقه عليه السلام، فيمسحون به الوجوه ويدلكون به الأجسام، واذا سقطت منه شعرة تزاحموا على التقطاها، ويبادرون إلى امتثال أوامره والتلفع برياطها ويقرعون بالأظافر بابه، ويؤخرون سؤاله عن الأمر حياء ومهابة، وإذا تكلم أنصتوا، وإذا تلى عليهم الذكر أختبتوا.

وإذا أرادهم لأمر بادروا ... لجواب ذاك الأمر لم يتثبتوا
وإذا نهاهم أعرضوا عما نهى ... ولغير ما يختار لم يتلفتوا
وإذا أشار بصمتهم لم ينطقوا ... وإذا دعا أقوالهم لم يسكتوا
أكرم بهم قوماً أقاموا دينه ... وبعزمهم شمل الأعادي شتتوا
فعليهم رضوان رب صانهم ... أن يعبدوا من دونه أو يقنتوا

ويجب أن يحترم بعد مماته، كما يحترم عليه الصلاة والسلام حال حياته، وذلك عند ذكره وحديثه وسنته، ولدى سماع اسمه الشريف وسيرته. فقد كان السلف يعظمون حديثه الحسن الصحيح، ويتلقون الصادر والوارد من سنته الشريفة بكل صدر فسيح، وينصتون إلى سماع أقواله، ويتأدبون عند ذكر أوصافه وأفعاله، فمنهم من يسكن من حركته، ومنهم من يشرئب لوقع بركته، ومنهم من يرتدي بالخضوع والخشوع.

ومنهم من تجري من عينيه شآبيب الدموع، ومنهم من يغيب ويتحير، ومنهم من يصفر لونه ويتغير، ومنهم من لا يكتب الحديث إلا وهو طاهر.

ومنهم من يكره أن يحدث وهو مضطجع أو قائم أو سائر، ومنهم من إذا طلب منه تسميع حديثه المفيد، بادر إلى الغسل والتطيب ولبس الجديد... فخذ في بره وتوقيره والاستجابة إليه، بما كنت تأخذ به نفسك لو كنت بين يديه، واجتهد في تبجيله وتعظيمه، وبالغ في إجلاله وتكريمه، واعرف حق قدره، وتأدب عند ذكره، واستشفع به في غفر ذنوبك وستر عيوبك إلى من لا يحول ولا يزول، وتمسك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ [النساء: ٦٤].

بك يارسول الله في غفران ما ... أسلفت في زمن الصبا أتشفع
كم من ذنوب قد تحمل كاهلي ... شُم الجبال لوقعها تتصدع
مالي سواك أحوم حول حماته ... يا من إليه ذو المساوي يهرع
أنت الذي ظُلَم الشدائد تنجلي ... بسراجه وبه العظائم تدفع
صلى عليك من اصطفاك من الورى ... مالاح في الآفاق نور يلمع

الفصل الثامن والعشرون: في محبة آله وأصحابه ﷺ

ممن تعظيم رسول الله ﷺ تعظيم آله الأطهار وعترته الأبرار، وذريته الأخيار، وسائر المهاجرين والأنصار، وإكرام أمهات المؤمنين أزواجه، والسلوك من بَر بِرهم في أوضح منهاجه، وتوقير من سلف من أصحابه، ومن لازمه منهم في ذهابه وإيابه، ومعرفة الواجب من حقوقهم، وشيم الوامض من بروقهم، والاقتداء بأفعالهم الصالحة، والاقتباس من أنوار معارفهم الواضحة، فعظم أهل بيته كما عظمتهم العلماء من الناس، وهم آل علي وجعفر وعقيل وآل عباس، ووال من والاهم، وعادى من أبغضهم وعاداهم، وتمسك بحبل حبهم فهو دليل على الإيمان، واجتهد في تقديم قريش وعاملهم بالإحسان... فمعرفة مكانة آله براءة من النار، والولاية لهم أمان من البوار، وحبهم جواز على الصراط، وباب إلى منزل الحظ والاغتباط. ومن أحب الحسن والحسين، وأمهما الزهراء ذات النورين، وأباهما المعروف بالبسالة والشهامة، كان مع المصطفى في درجته يوم القيامة.

لا تعد عن سنن الرسول محمد ... والزم محبة آله الأطهار
وقر وعظم قدر عترته ومن ... ينمى إلى الذرية الأخيار
واسلك سبيل كرامة الزوجات والأ ... ولاد والأعوان والأنصار
وارفع لأهل البيت رايات الولا ... تجد الوقاية من عذاب النار

وقد حض النبي ﷺ على حبهم، ونبه على رفعة شأنهم عند ربهم، فقال آتاه الله الفضيلة

وأناله غاية سؤله. «لا يدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله»[١]. وعظمهم إذ قرنهم بكتاب الله أين كانوا وحيث حلوا، في قوله: «إني تاركٌ فيكم ما إن استمسكتم به لن تضلوا». وقال في علي: «من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»[٢]. وقال في العباس: «من آذى عمي فقد آذاني»[٣]. وقال: «أنشدكم الله في أهل بيتي» ولعمري إنها إشارة لطيفة المعاني، ويكفيهم قول من خلق كل شيء فقدره تقديراً. ﴿ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

أهل الكساء الطاهرون ذوو التقى سفن النجاة وراحة الأرواح
فبهم توسل حين يعتكر الدجى تلق الرضى من فالق الإصباح

واستغفر لأصحاب رسول الله ﷺ على كل الأحوال، وأمسك عما شجر بينهم من الأقوال والأفعال، وأظهر سيرتهم الحميدة، وبين فضائلهم العديدة، واهتد بأعلام علومهم المرتفعة، وارفض من عاداهم من ضلال الشيعة والمبتدعة، وانظر إلى قول من خلق الإنسان من صلصال كالفخار: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وإلى قول من أبطل بآي كليمه ما جاء به السحرة: ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. وإلى قول من يرجع الأمر كله اليه: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وقد قال أشرف الخلق وسيد البشر: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»[٤]، وقال ﷺ: «ومثلهم كمثل الملح في الطعام»، وقال من حديث يتشنف به السمع وتتشرف به الصحيفة: «لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[٥].

تمسك بالأوامر من رسول كريم ناشر فضل الصحابه
ولازم حبهم واستوص خيراً بكل منهم وارفع جنابه
وأكثر من ثنائك كل وقت عليهم حائزاً أجر الإصابة

فمن أحسن الثناء عليهم برئ من النفاق، ومن أحبهم أحرز في ميدان الإيمان خصل السباق، ومن تبعهم أدرك ما يروق مما يروم، ومن اقتدى بهم اهتدى لأنهم كما قال عليه

---

(١) رواه الترمذي في السنن (٣٧٥٨). وأحمد في المسند (١: ٣٠٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٧٦٢٣). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (٧: ٢٣٦).
(٢) رواه النسائي في السنن (تهذيب خصائص علي: ٤٤). وابن كثير في البداية والنهاية (٧: ٣٤٧).
(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣: ١٢٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٩٠١).
(٤) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢: ٩٨). وأبو حنيفة في جامع المسانيد (١: ٢٢٢).
(٥) رواه ابن أبي عاصم في السنة (٢: ٤٧٨).

السلام: «أصحابي كالنجوم»، ومن قابلهم بالعز حظى في دار البقاء بالملابس الفاخرة، ومن حفظ رسول الله فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة. فضلهم الله بصحبة سيد المحسنين والمجملين، واختارهم على العالمين سوى الأنبياء المرسلين، وأمثل أصحابه البررة، أول العشرة.

أصحاب هادي الورى قوم لهم شرف ... بالقرب منهم خصوصاً أول العشَره

جاؤوه واستمعوا ما قال واتبعوا ... وبايعوا تحت أغصان من الشجره

يكفيهم أن خير الرسل أكرمهم ... وأنهم أفضل الأخيار والبرره

مني عليهم سلام طيب أرج ... ما أظهر البحر من قاموسه درره

الفصل التاسع والعشرون: في زيارة قبره وتعظيم مواطنه ﷺ

زيارة قبر النبي ﷺ سنة جميلة، أجمع المسلمون عليها ورغبوا فيما لديها من الفضيلة، فمن زاره بعد وفاته، فكأنما زاره في حال حياته، ومن زار قبره دخل في جواره المنيع، وكان في شفاعته يوم لا حميم يطاع ولا شفيع، ومن أقام بمدينته طيبة حظي بطيب ثراها، ومن مات بها ظفر بشفاعة من به كثر ضيفها وقراها، وأقصد مسجده الذي تشد الرحال إليه، وفز بزيارته والسلام عليه وعلى صاحبيه، ولا ترفع صوتك في مسجده، وكن ممن ظهر في الأدب حسن مقصده، واتبع السلف الصالح في تعظيمه، وبالغ كما بالغوا في إجلاله وتكريمه، وتبرك بروضته ومنبره ومواطن قدميه، وشرف نظرك بمكان جبريل ينزل فيه بالوحي عليه.

زر قبر من شمس الضحى عدله ... لما بدت ولى ظلام الشطط

وكيما ترى نفسك في روضة ... في أرضها زهر القرى يلتقط

واهرع إلى طيبة تلك التي ... جود أبي الطيب فيها انبسط

وانزل بها في مسجد منجد ... جبريل في أرجائه كم هبط

ياله مسجداً أسس على التقوى، ومعبداً أفلح من تمسك بسببه الأقوى، فيه روضة من رياض الجنة، ومنه انتشرت أعلام الكتاب والسنة، وفيه بقعة هي أفضل البقاع في الأرض. كيف وقد ضمت أعضاء الشفيع يوم العرض، وأكثر من الصلاة في نواحيه، حظي بالنعيم والأنعام، فصلاة فيه خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، لأنه مسجد وافر المآثر، زاهر المشاعر، صالح المناسك، واضح المسالك، عميم النعمة، عظيم الحرمة، شريف المواقف، مطهر للطائف والعاكف، مرفوع القواعد ثابت الأساس، جعله الله آمناً ومثابة للناس، نامي البركات وافي التعظيم. ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧] بنص العزيز الجبار. ومن حجه ثلاث حجج حرمه الله عن النار، واجتهد في

تقديس مشاهده، وإقامة شعائر مساجده، وتعهد معالمه ومعاهده، وتطهير مواقفه ومعابده، وتشريف أماكنه المكينة، وتمجيد مواطنه من مكة والمدينة.

حث المسير إلى نحو الحجاز ولا ... تقف وسلم على عرب بذي سلم
وانزل بمكة خير الأرض مقتفياً ... آثار أقدام سر الكون في القدم
واجنح لكعبتها والمروتين بها ... والعرف من عرفات موقف الأمم
والحجر والحجر السامي وخيف مني ... وكل موضع نسك حل في الحرم

أكرم بها مواطن عمرت بقاعها بالوحي والتنزيل، وزهرت ربوعها بترداد جبريل وميكائيل، وعلت بهبوط الملائكة وعروجها، وسمت بقمرها الطالع في أفلاك بروجها، وتنسمت بالتلاوة نفحات أسحارها، وتبسمت بالذكر ثغور زهور أشجارها، وأشرقت بالتكبير والتهليل سماؤها، وتأرجت بالتسبيح والتقديس أرجاؤها، وضم رغامها أعضاء سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله ورسوله ما انتشر، ويا لها مدارس آيات، ومراكز رايات ومساجد صلوات، ومنازل البركات الوافرة، ومحل المعجزات الباهرة، ومنشأ السراج المنير، ودار هجرة البشير النذير، ومهبط غيث الرسالة، وموطن موضح الدلالة، ومطلع فجر النبوة، ومعدن الفتوى والفتوة، ومناسك الحجاج والمعتمرين، ومحط رحال الآمرين والمؤتمرين... فجدير بها أن تحترم جدرانها، وتستلم أركانها، ويرفع مقامها، وتنشر أعلامها، ويحمى حماها، ويرعى ماؤها ومرعاها، ويستاف عرف روضتها، وتعفر الوجنات في جنات تربتها.

طوبى لمن يأتي لمكة لائذاً ... بمشاعر جلت عن الأوصاف
ويعظم البيت العتيق مجدداً ... فيه برود السعي والتطواف
ويسير كي يحظى بساكن طيبة ... ويواصل الأعناق بالإيجاف
ويقبل الأحجار من حجراتها ... حباً لمن يرتاح للأضياف
أعني رسول الله كشاف العنا ... ذا العدل والإحسان والإنصاف
صلى عليه اللّه ما سقت الثرى ... عين الغمام بدمعها الوكاف

الفصل الثلاثون: في الصلاة عليه ﷺ وفضيلتها

الصلاة على رسول الله ﷺ واجبة في الجملة، فليأت بها من آمن به واتخذه للهداية قبله، وليكثر في غالب أوقاته منها، وليواظب عليها ولا يغفل عنها، خصوصاً يوم الجمعة من كل أسبوع، فقد ورد الأمر به عن أوس في حديثه المرفوع، ومن العلماء من أوجبها في

الصلاة، ومنهم من استحبها فيها على ما رآه.

ومن سأل الله شيئاً فليبدأ بحمده والثناء عليه، ثم ليصل على من تحرك الساكن ونطق الصامت بين يديه، فهو أجدر بنجح المقال، وأحرى بالإجابة للسؤال، والدعاء بين الصلاتين عليه لا يرد، ولا يطرد عن باب القبول ولا يصد، وما من دعاء إلا وهو دون السماء محجوب، فإذا اقترن بالصلاة عليه صعد وسعد بالمطلوب.

ومواطن الصلاة عليه عند ذكره، وحين سماع اسمه وحديثه النامي من در بحره، وفي الأواخر من الكتب بعد الأوائل، ولدى الآذان ودخول المسجد وفي الرسائل، وفي تشهد الصلوات وعلى الجنائز، والمكثر من الصلاة عليه بالقِدح المعلى فائز. فرغم أنف امرئ لم يصل عليه إذا ذكر عنده، وحسب المصلى عليه أن الملائكة تستغفر له وتشكر قصده.

صلـوا علـى خيـر الـورى تفلحـوا	فـي هـذه الـدنيـا وفـي الآخـره
واستكثـروا منهـا تنـالـوا البقـا	فـي جنـة روضـاتهـا نـاضـره
رب العـلا صلـى عليـه كمـا	قـد جـاء فـي آيـاتـه البـاهـره
والأمـر معـروف بهـا ظـاهـر	والعـرف منهـا ريحـه عـاطـره

ومن صلى عليه صلاة صلى الله عليه عشر صلوات، وحط عنه عشر خطيئات، وصلت عليه الملائكة الكرام، ومن سلم عليه حياه السلام بالسلام، ومن أكثر من الصلاة عليه كفى وغفر ذنبه، ونجا من أهوال يوم الآزفة وكر عنه كربه، ومن صلى عليه في كتاب، فاز بجزيل الثواب، ولم تزل الملائكة يستغفرون له ما بقي اسمه في ذلك الكتاب، ومن سلم عليه عشراً فكأنما أعتق رقبه، والصلاة عليه تمحو ما أسلفه المصلي من الذنوب واكتسبه، والمكثر من الصلاة عليه أولى الناس به يوم القيامة.

وما من أحد يسلم عليه إلا رد الله روحه حتى يرد سلامه، ومن صلى عليه عند قبره الكريم سمعه، والسلام عليه يؤتى به إليه في كل ليلة جمعة، ولله ملائكة سياحون تبلغه السلام عن أمته. واليوم الأزهر والليلة الزهراء يؤديان إليه صلاة أهل ملته، فأكثر من الصلاة عليه فإنها مفروضة، صلى عليه حيثما كنت فإن صلاتك عليه معروضة، والبخيل من ذكر عنده فلم يصل عليه صلى الله عليه، وأنزله المنزل المقرب لديه.

إذا أنـت أكثـرت الصـلاة علـى الـذي	هـداك إلـى الإسـلام فـزت بقـربـه
وكنـت بـه أولـى مـن النـاس كلهـم	ونلـت ثـوابـاً وافـراً عنـد ربـه
فصـل عليـه ثـم ثـن بـآلـه	أولى الفضـل والتقـوى وثلث بصحبه
وسلـم عليهـم فـالسـلام مـن الفتـى	يـؤدى إلـى غفـران سـائـر ذنبـه

اللهم اجعل أفضل صلواتك، وأكمل تحياتك وبركاتك، على محمد أمينك المأمون، وسادن علمك المخزون، وشهيدك يوم المحشر، ورسولك إلى الأسود والأحمر، الصادق فيما نطق، والخاتم لما سبق، والهادي من الأضاليل، والدامغ رؤوس الأباطيل، الذي كان حافظاً لعهودك، وواقفاً عند حدودك، قاضياً بأحكام وحيك، ماضياً على نفاذ أمرك ونهيك، حتى أورى القبس، ومحا آية الغلس، وأوضح الأعلام، ومهد قواعد الإسلام.

اللهم آته الوسيلة والفضيلة، وأنله الدرجة العالية الجليلة، وابعثه المقام المحمود، وأنجز في القيامة له الموعود، وأكرم مثواه ونزله، وحقق من فضلك العظيم أمله، وصرفه في المعادن من عدنك، وضاعف له الخير بمنك ويمنك، وتقبل شفاعته الكبرى، وبلغه بنظرك إليه نهاية البشرى، وفجر له عيون عنايتك تفجيراً، واجعل له من لدنك سلطاناً نصيراً.

اللهم صل على سيدنا محمد المختار، وعلى أهل بيته الأطهار، وعلى آله وأولاده وأصحابه، وعلى أزواجه وخاصته وأحبابه، وعلى الأنصار والأعوان، وعلى التابعين لهم بإحسان. . . صلاة مقرونة بالتسليم والتفضيل، مشتملة على التكريم والتشريف والتعظيم والتبجيل، إلى يوم الدين.

يا خاتم الرسل ويا من له ... ظل على من يرتجيه ظليل
يا معدن الجود وبحر الندى ... يا صاحب القدر النبيه النبيل
يا من إذا ما أمه قاصد ... يلقاه بالوجه الجليّ الجليل
كن لي شفيعاً في ذنوبي فقد ... ألقيت منها تحت حمل ثقيل
وانظر لحالي واسقني شربة ... من حوضك الحاليَ تروي الغليل
إني تطفلت هنا مادحاً ... وصف معاليك الأثير الأثيل
إذ قلت في مدحك ما قلته ... وهو قليل من كثير جزيل
فاقبله مني وأنلني به ... جائزة حائزة للجميل
فضلك لا يحصره واصف ... إن الدراري حصرها مستحيل
صلى عليك الله رب العلا ... والعرش ما هب النسيم العليل
والحمد لله على فضله ... وحسبنا الله ونعم الوكيل

ومنهم الإمام العلامة الشهاب أحمد المَقَّرِي[1]؛ صاحب كتاب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ هـ

ومن جواهره رحمه الله تعالى

[فتح المتعال]

كتابه فتح المتعال، في مدح النعال، الشريفة النبوية وقد اختصرته بمختصر جمعت فيه فوائده، وحذفت زوائده. وهو هذا:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد فيقول الفقير يوسف بن إسماعيل النبهاني عفا الله عنه: قد اطلعت على عدة نسخ من كتاب فتح «المتعال في مدح النعال النبوية» تأليف الإمام العلامة الشيخ أحمد المقري، صاحب كتاب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ هجرية، فوجدت في كل نسخة منها زيادة على الأخرى، لأنه كان كلما ظهر له زيادات يزيدها، فألحقت زوائد الفوائد على هامش نسختي، بنية أن أطبعها وأعمم نفعها، فلم يتيسر ذلك، فاختصرته بهذا المختصر الذي سميته «بلوغ الآمال من فتح المتعال».

وقد أثبت فيه مالا بد منه ولا غنى عنه، فجاء مختصراً نافعاً جامعاً لكل المقصود من ذلك الكتاب وعلمه، مع كونه في نحو خمس حجمه، لأني حذفت منه كل الفوائد الاستطرادية، التي ذكرها لمناسبة أو غير مناسبة من معان شتى لادخل لها في المقصود بالكلية وهي كثيرة جداً تزيد على المعاني المقصودة من تأليف الكتاب.

كما حذفت معظم الأشعار التي ذكرها في مدح المثال الشريف، ولم أثبت منها إلا ما

---

(١) هو أحمد بن أحمد بن يحيى أبو العباس المقَّري التلمساني: المؤرخ في الأديب الحافظ صاحب «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب» أربعة مجلدات ولد ونشأ في تلمسان سنة ٩٢٢ هـ، وتوفي بمصر ١٠٤١ هـ.

وقع عليه اختياري مما فاق وراق، وتزينت بمحاسنه الأوراق، وقد كنت منذ سنين أفردت من أمثلة النعال الستة التي ذكرها في الأصل صورة المثال الأول، الذي عليه في الصحة والاعتماد المعول، في ورقة مخصوصة وذكرت حوله فيها فوائد نافعة تتعلق به، وطبعت منه أربعين ألف نسخة، ونشرتها في البلاد الإسلامية. فمن شاءه فليتطلبه، ورتبت هذا المختصر على ستة فصول.

الفصل الأول: في معنى النعل وما يناسبها، قال في القاموس: النعل ماوقيت به القدم من الأرض، وجمعها نعال. وفي المصباح وغيره: النعل مؤنثة وتطلق على التاسومة. والقبال السير الذي يعقد به الشِّسع يكون بين الأصابع الوسطى والتي تليها. وقال جماعة: القبال: السير الذي يكون بين الإصبعين.

وقال في القاموس: قبال النعل زمام بين الإصبع الوسطى والتي تليها. والشسع كما قال الحافظ أبو اليمن بن عساكر: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخله المنتعل بين إصبعيه، ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام، وقال في القاموس: هو القبال. والشِّراك: السير الرقيق الذي يكون في النعل على ظهر القدم.

روى ابن عساكر بسنده لعبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه، قال: كنت مع النبي ﷺ في الطواف، فانقطع شسعه، فقلت: يارسول الله، ناولني أصلحه. فقال: هذه أثرة ولا أحب الأثرة. ومعنى الأثرة الاستئثار بالشيء، وهو الانفراد به فكأنه ﷺ كره أن ينفرد أحد بإصلاح نعله، فيكون بمثابة الخادم، ويكون له ﷺ ترفع المخدوم على خادمه، فكره ذلك لتواضعه ﷺ وعدم ترفعه على من يصحبه.

ويؤيده ما روي أنه ﷺ أراد أن يمتهن نفسه في عمل شيء، فقالوا نحن نكفيك يارسول الله. فقال: «**قد علمت أنكم تكفونني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه**»، قال ابن عساكر: فالله أعلم أراد ذلك ﷺ أم لا؟ وإنما شرحنا على مقتضى اللغة.

فوائد الأولى: كان لكل واحدة من نعلي رسول الله ﷺ قبالان، إذ القبال الواحد للنعل إنما حدث من أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه.

الفائدة الثانية: أفاد بعض حفاظ الأئمة أنه ﷺ كان يضع أحد الزمامين بين إبهام رجله والتي تليها، والآخر بين الوسطى والتي تليها، ويجمعهما أي الزمامين إلى السير الذي بظهر قدمه، وهو الشِرَاك الذي على وجهها، وكان مُثنى، كما في عدة أحاديث.

الفائدة الثالثة: استشكل بعضهم تفسير القبال بما ذكر، وقال: إن فيه تدافعاً مع غيره. وأجاب المولى عصام الدين رحمه الله بأن القبال هو زمام النعل، سواء جعل بين الإصبع الوسطى والتي تليها، أو بين اصبعين آخرين.

الفائدة الرابعة: قال الإمام ابن العربي رحمه الله: النعل لباس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وإنما اتخذ الناس غيره لما في أرضهم من الطين، أو قال: المطر.

الفصل الثاني: روى الإمام المقري في الأصل، بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ أنه قال: كانت نعل رسول الله ﷺ لها قبالان. قال ابن عساكر بعد أن ساق سنده إلى أنس بذلك: هذا حديث صحيح أخرجه البخاري في صحيحه.

وروى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان لنعل رسول الله ﷺ قبالان مُثنى شراكهما. قال الزين العراقي: إن هذا الحديث إسناده صحيح.

ورواه البخاري في صحيحه في كتاب اللباس عن عيسى بن طهمان أخرج إلينا أنس نعلين جرداوين لهما قبالان، فحدثني ثابت البُناني بعدُ عن أنس أنهما نعلا النبي ﷺ قوله جرداوين، أي لا شعر عليهما. قاله في النهاية وفسره في شرح السنة بالخلقين.

وروى البخاري عن عبيد بن جريج أنه قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما يا أبا عبد الرحمن، رأيتك تصنع أربعاً لم أر أحداً من أصحابك يصنعها. قال: وما هي ياابن جريج؟ قال: رأيتك لا تمس من الأركان إلا اليمانيين، ورأيتك تلبس النعال السبتية، ورأيتك تصبغ بالصفرة، ورأيتك إذا كنت بمكة أهل الناس إذا رأوا الهلال ولم تهل أنت، حتى كان يوم التروية. قال عبد الله: أما الأركان، فإني لم أر رسول الله ﷺيمس إلا اليمانيين.

وأما النعال السبتية، فإني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها. وأما الصفرة، فإني رأيت رسول الله ﷺ يصبغ بها، فأنا أحب أن أصبغ بها وأما الإهلال، فإني لم أر رسول الله ﷺ يهل حتى تنبعث به راحلته. قوله السبتية نسبة إلى سبت، بمعنى جلد البقر المدبوغ، وتجلب من اليمن.

وقيل: السبتية التي لا شعر عليها، سميت سبتية لأن شعرها سبت عنها، أي حلق وأزيل. وأصل السَّبت القطع. وأخرج الترمذي عن عمرو بن حريث رضي الله عنه أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يصلي في نعلين مخصوفتين قوله مخصوفتين، أي مخروزتين من الخصف، وهو ضم شيء إلى شيء، وجمعه إليه.

وفي القاموس خصف النعل خرزها. قال العلامة ابن حجر: قد صح أنه ﷺ كان

يخصف نعله أي يضع طاقاً فوق طاق، والمراد من هذا الحديث أنه رأى النبي ﷺ يصلي بالنعلين وهما طاهرتان. وثبت أن عائشة رضي الله عنها، قد سئلت عما كان رسول الله ﷺ يصنع في بيته، فقالت: كان بشراً من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه. وفي رواية لأحمد وابن حبان عنها: يخيط ثوبه ويخصف نعله.

وفي رواية لابن سعد عنها: يرفع ثوبه ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم. وفي رواية يعمل عمل البيت، وأكثر ما يعمل الخياطة.

وفيه الترغيب في التواضع، وترك التكبر، وخدمة الرجل نفسه، وأهله. وقد نظم معنى هذا الحديث الحافظ العراقي في ألفية السيرة بقوله:

يخصف نعله يخيط ثوبه ... يحلب شاته ولن يعيبه
يخدم في مهنة أهله كما ... يقطع بالسكين لحماً قدما

ثم إن ظاهر هذا الحديث كحديث فَلْت أم حرام رأسه ﷺ المروي في الصحيح أنه من القمل، لكن الذي ذكره ابن سبع، وتبعه بعض من شرح الشفاء أنه لم يكن فيه ﷺ قمل لأنه نور، ولأن أصل القمل من العفونة، ولا عفونة فيه، ولأن أكثره من العرق، وعرقه ﷺ طيب بلا مرية.

وقال بعض الأئمة بعد ذكره: أنه ﷺ لا يخرج منه إلا طيب. ولذلك قيل إنه لم يتسخ له ثوب، ولا يقمل جسده الشريف. ونقل جماعة أنه لا ينزل عليه ذباب، ولا يمص دمه البعوض ﷺ ونقل بعضهم أنه ﷺ لم يكن الذباب يعلو ثوبه ولا القمل يؤذي بدنه، تعظيماً له وتكريماً.

روى ابن عساكر، بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ أراد أن يتنعل، فقال له رجل: دعني أنعلك يارسول الله. فتركه، فلما فرغ قال: اللهم إنه أراد رضاي فارض عنه، وذكر في الأصل أحاديث تتعلق بالنهي عن المشي في نعل واحدة، ثم قال قال صاحب سبل الهدى والرشاد وهو الشيخ محمد بن يوسف الدمشقي الصالحي، وكتابه كما في كشف الظنون أحسن كتب المتأخرين وأبسطها في السيرة النبوية، وذكر أنه منتخب من أكثر من ثلاثمائة كتاب، وأتى من الفوائد بالعجب العجاب، وقد زادت أبوابه على سبعمائة باب ما نصه: ورد مشيه ﷺ. في نعل واحدة، وقد ورد أيضاً النهي عن المشي في نعل واحدة، قال ابن عبد البر في التمهيد: ربما انقطع شسع رسول الله ﷺ فيمشي في النعل الواحدة حتى يصلحها.

وقد روى الطبراني وحسن الحافظ الهيثمي إسناده عن علي رضي الله عنه قال: كان

رسول الله ﷺ إذا انقطع شسع نعله يمشي في نعل واحدة والأخرى في يده حتى يجد شعساً: والله أعلم.

وروى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺليحب التيمن في طهوره إذا تطهر، وفي ترجله إذا ترجل، وفي انتعاله إذا انتعل.

وأخرجه الباري ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها بألفاظ متقاربة المعنى قالت: كان رسول الله ﷺ يعجبه التيمن في تنعله، وترجله، وقصد اليمين، ولكن القرينة هنا دلت على أن المراد المعنى الأول.

وفي رواية الترمذي زيادة لفظ: ما استطاع وكذا البخاري: في الصلاة، أي مدة دوام قدرته ﷺ على تقديم اليمين احترازاً عما إذا احتيج لليسار لعارض باليمين، فإنه لا كراهة في تقديمها حينئذٍ، ولو فيما هو من باب التكريم قاله العلامة ابن حجر، وسبقه إليه الحافظ ابن حجر في فتح الباري، إذ قال فيه بالمحافظة على ذلك ما لم يمنع مانع،

وقولها رضي الله عنها: كان يعجبه التيمن. أي في الأمور الشريفة. وقال في فتح الباري في حكمة كونه ﷺ يحب التيمن: قيل لأنه كان يحب الفأل الحسن إذ أصحاب اليمين هم أهل الجنة، وقولها في تنعله، أي لبسه نعله وترجله أي ترجيل شعرهه، وهو تسريحه ودهنه، قال له في فتح الباري.

وفي النهاية لابن الأثير الترجل والترجيل تسريح الشعر وتنظيفه وتحسينه. وذكر العيني في شرحه أن المراد بالترجيل التسريح، وهو أعم من أن يكون في الرأس، أو في اللحية. قال: واللفظ لا يدل على الدهن.

وروى الترمذي عن حميد بن عبد الرحمٰن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن النبي ﷺ كان يترجل غِباً أي كانت عادته أنه لا يبالغ في الترجل، بل يفعله يوماً ويتركه يوماً. لا يقال هذا الحديث فيه علة لأن فيه مجهولاً في إسناده لأنّا نقول: قال العصام مجيباً عن هذا: إنه علم الرجل بكونه من أصحاب رسول الله ﷺ يعني: وكلهم عدول.

وصرح الحافظ أبو زرعة بأنه ﷺ ما كان يكل بتسريح لحيته إلى أحد إنما كان يتعاطاه بنفسه بخلاف الرأس، فإنه تعسر مباشرة تسريحه لا سيما في مؤخره، فلذا كان يستعين فيه بزوجاته ﷺ.

وروى الترمذي عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته. قال الزين العراقي في شرح الترمذي: إن إسناد هذا الحديث ضعيف، لكن له شواهد.

منها في الخلعيات: كان رسول الله ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته بالماء.

ومنها ما في سنن البيهقي عن أبي سعيد: كان ﷺ لا يفارق مصلاه سواكه ومشطه، وكان يكثر تسريح لحيته. وإسناده ضعيف.

ثم إن إكثاره ذلك ﷺ إنما كان في وقت دون وقت وفي زمن دون آخر بدليل نهيه عن الأدهان إلا غِباً في عدة أحاديث.

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: يدخل في قولها في شأنه كله لبس: الثوب، والسراويل، والخف، ودخول المسجد، والصلاة على ميمنة الإمام وميمنة المسجد، والأكل، والشرب، والاكتحال، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، ونتف الإبط، وحلق الرأس، والخروج من الخلاء، ونحو ذلك إلا ما ص بدليل كدخول الخلاء والخروج من المسجد، والامتخاط، وخلع الثوب، والسراويل، وغير ذلك، وإنما استحب فيها التياسر لأنها من باب الإزلة.

وقال الإمام النووي رحمه الله: إن القاعدة أن ما كان من باب التركيم والتزيين فباليمين، وإلا فباليسار. لا ياقل حلق الرأس في باب الإزالة فيبدأ فيه باليسار لأنّا نقول: إنه من باب العبادة والتزين، وقد ثبت الابتداء فيه بالأيمن.

فوائد الأولى: صرح بعض الحفاظ بأن نعله ﷺ كانت صفراء.

الفائدة الثانية: في رواية أبي الشيخ عن أبي ذر رضي الله عنه: أن نعل رسول الله ﷺ كانت من جلود البقر، وفي لفظ أبي ذر: رأيت رسول الله ﷺ في نعلين مخصوفتين من جلود البقر،

وروى الحارث بن أبي أسامة عن حميد قال: حدثني من سمع الأعرابي يقول: رأيت رسول الله ﷺ وعليه نعلان من بقر.

الفائدة الثالثة: قال الحافظ العراقي: كانت نعل رسول الله ﷺ مُخَصَّرة مُلَسَّنة، فقد روى أبو الشيخ بإسناده إلى يزيد بن زياد قال: رأيت نعل المصطفى ﷺ ملسنة مخصرة.

وروى ابن سعد في الطبقات عن هشام بن عروة قال: رأيت نعل رسول الله ﷺ مخصرة معقبة ملسنة لها قِبالان. والمخصرة التي خصرا والتي قطع خصراها حتى صارا مستدقين كما في النهاية. والملسن من النعال كما في الصحاح وغيره الذي فيه طول ولطافة على هيئة اللسان. قال في النهاية وقيل: هي التي جعل لها لسان، ولسانها الهيئة الناتئة في مقدمها.

وروى ابن سعد عن جابر رضي الله عنه أنه قال: إن محمد بن على أخرج لي نعل رسول الله ﷺ فأرانيها معقبة مثل الحضرمية لها قبالان، وأثبت هشام كونها مُعقَّبة أي لها عقب من سيور يضم به الرجل كما يفعل في كثير من النعال أو يكون لها عقب غير خارج.

الفائدة الرابعة: كان المصطفى ﷺ يلبس النعل وربما مشى حافياً لاسيما إلى العبادات تواضعاً وطلباً لمزيد الأجر كما أشار إلى ذلك الحافظ العراقي رحمه الله في ألفية السيرة بقوله:

يمشـــي مـــع المسكيـــن والأرملـــة ... فـــي حـــاجـــة مـــن غيـــر مـــا أَنَفَـــة
يـــردف خلفـــه علـــى الحمـــار ... علـــى إكـــاف غيـــر ذي استكبـــار
يمشـــي بـــلا نعـــل ولا خـــف إلـــى ... عيـــادة المـــريـــض حـــولـــه المـــلا

وكان ﷺ يركب فرساً عُرْياً تارة وغير عُرْى أخرى، وبعيراً، وبغلة شهباء، وحماراً بإكاف، أو غيره. ومرة راجلاً، ومرة منتعلاً، ومرة حافياً بلا رداء، ولا عمامة ولا قلنسُوة.

الفائدة الخامسة: ثبت أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان صاحب النعلين، والوساد، والسواك والطهور، كما في الصحيح: كان يلي ذلك من رسول الله ﷺ وكان يلبسه ﷺ نعليه إذا قام ويجعلهما في ذراعيه إذا جلس حتى يقوم ﷺ.

وروى محمد بن يحيى، عن القاسم، قال: كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقوم إذا جلس رسول الله ﷺ ينزع نعليه من رجليه، ويدخلهما في ذراعيه فإذا قام ألبسه إياهما، فيمشي بالعصا أمامه، حتى يدخله الحجرة.

وقد ذكر جماعة منهم ابن سعد أن أنس بن مالك رضي الله عنه كان صاحب نعل رسول الله ﷺ وإداوته.

الفائدة السادسة: روى أحمد في الزهد، وأبو القاسم بن عساكر، عن زياد بن سعيد قال: كان النبي ﷺ يكره أن يطلع من نعليه شيء عن قدميه.

الفائدة السابعة: في خبر ضعيف أنه ﷺ قال: أمرت بالنعلين والخاتم.

الفائدة الثامنة: ذكر في الوفا بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رفع رسول الله ﷺ. قط غذاء العشاء، ولا عشاء لغداء، ولا اتخذ من شيء زوجين، ولا قميصين، ولا رداءين، ولا إزارين، ولا زوجين من النعال، وصرح بعض الأئمة بضعف هذا الحديث، وجزم بعض الحفاظ بأنه ﷺ كانت له نعل من طاق واحدة ونعل من أكثر، وكان له ﷺ عدة خفاف. وقد روى غير واحد أنه ﷺ كان له ثوبان لجمعته خاصة، ثم يطويان إلى الجمعة الأخرى.

الفائدة التاسعة: روى الطبراني عن ضباعة بنت الزبير رضي الله عنها قالت: كان لرسول الله ﷺ نعل يقال لها مخصرة.

الفائدة العاشرة: روى الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: حمل رسول الله ﷺ نعله بالسبابة من يده اليسرى.

الفائدة الحادية عشرة: من أسمائه ﷺ صاحب النعلين، وقد وصف بذلك في الإنجيل، ففيه أنه صاحب المدرعة والعمامة وهي التاج والهراوة وهي القضيب وقيل غيره وإنه صاحب النعلين ﷺ.

الفائدة الثانية عشرة: قد روى ابن سعد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ ينتعل قائماً وقاعداً ولعله محمول على بيان الجواز، فقد روى أبو داود عن جابر رضي الله عنه قال: نهى رسول الله ﷺ أن ينتعل الرجل قائماً.

وأما الخف: فقد ثبت في الصحيح من حديث المغيرة رضي الله عنه ورواه جمع من الصحابة أنه ﷺ مسح على خفيه، روى الترمذي عن الشعبي قال: قال المغيرة بن شعبة أهدى دحية للنبي ﷺ خفين فلبسهما.

وفي رواية للطبراني قال دحية: أهديت لرسول الله ﷺ جبة صوف وخفين، فلبسهما حتى تخرقا، ولم يسأل أذكِيّان هما أم لا.

وروى جماعة، منهم الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، وحسنه، عن عبد الله بن بريدة بن الخصيب، عن أبيه رضي الله عنه أن النجاشي أهدى لرسول الله ﷺ خفين أسودين سادجين، فلبسهما ومسح عليهما.

قوله سادجين جوز في معناه العصام وابن حجر ثلاثة أوجه: الأول غير منقوشين، الثاني مجردان عن الشعر، الثالث أن لونهما غير ممتزج بلون آخر. وقال الحافظ أبو زرعة: لم يخالط سوادهما لون آخر.

وقد روى المسح على الخفين ثمانون صحابياً. كما قيل وأحاديثه متواترة عند جمع، ومن ثم قال بعض الحنفية: أخشى أن يكون إنكاره كفراً.

وقوله: «أذكيان هما» قال العلامة ابن حجر أي تذكية شرعية، ففي الحديث دليل واضح على طهارة الأشياء المجهولة الأصل، ولو نحو شعر شك هل ذبح أصله أم لا، وهو معتمد مذهبنا أي الشافعية وأخرج الطبراني في الكبير، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ بخفين يلبسهما، فلبس أحدهما، ثم جاء غراب فاحتمل الآخر، فرمى به

فخرجت منه حية، فقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يلبس خفيه حتى ينفضهما»[١]. وهذا من علامات نبوته ﷺ وأخرج في الأوسط، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد الحاجة أبعد المشي، فانطلق ذات يوم لحاجة، ثم توضأ ولبس أحد خفيه، فجاء طائر أخذ فأخذ الخف الآخر، فارتفع به، ثم ألقاه، فخرج منه أسود سالخ، فقال رسول الله ﷺ: «هذه كرامة أكرمني الله بها، اللهم إني أعوذ بك من شر من يمشي على بطنه، ومن شر من يمشي على رجلين، ومن شر من يمشي على أربع»[٢].

فائدة: ذكر بعض أهل السير أنه ﷺ كان له عدة خفاف، منها أربعة أزواج أصابها من خيبر ﷺ. وفي كتاب «النور الزاهر الساطع في سيرة ذي البرهان القاطع» لابن فهد المكي الهاشمي رحمه الله ما نصه: وكان له صلوات الله عليه وسلامه نعلان وثمانية أزواج خفاف.

الفصل الثالث: قال الإمام المقري في الأصل: اعلم أرشدني الله وإياك إلى سواء السبيل، وأوردنا مع الرعيل الأول مناهل الرحيق والسلسبيل، أن جماعة من الأئمة المغاربة المقتدى بهم تعرضوا للمثال الطاهر، وحسنه الباهر، وأقروا بمشاهدته عين الناظر، منهم الإمام أبو بكر بن العربي، والحافظ أبو الربيع بن سالم الكلاعي، والكاتب الحافظ أبو عبد الله بن الآبار والرحالة أبو عبد الله بن رشيد الفهري، والراوية أبو عبد الله محمد بن جابر الوادياشي، وخطيب الخطباءأبو عبد الله بن مرزوق، والمفتي الإمام أبو عبد الله محمد الرصاع التونسي، والولي الصالح الشهير أبو إسحاق إبراهيم بن الحاج السلمي الأندلسي المربي، وعنه أخذ ابن عساكر المثال، وغير هؤلاء ممن يطول تعدادهم، كأبي الحكم مالك بن المرحل، وابن أبي الخصال... وهم القدرة، ولنا بهم أسوة، وتلاهم من أهل الشرق جماعة كالحافظ ابن عساكر، وتلميذه البدر الفارقي، والحافظ العراقي، وابنه أبي الولي العراقي، والشيخ القسطلاني في مواهبه اللدنية وغيرهم.

قال الإمام المقري: وقد بلغني عن بعض الأغمار ممن هو كمثل الحمار، أنه أنكر تصويري الأمثلة الشريفة، ذات الظلال الوريفة، قائلاً كيف: تنهون عن الصور وأنتم تفعلونها.

فقلت لمن بلغني عنه ذلك: قل له وأنتم لم تتكلمون في الأمور التي تجهلونها وليس هذا من تلك الصور، لا في ورد ولا صدر، ثم قال: فلنشرع فيما أردته، سائلاً من الله العون على ما أوردته، فأقول مستمداً من واهب العقول: إني ذاكر هنا مثالين عليهما المعول، ثم أعززهما

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨: ١٦٢). والهيثمي في مجمع الزوائد (٥: ١٤٠). والمتقي الهندي في كنز العمال (٤١٦١٢).

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (١: ٢٠٣). وابن كثير في البداية والنهاية (٦: ١٧٣).

بأربعة لا تقوى قوة الثاني ولا الأول، منشداً من جحد ما يتعدد من الأمثلة وتنوع.

أعـد ذكـر نَعمـان لنـا إن ذكـره　　　هـو المسـك مـا كـررتـه يتضـوع

ومذكر بقول الآخر كل لبيب

أيـا سـاكنـي أكنـاف طيبـة كلكـم　　　إلـى القلـب مـن أجـل الحبيـب حبيـب

ولإخفاء أن مثال النعل الشريف تصدر بإضافته إلى ذي الصدر، وخص لذلك برفعة الشأن والقدر، فعلا علي البدر، وذكرتنا منه الحلا، قدم النبوة والرسالة والعلا.

يـا مـن يـذكـرنـي حـديـث أحبـة　　　طـاب الـزمـان بـذكـرهـم ويطيـب

أعـد الحـديـث علـي مـن جنبـاتـه　　　إن الحـديـث عـن الحبيـب حبيـب

وما المثال المكرم، إلا وسيلة للقدم، التي خص الله بأكمل الأوصاف صاحبها ﷺ.

ومـا حـب النعـال شغفـن قلبـي　　　ولكـن حـب مـن لبـس النعـالا

فأكرم بها من نعال، زكت بأطيب الفعال، وشرفت بالمختار وسمت، واتسمت من الفضائل بما اتسمت، وحاكاها المثال بمحاسنه التي ارتسمت، فأنشدته بلسان الحال، مخاطباً ذلك المثال:

حاكاك بدر الدجى لم يدر من حاكى　　　شتـان مـا بيـن محكـي ومـن حـاكـى

ولو لم يحصل للمثال المعظم من الشرف، إلا محاكاة نعل من ليس لمجده حد ولا طرف، سيد ولد آدم، عمدة من تأخر أو تقدم ﷺ وشرف وكرم، لكان ما حصل له من ذلك كافياً، وبالمعنى وافياً، فكيف وقد وغدا للأوصاب شافياً، وللاسقام نافياً. فخواصه ظاهرة، ومنافعه باهرة، وفضله بين، ووضعه على المحاجر متعين.

ويرحم الله الشيخ العلامة الناصح الصالح الشيخ أبا حفص عمر الفاكهاني الإسكندري المالكي إذ قال، حين أبصر المثال، الذي جر على المجرة ذيلاً، متمثلاً بقول مجنون ليلى:

ولـو قيـل للمجنـون ليلـى ووصلهـا　　　تـريـد أم الـدنيـا ومـا فـي زوايـاهـا

لقـال غبـار مـن تـراب نعـالهـا　　　أحـب إلـى نفسـي وأشفـى لبلـواهـا

المثال الأول: وهو معتمد ابن العربي، وابن عساكر، وابن مرزوق، والفارقي، والسيوطي والسخاوي، والتتائي، وغير واحد من الشيوخ. حدث به الشيخ أبو الفضل بن البراء التونسي، عن شيخه ابن الخبة عن الفقيه أبي زيد عبد الرحمن بن العربي، عن والده الحافظ الشهير القاضي أبي بكر بن العربي الإشبيلي الأندلسي المعافري، دفين فاس المحروسة، وهو شيخ عياض وغيره من الأعلام. قال: حدثنا الشيخ الفقيه الحافظ، أبو

القاسم مكي بن عبد السلام بن الحسن بن الرميلي لفظاً، قال: حدثنا الشيخ أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر بن اسحاق البخاري الحافظ بمصر لفظاً.

قال: قال لي محمد بن الحسين الفارسي: حذيت هذه النعل على مقدار نعل كانت عند محمد بن جعفر التميمي، وذكر أنه حذاها على نعل كانت لأبي سعيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بمكة، قال: حدثنا أبو محمد إبراهيم بن سهل الشيبي.

قال: حدثنا أبو يحيى بن أبي مسرة، قال: حدثنا ابن أبي أويس إسماعيل بن عبد الله، عن أبيه عبد الله بن أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، قال: كانت نعل رسول الله ﷺ التي حذيت هذه النعل على مثالها عند إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة المخزومي.

قال إسماعيل بن أبي أويس: فأمر أبي حذاء فخذاها على مثال نعل رسول الله ﷺ ولها قبالان في موضع النقطتين. قال إسماعيل: وإنما صارت نعل رسول الله ﷺ إلى إسماعيل بن إبراهيم. فيما بلغنا ممن نثق به من أجل أنها كانت عند عائشة زوج النبي ﷺ ثم صارت من قبل عائشة إلى أختها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه وكانت أم كلثوم تحت طلحة بن عبيد الله، فلما قتل يوم الجمل خلفه على أم كلثوم عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة المخزومي، وهو جد إسماعيل بن إبراهيم الذي كانت عنده النعل، ومن قبل ذلك صارت إليه نعل رسول الله ﷺ.

وحدث الإمام الحافظ بن عساكر في تأليفه بما يتصل بهذا السند، عن الإمام الصالح أبي إسحاق إبراهيم بن الحاج المربي الأندلسي رحمه الله بما نصه: وحدثنا إبراهيم بن محمد بن إبراهيم المربي، من لفظه بحرم الله.

قال: حدثني أبو القاسم القاسم بن محمد قراءة عليه غير مرة، وحذوت هذا المثال على مقدار نعل حذاه لي بيده على مقدار نعل كانت عنده وناولنيها، قال: أنبأنا أبو جعفر أحمد بن علي الإدريسي، قراءة مني عليه غير مرة، وحذوت هذه النعل على مقدار نعل كانت عنده وناولنيها.

قال: أنبأنا أبو القاسم خلف بن بشكوال، قراءة عليه، وحذوت هذا المثال على مثال نعل كانت عنده، ومنها نقلت هذا وناولنيها. قال: أنبأنا الإمام أبو بكر بن العربي، وحذوته على صفة نعل كانت عنده وناولنيها، أنبأنا الحافظ أبو القاسم مكي ابن عبد السلام بن الحسن الرميلي لفظاً، وحذوت على مقدار نعل كانت عنده.

أنبأنا الشيخ أبو زكريا عبد الرحيم بن أحمد بن نصر بن اسحاق البخاري الحافظ بمصر، وحذوت على مثاله قال: قال لي محمد بن الحسين الفارسي: حذوت هذا النعل على مقدار نعل كانت عند محمد بن جعفر التميمي، وذكر، أنه حذا على نعل كانت لأبي سعيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بمكة، أنبأنا أبو محمد إبراهيم بن سهل.

حدثنا أبو يحيى بن أبي مسرة، أنبأنا ابن أبي أويس إسماعيل بن عبد الله عن أبيه أبي أويس عبد الله بن عبد الله بن أويس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، قال: كانت نعل رسول الله ﷺ التي حذيت هذه النعل عليها عند إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة المخزومي.

قال إسماعيل بن أبي أويس: فأمر أبي أبو أويس حذاء، فحذا على مثال نعل رسول الله ﷺ، ولها قبالان في موضع النقطتين. ثم حكى ابن عساكر ما قدمناه من قول إسماعيل، وإنما صارت نعل رسول الله ﷺ الخ. وأخرج الحافظ ابن عساكر عن أبي إسحاق بن الحاج الأندلسي السابق فقال حدثنا الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم السلمي من لفظه رحمه الله ونقلت من أصله أو من فرع عورض بأصله وبخطه.

ومثاله قال: أخبرني أبو عبد الله محمد بن عبد الله السبتي وغيره وبقراءتي عليه، عن أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي، ونقلته من فرع وتمثال نقل من أصل التجيبي وتمثاله، قال: أخرج إلينا الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد تمثالاً بالإسكندرية، وقال: أخرج إلي الشيخ الأمين أبو محمد هبة الله ابن أحمد بن محمد الأكفاني بدمشق تمثالاً، وقال: أخرج إلي أبو محمد عبد العزيز بن أحمد الكتاني تمثالاً.

وقال: أخرج إلي أبو طالب عبد الله بن الحسن بن أحمد العنبري تمثالاً، وذكر أن أبا بكر محمد ابن عدي بن علي المنقري أخرج إليه تمثالاً، وذكر أن أبا عثمان سعيد بن الحسن التستري أخرج إليه تمثالاً، فذكر أنه تمثال لنعل رسول الله ﷺ، وأن أحمد بن محمد الفزاري أخرج إليه ذلك بأصبهان، وحدثه به.

قال محمد بن عدي المنقري: حدثنا سعيد بن الحسن التستري بتستر، حدثنا أحمد بن محمد الفزاري قال: قال أبو إسحاق إبراهيم بن الحسين: قال أبو عبد الله إسماعيل بن أبي أويس واسم أبي أويس عبد الله بن عبد الله بن أويس بن مالك بن عامر الأصبحي، ثم القرشي، ثم التيمي ابن أخت مالك بن أنس الإمام: كانت نعل رسول الله ﷺ التي حذيت، هذه النعل على مثالها عند إسماعيل، يعني ابن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن ربيعة المخزومي.

قال إسماعيل: فأمر أبي أبو أويس الحذاء فحذا مثال هذه النعل بحضرته على مثال نعل رسول الله ﷺ مثلها سواء ولها قبالان. وقوله: «ابن أخت مالك» هو وصف لإسماعيل بن أبي أويس، وقوله «القرشي التميمي» يعني بالولاء كما صرح به غير واحد.

قال ابن البراء بسنده إلى ابن العربي: قال ابن العربي: وقد أخبرنا القاضي أبو المطهر، أنبأنا أبو نعيم الحافظ، أنبأنا ابن أبي الخلدة، أنبأنا الحارث بن أبي أسامة، حدثنا سهل، أنبأنا ابن عون قال: أتيت حذاء بالمدينة، فقلت: آحذِ نعلي.

فقال: إن شئت حذوتها هكذا، وإن شئت حذوتها كما رأيت نعل رسول الله ﷺ، فقلت: وأين رأيت نعل النبي ﷺ، فقال: رأيتها في بيت فاطمة بنت عبد الله بن العباس. فقلت: أحذها كما رأيت نعل النبي ﷺ قال: فحذاها لها قبالان. قال: فقدمت وقد اتخذها محمد يعني ابن سيرين.

وقال ابن البراء أيضاً: قال ابن العربي: أنبأنا أبو القاسم، مكي ابن عبد السلام بالمسجد الأقصى، أنبأنا أبو زكريا البغاري عن محمد بن الحسين الفارسي عن محمد بن جعفر التميمي، عن أبي سعيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، أنبأنا أبو محمد إبراهيم بن سهل الشيبي، حدثنا أبو يحيى بن أبي مسرة، عن ابن أبي أويس إسماعيل بن عبد الله، عن أبيه، عن مالك بن أنس، عن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة المخزومي بمقدار نعل رسول الله ﷺ وصفتها صارت إليه من قبل جده عبد الرحمن، وصارت إلى عبد الرحمن من قبل أم كلثوم أخت عائشة.

كان خلف عليها بعد طلحة بن عبيد الله؛ وقيل الذي خلف عليها ابنه عبد الله بن عبد الرحمن كما تقدم. قال ابن العربي: هذا غريب من حديث مالك لم أروه إلا من هذا الوجه. قال الإمام المقَري بعدما ذكر: ولأجل اعتماد هؤلاء الأئمة هذا المثال قدمته على غيره، ولم يحددوه بطول ولا عرض اعتماداً منهم على المشاهدة والمناولة، لأن كل واحد يناول المثال لمجاوزه فيحتذي عليه، فلذلك لم يقع تغيير فيه عند الثقات، لأنه من أمين لأمين؛ وأصل الجميع مأخوذ من نعل النبي ﷺ كما سبق، فهو برواية العدل عن العدل؛ فإن قلت: إذا لم يؤخذ بالمشاهدة كان معرضاً للاختلاف، لكونه غير محدود بطول ولا عرض، فمن أين جزمتم بأن هذه الصفة موافقة لما في هذه الأحاديث؟ وما المانع أن تكون غيرها من الناقل غير المأمون، وإذا لاح الاحتمال سقط الاستدلال.

قلت اعتمادنا فيه على الثقات الإثبات، لأنا نقلناه من خط من يوثق به من العلماء الذين اتصل سندنا بهم عن طريق الإجازة بشروطها؛ فمثلنا على المثال الذي عليه خطوطهم المعروفة

وإجازاتهم لمن قرأها عليهم، وحيث كان الأمر كذلك لم يبق احتمال.

وقد تأدى إلينا ذلك والحمد لله من غير ما وجه عن الشيوخ الجلة، ومن جملتهم الحافظان الديمي والسخاوي، فإنا رأينا خطهما على مثال ابن عساكر في نسخة معتمدة قرأها جماعة من الأكابر وقرئت عليهم.

ولنذكر ذلك تتميماً للقصد، ورداً للجحد، فنقول: رأيت بخط السخاوي على جزء ابن عساكر في المثال ما نصه: بسم الله الرحمن الرحيم، يقول محمد بن عبد الرحمن السخاوي: أخبرني جماعة منهم أبو العباس أحمد بن الشرف الأزهري بقراءتي، قال: أنبأنا الجمال أبو المعالي عبد الله بن عمر بن علي الحلاوي الأزهري.

وتقيد بخط كاتب الأصل رواية شيخ الحلاوي، وهو البدر الفارقي، عن أبي اليمن بن عساكر بجميع مافيه. قال الإمام: قلت: أما اتصال سندي بالفارقي فقد تقدم في الباب الأول من طريق الخطيب بن مرزوق، إذ روي. كما في رحلتِهِ جزء المثال عن الفارقي، عن مؤلفه ابن عساكر رحمه الله.

وأما السخاوي، فأخبرني العم الشيخ سعيد المقَّري، عن المفتي أبي الحسن علي بن هارون، عن الإمام ابن غازي، عن الحافظ السخاوي إجازة.

وثبت في آخر هذا التأليف الذي عليه خط السخاوي والحافظ الديمي بخط ناسخه ما صورته: تم بحمد الله وعونه، وحسن توفيقه على يد كاتبه لنفسه ولمن شاء الله من بعده العبد الضعيف فتح الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أحمد بن حسن المنفلوطي، المعروف بابن الفرجوطي الحنفي، عامله الله بلطفه الخفي، وغفر ذنوبه، وستر عيوبه في الدنيا والآخرة، ووالديه وجميع المسلمين حامداً ومصلياً ومسلماً ومحسبلاً[1] ومحوقلاً، بتاريخ يوم الخميس آخر النهار رابع شهر الله الأصم الأصب رجب، من شهور سنة إحدى وتسعين وثمانمائة من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، وعلى آله وصحبه البررة الكرام، وتابعيهم بإحسان إلى دار السلام.

وتقيد عقبه بخط الحافظ السخاوي ما صورته: الحمد لله؛ قرأ عليَّ صاحبه وكاتبه، الشيخ الفاضل المجد المحصل المفيد، زين الدين أبو الفتح فتح الله المذكور أعلاه نفعه الله ونفع به بسندي فيه أوله، فسمعه الشيخ الفاضل البارع الأوحد، مفيد الطالبين، بركة المستفيدين، صلاح الدين محمد بن سيدنا وحبيبنا العالم شيخ المحدثين، مفتي المسلمين،

---

(١) محسبلاً: قائلاً: «حسبي الله ونعم الوكيل».

بركة الطالبين الفخري أبي عمرو عثمان الديمي الشافعي، والشيخ المفنن الناظم الناثر محيي الدين عبد القادر القرشي، وذلك في يوم السبت سادس شهر رجب المذكور بمنزلي، وأجزت لهم روايته، وسائر مروياتي ومؤلفاتي قاله وكتبه محمد بن عبد الرحمن السخاوي ختم الله له بخير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً. وتقيد بعد بخط المجاز ناسخ الأصل ما صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد،

فقد قرأ العبد الضعيف فتح الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أحمد بن حسن المنفلوطي، المعروف بابن الفرجوطي الحنفي، عامله الله بلطفه الخفي، وغفر ذنوبه، وستر عيوبه في الدنيا والآخرة وجميع المسلمين آمين، على سيدنا ومولانا الشيخ الإمام العالم العامل العلامة البحر الحبر الفهامة، حافظ العصر أبي عمرو عثمان الديمي الشافعي عامله الله بلطفه والمسلمين آمين جميع تمثال نعل المصطفى ﷺ جمع الإمام الأصيل المسند المفيد أمين الدين أبي اليمن عبد الصمد بن أبي الحسن عبد الوهاب بن الحسن بن عساكر رحمه الله تعالى عوداً على بدء.

قال: أخبرنا به جماعة من المشايخ، منهم الشيخ المسند، الرئيس شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يعقوب الأطفيحي، قال: أخبرنا به الشيخ الزاهد أبو المعالي عبد الله بن عمر بن علي السعودي.

قال أخبرنا به البدر أبو عبد الله محمد بن شمس الدين أحمد بن خالد بن محمد بن أبي بكر الفارقي.

عن مؤلفه أبي اليمن بن عساكر رحمه الله قراءة عليه، فذكره وأجاز لي الشيخ المذكور أن أروي عنه جميع الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز له وعنه روايته بشرطه عوداً على بدء.

وسمعه جميعه الشيخ الفاضل البارع الأوحد، مفتي الطالبين، بركة المستفيدين، صلاح الدين محمد بن سيدنا الشيخ الإمام العالم العامل العلامة، شيخ المحدثين، مفتي المسلمين، بركة الطالبين الفخري أبي عمرو عثمان الديمي الشافعي أطال الله بقاءه، ونفع المسلمين به وببركاته في الدنيا والآخرة آمين مرة بقراءتي على والده ومرة على الإمام العالم العامل العلامة، مفيد الطالبين، بقية المحققين، شمس الدين أبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي الشافعي أطال الله بقاءه ونفع المسلمين به وببركاته في الدنيا والآخرة آمين.

وسمعه أيضاً بقراءتي علي الشيخ الأول، الشيخ نور الدين علي بن ناصر الدمياطي؛ والشيخ شمس الدين محمد بن عيسى السويدي والشيخ عبد الرحمٰن بن محمد البدهلي من عمل البهنساء، والشيخ عبد الله المعلى، والشيخ محمد بن أحمد بن الطنبغا الحنفي المظفري، والشيخ جمال الدين البحيري الحريثي، وولداه جميل ومحمد، والشيخ نور الدين بن عبد الخالق التتائي، والشيخ أبو بكر بن علي بن محمد الأكيادي، والشيخ أحمد بن صلاح الدين النشيلي، والشيخ محمد بن عمر بن محمد البلالي، والشيخ فياض ابن أحمد السملائي، والشيخ إبراهيم بن إبراهيم البحيري السفطي المالكي.

وأجاز الشيخ المذكور لي وللجماعة المذكورين أن نروي عنه جميع الكتاب، وجميع ما يجوز له وعنه روايته لافظاً بذلك بسؤالي له غير مرة، فتاريخ القراءة **الأولى** التي سمعها الجماعة المذكورون يوم الجمعة في جامع الأزهر المعمور بذكر الله تعالى، برواق الريافة، بين صلاتي العشاء خامس شهر الله الأصم الأصب رجب، سنة إحدى وتسعين وثمانمائة.

والثانية في يوم الأحد ثامن شهر ذي القعدة الحرام من عام تاريخه أعلاه، أحسن الله تقضيه بمحمد وآله، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل. اهـ.

وبعده بخط الحافظ الديمي ما مثاله: الحمد لله رب العالمين. اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين صحيح ذلك، نفعهم الله تعالى بالعلم، ونفع بهم وكتبه عثمان بن محمد الديمي الشافعي عفا الله تعالى عنهما. اهـ.

وثبت بخط المجاز كاتب الأصل على ظهر أول ورقة منه ما صورته! الحمد لله رب العالمين، وجد على ظاهر الأصل المنقول منه ما مثاله: قرأت جميع هذا الجزء، وهو تمثال النعل الشريف على المسندة الأصيلة هاجر، وتدعى عزيزة ابنة الشرف محمد بن محمد بن أبي بكر المقدسي بسندها أسفله، فسمعه أولادي محمد محب الدين أبو البركات، وفاطمة أم الحسن حسناء، وزينب أم كلثوم، وليلى، ومريم أم هانئ، وسلمى وهي حاضرة في الأول، وأمهم خديجة بنت ناصر الدين محمد الزفتاوي، وأختاي لأمي آمنة وعائشة، وابنها محمد بركات بن أحمد الزفتاوي حضوراً تاماً، وزوجته والدي حنيفة بنت أحمد الحمصاني، وفتاته جوهرة الحبشية، وزوجة أخي أحمد خديجة بنت محمد الرقيق، وأولادهما محمد وأحمد وأبو السعود وأبو الفضل عمر حضوراً تاماً، وفاطمة بنت أحمد الصعيدية، وفتاة كاتبة جوهرة وكان اسمها لقاء المحبوب، ولطف الله وأجازت المسمعة بسؤالي، وناولتهم التمثال الشريف، وصح ذلك، وثبت في ربيع الثاني سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة بالمقسم من

القاهرة، قاله وكتبه عبد القادر بن عمر بن حسين الزفتاوي، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، وحسبنا الله ونعم الوكيل. اهـ.

وتقيد أسفل هذا ما مثاله، ووجد أيضاً على ظهر الأصل المنقول منه ما مثاله: الحمد لله سمع جميع هذا الجزء، وهو تمثال النعل الشريف لأبي اليمن بن عساكر على الشيخين الأصيلين المسندين، الخير المبارك شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عمر بن حصن الملتوني الوفائي، والمكثرة أم الفضل هاجر، وتدعى عزيزة بنت الشرف محمد بن محمد المقدسي، لطف الله بهما بسماعهما له، على أبي العباس أحمد بن حسن بن محمد السويداوي زادت، فقالت: والجمال عبد الله بن عمر علي الحلاوي قالا: أنبأنا به البدر الفارقي، أنبأنا أبو اليمن بن عساكر، فذكره بقراءة العالم جلال الدين عبد الرحمن بن العلامة كمال الدين أبي بكر السيوطي، وسمعه الشيخ مجد الدين إسماعيل بن إبراهيم القلعي، وولده أبو النور محمد أمين الدين، والفاضل محي الدين عبد القادر بن عمر بن حسين الزفتاوي، وولده محمد محب الدين، وعبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي المكي الشافعي، والخط له، وأبو العباس أحمد تقي الدين بن القاضي محمد محب الدين بن أحمد الحناق الحنبلي القرشي، وهو حاضر في الثانية، وفتاة نافع الزنجي، وصح وثبت في يوم الأربعاء سادس جمادى الأولى، عام سبعين وثمانمائة بالصالحية النجمية بإيوان الحنفية بالقاهرة المعزية، وأجاز لنا ما تجوز لهما روايته.

قال ذلك وكتبه عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي المكي الشافعي لطف الله به آمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً. اهـ.

وممن روى تأليف ابن عساكر عن الشيخ عبد العزيز بن فهد، ابنه الشيخ محمد المدعو جار الله رحمه الله فقال: أخبرنا المشايخ الأربعة، منهم الحفاظ الثلاثة سيدي ووالدي العلامة الرحالة شيخ المحدثين أبو فارس عز الدين ابن عبد العزيز بن عمر بن فهد الهاشمي المكي شيخ السنة، والمؤرخ العمدة شمس الدين أبو الخير محمد ابن عبد الرحمن السخاوي نزيل الحرمين الشريفين، والإمام الحجة المتفنن جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، والعلامة المعمر خاتمة المسندين وشيخ المقربين شرف الدين أبو الفضائل عبد الحق بن محمد السنباطي الشافعيون رحمه الله عليهم شفاهاً من الأولين، وكتابة الثالث، وقراءة على الرابع في ظهر يوم الجمعة رابع عشر جمادى الأول عام خمسة عشر وتسعمائة أمام المدرسة القطبية بالرواق الشامي من المسجد الحرام، قالوا أربعتهم: أخبرتنا به الشيخة المكرمة الأصيلة أم الفضل هاجر، ثم سرد نحو ما قدمناه، وذكر في موضع آخر أنه سمعه معه على الشيخ

عبد الحق المذكور العالمان المقري كمال الدين محمد، والمدرس شهاب الدين أحمد، والعالم محب الدين، وعمهم الشيخ المعمر شهاب الدين أحمد، ومنهم الشيخ كمال الدين بركات الحرفوش، ومحي الدين أبو صالح عبد القادر بن الشيخ عبد العزيز بن فهد في جماعة آخرين يطول تعدادهم.

قال المقري: بعدما ذكر، وقد اتصل سندي والحمد لله بهذه الطرق من غير ما وجه، وقد أخبرنا بطريق الشيخ عبد العزيز بن فهد إجازة شيخنا العلامة المؤلف سيدي الحاج أحمد ابن أبي العافية المكناسي الشهير بابن القاضي قدس الله روحه عن الشيخ عبد الرحمن ابن أخي الشيخ عبد العزيز عنه وهي عالية في السماء والله الحمد.

يقول الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه: انتهى كلام الإمام المقري، صاحب كتاب «نفح المتعال» و«نفح الطيب» وغيرهما، وله ثبت يشتمل على جميع مؤلفاته ومروياته، وهو من جملة الإثبات المذكورة في ثبت الإمام العلامة، خاتمة المحققين السيد محمد عابدين الدمشقي الذي أرويه بالإجازة عن ابن أخيه سيدي العلامة الفقيد السيد أبي الخير ابن السيد أحمد شقيق المؤلف السيد محمد عابدين، وهو يروي ثبت الشيخ أحمد المقري المذكور، عن شيخه الشيخ شاكر العقاد، عن الملا علي التركماني، عن الشيخ عبد الرحمن المجلد، عن علاء الدين الحصكفي، عن مؤلفه الشيخ أحمد المقري رحمهم الله أجمعين، ونفعنا ببركاتهم آمين فأروي كتاب «فتح المتعال في وصف النعال» وسائر مؤلفات الإمام المقري المذكور بهذا السند وبغيره، مما لاحاجة إلى ذكره هنا، وأجيز كل من اطلع على كتابي هذا «جواهر البحار»، وقبل الإجازة، بأن يرويه عني أيضاً مع جميع مؤلفاتي ومروياتي التي من جملتها مؤلفات المقري، ومنها كتاب «فتح المتعال» المذكور، وما اشتمل عليه من أمثلة النعل الشريف النبوي، على مشرفه أفضل الصلاة والسلام.

ولنرجع إلى كلام هذا الإمام قال رحمه الله تعالى: فإن قلت ما أسلفتموه عن عدة شيوخ كابن العربي ومن قبله، لا يقتضي أنهم مثلوا المثال في الورق كما فعلتم أنتم، وإنما فيه حذو النعل على النعل، وذلك غير مدعاكم. قلت: إذا حذيت النعل على النعل، ثم جعل المثال في الورق على هيئتها، فهو مدعانا كما يدل عليه كلام العراقي، وأيضاً فأي فرق بين حذو المثال من الجلد أو من الورق، وقد رأينا عدة أمثلة من الورق محذية على النعل، كما يحذى الجلد، منها ما اعتمده أكثر من قدمناه من الأئمة الأعلام، وليس الخبر كالعيان.

ولئن سلمنا الإيراد، قلنا حجة بابن عساكر، وابن مرزوق، والسخاوي، والحافظين السيوطي والديمي، وغيرهم ممن قدمنا أنه روى مثال ابن عساكر على أن ابن عساكر لما سرد

أسانيد ابن العربي وغيرها، مثل بعدها المثال، وهو يدل على نحو ما ذكرناه، فإن قلت لم خالفتم ابن عساكر وهؤلاء الذين اقتصروا على المثال، وذكرتم أنتم عدة أمثلة، مع أن اتباع هؤلاء مطلوب؟.

قلت: لما رأينا حافظ الإسلام زين الملة والدين العراقي رحمه الله ورضي عنه اعتمد في ألفيته مثالاً بينه وبين هذا بعض مخالفة، أتينا به اقتداء به إذ هو الإمام الذي سلم له في فن الحديث، حتى قيل إنه المجدد على رأس الثامنة، كما أشار إليه الحافظ السيوطي رحمه الله فإن قلت سلمنا ذلك، وهلا اقتصرتم عليه مع ما قبله لكونهما عن هؤلاء الأعلام الذين لا يسوغ مخالفتهم بوجه.

قلت: لوحنا فيما سبق إلى أن الأربعة التي ذكرناها بعد المثالين الأولين لا تقوى قوتهما وإن كان بعضها منقولاً عن بعض الأئمة، وأشرنا إلى أنا بنينا على الاحتياط، وأن مثل ذلك لا يضر.

فإن قلت المنافع الآتية والخواص مقصورة على الأولين أو عامة. قلت: قد شاهدنا بالعيان للجميع منافع، وأخبرنا بها الثقات، وما ذلك إلا ببركة صاحب النعل ﷺ لأنه المقصود بالذات، على أنا لا ننكر أن ماكان أكثر محاكاة للنعل الكريمة، فله المزية العظيمة، وعلى الجملة فقد أتينا بما صح لدينا ووصل علمه إلينا، فإنا مثل هذا لم نخترعه من عند أنفسنا، وإنما اقتدينا فيه بغيرنا من أئمة الدين، والله مطلع على نياتنا في ذلك، وليس قصدنا سوى التبرك بآثاره ﷺ وجمع ما تفرق في ذلك، مما لم نر أحداً جمعه كما جمعناه ولله الحمد والمنة وقد بذلنا المجهود، وإن كان في ذلك تآليف حافلة، فنحن معذورون إذ لم نقف عليها سوى ما ذكرناه من تأليفي السبتي وابن عساكر، وهما صغيران جداً، نفعهما الله بقصدهما الجميل، وبلغنا وإياهما بجاه المصطفى ﷺ غاية التأميل، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وهذه صفة المثال الأول، وعلى الله المعتمد والمعول.

وذكر بعد هذا الكلام المثال الأول من الأمثلة الستة التي ذكرها مصوراً بالورق، وقال بعده.

وأما المثال الثاني فهو معتمد حافظ الإسلام، خادم سنة النبي ﷺ ذي المعارف الكاملة والأحوال، مجدد الدين في أحد الأقوال، الشيخ الإمام زين الدين عبد الرحيم العراقي الشافعي صاحب التآليف العديدة، والمناهج السديدة، رحمه الله ورضي عنه. وقد اتصل سندنا به من طرق كثيرة.

منها ما سبق إلى الحفيد ابن مرزوق عنه، وهذه الصفة المذكورة هنا موجودة في نسخة

معتمدة في ألفيته التي بيّن فيها السيرة النبوية منظمة، ووصف بعض الأحوال المحمدية المعظمة، ومن جملة ما ذكر فيها وصف النعل الطاهرة، ذات المحاسن الباهرة، وتحديدها بالطول والعرض، وتشريفها بسيد أهل السموات والأرض.

محمد المصطفى الهادي إلى السبل ... ذو المعجزات أمام الخلق والرسل

خير البرية من بدو ومن حضر ... وأكرم الناس من حاف ومنتعل

وقد سلم ما ذكره رحمه الله من ذلك الشيخ الإمام الحافظ العلقمي في حاشيته على «الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير» وإذ قال: ورد أن طول نعله ﷺ شبر وإصبعان، وعرضها مما يلي الكعبان سبع أصابع، وبطن القدم خمس، وفوقها ست، ورأسها محدد، وعرض ما بين القبالين إصبعان. اهـ.

وهو عين ما في الألفية، لأنه رحمه الله أتى بما في الألفية بنصه وسلمه، وناهيك به وإن كان بعض الحفاظ قال: إني لم أقف على هذا التحديد إلا للعراقي، وكفى به حجة، وقد اعترف بثقته الأنام، ووصفوه بحافظ مصر والشام.

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذام

مع أن صاحب سبل الهدى والرشاد ذكر ذلك التحديد، غير معترض عليه، بل أقره. وناهيك باطلاعه الوافر المديد، ونص ما في ألفيته النيرة قوله رحمه الله ورضي عنه فيها:

ونعله الكريمة المصونه ... طوبى لمن مس بها جبينه

لها اقبالان بسيروهما ... سبتيتان سبتوا شعرهما

وطولها شبر وإصبعان ... وعرضها مما يلي الكعبان

سبع أصابع وبطن القدم ... خمس وفوق ذا فست فاعلم

ورأسها محدد وعرض ما ... بين القبالين إصبعان

وهذه تمثال تلك النعل ... ودورها أكرم بها من نعل

وقوله: «وعرضها مما يلي الكعبان» أي مما يليه الكعبان، فالكعبان فاعل لا مفعول. ثم قال المقري: وهذه صفة هذا المثال الثاني الحاكي لنعل من أوتي السبع المثاني ﷺ حسبما وجد في نسخة موثوق بها من هذه الألفية بعد قوله: وهذه تمثال تلك المتعال.

وذكر بعد هذا في «فتح المنعال» صورة المثال الثاني على الورق، وقال بعدها، هذان المثالان هما المعتمدان كما سبق وفي الاقتصار عليهما كفاية لمن شاء ومقنع، ولكني رأيت زيادة أربع لها في التعظيم مقيل ومربع، وأتيت بها على وجه الاحتياط، والتبرك والاغتباط.

المثال الثالث: نقلته من خط بعض أكابر العلماء المتقدمين من أعلام المغرب

المعتمدين، وكتب في وسطه ماصورته: هذه صورة نعل نبينا محمد ﷺ وكتب بإثره أنشدني الشيخ الفقيه أبو عبد الله بن سلمة، قال أنشدني الكلاعي رحمه الله تعالى:

يـا نـاظـراً تمثـل نعـل نبيـه قبـل مثـال النعـل لا متكبـرا
واعكـف بـه فلطـالمـا عكفـت بـه قـدم النبـي مـروحـاً ومبكـرا

في آيات أخرى من نظم ابن سعد الخير لا من نظم الكلاعي نفسه رحم الله الجميع.

المثال الرابع: قال المقري: رأيته بالمغرب متداولاً بأيدي الناس، متلقى بالقبول، مشاهد المنافع، مجرب الإجابة، معظماً عند أهل تلك الديار، بلغهم الله المأمول فأردت أن لا أخلي هذا التأليف منه، وإن لم أعرف الإمام المنقول عنه.

المثال الخامس: قال نقلته بالمغرب من خزائن ملوكه موالينا الأشراف، وهو من ذخائرهم النفيسة أيدهم الله على الكفار، وحمي بهم الذمار، وأعانهم على ما فيه صلاح الدنيا والدين، وسلك بهم سبيل المهتدين وقد شاهدت بركته في سفرنا في البحر، عندما كادت تغرقنا أمواجه المتلاطمة.

المثال السادس: قال: نقلته من خط بعض من يوثق بدرايته، ويعتمد على روايته، من أهل الصلاح والخير والدين، السالكين سبيل المهتدين، وقد ذكر أنه نقله من خط بعض الصلحاء المقتدى بهم، الذين يتأدب بآدابهم، من أهل مكة المشرفة، زادها الله تشريفاً وتعظيماً، وتوقيراً وتكريماً، وذكر عنه أن هذا المثال كان متداولاً بينهم، مشهوراً بالبركة عندهم، على أن الذي بينه وبين الأمثلة السابقة من الاختلاف يسير، فلعله أحدها إلا أنه وقع فيه بعض تغيير، ممن ليس من النقلة ببصير بهذا التحرير.

وقد قيل: إن الأمثلة تؤخذ على التقريب، عند من يرى أن لا تعنيف في ذلك ولا تثريب، والذي اقتضته التجربة أن الخواص الآتية توجد كلها أو جلها في هذه الأمثلة، وقد شاهدنا ذلك، وليس الخبر كالعيان، ثم قال: وبالجملة، فقد تحرينا بقدر الطاقة والجهد، وأتينا بما ليس فيه اختلاف يقتضي البعد، ثم ذكر رحمه الله تعالى الأمثلة الستة المذكورة، وصورها في الورق متابعة. وأما أنا فقد اقتصرت على المثال الأول من هذه الأمثلة، وهو المعتمد المروي عن حفاظ الحديث بالأسانيد المتصلة، وطبعته بورقة مستقلة، وألصقته بهذا المحل فانظره.

الفصل الرابع: ذكر رحمه الله تعالى في الباب الثالث من كتابه المذكور «فتح المتعال» كثيراً من المقطعات الرائقة، والقصائد الفائقة، في مدح مثال النعل الشريف، ورتبها على حروف المعجم، وهي كثيرة أذكر منها قليلاً مما يقع عليه اختياري قال رحمه الله تعالى: وبسندي السابق في الباب الأول إلى ابن عساكر.

قال: أنشدنا أبو إسحق إبراهيم بن محمد الأندلسي من لفظه رحمه الله قال: أنشدني محمد بن عبد الله القرطبي بسبتة وأبو زكريا يحيى بن أبي بكر العبدري بتلمسان، قالا: أنشدنا أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي.

قال: أنشدنيها صاحبنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن خلف بن سعادة الداني المقري لفظاً بالإسكندرية، قال: أنشدنا أبو الحسن علي بن إبراهيم بن سعد الخير البلاسني لنفسه:

يا مبصراً تمثال نعل نبيه ... قبل مثال النعل لا متكبرا
واعكف به فلطالما عكفت به ... قدم النبي مروحاً ومبكرا
أو ما ترى أن المحب مقبل ... طللاً وإن لم يلف فيه مخبرا

قال ابن عساكر: وأنشدني أيضاً يعني أبا إسحاق الأندلسي قال: وسألت شيخنا الأديب الحافل أبا أمية إسماعيل بن سعد السعود بن عفير رحمه الله تذييل أبيات أبي الحسن بن سعد الخير المذكور، فأجاب إلى ذلك وأنشدنيها بإشبيلية سنة أربع وثلاثين؛ الظاهر بعد الستمائة

ولربما ذكر المحب حبيبه ... بشبيهه فغدا له متصورا
أو ما رأيت الصحف ينقل حكمها ... فيوافق المتقدم المتأخرا
والمرءُ يهوى بالسماع ولم يكن ... يحكى الذي قد هام فيه مبصرا
ويظن حين يرى اسمه في رقعة ... أن قدر أى فيها الحبيب مصورا
لاسيما في حق نعل لم تزل ... صوناً لأخمص خير من وطئ الثرى
فعساك تلثم في غد من لثمها ... كأس النبي إذا وردت الكوثرا

إلى هنا كلام ابن عساكر. وقد ذيل قول ابن سعد السعود بعض العلماء المصريين، وهو الأديب الفاضل شرف الدين عيسى بن سليمان الطنوبي المصري، فقال إثر قوله «إذا وردت الكوثر» ما نصه:

وعلى الصراط غدا تسير بيمنها ... كالطير أو كالبرق في ليل السرى
أعظم بها نعلاً مشت فوق الثرى ... وبها تشرفت الجباه من الورى
إذ جاورت قدماً لأشرف مرسل ... قدماً أتانا منذراً ومبشرا
فبها تملَّ مقبلاً لقبالها ... وشراكها للوجنتين معفرا
فعسى بجسمك أن تكون محرماً ... أبداً على لهب غدا متسعرا
وافرض بما عاينت من تمثالها ... أن قد نظرت إلى حبيبك مسفرا
فالصب يقلق إن تباعد حبه ... وتراه يسكن إذ يراه في الكرى

وللفقيه المحدث الحافظ الكاتب البارع، صاحب التصانيف المتعددة، فريد دهره الشيخ

أبي عبد الله محمد بن الأبار القضاعي الأندلسي البلنسي، نزيل تونس المحروسة رحمه الله تعالى ورضي عنه في هذا البحر وهذا الروي، قوله:

لمثال نعل المصطفى أصفى الهوى ... وأرى السلو خطيئة لن تغفرا
وإذا أصافحه وأمسح لاثماً ... أركانه فمعززاً وموقرا
ترك اعتزازي في جهاز تذللي ... لجلاله أثراً بقلبي أثّرا
إن شاقني ذاك المثال فطالما ... شاق المحب الطيف يطرق في الكرى
لي أسوة في العاشقين وقصدهم ... لثم الطلول لأهلهن تذكرا
وبكاؤهم تلك المعاهد ضلة ... تحت الظلام على الغرام توفرا
أفلا أمرغ فيه شيبي راشداً ... وأريق دمعي وسطه مستبصرا
ثقة بإثرائي من الخيرات في ... شغفي بنعلي خيره من وطئ الثرى

قال المقري رحمه الله: ومما رأيته مكتوباً ببعض الأمثلة الشريفة، المحاكية للنعل السامية المنيفة، ولا أعلم قائله:

باعين إن بعد الحبيب وداره ... ونأت مواطنه وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل ... إن لم تريه فهذه آثاره

قال: ثم رأيت بعد مدة ما يدل على أن كاتب هذين البيتين في المثال الشريف. إنما تمثل بهما، وذلك أني وقفت على مجموع بخط بعض أكابر علماء مصرفيه ما صورته: أخبرني المرحوم الشيخ برهان الدين إبراهيم بن المرحوم الشيخ الصالح شمس الدين محمد بن قديدار رحمهما الله تعالى قال: اجتمع الشيخ أبو الفضل بن الإمام المغربي التلمساني، والشيخ العلامة علاء الدين بن سلام، وجماعة من الأعلام بمزار الست زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، فأنشد الشيخ علاء الدين بن سلام للشيخ جلال الدين بن خطيب داريا، رحمه الله تعالى:

يا عين إن بعد الحبيب وداره ... ونأت مرابعه وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل ... إن لم تريه فهذه آثاره

فقال الشيخ أبو الفضل: هو قريب مما قاله لسان الدين بن الخطيب، وأنشد:

إن بان منزله وشط مزاره ... قامت مقام عيانه أخباره
قسم زمانك عَبرة أو عِبرة ... هذي ثراه وهذه آثاره

قال المقري: ثم بعد مدة مديدة، رأيت في كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» أن الشيخ ابن خطيب داريا قال هذين البيتين في الآثار النبوية التي كانت بمصر، قال: وهي التي

نقلها السلطان قانصو الغوري آخر ملوك الجراكسة إلى تربته التي أنشأها بالقاهرة المحروسة.

وما أحسن قول القائل في مثل هذا المعنى والبحر والروي:

يا عين بالآثار من خير الورى ... فتمتعي إن شط عنك مزاره
ولئن حرمت زمانه لا تجزعي ... إن لم تريه فهذه آثاره

وقال الأديب العلامة الكاتب المجيد أبو الحكم بن المرحل السبتي، دفين فاس رحمه الله تعالى:

أدمعك أم سمط وقلبك أم قرط ... وشوقك أم سقط وجسمك أم خط
أخا مرح بعد النزوع عن الصبا ... وللشيب شعب في عذارك أو وخط
أجل لا ولكن نفحة قدسُية ... أشم لها ترب الجنان فأنحط
رأيت مثال النعل نعل محمد ... فملت ومالي غير ذلك إسفنط
رمقت حجاب السبع من حسن وجهه ... فأبصرته في سدرة المنتهى يخطو
رأيت مثالاً لو رأته كرؤيتي ... نجوم الدجى والليل أسود مشمط
لسر الثريا إنها قدم ولم ... يسر الثريا إنها أبداً قرط
ألا بأبي ذاك المثال فإنه ... خيال حبيب والخيال له قسطُ
فإن لا يكنها أو تكنه فإنه ... أخوها اعتدالاً مثلما اعتدل المشطُ
أرى لثمه مثل التيمم مجزياً ... فألثمه حتى أقول سينعطُ
وما هي إلا لوعة وصبابة ... بقلبي لها سقط وفي مدمعي سمطُ
قذفت الكرى بالدمع والصبر بالأسى ... وهيهات أن يطفا وموقده الشحط
فلا تقلعي يا عين أو يطأ الأسى ... فأغرق ذا نقط وأحرق ذا نفط
سيطفأ يوم الحشر عند لقائه ... على الحوض بالكأس الروية إذا عطو
تبسط عبد مذنب غير أنه ... بحب رسول الله صبح له البسط
عليه سلام الله ما عنّ عارض ... ولاح له برق وسح له نقط

وقال الحافظ الإمام الأندلسي، أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي رحمه الله، ورضي عنه:

خواطر ذي البلوى عوامر بالجوى ... ففي كل يوم يعتريه خبال
متى يدع داع باسم محبوبة هفا ... فيهتاج بلبال ويكسف بال
وإن يرَ من آثاره أثراً همت ... له من غروب المقلتين سجال
بحالي وقد أبصرت نعلاً مثالها ... لنعل الرسول الهاشمي مثال

عـرانـي مـا يعـرو المحب إذا بـدا ... لعينيـه مـن مغنـى الأحبـة آل
فقبلـت فـي ذاك المثـال معـاوداً ... أرى أن ذلـي فـي هـواه حـلال
ومثلتـه نعـل الـرسـول حقيقـة ... وإنـي لأدري أن ذاك محـال
ومـن سنـة العشاق أن يبعث الهـوى ... مثـال ويقتـاد الغـرام خيـال
فـلا فـرق إلا أن حـب محمـد ... هـدى والهـوى فيمـن عـداه ضـلال

وقال الحافظ الكاتب المحدث أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي الأندلسي، نزيل تونس، معارضاً أبيات شيخه أبي الربيع السابقة:

سجـام لعمـري أدمـع وسجـال ... لئـن عـنَّ مـن نعـل الـرسـول مثـال
وهـل يملـك العينيـن فـي مثلها سـوى ... خلـي عـراه عـن هـداه ضـلال
مثـال إلـى نعـل المطهـر يعتـزى ... فـاعـزازه للمحسنيـن منـال
أقبلـه شـوقـاً تملكنـي لمـا ... حكـى وشهيـدي لـو يفـوه قِبـال
وآبـى اشتـراكـاً فـي التـزام شِـراكـه ... وحسبـي منـه عصمـة وثِمـال
ومعقـده ممـا عقـدت بـه الهـوى ... فـلا صـح عـزمـي إن صحـا لـي بـال
فـراغـى مـن تمـريـغ شيبـي عليـه إن ... تسـح مـن الـرحمـى عليـه سجـال
ومـن وضعـه فـي حـروجهـى ورفعـه ... لقمـة رأسـي إن يعـز منـال
فـأحظـى بحظـى مـن جـوار محمـد ... وهـل بعـد تنـزيـل الجـوار نـوال

وقالت الشيخة أم السعد بنت عصام بن أحمد بن محمد إبراهيم بن يحيي الحميري الأندلسي القرطبي، وتعرف بسعدونة، وقد بلغها قول بعض الأدباء الغرناظيين في صفة نعل النبي ﷺ من أبيات آخرها:

سـألثـم المثـال إذ لـم أجـد ... للثـم نعـل المصطفـى مـن سبيـل

فزادت عليه قولها رحمها الله تعالى، ورضي عنها:

لعلنـي أحظـى بتقبيلـه ... فـي جنـة الفـردوس أسنـى مقيـل
فـي ظـل طـوبـى سـاكنـاً آمنـاً ... أسقـى بـأكـواب مـن السلسبيـل
وأمسـح القلـب بـه علـه ... يسكـن مـا جـاش بـه مـن غليـل
فطـالمـا استشفـى بـأطـلال مـن ... يهـواه أهـل الحـب مـن كـل جيـل

وللإمام القاضي الكاتب الشهير الأديب، أبي الحكم مالك بن المرحل السبتي، دفين باب الحبيسة من فاس المحروسة رحمه الله قوله، وهو مما أنشد بعضه صاحب المواهب اللدنية:

بوصف حبيبي طرز الشعر ناظمه ... ونمنم خدَّ الطرس بالنّقس راقمه
نبي له فضل على الناس كلهمُ ... مفاخره مشهورة ومكارمه
رؤوف عطوف أوسع الناس رحمة ... وجادت عليهم بالنوال غمائمه
حفي وفيّ لا تمين عهوده ... حمّي أبيّ لا تلين شكائمه
وكم نازعته الأمر ثم أعزة ... فما أسلمته بيضه ولها ذمه
غدا العالم الأعلى يقاتل دونه ... فتقدمه قبل اللقاء هزائمه
أما نصر الإسلام نصراً مؤزراً ... فلم ينج إلا مسلم أو مسالمه
أما حسم الكفر الصريح حسامه ... أما صرم الشرك القبيح صوارمه
نبي له في حضرة الحق رتبة ... ترقّى بها في عالم العلو عالمه
له الحسن والإحسان في كل مذهب ... فآثاره محبوبة ومعالمه
به ختم الله النبيين كلهم ... وكل فَعال صالح فهو خاتمه
أحب رسول الله حباً لو أنه ... تقسمه قومي كفتهم قسائمه
كان فؤادي كلما مر ذكره ... من الورق خفاق أصيبت قوادمه
أهيم إذا هبت نواسم أرضه ... ومن لفؤادي إن تهب نواسمه
فأنشق مسكاً طيباً وكأنما ... نوافجه جادت به ولطائمه
ومما دعاني والدواعي كثيرة ... إلى الشوق إن الشوق مما أكاتمه
مثال لنعلي من أحب حويته ... فها أنا في يومي وليلي لاثمه
أجر على رأسي ووجهي أديمه ... وألثمه طوراً وطوراً الأزمه
صبابة مشتاق ولوعة هائم ... نعم أنا مشتاق الفؤاد وهائمه
كأن مثال النعل محراب مسجد ... فوجهي فيه شاخص الطرف دائمه
أمثله في رجل أكرم من مشى ... فتبصره عيني وما أنا حالمه
أحلي به خدي وأحسب وقعه ... على وجنتي خطواً هناك يداومه
ومن لي بوقع النعل في حر وجنتي ... لماش علت فوق النجوم براجمه
تفيض دموعي كلما لاح نوره ... بكاءك للبرق الذي أنت شائمه
فيا دمع عيني أنت تمنع ناظري ... نعيماً به فارفق فإنك ظالمه
ويا حر قلبي أنت تحرم باطني ... لصوقاً به فاسكن لعلك راحمه
سأجعله فوق الترائب عوذة ... لقلبي لعل القلب يبرد جاحمه
وأربطه فوق الشؤون تميمة ... لجفني لعل الجفن يرفأ ساجمه
ألا بأبي تمثال نعل محمد ... لقد طاب حاذيه وقدس خادمه
يود هلال الأفق لو أنه هوى ... يزاحمنا في لثمه ونزاحمه

وما ذاك إلا أن حب نبينا ... يقوم بأجسام الخلائق لازمه
سلام عليه كلما هبت الصبا ... وغنت بأغصان الأراك حمائمه
سلام عليه ما تفاوحت الربى ... بزهر كأن المسك تحوي كمائمه

وقال العلامة ابن رشيد المغربي، يعنيّ في رحلته: ومما حضرني مما يتعلق بوصف النعل الكريمة ما قرأته بخط صاحبنا المفيد الأديب التاريخي القاضي أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك رحمه الله وقد ذكر مثال النعل الكريمة، قال: وأنشدني شيخنا علي أبو الحسن الرعيني رحمه الله لنفسه فيه، ونقلته من خطه:

مثال لنعل المصطفى سيد الورى ... نبي الهدى المختار من آل هاشم
حذاه لنا أشياخنا عن شيوخهم ... بأسنادهم عن عالم بعد عالم
تلقته منا أوجه بخدودها ... وألقته أيدينا مكان العمائم
وعفرت الوجنات فيه محبة ... وألصق تقبيلاً له بالمناسم
تقدست النعل التي قد غدت لها ... خواضع تيجان الملوك الأعاظم
إذا لم تعاينها فهذا مثالها ... مثير شديد الشوق من كل هائم
فليت جبيني كان موطئها فلا ... يخاف غدا للنار لفحة جاحم
فيا فضلها لما حوت رجل سيد ... تقر له بالفضل كل العوالم
حبيبي رسول الله خاتم رسله ... وصفوته المعطى جميع المكارم
حنيني إلى ترب له كان واطئاً ... تقدس من ترب حنين الروائم
فهل لي سبيل والمنى قد تتاح لي ... إلى وقفة ما بين تلك المعالم
فأشفي غليلي بالتشامي ترابها ... وأسقيه من دمعي بأوكف ساجم
على خير خلق الله أزكى تحية ... تخب بها أيدي المطي الرواسم
فتحمل طيباً نحو طيبة زاريا ... على نفحات المسك طي اللطائم
وتهديه للقبر الكريم وقد سرت ... على الروض هبات الرياح النواسم

قال المقري رحمه الله تعالى: ورأيت في بعض الأمثلة الشريفة، ولم أدر قائله:

يا مبصرين مثال نعل محمد ... صلوا عليه وسلموا تسليما
قوموا لرؤيته قيام تجلد ... ثم الثموه وكرموا تكريما
فسبيل أهل الحب رعي معاهد ... عهدوا الحبيب بربعهن مقيما

قال المقري: وقال صاحبنا الفقيه الرحال أبو الحسن علي بن أحمد الخزرجي الفاسي، الشهير بالشامي حفظه الله تعالى:

وقفت على تمثال نعل كريمة ... فأوحيت لرسم الشوق مني ما أقوى
وأيقنت أني إن ظفرت بلثمها ... تمسكت في أخراي بالسبب الأقوى
وناديتها يا نعل عذراً فإنني ... على مدح بعض من معاليك لا أقوى
وطأت ربوعاً للهدى ومغانياً ... علاها على الرضوان أسس والتقوى
ولامست رجلاً لو يطاوع تربها ... ثريا السما شدت لتقبيله حقوا

ولمولانا الشيخ الإمام أبي الخير محمد بن محمد الجزري رحمه الله تعالى:

يا طالباً تمثال نعل نبيه ... ها قد وجدت إلى اللقاء سبيلا
فاجعله فوق الرأس واخضع واعتقد ... وتغال فيه وأوله التقبيلا
من يدّعي الحب الصحيح فإنه ... يبدي على ما يدعيه دليلا

الفصل الخامس: قال رحمه الله تعالى في الباب الرابع من كتابه المذكور «فتح المتعال» الذي ذكر فيه جملة من خواص المثال الشريف المجربة، ومنافعه المنقولة عن الثقات الذين لا يمترى في صدق أخبارهم والإثبات المعتمدين المستضاء بشموسهم وأقمارهم اعلم بلغك الله أملك، وزكى قولك وعملك أن منافع هذا المثال الكريم المقدس لا يحتاج فيها إلى زيادة بيان، إذ أغنى عن خبرها العيان، وقد ذكر جملة منها جماعة من الأئمة الأعيان.

فمنها: ما ذكره الشيخ الإمام الرحلة الصالح أبو إسحاق بن الحاج، وهو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم المري الأندلسي السلمي رحمه الله، ورضي عنه كما نقله عنه أبو اليمن بن عساكر وغيره واحد، قال: أخبرني القاسم بن محمد رحمه الله قال: حدثني أبو جعفر أحمد بن عبد المجيد، وكان شيخاً صالحاً ورعاً، قال: حذوت هذا المثال لبعض الطلبة، فجاءني يوماً فقال لي: رأيت البارحة من بركة هذا النعل عجباً، فقلت له، وما رأيت؟ فقال أصاب زوجتي وجع شديد كاد يهلكها، فجعلت النعل على موضع الوجع.

وقلت: اللهم، أرني بركة هذا النعل. فشفاها الله للحين، ومنها ذكره أبو اسحاق بن الحاج المذكور أيضاً، إذ قال: قال أبو القاسم القاسم بن محمد: ومما جربت من بركته أنه من أمسكه عنده متبركاً به كان له أماناً من بغي البغاة، وغلبة العداة، وحرزاً من كل شيطان مارود، وعين كل حاسد. وإن أمسكته المرأة الحامل بيمينها وقد اشتد عليها الطلق، تيسر أمرها بحول الله وقوته انتهى.

قال المقري: قلت: وقد جربته فصح. ومنها: أنه أمان من النظرة والسحر، كما ذكره شرف الدين الطنوبي المصري، وهو قوله من قصيدة:

أكرم بتمثال تزايد يمنه ... روت الثقات له جميل فعال
إن أمسكته حامل بيمينها ... رأت الخلاص بها وحسن فصال
أو من به داء لأصبح نافها ... من ضر أوجاع ومن أوجال
أو كان في جيش لأصبح ظافراً ... أو منزل لنجا من الإشعال
وبه الأمان من العدو بنظرة ... والسحر والشيطان ذي الإضلال
والأمن من غرق ومن باغ ومن ... كيد الحسود وسارق ختال
فبه تمسك بالحبيب المصطفى ... فعسى به تنجو من الأهوال

ومن فوائده ما قاله بعض الأئمة فيما جرب من بركته أن من لازم حمله كان له القبول التام من الخلق، ولا بد أن يزور النبي ﷺ أو يراه في منامه.

ومنها: ما صرح به غير واحد من الأئمة أنه لم يكن في جيش فهزم، ولا في قافلة فنهبت، ولا في سفينة فغرقت، ولا في بيت فاحرق، ولا في متاع فسرق. . . وما توسل بصاحبه ﷺ في حاجة إلا قضيت، ولا في ضيق إلا فرج. قال المقري رحمه الله: ورأيت قريباً من هذا بخط الإمام ابن فهد المكي وسط المثال، ونصه جرب هذا المثال الشريف إن كان في دار لا تحرق، أو مال لا يسرق، أو مركب لا تغرق، أو قافلة لا تنهب ببركة النبي ﷺ وشرف وكرم اهـ.

قال: ومنها: قضية شيخنا الإمام المحدث، مفتي مدينة فاس الشيخ سيدي محمد القصار القيسي الغرناطي الأصل رحمه الله، ورضي عنه وهي مستفيضة بالمغرب ولم أسمعها منه، ولكن حدثني بها غير واحد من الثقات عنه، وذلك أنه كان في حال صغره قاعداً مع بعض قرابته في أسفل دار لهم عظيمة، ذات مبان عالية وغرف سامية، كما شأن بنيان فاس، وخصوصاً بنيان الأكابر منهم.

وكان المثال المعظم فوق رؤسهم في الحائط على قدر ما إذا ما وقف الإنسان حاذى رأسه، فكان من قدر الله أن سقط أعلى الدار على أسفلها، وتهدم فقطع الناس بموتهم، وبقوا أكثر من يوم يحفرون عليهم ليدفنوهم فلما وصلوا إليهم، وجدوهم أحياء من بركة المثال، لم يصبهم سوء، إذ كان من لطف الله بهم وجميل صنعه ما لم يخطر بالبال، وهو أن الخشب الذي كان البيت مسقفاً بها لما سقطت خيمت عليهم، وصارت أعاليها فوق الموضع الذي فيه المثال مستندة على الحائط، وأسافلها ثابتة في الأرض؛ وكل ما سقط جاء فوقها، وهي واقية لهم، وتراكم عليها من التراب والحجارة وغيرها أمثال الجبال، وهم تحتها فسبحان من أنقذهم من التلف ببركة المصطفى ﷺ.

قال: ومنها: ما شاهدته من شخص، سمع أن من لازم حمل المثال، نال ما أمل، فلازم حمله في عمامته لقصد أمور منها التقدم على أبناء جنسه، ولم يكن في العلم بذاك، فحصل له ما طلب، ونال الإمامة والتقدم مع حضور من هو أحق منه بذلك، والجاه العريض بحسن نيته وصدقه وعدم شكِه في منافع هذا المثال المقدس، وإن كان ما قصده به مما لا ينبغي أن يلتفت إليه الأخيار عصمنا الله من الأغيار.

قال: ومنها: ما حدثني به رجل من الثقات الصلحاء، وهو الشيخ عبد الخالق بن حسب النبي، وقد كان كتب النسخة الصغرى من هذا الكتاب أنه لما كان نصف رمضان من هذه السنة، طلع له طلوع في أسفله لا يدري ماهو، به الوجع ثم تذكر هذا المثال الشريف ومنافعه، فجعله على محل الوجع، وقال: اللهم إني أسألك بحق نبيك محمد ﷺ من مشى بالنعل أن

تعافيني من هذا المرض، يا أرحم الراحمين. قال: فوالله لقد سكن وجعه وبرئ من يومه، وكأنه لم يكن. وأخبرني بعد هذا أن ابنة له أصابها مرض في عينيها أعضل دواؤه، فقالت له: إني سمعتكم تذكرون مثال نعل النبي ﷺ فأتوني به فجاؤها به، فوضعته على عينيها فبرئت.

قال: ومنها: ما شاهدته عياناً، وذلك أني لما سافرت من ثغر تطاوين، حرمها الله في غراب، للجزائر المحمية وكان ذلك في ذي القعدة الحرام، من عام سبعة وعشرين وألف وكان ذلك في معظم البرد، والبحر حينئذ مخوف جداً، فهال علينا البحر، حتى تكسرت المقاذيف، وأشرفنا على الهلاك، وأيس أهل التجربة من النجاة، وتأهبوا للموت، وقد كنت أرسلت المثال الشريف لرئيس الغراب يتوسل به رجاء بركته، فكان من ألطاف الله أن آلت عاقبة الأمر إلى السلامة، وعد ذلك العارفون بأمور البحر كرامة، وكان حصل لنا في هذه السفرة أيضاً أن الريح منعتنا من السفر، ونحن في ساحل بلاد العدو الكافر، دمره الله وطال مقامنا هنالك، بحيث تقضي العادة أنه لابد من خروجهم إلينا، فلم نر بحمد الله إلا خيراً، وأخذ الله بأبصارهم عنا.

ولما وصلنا تونس المحروسة، سافرنا منها إلى ثغر سوسة في مركب كبير فلما كنا في أثناء سفرنا، هال علينا البحر هولاً لم ير مثله، وحصل الأياس، فسلمنا الله ببركة المثال المعظم ﷺ على مشرفه وسلم، وقد حدثني جماعة ممن أثق بخبرهم أنه هال عليهم البحر فتشفعوا بالمثال المعظم، وتوسلوا به إلى ذي الجلال والإكرام، فمن الله عليهم بالفرج التام ببركة مشرفه عليه أفضل الصلاة والسلام ولما سافرت من مصر المحروسة إلى بندر السويس ركبت في مركب صغير هندي، فأخذتنا في البحر أهوال ما رؤي قط مثلها فيما أخبر به من طعن في السن في هذه الأزمان وغرق بسبب ذلك عدة مراكب سلطانية وغيرها نحو السبعة.

وقد أشرفنا نحن على الهلاك مرات عديدة، فسلم الله ببركة المثال. وقد رأينا ذات يوم ناراً كالخارجة من البحر، وبيننا وبينها نحو عشرين باعاً، وقد نحت نحو المركب، فهرب الربان والبحرية وأيقنوا بالهلاك. فنجانا الله منها بعد أن قربت منا نحو ذراعين، وكاد لهيبها يحرق المركب.

ثم بعد هذا لم تكن ريح مساعدة لنا، وبقينا حائرين، فألهمني الله أن أشرت إلى المثال الشريف، وقلت موالياً بديهة:

سـألـت ربـي بطـه ... صـاحـب النعليـن
ومـن ممـا قـدره ... فـي الأصفيـا الأعليـن
فـي أن يمـن علينـا ... بـالنسيـم اللبـن

يســــرع بنـــا لنحـــو الطيـ ــــــب الأصليــــــن

فما فرغت من ذلك إلا وساعدتنا الريح اللينة، حتى وصلنا الينبوع، ونزلنا منه ذاهبين إلى طيبة المشرفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام وكان في الطريق خارجي يخيف السبيل، ويأخذ أموال الناس فهجم وهجم معه قوم كثيرون وسلاح، فأخذ الله ببصره عنا، حتى وصلنا المدينة المنورة ولله الحمد... ولقد أصبحنا ذات يوم في البحر بين شعب الحجارة، وهي مكتنفة للمركب من خلفه وأمامه ويمينه وشماله، حتى إني كنت أنظر اليها وليس بينها وبين المركب الا ذراع أو نحوه، والبحر متلاطم الأمواج، والعادة قاضية بأنه لابد من وقوف المركب على واحد منها وتكسره بذلك، فتوسلنا بالمثال الشريف، فسلمنا الله سبحانه وتعالى وكم لهذه من أمثال.

قال رحمه الله تعالى بعد ما ذكر: وأخبرني ثقة ممن أثق بهم أنه مرض مرضاً مخوفاً أشرف منه على الهلاك، قال: فألهمني الله تعالى، حيث كان في الأجل فسحة إن أخذت المثال الطاهر المقدس، وتوسلت بمشرفه ﷺ إلى الله سبحانه وتعالى، فحصل الشفاء وأخبرني بعض الإخوان، ممن لا أتهمه، أنه سافر في بلاد مخوفة جداً، بحيث لا ينجو المسافر فيها من اللصوص عادة، ومعه المثال الكريم، فنجاه الله تعالى، وقصده اللصوص ورصدوه غير مرة، فلم يكن لهم إليه سبيل.

قال: وقد عاينت له هذه الأيام بالقاهرة المعزية بركة عجيبة، وذلك أني جعلت هذا المصنف الشريف الذي تشرف بالنعل والمثال في خزانة مع جملة كتب، ففتحت الخزانة لآخذ بعض الكتب، فإذا العقرب فوق الأوراق يابسة كأنها مضت لها مدة مديدة وما أرى ذلك الأمر إلا من بركة المثال الشريف، وعلى الجملة فمنافعه شهيرة، والخواص التي اشتمل عليها أجلى من شمس الظهيرة، والحكايات في ذلك عن غير واحد من ذوي الرتب الأثيرة كثيرة، والاستشفاء به شأن الأئمة المقتدى بهم قديماً وحديثاً.

وقد سبق في النظم الإلمام بشيء من ذلك في كثير من القصائد وغيرها، فحق ناظره أن يسعى إلى لثمه سعياً حثيثاً.

قال: وقد رأيت مولاي العم الإمام سقى الله ضريحه من الرحمة صوب الغمام يمرغ وجهه وشيبته النيرة على المثال غير مرة، وكذلك غيره من شيوخنا الأعلام. وكل ذلك منهم تبركاً بمشرفه ﷺ. وطلباً للشفاء به من السقام.

وما هذا بمنكر ولا مستغرب في التبرك بآثاره ﷺ وما أحسن قول كثير عزة:

خليلـــي هـــذا ربـــع عـــزة فـــاعقـــلا فلـــوصيكمـــا ثـــم انـــزلا حيـــث حلـــتِ

ومسا تراباً طالما مس جلدها وظلا وبيتا حيث باتت وظلت
ولا تيأسا أن يمحو الله عنكما ذنوباً إذا صليتما حيث صلت

وذكر جماعة أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام واليمن والحجاز، وفاتح البلاد، ومنقذها من عبادة الأصنام، وهو من أجل ملوك الإسلام، أهديت له مروحة مكتوب في أحد وجهيها: «هذه هدية ما أهدي مثلها لك ولا لأبيك ولا لأحد من الملوك»، وكانت الهدية من شريف المدينة المنورة، على ساكنها الصلاة والسلام، فغضب ثم قلب الوجه الآخر، فإذا فيه هذين البيتين، ويقال إن الرسول الذي أتى بها قال له: لا تغضب حتى تقرأ ما في الناحية الأخرى وهو هذا:

أنا من نخلة تجاور قبراً ساد من فيه سائر الخلق طرا
شملتني سعادة القبر حتى صرت في راحة ابن أيوب أقرا

فقال: صدق والله وفرح بها ووضعها على محاجره، وجعلها خير متاجره، وقد صح عند جماعة من أئمتنا المقتدى بهم تقبيل اسمه الشريف ﷺ فيما هو مكتوب فيه، وتبجيله والتبرك به، ووضعه على العيون والرؤوس.

قال الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد التوزري مخمس القصيدة الشقراطيسية في مدح خير البرية ﷺ وشارح هذا التخميس بشرح لم يسبق إلى مثله في مجلدات عدة إنه ولد عندنا بتوزر ليلة غرة رجب من عام أربعة وسبعين وستمائة، جدي أسود بغرة بيضاء، وفيها مكتوب بالأسود «محمد» بخط بيِّن يقرؤه كل أحد، فألَّفت في ذلك تأليفاً سميته بكتاب «الغرة اللائحة والمسكة الفائحة في الخطوط الصمدية والمفاخرة المحمدية» ونظمت في ذلك قصيدة منها:

جدي غدا كالجدي أشرق نوره فمحله فوق السماك الأعزل
رقمت يد الأقدار صفحة وجهه رقماً بديعاً باسم أكرم مرسل
فتلألأت أنواره فشعاعها كالشمس قد حلت بأشرف منزل
ما أبصر الاسم الشريف موحد إلا وقبل منه خير مقبل
رويت به ألبابنا فكأنما وردت به الأفواه أعذب منهل
في غرة الشهر المبارك أشرقت فالناس بين مكبر ومهلل
عجب أتى رجب به فتأكدت بركاته في قلب كل مؤمل
فكأن من قد قال عش رجباً ترى عجباً عناه بالزمان المجمل
يا غرة كالصبح تدم حسنها خط من الليل البهيم الأليل
أشهى وأحلى في النفوس من الكرى وألذ من عذب الزلال السلسل

هي خط أنعام على لوح الهدى لمؤمل نعماه أو متأمل
هي تاج إحسان على رأس العلا أحسن بتاج بالسناء مكلل
سبح بدا في لؤلؤ متلألئ طرز على ثوب الجمال الأكمل
طراز به ازدان الزمان بأسره في الحال والماضي وفي المستقبل
يا توزر الغراء فزت بغرة غراء في زمن أغر محجل
جري ذيول الزهو من فرح بها جر الفتاة ذيول برد مسبل
أعطيت ما لم يعط غيرك مثله شكراً لمولاك العلي المفضل
شرف خصصت به وفضل باهر يبقى على مر الزمان الأطول
هذا طراز الحسن لا ما قاله حسان في حسن الطراز الأول

قال المقري: وقد حكى عياض «في الشفاء» وابن مرزوق في «شرح بردة المديح» جملة حكايات في كتابة اسمه ﷺ بقلم القدرة على الحجارة وغيرها، وقد رأيت أنا بمدينة فاس عام ستة وعشرين وألف حجراً أسود قدر الكف، مكتوباً فيه بقلم القدرة: «لا إله إلا الله» في ناحية و«محمد رسول الله» في الناحية الأخرى، ولون الكتابة أسود، وقد ثقب بعض الناس للاختبار حرفاً منه بآلة حديد حتى نفذت من الناحية الأخرى، وكان ذلك زيادة في تصحيح أنه بقلم القدرة، وقد أعطيت فيه مالكته ـ وهي امرأة من فاس ـ وزنه مرتين ذهباً لتبيعه مني بذلك، فامتنعت، فرغَّبتها بكل وجه ممكن فلم تفعل، وبقي عندي أياماً ورددته لها؛ وهو مشهور بفاس يأخذه النساء الحوامل لتسهيل الولادة وذكرت صاحبته أنها وجدته بساحل البحر المحيط بهذه الأزمان القريبة، فسبحان من أظهر أمره ﷺ كل الإظهار.

فائدة: تتعلق في لثم مثال النعل الشريف وسائر الأشياء المعظمة.

قال المقري: وقد علم من حال كثير من المشايخ المعتمد عليهم التبرك بآثار من يعظمونه للدين، وهذا أمر مستفيض، وقد عنَّ لي أن أشير إلى بعض ما قيل في تقبيل الأشياء المعظمة، فأقول مذهب كثير من العلماء وخصوصاً المالكية الكراهة في غير ما ورد به الشرع، كتقبيل الحجر الأسود ولقد قال بعض الأئمة عندما تكلم على تقبيل الحجر الأسود.

وقول عمر رضي الله عنه فيه: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك، ما نصه فيه كراهة تقبيل ما لم يرد الشرع بتقبيله من الأحجار وغيرها انتهى.

وقال الحافظ زين الدين العراقي رحمه الله في قول الإمام الشافعي رضي الله عنه: ومهما

قبل من البيت فحسن إنه لم يرد بالحسن مشروعية ذلك، بل أراد إباحة ذلك، والمباح من جملة الحسن، كما ذكره الأصوليون انتهى.

وقال بعضهم: إن في كلام العراقي في هذا نظراً لا يخفى. وقال العراقي أيضاً: أما تقبيل الأماكن الشريفة على قصد التبرك وأيدي الصالحين وأرجلهم، فهو حسن محمود باعتبار القصد والنية.

وقد سأل أبو هريرة رضي الله تعالى عنه الحسن رضي الله عنه أن يكشف له المكان الذي قبّله رسول الله ﷺ وهو سرته، فقبّلها تبركاً بآثاره وذريته ﷺ.

وقد كان ثابت البناني لا يدع يد أنس رضي الله عنه حتى يقبلها ويقول: يد مست يد رسول الله ﷺ.

وقال أيضاً: أخبرني الحافظ أبو سعيد بن العلاء قال: رأيت في كلام أحمد بن حنبل في جزء قديم عليه خط ابن ناصر وغيره من الحفاظ، أن الإمام أحمد سئل عن تقبيل قبر النبي ﷺ وتقبيل منبره، فقال: لابأس بذلك. قال: فأريناه الشيخ تقي الدين بن تيمية، فصار يتعجب من ذلك، ويقول: عجيب أحمد عندي جليل، يقول: هذا، هذا كلامه أو معنى كلامه قال: وأي عجب في ذلك وقد روينا عن الإمام أحمد أنه غسل قميصاً للشافعي، وشرب الماء الذي غسله به؟ وإذا كان هذا تعظيمه لأهل العلم، فكيف بمقادير الصحابة فكيف بآثار النبي ﷺ؟ ولقد أحسن مجنون ليلى حيث يقول:

أمـــر علـــى الـــديـــار ديـــار ليلـــى ... أقبـــل ذا الجـــدار وذا الجـــدارا

ومـــا حـــب الـــديـــار شغفـــن قلبـــي ... ولكـــن حـــب مـــن سكـــن الـــديـــارا

انتهى. وقال المحب الطبري: يمكن أن يستنبط من تقبيل الحجر واستلام الأركان جواز تقبيل مافي تقبيله تعظيم الله تعالى فإنه إن لم يرد فيه خبر بالثواب لم يرد بالكراهة. قال: وقد رأيت في بعض تآليف جدي محمد بن أبي بكر، عن الإمام أبي عبد الله بن أبي الصيف أن بعضهم كان إذا رأى المصاحف قبّلها، وإذا رأى أجزاء الحديث قبّلها، وإذا رأى قبور الصالحين قبّلها قال: ولا يبعد هذا، والله أعلم في كل ما فيه تعظيم الله تعالى وقد عرفت أن مذهب المالكية في مثل هذا الكراهة.

قال ابن الحاج في المدخل: والحذر مما يفعله بعضهم من طوافه بقبره ﷺ وكذلك أيضاً تمسحه بالبناء، ويلقون عليه مناديلهم وثيابهم، وذلك كله من البدع، لأن التبرك إنما يكون بالاتباع له ﷺ وما كانت عبادة الجاهلية الأصنام إلا من هذا الباب ولأجل ذلك كره علماؤنا التمسح بجدار الكعبة أو بجدار المسجد أو المصحف، وتعظيم المصحف قراءته والعمل بما

فيه، لا تقبيله ولا القيام له كما يفعله بعضهم في زماننا هذا، والمسجد تعظيمه الصلاة فيه واحترامه، لا التمسح بجدرانه؛ وكذلك الورقة يجدها الإنسان مطروحة فيها اسم الله تعالى أو نبي أو غير ذلك، فتعظيمها بإزالتها من موضع المهنة لا بتقبيلها؛ وكذلك الولي تعظيمه اتباعه لا تقبيل يده. انتهى محل الحاجة.

فإن قلت: هذا الذي قاله ابن الحاج من الكراهة فيما ذكر مخالف لما قدمتموه عن غير واحد من علماء المالكية في لثمهم مثال نعل النبي ﷺ وأمرهم في كلامهم بلثمه؛ وقد تقدم في قصائدهم ومقطوعاتهم الكثير من ذلك، فهل الصواب معهم أو مع ابن الحاج، وهو من العلماء الزاهدين الورعين المعتمد عليهم والمقتدى بهم؟ قلت: لعل من فعله ممن يقتدى به من علماء المالكية قلد من يرى جواز ذلك من علماء الأمة، والله سبحانه أعلم، ولولا أمرهم باللثم والتقبيل لأمكن أن يقال غلبهم الشوق ففعلوا ما فعلوا من ذلك من غير اختيار على حد قوله:

فقلت ومن يملك شفاها مشوقة   إذا ظفرت يوماً ببغيتها القصوى

انتهى كلام الإمام المقري، وقد استوفيت الكلام بالنقل عن العلماء الأعلام على التبرك في آثار الصالحين بالتقبيل ونحوه، في كتابي شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق ﷺ في آخر الباب الأول منه، في فصل ذكرت فيه ما لا ينبغي فعله للزائر؛ ومما نقلته فيه عن شيخ الشافعية الشمس الرملي قوله في «شرح المنهاج»: ويكره أن يجعل على القبر مظلة، وأن يقبل التابوت الذي يجعل فوق القبر واستلامه، وتقبيل الأعتاب عند الدخول لزيارة الأولياء.

نعم إن قصد بتقبيله التبرك لا يكره، كما أفتى به الوالد اهـ.

الفصل السادس: قال رحمه الله تعالى في خاتمة كتابه المذكور «فتح المتعال» بعد أن ذكر أرجوزة في وصف مثال النعل الشريف ومنافعه، نظم بها ما تقدم ذكره: وقد رأيت أن أذكر في هذه الخاتمة مسائل، كان حق بعضها أن يكون في الأوائل، فمنها: إن رسول الله ﷺ كان أحسن البشر قدماً رواه ابن عساكر. وكان رسول الله ﷺ ضخم القدمين، رواه الشيخان والبهقي.

وقال هند بن ابي هالة: كان رسول الله ﷺ شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، سبط القصب، خمصان، الأخمصين، مسيح القدمين؛ ينبو عنهما الماء، رواه الترمذي. «وخمصان» ضبطه جماعة بضم الخاء المعجمة، ووجد كذلك مضبوطاً بالقلم في نسخة صحيحة من «صحاح» الجوهري «ونهاية» ابن الأثير، لكن وقع في بعض نسخ الشفاء المعتمدة ضبطه بالفتح.

وقال في النهاية: الأخمص من القدم الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند الوطء، والخمصان المبالغ منه، أي ذلك الموضع من أسفل قدمه ﷺ كان شديد التجافي عن الأرض. وسئل ابن الأعرابي عنه، فقال: إذا كان خمص الأخمص بقدر لم يرتفع عن الأرض جداً، ولم يستوِ أسفل القدم فهو أحسن الخمص بخلاف الأول، ومسيح القدمين بميم مفتوحة فسين مكسورة، فمثناة تحتية ساكنة، فحاء مهملة، معناه: أنهما لينتان ليس فيهما تكسر ولا شقوق؛ فإذا أصابهما الماء نبا عنهما سريعاً لملاستهما فينبو عنهما ولا يقف، يقال: نبا الشيء ينبو إذا تباعد.

وأما رواية عبد الرزاق والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يطأ بقدمه جميعاً، وفي لفظ كلها ليس له أخمص، فيحتمل كما قاله بعض الشيوخ: إنه ﷺ في هذه الحالة وطئ وطئاً شديداً، فظهر موضع قدمه جميعاً بخلاف الأول، فإنه عند خفة الوطء لا يرى أثر خمصه، وبه يحصل الجمع إن شاء الله تعالى.

وقوله: «سائر الأطراف» يروي بالراء واللام. وقال العلامة ابن حجر ما نصه: وأما قدمه ﷺ فجاء عن غير واحد أنه شثن القدمين، أي غليظ أصابعهما. . . إلى أن قال: وكان ذا خمص لهما، أي ليس باطنهما كثير انخفاض، بحيث يطأ به كله، فهو معتدل الخمص. ومعنى رواية «مسيح القدمين» أن فيهما مع ذلك ليناً وملاسة دون تكسر وتشقق اهـ. وهو من نمط ما تقدم.

وقال في شرح الهمزية ما صورته محل الحاجة منه، إذ الأخمص من القدم الموضع الذي لا يلتصق بالأرض منها عند الوطء؛ والخمصان: المبالغ فيه، ولا يرد ما رواه البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه كان رسول الله ﷺ إذا وطئ بقدمه وطئ بكلها ليس له أخمص، وابن عساكر عن أبي أمامة كان ﷺ لا أخمص له يطأ على قدمه كلها، لأن المراد أخمصه ﷺ معتدل الخمص، ومن ثمَّ قال ابن الأعرابي: إذا كان خمص الأخمص بقدر لم يرتفع جداً، ولم يستو أسفل القدم جداً، فهو أحسن ما يكون؛ وإن استوى وارتفع جداً فهو ذم اهـ. وهو نحو ما قدمناه والله أعلم.

ومنها: إن أحمد بن حنبل إمام السنة رضي الله عنه روي هو وغيره أن ميمونة بنت كردم بوزن جعفر رضي الله عنها رأت سبابة قدم رسول الله ﷺ أطول من سائر أصابعه.

وروى البيهقي من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: كانت خنصر رسول الله ﷺ من رجله متظاهرة، وفي سنده سلمة بن حفص السعدي، قال ابن حبان في حقه: إنه كان يضع الحديث فلا يحل الاحتجاج به ولا الرواية عنه، وحديثه هذا باطل لا أصل له، ورسول الله ﷺ كان معتدل الخلق.

وقال العلامة ابن حجر ما صورته: وكانت سبابة قدمه ﷺ أطول من بقية أصابعها ومن روى ذلك في اليد، فقد غلط كما بينه غير واحد، وكانت خنصرها متظاهرة اهـ.

ومنها: إن كثيراً من ما دحيه ﷺ صرَّحوا بأنه كان إذا مشى على الصخر غاصت قدماه فيه، وإذا مشى على الرمل لا يؤثر فيه، حتى إنه اشتهر عند الناس قصد بعض الحجارة التي فيها أثر القدم النبوية، فيما يقال للتبرك بها، خصوصاً ما وضع منها في المواضع المقصودة للزيارة. قال: وقد رأيت بمصر المحروسة، بتربة السلطان المرحوم أبي النصر قايتباي المحمودي رحمه الله بالصحراء حجراً فيه أثر يقال: إنه أثر القدم النبوية؛ والناس يزورونه، وقد رأوا له بركات.

وقد كان الخنكار المرحوم سلطان الروم خادم الحرمين الشريفين ملك البرين والبحرين، مولانا السلطان أحمد بن مولانا السيد محمد بن مولانا السلطان مراد بن عثمان رحم الله سلفه، ونصر خلفه نقله من هذا المحل إلى حضرته العلية القسطنطينية، ثم أمر برده إلى محله، وجعل عليه فضة بصنعة ملوكية وعليها مكتوب مما قرأته ما مثاله:

تشوق حضرة السلطان أحمد	زيارته إلى القدم المكرم
فحركه بجاذبة اشتياق	على أقدام أقدام فقدم
وصيره إلى قسطنطينية	فقال له تقدم خير مقدم
وادخل داره باليمن حباً	وتعظيماً لصاحبه المعظم
حبيب الله سيدنا محمد	عليه ربنا صلى وسلم
وأرجعه بإعزاز عظيم	إلى تلقاء موضعه المقدم
إلهي عمر السلطان أحمد	وقدمه على من قد تقدم
بحرمة صاحب القدم المعلى	إلى الدرجات في الأفلاك سلم

وتشرف بزيارته في سنة ١٠٢٤. انتهى ما ألفيته بحروفه. قال: ورأيت بمكة المشرفة أيضاً في القبة التي وراء قبة زمزم أثر قدم في حجر يقولون: إنه أثر قدم النبي ﷺ وأخبرني بعض الناس أن بالحجرة الشريفة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام حجراً كذلك، ولم أره حين دخلت للتبرك بإيقاد مصابيحها. ثم سألت عن ذلك الثقات العارفين، وأجابوني: إن الحجرة ليس فيها شيء من ذلك، وإنما هو في بعض أماكن المدينة المنورة على صاحبها الصلاة والسلام فذهبت إليه فألفيت موضعه مما لا يمكن دخوله في الوقت الذي ذهبت اليه فيه، وبعد هذا تكرر دخولي الحجرة الشريفة مراراً عديدة، ولم أر فيها ذلك بيقين، فعلمت أن المخبر لي وهم قال: وقد رأيت أيضاً حجراً فيه أثر قدم بقبة الصخرة الشريفة بالبيت المقدس،

والناس يعظمونه ويتبركون به وقد صرح جماعة من الحفاظ بأنه لا وجود لشيء من ذلك في كتب الحديث ألبتة.

وممن أنكره الإمام برهان الدين الناجي بالنون الدمشقي رحمه الله وجزم بعدم وروده، وكذا حافظ الإسلام الجلال السيوطي في فتاويه، وقال: إنه لم يقف له على أصل ولا سند ولا رأى من خرجه في شيء من كتب الحديث، وسلم ذلك تلميذه الحافظ الشامي في سيرته قائلاً، وناهيك باطلاع الشيخ يعني ـ السيوطي رحمه الله ـ وقد راجعت الكتب التي ذكرها في آخر الكتاب، فلم أر ذلك فشيء لا يوجد في كتب الحديث والتواريخ كيف تصح نسبته لرسول الله ﷺ؟ اهـ. ونص السؤال والجواب في ذلك.

مسألة: فيما هو جارٍ على ألسنة العامة، وفي المدائح النبوية أن النبي ﷺ لان له الصخر، وأثرت فيه قدمه، وأنه كان إذا مشى على الرمل لا تؤثر قدمه فيه، هل له أصل في كتب الحديث أو لا؟ وهل إذا ورد فيه شيء من خرجه، وصحيح هو أو ضعيف؟ وهل ما ذكره الحافظ شمس الدين بن ناصر الدمشقي في معراجه الذي ألفه مسجعاً ولفظه، ثم توجهاً نحو صخرة بيت المقدس وعلاها، فصعد من جهة الشرق أعلاها، فاضطربت تحت قدم نبينا، ولانت فأمسكتها الملائكة لما تحركت ومالت، ألهذا أيضاً أصل في كتب الحديث؟ صحيح أو ضعيف أو لا؟ وهل هذا الأثر الموجود الآن بصخرة بيت المقدس المعروف هناك بقدم النبي ﷺ أو لا؟ وهل ورد في كتب الحديث أن سيدنا إبراهيم على نبينا، وعليه أفضل الصلاة والسلام أثرت قدماه في الحجر الذي يبنى عليه البيت الذي كان هو الآن بالمسجد الحرام بالمكان المعروف بمقام إبراهيم وهل هو صحيح أو ضعيف أو ليس له أصل؟ أو هل ما قاله بعضهم: إنه لم يعط نبي معجزة إلا حصل لنبينا محمد ﷺ مثلها أو لأحد من أمته، صحيح أم لا؟ ومن هو قائل ذلك؟ وهل صح أن النبي ﷺ لما جاء إلى بيت أبي بكر الصديق بمكة، ووقف ينتظره ألزق منكبه ومرفقه بالحائط فغاص المرفق في الحجر، وأثر فيه، وبه سمي الزقاق زقاق المرفق، أو ليس لذلك أصل؟ هل ما ذكره الثعلبي والطرطوشي في تفسيرهما: أن النبي ﷺ لما حفر الخندق، وظهرت الصخرة، وعجزت الصحابة عن كسرها، نزل النبي ﷺ إلى الخندق، وضربها ثلاث ضربات، وأنها لانت له، وتفتتت، صحيح ذلك أو ضعيف؟ أو ليس له أصل معتمد، وهل إذا ثبت أن الصخر لان له ﷺ وأثرت قدمه فيه يكون ذلك معجزة له ﷺ أو لا؟.

والجواب: أما حديث الصخرة التي ظهرت في الخندق، وعجز الصحابة عن كسرها، وضربها ثلاث ضربات فكسرها؛ فإنه صحيح ورد من طرق بألفاظ متعددة، فأخرجه البيهقي

وأبو نعيم معاً في دلائل النبوة من حديث عمرة بن عوف المزني، ومن حديث سلمان الفارسي وفي حديث البراء ابن عازب وأصله في الصحيح من حديث جابر، قال: كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة فجاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق فأخذ المعول، فضرب فعادت كثيباً أهْيل.

وأما قوله: وهل ورد في كتب الحديث أن سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام أثرت قدماه في الحجر الذي كان يبني عليه البيت وهو المقام؟ نعم، ورد ذلك بل أخرجه الأزرقي في تاريخ مكة من طريق أبي سعيد الخدري، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنهما موقوفاً عليه بسند صحيح، وأخرجه عبد بن حميد في تفسيره عن قتادة، وأخرجه أيضاً عن عكرمة.

وبقية ما ذكر في الأسئلة لم أقف له على أصل ولا سند، ولا رأيت من أخرجه في شيء من كتب الحديث. اهـ.

وقال أيضاً الحافظ السيوطي في «الخصائص»: ومما أورده رزين، صاحب «الصحاح» في خصائصه أنه ﷺ كان إذا وطئ الصخر أثر فيه، وذكره الحافظ الترمذي تلميذ ابن القيم في خصائصه، فقال: وأما إلانة الحديد لداود عليه السلام فلأن إلانة الحديد معروفة بالنار، وقد ألان الله الحجارة لمحمد ﷺ ولا يعرف لين الحجارة بالنار ولا بغيرها. وهذا أبلغ، ثم قال: وأعجب من هذا أنه كان إذا مشى على الصخر لانت تحت أقدامه، وإذا مشى على الرمل لا يؤثر فيه خرقاً للعادة الجارية وقال في أول كتابه: ونحن نذكر ما نقل عن كل نبي من المعجزات ما ثبت لنبينا ﷺ من الخصائص، وماله من الفضائل والفواضل اهـ.

وقد ورد كما قدمناه أن قدم إبراهيم على نبينا وعلى سائر الأنبياء، وعليه الصلاة والسلام أثرت في الحجر الذي هو في المقام.

قال المقري: وقد دخلت محله المعظم مراراً أولها عام ١٠٢٩ أو شاهدت أثر القدم الإبراهيمية في المقام، وتبركت به، وتمسحت بماء الورد الذي جعل فيه، وشربت منه؛ فلله الحمد والمنّة، فهو المسؤول سبحانه أن يجعلنا من الآمنين آمين.

وقال العلامة ابن حجر في شرح همزية البوصيري عند قوله:

أو بلثـــم التـــراب مـــن قـــدم لا   نـــت حيـاء مـــن مشيهـا الصفــواء

ما نصه: ونبّه بذلك على أنه ينبغي لك أيها العاقل أن تستحي من مخالفتك ماجاء عن نبيك، لأنك إذا علمت أن الحجر الأصم استحيا منه ﷺ أن يبقى عَلى صلابته مع مشيه عليه،

فتشق عليه صلابته، فلأن له حتى يسهل عليه، فأنت أولى بالاستحياء منه ﷺ أن تبقى على مخالفته مع علمك بجليل أوصافه وعُليّ أخلاقه ﷺ.

ثم هذا الذي ذكره الناظم ذكره غيره ممن تكلم على خصائصه ﷺ لكن بلا سند ثم ذكر عبارة الحافظ السيوطي في الخصائص، وقد تقدمت قريباً.

وسئل الشيخ الحافظ المحدث سيدي الشيخ محمد بن أحمد المتبولي المصري الشافعي رحمه الله تعالى: هل ورد أن الذباب كان لا يقع عليه ﷺ ولا يرى له ظل في الشمس أم لا؟ وهل كان ﷺ إذا مشى لا يرى له أثر في الرمل وتؤثر قدمه الشريفة في الصخر الجلمد، ونحو ذلك أم لا؟.

فأجاب: نعم، روى ابن سبع والنيسابوري وغيرهما أنه ﷺ كان لا يقع الذباب عليه، ولا يرى له ظل في الشمس.

والحكمة فيه أن الذباب من معانيه أنه مذلة للجبارين وهو ﷺ منزه عن التجبر. وأما الثانية فهو ﷺ نور ولا ظل للنور. وتأثيره في الصخر إبقاء لأثره الشريف، وإشارة إلى أن الصخر لان له خلافاً لجاحده ممن كفر به ﷺ ولم يتبعه وسند الحديثين ضعيف إلا أن باب الفضائل ونحوها يتسامح فيه دون العقائد والأحكام، فلا مسامحة فيهما ألبتة. والله أعلم. انتهى جواب الحافظ المتبولي رحمه الله تعالى.

وفي «الشفاء» ما نصه وما ذكر: أنه ﷺ لا ظل لشخصه في شمس ولا قمر، لأنه كان نوراً، وأن الذباب كان لا يقع على جسده ولا ثيابه ﷺ اهـ.

أما كونه لا ظل لشخصه في الشمس، فقد علمت أنه رواه ابن سبع والنيسابوري وغيرهما كما تقدم في جواب الشيخ، وروى الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» عن عبد الرحمن بن قيس، وهو وضّاع كذاب، عن عبد الملك بن عبد الله بن الوليد، وهو مجهول عن ذكوان: لم يكن للنبي ﷺ ظل في شمس ولا قمر.

وأما كون الذباب لا يقع عليه ﷺ: فقد علمت أيضاً مما سبق أنه رواه ابن سبع والنيسابوري بسند ضعيف، وكأن الشيخ الدلجي لم يقف عليه، فقال: لا أدري من رواه مع أنه مذكور في حاشية العلامة ابن اقبرس على الشفاء وإذ قال عند قول صاحب الشفاء وما ذكر أنه ﷺ لا ظل له في شمس ولا قمر ما نصه هذه المقالة منسوبة لابن سبع، وعلله بقوله: لأنه ﷺ كان نوراً وفي هذه العبارة بحث بأنه ﷺ بشر، كما نطق به القرآن بقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وإنما تصحيح هذه العبارة أن يقال: مراده أن له نوراً يغلب نور

الشمس والقمر، فلهذا لم يظهر له ظل لاختلاف النورين، فهو ذات لها نور وهل هذا خاص به ﷺ دون غيره من الأنبياء؟ الظاهر أنه كذلك وإن كان لكل نور، والله أعلم اهـ.

وقال في قوله: وإن الذباب لا يقع على جسده ولا ثيابه ﷺ ما صورته: قلت: هذه المقالة أيضاً لابن سبع، وتعليلها أن الله طهره تطهيراً، وربما أحدث الذباب شيئاً على من يقع عليه اهـ.

وتأمل قوله: «وفي هذه العبارة بحث» إلى آخره هل يسلم من الاعتراض، فإن للنظر فيه مجالاً.

قال المقري: ورأيت بخط قاضي القضاة محمد بن إبراهيم التتائي المالكي المصري رحمه الله ما نصه رأيت في بعض المجاميع مكتوباً معزواً أن من معجزاته ﷺ أن من كتب هذه الأمور العشرة الآتية ووضعها في بيت لم يحرق، ومن كتبها وطرحها على النار خمدت:

الأولى: ما وقع ظله ﷺ على الأرض قط.

الثانية: ما ظهر بوله ﷺ على الأرض قط.

الثالثة: لم يقع عليه ﷺ الذباب قط.

الرابعة: لم يحتلم ﷺ قط.

الخامسة: لم يتثاءب ﷺ قط.

السادسة: لم تهرب منه ﷺ دابة قط.

السابعة: ولد ﷺ مختوناً.

الثامنة: تنام عيناه ﷺ ولا ينام قلبه.

التاسعة: كان ﷺ ينظر من ورائه كما ينظر من أمامه.

العاشرة: كان ﷺ إذا جلس بين قوم كانت كتفاه أعلى منهم، والله اعلم اهـ.

وللمحدثين كلام في بعض هذه العشرة وأوردوا لها منافع كثيرة، ومنها: أنه كان بالأشرفية من دمشق المحروسة نعل للنبي ﷺ يقصدها الناس للتبرك بها.

قال ابن رشيد في «رحلته ملء العيبة» عند ذكر المدرسة الأشرفية، وإنها إحدى المدارس الحافلة مع علو ساحتها وتشييد بنيانها، وإتقان أبوابها ما نصه: وبها إحدى نعلي النبي ﷺ فقصدتها للتبرك بها والشفاء من مرض أصابني، فوجدت بركتها، وألفيت بها مريضاً وبعض العواد عنده، يعني شيخه زين الدين عبد الله الفارقي الشافعي. وهذه المدرسة ابتنى في قبلتها

بيتان، أحدهما عن يمين المحراب وضع فيه نسخ من المصاحف والآخر عن يساره فيه النعل الكريمة فردة واحدة، وقد وضع لهذا البيت باب مصفح بالنحاس الأصفر كأنها صفائح ذهب، وعلق عليه كلل الحرير ثلاث خضراء وحمراء وصفراء، ووضعت النعل الكريمة على كرسي من أبنوس، ثم وضع على النعل لوح من أبنوس، وبقر في وسط اللوح بمقدار ما ظهرت النعل الكريمة منخفضة عن اللوح بمقدار البقر؛ ولا شك أنه بقي منها تحت أطراف اللوح مقدار ما ثبتت به تحت اللوح، وما أخذته المسامير التي طوقت به فإن الدائر المحيط بها كله مكوكب بمسامير فضة، ويملأ ذلك الظاهر منها الذي هو مبقور عليه بأنواع الطيب حتى إن الذي يلثمها يتمرغ فمه من طيبها، فإذا أراد الذي يحذو عليها مثالها، جاء بكاغد. أو ورق ووضعه على مقدار البقر، وخزره بظفره فارتسم مقدار النعل مثالاً وقد وكل بها قيم له عليها مرتب، بلغنا أنه أربعون درهماً ناصرية، يفتح يوم الإثنين ويوم الخميس للناس يتبركون بلثمها فاتفق أني جئت إلى الشيخ زين الدين الفارقي شيخ التدريس بها في غير هذين اليومين، فألفيته مريضاً لزيماً للفراش، فتحفى وأمر الخدم القيم بفتحها لي، ففعل وتمكنت من لثمها والتبرك بها والحذو عليها هذا المثال الذي تراه في الرق، وهو محذو على المثال المباشر لها فإن المباشر لها استوهبه مني بعض من كان له حق من الإخوان لم استطع رده، فوهبته له وحذوت هذا عليه سواء، وبين المثال الذي حذوته على النعل مباشرة وبين ما كان قد حذا عليها شيخنا الفقيه المحدث أبو يعقوب الحساني رحمه الله مخالفة بين الاتساع والضيق في الجوانب وفي جهة العقب أكثر ذلك حسبما حذوته على المثال الذي حذاه صاحبنا المقري المجود أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الحق الأنصاري، المعروف بابن القصار، بمدينة فاس قديماً على مثال شيخنا أبي يعقوب الحساني رحمه الله تعالى وأخبرني به عن شيخنا أبي يعقوب رحمه الله وسبب الاختلاف فيما نراه بين المثالين أن شيخنا رحمه الله حذا على النعل الكريمة، وهي موضوعة على كرسي الأبنوس، ظاهرة كلها مسمَّرة عليه قبل أن يطبق اللوح عليها، ثم يبقر على مقدارها فلا شك أنه بقي منها ما استمسكت به تحت اللوح، وما أحاطت به المسامير، والله أعلم.

قال ابن رشيد المذكور: وكان من قصة هذا النعل، حسبما أخبرني به صاحبنا المقري أبو عبد الله محمد بن علي بن القصار في الحادي والعشرين من شعبان المكرم، عام سبعة وسبعين وستمائة، وفي هذا التاريخ كان حذوي على مثاله الذي حذاه على مثال الشيخ أبي يعقوب: الحساني رحمه الله عن شيخنا أبي يعقوب أن القدم التي قاس عليها كانت مما وصلت لميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين رضي الله عنها مما تركه النبي ﷺ فتوارثه ورثتها من بعدها إلى أن حصل بيد بني الحديد، ولم يزالوا يتوارثونه إلى آخرهم موتاً، فترك ثلاثين ألف

درهم، وترك ذلك القدم وولدين له فقال أحدهما للآخر: تأخذ المال أو تأخذ القدم؟ فاصطلحا على أخذ أحدهما المال والآخر القدم فذهب به إلى أرض العجم، فكان يعدو به على الملوك يتبركون به، حتى رجع إلى بلاد أخلاط، فبعث به إلى الملك الأشرف بن العادل ليتبرك به، فطلب منه أن يقطع له منه قطعة يتبرك بها ثم إن الملك الأشرف تحرز عن ذلك وطلب منه أن يعوضه عنه قرية ويعطيه إياه وقال له: أنت شيخ كبير، فما تصنع به؟ فأجابه إلى ذلك ثم إن الملك الأشرف ملك الشام استوطن مدينة دمشق، فابتنى بها داراً لحديث رسول الله ﷺ ووقف لها وقفاً كثيراً وجعل الجانب القبلي منها مسجداً للصلاة وجعل شرقي محراب المسجد بيتاً لتلك النعل المذكورة، فسمَّرها بمسامير فضة على تابوت من أبنوس، وجعل له قفلاً من فضة، وأرخى عليه ثلاثة ستور من حرير أخضر وأحمر وأصفر، كل ستر منها باب، وجعل له باباً كبيراً مصفحاً بالنحاس كأنه الذهب، وجعل عليه فيما رتب له أربعين درهماً ناصرية مبلغها ثمانون درهماً من دراهمنا في كل شهر، يفتح في كل يوم اثنين وكل يوم خميس لمن يتبرك به.

ثم قال ابن رشيد: قال محمد بن علي بن عبد الحق الأنصاري: نزلنا هذا المثال على النعل الذي قاسه شيخنا أبو يعقوب على نعل رسول الله ﷺ للتبرك به، واعتنى به جعلنا الله من أمته المهتدين بأنوار سنة شريعته، السالكين على آثار سنته بمنه وكرمه قال محمد بن رشيد: فحذوت أنا على المثال الذي حذاه صاحبنا أبو عبد الله رحمه الله قال: ولما حذوت على القدم الكريمة، قلت في وصفها هذه الأبيات نفع الله بها.

هنيئاً لعيني إذ رأت نعل أحمد

ثم ذكر تمامها، وقد تقدمت في حرف الدال فراجعها. انتهى. كلام المقري.

يقول مختصره الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه قد راجعتها في حرف الدال من الباب الثالث من كتابه هذا «فتح المتعال»، فوجدته قد قال فيه ما نصه: قال الإمام الحافظ الرحالة الشهير، أبو عبد الله بن محمد بن رشيد الفهري المغربي المالكي السبتي رحمه الله في رحلته الحافلة الموسومة بملء العيبة، مما جمع بطول الغيبة، في الوجه الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة: لما دخلت دار الحديث الأشرفية، برسم رؤية النعل النبوية الكريمة بالمصطفى ﷺ ولثمتها، حضرتني هذه الأبيات:

هنيئاً لعيني إذ رأت نعل أحمد	فيا سعد جدي قد ظفرت بمقصدي
وقبلتها أشفي الغليل فزادني	فيا عجباً زاد الظما عند موردي
فلله ذاك اللثم فهو ألذ من	لمى شفة لميا وخد مورد

وللّـــه ذاك اليـــوم عيـــداً ومعلمـــاً ... بتـــاريخـــه أرخـــت مـــولـــد أسعـــدي

عليـــه صـــلاة نشـــرهـــا طيـــب كمـــا ... يحـــب ويـــرضـــى ربنـــا لمحمـــد

وذكر المقري في ذلك الباب كلاماً آخر يتعلق بهذه الأبيات لم أر ضرورة لنقله هنا.

وارجع إلى تتمة كلامه في الخاتمة، قال رحمه الله تعالى: وما أشار إليه ابن رشيد أن هذه النعل يعني التي وجدت في مدرسة الأشرفية في دمشق كانت لبني أبي الحديد، يؤيده ما وقع في استجازة الشيخ المحدث أبي عبد الله البرزالي في أسماء المستجاز لهم، إذ قال: ولأحمد بن أبي الحديد صاحب نعل سيدنا رسول الله ﷺ وذلك في سنة تسع وستمائة. انتهى.

قال المقري: وقد قدمنا في الباب الثاني ذكر رجل آخر من بني أبي الحديد ممن كانت عنده النعل النبوية، فإنها كما تقدم لابن رشيد كانت متوارثة.

وقال العبدري في «تاريخه» بعد كلامه في شأن الملك الأشرف ما صورته: وقد كان شجاعاً كريماً جواداً محباً للعلم وأهله، ولاسيما أهل الحديث وحفاظه الصالحين، وقد بنى لهم دار الحديث بدمشق... إلى أن قال: وجعل فيها نعل النبي ﷺ الذي ما زال حريصاً على طلبه من النظام بن أبي الحديد التاجر انتهى المقصود منه.

وقد كان أهل دمشق يستشفعون بهذه النعل النبوية عند نزول المعضلات بهم، فيرون بركتها وقد حصلت لهم مظلمة عظيمة أيام الناصر مخمد بن قلاون، على يد نائبه بدمشق سيف الدين كراي، وذلك أنه قرر عليهم ألفاً وخمسمائة فارس، وكانت العادة مائتي فارس، فعجز عن ذلك أهل دمشق وأغلقت البلد لأنه أدخل في المظلمة أهل الأسواق وخواص البلد وأملاكها وحاراتها، وأمر نائب السلطنة المذكور بكتابة الأسواق والحارات وجميع أملاك دمشق ليوظف عليها، فضج الناس وشكوا إلى القضاة والخطيب والأئمة، فتواعد الجميع على الطلوع إلى النائب سيف الدين المذكور، فلما كان يوم الإثنين ثالث عشر جمادى الأول من عام أحد عشر وسبعمائة، أخذ الخطيب جلال الدين القزويني صاحب «تلخيص المفتاح والإيضاح» المصحف المكرم العثماني، ونعل النبي ﷺ من دار الحديث الأشرفية، وأعلام الجامع التي تكون بين يدي الخطباء؛ وخرج من باب الفرج ومعه العلماء والفقهاء والقراء والمؤذنون والأئمة وعامة الناس... فلما وصلوا إلى النائب واستغاثوا أمر بضربهم، وقال للجلال القزويني حين سلم عليه: لا سلم الله عليك. وضربت النقباء الناس، ورموا المصحف الشريف والنعل النبوية والأعلام، فعندها رجمهم الناس، وأخذوا الجلال القزويني إلى القصر، وخلص العوام المصحف والنعل، ودخلوا البلد، فما مضت عشرة أيام إلا وقد أخذ الله سيف الدين كراي النائب المذكور وقيد وسجن بأمر الناصر محمد بن قلاون، وناله من

الإهانة ما هو مشهور، وكل ذلك لتهاونه بالمصحف الشريف والنعل النبوية، وفرج الله عن أهل دمشق، وفرحوا بانتقام الله من هذا النائب الفرح العظيم.

قال المقري: قلت وقد فحصت عن أمر هذه النعل الشريفة في زماننا هذا، فلم أجد لها خبراً، وأظن أنها ذهبت في فتنة تيمورلنك حين ضرب دمشق وأحرقها سنة ثلاث وثمانمائة حسبما هو مشهور.

وذكر المقريزي: في تاريخه المسمى «بالسلوك» ما معناه أن السلطان سيف الدين جقمق، لما غضب على القاضي زين الدين عبد الباسط، وأمر بجعله في البرج دخل عليه وإلى القاهرة، وأمره أن يخلع جميع ما عليه من الثياب، فإنه نقل للسلطان أن معه اسم الله الأعظم، وكذلك كان كلما هم بعقوبته صرفه الله عنه، فخلع جميع ما عليه من الثياب والعمامة، ومضى بها الوالي وبما في أصابيع يديه من الخواتم، فوجدوا في عمامته قطعة أديم أي جلد ذكر لما سئل عنها أنها من نعل النبي ﷺ انتهى المقصود منه، ولعله أخذها من التي بالأشرفية بالشام، لأنه كان له الجاه العريض والتصرف في مملكة الإسلام بمصر والشام وما إليها؛ والله اعلم انتهى كلام المقري.

ثم قال بعد أن استطرد لذكر فوائد أخرى: وقد آن تمام ما أردناه وختام ما أوردناه من الكلام على نعل سيد المرسلين ﷺ وبعض ما يتعلق بمثالها من النثر والنظام، ثم ذكر عن بعض علماء المغرب قصيدة رائية تزيد على ثلاثمائة بيت في مدح النبي ﷺ وكلاماً منثوراً ولغيره، لم أر حاجة لنقل شيء منه هنا، وليست القصيدة على شرطي فيما أنقله من جيد المدائح النبوية، ثم قال: وقد كنت في أول الشروع في هذا المنحى يعني تأليف كتابه «فتح المتعال في وصف النعال» لم أطلع عليه أحداً من خلق الله تعالى حتى أخبرني بعض الثقات عن بعض الصالحين، أنه رأى المصطفى ﷺ في المنام وقد قرب إليه مركوباً عظيماً بعده محلاة أحسن تحلية، قال: فجعل الناس يعجبون من حسن تلك الحلية، فإذا قائل يقول هذه الحلية أهداها للنبي ﷺ فلان يعني الفقير مؤلفه، أي المقري، فلما أخبرني بذلك، أولته بمدح النعل الشريفة لأنها مركوب وحليتها وصفها ومدحها، والأعمال بالنيات.

قال: وأخبرني شخص آخر عن بعض أهل العصر أنه رأى النبي ﷺ ومدحه بعدة أمداح، وقال لي: إني رأيتك حاضراً في ذلك المحفل العظيم تنشده ﷺ شيئاً في المثال أو النعال أو كلاماً هذا معناه. والله أعلم.

قال: ورأيت وأنا متوجه إلى طيبة المشرفة، على ساكنها الصلاة والسلام، بالموضع المسمى بالروحاء، يوم الأحد سادس شوال سنة إحدى وثلاثين وألف، أن لي بستاناً على ضفة

النيل جميلة بين بساتين لأناس شتى، وكلها لم يصل إليها النيل فتعجبت من عدم دخوله لها مع قربها منه، فاحتلت حتى أدخلت ماء النيل في بستاني من غير كبير كلفة، فحصل له الري دون ما عداه من البساتين مما جاوره، ففرحت بذلك غاية الفرح، وقلت: ليت شعري ما أزرع في هذا البستان بعد أن حصل له الري؟ فبينما أنا كذلك، إذا أنا برجل جاءني بمثالين من أمثلة النعل الشريفة، وقال: ازرع هذين في بستانك، ففرحت بذاك وأظن أنهما المثالان الأولان مما ذكرته، وقد تأولت بهذا التأليف والنيل نيل جعله الله لوجهه الكريم، وقد توسلت إلى الله بمن كان نبياً في القدم، تاج الأنبياء، صاحب القدم ﷺ منشداً قول بعض من قال:

يا رب بالقدم التي أوطأتها ... من قاب قوسين المحل الأكرما

ثبت على متن الصراط تكرماً ... قدمي وكن لي منقذاً ومسلما

ثم قال: وكان الفراغ من تحريره بشوال من عام ثلاثين وألف بالقاهرة المعزية المحروسة، إلا مواضع يسيرة حررت بعد هذا التاريخ وألحقت بعض إلحاقات.

قال هذا وكتبه مؤلفه الفقير أحمد بن محمد المقري. انتهى.

خاتمة: يقول مختصره، الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه: إني كنت قبل عشر سنوات، بل أكثر، جمعت ثلاث نسخ من كتاب «فتح المتعال» المذكور، وفي كل واحدة منها زيادات غير موجودة في الأخرى.

إحداها: ملكي اشتريتها من رجل حلبي قدم بها منها، ومكتوب في آخرها أنها كتبت فيها، ولعل ذلك في عصر المؤلف أو فيما يقرب منه.

والثانية: استعرتها بالمكاتبة من الشام، وأنا في بيروت كتبت إلى صاحبها سيدي العلامة السيد الشريف أبي الخير عابدين، فأرسلها حفظه الله، وجزاه خير جزاء مع عدة كتب أخرى نادرة الوجود بخط القلم، لاحتمال أن أنقل منها بعض ما يلزمني من الفوائد وأعيدها إليه، ففعلت ذلك وأعدتها إليه، وكان من جملتها كتاب «فتح المتعال» المذكور بخط مغربي حسن، مجدول بماء الذهب، وصور النعال التي فيها مصبغة بالذهب والألوان، مخدومة خدمة ما رأيتها في غيرها. وبالجملة فهي نسخة ملوكية لا نظير لها في بابها، فيما اطلعت عليه.

والثالثة: نسخة صحيحة صاحبها الفاضل الشيخ أحمد المغربي، بالإرث عن أبيه العالم العلامة الشيخ يوسف المغربي، الذي أنقذ مدرسة دار الحديث من أيدي الكفرة، بعد أن كانوا جعلوا مسجدها حانة يبيعون فيها الخمر، فسافر لأجلها إلى القسطنطينية، ولم يزل يسعى في خلاصها إلى أن يسر الله له ذلك بواسطة السيد الشريف، العلامة العارف بالله، سيدي الأمير عبد القادر الجزائري، فوضع قيمتها من ماله، واستخلصها ممن كانت في يده، وأرجعها

مسجداً للمدرسة؛ فلا يعلم مقدار ثواب ذلك لهما إلا الله تعالى وذلك من نحو أربعين سنة أو أكثر، ولم تزل إلى الآن مسجداً أو حولها حجر المدرسة، التي تقيم فيها الطلبة والمدرسون، فأرسل لي الشيخ أحمد المذكور نسخة كتاب «فتح المتعال» المذكورة، فوجدتها في غاية الجودة والصحة، ومكتوب عليها ما صورته: هذا صورة ما وجد في النسخة المكتوب منها وعليها الإلحاقات بخط المؤلف وبخط غيره أيضاً، وعلى كل ورقة أو اثنتين أو ثلاث خط المؤلف، وآخر كل كراسة بلغ مقابلة مع مؤلفه وعليه بخطه صحيح ذلك، قال له جامعه الفقير إلى الله أحمد المقري المالكي، أخذ الله بيده. اهـ.

وقد جمعت جميع الزيادات في النسختين المذكورتين مع نسختي، بعضها على هامشها، وبعضها في أوراق مستقلة، يسَّر الله طبعها لتعميم نفعها، فقد جمعت ما لم يجمعه غيرها من نسخ هذا الكتاب، وفي آخرها تقاريظ كثيرة لعلماء عصره، وكنت قبل ذلك. وأنا في القسطنطينية سنة ١٢٩٨ اشتريت نسخة من سوق الكتبية من «فتح المتعال» هذا بخط مؤلفه بحسب تاريخها، وهو مكتوب في آخرها، فأخذها مني بعض الأكابر حين اطلع عليها.

واعلم أن ما نقلته من الكتاب المذكور، «وفتح المتعال»، بعد جمع زوائد النسخ الأخرى، هو جل أو كل ما ينبغي ذكره من فوائده، ولم أضع فيه من الفوائد المهمة المتعلقة به ﷺ شيئاً لم أنقله، اللهم إلا أن يكون القصائد والمقطعات التي ذكرها في وصف مثال النعل الشريف، فإني إنما نقلت أجودها.

أما المباحث الأخرى التي لا علاقة لها في شؤون النبي ﷺ ولا في النعل الشريف وفضله، وهي كثيرة استطرد لذكرها رحمه الله تعالى، فإني لم أنقلها؛ وقد صار بسببها الكتاب كبيراً فاختصرته هذا الاختصار، لسهولة الحصول عليها واستيعاب قراءته في وقت يسير لمن أراد ذلك. والحمد لله رب العالمين.

[الفائدة الأولى]

فوائده الأولى: أنقل هنا عبارتي في كتابي «سعادة الدارين» في آخر الباب التاسع، وإن تكرر بعضها مع ما تقدم، وهي قولي فيه الفائدة الأربعون، أي من الفوائد لرؤيته ﷺ في المنام ملازمة حمل مثال نعل النبي ﷺ تفيد رؤيته في المنام ﷺ كما ذكره الشهاب أحمد المقري في كتابه «فتح المتعال في مدح النعال».

ونص عبارته: ومنها، أي من خواص مثال النعل الشريف، ما قاله بعض الأئمة فيما جرب من بركته، أن من لازم حمله كان له القبول التام من الخلق، ولا بد أن يزور النبي ﷺ أو

يراه في منامه. اهـ. قلت: وقد استخرجت مثال النعل الشريف من الكتاب المذكور، وطبعته ولخصت جملاً من فوائده وخواصه، وطبعتها حوله طولها نحو ثلثي ذراع بعرض الثلث، فجاء في غاية النفاسة، وصار يعلقه الناس للبركة في صدور بيوتهم.

وقد رأيت أن أذكر منها تلك الفوائد كما هي، لتحفظ في هذا الكتاب. ونص ما وضعته فوق المثال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، قد صح أن نعله ﷺ كانت مخصوفة، أي طاقاً على طاق، ليس فيها شعر ولها قبالان، والقبال زمام النعل، فكان ﷺ يضع أحد الزمامين بين إبهام رجله والتي تليها، والآخر بين الوسطى والتي تليها، ويجمعهما إلى السير الذي بظهر قدمه وهو الشراك، وكان مثنى من سيرين، وكانت من جلود البقر مخصرة، أي لها خصر ملسنة، أي على هيئة اللسان، معقبة أي لها عقب من سيور تضم به الرجل.

وقال بعض الحفاظ: كانت صفراء؛ ولبس الخفين، ومسح عليهما ﷺ ونص ما على يمين المثال.

تنبيـه: من أسمائه ﷺ في الكتب القديمة صاحب النعلين، لأن لبس النعال عادة العرب، وكان له نعلان وثمانية خفاف؛ ومشى متنعلاً وحافياً، ولا سيّما إلى العبادات تواضعاً، وصلى بنعليه وهما طاهرتان، وحملهما بسبابة يساره أحياناً، وخادمهما ابن مسعود يضعهما عند خلعهما في ذراعه يقدمهما له عند اللبس؛ وكان يبدأ باليمنى باللبس وباليسرى بالخلع.

قال ابن الجوزي: من واظب على البداءة باليمنى أمن وجع الطحال. وقال غيره: إذا كتبت سورة الممتحنة، وشرب المطحول ماءها برئ بإذن الله.

مسألـة: تصوير الأشجار ونحوها كهذا المثال جائز، وأما تصوير الإنسان والحيوان واتخاذ صورها بصفة غير ممتهنة فحرام، ونصنا على يسار المثال.

فوائـد: نقل القسطلاني في «المواهب اللدنية»، والمقري في «فتح المتعال» عن العلماء أن مما جرب من بركة هذا المثال الشريف، أنه من أمسكه عنده تبركاً به، كان له أماناً من بغي البغاة، وغلبة العداة، وحرزاً من كل شيطان مارد وعين كل حاسد؛ وإن أمسكته المرأة الحامل بيمينها وقد اشتد عليها الطلق، تيسر أمرها بحول الله وقوته؛ وأنه أمان من النظرة والسحر، ومن لازم حمله كان له القبول التام من الخلق، ولا بد أن يزور قبر النبي ﷺ ويراه في منامه؛ ولم يكن في جيش فهزم، ولا في قافلة فنهبت، ولا في سفينة فغرقت، ولا في بيت فأحرق، ولا في متاع فسرق، وما توسل بصاحبه ﷺ في حاجة إلا قضيت ولا في ضيق فرج ولا في مرض إلا شفي بشرط قوة إيمان.

ونص ما تحت المثال، قال مرتبه: هذا أصح مثال لنعل رسول الله ﷺ وقد رسم بالفوتوغراف حتى جاء طبق أصله الصحيح، الذي استخرجته من كتاب «فتح المتعال في مدح النعال» للعلامة أحمد المقري، وهو مجلد كبير؛ وقد يسر الله لي منه مع ندرة وجوده ثلاث نسخ معتبرات، إحداها منقولة من نسخة عليها خط المؤلف.

وقد رأيت في جميعها هذا المثال متقارباً، وهو المثال الأول الذي عليه المعول من ستة أمثلة ذكرها.

قال: وهو معتمد ابن العربي، وابن عساكر، وابن مرزوق، والفارقي، والسيوطي، والسخاوي، والتتائي وغير واحد من الشيوخ... وذكر أسانيدهم وأسانيده في أن نعله ﷺ كانت عند السيدة عائشة رضي الله عنها ثم لم تزل تنتقل وتحذى عليها نعال، وعلى ما حذي عليها من النعال نعال أخرى، ثم وثم إلى أن رسم مثالها الشيوخ على الورق، ونقلوه بالأسانيد، حتى ألَّف فيه جماعة منهم أبو اليمن بن عساكر ورسمه في كتابه؛ ثم روي كتابه بالأسانيد وقرئ بالضبط، حتى وصل إلى المقري فرسمه في «فتح المتعال» من نسخة ابن عساكر المعتمدة التي عليها خطوط العلماء والحفاظ كالسيوطي والسخاوي والديلمي رحمهم الله ونقلته أنا مع جميع الفوائد التي حوله من فتح المتعال.

خاتمة: قال المناوي والقاري في «شرح الشمائل» قال ابن العربي: والنعل لباس الأنبياء، وإنما اتخذ الناس غيرها لما في أرضهم من الطين، وختمته بقولي:

إني خدمت مثال نعل المصطفى ... لأعيش في الدارين تحت ظلالها
سعد إبن مسعود بخدمة نعله ... وأنا السعيد بخدمتي لمسالها

وقلت في المثال الشريف أيضاً: وكان مرادي وضعهما وما بعدهما فيه، ثم رجحت بقاءه أبيض:

مثال حكى نعلاً لأفضل مرسل ... تمنت مقام الترب منه الفراقد
ضرائرها السبع السمٰوات كلها ... غَيارَى وتيجان الملوك حواسد

وقلت أيضاً:

على رأس هذا الكون نعل محمد ... علت فجميع الخلق تحت ظلاله
لدى الطور موسى نودي اخلع وأحمد ... على العرش لم يُؤذن بخلع نعاله

وقلت أيضاً:

مثال لنعل المصطفى ما له مثل ... لروحي به راح لعيني به كحل

فأكرم به تمثال نعل كريمة لها كل رأس ودلو أنه رجل

وقلت أيضاً:

ولما رأيت الدهر قد حارب الورى جعلت لنفسي نعل سيده حصنا

تحصنت منه في بديع مثالها بسور منيع نلت في ظله الأمنا

انتهى ما ذكرته في سعادة الدارين قبيل الباب العاشر، وذكرت قبل ذلك في عداد المرائي التي ذكرتها بعد رسالة المبشرات للشيخ الأكبر ما نصه: الرؤيا التاسعة، رأيت بعد أن طبعت رسم مثال النعل الشريف في المنام، بعد فجر يوم الثلاثاء الحادي عشر من شهر شعبان سنة ١٣١٥، أني متوجه إلى الحج براً، أفرأيت مزاراً مبنياً بالحجارة، وفي داخله حجر عليه أثر قدم النبي ﷺ وقد جعل كذلك ليزوره الناس ويتبركوا به، فخطر في بالي أني أنا الذي عملت هذا المزار، فاستقبلته وقلت: اللهم إني أتوسل إليك بصاحب هذا الأثر ﷺ أن ترزقني حجاً مقبولاً. وانتبهت من النوم، فعبرت هذه الرؤيا بصحة المثال المذكور، ومطابقته لنعل النبي ﷺ والحمد لله رب العالمين ا هـ.

قولي في إحدى المقاطيع السابقة «وأحمد على العرش لم يؤذن بخلع نعاله» جريت به على ما جرى عليه بعض مداح النبي ﷺ والقصاص من ذكر ذلك، وقد ذكر العلماء ومنهم الزرقاني في «شرح المواهب» أنه لم يرد من طريق صحيح، والله أعلم.

الفائدة الثانية: وبعد كتابتي ما تقدم من الكلام، وسافرت من بيروت إلى دمشق الشام، وذلك في شهر رجب من هذه السنة، وهي سنة ١٣٢٥، فاجتمعت بكثير من علمائها، ومنهم العالم العامل الفاضل التقي، السيد الشريف سيدي الشيخ محمد المبارك المغربي الجزائري، المقيم في الشام، شيخ الطريقة الشاذلية الفاسية فيها، بعد أخيه الولي الكبير العارف بالله، المرحوم سيدي الشيخ محمد الطيب المدفون في دمشق؛ كلاهما أخذهما عن شيخنا سيدي الشيخ محمد الفاسي، أخذ أئمة العارفين والمرشدين الكاملين في هذا العصر رضي الله عنهم أجمعين، ونفعني ببركاتهم والمسلمين فأطلعني الشيخ محمد المبارك المذكور عند اجتماعي به وقت زيارتي إياه هذه المرة في بيته في دمشق على كتب كثيرة نفيسة بخط القلم، ومن جملتها نسخة من كتاب «فتح المتعال» هي أحسن نسخة رأيتها إلى الآن، بل هي أحسن من نسخة سيدي أبي الخير أفندي عابدين، المذكورة سابقاً، لأنها مثلها أو قريب منها في جودة رسم أمثلة النعل الشريفة، وزخرفتها بالذهب والأصباغ الجميلة، وتفضلها بكونها بالخط المشرقي الحسن، وتلك بخط مغربي وإن كان حسناً أيضاً، وبالجملة فهما نسختان لا نظير لهما فيما اطلعت عليه في هذا الشأن، وقد دققت في المثال الأول الذي كنت استخرجته من

نسخة أبي الخير أفندي، وطبعت على شكله أربعين ألف مثال، فوجدته في نسخة الشيخ المبارك مثله في نسخة أبي الخير أفندي من غير أدنى فرق، ففرحت بذلك وإن كان مخالفاً لمثال نسختي الأول من جهة عقبه مخالفة قليلة، وقد طبعته الآن أيضاً على ذلك الرسم الأول بدون ذكر الفوائد حوله، وألحقته بهذا المختصر؛ فانظره وقد جعلت له ملحقاً في صفحة ٩٤٨ من هذا الكتاب.

الفائدة الثالثة: كتب إليَّ سيدي الشيخ محمد المبارك المذكور مكتوباً بعد عودتي من الشام إلى بيروت في هذه المرة، ومنه هذه العبارة بألفاظه أن الأخ المرحوم السيد محمد الطيب طيَّب الله ثراه حرر قبل وفاته كتاباً أملاه على بعض إخواننا، وأمر أن ترسل منه نسخ لجملة من أهل العلم والفضل عينهم بأسمائهم من أجلهم حضرتكم، وفي أثناء ذلك تداركته المنية رحمه الله فبقي ذلك الكتاب عند أخينا الشيخ حسن أفندي الأسطواني، وقد وافاني به وذكر في أنه وعد بإرسال نسخة منه إلى حضرتكم وما هو طيء هذا الكتاب وهذه صورته بحروفه:

«الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد السابق للخلق نوره، ورحمة للعالمين ظهوره؛ الأول من حيث حقيقته، الآخر من حيث صورته، الظاهر من حيث دعوته وشريعته، الباطن من حيث تعينه في خلائقه من لدن إلى آخر خليقته، بحسب استعداداتها واستمداداتها؛ فإنه ﷺ ما اتصل بالرفيق الأعلى، حتى أُعطي علوم الأولين والآخرين، وعلى آلة الذين هم عيبة سره، وصحابته وجميع من تعلق بمحبته أما بعد فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه سيدنا محمد ﷺ أن جعلنا ﷺ من أمته الأخصاء بحضرته وحظوته.

ثم اعلم يا أخي أن المؤمنين شبههم رسول الله ﷺ بالجسد الواحد المتفرقة أعضاؤه، إذا تألم منه عضو واحد تداعى له سائر الجسد. وقد قال ﷺ: «ألا لا إيمان لمن لا محبة له، وإني أحبكم في الله محبة خاصة، لما رأيت من إقبالكم على بذل النصيحة وطلب الهداية لجميع الأمة»[1]. وحيث إن ظلمة الوقت غلبت أنواره، سدل المحقق على نفسه أستار، لما رأى من قلة القابلية وضعف الاستعداد، ومع ذلك لا ينبغي لنا ترك الدعوة إلى الله تعالى المشار إليها بقوله عز وجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف:١٠٨] والبصيرة بصيرتان بصيرة العلماء المتحققين بهديه ﷺ المتمسكين بسنته، وبصيرة الخاصة الذين منحهم الله هذه الأولى، وزادهم التحقق والتبصر في قابلية الناس، فيأمرون كل أحد من

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (١: ٤٢). وفيه لا أمانة له.

مريديهم بما يناسبه من شرع نبيه سيده محمد ﷺ كما كان ﷺ يأمر كلاً من أصحابه بما يناسبه من شرعه الشريف، وقد توهم من توهم من علماء الظاهر أن هذه الأوامر المختلفة هي خلافيات، فاحتاجوا إلى تكلف الجمع بينها، مع أنه ﷺ أمر كل واحد بما يناسبه كما تقدم ليس إلا فخذوا ـ أعانكم ـ الله يبذل النصيحة للأمة، والدعوة إلى الله تعالى بما أراكم الحق سبحانه على حسب الوقت والحال، فإن ما لا يدرك كله لا يترك قله، والله ينفع ويجزي كل أحد بقصده ونيته.

هذا وأني قد أجزتكم ببذل النصيحة ودوام الدعوة إلى الله سبحانه بحسب ما يناسب الوقت ويقتضيه الحال، أجازني به مشايخي. قدس الله أسرارهم إجازة عامة مطلقة أعانكم الله وقواكم وإني أرى رفع شبهة من قلب معتقدها، وتبديل بدعة بسنة مأثورة، وهدي نبوي خيراً من الدنيا وما فيها، كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «لأن يهدي الله على يدك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس»[1]. والمؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، فإذا حققنا الله بحقائق أهل القرب، وسلك بنا مسالك أهل الجذب أنفقنا مما أفاض الله تعالى علينا على عائلة المريدين: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧] والسلام عليكم مكرراً أو معاداً ورحمة الله وبركاته.

حرر في التاسع من جمادى الثانية، سنة ثلاث وثلثمائة وألف؛ كتب على إملاء خادم القراء محمد الطيب ابن محمد المبارك المغربي الحسيني، غفر الله ولوالديه ولإخوانه والمسلمين آمين.

الفائدة الرابعة: قد اجتمعت بسفرتي هذه في الشام بأحد علمائها المعمرين الأعلام، وهو سيدي الإمام العلامة المحقق المحدث، الشيخ عبد الله السكّري الحنفي، وهو في سن تنوف على التسعين، وقد أقعد في بيته بدمشق، فتوجهت إليه مع بعض العلماء الأفاضل من تلاميذه وغيرهم، فتشرفت بتقبيل يده الشريفة، وطلبت منه الإجازة والدعاء، فأنعم بذلك والحمد لله ولا سيما بحديث الرحمة المسلسل بالأولية وبالحديث المسلسل بالمصافحة.

وبعد سفري إلى بيروت أرسل إليّ أخص تلاميذه سيدي العالم العامل الفاضل الكامل، السيد الشريف الشيخ عبد الكريم أفندي الحمزاوي، نفعني الله ببركاته وبركات أسلافه الطيبين الطاهرين الإجازة الآتية بإملاء الشيخ رضي الله عنه لأنه مكفوف البصر الآن، جعل الله ذلك

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٥: ٣٣٤). وابن عبد البر في جامع بيان العلم (١: ١٢٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (٢: ٢٨٨).

زيادة في حسناته، ونفعني والمسلمين ببركاته آمين وهذه صورة إجازته لي بالحديثين المذكورين بحروفها:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله تعالى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد تتوالى: أما بعد، فيقول راجي عفور به العلي، عبد الله بن السيد درويش الركابي الشهير بالسكري من ذرية القطب الكبير والعارف الشهير سيدي أحمد الرفاعي: حضر عندي العالم العلامة والعمدة الفهامة، من هو للمحاسن حاوي، الشيخ يوسف أفندي النبهاني، فحدثته بحديث الرحمة المسلسل بالأولية الحقيقية، وأسمعته إياه، وهو أول حديث سمعه مني، فإني أرويه بالسماع من العالم العلامة العمدة الفهامة، سيدي الشيخ عبد اللطيف أفندي فتح الله الملقب بمفتي بيروت، وهو أول حديث سمعته منه، وهو يرويه بالأولية الحقيقية عن الشيخ العلامة المنجي الطرابلسي، وهو يرويه بالأولية الحقيقية عن محدث البلاد الشامية، شارح صحيح الإمام البخاري الشيخ إسماعيل العجلوني الجراحي: قال في ثبته: حدثنا شيخنا الوليدي المكي، وهو أول حديث سمعته منه حين اجتماعي به في مكة المشرفة، في دار الخيزران، في سنة ثلاث وثلاثين ومائة وألف حين حججت، قال: وهو أول حديث سمعته من شيخنا أحمد بن محمد البنا الدمياطي، قال: وهو أول حديث سمعته من الشيخ محمد بن عبد العزيز المنوفي المعمر، قال: وهو أول حديث سمعته من أبي الخير بن عموش الرشيدي، قال: وهو أول حديث سمعته من شيخ الإسلام زكريا، قال: وهو أول حديث سمعته من الحافظ ابن حجر العسقلاني، قال: حدثنا الصلاح محمد الحكري الصوفي، هو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا زين الدين العراقي، وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أبو الفرج عبد اللطيف ابن عبد المنعم الحراني، وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي، وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أبو سعيد إسماعيل النيسابوري، وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا والدي أبو صالح المؤذن، وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أبو طاهر محمد الزيادي، وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا أحمد بن محمد البزار، وهو أول حديث سمعته منه، قال: حدثنا عبد الرحمٰن بن بشر النيسابوري، وهو أول حديث سمعته منه عن عمر بن دينار، عن أبي قابوس مولى عبد الله بن عمرو بن العاص، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمٰن ارحموا من في الأرض يرحمُكم من في السماء»[1]. ويرحمُكم قال في الأسعاف بالرفع في الرواية،

(١) رواه أبو داود في السنن (٤٩٤١). والترمذي في السنن (١٩٢٤). وأحمد في المسند (٢: ١٦٠).

كما قاله البرهان العمادي، فالجملة دعائية مستأنفة، ونقل مثله عن النجم الغزي، ولا يمتنع الجزم، وهذا الحديث عظيم مروي عن أئمة حفاظ، وفيه تحريك لسلسلة الرحمة من أول وهلة.

وقال شيخ مشايخنا إبراهيم الكوراني في كتابه «مسالك الأبرار إلى أحاديث النبي المختار» إن الحافظ العراقي قال في روايته بلفظ الراحمون: يرحمهم الرحمٰن تبارك وتعالى: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» هذا الحديث صحيح، أخرجه أبو داود عن أبي بكر بن أبي شيبة إلى آخر ما نقله. وقد نظمه كثيرون منهم الحافظ ابن حجر العسقلاني قال:

إن مــن يــرحــم أهــل الأرض قــد ... آن أن يــرحمــه مــن فــي السمــا

فــارحــم الخلــق جميعــاً إنمــا ... يــرحــم الــرحمٰــن منــا الــرحمــا

وكذلك أرويه بطريق الأولية الحقيقية عن الشيخ التميمي، شيخ عباس باشا خديوي مصر، وهو يرويه بالأولية الحقيقية عن العلامة الشهير الشيخ محمد الأمير الكبير، وأخبرني أنه عاده وكان مفلوجاً، وطلب منه سماع الحديث المسلسل بالأولية، فأسمعه إياه وأجازه به، وسنده مذكور في ثبته، وكذلك أرويه بطريق الأولية الحقيقية عن العالم الفاضل الشيخ محمد القاوقجي بسنده المذكور في ثبته، ثم إني أذنت للمجاز بأن يجيز به من هو أهل لذلك، وكذلك صافحته بكفي هذه التي صافحت بها كلاً من شيخنا فقيه النفس، من يكنى بأبي حنيفة الصغير، سيدي الشيخ سعيد الحلبي، وشيخنا المحدث الكبير، والعلامة النحرير، سيدي الشيخ عبد الرحمٰن الكزبري؛ وهما يرويانه عن والد الثاني، العلامة الشيخ محمد الكزبري، وهو يرويه عن والده العلامة الشيخ عبد الرحمٰن الكزبري، وهو يرويه عن المسند المحدث محمد بن أحمد عقيلة المكي.

قال في مسلسلاته: وقد صافحني شيخنا ومولانا وبركتنا الشيخ أحمد بن محمد النخلي، وقال: صافحنا العارف بالله الكبير ومولانا الشيخ تاج الدين النقشبندي، قال: صافحني الشيخ عبد الرحمٰن الشهير بحاجي رمزي، صافحني الشيخ الحافظ علي الأوبهي، قال: صافحني الشيخان المسندان الشيخ محمود الإسفزازي والسيد أمير علي الهمذاني، قالا: صافحنا أبو سعيد الحبشي الصحابي المعمر، قال: صافحني النبي ﷺ ثم قال المسند المحدث الشيخ محمد بن أحمد عقيلة المكي في مسلسلاته: هذا السند كله على الثقات الأجلاء العلماء العرفاء، وعلى هذا السند رونق القبول، فتكون يد العبد الفقير سابع يد إلى رسول الله ﷺ اهـ. فحينئذٍ تكون يد العبد الفقير عبد الله الركابي الشهير بالسكري حادي عشر يداً إلى

رسول الله ﷺ. وأرويه بسند آخر متصل بالمعمر أبي العباس الملثم، قال كذلك: صافحني رسول الله ﷺ وقال: من صافحني أو صافح من صافحني إلى يوم القيامة دخل الجنة، وأجزته بها، وأذنت له أن يصافح ويجيز أهل الصلاح. أمر بكتابة ذلك له العالم العلامة محب العلماء العاملين، ومحسوب السادة الفقراء الكاملين، السيد عبد الله ابن السيد درويش الركابي الشهير بالسكري القادري الحنفي عفا الله بجاه النبي آمين، يا أرحم الراحمين انتهت إجازة سيدي الشيخ عبد الله السكري، وحيث أحال فيها على ثبت الشيخ الأمير في سند حديث الرحمة المسلسل بالأولية، فها أنا أذكر عبارة الشيخ الأمير في ثبته بحروفها لتستفاد.

قال رحمه الله تعالى في أواخره ما نصه: عادتهم يقدمون المسلسل بالأولية، وهو حديث الرحمة، قال في المنح: لأنه ورد أول شيء خطه الله في الكتاب الأول: **«إني أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتي غضبي، فمن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فله الجنة»**. وأيضاً فإنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين، ونوره أول مخلوق. سمعته من أشياخ كثيرة، منهم الشيخ شهاب الدين أحمد الجوهري، وهو أول حديث سمعته منه عن شيخه عبد الله بن سالم البصري المكي، قال: حدثنا محمد بن سليمان المغربي، وهو أول حديث حدثنا به؛ حدثنا أبو عثمان سعيد بن إبراهيم الجزائري، وهو أول حديث حدثنا به؛ حدثنا مفتي تلمسان أبو عثمان المقري، وهو أول حديث حدثنا به؛ حدثنا إبراهيم القاري أول ما حدثنا قال: حدثنا أبو الفتح المراغي أول حديث؛ حدثنا عبد الرحيم العراقي الأثري أول حديث؛ حدثنا أبو الفتح محمد البدرمي أول حديث؛ حدثنا عبد اللطيف بن عبد المنعم الحراني، وهو أول حديث حدثنا به؛ حدثنا أبو الفتح عبد الرحمٰن بن علي أول تحديثه، قال: حدثنا أبو سعيد النيسابوري أول حديث؛ حدثنا محمد بن محمد الزيادي، وهو أول حديث حدثنا به، قال: حدثنا أبو خالد بن بلال البزار، وهو أول حديث حدثنا به، قال: حدثنا عبد الرحمٰن بن شبر بن الحكم العبدي، وهو أول حديث حدثنا به، قال: حدثنا سفيان بن عيينة، وإليه ينتهي التسلسل بالأولية على الأصح، عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس مولى عبد الله بن عمرو بن العاص، عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ قال: **«الراحمون يرحمهم الرحمٰن تبارك وتعالى؛ ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**.

وقع في بعض طرق هذا الحديث ابن الجوزي، فجعله صاحب المنح هو الواعظ المشهور، ونقل شيخنا الجوهري عن البصري، عن شيخ الإسلام زكريا أن هذا بضم الجيم، وليس هو الواعظ المشهور. قال: ويرحمكم بالرفع جملة دعائية، لا بالجزم جواب الأمر.

قال في المنح: وهو حديث حسن أخرجه البخاري في «الكنى والأدب المفرد»،

والحميدي في مسنده، وأبو علي الزعفراني، وأبو داود في سننه، والترمذي في جامعه، إلا أنهم جميعاً لم يسلسلوه. وأخرجه أحمد وأبو بكر بن أبي شيبة، وصححه الحاكم والترمذي باعتبار ماله من المتابعات والشواهد.

الفائدة الخامسة: الشيء بالشيء يذكر. بمناسبة ذكري للإجازة السابقة أذكر إجازة جليلة أنا حريص على إثباتها في كتاب لتحفظ فيه، وينتفع بها الجلالة قدر صاحبها، وقد وردت لي منه بعد طبع ثبَتِي هادي المريد إلى طرق الأسانيد، فترجح عندي ذكرها هنا، وهي في مكتوب يشتمل على الإجارة وغيرها؛ وها أنا أذكره بحروفه للتبرك بكلام صاحبه، ومعرفة قدره رضي الله عنه فإنه أحد الأئمة الأعلام، والأولياء الكرام؛ والسادات العظام الجامعين للعلوم الكسبية والوهبية في هذا الزمان، وهو سيدي وأستاذي وشيخي وملاذي السيد أحمد بن حسن بن عبد الله بن علي العطاس العلوي الحضرمي، من آل باعلوي الكرام، سادات الزمان، الذين لا أعتقد والله على ما أقول وكيل أنه يوجد في الدنيا نسب أصح من نسبهم إلى رسول الله ﷺ وغاية ما يكون من صحة الأنساب أن تبلغ إلى درجة صحة نسبهم، فإنهم أولاد رسول الله ﷺ من سلالته الطاهرة بيقين لا يشك في ذلك إلا كل محروم.

وهذا الأستاذ من خيارهم في هذا الزمان ـ وكلهم أخيار ـ وقد بلغني فيما سمعته وصدقته من كثير من الثقات العارفين به أنه ممن يجتمع يقظة بجده النبي المختار ﷺ وفي إجازته الآتية ما يشعر بذلك من أخذه عن مشايخ كثيرين من أكابر الأولياء المتقدمين، عنذ مئات من السنين، بدون واسطة؛ ولكونه رضي الله عنه كفيف البصر، أملي هذا المكتوب إملاء على كاتبه محمد بن عوض، وهو من أفاضل العلماء الصلحاء والأخيار من آل بأفضل الكرام، وهذه صورة المكتوب المشتمل على الإجازة:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الذي فتح لأرباب المودات أبواب المواصلات، فأرواحهم في وريف ظل رأفته قائلات، وإن كانت أشباحهم متنائيات، والصلاة والسلام على نقطة بيكار الموجودات، الثمل من شراب المشاهدات، هادي النفوس المائلات، ومغني الأيدي السائلات بالعطايا السنيات؛ وعلى آله وأصحابه وتابعيه في جميع الحالات. . .

إلى حضرة الشيخ الفاضل العالم العامل المتحلي بالفواضل، المتهتك في محبة رسول الله ﷺ وأهل بيته، يوسف بن إسماعيل النبهاني أجزل الله عطاءه، وكشف عن قلبه غطاءه، وبلغه ما يتمناه في دنياه أخراه. السلام عليكم ورحمة الله، وعلى من والاكم في الله.

صدور المحرر من حوطة الحبيب عمر بن عبد الرحمٰن العطاس حريضة، وباعثه طلب

الدعاء والسؤال عنكم، أرجوكم ومن لديكم في عافية، كما أنا ومن لدينا من الإخوان والمعارف كذلك؛ وقد أرسلنا لكم قبله كتاباً جواباً لكتبكم السابقة من طريق عدن، وأخبرناكم فيه أن الصندوق الذي أرسلتموه إلينا في أثناء الطريق، وفي باطن شهر رمضان وصل إلى طرفنا رياض الجنة، ووجدناه كما ذكرتم إن شاء الله والله يشكر سعيكم ويتقبل منكم. وفرقناه على أهل الجهة كلها حسب الإمكان، على السادة وطلبة العلم، ومن له رغبة في الخير أرسل إلى تريم نحو ستين، وإلى سيون نحو خمسين، وإلى البلدان الأخرى ما تيسر من ذلك، واجتمعنا بغالب السادة العلويين، وغيرهم من أهل تلك الديار؛ والجميع يشكرونكم ويمدونكم بصالح الدعاء؛ وغالب مؤلفاتكم موجودة، والقراءة مستمرة فيها.

وعرفتم قصدكم الإجازة ونشرح لكم بعض الحال لا على جنابكم الكريم، إنا فقراء وضعفاء، وما لدينا شيء مما ظننتم، إلا أنا نحبكم في الله، اللهم إلا إن كان شيء من الارتباط بيننا وبين السلف في الصورة وفي المعنى، عسى أن يكون ما ظنناه محققاً ونقول اغتناماً لصالح دعائكم، وامتثالاً لأمركم.

أجزت الشيخ الفاضل العالم العامل يوسف بن إسماعيل النبهاني في جميع العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وتصوف وآلات ذلك... وفي جميع الأذكار والأحزاب والأوراد المنسوبة إلى السلف الصالح...، وفي جميع علوم الرواية والدراية أجزته إجازة مطلقة، وأجزته أيضاً في الطرائق المنسوبة إلى أهلها، كالعلوية والشاذلية والقادريّة وغيرها من الطرائق، كما هي مبسوطة ومذكورة في مؤلفاتها، لا سيما كتاب السيد محمد مرتضى أبواب السعادة وسلاسل السيادة، وهو كتاب عظيم مشتمل على غالب الطرق بأسانيدها. وأنا أرويه بالإجازة العامة والخاصة عن السيد الشريف عيدروس بن عمر الحبشي، وغيره من المشايخ والسادة؛ ومن أجلهم وأفضلهم وأعلمهم السيد الشريف صالح بن عبد الله العطاس، بحق أخذهما عن السيد الشريف العالم العامل الكامل عبد الرحمٰن بن سليمان الأهدل، بحق اتصاله بالسيد محمد المرتضى، بحق أخذه لذلك عن السيد عبد الرحمٰن بن مصطفى العيدروس، كما شرح ذلك وبينه في النفس اليماني في إجازة بني الشوكاني له، وهو كتاب جليل حفيل، ذكر فيه مشايخه ومشايخ والده ومشايخ جده يحيى.

والكتاب المذكور عندي، وأجزتكم به ربما احتوى عليه، وقد اتصلت به من طرق كثيرة، وأجزتكم أيضاً بثبت السيد الشريف عيدروس بن عمر الحبشي وما احتوى عليه من الطرائق العلوية وغيرها، كما أجازني بذلك وأذن لي بما هنالك نطقاً وكتابة، وهو موجود عندي؛ وطبع في مصر، وهو كتاب عام، وسمعنا الكثير منه على مألفه؛ وأجزتكم أيضاً بثبت

الشيخ الأمير الكبير، كما أرويه بالإجازة عن سيدنا وشيخنا السيد أحمد زبني دحلان، وهو يرويه عن الشيخ عثمان بن محمد الدمياطي، عن الشيخ الأمير الكبير؛ وأجزتكم أيضاً بجميع ما صحت به الإجازة من جميع الطرق الخاصة والعامة، كما أخذت ذلك من مشايخ كثيرين يقظة ومناماً بالحرمين واليمن ومصر وحضرموت، واتصلت بكثير من المشايخ الأجلة وأخذت عنهم بلا واسطة، كالشيخ عبد القادر الجيلي، والفقيه المقدم محمد بن علي الحسيني، والشيخ الغزالي، والشيخ أحمد بن حجر، والشيخ ابن العربي، وكثير ممن يطول ذكرهم وتعدادهم... وإن قدر الله وسمح الزمان بينا لكم بعضاً من ذلك،ولا تنسونا من صالح دعواتكم. ما اعتذرتم به من بذة الحال والبال كل معه ما يكفيه، وحال إملاء الكتاب والمكان ملآن، والله يجعل العاقبة للجميع خيراً.

وقد رفعنا حاجتكم إلى كثير من أهل التوجيهات، وطلبنا منهم الدعاء لكم ولحضرة المحب عبد الغني باشا بيضون البيروتي والسلام عليكم، وعلى أولادكم، ومن شئتم؛ كيف شئتم منا ومن أولادنا وممن لدينا حرر منتصف رجب سنة ١٣٢١، من المستمد للدعاء منكم والداعي لكم، الفقير إلى عفو مولاه، أحمد بن حسن بن عبد الله بن علي العطاس العلوي.

ومنهم الإمام العلامة شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية الحنبلي(١) المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

ولا تتعجب أيها المطلع على كتابيّ هذا، وشاهد الحق من نقلي عنه هنا هذه الجواهر النافعات، وردي عليه هناك تلك البدع المضرات، فإنه إمام جليل، فلا نترك الانتفاع بحسناته الكثيرة المفيدة لسيئاته القليلة المعدودة. ومن اطلع على ما نقلته هنا من كتابه الصارم المسلول يتعجب غاية العجب من كونه هو القائل بتحريم الاستغاثة والسفر لزيارة الرسول ﷺ. وكيفما كان، فلا حذر من قدر، وإذا وقع القضا عمي البصر، وقد فات ما فات، وإنَّ الحسنات يذهبنَّ السيئات.

ومن جواهره رحمه الله تعالى

[ما في جاء الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ]

كتابه «الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ» وقد اختصرت منه، وذكرته بعباراته غالباً ما رأيت الإكتفاء به مما ذكره في هذا الشأن من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار المروية، وكلام أئمة الإسلام، وما ذكره من كلام نفسه أيضاً هذا الإمام، وكتابه كبير الحجم، كثير العلم، اقتصرت منه على ما ذكرته، وهو نحو خمسة.

وقد استوعب ما ذكرته منه جميع الآيات والأحاديث والآثار، ومعظم كلام الأئمة في هذا الشأن. والحمد لله ولي الإحسان، قال رحمه الله تعالى: الحمد لله الهادي النصير فنعم النصير ونعم الهاد، الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ويبين له سبيل الرشاد، كما هدى الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق وجمع لهم الهدى والسداد، والذي ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، كما وعد في كتابه وهو الصادق الذي لا يخلف الميعاد، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة تقيم وجه صاحبها للدين حنيفاً وتبرئه من الإلحاد، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أفضل المرسلين وأكرم العباد، أرسله

---

(١) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس ولد في حران عام ٦٦١هـ، وتوفي في دمشق مقتولاً بقلعتها سنة ٧٢٨ هـ.

بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره أهل الشرك والعناد، ورفع له ذكره فلا يذكر إلاّ ذكر معه في الآذان والتشهد والخطب في الجمع والأعياد. وكبت محادّه وأهلك مشاقّه وكفاه المستهزئين ذوي الأحقاد، وبتر شانئه ولعن مؤذيه في الدنيا والآخرة وجعل هوانه بالمرصاد، واختصه على إخوانه المرسلين بخصائص تفوق التعداد، فله الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود ولواء الحمد الذي تحته كل حماد، ﷺ أفضل الصولوات وأعلاها وأكملها وأنماها كما يحب سبحانه أن يصلى عليه وكما أمر، وكما ينبغي أن يصلى على سيد البشر، والسلام على النبي ورحمة الله وبركاته أفضل تحية وأحسنها وأولاها، وأبركها وأطيبها وأزكاها، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم التناد، باقيين بعد ذلك أبداً رزقاً من الله ما له من نفاذ.

أما بعد، فإن الله هدانا بنبيه محمد ﷺ وأخرجنا به من الظلمات إلى النور، وآتانا ببركة رسالته ويمن سفارته خير الدنيا والآخرة، وكان من ربه بالمنزلة العليا التي تقاصرت العقول والألسنة عن معرفتها ونعتها، وصارت غايتها من ذلك بعد التناهي في العلم والبيان الرجوع إلى عيها وصمتها، فاقتضاني لحادث حدث أدنى ما له ﷺ من الحق علينا، بل هو ما أوجب الله من تعزيره ونصره بكل طريق، وإيثاره بالنفس والمال في كل موطن، وحفظه وحمايته من كل مؤذ.

وإن كان الله قد أغنى رسوله ﷺ عن نصر الخلق، ولكن ليبلو بعضهم ببعض، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، ليحق الجزاء على الأعمال كما سبق في أم الكتاب أن أذكر ما شرع من العقوبة لمن سب النبي ﷺ من مسلم وكافر وتوابع ذلك ذكراً يتضمن الحكم والدليل، ونقل ما حضرني في ذلك من الأقاويل، وأرداف القول بخطه من التعليل، وبيان ما يجب أن يكون عليه التعويل. فأما ما يقدره الله عليه من العقوبات، فلا يكاد يأتي عليه التفصيل، وإنما القصد هنا بيان الحكم الشرعي الذي يفتي به المفتي، ويقضي به القاضي، ويجب على كل واحد من الأئمة والأمة القيام بما أمكن منه، والله هو الهادي إلى سواء السبيل.

ومن جواهر الإمام ابن تيمية

قوله في كتابه «الصارم المسلول» أيضاً: المسألة الأولى إن من سب النبي ﷺ من مسلم وكافر، فإنه يجب قتله. هذا مذهب عامة أهل العلم.

قال ابن المنذر: أجمع عوام أهل العلم على أن على من سب النبي ﷺ القتل. وممن قاله مالك والليث وأحمد وإسحاق، وهو مذهب الشافعي.

قال: وحكي عن النعمان، لا يقتل، يعني الذمي ما هم عليه من الشرك أعظم. وقد

حكى أبو بكر الفارسي من أصحاب الشافعي إجماع المسلمين على أن حد من سب النبي ﷺ القتل، كما أن حد من سب غيره الجلد. وهذا الإجماع الذي حكاه هذا محمول على إجماع الصدر الأول من الصحابة والتابعين، أو أنه أراد به إجماعهم على أن ساب النبي ﷺ يجب قتله إذا كان مسلماً، وكذلك قيده القاضي عياض، فقال: أجمعت الأمة على قتل منتقصه من المسلمين وسابه ﷺ . وكذلك حكى غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره.

قال الإمام إسحاق بن راهويه أحد الأئمة الأعلام: أجمع المسلمون أن من سب الله أو سب رسوله ﷺ أو دفع شيئاً مما أنزل الله عزَّ وجل، أو قتل نبياً من أنبياء الله عزَّ وجل أنه كافر بذلك، وإن كان مقراً بكل ما أنزل الله.

وقال الخطابي: لا أعلم أحداً من المسلمين اختلف في وجوب قتله. وقال محمد بن سحنون: أجمع العلماء: إن شاتم الرسول المتنقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله، وحكمه عند الأمة القتل.

ومن شك في كفره وعذابه كفر. وتحرير القول فيها أن الساب إن كان مسلماً فإنه يكفر ويقتل بغير خلاف، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم.

وقد تقدم من حكى الإجماع على ذلك من الأئمة، مثل إسحاق بن راهويه وغيره، وإن كان ذمياً، فإنه يقتل أيضاً في مذهب مالك وأهل المدينة، وهو مذهب أحمد وفقهاء الحديث.

وقد نص أحمد على ذلك في مواضع متعددة. قال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول: كل من شتم النبي ﷺ أو تنقصه مسلماً كان أو كافراً، فعليه القتل وأرى أن يقتل، ولا يستتاب.

قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: كل من نقض العهد، وأحدث في الإسلام حدثاً مثل هذا، رأيت عليه القتل.

ليس على هذا أعطوا العهد والذمة، وكذلك قال أبو الصقر: سألت أبا عبد الله عن رجل من أهل الذمة شتم النبي ﷺ ماذا عليه؟ قال: إذا قامت البينة عليه يقتل. من شتم النبي ﷺ يقتل مسلماً كان أو كافراً. رواهما الخلال.

وقال في رواية عبد الله وأبي طالب، وقد سئل عمن شتم النبي ﷺ قال: يقتل. قيل له: فيه أحاديث؟ قال: نعم فيه أحاديث، منها حديث الأعمى الذي قتل المرأة. قال: سمعتها تشتم النبي ﷺ .

وحديث حصين: أن ابن عمر قال: من شتم النبي ﷺ قتل. وعمر بن عبد العزيز يقول

بقتله، وذلك أن من شتم النبي ﷺ فهو مرتد عن الإسلام، ولا يشتم مسلم النبي ﷺ زاد عبد الله سألته عمن شتم النبي ﷺ يستتاب.

قال: قد وجب عليه القتل، ولا يستتاب. قتل خالد بن الوليد رجلاً شتم النبي ﷺ ولم يستتبه.

رواه أبو بكر في الشافي. وفي رواية أبي طالب: سئل أحمد عمن شتم النبي ﷺ قال: يقتل، قد نقض العهد.

وقال حرب: سألت أحمد عن رجل من أهل الذمة شتم النبي ﷺ فقال: يقتل. رواهما الخلال.

وقد نص على هذا في غير هذه الجوابات، فأقواله كلها نص في وجوب قتله، وفي أنه قد نقض العهد، وليس عنه في هذا اختلاف.

وكذلك ذكر عامة أصحابه، متقدمهم ومتأخرهم، لم يختلفوا في ذلك. ثم قال ابن تيمية: أما الشافعي فالمنصوص عنه نفسه أن عهده ينتقض بسب النبي ﷺ وأنه يقتل. هكذا حكاه عنه ابن المنذر والخطابي وغيرهما، والمنصوص عنه في الأم أن يكتب كتاب صلح على الجزية، وذكر الشروط إلى أن قال: وعلى أن أحداً منكم إذا ذكر محمداً ﷺ أو كتاب الله، أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به، فقد برئت منه ذمة الله، ثم ذمة أمير المؤمنين وجميع المسلمين، ونقض ما أعطي من الأمان، وحل لأمير المؤمنين ماله ودمه كما يحل أموال أهل الحرب ودماؤهم. ثم ساق باقي كلام الإمام الشافعي وكلام أصحابه العراقيين والخراسانيين، والخلاف بينهم فيما ينقض العهد وما لا ينقض، إلى أن قال: والذي نصروه في كتب الخلاف، أن سب النبي ﷺ ينقض العهد ويوجب القتل، كما ذكرنا عن الشافعي نفسه.

وأما أبو حنيفة وأصحابه، فقالوا: لا ينقض العهد بالسب، ولا يقتل الذمي بذلك، لكن يعزر على إظهار ذلك، كما يعزر على إظهار المنكرات التي ليس لهم فعلها من إظهار أصواتهم بكتابهم ونحو ذلك حكاه الطحاوي عن الثوري.

ثم قال: وأفتى أكثرهم بقتل من أكثر من سب النبي ﷺ من أهل الذمة وإن أسلم بعد أخذه، وقالوا يقتل سياسة. وهذا متوجه على أصولهم.

ومن جواهر الإمام ابن تيمية

قوله في كتابه «الصارم المسلول أيضاً»: والدلالة على انتقاض عهد الذمي بسب الله

وكتابه أو دينه أو رسوله ﷺ ووجوب قتله، وقتل المسلم إذا أتى ذلك في الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة والتابعين والاعتبار. أما الكتاب، فيستنبط ذلك منه من مواضع:

إحداها: قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] ومن المعلوم أن من أظهر سب نبينا ﷺ في وجوهنا، وشتم ربنا على رؤوس الملأ منا، وطعن في ديننا في مجامعنا فليس بصاغر، لأن الصاغر الذليل الحقير. وهذا فعل متعزز مراغم، بل هذا غاية ما يكون من الإذلال لنا والإهانة.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

نفى سبحانه أن يكون لمشرك عهد ممن كان النبي ﷺ عاهدهم إلاّ قوماً ذكرهم، فإنه جعل لهم عهداً ما داموا مستقيمين لنا، فعلم أن العهد لا يبقى للمشرك إلا ما دام مستقيماً.

ومعلوم أن مجاهرتنا بالشتيمة والوقيعة في ربنا ونبينا وكتابنا وديننا يقدح في الإستقامة، ثم قال: وهذه الآية، وإن كانت في أهل الهدنة الذين يقيمون في ديارهم، فإن معناها ثابت في أهل الذمة المقيمين في ديارنا بطريق الأولى.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] وهذه الآية تدل من وجوه:

أحدها: إنَّ مجرد نكث الإيمان مقتض للمقاتلة، وإنما ذكر الطعن في الدين وأفرده بالذكر تخصيصاً له بالذكر، وبياناً لأنه من أقوى الأسباب الموجبة للقتال. ولهذا يغلظ على الطاعن في الدين من العقوبة ما لا يغلظ على غيرة من الناقضين.

ثم قال: الوجه الثاني: إنَّ الذمي إذا سب الرسول ﷺ أو سب الله تعالى أو عاب الإسلام علانية، فقد نكث يمينه وطعن في ديننا، فيجب قتله بنص الآية. وهذه دلالة قوية حسنة.

ثم قال: الوجه الثالث: إنّه سماهم أئمة الكفر لطعنهم في الدين، فإذا طعن الذمي في الدين فهو إمام في الكفر، فيجب قتاله، لقوله تعالى، فقاتلوا أئمة الكفر، ولا يمين له لأنه عاهدنا على أن لا يظهر عيب الدين وخالف فثبت أن كل من طعن في ديننا بعد أن عاهدنا عهداً يقتضي أن لا يفعل ذلك، فهو إمام في الكفر لا يمين له، فيجب قتله بنص الآية. وبهذا يظهر الفرق بينه وبين الناكث الذي ليس بإمام، وهو من خالف بفعل شيء مما صولحوا عليه من غير طعن في الدين.

الوجه الرابع: إنَّه قال تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة: ١٣] فجعل همهم بإخراج الرسول من المحضضات على قتالهم، وما ذاك إلاَّ لما فيه من الأذى له ﷺ وسبه أغلظ من الهم بإخراجه، بدليل أنَّه ﷺ عفا عام الفتح عن الذين هموا بإخراجه، ولم يعف عمه سبه. **الوجه الخامس**: قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥] أمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين، وضمن لنا إن فعلنا ذلك عذبهم بأيدينا وأخزاهم، ونصرنا عليهم، وشفى صدور المؤمنين الذين تأذوا من نقضهم وطعنهم، وأذهب غيظ قلوبهم. والساب لرسول الله ﷺ ناكث طاعن فيستحق القتل. **الوجه السادس**: قوله تعالى: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤ - ١٥] دليل على أن شفاء الصدور من ألم النكث والطعن، وذهاب الغيظ الحاصل في صدور المؤمنين من ذلك أمر مقصود للشارع مطلوب الحصول، ولا ريب أنه من أظهر سب رسول الله ﷺ من أهل الذمة وشتمه، فإنَّه يغيظ المؤمنين ويؤلمهم أكثر مما لو سفك بعضهم وأخذ ماله، فإن هذا يثير الغضب لله والحمية له ولرسوله ﷺ والشارع يطلب شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم، وهذا إنما يحصل بقتل الساب.

الموضع الرابع: من أدلة القرآن قوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٦٣] الآية. فإنه يدل على أن أذى النبي ﷺ محادة لله ولرسوله، لأنه تعالى قال هذه الآية عقب قوله: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١] الآية. فثبت أن الشاتمين محادون لله ولرسوله، وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢٠ - ٢١]. والأذل أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله إن أظهر المحادة، لأنه من كان دمه وماله معصوماً لا يستباح. فليس بأذل، فثبت أن المحادّ لله ولرسوله لا يكون له عهد يعصمه، والمؤذي للنبي ﷺ معاد له على عهد يعصم دمه وهو المقصود. وأيضاً فإنه تعالى قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [المجادلة: ٥].

والكبت الإذلال والخزي والصرع. وقال أهل التفسير: كبتوا أهلكوا واخزوا وحزنوا، ، فثبت أن المحادّ مكبوت مخزي، ممتلئ غيظاً وحزناً، هالك. وهذا إنما يتم إذا خاف إن أظهر المحادة أن يقتل، وإلاَّ فمن أمكنه إظهار المحادّة وهو آمن على دمه وماله، فليس بمكبوت، بل مسرور جذلان. وأيضاً قوله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ﴾ [المجادلة: ٥٨]. عقب

قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠]. دليل على أن المحادّة مغالبة ومعاداة، حتى يكون أحد المتحادّين غالباً والآخر مغلوباً، وهذا إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحادّ ليس بمسالم.

وأيضاً فإنَّ المحادّة من المشاقّة، وإذا كانت بمعنى المشاقّة، فإنَّ الله سبحانه قال: ﴿ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ١٢ - ١٣] فأمر بقتلهم لأجل مشاقّتهم ومحادّتهم، فكل من حادّ وشاق يجب أن يفعل به ذلك لوجود العلة.

ثم قال: الموضع الخامس قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وهذه توجب قتل من آذى الله ورسوله. والعهد لا يعصم من ذلك، لأنا لم نعاهدهم على أن يؤذوا الله ورسوله.

ويوضح ذلك قول النبي ﷺ: «من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله». فندب المسلمين إلى يهودي كان معاهداً لأجل أنه آذى الله ورسوله.

فصل: أما الآيات الدالة على كفر الشاتم وقتله، أو على أحدهما، إذا لم يكن معاهداً، وإن كان مظهراً للإسلام فكثيرة، مع أن هذا مجمع عليه، قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١] الآيات.

وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية. فإذا كان من يوادّ المحاد ليس بمؤمن، فكيف بالمحادّ نفسه، فثبت أنَّ المحادّ كافر حلال الدم.

والدليل الثاني: على ذلك قوله سبحانه: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۝ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٤ - ٦٦] وهذا نص في أن الإستهزاء بالله وبآياته وبرسوله كفر، فالسب المقصود بطريق الأولى.

والدليل الثالث قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة: ٥٨]. واللمز: العيب والطعن، وقال: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ ﴾ [التوبة: ٦١] الآية. وذلك يدل على أن كل من لمزه أو آذاه ﷺ كان منهم، أي من المنافقين، فإن لمز النبي ﷺ وآذاه لا يفعله من يعتقد أنه

رسول الله حقاً، وأنه أولى به من نفسه، وأنه لا يقول إلاَّ الحق، ولا يحكم إلاَّ بالعدل، وأنَّ طاعته طاعة الله، وأنه يجب على جميع الخلق تعزيره وتوقيره.

الدليل الرابع على ذلك أيضاً قوله سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥] الآية. أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه ﷺ في الخصومات التي بينهم، ثم لا يجدوا في نفوسهم ضيقاً من حكمه، بل يسلمون لحكمه ظاهراً وباطناً. وقال قبل ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ - ٦١] فبين سبحانه أنَّ من دعي إلى التحاكم إلى كتاب الله وإلى رسوله فصد عن رسوله كان منافقاً.

وقال سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٤٧ - ٥١] فبين سبحانه وتعالى أن من تولى عن طاعة الرسول وأعرض عن حكمه، فهو من المنافقين وليس بمؤمن؛ وأن المؤمن هو الذي يقول سمعنا وأطعنا؛ فإذا كان النفاق يثبت، ويزول الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره، مع أن هذا شرك محض.

وقد يكون سببه قوة الشهوة، فكيف بالتنقص والسب ونحوه؟ ويؤيد ذلك ما رواه أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن إبراهيم بن دحيم في تفسيره: حدثنا شعيب بن شعيب، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا عتبة بن ضمرة، حدثني أبي أن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى للمحق على المبطل، فقال المقضي عليه: لا أرضى. فقال صاحبه: فما تريد؟ قال: أن أذهب إلى أبي بكر الصديق. فذهبا إليه، فقال الذي قضي له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ فقضى لي عليه، فقال أبو بكر: أنتما على ما قضى به النبي ﷺ فأبى صاحبه أن يرضى، قال: نأتي عمر بن الخطاب، فأتياه، فقال المقضي له: قد اختصمنا إلى النبي ﷺ فقضى لي عليه، فأبى أن يرضى، ثم أتينا أبا بكر الصديق، فقال: أنتما على ما قضى به النبي ﷺ فأبى أن يرضى، فسأله عمر، فقال كذلك، فدخل عمر منزله، فخرج والسيف بيده قد سله، فضرب به رأس الذي أبى أن يرضى فقتله، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية.

وهذا المرسل له شاهد من وجه آخر يصلح للاعتبار. قال ابن دحيم: حدثنا الجوزجاني، حدثنا أبو الأسود، حدثنا ابن لهيعة، عن أبي الأسود، عن عروة بن الزبير، قال: اختصم إلى رسول الله ﷺ رجلان، فقضى لأحدهما، فقال الذي قضي عليه: ردنا إلى عمر. فقال رسول الله ﷺ نعم انطلقوا إلى عمر. فانطلقا؛ فلما أتيا عمر قال الذي قضي له: يا ابن الخطاب، إنَّ رسول الله ﷺ قضى لي، وإنَّ هذا قال ردنا إلى عمر، فردنا إليك رسول الله ﷺ فقال عمر كذلك للذي قضي عليه، قال: نعم قال عمر: مكانك حتى أخرج فأقضي بينكما. فخرج مشتملاً على سيفه، فضرب الذي قال: ردنا إلى عمر. فقتله، وأدبر الآخر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قتل عمر صاحبي، ولوما أعجزه لقتلني. فقال رسول الله ﷺ: ما كنت أظن أن عمر يجترئ على قتل مؤمن، فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] فبرأ الله عمر من قتله. وقد رويت هذه القصة من غير هذين الوجهين.

الدليل الخامس على ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧ - ٥٨] ودلالتها من وجوه:

أحدها: إنَّه تعالى قرن أذاه بأذاه ﷺ، كما قرن طاعته بطاعته؛ فمن آذاه فقد آذى الله.

وقد جاء ذلك منصوصاً عنه، ومن آذى الله فهو كافر حلال الدم. يبين ذلك أنَّ الله جعل محبة الله ورسوله، وإرضاء الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله شيئاً واحداً، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢] في مواضع متعددة، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] فوحد الضمير، وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال أيضاً: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ١]، وجعل شقاق الله ورسوله، ومحادة الله ورسوله، وأذى الله ورسوله، ومعصية الله ورسوله شيئاً واحداً، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [النساء: ١٤] الآية.

وفي هذا وغيره بيان لتلازم الحقين، وإنَّ جهة الله ورسوله جهة واحدة، فمن آذى الرسول فقد آذى الله، ومن أطاعه فقد أطاع الله، لأنَّ الأمة لا يصلون ما بينهم وبين ربهم، إلا

بواسطة الرسول ﷺ، ليس لأحد منهم طريق غيره ولا سبب سواه، وقد أقامه الله مقام نفسه في أمره ونهيه وأخباره وبيانه، فلا يجوز أن يفرق بين الله ورسوله في شيء من هذه الأمور.

وثانيها: أنه فرق بين أذى الله ورسوله، وبين أذى المؤمنين والمؤمنات، فجعل هذا قد احتمل بهتاناً وإثماً، وجعل لذلك لعنة في الدنيا والآخرة، وأعد له العذاب المهين. ومعلوم أن أدنى المؤمنين قد يكون من كبائر الإثم، وفيه الجلد، وليس فوق ذلك إلاَّ الكفر والقتل.

وثالثها: أنَّه تعالى ذكر أنَّه لعنهم في الدنيا والآخرة، وأعدَّ لهم عذاباً مهيناً. واللعن: الإبعاد عن الرحمة، ومن طرده عن رحمته في الدنيا والآخرة، لا يكون إلاَّ كافراً، ويؤيده قول النبي ﷺ: «لعن المؤمن كقتله». متفق عليه. فإذا كان الله قد لعن هذا في الدنيا والآخرة، فهو كقتله. فعلم أن قتله مباح، ثم ذكر هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النور:٢٣] ونقل تفسيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من أنها في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة، قال: وهذه الآية حجة أيضاً موافقة لتلك الآية، لأنه لما كان رمي أمهات المؤمنين أذى للنبي ﷺ لعن صاحبه في الدنيا والآخرة.

ولهذا قال ابن عباس: ليس فيها توبة، لأن مؤذي النبي ﷺ لا تقبل توبته حتى يسلم إسلاماً جديداً، وعلى هذا فرميهن نفاق مبيح للدم إذا قصد به النبي ﷺ أو أوذين بعد العلم بأنهنَّ أزواجه في الآخرة، فإنَّه ما بغت امرأة نبي قط.

الدليل السادس: قوله سبحانه: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢] أي لئلا تحبط، فوجه الدلالة أن الله سبحانه نهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته، وعن الجهر كجهر بعضهم لبعض، لأنَّ هذا الرفع والجهر قد يفضي إلى حبوط العمل وصاحبه لا يشعر. وما قد يفضي إلى حبوط العمل يجب تركه، غاية الوجوب والعمل يحبط بالكفر.

قال سبحانه: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [البقرة:٢١٧]. وغير ذلك من الآيات، فإذا تبت أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول يخاف منه أن يكفر صاحبه. وهو لا يشعر، ويحبط عمله بذلك، وأنه مظنة لذلك وسبب فيه، فمن المعلوم أن ذلك لا ينبغي له ﷺ من التعزير والتوقير والتشريف والتعظيم والإكرام والإجلال.

ولما أن رفع الصوت قد يشتمل على أذى له أو استخفاف به ﷺ وإن لم يقصد الرافع ذاك، فإذا كان رفع الصوت كذلك، كان الأذى والاستخفاف المقصود المعتمد كفراً بطريق الأولى.

الدليل السابع قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣] أمر تعالى من خالف أمره ﷺ أن يحذر الفتنة؛ والفتنة الردة والكفر. قال سبحانه: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣] وغير ذلك من الآيات.

قال الإمام أحمد في رواية الفضل بن زياد: نظرت في المصحف، فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]، وجعل يكررها ويقول: الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله ﷺ أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك، وجعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء:٦٥] وهذا باب واسع مع أنه بحمد الله مجمع عليه، لكن إذا تعددت الدلالات وتعاضدت على غلظ، كفر الساب، وعظم عقوبته، وظهر أن ترك الإحترام للرسول ﷺ وسوء الأدب معه مما يخاف معه الكفر المحبط، كان ذلك أبلغ فيما قصدنا له.

الدليل الثامن أن الله تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣]، فحرم على الأمة أن تنكح أزواجه، لأنَّ ذلك يؤذيه، وجعله عظيماً عند الله تعالى تعظيماً لحرمته ﷺ وقد ذكر أن هذه الآية نزلت لما قال بعض الناس: لو قد توفي رسول الله ﷺ تزوجت عائشة، ثم إن من نكح أزواجه أو سراريه ﷺ فإن عقوبته القتل جزاء له بما انتهك من حرمته ﷺ، فالشاتم له أولى.

والدليل على ذلك ما روى مسلم في صحيحه، عن حماد بن ثابت، عن أنس أن رجلاً كان يتهم بأم ولد للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ لعلي: «إذهب فاضرب عنقه». فأتاه علي، فإذا هو في ركي يتبرد، فقال له: اخرج. فناوله يده فأخرجه، فإذا هو مجبوب ليس له ذكر، فكف علي؛ ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنّه لمجبوب ما له ذكر، فهذا الرجل أمر النبي ﷺ بضرب عنقه لما استحل من حرمته، ولم يأمر بإقامة حد الزنا لأن حد الزنا ليس هو ضرب الرقبة، بل إن كان محصناً رجم، وإن كان غير محصن جلد، ولا يقام عليه الحد، إلاّ بأربعة شهداء أو بالإقرار المعتبر.

فلما أمر النبي ﷺ بضرب عنقه من غير تفصيل بين أن يكون محصناً أو غير محصن، علم أن قتله لما انتهكه من حرمته ﷺ ولعله قد شهد عنده شاهدان أنهما رأياه مباشر هذه المرأة، أو شهد بنحو ذلك؛ فأمر بقتله.

فلما تبين أنّه كان مجبوباً علم أن المفسدة مأمونة منه، أو أنه بعث علياً ليستبرىءَ القصة،

فإن كان ما بلغه عنه حقاً قتله. ولهذا قال في هذه القصة أو غيرها: أكون كالسكة المحماة.

قال: بل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ تزوج قيلة بنت قيس بن معد يكرب، أخت الأشعث، ومات قبل أن يدخل بها وقبل أن تقدم عليه، وقيل: إنَّه خيرها بين أن يضرب عليها الحجاب وتحرم على المؤمنين، وبين أن يطلقها فتنكح من شاءت، فاختارت النكاح. قالوا: فلما مات النبي ﷺ تزوجها عكرمة بن أبي جهل بحضرموت، فبلغ أبا بكر، فقال: لقد هممت أن أحرق عليهما بيتهما. فقال: ما هي من أمهات المؤمنين، ولا دخل بها، ولا ضرب عليها الحجاب.

وقيل: إنها ارتدت فاحتج عمر على أبي بكر أنها ليست من أزواج النبي ﷺ بارتدادها، فوجه الدلالة أن الصديق رضي الله عنه عزم على تحريقها وتحريق من تزوجها لما رأى أنها من أزواج النبي ﷺ حتى ناظره عمر بأنها ليست من أزواجه ﷺ فكف عنهما لذلك، فعلم أنهم كانوا يرون قتل من استحل حرمة رسول الله ﷺ ولا يقال إن ذلك حد الزنا، لأنها كانت تكون محرمة عليه. ومن أتى ذات محرم حدّ حد الزنا، أو قتل لوجهين: أحدهما: إنَّ حد الزنا الرجم، الثاني: إنَّ ذاك الحد يفتقر إلى ثبوت الوطء ببينة أو إقرار، فلما أراد تحريق البيت مع جواز أن لا يكون غشيها، علم أن ذلك عقوبة ما انتهكه من حرمة رسول الله ﷺ.

ومن جواهر الإمام ابن تيمية رحمه الله

قوله في كتابه «الصارم المسلول» أيضاً: وأما السنة، أي دلائل السنة على وجوب قتل ساب النبي ﷺ سواء كان مسلماً أو ذمياً، وانتقاض عهده بسب الله تعالى أو كتابه أو دينه أو رسوله ﷺ فأحاديث.

الحديث الأول: ما رواه الشعبي عن علي أن يهودية كانت تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فخنقها رجل حتى ماتت، فأبطل رسول الله ﷺ دمها. هكذا رواه أبو داود في سننه، وابن بطة في سننه، وهو من جملة ما استدل به الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله، وقال: أنبأنا جرير عن مغيرة، عن الشعبي، قال: كان رجل من المسلمين أعني أعمى يأوي إلى امرأة يهودية، فكانت تطعمه وتحسن إليه، فكانت لا تزال تشتم النبي ﷺ وتؤذيه، فلما كانت ليلة من الليالي خنقها فماتت، فلما أصبح ذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنشد الناس في أمرها، فقام الأعمى فذكر له أمرها، فأبطل رسول الله ﷺ دمها.

وهذا الحديث جيد، فإن الشعبي رأى علياً وروى عنه، وهو نص في أن قتلها لأجل شتم النبي ﷺ ودليل على قتل الرجل الذمي وقتل المسلم والمسلمة إذا سبا بطريق الأولى، لأنَّ هذه

المرأة كانت موادعة مهادنة، لأنَّ النبي ﷺ لما قدم المدينة وادع جميع اليهود الذين كانوا بها موادعة مطلقة، ولم يضرب عليهم جزية. وهذا مشهور عند أهل العلم بمنزلة المتواتر بينهم، ولو لم يكن قتلها جائزاً لبين ﷺ للرجل قبح ما فعل، فإنه قد قال ﷺ : «من قتل نفساً معاهدة بغير حقها لم يرح رائحة الجنة»[1]، فلما أهدر دمها، علم أنه كان مباحاً.

الحديث الثاني: ما روى إسماعيل بن جعفر، عن إسرائيل، عن عثمان الشحام، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبي ﷺ وتقع فيه، فينهاها فلا تنتهي، ويزجرها فلا تنزجر.

فلما كان ذات ليلة، جعلت تقع في النبي ﷺ وتشتمه، فأخذ المعول فوضعه في بطنها واتكأ عليه فقتلها. فلما أصبح، ذكر ذلك للنبي ﷺ فجمع الناس فقال: أنشد الله رجلاً فعل ما فعل لي عليه حق إلا قام.

قال: فقام الأعمى يتخطى الناس، وهو يتدلدل حتى قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا صاحبها كانت تشتمك وتقع فيك، فأنهاها فلا تنتهي، وازجرها فلا تنزجر: ولي منها ابنان مثل اللؤلؤتين، وكانت لي رفيقة.

فلما كان البارحة، جعلت تشتمك وتقع فيك، فأخذت المعول فجعلته في بطنها، واتكأت عليه حتى قتلتها. فقال النبي ﷺ : «ألا اشهدوا أن دمها هدر» . رواه أبو داود والنسائي، فهذه القصة يمكن أن تكون هي الأولى، وعليه يدل كلام الإمام أحمد، ويمكن أن تكون غيرها.

الحديث الثالث: ما احتج به الشافعي على أن الذمي، إذا سب قتل وبرئت منه الذمة، وهو قصة كعب بن الأشرف اليهودي، قال الخطابي: قال الشافعي: يقتل الذمي إذا سب رسول الله ﷺ وتبرأ منه الذمة.

واحتج في ذلك بخبر كعب بن الأشرف، وقصته مستفيضة مشهورة، وقد رواها عمرو بن دينار عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ : «من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله؟» فقام محمد بن مسلمة، فقال: أنا يا رسول الله. أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. قال: قل. قال: فأتاه وذكره ما بينهم. قال: إنَّ هذا الرجل قد أراد الصدقة وعنانا، فلما سمعه قال: وأيضاً والله لتملنه. قال: إنا قد اتبعناه الآن ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره. قال: وقد أردت أن تسلفني سلفاً. قال: فما ترهنني

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٤٠١١٦).

نساءكم؟ قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنوني أولادكم. قال: يسب ابن أحدنا، فيقال: رهنت في وسقين من تمر، ولكن نرهنك اللامة يعني السلاح؟ قال: نعم ووادعه أن يأتيه بالحارث، وأبي عبس بن جبير، وعباد بن بشر؛ فجاؤا فدعوه ليلاً، فنزل إليهم قال سفيان: قال: غير عمر، وقالت له امرأته: إني لأسمع صوتاً كأنه صوت دم. قال: إنما هذا محمد ورضيعه أبو نائلة. إنَّ الكريم إذا دعى إلى طعنة ليلاً لأجاب. قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه، فإذا استمكنت منه فدونكم. قال: فلما نزل متوشحاً، قالوا: نجد منك ريح الطيب. قال: نعم تحتي فلانة أعطرنا العرب. قال: أفتأذن لي أن أشم منه. قال: نعم فشم ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟ قال: فاستمكن منه ثم قال: دونكم فقتلوه. متفق عليه.

وروى ابن أبي أويس عن إبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد بن مسلمة، عن أبيه، عن جابر بن عبد الله أن كعب بن الأشرف عاهد رسول الله ﷺ أن لا يعين عليه ولا يقاتله، ولحق بمكة، ثم قدم المدينة معلناً بعدواة النبي ﷺ وصار يهجوه بالشعر، فعند ذلك ندب رسول الله ﷺ إلى قتله. وروى الواقدي بسنده إلى جابر بن عبد الله، قال: فزعت يهود ومن معها من المشركين، فجاؤا إلى النبي ﷺ حين أصبحوا، فقالوا قد طرق صاحبنا الليلة، وهو سيد من ساداتنا، قتل غيلة بلا جرم ولا حدث علمناه، فقال رسول الله ﷺ: **«إنَّه لو قرّ كما قرَّ غيره ممن هو على مثل رأيه ما اغتيل، ولكنه نال منا الأذى وهجانا بالشعر: ولم يفعل هذا أحد منكم، إلا كان السيف»**.

ودعاهم رسول الله ﷺ إلى أن يكتبوا بينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتبوا بينهم وبينه كتاباً تحت العذق في دار رملة بنت الحارث، فحذرت يهود وخافت، وذلت من يوم قتل ابن الأشرف.

وذكر موسى بن عقبة، عن الزهري أنه قال في القصة: وذكر لنا رسول الله ﷺ قال: **«اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت»**. فقال له محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله أقتله. وذكر القصة في قتله إلى آخرها. ثم قال: فقتل الله ابن الأشرف بعداوته لله ولرسوله، وهجائه إياه، وتأليبه عليه قريشاً، وإعلانه بذلك.

الحديث الرابع: ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سب نبياً قتل، ومن سب أصحابه جلد» رواه أبو محمد الخلال، وأبو القاسم الأزجي. ورواه أبو ذر الهروي ولفظه: **«من سب نبياً فاقتلوه ومن سب أصحابي فاجلدوه»**. وظاهره يدل على أنه يقتل من غير استتابة، وأن القتل حد له.

الحديث الخامس: ما روى عبد الله بن قدامة، عن أبي برزة قال: أغلظ رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فقلت: اقتله. فانتهرني وقال: ليس هذا لأحد بعد رسول الله ﷺ رواه النسائي من حديث شعبة. وفي رواية لأبي بكر بن عبد العزيز بن جعفر، عن أبي برزة أن رجلاً شتم أبا بكر، فقلت: يا خليفة رسول الله، ألا أضرب عنقه، فقال: ويحك، أو ويلك، ما كانت لأحد بعد رسول الله ﷺ.

وفي رواية أبي داود في سننه بإسناد صحيح، عن عبد الله بن مطرف، عن أبي برزة قال: كنت عند أبي بكر رضي الله عنه فتغيظ على رجل فاشتد عليه، فقلت: تأذن لي، يا خليفة رسول الله، أن أضرب عنقه؟ قال: فأذهبت كلمتي غضبه، فقام فدخل، فأرسل إليّ فقال: ما الذي قلت آنفاً؟ قلت: ائذن لي أن أضرب عنقه. قال: أكنت فاعلاً لو أمرتك؟ قلت: نعم. قال: لا والله ما كانت لبشر بعد رسول الله ﷺ، وقد استدل به على جواز قتل ساب النبي ﷺ جماعات من العلماء، منهم أبو داود وإسماعيل بن إسحاق القاضي، وأبو بكر بن عبد العزيز، والقاضي أبو يعلى وغيرهم من العلماء. وهذا الحديث يفيد أن سبه ﷺ في الجملة يبيح القتل، ويستدل بعمومه على قتل الكافر والمسلم.

الحديث السادس: قصة العصماء بنت مروان وهي ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هجت امرأة من خطمة النبي ﷺ فقال: من لي بها؟ فقال رجل من قومها: أنا يا رسول الله. فنهض فقتلها، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «لا ينتطح فيها عنزان». وذكر أصحاب المغازي قصتها مبسوطة.

قال الواقدي: حدثني عبد الله بن الحارث بن فضيل، عن أبيه أن عصماء بنت مروان كانت تحت يزيد بن زيد الخطمي، وكانت تؤذي النبي ﷺ. وتعيب الإسلام، وتحرض على النبي ﷺ، وقالت شعراً في ذلك، فقال عمير بن عدي حين بلغه قولها وتحريضها: اللهم إنَّ لك عليَّ نذراً لئن رددت رسول الله إلى المدينة لأقتلنها، ورسول الله ﷺ يومئذ ببدر.

فلما رجع رسول الله ﷺ من بدر، جاءها عمير بن عدي في جوف الليل، حتى دخل عليها في بيتها، وحولها نفر من ولدها نيام، منهم من ترضعه في صدرها، فجسها بيده فوجد الصبي ترضعه، فنحاه عنها، ثم وضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها، ثم خرج حتى صلى الصبح مع النبي ﷺ فلما انصرف النبي ﷺ نظر إلى عمير، فقال: أقتلت بنت مروان؟ قال: نعم، بأبي أنت يا رسول الله.

وخشي عمير أن يكون افتات على رسول الله ﷺ فقال: هل عليَّ في ذلك شيء يا رسول الله؟ قال: «لا ينتطح فيها عنزان». وإن أول ما سمعت هذه الكلمة من النبي ﷺ فقال

عمير: فالتفت النبي ﷺ إلى من حوله، فقال: «إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب، فانظروا إلى عمير بن عدي». فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: انظروا إلى هذا الأعمى الذي سرى في طاعة الله، فقال: لا تقل الأعمى، ولكنه البصير، فلما رجع عمير من عند رسول الله ﷺ وجد في بيتها جماعة يدفنونها، فأقبلوا إليه حين رأوه مقبلاً من المدينة، فقالوا: يا عمير أنت قتلتها؟ قال: نعم فكيدوني جميعاً، ثم لا تنظرون، فو الذي نفسي بيده لو قلتم بأجمعكم ما قالت لضربتكم بسيفي هذا حتى أموت أو إني أقتلكم؛ فيومئذ ظهر الإسلام في بني خطمة؛ وكان منهم رجال يستخفون بالإسلام خوفاً من قومهم، وكان قتلها لخمس ليال بقين من رمضان مرجع النبي ﷺ من بدر، وهي من بني خطمة أحد بطون الأنصار.

الحديث السابع: قصة أبي عقل اليهودي ذكرها أهل المغازي والسير، روى الواقدي بسنده أن شيخاً من بني عمرو بن عوف يقال له أبو عقل، وكان شيخاً كبيراً قد بلغ عشرين ومائة سنة، حين قدم النبي ﷺ إلى المدينة كان يحرض على عداوة النبي ﷺ ولم يدخل في الإسلام. فلما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر، وظفره الله بما ظفره، حسده وبغى؛ فقال: وذكر قصيدة تتضمن هجو النبي ﷺ وذم من اتبعه. قال سالم بن عمير: عليَّ نذر أن أقتل أبا عقل أو أموت دونه فأمهل. فطلب له غرة حتى كانت ليلة صائفة، فنام أبو عقل بالفناء في الصيف في بني عمرو بن عوف، فأقبل سالم بن عمير فوضع السيف على كبده حتى خش في الفراش، فصاح عدو الله، فثاب إليه ناس ممن هم على قوله، فأدخلوه منزله وقبروه، وقالوا: من قتله؟ والله لو نعلم من قتله لقتلناه به. وذكر محمد بن سعيد أنَّه كان يهودياً، وقد ذكرنا أن يهود المدينة كلهم كانوا قد عاهدوا، ثم إنه لما هجا وأظهر الذم قتل في شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة. وهذا قديم قبل قتل ابن الأشرف، وفيه دلالة واضحة على أن المعاهد إذا أظهر السب ينتقض عهده ويقتل غيلة.

الحديث الثامن: حديث أنس بن زنيم الديلي، وهو مشهور عند أهل السير، ذكره ابن إسحاق والواقدي وغيرهما. قال الواقدي: حدثني عبد الله بن عمرو بن زهير، عن محجن بن وهب، قال: آخر ما كان بين خزاعة وبين كنانة أن أنس بن زنيم الديلي هجا رسول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة، فوقع به فشجه، فخرج إلى قومه فأراهم شجته، فثار الشر مع ما كان بينهم وما تطلب بنو بكر من خزاعة من دمائها.

قال الواقدي: حدثني حزام بن هشام بن خالد الكعبي، عن أبيه قال: وخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصر رسول الله ﷺ ويخبرونه بالذي أصابهم، وذكر قصة فيها إنشاد القصيدة التي أولها: «اللهم إني ناشد محمداً» قال: فلما فرغ الركب

قالوا: يا رسول الله، إنَّ أنس بن زنيم الديلي قد هجاك، فندر رسول الله ﷺ دمه، فبلغ ذلك أنس بن زنيم، فقدم معتذراً إلى رسول الله ﷺ مما بلغه عنه، فقال وذكر قصيدة فيها مدح رسول الله ﷺ أولها:

أنت الذي تُهدي معد بأمره	بل الله يهديها وقال لك أسهد
فما حملت من ناقة فوق رحلها	أبر وأوفى ذمة من محمد
تعلم رسول الله أنك مدركي	وأن وعيداً منك كالأخذ باليد
تعلم رسول الله أنك قادر	على كل حيّ متهمين ومنجد
ونُبِيّ رسول الله أني هجوته	فلا رفعت سوطي إليّ إذا يدي
سوى أنني قد قلت يا ويح فتية	أجيبوا بنحس يوم طلق وأسعد
فإني لا عرضاً خرقت ولا دماً	هرقت ففكر عالم الحق وأقصد

قال الواقدي: أنشدنيها حزام، وبلغت رسول الله ﷺ قصيدته هذه واعتذاره، وكلمه نوفل ابن معاوية الديلي، فقال: يا رسول الله، أنت أولى الناس بالعفو. من منا لم يعادك ويؤذك، ونحن في جاهلية لا ندري ما نأخذ وما ندع، حتى هدانا الله بك وأنقذنا بك من الهلك، وقد كذب عليه الركب وكثروا عندك. فقال: دع الركب عنك، فإنا لم نجد بتهامة أحداً من ذي رحم ولا بعيد الرحم كان أبر من خزاعة. فأسكت نوفل بن معاوية، فلما سكت قال رسول الله ﷺ: قد عفوت عنه. قال نوفل: فداك أبي وأمي. قد ندر النبي ﷺ دمه أي أهدره، وهو نص في أن المعاهد الهاجي يباح دمه، ثم إنه لما قدم أسلم في شعره، ولهذا أعدوه من أصحاب النبي ﷺ وهو بعد إسلامه واعتذاره وتكذيب المخبرين، ومدحه لرسول الله ﷺ إنما طلب به العفو من النبي ﷺ عن إهدار دمه. والعفو إنما يكون مع جواز العقوبة عن الذنب، فعلم أن النبي ﷺ كان له أن يعاقبه بعد مجيئه مسلماً معتذراً، وإنما عفى عنه حلماً وكرماً.

الحديث التاسع: قصة ابن أبي سرح، وهي مما اتفق عليها أهل العلم، واستفاضت عندهم استفاضة تغني عن رواية الآحاد، وذلك أثبت وأقوى مما رواه الواحد العدل، فنذكرها مسندة مشروحة ليتبين وجه الدلالة منها. عن مصعب بن سعد، عن سعد بن أبي وقاص قال: لما كان يوم فتح مكة اختبأ عبد الله بن سعد بن أبي سرح عند عثمان بن عفان، فجاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، بايع عبد الله. فرفع رأسه، فنظر إليه ثلاثاً، كل ذلك يأبى. فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه، فقال: أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا، حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟ فقالوا: ما ندري يا رسول الله، ما في نفسك إلا أومأت إلينا بعينك. قال: «إنَّه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين».

رواه أبو داود بإسناد صحيح، ورواه النسائي كذلك أبسط من هذا، عن سعد قال: لما كان يوم فتح مكة أمّن رسول الله ﷺ الناس إلاّ أربعة نفر، قال: «اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة»، عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح.

فأما عبد الله بن خطل، فأدرك وهو معلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حريث وعمار بن ياسر، فسبق عماراً وكان أشب الرجلين، فقتله.

وأما مقيس بن صبابة، فأدركه الناس في السوق فقتلوه. وأما عكرمة فركب البحر فأصابته عاصف، فقال أصحاب السفينة: اخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً هٰهنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني في البحر إلا الإخلاص لا ينجيني في البر غيره.

اللهم إنَّ لك عليَّ عهداً إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمداً حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفواً كريماً. فجاء، فأسلم.

وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، جاء به حتى أوقفه على النبي ﷺ ثم ذكر الباقي، كما رواه أبو داود.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قال: كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ فأزله الشيطان، فلحق بالكفار، فأمر به رسول الله ﷺ أن يقتل يوم الفتح، فاستجار له عثمان فأجاره رسول الله ﷺ رواه أبو داود.

وذكر الواقدي عن أشياخه قالوا: وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله ﷺ.

فزعم أنه ربما أملى عليه رسول الله ﷺ «سميع عليم»، فكتب «عليم حكيم» فيقرؤه رسول الله ﷺ كذلك ويقره فافتتن، وقال: ما يدري محمد ما يقوله: إني لأكتب ما شئت هذا الذي كتبت يوحى إليَّ كما يوحى إلى محمد، وخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتداً، فأهدر رسول الله ﷺ دمه يوم الفتح.

فلما كان يومئذٍ، جاء ابن أبي سرح إلى عثمان بن عفان، وكان أخاه من الرضاعة، فقال: يا أخي إني والله أستجير بك فاحبسني هٰهنا، واذهب إلى محمد فكلمه فيَّ، فإن محمداً إن رآني ضرب الذي فيه عيناي، إنَّ جرمي أعظم الجرم، وقد جئت تائباً. فقال عثمان

رضي الله عنه: بل اذهب معي. قال عبد الله: والله إن رآني ليضربنَّ عنقي، ولا ينظرني.

قد أهدر دمي، وأصحابه يطلبوني في كل موضع. فقال عثمان: انطلق معي، فلا يقتلك إن شاء الله. فلم يرع رسول الله ﷺ إلاَّ بعثمان آخذاً بيد عبد الله بن سعد بن أبي سرح واقفين بين يديه، فأقبل عثمان على النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أمه كانت تحملني وتمشيه، وترضعني وتفطمه، وكانت تلطفني وتتركه، فهبه لي.

فأعرض عنه رسول الله ﷺ وجعل عثمان كلما أعرض عنه النبي ﷺ بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام، وإنما أعرض النبي ﷺ إرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه، لأنه لم يؤمنه. فلما رأى أن لا يقوم أحد، وعثمان قد أكب على رسول الله ﷺ يقبل رأسه، وهو يقول: يا رسول الله تبايعه فداك أبي وأمي؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم.

ثم التفت إلى أصحابه، فقال: «ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الكلب فيقتله!» أو قال: «الفاسق». فقال عباد بن بشر: ألا أومأت إليَّ يا رسول الله، فو الذي بعثك بالحق إني لأتبع طرفك من كل ناحية رجاء أن تشير إلي فأضرب عنقه. ويقال: قال هذا أبو اليسر، ويقال عمر بن الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: «إني لا أقتل بالإشارة».

وقائل يقول: إنَّ النبي ﷺ قال يومئذ: «إنَّ النبي لا يكون له خائنة الأعين». فبايعه رسول الله ﷺ فجعل يفر من رسول الله ﷺ كلما رآه، فقال عثمان لرسول الله ﷺ: بأبي وأمي لو ترى ابن أم عبد الله يفر منك كلما رآك، فتبسم رسول الله ﷺ فقال: ألم أبايعه وأؤمنه؟. قال: بلى يا رسول الله، ولكنه يتذكر عظيم جرمه في الإسلام. فقال النبي ﷺ: «الإسلام يجب ما كان قبله». فرجع عثمان إلى ابن أبي سرح فأخبره، فكان يأتي فيسلم على النبي ﷺ مع الناس.

فوجه الدلالة أن عبد الله بن سعد افترى على النبي ﷺ إنه كان يتمم له الوحي، ويكتب له ما يريد فيوافقه عليه، وإنَّه يصرفه حيث شاء ويغير ما أمره به من الوحي، فيقره على ذلك، وزعم أنه سينزل مثل ما أنزل الله، إذ كان قد أوحى إليه في زعمه كما أوحى إلى رسول الله ﷺ وهذا الطعن على رسول الله، وعلى كتابه، والافتراء عليه بما يوجب الريب في نبوته قدر زائد على مجرد الكفر به والردة في الدين، وهو من أنواع السب، وكذلك لما افترى عليه كاتب آخر مثل هذه الفرية، قصمه الله وعاقبه عقوبة خارجة عن العادة، ليتبين لكل أحد افتراؤه إذ كان مثل هذا يوجب في القلوب المريضة ريباً، بأن يقول القائل: كاتبه أعلم الناس بباطنه وبحقيقة أمره. وقد أخبر عنه بما أخبر: فمن نصر الله لرسوله إن أظهر فيه آية يبين بها أنه مفتر، فروى البخاري في صحيحه عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس قال: كان رجل نصرانيّ فأسلم وقرأ

البقرة وآل عمران؛ وكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانياً، فكان يقول: ما يدري محمد إلا ما كتبت له. فأماته الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض. فقالوا: فهذا فعل محمد وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا، فألقوه فحفروا له وعمقوا في الأرض ما استطاعوا، فأصبح قد لفظته الأرض. فعلموا أنه ليس من الناس فألقوه. ورواه مسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس قال: كان رجل من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران، وكان يكتب للنبي ﷺ فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب قال: فرفعوه. قالوا: هذا قد كان يكتب لمحمد. فأعجبوا به.

فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم، فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذاً. فهذا الملعون الذي افترى على النبي ﷺ إنه ما كان يدري إلا ما كتب له قصمه الله وفضحه بأن أخرجه من القبر، بعد أن دفن مراراً.

وهذا أمر خارج عن العادة، يدل كل أحد أن هذا عقوبة لما قاله، وأنه كان كاذباً إذ كان عامة الموتى لا يصيبهم مثل هذا وأن هذا الجرم أعظم من جرم الإرتداد. إذ كان عامة المرتدين يموتون ولا يصيبهم مثل هذا والله منتقم لرسوله ممن طعن عليه وسبه، ومظهر لدينه ولكذب الكاذب إذا لم يمكن الناس أن يقيموا عليه الحد.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: ونظير هذا ما حدثناه أعداد من المسلمين العدول أهل الفقه والخبرة، عما جربوه مرات متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية، لما حصر المسلمون فيها بني الأصفر في زماننا، قالوا: كنا نحصر الحصن أو المدينة الشهر وأكثر من الشهر، وهو ممتنع علينا حتى نكاد نيأس منه، حتى إذا تعرض أهله لسب رسول الله ﷺ والوقيعة في عرضه، يعجل فتحه وييسر، ولم يكد يتأخر إلا يوماً أو يومين أو نحو ذلك، ثم يفتح المكان عنوة، ويكون فيهم ملحمة عظيمة.

قالوا: حتى إن كنا لنتباشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يقعون فيه مع امتلاء القلوب غيظاً عليهم بما قالوه فيه ﷺ قال: وهكذا حدثني بعض أصحابنا الثقات إنَّ المسلمين من أهل المغرب حالهم مع النصارى كذلك، ومن سنة الله أن يعذب أعداءه تارة بعذاب من عنده، وتارة بأيدي عباده المؤمنين، فكذلك لما تمكن النبي ﷺ من ابن أبي سرح أهدر دمه لما طعن في النبوة، وافترى عليه الكذب، مع أنه قد أمّن جميع أهل مكة الذين قاتلوه وحاربوه أشد المحاربة، ومع أن السنة في المرتد أنه لا يقتل حتى يستتاب، إما وجوباً أو استحباباً. وسنذكر

إن شاء الله أن جماعة ارتدوا على عهد النبي ﷺ ثم دعوا إلى التوبة، وعرضت عليهم حتى تابوا وقبلت توبتهم، وفي ذلك دليل على أن جرم الطاعن على الرسول، الساب له، أعظم من جرم المرتد.

ثم إنَّ إباحة النبي ﷺ دمه بعد مجيئه تائباً مسلماً، وقوله هلا قتلتموه. ثم عفوه عنه بعد ذلك دليل على أن النبي ﷺ كان له أن يقتله أو يعفو عنه، ويعصم دمه. وهو دليل على أن له ﷺ أن يقتل من سبه، وإن تاب وعاد إلى الإسلام.

الحديث العاشر: حديث القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجاء النبي ﷺ. وسارة مولاة بني هاشم، وذلك مشهور مستفيض عند أهل السير.

قال موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري: وأمرهم رسول الله ﷺ أن يكفوا أيديهم، فلا يقاتلوا أحداً إلا من قاتلهم؛ وأمرهم بقتل أربعة نفر. قال: وأمر بقتل قينتين لابن خطل تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ وقتلت إحداهما وكتمت الأخرى حتى استؤمن لها.

ثم ذكر جرم ابن خطل، وهو قتله، رجلاً مسلماً، ولحوقه بمكة مرتداً، ونظمه الشعر في هجاء النبي ﷺ وأمره لقينتيه تغنيان به.

وأما سارة مولاة عمرو بن هاشم فكانت مغنية نواحة بمكة، فيلقى عليها هجاء النبي ﷺ فتغني به، وكانت قد قدمت على رسول الله ﷺ: تطلب أن يصلها، وتسكت الحاجة فقال رسول الله ﷺ «**ما كان لك في غنائك ونواحك ما يكفيك؟**» فقالت: إنَّ قريشاً منذ قتل من قتل منهم ببدر تركوا استماع الغناء. فوصلها رسول الله ﷺ وأوقر لها بعيراً طعاماً، فرجعت إلى قريش وهي على دينها، فأمر بها رسول الله ﷺ يوم الفتح أن تقتل، فقتلت يومئذٍ.

الحديث الحادي عشر: ما استدل به بعضهم من قصة ابن خطل، ففي الصحيحين من حديث الزهري، عن أنس أن النبي ﷺ دخل مكة عام الفتح، وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه، جاءه رجل فقال: ابن خطل متعلق بأستار الكعبة؛ فقال: اقتلوه فقتلوه.

الحديث الثاني عشر: إنَّ النبي ﷺ أمر بقتل جماعة لأجل سبه ﷺ وقتل جماعة لأجل ذلك، مع كفه وإمساكه عمن هو بمنزلتهم في كونه كافراً حربياً. فمن ذلك ما رواه سعيد بن المسيب أن النبي ﷺ أمر يوم الفتح بقتل عبد الله بن الزبعري. ذكر ابن إسحاق قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة منصرفاً عن الطائف، كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب بن زهير، يخبره أن رسول الله ﷺ قد قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش عبد الله ابن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب ذهبوا في كل وجه، ففي هذا

بيان أن النبي ﷺ أمر بقتل من كان يهجوه ويؤذيه بمكة من الشعراء، مثل ابن الزبعري وغيره.

ولا خفاء أن ابن الزبعري إنما ذنبه أنه كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ بلسانه، فإنه كان من أشعر الناس، وكان يهاجي شعراء الإسلام مثل حسان وكعب بن مالك، فإنَّ ما سوى ذلك من الذنوب قد شركه فيه وأربى عليه عدد كثير من قريش، ثم إنَّ ابن الزبعري فر إلى نجران، ثم قدم على النبي ﷺ مسلماً وله أشعار حسنة في التوبة والإعتذار رضي الله عنه واسمه عبد الله، فأهدر دمه للسب، مع أمانه لجميع أهل مكة إلا من كان له مثل جرمه أو نحو ذلك.

ومن ذلك حديث أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب: وقصته في هجائه ﷺ وفي إعراض النبي ﷺ عنه، لما جاءه مسلماً مشهورة مستفيضة.

وروى الواقدي بسنده قال: كان أبو سفيان بن الحارث أخا رسول الله ﷺ من الرضاعة، أرضعته حليمة أياماً، وكان يألف رسول الله ﷺ وكان له تِرْباً، فلما بعث رسول الله ﷺ عاداه عداوة لم يعادد أحداً قط مثلها، ولم يكن دخل الشعب مع بني هاشم والمطلب، وهجا رسول الله ﷺ وهجا أصحابه.

وذكر الحديث إلى أن قال: ثم إن الله ألقى في قلبه الإسلام. قال أبو سفيان، فقلت: من أصحب، ومع من أكون قد ضرب الإسلام بجرانه، فجئت زوجتي وولدي، فقلت: تهيّؤا للخروج، فقد أظل قدوم محمد. قالوا: قد آن لك أن تبصر أن العرب والعجم قد تبعت محمداً، وأنت توضع في عداوته، وكنت أولى الناس بنصره. فقلت لغلامي مذكور: عجل بأبعرة وفرسي. قال: ثم سرنا حتى نزلنا بالأبواء، وقد نزلت مقدمته ﷺ الأبواء فتنكرت، وخفت أن أقتل. وكان قد ندر دمي، فخرجت وأخذ ابني جعفر على قدمي نحواً من ميل في الغداة التي صبح رسول الله ﷺ الأبواء، فأقبل الناس رسلاً رسلاً، أي قطيعاً قطيعاً، فتنحيت فرقاً من أصحابه.

فلما طلع في موكبه، تصديت له تلقاء وجهه. فلما ملأ عينيه مني، أعرض عني بوجهه إلى الناحية الأخرى، فتحولت إلى ناحية وجهه الأخرى، وأعرض عني مراراً، فأخذني ما قرب وما بعد، وقلت: أنا مقتول قبل أن أصل إليه، وأتذكر بره ورحمه، وقرابتي، فيمسك ذلك مني؛ وقد كنت لا أشك أنَّ رسول الله ﷺ وأصحابه سيفرحون بإسلامي فرحاً شديداً، لقرابتي برسول الله ﷺ فلما رأى المسلمون إعراض رسول الله ﷺ عني، أعرضوا عني جميعاً، فلقيني ابن أبي قحافة معرضاً عني، ورأيت عمر يغري بي رجُلاً من الأنصار فالز بي رجلاً يقول: يا عدو الله، أنت الذي كنت تؤذي رسول الله ﷺ وتؤذي أصحابه.

قد بلغت مشارق الأرض ومغاربها في عداوته، فرددت بعض الرد عن نفسي، فاستطال

عليّ ورفع صوته حتى جعلني في مثل الحرجة من الناس يسرون، يعني بما فعل بي، قال: فدخلت على عمي العباس، فقلت: يا عم، قد كنت أرجو أن سيفرح رسول الله ﷺ بإسلامي لقرابتي وشرفي؛ وقد كان منه ما رأيت، فكلمه ليرضى عني. قال: لا والله لا أكلمه كلمة فيك أبداً بعد الذي رأيت منه، إلا أن أرى وجهاً أني أجل رسول الله ﷺ وأهابه، فقلت: يا عم إلى من تكلني؟ قال: هو ذاك، فلقيت علياً، فكلمته، فقال لي مثل ذلك، وذكر الحديث إلى أن قال: فخرجت فجلست على باب منزل رسول الله ﷺ حتى راح إلى الجحفة، وهو لا يكلمني، ولا أحد من المسلمين وجعلت لا ينزل منزلاً إلا أنا على بابه، ومعي ابني جعفر قائم، فلا يراني إلا أعرض عني، فخرجت على هذه الحال حتى شهدت معه فتح مكة، وأنا في خيله التي تلازمه حتى إذا هبط من كداء ونزل الأبطح فنظر إليّ نظراً هو أبر من ذلك النظر، قد رجوت أن يتبسم. ودخل عليه نساء بني عبد المطلب، ودخلت معهن زوجتي فرققته عليّ، وخرج إلى المسجد وأنا بين يديه لا أفارقه على حال، حتى خرج إلى هوازن، فخرجت معه. وذكر قصته بهوازن، وهي مشهورة. ثم قال: قال ابن إسحاق: وكان أبو سفيان بن الحارث، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وهو أخو أم سلمة زوج النبي ﷺ قد لقيا رسول الله ﷺ بثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله، ابن عمك وابن عمتك وصهرك. فقال: لا حاجة لي بهما.

أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال: فلما خرج الخبر إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بن الحرث ابن له، فقال: والله ليأذنن لي رسول الله ﷺ أو لآخذن بيد ابني هذا. ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً أو جوعاً. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رق لهما فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان في إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه فقال:

لعمـــرك إنـــي يـــوم أحمـــل رايـــة ... لتغلـــب خيـــل الـــلات خيـــل محمـــد

لكـــالمـــدلـــج الحيـــران أظلـــم ليلـــه ... فهـــذا أوانـــي حيـــن أهـــدي وأهتـــدي

هـــدانـــي هـــاد غيـــر نفســـي ودلنـــي ... علـــى الله مـــن طـــردتـــه كـــل مطـــرد

وذكر باقي الأبيات. وفي رواية الواقدي، قال: فطلبا الدخول على رسول الله ﷺ فأبى أن يدخلهما عليه، فكلمته أم سلمة زوجته، فقالت: يا رسول الله، صهرك وابن عمتك وابن عمك وأخوك من الرضاعة.

وقد جاء الله بهما مسلمين، لا يكونا أشقى الناس بك. فقال رسول الله ﷺ: لا حاجة لي بهما. أما أخوك فالقائل لي بمكة ما قال: لن نؤمن لك حتى ترقى في السماء. فقلت: يا

رسول الله، إنما هو من قومك، وكل قريش قد تكلمت، ونزل القرآن بعينه، وقد عفوت عمن هو أعظم جرماً منه. وابن عمك قرابتك به قريبة، وأنت أحق من عفا عن جرمه. فقال رسول الله ﷺ: «هو الذي هتك عرضي، فلا حاجة لي بهما».

فلما خرج الخبر إليهما، قال أبو سفيان بن الحارث ومعه ابنه: والله ليقبلن مني أو لآخذن بيد ابني هذا، فلأذهبن في الأرض حتى أهلك عطشاً أو جوعاً.

فلما بلغ رسول الله ﷺ مقالته رق له، وقال عبد الله بن أبي أمية: إنما جئت لأصدقك ولي من القرابة مالي، وللصهر بك، وجعلت أم سلمة تكلمه فيهما، فرق رسول الله ﷺ لهما، فأذن لهما ودخلا فأسلما وكانا جميعاً حسني الإسلام. قتل عبد الله بن أبي أمية بالطائف ومات أبو سفيان بن الحارث بالمدينة في خلافة عمر رضي الله عنهما لم يغمص عليه في شيء.

ولقد كان رسول الله ﷺ أهدر دمه قبل أن يلقاه. فوجه الدلالة أنَّه ندر دم أبي سفيان بن الحارث دون غيره من صناديد المشركين، الذين كانوا أشد تأثيراً في الجهاد باليد والمال، وهو قادم إلى مكة لا يريد أن يسفك دماء أهلها، بل يستعطفهم على الإسلام. ولم يكن لذلك سبب يختص بأبي سفيان إلا الهجاء. ثم جاء مسلماً وهو يعرض عنه هذا الإعراض، وكان من شأنه ﷺ أن يتألف الأباعد على الإسلام، فكيف بعشيرته الأقربين؟ كل ذلك بسبب هجائه له ﷺ.

ومن ذلك أنه ﷺ أمر يوم الفتح بقتل الحويرث بن نفيل، وهو معروف عند أهل السير، قال موسى بن عقبة في مغازيه عن الزهري، وهو من أصح المغازي: كان مالك يقول: من أحب أن يكتب المغازي، فعليه بمغازي الرجل الصالح موسى بن عقبة. قال وأمرهم رسول الله ﷺ أن يكفوا أيديهم، فلا يقاتلوا أحداً إلا من قاتلهم، وأمرهم بقتل أربعة نفر منهم الحويرث بن نفيل، فقتله على بن أبي طالب رضي الله عنه.

قال الواقدي عن أشياخه: إنَّ النبي ﷺ نهى عن القتال، وأمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة: عكرمة بن أبي جهل، وهبار بن الأسود، وابن أبي سرح، ومقيس والحويرث بن نفيل، وابن خطل. قال: وأما الحويرث بن نفيل، فإنَّه كان يؤذي رسول الله ﷺ، فأهدر دمه، فبينما هو في منزله يوم الفتح قد أغلق عليه وأقبل علي يسأل عنه، فقيل: هو في البادية، فأخبر الحويرث أنَّه يطلب، وتنحى علي عن بابه فخرج الحويرث يريد أن يهرب من بيت إلى بيت آخر، فتلقاه علي، فضرب عنقه. فهذا الرجل قد أمر النبي ﷺ بقتله بمجرد أذاه له مع أنَّه قد أمن من أهل البلد الذين قاتلوه وقاتلوا أصحابه، وفعلوا بهم الأفاعيل.

ومن ذلك أنه ﷺ لما قفل من بدر راجعاً إلى المدينة، قتل النضر بن الحارث وعقبة بن

أبي معيط، ولم يقتل من أسرى بدر غيرهما. وقصتهما معروفة، قال ابن إسحاق: وكان في الأسارى عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث.

فلما كان رسول الله ﷺ بالصفراء، قتل النضر بن الحارث، قتله علي بن أبي طالب، ثم مضى رسول الله ﷺ فلما كان بعرق الظبية، قتل عقبة بن أبي معيط، قتله عاصم بن ثابت.

وقال موسى بن عقبة، عن الزهري: ولم يقتل من الأسارى صبراً غير عقبة بن أبي معيط: قتله عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح.

ولما أبصره عقبة مقبلاً إليه، استغاث بقريش، فقال: يا معشر قريش علام أقتل هٰهنا؟ فقال رسول الله ﷺ على عداوتك لله ورسوله.

وقد روى البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عقبة بن أبي معيط نادى: يا معشر قريش ما لي أقتل من بينكم صبراً فقال رسول الله ﷺ: بكفرك وافترائك على رسول الله.

وقال الواقدي: كان النضر بن الحارث أسره المقداد بن الأسود، فلما خرج رسول الله ﷺ من بدر، فكان بالأثيل، عرض عليه الأسرى، فنظر إلى النضر بن الحارث، فأيده البصر. فقال لرجل إلى جنبه: محمد والله قاتلي، لقد نظر إليَّ بعينين فيهما الموت. فقال الذي جنبه: والله ما هذا منك إلاَّ رعب. فقال النضر لمصعب بن عمير: يا مصعب، أنت أقرب من هٰهنا بي رحماً. كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي، هو والله قاتلي إن لم تفعل. فقال مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا، وتقول في نبيه كذا وكذا. قال: يا مصعب يجعلني كأحد أصحابي، إن قتلوا قتلت، وإن منَّ عليهم منَّ علي. قال مصعب: إنك كنت تعذب أصحابه، وذكر الحديث إلى أن قال: فقتله علي بن أبي طالب صبراً بالسيف.

وقال الواقدي: وأقبل رسول الله ﷺ بالأسرى، حتى إذا كان بعرق الظبية، أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح أن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط، فجعل عقبة يقول: يا ويلي علام أقتل يا قريش من بين من هٰهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: بعداوتك لله ورسوله. قال: يا محمد منّك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي، إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت علي، وإن أخذت منهم الفداء كنت كأحدهم. يا محمد من للصبية؟ قال رسول الله ﷺ: «النار قدمه يا عاصم، فاضرب عنقه» فقدمه عاصم فضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ «بئس الرجل كنت، والله ما علمت كافراً بالله وبكتابه وبرسوله، مؤذياً لنبيه، فأحمد الله الذي قتلك وأقر عيني منك»[1].

---

(١) رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٢٣). وفيه: «أخو العشيرة».

ففي هذا بيان أن السبب الذي أوجب قتل هذين الرجلين من بين سائر الأسرى أذاهم لله ورسوله ﷺ بالقول والفعل، فإنَّ الآيات التي نزلت في النضر معروفة، وأذى ابن أبي معيط له مشهور بلسانه وبيده، حتى خنقه ﷺ بأبي هو وأمي بردائه خنقاً شديداً، يريد قتله، وحين ألقى السلا على ظهره الشريف، وهو ساجد لله تعالى وغير ذلك.

ومن ذلك أنه ﷺ أمر بقتل كعب بن زهير، وغيره ممن كان يهجوه من قريش وسائر العرب. ذكر ابن إسحاق، ورواه عنه يونس بن بكير والبكائي، قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة منصرفاً من الطائف، كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب بن زهير، يخبره أن رسول الله ﷺ قد قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وأن من بقي من شعراء قريش ابن الزبعري وهبيرة بن أبي وهب قد هربوا في كل وجه، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فإنَّه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل، فانج إلى نجاتك من الأرض، وكان كعب قد قال أبياتاً نال فيها من رسول الله ﷺ حتى رويت وعرفت، وكان الذي قال:

ألا أبلغا عني بجيراً رسالة ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا
لتخبرني إن كنت لست بفاعل ... على أي شيء غير ذلك دلكا
على خلق لم يلف يوماً أبا له ... ولا أنت لم تعرف عليه أباً لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ... ولا قائل أما عثرت لعالكا
سقاك بها المأمون كأساً روية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا

وإنما قال كعب المأمون لقول قريش لرسول الله ﷺ الأمين الذي كانت تقوله له، فلما بلغ كعباً الكتاب، ضاقت به الأرض، وأشفق على نفسه، وأرجف به من كان حاضره من عدوه؛ فقالوا: هو مقتول.

فلما لم يجدوا من شيء بداً، قال قصيدة يمدح فيها رسول الله ﷺ ويذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به.

ثم خرج حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة، فغدا به على رسول الله ﷺ حين صلى الصبح.

فلما صلى مع الناس، أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال: هذا رسول الله، فقم إليه. فذكر لنا أنه قام إلى رسول الله ﷺ فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إنَّ كعب بن زهير استأمن منك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير. قال ابن إسحاق: فحدثني

عاصم بن عمر أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدو الله أضرب عنقه. فقال رسول الله ﷺ دعه عنك، قد جاء تائباً نازعاً. قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلاّ بخير، فقال قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ ثم أنشد ابن إسحاق قصيدته المشهورة: «بانت سعاد فقلبي اليوم متبول» وفيها:

أنبئـت أن رسـول الله أوعـدنـي ... والعفـو عنـد رسـول الله مـأمـول

مهـلاً هـداك الـذي أعطـاك نـافلـة ... الفـرقـان فيـه مـواعيـظ وتفصيـل

لا تـأخـذنـي بـأقـوال الـوشـاة ولـم ... أذنـب ولـو كثـرت فـيّ الأقـاويـل

وفي حديث آخر، وذلك أن بلغه أن رسول الله ﷺ ندر دمه لقول بلغه عنه، فقدم على رسول الله ﷺ مسلماً، ودخل مسجده، وأنشد القصيدة، فقد أخبر أن رسول الله ﷺ كتب في قتل رجال بمكة لأجل هجائه وأذاهم، حتى فر منهم إلى نجران، ثم رجع ابن الزبعري تائباً مسلماً، وأقام هبيرة بنجران حتى مات مشركاً، ثم أنه أهدر دم كعب لما قاله، مع أنه ليس من بليغ الهجاء، لكونه طعن في دين الإسلام وعابه، وعاب ما يدعو إليه رسول الله ﷺ ثم إنه تاب قبل القدرة عليه، وجاء مسلماً، وكان حربياً، ومع هذا، فهو يلتمس العفو ويقول: لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب.

ومن ذلك ما نقل أنه كان ﷺ ندب إلى قتل من يهجوه، ويقول: «من يكفيني عدوي؟».[1] قال الأموي سعيد بن يحيى بن سعيد في مغازيه: حدثنا أبي قال: أخبرني عبد الملك بن جريج، عن رجل أخبره، عن عكرمة، عن ابن عباس أنَّ رجلاً من المشركين شتم رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «من يكفيني عدوي؟» فقام الزبير بن العوام، فقال: أنا فبارزه فقتله، فأعطاه رسول الله ﷺ سلبه قال: ولا أحسبه إلا في خيبر، حين قتل أبا ياسر. ورواه عبد الرزاق أيضاً.

ومن ذلك ما روي أن رجلاً كان سب النبي ﷺ فقال: «من يكفيني عدوي؟» فقال خالد: أنا. فبعثه النبي ﷺ إليه فقتله.

ومن ذلك أن أصحابه ﷺ كانوا إذا سمعوا من يسبه ويؤذيه قتلوه، وإن كان قريباً، فيقرهم على ذلك ويرضاه، ويسمي من فعل ذلك ناصراً لله ورسوله. روى أبو إسحاق الفزاري في كتابه في السير، عن سفيان الثوري، عن إسماعيل بن سميع، عن مالك بن عمير قال: جاء

---

(١) رواه عبد الرزاق في المصنف (٩٤٧٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٦٦١٩).

رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني لقيت أبي في المشركين، فسمعت منه مقالة قبيحة لك، فما صبرت أن طعنته بالرمح فقتلته، فما شق ذلك عليه.

ومن ذلك ما رواه أبو إسحاق الفزاري أيضاً في كتابه المذكور، عن الأوزاعي، عن حسان بن عطية قال: بعث رسول الله ﷺ جيشاً فيهم عبد الله بن رواحة وجابر، فلما صافّوا المشركين أقبل رجل منهم يسب رسول الله ﷺ فقام رجل من المسلمين، فقال: أنا فلان وأمي فلانة، فسبني وسب أمي، وكف عن سب رسول الله ﷺ فلم يزده ذلك إلا إغراء؛ فأعاد مثل ذلك، وأعاد الرجل مثل ذلك، فقال في الثالثة: لئن عدت لأحملنَّ عليك بسيفي. فعاد فحمل عليه الرجل، فولى مدبراً، فاتبعه الرجل حتى خرق صف المشركين فضربه بسيفه، وأحاط به المشركون فقتلوه. فقال رسول الله ﷺ: «**اعجبتم من رجل نصر الله ورسوله**». ثم إنَّ الرجل المشرك برئ من جراحه فأسلم، وكان يسمى الرجل المسلم الذي حمل عليه.

وتقدم حديث عمير بن عدي لما قال حين بلغه أذى بنت مروان للنبي ﷺ: اللهم إنَّ علي نذراً لئن رددت رسول الله ﷺ إلى المدينة لأقتلنها، فقتلها بدون إذن النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله، فانظروا إلى عمير بن عدي**».

وكذلك حديث اليهودية، فإن النبي ﷺ أهدر دمها لما قتلت لأجل سبه، وقد قتلت بدون إذنه؛ فهذا مما يدخل في أنه ﷺ أقر من قتل رجلاً لأجل سبه.

وقد ذكروا أن الجنَّ الذين آمنوا به ﷺ كانت تقصد من يسبه من الجن الكفار، فتقتله قبل الهجرة وقبل الإذن في القتال له وللإنس، فيقرها على ذلك ويشكر ذلك لها. قال سعيد بن يحيى الأموي في مغازيه: حدثني محمد بن سعيد يعني عمه، قال محمد بن المنكدر: إنَّه ذكر له، قال: هتف هاتف من الجن على أبي قبيس بمكة، فقال أبياتاً يحرض كفار مكة بها ويغريهم بالنبي ﷺ قال ابن عباس: فأصبح شعره حديثاً لأهل مكة يتناشدونه بينهم، فقال رسول الله ﷺ: هذا شيطان يكلم الناس في الأوثان، يقال له مسعر؛ والله مخزيه. فمكثوا ثلاثة أيام، فإذا هاتف يهتف على الجبل يقول:

نحن قتلنا في ثلاث مسعراً ... إذ سفه الحق وسن المنكرا
قبعته سيفاً حساماً أبتراً ... بشتمه نبينا المطهرا

فقال رسول الله ﷺ: هذا عفريت من الجن آمن إسمه سمحح، آمن بي سميته عبد الله، أخبرني أنه في طلبه منذ ثلاثة أيام، فقال علي: جزاه الله خيراً يا رسول الله.

وممن ذكر أنه قتل لأجل أذى النبي ﷺ أبو رافع بن أبي الحقيق اليهودي، وقصته معروفة ومستفيضة عند العلماء، فنذكر منها موضع الدلالة. عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع اليهودي رجالاً من الأنصار، وأمر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه، وكان في حصن له بأرض الحجاز؛ فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، قال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلق ومتلطف للبواب، لعلي أن أدخل فأقبل، حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته، وقد دخل الناس فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإني أريد أن أغلق الباب. قال: فدخلت، فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم وضع الأغاليق على وتد. قال: فقمت إلى الأغاليق، فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سمره، صعدت إليه فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت عليّ من داخل، قلت: إنَّ القوم إن يدروا بي لم يخلصوا إلي، حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت. قلت: أبا رافع. قال: من هذا؟ فأهويت بنحو الصوت، فأضربه ضربة بالسيف، وأنا دهش؛ فما أغنيت شيئاً. وصاح فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، فدخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إنَّ رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف. قال: فاضربه ضربة ألخنته، ولم أقتله. ثم وضعت ضباب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أني قتلته فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته. فلما صاح الديك، قام الناعي على السور، فقال: أنع أبا رافع تاجر أهل الحجاز. فانطلقت إلى أصحابي، فقلت: النجاء قد قتل الله أبا رافع فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته. فقال: ابسط رجلك، فبسطتها، فمسحها فكأنما لم أشتكها قط. رواه البخاري في صحيحه.

وقال ابن إسحاق: حدثني الزهري، عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: مما صنعه الله لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأنصار الأوس والخزرج كانا يتصاولان معه تصاول الفحلين، لا يصنع أحدهما شيئاً إلا صنع الآخر مثله، يقولون لا يعدون ذلك فضلاً علينا في الإسلام عند رسول الله ﷺ فلما قتل الأوس كعب بن الأشرف، تذكرت الخزرج رجلاً هو في العداوة لرسول الله ﷺ مثله، فتذاكروا ابن أبي الحقيق بخيبر، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله، فأذن لهم. وذكر الحديث إلى أن قال: ثم صعدوا إليه في علية له، فقرعوا عليه الباب، فخرجت إليهم امرأته، فقالت: من أنتم؟ فقالوا: حي من العرب نريد الميرة. ففتحت لهم، فقالت ذاكم الرجل عندكم في البيت. وذكر تمام الحديث في قتله، فقد تبين في حديث البراء، وحديث عبد الله بن كعب بن مالك أن المسلمين سروا لقتله بإذن النبي ﷺ لأذاه للنبي ﷺ ومعاداته له

وأنه كان نظير ابن الأشرف، لكن ابن الأشرف كان معاهداً، فآذى الله ورسوله، فندب المسلمين إلى قتله؛ وهذا لم يكن معاهداً. قال الإمام ابن تيمية: فهذه الأحاديث كلها تدل على أن من يسب النبي ﷺ ويؤذيه من الكفار، فإنه كان ﷺ يقصد قتله، ويحض عليه لأجل ذلك، وكذلك أصحابه بأمره يفعلون ذلك مع كفه عن غيره ممن هو على مثل حاله في أنه كافر غير معاهد، بل مع أمانه لأولئك أو إحسانه إليهم من غير عهد بينه وبينهم. ثم من هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلماً تائباً، فعصم دمه لثلاثة أسباب:

أحدها: أنَّه جاء تائباً قبل القدرة عليه؛ والمسلم الذي وجب عليه حد لو جاء تائباً قبل القدرة عليه لسقط عنه؛ فالحربي أولى:

الثاني: أنَّ رسول الله ﷺ كان من خلقه أن يعفو عنهم.

الثالث: أنَّ الحربي إذا أسلم لم يؤخذ بشيء مما عمله في الجاهلية، لا من حقوق الله ولا من حقوق العباد، من غير خلاف نعلمه، لقوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال:٣٨] ولقوله ﷺ: «الإسلام يجب ما قبله». رواه مسلم ولقوله ﷺ: «من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية».[1] متفق عليه.

ولهذا أسلم خلق كثير، وكانوا قد قتلوا رجالاً يعرفون، فلم يطلب أحد منهم بقود، ولا دية، ولا كفارة؛ وكذلك لم يضمن النبي ﷺ أحداً منهم مالاً أتلفه للمسلمين، ولا أقام على أحد حد زنى أو سرقة أو شرب أو قذف. سواء كان قد أسلم بعد الأسر أو قبل الأسر. وهذا مما لا نعلم بين المسلمين فيه خلافاً.

ثم قال الإمام ابن تيمية: وهذا الذي ذكرناه من سنة رسول الله ﷺ في تحتم قتل من كان سبه من المشركين، مع العفو عمن هو مثله في الكفر كان مستقراً في نفوس أصحابه على عهده وبعد عهده، يقصدون قتل الساب، ويحرصون عليه، وإن أمسكوا عن غيره؛ ويجعلون ذلك هو الموجب لقتله، ويبذلون في ذلك نفوسهم، كما تقدم من حديث الذي قال: سُبني وسب أمي وكف عن رسول الله ﷺ ثم حمل عليه حتى قتل؛ وحديث الذي قتل أباه لما سمعه يسب النبي ﷺ وحديث الأنصاري الذي نذر أن يقتل العصماء فقتلها، وحديث الذي نذر أن يقتل ابن أبي سرح، وكف النبي ﷺ عن مبايعته ليوفي نذره.

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الإيمان ١٩٠). وابن ماجه في السنن (٤٢٤٢). وأحمد في المسند (١: ٤٠٩). والدارمي في السنن (١: ٣). والبيهقي في السنن الكبرى (٩: ١٢٣). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ٩٥). وعبد الرزاق في المصنف (١٩٦٨٦).

وفي الصحيحين عن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه قال: إني لواقف في الصف يوم بدر، فنظرت عن يميني وعن شمالي، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فغمزني أحدهما، فقال: أي عم، هل تعرف أبا جهل؟ قلت: نعم، فما حاجتك إليه يا ابن أخي؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده، حتى يموت الأعجل منا. قال: فتعجبت لذلك. قال: وغمزني الآخر، فقال لي مثلها. فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألان عنه.

قال: فابتدراه بسيفيهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه. فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته. فقال: هل مسحتما سيفيكما؟ فقالا: لا. فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: كل منكما قتله. والرجلان هما معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء.

والقصة مشهورة في فرح النبي ﷺ بقتله، وسجوده شكراً، وقوله: هذا فرعون هذه الأمة، مع نهي ﷺ عن قتل أبي البختري بن هشام، مع كونه كافراً غير ذي عهد لكفه عنه ﷺ وإحسانه بالسعي في نقض صحيفة الجور، أي التي كتبتها كفار قريش، وتحالفوا على هجر بني هاشم والمطلب لأجل النبي ﷺ، ومع قوله ﷺ لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، يعني الأسرى، يوم بدر لأطلقتهم له ليكافئ المطعم بإجارته له بمكة، والمطعم كافر غير معاهد، فعلم أن مؤذي الرسول ﷺ يتعين إهلاكه والإنتقام منه بخلاف الكاف عنه، وإن اشتركا في الكفر، كما كان يكافئ المحسن بإحسانه، وإن كان كافراً. يؤيد ذلك أن أبا لهب كان له من القرابة ماله، فلما آذاه وتخلف عن بني هاشم في نصره ﷺ نزل القرآن بما نزل من اللعنة والوعيد باسمه خزياً لم يفعل بغيره من الكافرين، كما روي عن ابن عباس أنه قال: ما كان أبو لهب إلا من كفار قومه، حتى خرج منا حين تحالفت قريش علينا. وظاهرهم، فسبه الله وبنو المطلب مع مساواتهم لعبد شمس ونوفل في النسب لما أعانوه ونصروه ﷺ وهم كفار شكر الله ذلك لهم، فجعلهم بعد الإسلام مع بني هاشم في سهم ذوي القربى. وأبو طالب لما أعانه ونصره، وذب عنه ﷺ خفف عنه العذاب، فهو من أخف أهل النار عذاباً.

قد روي أن أبا لهب سيسقى في نقرة الإبهام لعتقه ثويبة جاريته، إذ بشرته بولادته ﷺ ومن سنة الله تعالى أن من لم يمكن المؤمنين أن يعذبوه من الذين يؤذون الله ورسوله، فإن الله سبحانه ينتقم منه لرسوله ﷺ ويكفيه إياه، كما قال سبحانه: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٥] والقصة في إهلاك الله واحداً واحداً من هؤلاء

المستهزئين معروفة، قد ذكرها أهل السير والتفسير، وهم على ما قيل: نفر من رؤوس قريش منهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وابن عبد يغوث، والحارث بن قيس. وقد كتب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر، فكلاهما لم يسلم، لكن قيصر أكرم كتاب رسول الله ﷺ وأكرم رسوله، فثبت ملكه فيقال: إنَّ الملك باق في ذريته إلى اليوم؛ وكسرى مزق كتاب رسول الله ﷺ واستهزأ به، فقتله الله بعد قليل، ومزق ملكه كل ممزق؛ ولم يبق للأكاسرة ملك هذا، والله أعلم تحقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٤] فكل من شنأه ﷺ أي أبغضه وعاداه، فإن الله يقطع دابره ويمحق عينه وأثره.

وقد قيل: إنها نزلت في العاص بن وائل، أو في عقبة بن أبي معيط، أو في كعب بن الأشرف. وقد رأيت صنع الله بهم. وفي الكلام السائر لحوم العلماء مسمومة، فكيف بلحوم الأنبياء؟ فكيف بسيدهم؟.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: يقول الله: من عادى لي ولياً، فقد بارزني بالمحاربة، فكيف بمن عادى سيد الأنبياء؟ ومن حارب الله حرب، وإذا استقريت قصص الأنبياء المذكورة في القرآن تجد أممهم، إنما أهلكوا حين آذوا الأنبياء وقاتلوهم بقبيح القول أو العمل؛ وهكذا بنو إسرائيل إنما ضربت عليهم الذلة وباؤوا بغضب من الله، ولم يكن لهم نصير بقتلهم الأنبياء بغير حق مضموماً إلى كفرهم، كما ذكر الله ذلك في كتابه، ولعلك لا تجد أحداً آذى نبياً من الأنبياء، ثم لم يتب إلا ولا بد أن يصيبه الله بقارعة.

وقد ذكرنا ما جربه المسلمون من عجيل الانتقام من الكفار، وإذ تعرضوا لسب رسول الله ﷺ وبلغنا مثل ذلك في وقائع متعددة. وهذا باب واسع لا يحاط به، ولم نقصد قصده هنا، وإنما قصدنا بيان الحكم الشرعي.

وكان سبحانه وتعالى يحميه ﷺ ويصرف عنه أذى الناس، وشتمهم بكل طريق حتى في اللفظ كما في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا ترون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً، ويلعنون مذمماً، وأنا محمد». فنزه الله اسمه ونعته ﷺ عن الأذى، وصرف ذلك إلى من هو مذمم، وإن كان المؤذي إنما قصد عينه ﷺ فإذا تقرر بما ذكرناه من سنة رسول الله ﷺ وسيرة أصحابه، وغير ذلك أن الساب لرسول الله ﷺ يتعين قتله، فنقول: إما أن يكون تعين قتله لكونه كافراً حربياً أو للسب المضموم إلى ذلك؛ والأول باطل لأن الأحاديث نص في أنه لم يقتل لمجرد كونه كافراً حربياً، بل عامتها قد نص فيه على أن موجب قتله إنما هو السب.

فنقول: إذا تعين قتل الحربي لأجل أنه سب رسول الله ﷺ فكذلك المسلم والذمي،

وأولى لأن الموجب للقتل هو السب لا مجرد الكفر والمحاربة كما تبين فحيثما وجد هذا الموجب وجب القتل، وذلك لأن الكفر مبيح للدم لا موجب لقتل الكافر بكل حال، فإنه يجوز أمانه ومهادنته والمنّ عليه ومفاداته لكن إذا صار للكافر عهد عصم العهد دمه الذي أباحه الكفر، فهذا هو الفرق بين الحربي والذمي.

فأما ما سوى ذلك من موجبات القتل، فلم يدخل في حكم العهد؛ وقد بينا بالسنة أن النبي ﷺ كان يأمر بقتل الساب لأجل السب فقط، لا لمجرد الكفر الذي لا عهد معه؛ فإذا وجد هذا السب وهو موجب للقتل، والعهد لم يعصم، تعين القتل.

والمسلم إذا سب يصير مرتداً ساباً، وقتل المرتد أوجب من قتل الكافر الأصلي. والذمي إذا سب يصير كافراً محارباً ساباً بعد عهد متقدم، وقتل مثل هذا أغلظ. وأيضاً إنَّ الذمي لم يعاهد على إظهار السب للإجماع، ولهذا إذا أظهره، فإنه يعاقب عليه بإجماع المسلمين. إما بالقتل أو بالتعزير، وهو لا يعاقب على فعل شيء مما عوهد عليه، وإن كان كفراً غليظاً، ولا يجوز أن يعاقب على فعل شيء قد عوهد على فعله، وإذا لم يكن العهد مسوغاً لفعله. وقد ثبت أن النبي ﷺ أمر بالقتل لأجله، فيكون قد فعل ما يقتل لأجله، وهو غير مقر عليه بالعهد.

ومثل هذا يجب قتله بلا تردد. وهذا التوجيه يقتضي قتله، سواء قدر أنه نقض العهد أو لم ينقضه، لأن موجبات القتل التي لم نقره على فعلها يقتل بها، وإن قيل: لا ينقض عهده كالزنى بذمية، وكقطع الطريق على ذمي، وكقتل ذمي... وكما لو فعل هذه الأشياء مع المسلمين، وقلنا: إنَّ عهده لا ينتقض، فإنه يقتل.

وأيضاً فإن المسلم قد امتنع من السب بما أظهره من الإيمان، والذمي قد امتنع منه بما أظهره من الذمية. وأيضاً فقد تبين بما ذكرناه من هذه الأحاديث أن الساب يجب قتله، فإنَّ النبي ﷺ أمر بقتل الساب في مواضع، والأمر يقتضي الوجوب، ولم يبلغه ﷺ عن أحد السب إلا ندر دمه، وكذلك أصحابه رضي الله عنهم هذا مع ما قد كان يمكنه من العفو عنه، فحيث لا يمكن العفو عنه يجب أن يكون قتل الساب أوكد، والحرص عليه أشد. وهذا الفعل منه هو من نوع الجهاد، والإغلاظ على الكافرين والمنافقين، وإظهار دين الله، وإعلاء كلمته. ومعلوم أن هذا واجب. فعلم أن قتل الساب واجب في الجملة، وحيث جاز العفو له ﷺ فإنما هو فيمن كان مقدوراً عليه من مظهر للإسلام مطيع له، وممن جاءه مستسلماً.

أما الممتنعون فلم يعف عن أحد منهم. ولا يرد على هذا إن بعض الصحابة أمن إحدى القينتين، وبعضهم أمن ابن أبي سرح، لأن هذين كانا مستسلمين مريدين للإسلام والتوبة؛

ومن كان كذلك، فقد كان النبي ﷺ له أن يعفو عنه، فلم يتعين قتله. فإذا ثبت أن الساب كان قتله واجباً، والكافر الحربي الذي لم يسب لا يجب قتله، بل يجوز قتله؛ فمعلوم أن الذمة لا تعصم دم من يجب قتله.

وإنما تعصم دم من يجوز قتله. ألا ترى أن المرتد لا ذمة له، وأن القاطع أي للطريق والزاني لما وجب قتلهما لم تمنع الذمة قتلهما. وأيضاً فإنه لا مزية للذمي على الحربي إلا بالعهد، والعهد لم يبح له إظهار السب بالإجماع، فيكون الذمي قد شرك الحربي في إظهار السب الموجب للقتل.

وما اختص به من العهد لم يبح له إظهار السب، فيكون قد أتى ما يوجب القتل، وهو لم يقر عليه، فيجب قتله بالضرورة.

وأيضاً فإن النبي ﷺ أمر بقتل من كان يسبه مع أمانه لمن كان يحاربه بنفسه وماله؛ فعلم أن السب أشد من المحاربة أو مثلها، والذّمي إذا حارب قتل، فإذا سب قتل بطريق الأولى. وأيضاً فإن الذمي، وإن كان معصوماً بالعهد، فهو ممنوع بهذا العهد من إظهار السب؛ والحربي ليس له عهد يعصمه ولا يمنعه، فيكون الذمي من جهة كونه ممنوعاً أسوأ حالاً من الحربي، وأشد عداوة، وأعظم جرماً، وأولى بالنكال والعقوبة التي يعاقب بها الحربي على السب، والعهد الذي عصمه لم يف بموجبه؛ فلا ينفعه، لأنا إنما نستقيم له ما استقام لنا، وهو لم يستقم بالاتفاق، فلذلك يعاقب. والعهد يعصم دمه ويستره إلا بحق، فلما جازت عقوبته بالاتفاق، علم أنه قد أتى بما يوجب العقوبة.

وقد ثبت بالسنة أن عقوبة هذا الذنب القتل، وسر الاستدلال بهذه الأحاديث أنه لا يقتل الذمي لمجرد كون عهده انتقض، فإن مجرد نقض العهد يجعله ككافر لا عهد له. وقد ثبت بهذه السنن أن النبي ﷺ يأمر بقتل الساب لمجرد كونه كافراً غير معاهد، وإنما قتله لأجل السب مع كون السب مستلزماً للكفر ولعداوة المحاربة. وهذا القدر موجب للقتل حيث كان.

الحديث الثالث عشر: ما رويناه من حديث أبي القاسم، عبد الله بن محمد البغوي، قال: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا علي بن مسهر، عن صالح بن جبان، عن أبي بريدة، عن أبيه قال: جاء رجل إلى قوم في جانب المدينة، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قد أمرني أن أحكم فيكم برأيي، وفي أموالكم، وفي كذا، وفي كذا.

وكان خطب امرأة منهم في الجاهلية، فأبوا أن يزوجوه؛ ثم ذهب حتى نزل على المرأة فبعث القوم إلى رسول الله ﷺ فقال: كذب عدو الله. ثم أرسل رجلاً، فقال: إن وجدته حياً فاقتله، وإن أنت وجدته ميتاً فحرقه بالنار. فانطلق فوجده قد لدغ فمات، فحرقه بالنار، فعند

ذلك قال رسول الله ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

ورواه أبو أحمد بن عدي في كتابه «الكامل» قال: حدثنا الحسن بن محمد بن عنبر، حدثنا حجاج بن يوسف الشاعر، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا علي بن مسهر، عن صالح بن جبان، عن أبي بريدة، عن أبيه، قال: كان حي من بني ليث من المدينة على ميلين، وكان رجل قد خطب منهم في الجاهلية، فلم يزوجوه، فأتاهم عليه حلة، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ كساني هذه الحلة، وأمرني أن أحكم في أموالكم ودمائكم، ثم انطلق فنزل على المرأة التي كان يحبها، فأرسل القوم إلى رسول الله ﷺ فقال: كذب عدو الله. ثم أرسل رجلاً، فقال: إن وجدته حياً، وما أراك أن تجده حياً، فاضرب عنقه، وإن وجدته ميتاً فاحرقه بالنار. قال: فذلك قول رسول الله ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار».

قال الإمام ابن تيمية: هذا إسناد صحيح على شرط الصحيح لا يعلم له علة وله شاهد من وجه آخر. رواه المعافى بن زكريا الحريري في كتاب «الجليس» قال: حدثنا أبو حامد الحضرمي، حدثنا السري بن مزيد الخراساني، حدثنا أبو جعفر محمد بن علي الفزاري، حدثنا داود بن الزبرقان، أخبرني عطاء بن السائب، عن عبد الله بن الزبير أنه قال يوماً لأصحابه: أتدرون ما تأويل هذا الحديث: «من كذب عليّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار»[1].

قال: رجل عشق امرأة فأتى أهلها مساء، فقال: إنَّ رسول الله ﷺ بعثني إليكم أن أبيت في أيِّ بيوتكم شئت، قال: وكان ينتظر المساء، فأتى رجل منهم النبي ﷺ فقال: إنَّ فلاناً أتانا يزعم أنك أمرته يبيت في أيِّ بيوتنا شاء. فقال: كذب. يا فلان انطلق معه، فإن أمكنك الله منه فاضرب عنقه واحرقه بالنار، ولا أراك إلا قد كفيته. فلما خرج الرسول من عند رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «ادعوه» فلما جاء قال: «إني كنت قد أمرتك أن تضرب عنقه، وأن تحرقه بالنار، فإن أمكنك الله منه فاضرب عنقه ولا تحرقه بالنار، فإنه لا يعذب بالنار إلا رب النار. ولا أراك إلا قد كفيته». فجاءت السماء بصيب، فخرج الرجل ليتوضأ، فلسعته أفعى. فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: هو في النار.

قال وقد روى أبو بكر بن مردويه من حديث الوازع، عن أبي سلمة عن أسامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يقول عليّ ما لم أقل، فليتبوأ مقعده من النار». وذلك أنه بعث رجلاً فكذب عليه، فوجد ميتاً قد انشق بطنه ولم تقبله الأرض.

---

(١) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (١: ٩٦).

وروي أن رجلاً كذب عليه ﷺ فبعث علياً والزبير إليه ليقتلاه. وللناس في هذا الحديث قولان: أحدهما الأخذ بظاهره في قتل من تعمد الكذب على رسول الله ﷺ. ومن هؤلاء من قال يكفر بذلك؛ قاله جماعة، منهم أبو محمد الجويني، حتى قال ابن عقيل عن شيخه أبي الفضل الهمداني: مبتدعة الإسلام والكذابون والواضعون للحديث أشد من الملحدين، لأن الملحدين قصدوا إفساد الدين من خارج، وهؤلاء قصدوا ءفساد الدين من داخل؛ فهم كأهل بلد سعوا في فساد أحواله، والملحدون كالمحاصرين من خارج، فالداخلون يفتحون الحصن فهم شر على الإسلام من غير الملابسين له. ووجه هذا القول أن الكذب عليه ﷺ كذب على الله تعالى، ولهذا قال ﷺ: «إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحدكم»[1].

فإن ما أمر به الرسول فقد أمر الله به يجب اتباعه كوجوب اتباع أمر الله، وما أخبر به وجب تصديقه كما يجب تصديق ما أخبر الله به.

ومعلوم أن من كذب على الله تعالى بأن زعم أنه رسول الله أو نبيه، وأخبر عن الله خبراً كذب فيه كمسيلمة والعنسي ونحوهما من المتنبئين؛ فإنه كافر حلال الدم، فكذلك من تعمد الكذب على رسوله ﷺ وتبين بذلك أن الكذب عليه ﷺ بمنزلة التكذيب له، ولهذا أجمع الله بينهما بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾ [العنكبوت:٦٨]، بل ربما كان الكاذب عليه ﷺ أعظم إثماً من المكذب له، ولهذا بدأ الله به، كما أن الصادق عليه ﷺ أعظم درجة من المصدق بخبره، فإذا كان الكاذب على الله كالمكذب له، فالكاذب على الرسول كالمكذب له. يوضح ذلك أن تكذيبه ﷺ نوع من الكذب، فإن مضمن تكذيبه الأخبار عن خبره أنه ليس بصدق، وذلك إبطال لدين الله، ولا فرق بين تكذيبه في خبر واحد أو في جميع الأخبار، وإنما صار كافراً لما يتضمنه من إبطال رسالة الله ودينه. والكاذب عليه ﷺ يدخل في دينه ما ليس منه عمداً، ويزعم أنه يجب على الأمة التصديق بهذا الخبر وامتثال هذا الأمر، لأنه دين الله، مع العلم بأنه ليس لله بدين؛ والزيادة في الدين كالنقص منه، ولا فرق بين من يكذب بآية القرآن، أو يصنف كلاماً ويزعم أنه سورة من القرآن عامداً كذلك.

وأيضاً فإن تعمد الكذب عليه ﷺ استهزاء به واستخفاف، لأنه يزعم أنه أمر بأشياء ليست مما أمر به، بل وقد لا يجوز الأمر بها. وهذا نسبة له إلى السفه أو أنه يخبر بأشياء باطلة. وهذا نسبة له إلى الكذب، وهو كفر صريح.

وأيضاً فإنه لو زعم أن الله فرض صوم شهر آخر غير رمضان، أو صلاة زائدة ونحو ذلك،

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٢: ١٠٢). ومسلم في الصحيح (المقدمة ٤). وأحمد (٤: ٢٤٥).

أو أنه حرم الخبز واللحم، عالماً بكذب نفسه كفر بالاتفاق. فمن زعم أن النبي ﷺ أوجب شيئاً لم يوجبه، أو حرم شيئاً لم يحرمه، فقد كذب على الله، كما كذب عليه الأول، وزاد عليه بأن صرح بأن رسول الله ﷺ قال ذلك، وأنه أعني القائل لم يقله اجتهاداً أو استنباطاً. وبالجملة فمن تعمد الكذب الصريح على الله تعالى، فهو كالمتعمد لتكذيب الله سبحانه وأسوأ حالاً، وليس يخفى أن من كذب على من يجب تعظيمه، فإنه مستخف به مستهين بجهته. وأيضاً، فإن الكاذب عليه ﷺ لا بد أن يشينه بالكذب عليه وينقصه بذلك.

ومعلوم أنه لو كذب عليه كما كذب عليه ابن أبي سرح في قوله: كان يتعلم مني، أو رماه ببعض الفواحش الموبقة أو الأقوال الخبيثة كفر بذلك، فكذلك الكاذب عليه لأنه إما أن يأثر عنه أمراً أو خبراً أو فعلاً؛ فإن أثر عنه أمراً لم يأمر به فقد زاد في شريعته، وذلك أن الفعل لا يجوز أن يكون مما يأمر به، لأنه لو كان كذلك لأمر به ﷺ لقوله: «**ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا أمرتكم به، ولا من شيء يبعدكم عن النار إلاّ نهيتكم عنه**».[1] فإذا لم يأمر به فالأمر غير جائز منه، فمن روى عنه أنه أمر به فقد نسبه إلى الأمر بما لا يجوز له الأمر به، وذلك نسبة له إلى السفه.

وكذلك إن نقل عنه خبراً، فلو كان ذلك الخبر مما ينبغي له الإخبار به لأخبر به، وكذلك الفعل الذي ينقله عنه كاذباً فيه، لو كان مما ينبغي فعله ويترجح لفعله؛ فإذا لم يفعله فتركه أولى.

فحاصله أن الرسول ﷺ أكمل البشر في جميع أحواله، فما تركه من القول والفعل فتركه أكمل من فعله، وما فعله ففعله أكمل من تركه. فإذا كذب الرجل عليه متعمداً، وأخبر عنه بما لم يكن؛ فذلك الذي أخبر به عنه نقص بالنسبة إليه، إذ لو كان كمالاً لوجد منه. ومن انتقص الرسول ﷺ فقد كفر.

واعلم أن هذا القول في غاية القوة كما تراه، ولكن يتوجه أن يفرق بين الذي يكذب عليه مشافهة، وبين الذي يكذب عليه بواسطة مثل أن يقول: حدثني فلان بن فلان عنه بكذا. فإن هذا إنما كذب على ذلك الرجل، ونسب إليه ذلك الحديث.

فأما إن قال هذا الحديث صحيح، أو ثبت عنه أنه قال ذلك عالماً بأنه كذب، فهذا قد كذب عليه.

أما إذا افتراه ورواه رواية ساذجة ففيه نظر، لا سيما والصحابة عدول بتعديل الله لهم؛

---

(١). رواه عبد الرزاق في المصنف (٢٠١٠٠).

فالكذب لو وقع من أحد ممن يدخل فيهم، لعظم ضرره في الدين؛ فأراد ﷺ قتل من كذب عليه، وعجلت عقوبته ليكون ذلك عاصماً من أن يدخل في العدول من ليس منهم من المنافقين ونحوهم.

وأما من روى حديثاً يعلم أنه كذب. فهذا حرام، كما صح عنه ﷺ أنه قال: «من روى عني حديثاً يعلم أنه كذب، فهو أحد الكاذبين»[1].

لكن لا يكفر إلا أن ينضم إلى روايته ما يوجب الكفر، لأنه صادق، لأن شيخه حدثه به. لكن لعلمه بأن شيخه كذب فيه لم يكن يحل له الرواية، فصار بمنزلة أن يشهد على إقرار أو شهادة أو عقد. . . وهو يعلم أن ذلك باطل، فإن هذه الشهادة حرام، لكنه ليس بشاهد زور على هذا القول، فمن سبه ﷺ فهو أولى بالقتل ممن كذب عليه، فإن الكاذب عليه قد زاد في الدين ما ليس منه، وهذا قد طعن في الدين بالكلية؛ وحينئذٍ فالنبي ﷺ أمر بقتل الذي كذب عليه من غير استتابة، فكذلك الساب له هو أولى.

القول الثاني: إن الكاذب عليه ﷺ تغلظ عقوبته، لكن لا يكفر، ولا يجوز قتله؛ لأن موجبات القتل والكفر معلومة، وليس هذا منها، فلا يجوز أن يثبت ما لا أصل له. ومن قال هذا، فلا بد من أن يقيد قوله بأنه لم يكن الكذب عليه ﷺ متضمناً لعيب ظاهر.

فأما إن أخبر أنه سمعه يقول كلاماً يدل على تنقيصه وعيبه دلالة ظاهرة، فهذا مستهزئ به استهزاءً ظاهراً، ولا ريب أنه كافر حلال الدم، وذلك الرجل الذي أمر بقتله قد كذب على النبي ﷺ كذباً يتضمن انتقاصه وعيبه، لأنه زعم أنه حكمه في دمائهم وأموالهم، وأذن له أن يبيت حيث شاء من بيوتهم، ومقصوده بذلك أن يبيت عند تلك المرأة ليفجر بها، ولا يمكنهم الإنكار عليه إذا كان محكماً في الدماء والأموال.

ومعلوم أن النبي ﷺ لا يحلل الحرام، ومن زعم أنه أحل المحرمات من الدماء والأموال والفواحش، فقد انتقصه وعابه، ولذلك أمر بقتله من غير استتابة. فثبت أن الحديث نص في قتل الطاعن عليه ﷺ من غير استتابة على كلا القولين.

الحديث الرابع عشر: حديث الأعرابي الذي قال للنبيّ ﷺ لما أعطاه: ما أحسنت ولا أجملت. فأراد المسلمون قتله، ثم قال النبيّ ﷺ: لو تركتكم حين قال الرجل ما قال فقتلتموه لدخل النار؛ فإن هذا الحديث يدل على أن من آذاه ﷺ «إذا قتل دخل النار».

---

(١) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (٣: ٩١). وفيه: «يرى».

وذلك دليل على كفره وجواز قتله، وإلا كان يكون شهيداً وكان قاتله من أهل النار؛ وإنما عفا النبي ﷺ عنه ثم استرضاه بعد ذلك حتى رضي، لأنه كان له أن يعفو عمن آذاه ﷺ.

ومن هذا الباب أن الرجل الذي قال له لما قسم غنائم حنين: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله تعالى. فقال عمر: دعني يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق فقال ﷺ: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي».[1] ثم أخبر أنه «يخرج من ضنضئة أقوام يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم». رواه مسلم فإن النبي ﷺ لم يمنع عمر من قتله إلا لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه، ولم يمنعه لكونه في نفسه معصوماً، كما قال في حديث حاطب بن أبي بلتعة، فإنه لما قال: ما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضي بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «إنه قد صدقكم». فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

فبين رسول الله ﷺ أنه باق على إيمانه، وأنه صدر منه ما يغفر له به الذنوب، فعلم أن دمه معصوم. وهنا علل بمفسدة زالت، فعلم أن قتل مثل هذا القائل إذا أمنت هذه المفسدة جائز، ولذلك لما أمنت هذه المفسدة أنزل الله تعالى قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] بعد أن قال له: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

قال زيد بن أسلم قوله: «جاهد الكفار والمنافقين» نسخت ما قبلها. ومما يشبه هذا أن عبد الله بن أبيّ لما قال: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨].

وقال: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧] استأمر عمر في قتله، فقال ﷺ: «إذن ترعد له أنوف كثيرة بالمدينة» وقال: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

والقصة مشهورة. وهي في الصحيحين. فعلم أن من آذى النبي ﷺ بمثل هذا الكلام جاز قتله. لذلك مع القدرة، وإنما ترك النبيّ ﷺ قتله لما خيف في قتله من نفور الناس عن الإسلام لما كان ضعيفاً.

ومن هذا الباب أن النبي ﷺ قال: «من يعذرني في رجل بلغني أذاه في

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الزكاة ١٤٢). وأحمد في المسند (٣: ٣٥٣). والطبراني في المعجم الكبير (٢: ٢٠١). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧: ١٣٥). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٠٣٥٢). وفيه: «أصحابي».

أهلي؟»[1] قال له سعد بن معاذ: أنا أعذرك، إن كان من الأوس ضربت عنقه. القصة المشهورة، فلما لم ينكر عليه ذلك دل على أن من آذى النبي ﷺ وتنقصه يجوز ضرب عنقه. والفرق بين أبي وغيره ممن تكلم في شأن عائشة رضي الله عنها أنه كان يقصد بالكلام فيها عيب رسول الله ﷺ والطعن عليه وإلحاق العار به، ويتكلم بكلام ينتقصه به، فلذلك قالوا نقتله بخلاف حسان ومسطح وحمنة، فإنهم لم يقصدوا ذلك، ولم يتكلموا بما يدل على ذلك. ولهذا إنما استعذر النبي ﷺ من ابن أبي دون غيره، ولأجله خطب الناس حتى كاد الحيان يقتتلون.

الحديث الخامس عشر: حديث قسمة النبي ﷺ الغنائم، وإعطائه بعض الناس كأبي سفيان بن حرب وأولاده، وبعض صناديد قريش مقادير وافرة لتأليفهم؛ فاعترض عليه بعض المارقين، فأمر بقتله؛ فلم يجدوه وهو رأس الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه.

وذكر الإمام ابن تيمية روايات الأحاديث المتعلقة في هذا الشأن في غزوة حنين وغيرها، ثم قال: فثبت أن كل من لمز النبي ﷺ في حكمه أو قسمه، فإنه يجب قتله، كما أمر ﷺ في حياته بعد موته. ثم قال: فإن قيل: فما الفرق بين هؤلاء اللامزين في كونه نفاقاً موجباً للكفر وحل الدم، حتى صار جنس هذا القائل شر الخلق، وبين ما ذكر من موجدة قريش والأنصار. ففي حديث أبي سعيد الصحيح، عن النبي ﷺ لما قسم الذهبية بين أربعة غضبت قريش والأنصار، وقالوا: يعطيه صناديد أهل نجد ويدعنا. فقال: «إنما أتألفهم». فأقبل رجل غائر العينين، وذكر الحديث اللامذ، وفي رواية لمسلم، فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً».[2] فقال رجل غائر العينين. الحديث. وكذلك موجدة الأنصار في غنائم حنين، فعن أنس بن مالك أن أناساً من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالاً من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم.

وفي رواية: لما فتحت مكة قسم الغنائم في قريش، فقالت الأنصار: إنَّ هذا لهو العجب، إن سيوفنا تقطر من دمائهم، وإن غنائمنا ترد عليهم.

وفي رواية: فقالت الأنصار: إذا كانت الشدة، فنحن ندعى وتعطى الغنائم غيرنا. قال

---

(١) رواه ابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٤٢٥). وفيه: «بلغ في أهلي أذاه».

(٢) رواه البخاري في الصحيح (٥: ٢٠٧). ومسلم في الصحيح (الرعاة ٥ (١٤٤). وأحمد في المسند (٣: ٤). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣١٩٨٠).

أنس فحدث رسول الله ﷺ ذلك من قولهم، فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم، ولم يدع معهم غيرهم. فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟ فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله، فلم يقولوا شيئاً. وأما أناس منا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسوله يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال رسول الله ﷺ: **«فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر، أتألفهم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعون إلى رحالكم برسول الله، ما تنقلبون به خير مما ينقلبون به»**. قالوا: بلى يا رسول الله قد رضينا. قال: **«فإنكم ستجدون بعدي أثَرَة شديدة، فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله على الحوض»**. قالوا: سنصبر.

قيل في الجواب عن ذلك: إن أحداً من المؤمنين من قريش والأنصار وغيرهم لم يكن في كلامه تجوير لرسول الله ﷺ ولا تجويز ذلك عليه، ولا اتهام له أنه حابى في القسمة لهوى النفس، ولا نسبة له إلى أنه لم يرد بالقسمة وجه الله، ونحو ذلك مما جاء مثله في كلام المنافقين.

ثم ذوو الرأي من القبيلين، وهم الجمهور لم يتكلموا بشيء أصلاً، بل قد رضوا ما آتاهم الله ورسوله، وقالوا: حسبنا الله، سيؤتينا الله من فضله ورسوله. كما قالت فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا، فلم يقولوا شيئاً، إنما الذين تكلموا من أحداث الأسنان ونحوهم، فرأوا أن النبي ﷺ إنما يقسم المال لمصالح الإسلام، ولا يضعه في محل إلا لأن وضعه فيه أولى من وضعه في غيره، مما لا يشكون فيه. وكان العلم بجهة المصلحة قد ينال بالوحي، وقد ينال بالاجتهاد؛ ولم يكونوا علموا أن ذلك مما فعله النبي ﷺ وقال: إنه بوحي من الله، فإن من كره ذلك أو اعترض عليه بعد أن يقول ذلك، فهو كافر مكذب. ويجوز أن تكون قسمته اجتهاداً.

وكانوا يراجعونه في الاجتهاد في الأمور الدنيوية المتعلقة بمصالح الدين، وهو باب يجوز العمل فيه باتفاق الأمة. وربما سألوه عن الأمر لا لمراجعة فيه، لكن ليتبينوا وجهه ويتفقهوا في سببه ويعلموا علته، فكانت المراجعة المشروعة منهم لا تعد وهذين الوجهين؛ إما لتكميل نظره ﷺ في ذلك إن كان من الأمور السياسية التي للاجتهاد فيها مساغ، أو ليتبين لهم وجه ذلك إذا ذكر، ويزدادوا علماً وإيماناً، وينفتح لهم طريق التفقه فيه. فالأول كمراجعة الحباب بن المنذر له، لما نزل ببدر منزلاً، فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل الذي نزلته، أهو منزل أنزلكه الله، فليس لنا أن نتعداه؛ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: إن هذا ليس بمنزل قتال، فقبل رسول الله ﷺ رأيه وتحول إلى غيره.

وكذلك أيضاً لما عزم على أن يصالح غطفان عام الخندق على نصف تمر المدينة، ثم جاء سعد بن معاذ في طائفة من الأنصار، فقال: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، هذا الذي تعطيهم أشيء من الله أمرك فسمع وطاعة لله ولرسوله؛ أم شيء من قبل رأيك؟ قال: **«لا بل من قبل رأيي، إني رأيت القوم أعطوا الأموال فجمعوا لكم ما رأيتم من القبائل، وإنما أنتم قبيل واحد فأردت أن أدفع بعضهم ونعطيهم شيئاً، وننصب لبعض أشتري بذلك ما قد نزل بكم معشر الأنصار»**. فقال سعد: والله يا رسول الله قد كنا في الشرك، وما يطمعون منا في أخذ النصف. أو كما قال: وفي رواية وما يأكلون منها تمرة إلا شرى أو قرى، فكيف اليوم والله معنا وأنت بين أظهرنا، لا نعطيهم ولا كرامة لهم؟ ثم تناول الصحيفة فتفل فيها، ثم رمى بها. وما كان من قبل الرأي والظن في الدنيا، فقد قال رسول الله ﷺ لما قال عن التلقيح: **«ما أظن يغني ذلك شيئاً، إنما ظننت، فلا تؤاخذوني بالظن. ولكن إذا حدثتكم عن الله بشيء، فخذوا به، فإني لن أكذب على الله»**[1]. رواه مسلم.

وفي حديث آخر: **«أنتم أعلم بأمر دنياكم، فما كان من أمر دينكم فإليّ»**[2]. ومن هذا الباب حديث سعد بن أبي وقاص، قال: أعطى رسول الله ﷺ رهطاً، وأنا جالس، فترك رجلاً منهم، وهو أعجبهم إليَّ، فقمت فقلت له: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً وتركت فلاناً، وهو مؤمن. فقال: أو مسلم؟ ذكر ذلك سعد له ثلاثاً، وأجابه بمثل ذلك. ثم قال: **«أني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه خشية أن يكب في النار على وجهه»**. متفق عليه. فإنما سأله سعد رضي الله عنه ليذكر النبي ﷺ بذلك الرجل، لعله يرى أنه ممن ينبغي إعطاؤُه، أو ليتبين لسعد وجه تركه مع إعطاء من هو دونه، فأجابه النبي ﷺ فقال: **«إنَّ العطاء ليس بمجرد الإيمان بل أعطي وأمنع، والذي أتركه أحب إليَّ من الذي أعطيه، لأن الذي أعطيه لولا أني أعطيه لكفر، فأعطيه لأحفظ عليه إيمانه، ولا أدخله في زمرة من يعبد الله على حرف؛ والذي أمنعه معه من اليقين والإيمان ما يغنيه عن الدنيا، وهو أحب إليّ وعندي أفضل، وهو يعتصم بالله، يحب الله ورسوله ويعتاض بنصيبه من الدين عن نصيبه من الدنيا كما اعتاض به أبو بكر وغيره، وكما اعتاضت الأنصار حين ذهبت الطلقاء وأهل نجد بالشاة والبعير»**.

وانطلقوا هم برسول الله ﷺ ثم لو كان العطاء بمجرد الإيمان، فمن أين لك أن يكون هذا مؤمن بل يجوز أن يكون مسلماً، وإن لم يدخل الإيمان في قلبه، فإن النبي ﷺ أعلم من سعد بتمييز المؤمن من غيره حيث أمكن التمييز. ومن ذلك أيضاً ما ذكره ابن إسحاق عن محمد بن

---

(١) رواه ابن ماجه في السنن (٢٤٧٠). وأحمد في المسند (١: ١٦٢).
(٢) رواه علي القاري في الأسرار المرفوعة (٤٥٥).

إبراهيم بن الحارث أن قائلاً قال: يا رسول الله: أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة من الإبل، وتركت جعيل بن سراقة الضمري. فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع، ولكني تألفتهما على إسلامهما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه».

وقد ذكر بعض أهل المغازي في حديث الأنصار: وددنا أن نعلم من أين هذا، إن كان من قبل الله صبرنا، وإن كان من رأي رسول الله ﷺ استعتبناه. فهذا بين أن من وجد منهم جوز أن يكون القسم وقع باجتهاد في المصلحة، فأحب أن يعلم الوجه الذي أعطى به غيره، ومنع هو مع فضله على غيره في الإيمان والجهاد وغير ذلك.

وهذا في بادي الرأي هو الموجب للعطاء، أو أن النبي ﷺ يعطيه كما أعطى غيره. وهذا معنى قولهم: «استعتبناه»، أي طلبنا منه أن يعتبنا، أي أن يزيل عتبنا، إما ببيان الوجه الذي به أعطى غيرنا أو بإعطائنا.

وقد قال ﷺ: «ما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الرسل مبشرين ومنذرين»[1]. فأحب النبي ﷺ أن يعذروه فيما فعل، فبين لهم ذلك. فلما تبين لهم الأمر بكوا حتى أخضلوا لحاهم، ورضوا حق الرضى. والكلام المحكي يدل على أنهم رأوا القسمة وقعت اجتهاداً، وأنهم أحق بالمال من غيرهم، فتعجبوا من إعطاء غيرهم، وأرادوا أن يعلموا هل هو وحي أو اجتهاد يتعين اتباعه، لأنه المصلحة أو اجتهاداً يمكن النبي ﷺ أن يأخذ بغيره إذا رأى أنه أصلح، وإن كان هذا القسم إنما يمكن فيما لم يستقر أمره ويقره عليه ربه.

ولهذا قالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. وفي رواية قالوا: إن هذا هو العجب، إن سيوفنا تقطر من دمائهم، وإن غنائمنا لترد عليهم. وفي رواية: إذا كانت الشدة، فنحن ندعى، وتعطى الغنائم غيرنا. واختلف الناس في العطايا، هل كانت من أصل الغنيمة أو من الخُمس؟.

فروي عن سعد بن إبراهيم، ويعقوب بن عتبة قالا: كانت العطايا من الغنائم، وعلى هذا فالنبي ﷺ إنما أخذ نصيبهم من المغنم بطيب أنفسهم. وقد قيل إنه أراد أن يقطعهم بدل ذلك قطائع من البحرين، فقالوا: لا حتى تقطع إخواننا من المهاجرين مثله. ولهذا لما جاء مال البحرين وافوه صلاة الفجر، وقال لجابر: «لو قد جاء مال البحرين أعطيتك كذا وكذا»،

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠: ٢١٩). والهيثمي في مجمع الزوائد (٨: ١١٨). وفيه: «المدحة».

لكن لم يستأذنهم النبي ﷺ قبل القسم، لعلمه بأنهم يرضون بما يفعل.

وإذا علم الرجل من حال صديقه أنه تطيب نفسه بما يأخذ من ماله، فله أن يأخذ، وإن لم يستأذنه نطقاً.

وكان هذا معروفاً بين كثير من الصحابة والتابعين، كالرجل الذي سأل النبي ﷺ كبة من شعر، فقال: **«أما ما كان لي ولبني هاشم فهو لك»**.

على هذا فلا حرج عليهم إذا سألوا نصيبهم. وقال موسى بن إبراهيم بن عقبة، عن أبيه: كانت من الخمس. قال الواقدي: وهو أثبت القولين. وعلى هذا فالخمس إما أن يقسمه الإمام باجتهاده كما يقوله مالك، أو يقسمه خمسة أقسام كما يقوله الشافعي وأحمد. وإذا قسمه خمسة أقسام، فإذا لم يوجد يتامى أو مساكين أو ابن سبيل أو استغنوا ردت أنصباؤهم، وهم في مصارف سهم الرسول.

وقد كان اليتامى والمساكين وأبناء السبيل إذ ذاك مع قلتهم مستغنين بنصيبهم من الزكاة، لأنه لما فتحت خيبر استغنى أكثر الإسلام، ورد النبي ﷺ على الأنصار منائح النخل التي كانوا منحوها للمهاجرين. فاجتمع للأنصار أموالهم التي كانت والأموال التي غنموها بخيبر وغيرها، فصاروا مياسير، ولهذا قال النبي ﷺ في خطبته: **«ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي»**[1] فصرف النبي ﷺ عامة الخمس في مصارف سهم الرسول، فإنه أولى بالمصالح. وأهم المصالح تأليف أولٰئك القوم. ومن زعم أن مجرد خمس الخمس قام بجميع ما أعطى المؤلفة، فإنه لم يدر كيف القصة. ومن له خبرة بالقصة يعلم أنَّ المال لم يكن يحتمل هذا.

وقد قيل: إنَّ الإبل كانت أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أربعين ألفاً، أو أقل أو أكثر، والورق أربعة آلاف أوقية، والغنم كانت تعدل عشرة منها بعير، فخمس الخمس منه ألف ومايتا بعير.

فهذا يكون قريباً من ثلاثين ألف بعير وقد قسم في المؤلفة أضعاف ذلك على ما لاخلاف فيه بين أهل العلم. وأما قول بعض قريش والأنصار في الذهبية التي بعث بها علي من اليمن: أيعطي صناديد أهل نجد ويدعنا؟ فمن هذا الباب إنما سألوه على هذا الوجه.

وهنا جوابان آخران: **أحدهما**: إنَّ بعض أولٰئك القائلين قد كان منافقاً يجوز قتله، مثل الذي سمعه ابن مسعود يقول في غنائم حنين: إنَّ هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله.

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (٦: ٣٦٢). وفيه: «ألم أجدك يتيماً فآويتك».

وكان في ضمن قريش والأنصار منافقون كثيرون، فما ذكر من كلمة «لا مخرج لها» فإنما صدرت عن منافق. والرجل الذي ذكر عنه أبو سعيد أنه قال: كنا أحق بهذا من هؤلاء، لم يسمه. والله أعلم.

والجواب الثاني: إنَّ الاعتراض قد يكون ذنباً ومعصية يخاف على صاحبه النفاق، وإن لم يكن نفاقاً مثل قوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال:٦] ومثل مراجعتهم له في فسخ الحج إلى العمرة، وإبطائهم عن الحل؛ وكذلك كراهتهم للحل عام الحديبية، وكراهتهم للصلح، ومراجعة من راجع منهم؛ فإن من فعل ذلك فقد أذنب ذنباً كان عليه أن يستغفر الله منه، كما إنَّ الذين رفعوا أصواتهم فوق صوته أذنبوا ذنباً تابوا منه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحجرات:٧] وقال سهل بن حنيف: اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع رد أمر رسول الله ﷺ لفعلت.

فهذه أمور صدرت عن سهوة وعجلة، لا عن شك في الدين، كما صدر عن حاطب التجسس لقريش، مع أنها ذنوب ومعاص يجب على صاحبها أن يتوب، وهو بمنزلة عصيان أمر رسول الله ﷺ.

ومما يدخل في هذا حديث أبي هريرة في فتح مكة، قال: فقال رسول الله ﷺ: **«من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن دخل بابه فهو آمن»** فقال الأنصار: أما الرجل فقد أدركته رغبة في قرابته، ورأفة في عشيرته. قال أبو هريرة: وجاء الوحي وكان إذا جاء لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد منا يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي. فلما قضي الوحي، قال رسول الله ﷺ: **«يا معشر الأنصار»** قالوا: لبيك يا رسول الله. قال: **«قلتم أما الرجل فقد أدركته رغبة في قرابته، ورأفة بعشيرته»**. قالوا: قد كان ذاك. قال: **«كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم. المحيا محياكم، والممات مماتكم»**. فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الظن بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم»**.

رواه مسلم، وذلك أنَّ الأنصار لما رأوا النبي ﷺ قد أمَّن أهل مكة، وأقرهم على أموالهم وديارهم مع دخوله عليهم عنوة وقهراً، وتمكنه من قتلهم وأخذ أموالهم لو شاء، خافوا أن يكون النبي ﷺ يريد أن يستوطن مكة، ويستبطن قريشاً، لأنَّ البلد بلده، والعشيرة عشيرته، وأن يكون نزاع النفس إلى الوطن والأهل يوجب إنصرافه عنهم. فقال: من قال منهم، ولم يقله الفقهاء أولو الألباب الذين يعلمون أنَّه لم يكن له سبيل إلى استيطان مكة، فقالوا ذلك لا طعناً ولا عيباً، ولكن ظناً بالله ورسوله، والله ورسوله قد صدقاهم، إنما حملهم

على ذلك الظن بالله ورسوله، وعذراهم فيماقالوا لما رأوا وسمعوا، ولأن مفارقة الرسول شديدة على مثل أولئك المؤمنين الذين هم شعار، وغيرهم دثار. والكلمة التي تخرج عن محبة وتعظيم وتشريف وتكريم يغتفر لصاحبها، بل يحمد عليها، وإن كان مثلها لو صدر بدون ذلك استحق صاحبها النكال، وكذلك الفعل، ألا ترى أن النبي ﷺ لما قال لأبي بكر حين أراد أن يتأخر عن موقفه في الصلاة لما أحس بالنبي ﷺ: مكانك. فتأخر أبو بكر، فقال له النبي ﷺ: «ما منعك أن تثبت مكانك، وقد أمرتك؟» فقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي النبي ﷺ.

وكذلك أبو أيوب الأنصاري لما استأذن النبي ﷺ في أن ينتقل إلى السفل، وأن يصعد رسول الله ﷺ إلى العلو، وشق عليه أن يسكن فوق رسول الله ﷺ فأمره النبي ﷺ بالمكث في مكانه، وذكر له أن سكناه أسفل أرفق به من أجل دخول الناس عليه، فامتنع أبو أيوب من ذلك أدباً مع النبي ﷺ وتوقيراً له. فكلام الأنصار رضي الله عنهم معه ﷺ من هذا الباب.

وبالجملة فالكلمات في هذا الباب ثلاثة أقسام: إحداهن: ما هو كفر مثل قوله: إنَّ هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله؛ **الثاني**: ما هو ذنب ومعصية يخاف على صاحبه أن يحبط عمله، مثل رفع الصوت فوق صوته، ومثل مراجعة من راجعه عام الحديبية بعد ثباته على الصلح، ومجادلة من جادله يوم بدر بعدما تبين الحق. وهذا كله يدخل في المخالفة عن أمره.

الثالث: ما ليس من ذلك، بل يحمد عليه صاحبه أو لا يحمد، كقول عمر رضي الله عنه : ما بالنا نقصر الصلاة وقد أمنا.

وكقول عائشة رضي الله عنها: ألم يقل الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الحاقة: ١٩] وكقول حفصة رضي الله عنها: ألم يقل الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وكمراجعة الحباب في منزل بدر، ومراجعة سعد في صلح غطفان على نصف تمر المدينة، ونحو ذلك مما فيه سؤال عن إشكال ليتبين لهم أو غرض لمصلحة قد يفعلها الرسول ﷺ فهذا ما اتفق ذكره من السنن المأثورة عن النبي ﷺ في قتل من سبه من معاهد وغير معاهد؛ والله سبحانه أعلم.

فصل: وأما إجماع الصحابة رضي الله عنهم فلأن ذلك نقل عنهم في قضايا متعددة، ينتشر مثلها ويستفيض، ولم ينكرها أحد منهم، وصارت إجماعاً. واعلم أنه لا يمكن إدعاء إجماع الصحابة على مسألة فرعية بأبلغ من هذه الطريق. فمن ذلك ما ذكره سيف بن عمر التميمي في كتاب «الردة والفتوح» عن شيوخه قال: ورفع إلى المهاجر بن أبي أمية، وكان أميراً على اليمامة أو نواحيها امرأتان مغنيتان، غنت إحداهما بشتم النبي ﷺ فقطع يدها ونزع ثناياها؛ وغنت الأخرى بهجاء المسلمين، فقطع يدها ونزع ثنيتها، فكتب إليه أبو بكر: بلغني

الذي سرت به في المرأة التي تغنت وزمرت بشتيمة النبي ﷺ فلولا ما قد سبقتني فيها، لأمرتك بقتلها، لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود؛ فمن تعاطى ذلك من مسلم؛ فهو مرتد، أو معاهد فهو محارب غادر.

وكتب إليه أبو بكر في التي تغنت بهجاء المسلمين، ونزعت ثنيتها؛ فإن كانت ممن تدعي الإسلام فأدب وتقدمة دون المثلة، يعني وإن كانت ذمية فلعمري لما صفحت عنه من الشرك أعظم، ولو كنت تقدمت إليك في مثل هذا لبلغت مكروهك، فاقبل الدعة وإياك والمثلة في الناس، فإنها مأتم ومنفرة إلا في قصاص. وقد ذكر هذه القصة غير سيف، وهذا يوافق ما نقدم عنه أن من شتم النبي ﷺ كان له أن يقتله، وليس ذلك لأحد بعده.

وهو صريح في وجوب قتل من سب النبي ﷺ من مسلم ومعاهد، وإن كان امرأة، وأنَّه يقتل بدون استتابة بخلاف من سب الناس، وإن قتلها حد للأنبياء كما أن جلد من سب غيرهم حد له، وإنما لم يأمر أبو بكر رضي الله عنه بقتل تلك المرأة، لأنَّ المهاجر سبق منه فيها حد باجتهاد، فكره أبو بكر أن يجمع عليها حدين، مع أنه لعلها أسلمت أو تابت، فقبل المهاجر نوبتها قبل كتاب أبي بكر، وهو محل اجتهاد سبق منه فيه حكم، فلم يغيره أبو بكر، لأنَّ الإجتهاد لا ينتقض باجتهاد؛ وكلامه يدل على أنه إنما منعه من قتلها ما سبق من المهاجر.

وروى الحارث في مسائله عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد قال: أتى عمر برجل سب النبي ﷺ فقتله، ثم قال عمر: من سب الله أو سب أحداً من الأنبياء، فاقتلوه. قال ليث: وحدثني مجاهد عن ابن عباس قال: أيما مسلم سب الله أو سب أحداً من الأنبياء، فقد كذب برسول الله ﷺ. وهي ردة يستتاب، فإن رجع وإلاَّ قتل؛ وأيما معاهد عاند فسب الله، أو سب أحداً من الأنبياء، أو جهر به؛ فقد نقض العهد فاقتلوه، وعن أبي مشجعة بن ربعي قال: لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام، قام قسطنطين بطريق الشام، وذكر معاهدة عمر له وشروطه عليهم، قال: اكتب بذلك كتاباً. قال عمر: نعم. فبينا هو يكتب الكتاب، إذ ذكر عمر، فقال: إني أستثني عليك معسرة الجيش مرتين. قال: لك ثناك، وقبح الله من أقالك. فلما فرغ من الكتاب، قال له: يا أمير المؤمنين قم في الناس فأخبرهم الذي جعلت لي وفرضت علي، ليتناهوا عن ظلمي. قال عمر: نعم. فقام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه. من يهده الله، فلا مضل له، ومن يضلل، فلا هادي له.

فقال البنطي: إنَّ الله لا يضل أحداً فقال عمر: ما تقول؟ قالوا: لا شيء وأعاد البطي لمقالته، فقال: أخبروني ما يقول. قال يزعم أنَّ الله لا يضل أحداً. قال: عمر إنا لم نعطك الذي أعطيناك لتدخل علينا في ديننا. والذي نفسي بيده، لئن عدت لأضربن الذي فيه عيناك.

فعاد عمر، ولم يعد النبطي. فلما فرغ أخذ النبطي الكتاب. رواه حرب.

وهذا عمر رضي الله عنه بمحضر من المهاجرين والأنصار يقول لمن عاهده: إنَّا لم نعطك العهد على أن تدخل علينا في ديننا. وحلف لئن عاد ليضربن عنقه، فعلم بذلك إجماع الصحابة على أن أهل العهد ليس لهم أن يظهروا الاعتراض علينا في ديننا، وأن ذلك منهم مبيح لدمائهم، وأن من أعظم الاعتراض سب نبينا ﷺ وهذا ظاهر لا خفاء به، لأن إظهار التكذيب بالقدر من إظهار شتم الرسول، وإنما لم يقتله عمر رضي الله عنه لأنه لم يكن قد تقرر عنده أن هذا الكلام طعن في ديننا، ولجواز أن يكون اعتقد أن عمر قال ذلك من عنده. فلما تقدم إليه عمر، وبين له أن هذا ديننا، قال له: لئن عدت لأقتلنك.

ومن ذلك ما استدل به الإمام أحمد عن هيثم، فحدثنا حصين عمن حدثه، عن ابن عمر قال: مرّ به راهب، فقيل: هذا يسب النبي ﷺ فقال ابن عمر: لو سمعته لقتلته، إنا لم نعطهم الذمة على أن يسبوا نبينا ﷺ.

ورواه أيضاً من حديث الثوري عن حصين، عن شيخ أن ابن عمر أصلت على راهب سب النبي ﷺ السيف، وقال: إنا لم نصالحهم على سب النبي ﷺ والجمع بين الروايتين أن يكون ابن عمر أصلت عليه السيف لعله يكون مقراً بذلك، فلما أنكر كف عنه؛ وقال: لو سمعته لقتلته. وقد ذكر حديث ابن عمر غير واحد.

وهذه الآثار كلها نص في الذمي والذمية، وبعضها عام في الكافر والسلم، أو نص فيهما. وقد تقدم حديث الرجل الذي قتله عمر رضي الله عنه من غير استتابة، حين أبى أن يرضى بحكم النبي ﷺ وتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: ٢٣] الآية هذه في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ خاصة ليس فيها توبة، وقال نزلت في عائشة رضي الله عنها خاصة، واللعنة للمنافقين عامة. ومعلوم أن ذاك إنما هو لأنَّ قذفها أذى للنبي ﷺ ونفاق، والمنافق يجب قتله إذا لم تقبل توبته. وروى الإمام أحمد بإسناده عن سماك بن الفضل، عن عروة بن محمد، عن رجل من بلقين أنَّ امرأة سبت النبي ﷺ فقتلها خالد بن الوليد رضي الله عنه وهذه المرأة مبهمة.

وقد تقدم حديث محمد بن مسلمة رضي الله عنه في ابن يامين الذي زعم أن قتل كعب بن الأشرف كان غدراً، وحلف محمد بن مسلمة لئن وجده خالياً ليقتلنه، لأنَّه نسب النبي ﷺ إلى الغدر، ولم ينكر المسلمون عليه ذلك، ولا يرد على ذلك إمساك الأمير، إما معاوية أو مروان عن قتل هذا الرجل، لأنَّ سكوته لا يدل على مذهب، وهو لم يخالف محمد بن مسلمة، ولعل سكوته، لأنه لم ينظر في حكم هذا الرجل، أو نظر فلم يتبين له

حكمه، أو لم تنبعث داعيته لإقامة الحد عليه، أو ظن أن الرجل قال ذلك معتقداً أنه قتل بدون أمر النبي ﷺ أو لأسباب أخر وبالجملة فمجرّد كفه لا يدل على أنه مخالف لمحمد بن مسلمة فيما قاله، وظاهر القصة أن محمد بن مسلمة رآه مخطئاً بترك إقامة الحد على ذلك الرجل، ولذلك هجره، لكن هذا الرجل إنما كان مسلماً، فإن المدينة لم يكن بها يومئذ أحد من غير المسلمين.

وذكر ابن المبارك: أخبرني حرملة بن عثمان، حدثني كعب بن علقمة أن عرفة بن الحارث الكندي، وكانت له صحبة من النبي ﷺ سمع نصرانياً شتم النبي ﷺ فضربه فدق أنفه، فرفع ذلك إلى عمرو بن العاصي، فقال له: إنا قد أعطيناهم العهد فقال عرفة: معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبي ﷺ وإنما أعطيناهم العهد على أن نخلي بينهم وبين كنائسهم، يعملون فيها ما بدا لهم، وأن لا نحمهلم على ما لا يطيقون، وإن أرادهم عدو قاتلنا دونهم، وعلى أن نخلي بينهم وبين أحكامهم إلاَّ أن يأتونا راضين بأحكامنا، فنحكم فيهم بحكم الله، وحكم رسوله ﷺ وإن غيبوا عنا لم نعرض لهم. فقال عمرو: صدقت، فقد اتفق عمرو وعرفة بن الحارث رضي الله عنهما على أن العهد الذي بيننا وبينهم لا يقتضي إقرارهم على إظهار شتم الرسول ﷺ كما اقتضى إقرارهم على ما هم عليه من الكفر والتكذيب، فمتى أظهروا شتمه ﷺ فقد فعلوا ما يبيح الدم من غير عهد عليه فيجوز قتلهم.

وهذا كقول ابن عمر في الراهب الذي شتم النبي ﷺ: لو سمعته لقتلته، فإنا لم نعطهم العهد على أن يشتموا نبينا، وإنما لم يقتل هذا الرجل؛ والله أعلم، لأنَّ البينة لم تقم عليه بذلك، وإنما سمعه عرفة أو لعل عرفة قصد قتله بتلك الضربة، ولم يمكن من إتمام قتله لعدم البينة بذلك، ولأن فيه افتياتاً على الإمام، والإمام لم يثبت عنده ذلك.

وعن خليد أنَّ رجلاً سب عمر بن عبد العزيز، فكتب عمر أنَّه لا يقتل إلاَّ من سب رسول الله ﷺ ولكن أجلده على رأسه أسواطاً، ولولا أعلم أن ذلك خير له لم أفعل.

رواه حرب وذكره الإمام أحمد. وهذا مشهور عن عمر بن عبد العزيز، وهو خليفة راشد عالم بالسنة متبع لها. فهذه أقوال أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم بإحسان، لَا يعرف عن صاحب ولا تابع خلاف لذلك، بل إقرار عليه واستحسان.

وأما الاعتبار أي القياس فمن وجوه، أحدها: إنَّ عيب ديننا وشتم نبينا مجاهدة لنا ومحاربة، فكان نقضاً للعهد كالمجاهدة والمحاربة باليد، وأولى يبين ذلك أنَّ الله سبحانه قال في كتابه: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١][1] والجهاد بالنفس يكون

---

(١) وردت في الأصل: ﴿وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم﴾ في حين أن هذا اللفظ بهذا الترتيب =

باللسان كما يكون باليد، بل قد يكون أقوى منه. قال النبي ﷺ «**جاهدوا المشركين بأيديكم وألسنتكم وأموالكم**». رواه النسائي وغيره. وكان يقول لحسان بن ثابت: «**أغزهم وغازهم**». وكان ينصب له منبر في المسجد، ينافح عن رسول الله ﷺ بشعره وهجائه للمشركين، وقال النبي ﷺ: «**اللهم أيده بروح القدس**»(١).

وقال: إنَّ جبريل معك ما دمت تنافح عن رسول الله ﷺ وقال: هي فيهم أنكى من النبي، وكان عدد من المشركين يكفون عن أشياء مما تؤذي المسلمين خشية هجاء حسان، حتى إن كعب بن الأشرف لما ذهب إلى مكة كان كلما نزل عند أهل بيت هجاهم حسان بقصيدة فيخرجونه من عندهم حتى لم يبق له بمكة من يؤويه.

وفي الحديث: «**أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، وأفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل تكلم بحق عند سلطان جائر، فأمر به فقتل**».

وإذا كان هذا شأن الجهاد باللسان في شتم المشركين وهجائهم، وإظهار دين الله، والدعاء إليه؛ علم أن من شتم دين الله ورسوله، وأظهر ذلك، وذَكر كتاب الله بالسوء علانية؛ فقد جاهد المسلمين وحاربهم، وذلك نقض للعهد.

الوجه الثاني: إنا وإن أقررناهم على ما يعتقدونه من الكفر والشرك، فهو كإقرارنا لهم على ما يضمرونه لنا من العداوة وإرادة السوء بنا، وتمنّي الغوائل لنا، فإنا نعلم أنهم يعتقدون خلاف ديننا، ويريدون سفك دمائنا وعلو دينهم، ويسعون في ذلك لو قدروا عليه.

فهذا القدر أقررناهم عليه، فإذا عملوا بموجب هذه الإرادة بأن حاربونا وقاتلونا نقضوا العهد، كذلك إذا عملوا بموجب تلك العقيدة من إظهار السب لله ولكتابه ولدينه ولرسوله نقضوا العهد، إذ لا فرق بين العمل بموجب الإرادة وموجب الاعتقاد.

الوجه الثالث: إن مطلق العهد الذي بيننا وبينهم يقتضي أن يكفوا أو يمسكوا عن إظهار الطعن في ديننا وشتم رسولنا، كما يقتضي الإمساك عن سفك دمائنا ومحاربتنا، لأنَّ معنى العهد أن كل واحد من المتعاهدين يؤمن الآخر مما يحذره منه قبل العهد.

ومن المعلوم أنا نحذر منهم إظهار كلمة الكفر وسب الرسول وشتمه كما نحذر إظهار المحاربة، بل أولى، لأنا نسفك الدماء ونبذل الأموال في تعزير الرسول وتوقيره، ورفع ذكره

= غير وارد في القرآن، بل هو كما أثبتناه في المتن.

(١) رواه ابن كثير في البداية والنهاية (١ : ١٧٥). والسيوطي في الدر المنثور (١ : ٨٧).

وإظهار شرفه وعلو قدره؛ وهم جميعاً يعلمون هذا من ديننا، فالمظهر منهم لسبه ناقض للعهد، فاعل لما كنا نحذره منه ونقاتله عليه قبل العهد. وهذا بين واضح.

الوجه الرابع: إنَّ العهد المطلق، ولو لم يقتض ذلك، فإن العهد الذي عاهدهم عليه عمر ابن الخطاب وأصحاب رسول الله ﷺ معه قد بين فيه ذلك وسائر أهل الذمة، إنما جروا على مثل ذلك العهد.

فروى حرب بإسناد صحيح عن عبد الرحمٰن بن غنم، قال: كتب لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى أهل الشام: هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من مدينة كذا وكذا، إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا، على أن لا نحدث؛ وذكر الشروط إلى أن قال: ولا نظهر شركاً، ولا ندعو إليه أحداً.

وقال في آخره: شرطنا ذلك على أنفسنا وأهلينا، وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا عن شيء شرطناه لكم، وصمناه على أنفسنا، فلا ذمة لنا؛ وقد حل لكم منا ما حل من أهل المعاندة والشقاق.

وقد تقدم قول عمر له في مجلس العقد: «إنا لم نعطك الذي أعطيناك لتدخل علينا في ديننا. والذي نفسي بيده لئن عدت لأضربن عنقك. وعمر صاحب الشروط عليهم. فعلم بذلك أن شرط المسلمين عليهم أن لا يظهروا كلمة الكفر، وأنهم متى أظهروها صاروا محاربين.

وهذا الوجه يوجب أن يكون السب نقضاً للعهد عند من يقول: لا ينتقض العهد به إلا إذا شرط عليهم تركه، كما خرجه بعض أصحابنا وبعض الشافعية في المذهبين. وكذلك يوجب أن يكون نقضاً للعهد عند من يقول: إذا شرط عليهم انتقاض العهد بفعله انتقض، كما ذكره بعض أصحاب الشافعي، فإن أهل الذمة إنما هم جارون على شروط عمر، لأنه لم يكن بعده إمام عقد عقداً يخالف عقده، بل كل الأئمة جارون على حكم عقده؛ والذي ينبغي أن يضاف إلى من يخالف في هذه المسألة أنه لا يخالف إذا شرط عليهم انتقاض العهد بإظهار السب، فإن الخلاف حينئذ لا وجه له ألبتة، مع إجماع الصحابة على صحة هذا الشرط وجريانه على وفق الأصول، فإذا كان الأئمة قد شرطوا عليهم ذلك، وهو صحيح، لزم العمل به على كل قول.

الوجه الخامس: إنَّ العقد مع أهل الذمة على أن تكون الدار لنا تجري فيها أحكام الإسلام، وعلى أنهم أهل صغار وذلة، على هذا عوهدوا وصولحوا. فإظهار شتم الرسول ﷺ أو الطعن في الدين ينافي كونهم أهل صغار وذلة، فإنَّ من أظهر سب الدين والطعن فيه لم يكن من الصغار في شيء، فلا يكون عهده باقياً.

الوجه السادس: إنَّ الله فرض علينا تعزير رسوله، وتوقيره، وتعزيزه، ونصره، ومنعه، وتوقيره، وإجلاله، وتعظيمه، وذلك يوجب عرضه بكل طريق، بل ذلك أول درجات التعزير والتوقير، فلا يجوز أن يصالح أهل الذمة على أن يسمعونا شتم نبينا ﷺ ويظهروا ذلك، فإنَّ تمكينهم من ذلك ترك للتعزير وللتوقير، وهم يعلمون أنا لا نصالحهم على ذلك، بل الواجب علينا أن نكفهم عن ذلك ونزجرهم عنه بكل طريق، وعلى ذلك عاهدناهم. فإذا فعلوه، فقد نقضوا الشرط الذي بيننا وبينهم.

الوجه السابع: إنَّ نصر رسول الله ﷺ فرض علينا، لأنه من التعزير المفروض، ولأنه من أعظم الجهاد في سبيل الله، ولذلك قال سبحانه: ﴿لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] بل نصر آحاد المسلمين واجب بقوله ﷺ: «**انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»، وبقوله: «**المسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يظلمه**»[1]. فكيف بنصر رسول الله ﷺ ومن أعظم النصر حماية عرضه ممن يؤذيه، ألا ترى إلى قوله ﷺ: «**من حمى مؤمناً من منافق يؤذيه، حمى الله جلده من نار جهنم يوم القيامة**». ولذلك سمى من قابل الشاتم بمثل شتمه منتصراً. وسب رجل أبا بكر رضي الله عنه عند النبي ﷺ وهو ساكت، فلما أخذ لينتصر، قام فقال: يا رسول الله، كان يسبني وأنت قاعد، فلما أخذت لأنتصر قمت. فقال: كان الملك يرد عليه فلما انتصرت ذهب الملك، فلم أكن لاقعد وقد ذهب الملك. أو كما قال ﷺ وهذا كثير معروف في كلامهم: «**يقولون لمن كافأ الساب والشاتم منتصر، كما يقولون لمن كافأ الضارب والقاتل منتصر**». **وقد تقدم أنه ﷺ قال للذي قتل بنت مروان لما شتمته ﷺ: «إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله بالغيب، فانظروا إلى هذا»**.

وقال ﷺ للرجل الذي خرق صف المشركين حتى ضرب بالسيف ساب النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**أعجبتم من رجل نصر الله ورسوله**». وحماية عرضه ﷺ في كونه نصراً أبلغ من ذلك في حق غيره، لأنَّ الوقيعة في عرض غيره قد لا نضر مقصوده؛ بل يكتب له بها حسنات. أما انتهاك عرض رسول الله ﷺ فإنَّه مناف لدين الله بالكلية. فإنَّ العرض متى انتهك سقط الإحترام والتعظيم، فسقط ما جاء به من الرسالة، فبطل الدين. فقيام المدحة والثناء عليه،

---

(١) رواه أبو داود في السنن (٤٨٩٣).

والتعظيم والتوقير له. قيام الدين كله، وسقوط ذلك سقوط الدين كله. وإذا كان كذلك وجب علينا أن ننتصر له ممن انتهك عرضه. والانتصار له بالقتل، لأنَّ انتهاك عرضه انتهاك لدين الله.

ومن المعلوم أن من سعى في دين الله بالإفساد استحق القتل، بخلاف انتهاك عرض غيره معيناً، فإنَّه لا يبطل الدين والمعاهد لم نعاهده على ترك الإنتصار لرسول الله ﷺ منه ولا من غيره، كما لم نعاهده على ترك استيفاء حقوق المسلمين، ولا يجوز أن نعاهده على ذلك، وهو يعلم أنا لم نعاهده على ذلك، فإذا سبه فقد وجب علينا أن ننتصر له بالقتل، ولا عهد معه على ترك ذلك، فيجب قتله. وهذا بين واضح لمن تأمله.

الوجه الثامن أنَّ الكفار قد عوهدوا على أنْ لا يظهروا شيئاً من المنكرات التي تختص بدينهم في بلاد الإسلام، فمتى أظهروها استحقوا العقوبة على إظهارها، وإن كان إظهارها ديناً لهم، فمتى أظهروا سب رسول الله ﷺ استحقوا عقوبة ذلك، وعقوبة ذلك القتل كما تقدم.
الوجه التاسع إنَّه لا خلاف بين المسلمين علمناه أنهم ممنوعون من إظهار السب، وأنهم يعاقبون عليه إذا فعلوه بعد النهي، فعلم أنهم لم يقروا عليه كما أقروا على ما هم عليه من الكفر، وإذا فعلوا ما لم يقروا عليه من الجنايات استحقوا العقوبة بالاتفاق. وعقوبة السب إما أن تكون جلداً أو حبساً أو قطعاً أو قتلاً. والأول باطل، فإنَّ مجرد سب الواحد من المسلمين وسلطان المسلمين يوجب الجلد والحبس، فلو كان سب الرسول ﷺ كذلك، لسوي بين سب الرسول وسب غيره من الأمة، وهو باطل بالضرورة والقطع، لا معنى له، فتعين له القتل.
الوجه العاشر إنَّ القياس الجلي يقتضي أنهم متى خالفوا شيئاً مما عوهدوا عليه انتقض عهدهم. ثم قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

فإن قيل: قد قال تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] فأخبر سبحانه: أنا نسمع منهم الأذى الكثير، ودعانا إلى الصبر على أذاهم، وإنما يؤذينا أذى عاماً الطعن في كتاب الله ودينه ورسوله. وأجاب رحمه الله بأنَّ الأمر بالصبر على أذاهم وبتقوى الله لا يمنع قتالهم عند المكنة، وإقامة حد الله عليهم عند القدرة؛ فإنَّه لا خلاف بين المسلمين أنا إذا سمعنا مشركاً أو كتابياً يؤذي الله ورسوله، ولا عهد بيننا وبينه، وجب علينا أن نقاتله ونجاهده إذا أمكن ذلك.

ثم قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمره الله، ويصبرون على الأذى. قال الله عزَّ وجل: ﴿ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [آل عمران: ١٨٦] الآية. وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ

﴿كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٩] إلى أن قال: وقال علي بن طلحة، عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٠٦]. ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]. ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ [المائدة:١٣]. ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا﴾ [التغابن: ١٤]. ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة:١٠٩]. ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]. ونحو هذا في القرآن مما أمر الله به المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين، فإنَّه نسخ ذلك كله قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩].

فنسخ هذا عفوه عن المشركين، إلى أن قال: فلما أتى الله بأمره الذي وعده به، من ظهور الدين، وعز المؤمنين؛ أمر رسوله بالبراءة إلى المعاهدين، وبقتال المشركين كافة، وبقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فكان ذلك عاقبة الصبر والتقوى للذين أمرهم بهما في أول الأمر، وكان إذ ذاك لا يؤخذ من أحد من اليهود الذين بالمدينة ولا غيرهم جزية، وصارت تلك الآيات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه، فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه... وصارت آية الصغار على المعاهدين في حق كل مؤمن قوي يقدر على نصر الله ورسوله بيده أو لسانه. وبهذه الآية ونحوها كان المسلمون يعملون في آخر عمر رسول الله ﷺ وعلى عهد خلفائه الراشدين، وكذلك هو إلى قيام الساعة، لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمين على الحق ينصرون الله ورسوله النصر التام، فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله من الذين أوتوا الكتاب والمشركين. وأما أهل القوة، فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. انتهى كلامه.

ومن جواهر الإمام ابن تيمية أيضاً رحمه الله تعالى

قوله في كتابه «الصارم المسلول» المذكور: إنَّ الله سبحانه أوجب لنبينا ﷺ على القلب واللسان والجوارح حقوقاً زائدة على مجرد التصديق بنبوته، كما أوجب سبحانه على خلقه من العبادات على القلب واللسان والجوارح أموراً زائدة على مجرد التصديق به سبحانه وحرم سبحانه لحرمة رسوله مما يباح أن يفعل مع غيره أموراً زائدة على مجرد التكذيب بنبوته. فمن

ذلك أنَّه أمر بالصلاة عليه والتسليم، بعد أن أخبر أنَّ الله وملائكته يصلون عليه. والصلاة عليه تتضمن ثناء الله عليه، ودعاء الخير له، وقربه منه، وراحته له. والسلام عليه يتضمن سلامته من كل آفة، فقد جمعت الصلاة عليه والتسليم جميع الخيرات.

ثم إنَّه يصلي سبحانه عشراً على من يصلي عليه مرة، حصناً للناس على الصلاة عليه ﷺ ليسعدوا بذلك وليرحمهم الله بها. ومن ذلك أنَّه ﷺ أخبر أنَّه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن حقه ﷺ أنَّه يجب أن يؤثره العطشان بالماء، والجائع بالطعام، وأنَّه يجب أن يوقى ﷺ بالأنفس والأموال، كما قال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فعلم أنَّ رغبة الإنسان بنفسه أن يصيبه ما يصيب النبي ﷺ من المشقة حرام. وقال تعالى مخاطباً للمؤمنين فيما أصابهم من مشقات الحصر والجهاد. ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ومن حقه أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه وولده وجميع الخلق، كما دل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤] الآية، مع الأحاديث الصحيحة المشهورة، كما في الصحيح من قول عمر رضي الله عنه: يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلاَّ نفسي. فقال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك». قال: فأنت والله يا رسول الله أحب إليَّ من نفسي. قال: الآن يا عمر. وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». متفق عليه.

ومن ذلك أنَّ الله أمر بتعزيره وتوقيره، فقال: ﴿ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩] والتعزير إسم جامع لنصره وتأييده، ومنعه من كل ما يؤذيه ﷺ والتوقير إسم جامع لكل ما فيه سكينته وطمأنينته من الإجلال والإكرام، وأن يعامل ﷺ من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار.

ومن ذلك أنَّه خصه ﷺ في المخاطبة بما يليق به، فقال: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣] فنهى أن يقولوا: يا محمد، ويا أحمد، ويا أبا القاسم. ولكن يقولون: يا رسول الله، يا نبي الله. وكيف لا يخاطبونه ﷺ بذلك، والله سبحانه وتعالى أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحداً من الأنبياء؟ فلم يدعه ﷺ باسمه في القرآن قط، بل يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ [الأحزاب: ٢٨] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا

لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٢] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٢] مع أنَّه سبحانه قد قال: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦] ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ﴾ [هود: ٧٦] ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤] ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦] ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠].

ومن ذلك أنَّه حرم التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن، وحرم رفع الصوت فوق صوته، وأن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل؛ وأخبر أنَّ ذلك سبب حبوط العمل، فهذا يدل على أنَّه قد يقتضي الكفر، لأنَّ العمل لا يحبط إلاَّ به؛ وأخبر أنَّ الذين يغضون أصواتهم عنده هم الذين خلصت قلوبهم للتقوى، وإنَّ الله يغفر لهم ويرحمهم؛ وأخبر أن الذين ينادونه وهو في منزله لا يعقلون، لكونهم رفعوا أصواتهم عليه، ولكونهم لم يصبروا حتى يخرج، ولكن أزعجوه إلى الخروج.

ومن ذلك أنَّه حرم على الأمة أن يؤذوه بما هو مباح أن يعامل به بعضهم بعضاً، تمييزاً له، مثل نكاح أزواجه من بعده، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣] وأوجب على الأمة لأجله احترام أزواجه، وجعلهنَّ أمهات في التحريم والإحترام، فقال: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

وأما ما أوجبه من طاعته، والإنقياد لأمره، والتأسي بفعله. فهذا باب واسع، لكن ذاك قد يقال هو من لوازم الرسالة، وإنما الغرض هنا أن ننبه على بعض ما أوجب الله له من الحقوق الواجبة والمحرمة على الأمة، مما يزيد على لوازم الرسالة، بحيث يجوز أن يبعث الله رسولاً، ولا يوجب له هذه الحقوق. ومن كراماته ﷺ المتعلقة بالقول أنَّه تعالى فرق بين أذاه ﷺ وأذى المؤمنين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧ - ٥٨].

وقد تقدم أنَّ في هذه الآية ما يدل على أن حد من سبه ﷺ القتل، كما أن حد من سب غيره الجلد. ومن ذلك أنَّ الله رفع ذكره ﷺ فلا يذكر الله سبحانه وتعالى إلاَّ ذكر معه، ولا

يصح للأمة خطبة، ولا تشهد، حتى يشهدوا أنَّه عبده ورسوله. وأوجب ذكره ﷺ في كل خطبة، وفي الشهادتين اللتين هما أساس الإسلام، وفي الأذان الذي هو شعار الإسلام، وفي الصلاة التي هي عماد الدين. . . إلى غير ذلك من المواضع. هذا في خصائص له أخر يطول تعدادها، والله أعلم.

تكميل لكلام الإمام ابن تيمية في حكم ساب الرسول ﷺ مما قاله الإمام السبكي من الشافعية، والإمام ابن عابدين من الحنفية: أما القاضي عياض المالكي فهو الإمام المقدم عليهم في ذلك، فإنهم جميعاً اقتفوا أثره ونقلوا كلامه في الشفاء، ولذلك لم أنقله بخصوصه هنا، فمن شاء فليراجعه فيه.

وها أنا أنقل هنا خطبة الإمام تقي الدين السبي في كتابه «السيف المسلول» على من سب الرسول ﷺ لما فيها من البراعة في تمجيد الله تعالى ورسوله ﷺ ومنها يظهر حكم مذهبه ومذهب إمامه، إمامنا الشافعي، وهو قبول توبة الساب بالإسلام، وهو مذهب الإمام أبي حنيفة، فإذا أسلم لا يقتل عندهما.

وقد استغنيت بنقل الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والإعتبار، أي القياس من كتاب الإمام ابن تيمية عن نقل ذلك من غيره، لأنَّ كتابه أبسط في هذا الشأن، وإن كان الحكم في مذهبه ومذهب إمامه الإمام أحمد، كمذهب الإمام مالك، عدم قبول توبة الساب، ووجوب قتله مطلقاً.

وفيه زيادة تعظيم لجانب النبي ﷺ ولذلك أكثرت من نقل أدلته من كلام ابن تيمية دون غيره، وإن كان جميع الأئمة الأربعة على الحق، كما قاله الإمام الشعراني وغيره، وكتاب الإمام السبكي أكثر فيه من نقل عبارات الفقهاء، وأكتفي من أدلة الكتاب والسنة ببعض ما ذكره الإمام ابن تيمية. وسأتبع كلامه بنقل شيء من كلام الإمام ابن عابدين رضي الله عنهم أجمعين، ونفعنا ببركاتهم والمسلمين. قال الإمام تقي الدين السبكي، في خطبة كتابه «السيف المسلول على من سب الرسول» ﷺ.

[شيء من كلام السبكي]

بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله المنتصر لأوليائه، المنتقم من أعدائه، المعبود في أرضه وسمائه، المشهور بصفاته وأسمائه، المتفرد بعظمته وكبريائه، القاهر بجبروته وعلائه، الواحد الأحد الذي لا أول لأزليته ولا آخر لبقائه، الرب الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يشاركه أحد في قضائه، الحي الباقي وقد حكم على أحد بفنائه، العالم فلا يعزب عنه مثقال

ذرة في الأرض ولا في السماء في حالتي ظهوره وخفائه، القادر فكل الممكنات تحت طوعه مسخرة لأمره ودعائه، الحكيم الذي أتقن ما صنع فسبحانه من إله تحار العقول في بحر آلائه، أحمده على ما أسبغ من نعمائه، وأسبل من عطائه، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له شهادة أؤخرها واستودعه إياها إلى يوم لقائه، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله خاتم أنبيائه، وصفوة رسله وأمنائه، نبي الرحمة، وشفيع الأمة، وكاشف الكرب والغمة، المخرج بإذن الله إلى النور من الظلمة، والمؤيد بما بشر به الكفاية والعصمة، شرف الله قدره على سائر الخلائق، وأخذ من الأنبياء على نصرته العهود والمواثق. حبيب الله وخليله، وأمينه على وحيه ورسوله، أكرم الخلق على ربه، الموعود بالنصر لحزبه. لولاه ما خلقت شمس، ولا كملت به نفس، ولا أثر الداعي إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. الواجب تعظيمه والصلاة عليه على جميع الألسنة. ومن وجبت نبوته وآدم بين الروح والجسد.

وكان اسمه مكتوباً على العرش مع الفرد الصمد. ورفع الله ذكره فلا يذكر إلاَّ ذكر معه، وجعل شريعته ناسخة لجميع الشرائع فلو كان موسى وعيسى حيين لاقتدى به كل منهما. وتبعه المنصور بالرعب مسيرة شهر، والباقي كتابه بقاء الدهر، المخصوص بالدعوة العامة وكان النبي يبعث إلى قومه، وصاحب الشفاعة العظمى حين يذهل كل أحد عن ولده ووالده وأمه. بيده لواء الحمد وآدم ومن دونه تحت لوائه، ويعلمه الله محامد يثني عليه بها، فلا يبلغ أحد في ذلك اليوم حسن ثنائه. وأول من تنشق عنه الأرض إذا بعث الأموات، وإمام الأنبياء وخطيبهم إذا خشعت للرحمٰن الأصوات، صاحب الصدر المشروح، والإمداد بالملائكة والروح، والمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة المطهر من كل دنس وعيب، والمتخلي عن كل شك وريب. لم يزل نوراً ينتقل في الأصلاب والجباه، من لدن آدم إلى أبيه عبد الله. فنسبه أطهر الأنساب وأعظمها، وأرفعها عند الله والخلق وأكرمها، مبرأ من أنكحة الجاهلية الفاسدة والسفاح، محفوظاً بكلمات الله في عقودها الصحاح، حتى طلع بدراً منيراً تنكست الأصنام لطلعته، وأفل داعي الشرك لبعثته، واتى كمال دائرة الدهر وقطبه، وصفوة العالم ولبه من أنفس القبائل وهو أنفسها، وأرأس الشعوب وهو أرأسها، كاملاً في ذاته وصفاته، محفوظاً في حركاته وسكناته، معصوماً في خلواته وجلواته، مدعواً عند قومه بالأمين، مقبلاً بقلبه وقالبه على عبادة رب العالمين. يسلم عليه قبل مبعثه الحجر ويظلله الغمام، ويتوسم فيه كل من له علم أنَّه رسول الملك العلام، إلى أن كمل الأربعين، فأتاه الروح الأمين، بالكتاب المبين، الذي هو أعظم المعجزات التي منها تسبيح الحصا ونبع الماء وانشقاق القمر، ورد العين من العور، وتكثير القليل وإجابة الدعاء، والمعراج والإسراء، وكمال محاسنه في الخلق والخلق، ورأفته ورحمته بكافة الخلق، والصلاة بالأنبياء وسيادة ولد آدم، ورد الشمس بمشاهدة العالم،

وقلب الأعيان، وإبراء الأكمه في العيان... وغير ذلك من المعجزات، والآيات البينات، التي لا تعد، ولا تحد... ﷺ وعلى آله وأزواجه وذريته، وسلم تسليماً كثيراً ما دار فلك، وسبح ملك، وذر شارق وغرب، وغرد حمام وأطرب، وما دامت الدنيا والآخرة، وألبسه من تعظيمه حلله الفاخرة، وآتاه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وبعثه مقاماً محموداً، وأهدى إليه منا كل وقت سلاماً مديداً.

أما بعد، فإنَّه لا منة علينا لأحد بعد الله تعالى، كما لهذا النبي الكريم، ولا فضل لبشر سواه علينا كفضله العميم، إذ به هدانا الله إلى الصراط المستقيم، ووقانا من حر نار الجحيم. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] به حصلت لنا مصالح الدنيا والآخرة، وأسبغ الله علينا نعمه باطنة وظاهرة، وبصرنا بعد العمى، وهدانا بعد الضلال، وعلمنا بعد الجهل؛ وبه إن شاء الله نرجو الأمن بعد الخوف آخر لنا دعوته شفاعة لنا يوم القيامة، وسأل الله لنا ما لا تبلغه أمنيتنا من أنواع الكرامة، فكيف نقوم بشكره، أو نقوم من واجب حقه بمعشار عشره؛ فلذلك ولما له ﷺ عند الله تعالى من المرتبة العالية، أوجب علينا تعظيمه وتوقيره ونصرته ومحبته والأدب معه، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨ - ٩] وقال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٢-٣]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ومن تأمل القرآن كله وجده طافحاً بتعظيم عظيم لقدر النبي ﷺ: وإنَّ الله كما قد أوجب علينا لنفسه مع التصديق به وبوحدانيته واجبات في قلوبنا من التعظيم، والإجلال، والمهابة، والخوف، والرضا، والتوكل، والشكر... وفي ألسنتنا من الثناء، والذكر، والحمد، والقراءة... وفي جوارحنا من الصلاة وغيرها من الواجبات... كذلك أوجب لنبيه ﷺ مع التصديق به وبرسالته واجبات في قلوبنا من التوقير، والتعظيم، والمحبة... وفي ألسنتنا من الصلاة، والشهادة في الأذان، والصلاة، والخطبة... وفي جوارحنابأن نقدمه ﷺ على

أنفسنا، ونبذل مهجنا بين يديه. . . إلى غير ذلك مما أوجبه الله له ﷺ زيادة على ما يجب بتبليغه من جهة الرسالة، فإنَّ ذلك عام في كل رسول من حيث الرسالة. وهذا قدر زائد تعظيماً لخصوصه زيادة على التبليغ.

وقال ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**. وقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أنت أحب إليَّ من كل أحد إلاَّ نفسي. فقال: **«لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك»**. قال: أنت أحب إليَّ من نفسي. قال: فالآن.

وكذلك حرم سبحانه وتعالى علينا أموراً لتعظيم النبي ﷺ فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٧ - ٥٨]. فانظر كيف فرق في الجزاء بين أذى الرسول وأذى غيره من المؤمنين، وحرم أزواجه بعده. ولم يحرم أزواج غيره من المؤمنين بعده.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣]. وحرم بقوله تعالى في أول سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات:١]. التقدم بين يدي الله ورسوله، فلا يحل لأحد أن يتقدم بقوله على النبي ﷺ وحرم التخلف عنه فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وحرم نداءه من وراء الحجرات، ونسب من يفعل ذٰلك إلى عدم العقل، ولا سبيل إلى أن يستوعب هٰهنا الآيات الدالة على ذٰلك وما فيها من التصريح، والإشارة إلى علو قدر النبي ﷺ ومرتبته، ووجوب المبالغة في حفظ الأدب معه ﷺ وكذلك الآيات التي فيها ثناء الله تعالى عليه، وقسمه بحياته، ونداؤه بالرسول والنبي، ولم يناده باسمه بخلاف غيره من الأنبياء ناداهم بأسمائهم. . . إلى غير ذٰلك مما يشير إلى أنافة قدره العلي عنده، وأنَّه لا مجد يساوي مجده، فكان بتعظيمنا له وبذلنا النفوس والمهج بين يديه ﷺ وتوقيرنا إياه، ونصرتنا له عبادة واجبة علينا لامتثال أمر الله تعالى، ونفوسنا منقادة إليه لما له علينا من الإحسان، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها والمحبة بالقلب والنصرة باليد واللسان. فإذا عجزت اليد، فلا أقل من اللسان.

وهذا تصنيف سميته «السيف المسلول، على من سب الرسول ﷺ» وكان الداعي إليه أن فتيا رفعت إلينا في نصراني سب ولم يسلم، فكتبت عليها: يقتل النصراني المذكور، كما قتل النبي ﷺ كعب بن الأشرف، ويطهر الجناب الرفيع من ولوغ هذا الكلب.

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وكتب معي جماعة من الشافعية والمالكية فأنكر ذٰلك بعض الناس محتجاً بقول الرافعي وغيره من الأصحاب: إنَّ في انتقاض عهده بذٰلك خلافاً. وظن أنَّه إذا لم ينتقض عهده لا يقتل، وتعجب من استدلالي بقصة كعب بن الأشرف، وقال: هذا واقعة عين لا يستدل بها لاحتمال أنَّه قتل لغير السب، وربما زعم بعض المجادلين في ذٰلك أنَّ كعب بن الأشرف كان حربياً، وإني لأتعجب من المجادلة في ذٰلك ممن له أدنى إلمام بالسير، أو أنس بالفقه؛ وأتعجب من شافعي عجباً آخر وإمامه قد قال بما قلت، واحتج بما احتججت به من خبر كعب بن الأشرف، وكذلك الأكابر من أصحاب مذهبه، ولم يصرح أحد منهم بخلاف ذٰلك.

وقال الغزالي: إنَّ المذهب إنَّه لا تقبل توبته ولا وجه لإنكار ذٰلك إلاَّ المجادلة بالباطل، وحق عليّ وعلى غيري من أهل العلم القيام في ذٰلك، وتبيين الحق فيه؛ فإنَّ فيه نصرة للنبي ﷺ والله تعالى يقول: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ ورسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]. وليس لي قدرة على إزالة ذٰلك، والله يعلم أنَّ قلبي كاره منكر، ولكن لا يكفي الإنكار باللسان إذا أمكن غيره، فأجاهد بما أقدر عليه من اللسان والقلم، وأسأل الله تعالى عدم المؤاخذة بما تقصر يدي عنه، وأن ينجيني كما أنجى الذين ينهون عن السوء؛ إنَّه عفو غفور. انتهى كلام الإمام السبكي في خطبة كتابه المذكور.

ثم قال رحمه الله في الفصل الثاني منه الذي عقده لبيان توبة الساب: لا خلاف أنَّ توبته لا تكون بغير الإسلام، وحيث أطلقنا توبته فالمراد بها إذا أسلم. ثم قال: الأقرب أنَّ مراد الإمام الغزالي بالتوبة في قوله: «إنَّ المذهب عدم قبول توبتهم»، يعني بالتوبة غير الإسلام. والمشهور على الألسنة وعند الحكام، وما يزالون يحكمون به أن مذهب الشافعي قبول التوبة. اهـ.

[حكم ساب الرسول ﷺ]

وأما كلام الإمام ابن عابدين في حكم ساب الرسول ﷺ فقد قال رحمه الله تعالى في كتابه «تنبيه الولاة والحكام» هذا كتاب سميته «تنبيه الولاة والحكام»، على أحكام شاتم خير الأنام، أو أحد أصحابه الكرام، عليه وعليهم الصلاة والسلام.

وكان الداعي لتأليفه، ووضعه وترصيفه، أني كنت ذكرت في كتابي «العقود الدرية»، تنقيح الفتاوي الحامدية، نبذة من أحكام هذا الشقي اللعين، الذي خلع من عنقه ربقة الدين، بسبب استطالته على سيد المرسلين، وحبيب رب العالمين ﷺ ولكني على حسب ما ظهر لي من النقول والأدلة القوية، أظهرت الانقياد وتركت العصبية، وملت إلى قبول توبته وعدم قتله إن رجع إلى الإسلام، وإن كان لا يشفي صدري منه إلاّ إحراقه وقتله بالحسام. ولكن لا مجال للعقل، بعد اتضاح النقل.

قال: أولم أر من أئمتنا الحنفية من أوضح هذه المسألة حق الإيضاح، وأما غير أئمتنا فقد بسطوا فيها الكلام.

فمن المالكية الإمام القاضي عياض في أواخر كتابه «الشفا»، ثم تبعه على ذٰلك من الحنابلة الإمام شيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن تيمية ألف فيها كتاباً ضخماً سماه «الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ» وقد رأيت الآن منه نسخة قديمة عليها خطه رحمه الله تعالى ثم تبعه على ذٰلك من الشافعية خاتمة المجتهدين تقي الدين أبو الحسن علي السبكي، وألف فيها كتاباً سماه «السيف المسلول على من سب الرسول ﷺ » فتطفلت على موائد هؤلاء الكرام، وجمعت كتابي هذا من كلامهم وكلام غيرهم من الأعلام، ثم نقل عن الإمام السبكي أدلة قتله إذا لم يتب من الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

ثم نقل نقولاً كثيرة عن السبكي وغيره في قبول توبة الساب عند الشافعية والحنفية، قال السبكي: وأما الحنابلة فكلامهم قريب من كلام المالكية، والمشهور عن أحمد عدم قبول توبته وعنه رواية بقبولها، فمذهبه كمذهب مالك سواء. ثم قال الإمام ابن عابدين: فقد تحرر من ذلك بشهادة هؤلاء العدول الثقات المؤتمنين أنَّ مذهب أبي حنيفة قبول التوبة كمذهب الشافعي.

ثم نقل عن كثير من أئمة الحنفية نحو ذٰلك، وقال بعده: فهذه النقول عن أهل المذهب صريحة في أنَّ حكم الساب المذكور إذا تاب قبلت توبته في حق القتل. ثم قال: على أنَّ عبارات متون المذهب المعتبرة كلها ناطقة بذٰلك من حيث العموم، ونقل كثيراً من عباراتها.

ثم رد كلام البزازية من أنّه يقتل ولا توبة له أصلاً، وتبعها صاحب الدرر والبحر والنهر والتنوير والخير الرملي والشرنبلالي؛ وهم عمدة المتأخرين. وقد رد عليهم بنقول كثيرة، وأثبت فيها أنَّ مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه قبول توبة الساب.

ومن أراد الإطلاع على عباراتهم مبسوطة، فليراجع كتابه المذكور؛ فإنه مطبوع في دمشق الشام، ومتيسر الحصول لمن أراده.

وأما كتاب الإمام بن تيمية «الصارم المسلول»، وكتاب الإمام السبكي «السيف المسلول» فهما غير مطبوعين، وقد يسر لي الله من فضله نسخة قديمة من كل منهما، لعلها كتبت في عصر المؤلف الأول بالعارية، والثاني بالملك. والحمد لله رب العالمين، ولتأخر إطلاعي عليهما تأخر نقلي عنهما إلى هنا، ولولا ذلك لقدمتهما رحمهما الله تعالى على أني ذكرت الإمام السبكي فيما تقدم بذكر رسالته «منح المنة» في تفسير قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

وهذا هو السبب في تأخير ذكر من تقدمت وفاتهم، والأمر في ذلك سهل؛ والحمد لله رب العالمين.

ومنهم الإمام العارف بالله الأمير عبد القادر الجزائري(١) الحسني المتوفى سنة ١٣٠٠ هـ المدفون في دمشق الشام

فمن جواهره رضي الله عنه

[وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين]

قوله في كتابه «المواقف» الموقف التاسع والثمانون، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] اعلم أنَّه ليس المراد من إرساله رحمةً للعالمين، هو إرساله ﷺ من حيث ظهور جسمه الشريف الطبيعي فقط، وإن قال به جمهور المفسرين وعامتهم، فإنَّه من هذه الحيثية غير عام الرحمة لجميع العالمين، فإنَّ العالم إسم لما سوى الحق تعالى، بل المراد إرساله ﷺ من حيث حقيقته التي هي حقيقة الحقائق.

ومن حيث روحه الذي هو روح الأرواح؛ فإنَّ حقيقته ﷺ هي الرحمة التي وسعت كل شيء، وعمت هذه الرحمة حتى أسماء الحق تعالى من حيث ظهور آثارها ومقتضياتها بوجود هذه الرحمة؛ وهذه الرحمة هي أول شيء فتق ظلمة العدم، وأول صادر عن الحق تعالى بلا واسطة، وهي الوجود المفاض على أعيان المكونات. وقد ورد في الخبر: «**أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر**».

ولهذه الحقيقة المحمدية أسماء كثيرة باعتبار كثرة وجوهها واعتباراتها، وأذكر طرفاً منها ليكون أنموذجاً لما لم أذكره، فإنَّ كثيراً من الناس الذين يطالعون كتب القوم رضوان الله عليهم حين يرون هذه الأسماء الكثيرة يظنون أنها المسميات متعددة، وليس الأمر كذلك، وإنما هي مثل: السيف والصارم والقضيب والهندواني والأبيض والصقيل والمحدد ونحو ذلك لمسمى واحد... منها «التعين الأول» للحق تعالى.

ولذا قيل في حد الحقيقة المحمدية: إنَّها الذات مع التعين الأول، ومنها «القلم الأعلى»، ومنها «أمر الله»، ومنها «العقل الأول»، ومنها «سدرة المنتهى»، ومنها «الحد

---

(١) هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى الحسني الجزائري أمير مجاهد، من العلماء الشعراء البسلاء ولد في القيطنة (وهران) عام ١٢٢٢ هـ. وتوفي في دمشق عام ١٣٠٠ هـ.

الفاصل»، ومنها «مرتبة صورة الحق والإنسان الكامل بلا تعديد»، ومنها «القلب»، ومنها «أم الكتاب»، ومنها «الكتاب المسطور»، ومنها «روح القس»، ومنها «الروح الأعظم»، ومنها «التجلي الثاني»، ومنها «حقيقة الحقائق»، ومنها «العماء»، ومنها «الروح الكلي»، ومنها «الإنسان الكامل»، ومنها «الإمام المبين»، ومنها «العرش الذي استوى عليه الرحمٰن»، ومنها «مرآة الحق»، ومنها «المادة الأولى»، ومنها «المعلم الأول»، ومنها «نفس الرحمٰن»، بفتح الفاء، ومنها «الفيض الأول»، ومنها «الدرة البيضاء»، ومنها «مرآة الحضرتين»، ومنها «البرزخ الجامع»، ومنها «واسطة الفيض والمدد»، ومنها «حضرة الجمع»، ومنها «الوصل»، ومنها «مجمع البحرين»، ومنها «مرآة الكون»، ومنها «مركز الدائرة»، ومنها «الوجود الساري»، ومنها «نور الأنوار»، ومنها «الظل الأول»، ومنها «الحياة السارية في كل موجود»، ومنها «حضرة الأسماء والصفات»، ومنها «الحق المخلوق به كل شيء». . . إلى غير ذٰلك مما يطول ذكره.

ثم فسر الأمير عبد القادر هذه الأسماء على قاعدة الصوفية، وها أنا أذكر منه هنا ما قدرت على فهم بعضه، قال رضي الله عنه أما وجه تسميته ﷺ بسدرة المنتهى، فلأنه هو البرزخية الكبرى التي ينتهي إليها سير الكمل وأعمالهم وعلومهم، وهي نهاية الراتب الأسمائية. وأما وجه تسميته ﷺ بالقلب، فلمعان كثيرة منها: أنَّه لباب العالم وزبدة الموجودات أعاليها وأدانيها، وقلب الشيء خلاصته؛ ومنها: أنه سريع التقلب كما قال كلمح بالبصر ومنها أنه قلب دائرة الوجود ونقطتها.

وأما وجه تسميته ﷺ بالعقل الأول، فلأنه أول من عقل عن الحق تعالى أمره بقوله: كن أوجده تعالى لا في مادة ولا مدة عالماً بذاته، علمه ذاته لا صفة له، فهو تفصيل علم الإجمال الإلٰهي. وقد ورد في خبر: «**أول ما خلق الله العقل**».

وأما وجه تسميته ﷺ بأم الكتاب، فلأن الوجود مندرج فيها اندراج الحروف في الدواة، ولا تسمى الدواة باسم شيء من أسماء الحروف، وكذلك أم الكتاب لا يطلق عليها اسم الوجود ولا العدم، فلا يقال إنها حق ولا خلق، ولا عين ولا غير، لأنَّها غير محصورة حتى يحكم عليها بحكم، ولكنها ماهية لا تنحصر بعبارة إلاَّ ولها ضد تلك العبارة من كل وجه، وهي محل الأشياء، ومصدر الوجود.

فالكتاب هو الوجود المطلق، وهذه الحقيقة كالذي تولد الكتاب منها، فليس الكتاب إلاَّ أحد وجهي هذه الحقيقة، إذ الوجود أحد وجهيها، والعدم هو الوجه الثاني؛ فلهذا ما قبلت العبارة بشيء، لأنه ما فيها وجه إلا وهي ضده.

وأما وجه تسميته ﷺ بروح القدس، فلأنه الروح القدس عن النقائص الكونية، فهو روح لا كالأرواح. وأما وجه تسميته ﷺ بالروح الأعظم، فلأنه روح الأرواح، إذ الأرواح الجزئية لكل صورة جسمية أو روحية أو عقلية أو خيالية أو مثالية، إنما هي فائضة منه ﷺ.

وأما وجه تسميته ﷺ بحقيقة الحقائق، فلأن كل حقيقة إلٰهية أو كونية إنما تحققت به، إذ هذه الحقيقة لا تتصف بالحقية ولا بالخلقية، فهي ذات محض لا تضاف إلى مرتبة، فلا تقتضي لعدم الإضافة وصفاً ولا اسماً، ولذا قال إمامنا محيي الدين: المعلومات ثلاثة: الحق تعالى والعالم ومعلوم ثالث، لا يوصف بالوجود ولا بالعدم، ولا بالحق ولا بالخلق، ولا بالحدوث ولا بالقدم، ولا بالوجوب ولا بالإمكان. فإذا وصف به الحق فهو حق، وإذا وصف به الخلق فهو خلق، وإذا وصف به القديم فهو قديم، وإذا وصف به الحادث فهو حادث وهكذا. . . وأما وجه تسميته ﷺ بالنور، فلأنّه ورد: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر». والنور نوران، نور الحق وهو الغيب المطلق القديم، ونور العالم المحدث وهو نور محمد ﷺ الذي خلقه الله من نوره، وخلق كل شيء منه، فهو كل شيء من حيث الماهية، وكل شيء غيره من حيث الصورة. كما أنّه نور الحق من حيث الماهية، وغير نور الحق من حيث الصورة. ورد في بعض الأخبار: «أنا من ربي والمؤمنون مني»[1].

وإنما خص المؤمنين للتشريف، وإلاَّ فكل الخلق منه مؤمنهم وكافرهم، ولهذا كان الكمل يشهدونه في كل شيء على الدوام، حتى قال المرسي رضي الله عنه: لو احتجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين. فالمراد بعدم الإحتجاب دوام شهود سريان حقيقته في العالم كله لا شخصه الشريف.

قال الأمير عبد القادر رضي الله عنه: وإني أيام مجاورتي بالمدينة المشرفة كنت ليلة في صلاة الوتر قرب الحجرة الشريفة، فطرأ عليَّ حال، فسالت دموعي، واشتعلت نار محبة رؤيته ﷺ في قلبي، فقال لي في الحين: «ألست تراني في كل شيء؟»[2] فحمدت الله، ولا يفهم مما ذكرناه حلول وتجزئة. ولا جزئية، فإنَّ معنى إيقاد سراج من نور سراج آخر أنَّ الأول أثر في الثاني، فظهر الثاني على صورة الأول، بل الثاني عين الأول ظهر في فتيلة ثانية من غير انتقال عن الأول وهذا غاية ما قدر عليه أ ل الوجدان في التفهيم، فافهم السر واحذر الغلط. وإذا عرفت، فاحمد الله، وإلاَّ آمن به على مراد أهله وذوقهم، فإنهم الفرقة الناجية.

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١ : ٣١٠).
(٢) رواه الفتني في تذكرة الموضوعات (٨٦).

وأما وجه تسميته ﷺ بمرآة الكون، فلأن الأكوان وأحكامها وأوصافها لم تظهر إلاَّ فيه، وهو مختف بظهورها كما تختفي المرآة بظهور الصور فيها.

وأما وجه تسميته ﷺ بمجمع البحرين، فلأنَّه مجمع بحري الوجوب والإمكان، أو باعتبار اجتماع الأسماء الإلٰهية والحقائق الكونية فيه.

وأما وجه تسميته ﷺ بالمادة الأولى أي هيولي الكل، فلأنَّه أول مخلوق تعين من الحضرة الغيبية، وتفصل منه جميع ما في العالم الكبير والصغير من جليل وحقير، فهو هيولي العالم، أي المادة المتقدمة على الموجودات التي هي موجودة في كل الموجودات، ولا تخلو عنها صورة في العالم، كما تقول الفلاسفة في الهيولي، وهي الجوهر الذي تتركب منه الأجسام عندهم، لأنَّ الله خلق الأشياء.

منها ما خلقه من غير سبب متقدم عليه في الإيجاد وليس إلاَّ المادة الأولى التي ظهرت عن حضرة اللاتعين وجعلها سبباً لجميع المخلوقات.

وأما وجه تسميته ﷺ بالعرش الذي استوى عليه الرحمٰن؛ فلأنَّه مظهر لجميع الأسماء من جلال وجمال، فاستوى عليه كما يعلم لا كما نعلم نحن، ولأنَّ العرش محيط بالعالم في قول، أو هو جملة العالم في قول؛ والمخلوق الأول وهو الحقيقة المحمدية يشبه العرش من وجه الإحاطة. وقد ورد في خبر **«أول ما خلق الله العرش»**.

وأما وجه تسميته ﷺ بمركز الدائرة فالمراد بالدائرة الأكوان كلها، والمركز هو القطب الذي تدور عليه، كقطب الرحى الذي هو ماسك لها، ولولا استقامته ما استقامت على وزن واحد، فلأنَّهم نظروا إلى كل خط يخرج من النقطة إلى المحيط، فالنقطة هي محط فخذ البيكار الأول، والمحيط هو محط فخذ البيكار الثاني، وله شعبتان لحمل المداد الذي تكون عنه صورة الدائرة، لكنه لا يدور إلاَّ على الفخذ الأول الراكز على أمر واحد من غير استدارة ولا مداد فيه، لكنه يمد ما فيه المداد بالاستقامة على حركته الدورية، فلهذا يخرج كل خط مساوياً لصاحبه الذي قبله والذي بعده، لأنَّ الدائرة كلها نقط وخطوط متصل بعضها ببعض.

فنقطة المركز تقابل كل نقطة من نقط الدائرة بكلها. وكل نقطة من نقط الدائرة هي عين نقطة المركز باعتبار انفرادها ومقابلتها إياها، فهي محيطة بكل نقطة من هذا الوجه، وليست هي نقطة من نقط الدائرة باعتبار استدارتها واتصالها بما قبلها وبما بعدها، فهي من هذا الوجه مغايرة لكل نقطة؛ فاعتبر ذلك في الحق تعالى، فالدائرة دائرة الأكوان واتصال بعضها ببعض،

والمركز إشارة إلى سكون الأمر، وهو الحقيقة المحمدية تحت القضاء والقدر، وتنفيذها ما أراد الله بعباده.

وأما وجه تسميته ﷺ بالوصل، فلأنّه يصل الأشياء بعضها ببعض حتى تتحد، ولأنّه الواصل بين البطون والظهور.

وأما وجه تسميته ﷺ بالفيض الأول، فلأنّ الحق تعالى أبرزه من حضرته قبل كل شيء وأفاضه علي عين كل شيء، فظهر كل شيء ممتداً منه بسبب فيضانه عليه. وحملهم على هذه التسمية أنّهم رأوا الأجسام بيوتاً مظلمة؛ فإذا غشيها نور الحقيقة المحمدية أشرقت واستنارت بالأنوار المفاضة من هذه الحضرة التي هي من حضرات الحق تعالى.

وأما وجه تسميته ﷺ بالدرة البيضاء؛ فلأنّه محل تجلي الحقيقة الإلٰهية والتجلي في الشيء الصافي الذي ما خالطه شيء من الأدناس أقوى وأوفى ما يكون، وقد ورد في خبر: «أول ما خلق الله درة بيضاء». والحديث بطوله.

وأما وجه تسميته ﷺ بمرآة الحضرتين، فلأنّه محل ظهور حضرة الوجوب بظهور الأسماء والصفات جميعها فيه، ومحل ظهور حضرة الإمكان بظهور الممكنات كلها صورها وأوصافها وأحكامها فيه. وأما وجه تسميته ﷺ بالعلم الأول، فباعتبار أنّه أول موجود ظهر من الغيب باعتبار نشأته الباطنة، وهو الروح الكل، وأول معلم ظهر في الإرشاد باعتبار نشأته الظاهرة، فعلم الملائكة الأسماء كلها؛ وما علم الأسماء إلاّ من نفسه بأن كشف الحق له عن ذاته، فوجدها مجموع الأسماء. فالحقيقة المحمدية مجموع صورة آدم الظاهرة والباطنة.

وإنـــي وإن كنـــت ابـــن آدم صـــورة   فلـــي فيـــه معنـــى شـــاهـــد بـــأبـــوتـــي

وأما وجه تسميته ﷺ بالإمام المبين، فلأنّه فصل الموجودات وبين أعيانها بظهوره فيها، كما بين الحبر الحروف والكلمات.

وأما وجه تسميته ﷺ بالروح الكل، فلأنّه مشتق من الريح وحكمة المناسبة أنّ الريح ليست له صورة يعرف بها، إلاّ من حيث مروره على الأشياء فيحركها، وكذلك الروح يهب من مطلع الأحدية إلى مرتبة الأسماء والصفات، فيحمل منها العلوم والأسرار، وينزل إلى عالم العناصر والصور والأعيان المفصلة، فيحركها على حسب قوابلها واستعداداتها، وينفذ الروح فيها ذلك على حسب مراد الله تعالى، إذ هو أمر الله القائم على جميع الخلق كلمح البصر، والروح بتردد دائماً بين شعاعه، أي أثر نوره الصادر عنه كصدور الشعاع الصادر من قرص الشمس، والمراد بالشعاع الصادر عن الروح العقل والنفس وسائر القوى الروحانية... وبين ضيائه أي نوره الكلي الذي هو الأصل كقرص الشمس، والمراد به هنا وجود الحق المحيط

بالروح الكل، فلذلك نقول: الروح له وجهان؛ وجه إلى أصله وهو الحق، ووجه إلى فرعه وهو الخلق؛ فيأخذ الأمر من الحق ويكتبه بقلم العقل في لوح النفس، فتقرؤه الأعضاء أقوالاً وأعمالاً.

وإنما قيل فيه: كلي. لأنّه قائم على جميع الصور ومحيط بها، فأهل الله ينظرون بعلمهم فيجدون العالم أرواحاً مقدسة وأسراراً مستترة. وأما وجه تسميته ﷺ بالوجود الساري، فلأنّه لولا سريان الوجود الحق في الموجودات بالصورة التي هي منه، وهي الحقيقة المحمدية ما كان للعالم ظهور، ولا صح وجود لموجود لبعد المناسبة وعدم الإرتباط، فما صح نسبة الوجود للموجودات إلاّ بواسطة هذه الحقيقة. وأما وجه تسميته ﷺ بالإنسان الكامل، فلأنَّ كل إنسان كامل من حيث صورته الظاهرة والباطنة مظهر له وللوازمه.

وأما وجه تسميته ﷺ بالخزانة الجامعة، فلأنّه كناية عن علم الله تعالى بأسمائه وبحقائق العالم، فكل ما خرج من الغيب فمحله هذه الخزانة الجامعة.

وأما وجه تسميته ﷺ بالصورة الرحمانية، فلأنّها الصورة الظاهرة لذاتها، الحاصلة من الاجتماع الأول الأسمائي؛ فهي صورة الرحمن، لأنَّ مدلوله من له الرحمة العامة ولا شيء كذلك إلاّ هذه الصورة؛ فالرحمن اسم لهذه الصورة الوجودية من حيث ظهوره لنفسه، كما أنَّ الله من حيث أنّه مشتق، لا من حيث أنّه مرتجل، اسم لمرتبة الألوهية الجامعة للحقائق.

ويكفي هذا القدر من ذكر أسماء هذه الحقيقة المحمدية لمن فهم، فإنّها بحر لا ساحل له، ولهذا أورد في الخبر عنه ﷺ: «لا يعلم حقيقتي غير ربي».

وقال العارف الكبير: أعجز الخلائق، فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، يعني العلم بحقيقته ﷺ.

ومن جواهر الأمير عبد القادر أيضاً

[قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ. . .﴾]

قوله الموقف المائة قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وذكر هنا كلاماً دقيقاً على اصطلاح الصوفية رضي الله عنهم.

ثم قال: إنَّ الحقيقة المحمدية ظهرت بالتجلي الذاتي موصوفة بجميع صفات الحق تعالى، ونسبة الإلهية والكونية، وفوض إليها تدبير كل شيء يوجد بعدها؛ فهي المتصرفة في معلوماته تعالى حسب إرادته ومشيئته تعالى فتستمد من العلم وتمد الخلق، فما صدر عن الله

تعالى بغير واسطة إلاَّ هذه الحقيقة، وكل ما عداها حتى العقل الأول إنَّما كان بواسطتها، وإن كان الحق تعالى له الخلق والأمر، فهي الظاهرة في الأشياء، وهي السارية في الوجود.

ومن مشاهدة سريانها في الموجودات قال: من قال يعني المرسي لو احتجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين.

ومن جواهر الأمير عبد القادر أيضاً

[قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ. . .﴾]

قوله الموقف الواحد بعد المائة، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] أخبر تعالى في هذه الآية أنَّه أسرى بعبده محمد ﷺ بجسده وروحه ليريه من آيات الآفاق بعد أن أراه آياته في نفسه، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] حتى يتبين لهم أنَّ ما رأوه هو الحق لا غيره، وهذه حالة المرادين المجذوبين المصطفين يريهم آيات الأنفس قبل آيات الآفاق خلاف المريدين.

ثم أخبر تعالى أنَّه محمداً ﷺ هو السميع البصير. فعيل بمعنى مفعول، أي كل ما أبصره وسمعه محمد ﷺ في إسرائه هو محمد من حيث حقيقته، فإنَّها هيولى العالم وحقيقة الحقائق، وهو الإنسان الأزلي، وهو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم كما إنَّ الحق تعالى له هذه الصفات، فإنَّ الله تعالى لما أوجد حقيقته ﷺ قال له: أعطيتك أسمائي وصفاتي، فمن رآك رآني، ومن علمك علمني، ومن جهلك جهلني، غاية من دونك أن يصلوا إلى معرفة نفوسهم منك، وغاية معرفتهم بك العلم بوجودك لا بكيفيتك؛ وكذلك أنت معي لا تعرفني إلاَّ من حيث الوجود، فحقيقة محمد ﷺ هي المشهودة لأهل الشهود، وهي التي يتغزلون بها ويتلذذون بحديثها في أسمارهم، وهي المعنية عندهم بليلى وسلمى، وهي المكنى عنها بالخمر والشرب والكأس والنار والنور والشمس والبرق ونسيم الصبا والمنازل والرسوم والربا. . . وهي نهاية سير السائرين وغاية مطلوب العارفين.

قال رضي الله عنه: وبعدما كتبت هذا الموقف، خطر في بالي أنَّه إذا وقف عليه بعض من لم يكشف له سر الحقيقة المحمدية، فربما يقول ما قال الحافظ ابن تيمية رحمه الله تعالى لما وقف على شفا عياض: «لقد تغالى هذا المغيربي».

ثم نمت فقيل لي في المنام: زد، وهي نار موسى، وعصا موسى، ونفس عيسى الذي

كان يحيي به الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص. فلما استيقظت زدتها. إنتهى كلام الأمير عبد القادر رضي الله عنه.

يقول جامعه الفقير، يوسف النبهاني عفا الله عنه: قد ذكرت في كتابي «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق» ﷺ من ردود أئمة العلماء الهداة المهديين من أعيان المذاهب الأربعة، على الإمام ابن تيمية في زلاته في بعض شؤون سيد الخلق، وحبيب الحق، سيدنا محمد ﷺ ما لا يحتاج معه إلى الزيادة في ذلك. وقد طبع وانتشر في أكثر بلاد الإسلام، وحاز والحمد لله عند جميع المؤمنين المحبين لسيد المرسلين ﷺ القبول التام، ولم أكن وقت تأليفه اطلعت على هذه العبارة الشنيعة التي نقلها الأمير عبد القادر عن ابن تيمية، وهي قوله حين ما وقف على كتاب الشفا للقاضي عياض: «لقد تغالى هذا المغيربي» ووالله إنَّه قد أخطأ بهذه العبارة أفحش الخطأ، فإن مثل القاضي عياض لا يصغر، يقال عنه «مغيربي» ولا سيما بسبب كتابه «الشفا» الذي لم يؤلف في الإسلام في بابه مثله؛ وقد اتفقت الأمة على أنَّه أحد أكابر أئمة الإسلام، وإنَّه من أجل أو أجل من خدم بكتبه النبي ﷺ.

وهذا كتابه «الشفا» قد أجمعت الأمة المحمدية على قبوله والإقبال عليه من العلماء والعوام من عصره إلى الآن، ويوجد منه ألوف كثيرة مكتوبة بأحسن الخطوط على أحسن الورق، مزينة بالذهب هي وجلودها، حتى صار اقتناؤه في كل بيت من بيوت المسلمين من جملة شعائر الدين. ولم نجد كتاباً يوازيه بهذه المزية الكبرى والفضيلة العظمى، بعد كتاب الله تعالى، فهو من هذه الجهة كصحيح البخاري الذي امتاز على غيره بهذا المعنى. وما ذاك إلاَّ لإخلاص مؤلفه الإمام الهمام، وكونه مختصاً بشؤون النبي ﷺ.

وأفظع من ذلك زعمه أنَّه تغالى فيه بمدح سيد الوجود ﷺ مع أنَّه لم يبلغ ما يجب للمصطفى ﷺ من التعظيم والتبجيل، وبيان حقيقة ما هو متصف به من القرب عند الله تعالى ومن أطلع على النقول التي نقلتها في كتابي هذا «جواهر البحار» عن أئمة العلماء من الفقهاء والحدثين والأولياء المقربين... الذين شاهدوا علو منزلته ﷺ بعين اليقين، يعلم أنَّ جميع ما ذكره القاضي عياض في «الشفا» لم يبلغ حقيقة علو قدر المصطفى ﷺ، وقد قدمت قريباً عن الإمام ابن تيمية النقول النافعة؛ ذات الأنوار الساطعة، من كتابه «الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ» فأسأل الله أن يرحمه بسبب تلك الحسنات، ويغفر له هذه السيئات، لحسن نيته والأعمال بالنيات. فإنَّه كان يدعي الإجتهاد ويقول ما يراه صواباً باجتهاده، ولا يستحيي من إظهاره وإن خالف جميع المسلمين. وكان متعلقاً بسيد المرسلين ﷺ فضلاً عن أكابر أئمة الدين رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

ومن جواهر الأمير عبد القادر أيضاً

[قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي...﴾]

قوله رضي الله عنه الموقف الثاني بعد المائة: قال تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢]، ﴿وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل:٨١]، اعلم أنَّه لا تناقض بين هاتين الآيتين في نفس الأمر. والحقيقة، وإنما يظهر التناقض بينهما ببادئ الرأي عند من لا يعرف مرتبة محمد ﷺ ومن عرف كيف هو ﷺ من ربه استراح، وما اعتاص عليه مثل هذه.

وتوضيحها: أنَّه ﷺ كان حريصاً على هداية عباد الله تعالى وإيمانهم وإنقيادهم لطريق نجاتهم، كما أخبرنا تعالى عنه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة:١٢٨] أي عنتم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة:١٢٨] وقال له مشفقاً عليه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ [الشعراء:٣] أي قاتلها ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦] وهو ﷺ في هذا الحال متخلق بأخلاق ربه، متحقق بها، فإنَّه تعالى يحب الإيمان والهداية لجميع عباده، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر:٧] أي لا يحبه لهم.

وإنما يحب لهم الإيمان والهداية ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر:٧] فلا يفهم أنَّه ﷺ أحب غير ما أحب الله تعالى، أو أراد غير ما أراده؛ فإنَّ المحبة غير الإرادة. وإذا كان الولي الذي هو قطرة من بحره الذي لا نهاية له يصل عند نهاية كماله إلى أن تتحد إرادته بإرادة الله تعالى، فلا يريد غير ما تعلقت به الإرادة القديمة، وإن كره ذلك شرعاً أو طبعاً، أو أحب ضده شرعاً أو طبعاً.

ولهذا يقول للشيء: بسم الله، بمعنى: كن فيكون، وما ذلك إلا لاتحاد إرادته بإرادة الحق تعالى. وقالوا: حقيقة الكامل هو الذي لا يمتنع عن قدرته ممكن، كما لا يمتنع عن قدرة خالقه، فإنَّ خزائن الأمور في حكمه ومفاتيحها بيده، ينزل بقدر ما يشاء، فكيف به ﷺ الذي هو البرزخ بين الحق والخلق، له وجه إلى الحق ووجه إلى الخلق؟ بل هو الوجه الواحد، فإنَّه لا ينقسم؛ وهو الحق المخلوق به فهو على بصيرة من ربه، فيما يجب أو يريد؛ فهو المنفذ لمراده تعالى في عباده من ضلال وهدى، وكفر وإيمان، من حيث حقيقته. فهو مظهر العلم القديم والإرادة الأزلية، فلا إرادة له إلاَّ إرادة الحق تعالى. وإرادته تعالى تابعة لعلمه، فلا يريد إلاَّ ما علم. والعلم لا يتبدل ولا يتغير، إذ لو جاز عليه ذلك ما كان علماً. وانقلاب الحقائق محال، فمعلومات الحق تعالى هي صور أسمائه، ومحال تغير الأسماء، فإن ما ثبت للذات من التنزيه هو ثابت للأسماء.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص:٥٦] هو إثبات نفي به ما عسى أن يتوهم ن وقوع شيء بغير إرادته تعالى وقدرته، وقد قال ذلك بعض الفرق الضالة، ونقول حن: لا يريد رسول الله ﷺ إلاَّ ما أراد الله تعالى، ولا يحب إلاَّ ما أحبه الله تعالى، وهو ـاسطة بين الحق والخلق، ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل لموسوط، فهو مظهر مرتبة الصفات التي لها الفعل والتأثير، وقوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:١١٧] أي هو تعالى أعلم العالمين من رسول وملك وولي بالمهتدين، ي الذين لهم استعداد الهداية وطلبها من حيث حقائقهم، ولهم قبولها، إذ الحقائق لعلمية بمثابة الشخوص والأعيان الظاهرة ظلالها، وما كان في الشاخص من عوج أو ستقامة أو طول أو قصر أو رقة أو غلظ مثلاً... يظهر في ظله، ولا بد فغيره تعالى إذا طلعه الله تعالى على الاستعدادات، وهي الأغيان الثابتة في العلم، فهذا الغير كان ما كان ما علمها إلاَّ من علمه تعالى، وهو تعالى علمها من حيث لا تعين لها لا في العلم ولا في العين، ولكن لها صلاحية التعين في العلم والعين. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] صراط الله، وهو صراط النجاة.

ففي الآية إثبات لما قلنا من نيابته ﷺ في الهداية وغيرها وخلافته الكبرى، وإنَّه الهادي من يشاء بهداية الله تعالى، إذ حصول الهداية لكل مهتد.

إما بواسطة العقول أو واسطة الرسل عليهم الصلاة والسلام وكلاهما بواسطته ﷺ فإنَّه النور الأصلي الذي منه كل نور وحقيقة كل حقيقة.

ومن جواهر الأمير عبد القادر أيضاً

[قوله: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ...﴾]

قوله رضي الله عنه في الموقف الواحد والستين بعد المائة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:٣٢] المشعر الحرام محمد ﷺ إذ كل مأمور بتعظيمه من قبل الحق تعالى فهو مشعر، كما قال: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الحج:٣٢] الآية. ولأنَّه ﷺ من حيث حقيقته محل الشعور والمعرفة، فليس لولي ولا نبي يأتي بعده ﷺ كعيسى عليه السلام أن يتعدى شرع محمد ﷺ أو يبدل أو يغير شيئاً منه.

فغاية الولي الكامل العظيم المنزلة في منازل القرب والولاية أن يعرفه الحق تعالى ما

جهل الناس من شرع محمد ﷺ فيخبره بأنَّ هذا الحكم من شرع محمد ﷺ وغلط فيه النقلة، فلم يعملوا به، وهذا الحكم ليس من شرع محمد ﷺ وغلط فيه النقلة فأدخلوه فيه.

وليس غير هذا، فسلسلة الشرع المحمدي لا تنفك عن رقبة سالك، ولا واصل، ولا عالم بالله، ولا جاهل... فليحذر المؤمن المشفق على دينه من الزنادقة الملحدة، الذين يقولون إنَّهم وصلوا إلى عين الحقيقة، واستغنوا عن محمد ﷺ أو عن العمل بشرعه الحرام على كل مخلوق الوصول إلى معرفة حقيقته كما هي، فلم تعلم ولن تعلم أبداً ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨] أي اذكروا محمداً ﷺ بتعظيم وتوقير، واعرفوا له قدر وساطته لأجل هدايتكم إلى الله تعالى. وإلى معرفته، وإرشادكم إلى الصراط المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٥٢ - ٥٣] فهو ﷺ الممد لكل نبي وولي من لدن خلق العالم إلى غير نهاية، عرف ذلك من عرفه وجهله من جهله، فإذا قال الولي: قال الحق تعالى كذا وكذا، فليس ذلك إلاَّ بواسطة روحانيته ﷺ والأكابر لا يجهلون ذلك.

ومن جواهر الأمير عبد القادر أيضاً

[قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾]

قوله رضي الله عنه الموقف الثاني بعد المائتين: قال تعالى في تعديد صفات السيد الكامل ﷺ ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٦] اعلم أنَّ الإنارة لازمة للسراج، وكما يصح أن يكون منيراً صفة كاشفة يصح أن يكون بمعنى جعل الغير منيراً، فإنَّه ورد متعدياً ولازماً، فهو ﷺ السراج المنير لكل سراج، أي يجعله سراجاً منيراً، وكما أنَّ السراج المحسوس إذا أسرجت منه سرجاً كثيرة، فلا شك أنَّ ذلك السراج الواحد كان متضمناً لتلك السرج الكثيرة كلها، فكانت فيه بالقوة ثم خرجت إلى الحس وانفصلت عنه في الوهم، فهي هو في الحقيقة والعلم، وهي غيره في الوهم والحكم، فكذا الحقيقة المحمدية هي المنيرة لكل سراج منير حساً ومعنى من نبي وملك وولي وشمس وقمر ونجم... فإنَّها المظهر الأول والحقيقة الكلية الجامعة، والسرج المنيرة كلها فيها بالقوة، وتظهر بالفعل آناً بعد آن، أعني تظهر هي متعينة بتعين خاص، متميزة بتميز خاص. فالسرج المنيرة غيرها بحسب التعين والتميز الإعتبار بين، وهي عينها بحسب الحقيقة والعين كالرجل الواحد يبرز في الملابس المتعددة المختلفة، فهو ﷺ هو من حيث الحقيقة في كل لبسة، وهو غيره بحسب اختلاف الملابس وتعددها.

ومن جواهر الأمير عبد القادر أيضاً

[قوله: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا . . . ﴾]

قوله الموقف الخامس بعد المائتين قال تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾ [الفتح:٢] هذا الفتح فتح الولاية لا فتح الرسالة، فإنَّ فتح الرسالة متعلق بالأوامر والنواهي الوضيعة المتعلقة بمصالح الخلق، والنظر إلى ما ينفعهم في معادهم ومعاشهم، بحسب أزمانهم وأحوالهم وارتباط الأسباب بعضها ببعض، وترتب الأشياء على شرائعها، فهو خدمة التجلي بضده، ومعارضته بنقيضه، والنظر إلى الأمر الشرعي دون الإرادي.

وفتح الولاية ليس كذلك، فهو فتح مطلق لا تعلق له إلاَّ بحقائق الأشياء ومباديها ونهاياتها ولا تعلق له فيما بين ذلك، وليس فيه أسباب ولا شروط ولا موانع ولا أوضاع شرعيه ولا حكمية. . . بل هو سكون تحت الأمر الإرادي، ومساعدة التجليات إلى أن تنقضي دولها لا معارضة ولا منازعة ولا مناقضة.

وهذا دون النبوة والرسالة والوراثة الكاملة التي هي مقام الدعوة إلى الله تعالى ليغفر لك، ليستر عنك لك من أجلك الله ما تقدم قبل هذا الفتح عنه وما تأخر من ذنبك، أي ذنب أمتك. وإنما نسبت ذنوب أمته ﷺ لأنَّ حقيقة كل رسول هي مجموع حقائق أمته، فهو الكل وهم أشخاص ذلك الكل، فكيف به ﷺ الذي هو كل هذا الكل، وعنصر العناصر، والجنس الأعلى، وجوهر الجواهر، وحقيقة الحقائق، وروح العالم كله، ومحركه. . .

وقد ورد: «إذا دخلت الشوكة في رجل أحدكم أجد ألمها». ويتم نعمته عليك بهذا الفتح المبين والكشف اليقين، فتقر عينك وتطمئن نفسك، إذ كان ﷺ كثر الإهتمام بأمته أمة الدعوة، فضلاً عن أمة الإجابة. ولذا قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء:٣] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر:٨]. وهذا في حق أمة الدعوة. وقال في حق أمة الإجابة: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة:١٢٨]. فأراحه الله بهذا الفتح المبين، وأعلمه أنَّ مآل من أذنب منهم المغفرة والوصول إلى السعادة المطلوبة والغاية المرغوبة، وإن حصل لبعضهم تخليص وتهذيب، فهو غير قادح في المغفرة لهم بالنسبة لما يحصل لغيرهم بتلك المعاصي نفسها، ويصح أن يكون هذا الفتح أعم وأوسع بأن يكون المراد إطلاع الحق تعالى رسوله ﷺ على عموم الرحمة وشمولها لجميع بني آدم بعد نفوذ الغضب الإلهي فيهم، فإنَّ بني آدم كلهم أمته ﷺ والرسل كلهم نوابه وخلفاؤه من أول رسول إلى آخر رسول؛ ولهذا قال ﷺ فيما خرجه الحاكم والبيهقي: «إنَّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». يعني

الشرائع، فهو ﷺ الآتي بها أولاً بمظاهر روحانيته وهم الرسل، وهو المتمم لها آخر بظهوره بصورته العنصرية ﷺ فإنه ﷺ كما روى أبو نعيم في الحلية: «**كان نبياً وآدم بين الماء والطين**».

تتمة: أذكر فيها بعض المواقف التي تدل على علو درجة الأمير عبد القادر في الولاية، لأنّه من المتأخرين، وقد أدركته ولم أجتمع به رضي الله عنه، وإنّما أذكر هذا هنا، لأنّه لم يشتهر في الولاية عند كافة الناس اشتهار كثير ممن ذكرتهم في هذا الكتاب، لتأخره في الزمان؛ ولكونه كان من أكابر أمراء الدنيا أيضاً، فلم يعرف فضله في الولاية، وعلو منزلته فيها كثير من الناس، الذين كانوا يعرفونه أيضاً، وإن شهدوا له بأنّه كان من أكابر العلماء الأتقياء الأغنياء، وكان مع كثرة ثروته فريد عصره في السخاء، وكان يعيش في نعمته كثير من العلماء والعائلات، التي جعل لها مرتبات يقبضونها في كل شهر من المغاربة أرحامه وغيرهم، ومن أهل الشام من تلامذته وغيرهم، فضلاً عن عطاياه وجوائزه للشعراء والمحتاجين من أهل العلم وغيرهم.

وها أنا أذكر موقفين من كتابه المواقف، يظهر منهما علو قدره في الولاية، وأنّه كان من أكابر العارفين رضي الله عنه ونفعنا ببركاته. قال رضي الله عنه في الموقف الثالث والثمانين ما نصه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:٩٣] هذه الآية الكريمة ألقيت عليّ بالإلقاء الغيبيّ مراراً عديدة لا أحصيها.

ولا يخفى ما قاله فيها عامة أهل التفسير، ومما ألقي عليَّ فيها أنَّ المراد بالنعمة هنا نعمة العلم والمعرفة بالله تعالى والعلم بما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام من المعاملات والأمور المغيبات.

ولا شك أنَّ هذه النعمة أعظم النعم، وإطلاق النعمة على غيرها مجاز بالنسبة إليها. والمراد بالتحدث بها إفشاؤها وبثها لمستحقيها المستعدين لقبولها، إذ ما كل علم يصلح لكل الناس، ولا كل الناس يصلح لكل علم، بل لكل علم أهل لهم استعداد لقبوله وهمة، والتفات إلى تحصيله؛ أو يكون المراد إظهار النعمة بما هو أعم من القول والفعل، كما في الخبر: «**إنَّ الله إذا أنعم على عبدٍ نعمة أحبَّ أن يرى أثر نعمته عليه**».

فإذا كانت النعمة مما يظهر بالفعل أظهرها بالفعل، وإذا كانت مما يظهر بالقول أظهرها بالقول. والتحدث بها على حد ما قيل في الحمد العرفي أعم من أن يكون باللسان والجنان والأركان. ومن بعض نعم الله عليّ أنني منذ رحمني الله تعالى بمعرفة نفسي ما كان الخطاب لي والإلقاء عليَّ إلا بالقرآن الكريم العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. والمناجاة بالقرآن من بشائر الوراثة المحمدية، فإنَّ القوم أرباب هذا الشأن،

قالوا: كل من نوجي بلغة نبي فهو وارث ذلك النبي صاحب تلك اللغة، ومن نوجي بالقرآن كان وارثاً لجميع الأنبياء، وهو المحمدي، لأنَّ القرآن متضمن لجميع اللغات، كما أنَّ مقام محمد ﷺ متضمن لجميع المقامات.

ومنها: أني لما بلغت المدينة طيبة، وقفت تجاه الوجه الشريف بعد السلام عليه ﷺ وعلى صاحبيه، الذين شرفهما الله تعالى بمصاحبته حياة وبرزخاً، وقلت: يا رسول الله؛ عبدك ببابك. يا رسول الله، كلبك بأعتابك. يا رسول الله، نظرة منك تغنيني. يا رسول الله، عطفه منك تكفيني. فسمعته ﷺ يقول لي: «أنت ولدي ومقبول عندي بهذه السجعة المباركة».

ومما عرفت هل المراد ولادة الصلب أو ولادة القلب، والأمل من فضل الله تعالى أنهما مرادتان معاً، فحمدت الله تعالى، ثم قلت في ذلك الموقف: اللهم حقق هذا السماع برؤية الشخص الشريف، فإنَّه ﷺ ضمن العصمة في الرؤية، فقال: «من رآني فقد رأى الحق، فإنَّ الشيطان لا يتمثل بصورتي، وما ضمن العصمة في سماع الكلام»[1].

ثم جلست تجاه القدمين الشريفين معتمداً على حائط المسجد الشرقي أذكر الله تعالى فصعقت وغبت عن العالم وعن الأصوات المرتفعة في المسجد بالتلاوة والأذكار والأدعية. وعن نفسي، فسمعت قائلاً يقول: هذا سيدنا التهامي... فرفعت بصري في حال الغيبة، فاجتمع به بصري وهو خارج من شباك الحديد من جهة القدمين الشريفين، ثم تقدم إلى الشباك الآخر وخرقه إلى جهته، فرأيته ﷺ فخماً مفخماً، بادناً متماسكاً، غير أن شيبه الشريف أكثر، وحمرة وجهه أشد مما ذكره أصحاب الشمائل. فلما دنا مني رجعت إلى حسي، فحمدت الله تعالى، ثم جعلت أذكر الله تعالى فصعقت كالأولى، فورد عليّ قوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فلما رجعت إلى حسي، حمدت الله تعالى ونظرت في الآية الكريمة، فوجدتها مشتملة على أنواع من البشائر، فإنَّ «وإذا» تفيد تحقيق، فهي في قوة قد دعيتم. «ودعيتم» مبني للمجهول يشتمل دعاء الحق تعالى، والرسول ﷺ والأمر بالدخول بعد الدعوة فيه غاية التكريم والتشريف، وإذا طعمتم إخبار بأنَّ الدعوة للإكرام والإنعام والإطعام. قوله: ﴿فَانْتَشِرُوا﴾ [الأحزاب: ٥٣] أمر بمعنى الإذن في الإنتشار بعد الإكرام، وفي الإخبار بأنَّ الدعوة للإكرام وبالإذن في الإنصراف بعد حصول الإنعام غاية العناية ونهاية الكرامة. ثم توجهت أذكر الله تعالى فصعقت أيضاً فألقي عليّ قوله تعالى: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦] فلما رجعت

(١) رواه الترمذي في الشمائل (٢١٩).

إلى حسي، حمدت الله تعالى على تكرار البشارة. ثم توجهت إلى الذكر أيضاً، فصعقت فألقي علي قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢].

فلما رجعت إلى حسي حمدت الله تعالى وعلمت أنَّ قدم الصدق، هو ﷺ، وأنَّه أمرني أنْ أكون واسطة في إبلاغ هذه البشارة إلى أمته. ثم زدت متوجهاً في الذكر، فصعقت أيضاً فألقي عليّ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٧٣].

فلما رجعت إلى حسي، حمدت الله تعالى، وعلمت أنَّه إخبار بأنَّ هذه النعم الحاصلة ما هي جزاء علم ولا عمل ولا حال، ولا هي باستحقاق، وإنَّما هي فضل وامتنان. ثم زدت متوجهاً في الذكر، فصعقت أيضاً، فألقي عليَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. فلما رجعت إلى حسي، حمدت الله تعالى على ما في هذه الآية من البشائر والأسرار، ثم زدت متوجهاً في الذكر، فصعقت أيضاً فألقي عليّ قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١].

فلما رجعت إلى حسي، حمدت الله تعالى وقلت: لا أنكر شيئاً من آيات الله، والعبد معترف بفضل مولاه عليه.

ثم قمت إلى محل عزلتي، فدخل عليَّ شيخ من أهل الطريق، فقال لي: إذا أردت أن تتوجه إلى رسول الله ﷺ فاجعل بينك وبينه واسطة من الأكابر مثل عبد القادر الكيلاني أو محيي الدين الحاتمي أو الشاذلي وأمثالهم... فقلت له: حتى أستأذن سيدي ومولاي الذي أنا في أعتابه. فتوجهت أذكر الله تعالى فصعقت، فألقي عليه قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

فلما رجعت إلى حسي، حمدت الله تعالى وعندما رجع عندي ذلك الشيخ، قلت له: إنَّ سيدي ومولاي ما أحب أن تكون بيني وبينه واسطة، وأخبرني أنَّه أولى بي من كل أحد حتى من نفسي ثم وثم وثم...

فكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وأول ما فتح لي في عالم الخير والنور، اجتمعت في الواقعة بالخليل عليه السلام في المطاف، وكان في مجلس حافل، وهو يحكي قصة تكسير الأصنام، ورأيته في السن الذي كان فيه ذلك الوقت، إذ يقول تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠]. فما رأت عيني أجمل منه، كيف ورسول الله ﷺ شبه جماله به. فقال: «ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به». فعلمت أنَّه يكون لي بعض إرث منه في محبة الخلق، فإنَّه القائل: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فأجاب الله سؤاله، فاجتمعت على محبته أكثر الملل والفرق، وليس

هذا لأحد غيره من سائر الرسل عليهم السلام انتهى كلامه رضي الله عنه وأنا أؤمن به وأصدقه، وأشهد أنّه من كبار أولياء الله تعالى، وما حدث به عن نفسه في هذا الموقف هو من أكبر الكرامات التي أنعم الله عليه بها، من اجتماعه بجده سيد الوجود ﷺ يقظة.

وقد ذكرته بحروفه في كتابي «جامع كرامات الأولياء»، وهو كتاب ليس له في بابه نظير، قد جمعت فيه كرامات نحو ألف وأربعمائة ولي من المعروفين من الصحابة ومن بعدهم إلى الآن، غير من ذكرت كراماتهم من المجهولين الذين لم أطلع على أسمائهم، ومع ذلك فقد ذكرت من رويت كراماتهم عنهم، وهم من أصدق الصادقين، والحمد لله رب العالمين. وقال رضي الله عنه في الموقف الثالث عشر ما نصه: قال تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]الآية.

كنت مغرماً بمطالعة كتب القوم رضي الله عنهم منذ الصبا، غير سالك طريقهم، فكنت في أثناء المطالعة، أعثر على كلمات تصدر من سادات القوم وأكابرهم، يقف فيها شعري وتنقبض منها نفسي، مع إيماني بكلامهم على مرادهم، لأنني على يقين من آدابهم الكاملة وأخلاقهم الفاضلة، وذلك كقول عبد القادر الجيلي رضي الله عنه: معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوه.

وقول أبي الغيث بن جميل رضي الله عنه: خضنا بحراً وقفت الأنبياء بساحله. قول الشبلي رضي الله عنه لتلميذه: أتشهد أني محمد رسول الله؟ فقال له التلميذ: أشهد أنّك محمد رسول الله.

ومثل هذا كثير عنهم، وكل ما قاله القائلون المؤلون لكلامهم لم تسكن إليه النفس، إلى أن منّ الله تعالى عليّ بالمجاورة بطيبة المباركة، فكنت يوماً في الخلوة متوجهاً أذكر الله تعالى، فأخذني الحق تعالى عن العالم وعن نفسي، ثم ردني وأنا أقول: لو كان موسى بن عمران حياً ما وسعه إلا اتباعي على طريق الإنشاء لا على طريق الحكاية، فعلمت أنَّ هذه القولة من بقايا تلك الأخذة، وإني كنت فانياً في رسول الله ﷺ ولم أكن في ذلك الوقت فلاناً، وإنما كنت محمداً، وإلاَّ لما صح لي قول ما قلت إلاَّ على وجه الحكاية عنه ﷺ وكذا وقع لي مرة أخرى في قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وحينئذٍ تبين لي وجه ما قال هؤلاء السادة، أعني أنَّ هذا أنموذج ومثال، لأني أشبه حالي بحالهم حاشاهم ثم حاشاهم، فإنَّ مقامهم أعلى وأجل، وحالهم أتم وأكمل.

وكذا قال الشيخ عبد الكريم الجيلي: كل من اجتمع هو وآخر في مقام من المقامات الكمالية، كان كل منهما عين الآخر في ذلك المقام، ومن عرف ما قلناه علم معنى قول الحلاج

وغيره. انتهى كلام الجيلي رضي الله عنه. وقبل أن تصدر مني هذه المقالة، كنت ثالث ليلة من رمضان متوجهاً للروضة الشريفة، فحصل لي حال وبكاء، فألقى الله تعالى في قلبي أنَّه ﷺ يقول لي: «أبشر بفتح»[1]، فبعد ليلتين كنت أذكر الله تعالى، فغلبني النوم فرأيت ذاته الشريفة إمتزجت مع ذاتي، وصارتا ذاتاً واحدة.

انظر إلى ذاتي فأرى ذاته الشريفة ذاتي، فقمت فزعاً مرعوباً فرحاً، فتوضأت ودخلت المسجد للسلام عليه ﷺ ثم رجعت إلى الخلوة، وجعلت أذكر الله تعالى، فأخذني الحق تعالى عن نفسي وعن العالم، ثم ردني بعد أن أُلقي إليَّ قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١] الآية.

فعلمت أنَّ الإلقاء تصديق للرؤية، ثم بعد يوم أخذني الحق تعالى عن نفسي كالعادة، فسمعت قائلاً يقول لي: أنظر ما أكننته حتى كنته بهذه السجعة الجناسية المباركة، فعلمت أنَّ هذه القولة تصديق للرؤيا السابقة. والحمد لله تعالى.

وقد أمرني الحق تعالى بالتحدث بالنعم بالأمر العام لرسول الله ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] لأنَّ الأمر له ﷺ أمر لأمته، إلاَّ ما ثبت اختصاصه به، وأمرني بالخصوص مراراً بإشارة هذه الآية الشريفة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] اهـ. ما اخترت نقله من كلام الأمير عبد القادر رضي الله عنه.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢: ٤).

ومنهم الإمام الشهاب أحمد المقرّي[(١)]؛ وقد تقدم ذكره قريباً، رحمه الله تعالى

ومن جواهره رحمه الله تعالى

[وصف النبي ﷺ بالأمي]

قوله في نفح الطيب عند ذكر الإمام أبي الوليد الباجي الأندلسي: ولما تكلم أبو الوليد الباجي في حديث الكتابة يوم الحديبية، الذي في البخاري، قال بظاهر لفظه، فأنكر عليه الفقيه أبو بكر الصائغ وكفره بإجازة الكتب على الرسول الأمي ﷺ وإنَّه تكذيب للقرآن، فتكلم في ذلك من لم يفهم الكلام، حتى أثاروا عليه الفتنة وقبحوا عليه عند العامة ما أتى به، وتكلم به خطباؤُهم في الجمع، وقال شاعرهم:

برئت ممن شرى دنيا بآخرة ... وقال إنَّ رسول الله قد كتبا

فصنف أبو الوليد رحمه الله تعالى رسالة بين فيها أنَّ ذلك غير قادح في المعجزة، فرجع بها جماعة إذ ليس من عرف أن يكتب اسمه فقط، بخارج عن كونه أمياً، لأنَّه لا يسمى كاتباً، وجماعة من الملوك قد أدمنوا على كتابة العلامة، وهم أميون والحكم للغالب لا للصور النادرة.

وقد قال ﷺ: «إنَّا أمة أميون»، أي أكثرهم كذلك، لندور الكتابة في الصحابة»، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] اهـ.

ثم قال: وأما ما تقدم عن القاضي أبي الوليد الباجي من إجراء حديث الكتابة على ظاهره، فهو قول بعض والصواب خلافه.

قال القاضي أبو الفضل عياض: حدثنا محمد بن علي الشاطبي من لفظه، قال: حدثني أبو الحسن بن مفوز، قال: كان أبو محمد بن أحمد بن الحاج من أهل جزيرة شفر، ممن لازم الباجي، وتفقه عنده.

---

(١) سبقت ترجمته.

وكان يميل إلى مذهب الباجي في جواز مباشرة النبي ﷺ بيده في حديث المقاضاة في الحديبية على ما جاء في ظاهر بعض رواياته ويعجب به.

وكنت أنكر ذلك عليه، فلما كان بعد برهة أتاني زائراً على عادته، وأعلمني أنَّ رجلاً من إخوانه كان يرى في النوم أنَّه بالمدينة، وأنَّه يدخل المسجد، فيرى قبر النبي ﷺ أمامه، فتحدث له قشعريرة وهيبة عظيمة. ثم يراه ينشق ويميد، ولا يستقر، فيعتريه منه فزع عشيم.

وسألني عن عبارة رؤياه، فقلت: أخشى على صاحب هذا المنام أن يصف رسول الله ﷺ بغير صفة، أو ينتحله ما ليس له بأصل، أو لعله يفتري عليه. فسألني با لله من أين قلت هذا، قلت له: من قول الله عزَّ وجل: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم:٩٠] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَدًا﴾ [مريم:٨٨]. فقال لي: لله درك يا سيدي.

وأقبل يقبل رأسي وبين عيني، ويبكي مرة ويضحك أخرى، ثم قال لي: أنا صاحب الرؤيا، واسمع تمامها يشهد لك بصحة تأويلك. قال: إنَّه لما رأيتني في ذلك الفزع العظيم، كنت أقول: والله ما هذا إلاَّ أني أقول وأعتقد أنَّ رسول الله ﷺ كتب، فكنت أبكي وأقول: أنا تائب يا رسول الله، وأكرر ذلك مراراً فأرى القبر قد عاد إلى هيأته أولاً وسكن، فاستيقظت ثم قال لي، وأنا أشهد أنَّ رسول الله ﷺ ما كتب قط حرفاً، وعليه ألقى الله تعالى، فقلت: والحمد لله الذي أراك البرهان، فأشكر له كثيراً. اهـ.

ومن جواهر الإمام المقري أيضاً

[أثر من آثاره ﷺ في المدينة]

قوله في نفح الطيب، في ترجمة محمد بن حزم بن بكر التنوخي الأندلسي المعروف بابن المديني: وكان من أهل الورع والإنقباض، وحكى عن ابن مسرة أنه كان في سكناه المدينة يتبع آثار النبي ﷺ قال: ودله بعض أهل المدينة على دار مارية أم إبراهيم سرية النبي ﷺ فقصد إليها، فإذا هي دويرة لطيفة بين البساتين بشرقي المدينة، عرضها وطولها واحد قد شق في وسطها بحائط وفرش على حائطها خشب غليظ، يرتقي إلى ذلك الفرش على خارج لطيف. وفي أعلى ذلك بيتان وسقيفة، كانت مقعد النبي ﷺ في الصيف.

قال: فرأيت أبا عبد الله بعدما صلى في البيتين والسقيفة، وفي كل ناحية من نواحي تلك الدار، ضرب أحد البيتين بشبره، فكشفته بعد انصرافي وهو ساكن في الجبل عن ذلك، فقال هذا البيت الذي تراني فيه بنيته على تلك الحكاية في العرض والطول، بلا زيادة ولا نقصان.

ومن جواهر الإمام المقري أيضاً

[رؤيا بعضهم ﷺ في المنام]

قوله في نفح الطيب، في آخر ترجمة ابن سبعين، عند ذكر تلميذه الشيخ أبي الحسن الششتري رضي الله عنهم أجمعين: ودخل عليه شخص ببجاية من أهلها يعرف بأبي الحسن بن علال من أهل الأمانة والديانة، فوجده يذاكر بعض أهل العلم فاستحسن منه إيراده للعلم واستعماله لمحاضرة الفهم، فاعتقد شياخته وتقديمه؛ ثم نوى أن يوثر الفقراء من ماله بعشرين ديناراً شكراً لله تعالى ويأتيهم بمأكول. فلما تيسر جميع ما اهتم به، أراد أن يقسمه فيعطيه شطره ويدع الشطر الثاني إلى حين إنصراف الشيخ، ليكون للفقراء زاد. فلما كان في الليل، رأى في منامه النبي ﷺ ومعه أبو بكر وعلي رضي الله عنهما قال الرجل: فنهضت إليه بسرور رؤية النبي ﷺ وقلت: يا رسول الله، ادع الله تعالى لي.

فالتفت لأبي بكر رضي الله عنه وقال: يا أبا بكر، أعطه. فإذا به رضي الله تعالى عنه قسم رغيفاً كان بيده وأعطاني نصفه. ثم أفاق الرجل من منامه، وأخذه وجد من هذه الرؤيا المباركة، فأيقظ أهله واستعمل نفسه في العبادة، فلما كان من الغد، سار وأتى الشيخ ببعض الطعام ونصف الدراهم المحتسب بها، فلما دفعها للشيخ قال له الشيخ: يا علي، اقرب. فلما قرب، قال له: يا علي لو أتيت بالكل لأخذت منه الرغيف بكماله. اهـ.

ومن جواهر الإمام المقري أيضاً

[حسن الأدب عند القدوم إلى المدينة]

قوله في نفح الطيب، عند ذكر الوزير أبي عبد الله بن الحكيم الرندي، وقال العلامة ابن رشيد في «ملء العيبة»: لما قدمنا المدينة سنة ٦٨٤ [هـ]، كان معي رفيقي الوزير أبو عبد الله بن أبي القاسم بن الحكيم، وكان أرمد.

فلما دخلنا ذا الحليفة أو نحوها نزلنا من الأكوار، وقوي الشوق لقرب المزار، فنزل وبادر إلى المشي على قدميه احتساباً لتلك الآثار، وإعظاماً لمن حل تلك الديار، فأحس بالشفاء، فأنشد لنفسه في وصف الحال قوله:

ولمــا رأينــا مــن ربــوع حبيبنــا	بيثـرب أعـلامـاً أثـرن لنـا الحبـا
وبـالتـرب منهـا إذ كحلنـا جفـوننـا	شفينـا فـلا بـأسـاً نخـاف ولا كـربـا
وحيــن تبــدى للعيــون جمــالهــا	ومـن بعـدهـا عنـا أديلـت لنـا قـربـا

نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة | لمن حل فيها إن نلم به ركبا
نسح سجال الدمع في عرصاتها | ونلثم من حَب لواطنه التربا
وإنَّ بقائي دونه لخسارة | ولو أن كفي تملأ الشرق والغربا
فيا عجباً ممن يحب بزعمه | يقيم مع الدعوى ويستعمل الكتبا
وزلات مثلي لا تعدد كثرة | وبعدي عن المختار أعظمها ذنبا

ومن جواهر الإمام المقري أيضاً

قوله في نفح الطيب، في ترجمة الأديب أبي جعفر الألبيري الأندلسي، شارح بديعية ابن جابر، ومن نثره لما ذكر قصيدة كعب ابن زهير رضي الله عنه ما نصه: وهذه القصيدة لها الشرف الراسخ، والحكم الذي لم يوجد له ناسخ. أنشدها كعب في مسجد المصطفى بحضرته وحضرة أصحابه، وتوسل بها فوصل إلى العفو عن عقابه، فسد ﷺ خلته، وخلع عليه حلته، وكف عنه كف من أراده، وأبلغه في نفسه وأهله مراده، وذلك بعد إهدار دمه، وما سبق من هذر كلمه، فمحت حسناتها تلك الذنوب، وسترت محاسنها وجه تلك العيوب، ولولاها لمنع المدح والغزل، وقطع من أخذ الجوائز على الشعر الأمل، فهي حجة الشعراء فيما سلكوه، وملاك أمرهم فيما ملكوه.

حدثني بعض شيوخنا بالإسكندرية بإسناده أن بعض العلماء كان لا يستفتح مجلسه إلاَّ بقصيدة كعب، فقيل له في ذلك، فقال: رأيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله قصيدة كعب أنشدها بين يديك، فقال: نعم أحبها، وأحب من يحبها. قال: فعاهدت الله أن لا أخلو من قراءتها كل يوم. قلت: ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينسجون على منوالها، ويقتدون بأقوالها تبركاً بمن أنشدت بين يديه، ونسب مدحها إليه. ولما وضع القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر قصيدة في مدح النبي ﷺ على وزن بانت سعاد قال:

لقد قال كعب في النبي قصيدة | وقلنا عسى في مدحه نتشارك
فإن شملتنا بالجوائز رحمة | كرحمة كعب فهو كعب مبارك

ومن جواهر الإمام المقري أيضاً

[قضاء حاجات من علّق أمله عليه ﷺ]

قوله في كتابه المذكور، عند ذكر صفوان بن إدريس المرسي: ورحل إلى مراكش في جهاز بنت لمغت التزويج، وقصد دار الخلافة مادحاً، فما تيسر له شيء من أمله، ففكر في

خيبة قصده. وقال: وكنت أملت الله سبحانه ومدحت نبيه ﷺ وآل بيته الطاهرين. لبلغت أملي، بمحمود عملي. ثم استغفر الله تعالى من اعتماده في توجهه الأول؛ وعلم أنَّ ليس على غير الثاني معول.

فلم يك إلاَّ أن صوب نحو هذا المقصد سهمه، وأمضى فيه عزمه؛ وإذا به قد سئل عنه، فأدخل على الخليفة، فسأله عن مقصده؛ فأخبره مفصحاً به، فأنفذه وزاده عليه، وأخبره أنَّ ذلك لرؤيا رسول الله ﷺ في النوم يأمره بقضاء حاجته، فانفصل موفى الأغراض، واستمر في مدح أهل البيت عليهم السلام حتى اشتهر بذلك، وتوفي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وسنه دون الأربعين، وصلى عليه أبوه، فإنَّه كان بمكان من الفضل والدين رحم الله تعالى ثم قال: ولصفوان رحمه الله:

تحيـــــة الله وطيـــــب السـلام ... علـى رسـول الله خيـر الأنـام

علـى الـذي فتـح بـاب الهـدى ... وقـال للنَّـاس ادخلـوا بـالسـلام

بـدر الهـدى بحـر النـدى والسـدى ... ومـا عسـى أن يتنـاهـى الكـلام

تحيـــة تهــزأ أنفـــاسهـا ... بـالمسـك لا أرضـى بمسـك الختـام

تخصــه منـــي ولا تنثنـــي ... عـن أهلـه الصيـد السـراة الكـرام

وقـــدرهـــم أرفـــع لكننـــي ... لـم آلـف أعلـى لفظـة مـن كـرام

وقال:

يقـولـون لـي لمـا ركبـت بطـالتـي ... ركـوب فتـى جـم الغـوايـة معتـدى

أعنـدك شـيء تـرتجـي أن تنـالـه ... فقلـت نعـم عنـدي شفـاعـة أحمـد

ومن جواهر الإمام المقري

[الاحتفال بمولده ﷺ]

قوله في كتابه «نفح الطيب» عند ذكر يحيى بن خلدون وهو أخو صاحب التاريخ، وذكر قصيدته النبوية الحائية التي ذكرتها في مجموعتي النبهانية: وكان السلطان أبو حمو موسى صاحب تلمسان يحتفل لليلة مولد رسول الله ﷺ غاية الاحتفال، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله.

ومن احتفاله له ما حكاه شيخ شيوخ شيوخنا، الحافظ سيدي أبو عبد الله التنسي، ثم التلمساني في كتابه «راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر، وقيل فيه من الأمداح»

وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح ونصه: إنّه كان يقيم ليلة الميلاد النبوي على صاحبه الصلاة والسلام بمشورة من تلمسان المحروسة مدعاة حفيلة، يحشر فيها الناس خاصة وعامة، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وبسط موشاة، ووسائد بالذهب مغشاة، وشمع كالأسطوانات، وموائد كالهالات، ومباخر منصوبة كالقباب، يخالها المبصر تبراً مذاب، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة، كأنّها أزهار الربيع المنمنمة، فتشتهيها الأنفس وتستلذ النواظر، ويخالط حسن رياها الأرواح ويخامر. رتب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال، وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال.

وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ومكفرات ترغب في الإقلاع عن الآثام، ويخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب. وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجانة قد زخرفت كأنها حلة يمانية، لها أبواب موجفة على عدد ساعات الليل الزمانية، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك باب من أبوابها، وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة، ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة... هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح، ونداء المنادي حي على الفلاح. انتهى.

وقال التنسي المذكور في كتابه المسمى «بنظم الدر والعقيان في شرف بني زيان» وذكر ملوكهم الأعيان ما نصه: وكان بالسلطان أبو حمو يقوم بحق ليلة مولد المصطفى ﷺ ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم يقيم مدعاة يحشر لها الأشراف والسوقة، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وشمع كالأسطوانات، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان، قد لبسوا أقبية الخز الملون، وبأيديهم مباخر ومرشات ينال كل منها بحظه، وخزانة المنجانة ذات تماثيل لجين محكمة الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه، ونخله فيها أرقم خارج من كوة بجذر الأيكة صاعداً، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان كبيران، وفوق جميعها دوين رأس الخزانة قمراً كمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك، ويسامت أول كل ساعة بابها المرتج، فينقض من البابين الكبيرين عقابان، في يد كل واحد منهما صنجة صفراء يلقيها إلى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة، فيرن وينهش الأرقم أحد الفرخين، فيصفر له أبوه؛ فهناك يفتح باب الساعة الذاهبة، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راء، بيمناها

إضبارة فيها اسم ساعتها منظومة، ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة، والمسمع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين، سيدنا ومولانا محمد ﷺ ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات دوراً والرياض نوراً.

وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس، وتستحسنها الأعين، وتلذ بسماع أسمائها الآذان، ويشره مبصرها للقرب منها والتناول، وإن كان ليس بغرثان، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه. وكل ذلك بمرأى منه ومسمع، حتى يصلي هناك صلاة الصبح.

على هذا الأسلوب تمضي ليلة المصطفى ﷺ في جميع أيام دولته أعلى الله تعالى مقامه في عليين، وشكر له في ذلك صنيعه الجميل آمين. وما من ليلة مولد مرت في أيامه إلاَّ ونظم فيه قصيداً في مديح مولد المصطفى ﷺ أول ما يبتدأ المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه إنشاد ما رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظماً. اهـ.

يقول جامعه يوسف النبهاني: ولا أدري ما أباح لهم استعمال هذه الصور المجسمة، فإنَّ الأحاديث الصحيحة صريحة بمنع مثل ذلك؛ والله أعلم.

ومنهم العلامة أحمد بن خلكان[١] التاريفي المشهور المتوفى سنة ٦٨١ هـ

فمن جواهره

[الاحتفال بمولد النبي]

ما ذكره في ترجمة الملك المعظم مظفر الدين، صاحب إربل بقوله: وأما احتفاله بمولد النبي ﷺ فإنَّ الوصف يقصر عن الإحاطة به، لكن نذكر طرفاً منه، وهو أنَّ أهل البلاد كانوا قد سمعوا بحسن اعتقاده فيه، فكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل مثل بغداد، والموصل، والجزيرة، وسنجار، ونصيبين، وبلاد العجم، وتلك النواحي خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء. . . ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب، كل قبة أربع أو خمس طبقات، ويعمل مقدار عشرين قبة وأكثر، منها قبة له والباقي للأمراء وأعيان دولته، لكل واحد قبة، فإذا كان أول صفر، زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المتجملة، وقعد في كل قبة جوق من الأغاني، وجوق من أرباب الخيال، ومن أصحاب الملاهي.

ولم يتركوا طبقة من تلك الطباق حتى رتبوا فيها جوقاً، وتبطل معايش الناس في تلك المدة، وما يبقى لهم شغل إلاَّ التفرج والدوران عليهم. وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه المجاورة للميدان، فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر، ويقف على قبة قبة إلى آخرها، ويسمع غناءهم ويتفرج على خيالاتهم وما يفعلونه في القباب، ويبيت في الخانقاه، ويعمل السماع فيها، ويركب عقيب صلاة الصبح يتصيد؛ ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر؛ هكذا يعمل كل يوم إلى ليلة المولد. . . وكان يعمله سنة في ثامن الشهر، وسنة في ثاني عشره لأجل الإختلاف الذي فيه، فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئاً كثيراً زائداً عن الوصف، وزفها بجميع ما عنده من الطبول والأغاني والملاهي،

(١) هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي شاعر، عالم بالدين والأدب مكثر في التصنيف متصوف ولد في دمشق سنة ١٠٥٠ هـ. وتوفي فيها سنة ١١٤٣ هـ.

حتى يأتي بها إلى الميدان؛ ثم يشرعون في نحرها وينصبون القدور، ويطبخون الألوان المختلفة.

فإذا كانت ليلة المولد عمل السماعات بعد أن يصلي المغرب في القلعة، ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير، وفي جملتها شمعتان أو أربع أشك في ذلك من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها، وهي مربوطة على ظهر البغل؛ حتى ينتهي إلى الخانقاه.

فإذا كان صبيحة يوم المولد، أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه على أيدي الصوفية، على يد كل شخص منهم بقجة؛ وهم متتابعون كل واحد وراء الآخر ينزل من ذلك شيء كثير لا أتحقق عدده، ثم ينزل إلى الخانقاه؛ تجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من الناس، وينصب كرسي للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك إلى الموضع الذي فيه الناس والكرسي، وشبابيك أخر للبرج أيضاً إلى الميدان، وهو ميدان كبير في غاية الاتساع، ويجتمع فيه الجند، ويعرضهم ذلك النهار وهو تارة ينظر إلى عرض الجند وتارة إلى الناس والوعاظ، ولا يزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم، فعند ذلك يقدم السماط في الميدان وللصعاليك، ويكون سماطاً عاماً فيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يحد ولا يوصف، ويمد سماطاً ثانياً في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي. وفي مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب واحداً واحداً من الأعيان والرؤساء والوافدين لأجل هذا الموسم ممن قدمنا ذكرهم من الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء... ويخلع على كل واحد منهم، ثم يعود إلى مكانه؛ فإذا تكامل ذلك كله حضروا السماط وحملوا منه لمن يقع التعيين على الحمل إلى داره، ولا يزالون على ذلك إلى العصر أو بعدها، ثم يبيت تلك الليلة هناك، ويعمل السماعات إلى بكرة... هكذا دأبه في كل سنة.

وقد لخصت صورة الحال، فإن الإستقصاء يطول، فإذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل إنسان للعود إلى بلده، فيدفع لكل شخص شيئاً من النفقة، وقد ذكرت في ترجمة الحافظ أبي الخطاب بن دحية في حرف العين وصوله إلى إربل، وعمله لكتاب التنوير في مولد السراج المنير، لما رأى من اهتمام مظفر الدين به وإنَّه أعطاه ألف دينار غير ما غرم عليه مدة إقامته من الإقامات الوافرة.

ومنهم الإمام العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي[١]؛ وقد تقدم ذكره رضي الله عنهُ

ومن جواهره

[المولد النبوي بحروفه]

مولد النبي ﷺ مختصر بليغ يقرأ في جلسة لطيفة، وهو هذا: بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله الذي فتح أقفال هذا العالم بمفتاح ظهور سيد السادات، وجعل أمته وسطاً، وفضلها على سائر الأمم في العبادات.

وأشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وحده لا شريك له، إلٰه تنزَّه عن الوزير والنظير والمشير من سائر الجهات، وأشهد أنَّ سيدنا ونبينا وحبيبنا محمداً عبده ورسوله الذي أزاح بنور وجوده ظلمَ الجهالات؛ فصلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه الذين لم تأخذهم في الله لومة لائم في سائر الحالات، فسبحانَ من فضل بعض النبيين على بعض، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، فأعطى آدم الصفوة وإبراهيم الخلة وموسى تسع آيات بينات، وبعث عيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الأموات، واتخذ محمد ﷺ حبيباً وشفيعاً ورفعهُ إلى سبع سمٰوات، وجعل الصلاة عليه يتيمة عقد الأعمال الصالحات. فصلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه صلاةً تكون لجنابه الشريف فخراً، ولنا في الدنيا والآخرة وديعةً وذخراً، كلما ذكرهُ الذاكرون براً وبحراً، وغفل عن ذكرهِ الغافلون نهياً وأمراً.

فقد صحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «من صلى عليَّ واحدةً، صلى الله عليه بها عشراً»[٢]. صلوا عليه وسلموا تسليماً، فهو ﷺ النورُ الأولُ في النور الثاني نورٌ على نور، وقد آتاهُ الله القرآن والسبع المثاني فتمَّ له الحضور، ثم انقسم بلا انقسام على أعيان الحقائق الكونية، فأمدها بها منها في الصور الروحانية والجسمانية؛ فكان الشاهد والمشهود، في حقيقة المقبول والمبعود. ولما أراد الله سبحانهُ وتعالى إظهار الوجود من كتم العدم، بمحض الجود والفضل والكرم،

---

(١) سبقت ترجمته.
(٢) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٢٢١٥). وابن السني في عمل اليوم والليلة (٩١: ٣٧٤).

بفك رمز قوله عزَّ وجل في الحديث القدسي الأعظم: «كنتُ كنزاً مخفياً لم أُعرَفْ فأحببت أن أُعرف، فخلقت خلقاً وتعرفتُ إليهم فبي عرفوني».

كان محمدُ بنُ عبدِ الله الأجمل، وخليلهُ الأفضل وحبيبهُ الأكملْ، أخص مرادٍ من الموجودات وأشرف؛ فهو أول موجود برز من كِنّ كُنْ بسر القدرة الصمدية، وأشرف محمود حباه اللهُ بالتأهل لمعرفة الصفة الأحدية، لأنَّ الله تعالى أبدى قبل الكائنات نوره، وجعل رحمة للعالمين ظهوره، ولم يكن في ذٰلك الوقت عرشٌ ولا كرسي، ولا ملكٌ ولا جني ولا إنسي، ولا جنةٌ ولا نار، ولا ليلٌ ولا نهار، فخلق الله من الهداية رأسه، ومن الطيب أنفاسه، ومن الشفقة قلبه، ومن الصبر بطنه ولبه، ومن السخاء كفه، ومن الذكاءِ أنفه، ومن الجمال عينيه، ومن لذيذ الخطاب أذنيه، ومن الشرف قدميه. فصلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه الحنفاء، صلاة تزيد شرفه علواً وعلوهُ شرفاً، وخصائصه شأناً، وشرأنه عظماً، وعظمهُ جلالاً، وجلاله جمالاً، وجمالهُ كمالاً. صلوا عليه وسلموا تسليماً.

فكان به ﷺ فاتحةُ الوجود، وبقرة آل عمران شربت من وردهِ المورود، وبَرَرَةُ النساءِ امتدتْ لهن بنوره مائدة الشهود، وطافت به أنعام الأعراف ذوو الأنفال، ونجا بالتوبة يونس وهودٌ ويوسف من رعد شدائدهم الثقال، وسعد به إبراهيم في بنيان الحِجْر، وحصل به وحي النحل وإسراءُ الكمال ليلاً في كهف عزه بلا حَجز، وحملتْ به مريم لأنَّه طه الأنبياء وحجُّ المؤمنين، والنور والفرقان بالشعراء الكاملين، والنملُ آمن بالقصص لديهِ، وعشعش العنكبوت في الغار عليهِ، وأذعنت لهُ الروم بأنَّهُ لقمان الحكمة وسجدة الأحزاب، وسبا بمحبته القلوب فهو فاطرُ الألباب، ياسينُ الصافاتِ من الملائكة، وصادُ الزُمرِ من الطائفة المباركة، وسرٌّ غافر الذنب الغفور، الذي فصلت به الأمور، وشورى بين الأشراف، وزخرف دخان النفس الجاثية عنهُ بالأحقاف.

محمدٌ صاحبُ الفتح والحجرات من التجليات العرفانية، وقافُ الذاريات من طور النفوس الإنسانية، نجمُ الأفلاك، وقمرُ الأملاك، المستمد من نور الرحمٰن الذي به واقعة الحديد في المجادلة، وحشر الممتحنة في الصفِ للجمعة مع المنافقين في تغابن المقاتلة، ومنهُ طلاق التحريم في الملك ونون الحاقة الإحسانية، ومعارج نوح والجن السالكين في المقامات الإيمانية، المزمل والمدثر زين القيامة وفخر الإنسان، وذو الأخلاق المرسلات لأهل النبأ والعرفان، والنازعات من الأوصاف الكبار، لمن عبس من التكوير والانفطار، القاطع للمطففين بانشقاق البروج، والطارق حضرة الأعلى بغاشية الفجر في البلد المولوج، ضياء الشمس ونور الليل والضحى، المنزل عليه ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح: ١] حيث شرح الله صدره

للرسالة شرحاً. افتخر التين والعلق بقدره بل كل البرية، وزلزلت العادياتُ بقارعة التكاثر في عصر هُمَزة النفس الأبية، وولد ﷺ عام الفيل، فابتهجت قريشٌ بالماعون من كوثر السلسبيل، وارتفع على الكافرين بالنصر على أبي لهب، وكمل له الإخلاص والفلق الواضح فهدى الناس حتى كلٌّ من ربه اقترب.

صلوا عليه وسلموا تسليماً، فهو ﷺ صاحبُ الفتوحات المكية، ومحل التنزلات المدنية، الذي سارت بمدحته شجون المشجون، وعظمت بمنحته نزهة الفنون، وهو مقر التنزل المثنوي لمولانا، والسر الشاهديّ والمشهوديّ في أخرانا وأولانا، وهو ﷺ أدرى بنا وأولانا. كيف لا وهو شمس المعارف، وحقيقة عوارف المعارف، الذي انتهت بهِ بداية الهداية، ونقلت عنه العهود في ميزان طبقات أهل المنن والعناية؛ فهو أبو داود النبي بالإنسانية، وأبو عيسى بالروحانية الجبرائيلية، وابن ماجة البحور الجسمانية الآدمية، الجامع الكبير للجامع الصغير، والمواهب اللدنية لأهل التهليل والتكبير، حبرُ شفاء عياض، وبحرُ كرمه فياض؛ اللطيف الشمائل، وجامع الأواخر والأوائل. دينه رياض الصالحين، وشرعه روض الرياحين، مجمع الباطن والظاهر، ملتقى النيرين باليواقيت والجواهر، كنز الدقائق، والبحر الرائق، تنوير الأبصار، وعقد درر البحار، قاموس البلاغة والتبيان، وصحاح جواهر القرآن، وبديع فنون المعاني والبيان، مطول كل مختصر في الأسرار، وصدر الشريعة المطهرة ومشكاة الأنوار، مغني اللبيب عن قطر الندى، وصاحب الهمم الكافية الشافية من الردى، فهو الذي فتحت حانات الاقتراب على يده، ودارت بهِ كؤُوس الشراب على الأحباب من وفاءِ مدده، ورويت الأخبار من رحيقه الساقي.

وانتشقت أرواح أهل الفلاح عبير جوده الواقي، وعلقت قلوب المحبين على إجتلاء أقمار صفاته، وتنزهت أعيان المقربين في حدائق حقائق آياته، فهو الذي أشهده الله السرَّ المصون، وأطلعه على الغيب المكنون، وهدى بمنهج نبوته السبيل، وأقام بتحفة رسالته الدليل، وأطلع شمس صفاته في سماء الوجود، وأمطر بوفاء مقدمه السعيد سحائب الرحمة والجود، وأبدى بدائع الآيات من منازل أخبية الغيوب بهذا المولود، فتتابعت المنن بطالع سعد السعود، وذبح بسيف نصره هام المعاند والحسود، وابتلعت أرض دعوته قوائم سوابق أهل البغي والجحود. صلوا عليه وسلموا تسليماً.

ويتعين في هذا المجلس اللطيف، التنبيه على نسبه الذكي الشريف، أخرجه الله من شجرةٍ أصلها أصيل، وفرعها طويل، غارسها الرب الجليل، وخادمها الأمين جبريل، وملقح ثمارها إسماعيل، بمكة غرستْ، وبطيبة بسقتْ، وبتهامة نبعت، فنسبه ﷺ من أبيه عبد الله إلى

معد بن عدنان، وما فوق ذلك فعلمه عند الملك الديان، لأنه ﷺ كان إذا انتسب لم يجاوز معد بن عدنان، فهو ﷺ سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهو إلى قصي ينتسب، ابن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بجوده كل حي، ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان سيد العرب في الناس.

وهذا هو النسب الصحيح الذي لا شك فيه، وما فوق ذلك فعلمه عند منزل الكتاب الذي لا ريب فيه. ولما أراد الله إظهار من في حبه نتغالى، أبرزه من سر مكنون غيبه تبارك وتعالى، فظهرت لانتقال نوره الآيات، وتباشرت به جميع المخلوقات، ونودي في أقطار الأرض والسمٰوات: يا عرش تبرقع بالوقار، ويا كرسي تدرع بالفخار، ويا سدرة المنتهى ابتهجي، ويا حور الجنان تبلجي، ويا رضوان افتح أبواب الجنان، ويا مالك أغلق أبواب النيران، فقد آن أن يظهر أبو القاسم، صاحب الأعياد والمواسم، يهدم الكنائس والبيع والصوامع، وينسخ بشريعته سائر الشرائع، ينتصب لواءُ فخره بين زمزم والمقام، وترتفع بعاجل أمره عن الكعبة جميع الأصنام، وتخفض بطلوع فجره نفوس الجبابرة اللئام، ويجزم كل من تبع ملته أن دينه هو الحق والسلام.

فعند ذٰلك هللت الملائكة وكبرت، وأمطرت نعم الله على الخلائق وانهمرت، فبسقت حينئذٍ أغصان الإيمان، ونطقت وقتئذ همم ذوي التأييد والعرفان، وتكلم لسان التوحيد على منبر الهدى، مبرقعاً بجلباب التفريد من سندس الكرم والندى، قائلاً: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤]، فكان الوقت وقت إجابة، والأوان أو أن تضرع وإنابة، والساعة ساعة بروز أشرف خَلق الله؛ من له حاجة فليسأل الله.

صلوا عليه وسلموا تسليماً، ولما أخذ آمنة ما يأخذ النساءُ من المخاض، وامتلأ بيتها بساطع النور الفياض، أحست بفؤادها مسح طائر بمثل الجناح، فذهب عنها كل رعب ووجع وما تجده من جُناح، ثم أُتحفت بشربة بيضاء منيرة، فتناولتها وغشيتها الأنوار البهيرة، ثم وجدت عندها جملة من النساء الصالحات، فأشغلنها عن طلب الأهل والصويحبات، وقلن لها: يا آمنة لا تحزني وكوني من الآمنين، فنحن آسية امرأة فرعون ومريمُ ابنة عمران وهؤلاء من الحور العين.

ولما اشتد الأمر وتزاحمت الأملاك العظما، ومُدَّ الديباج بين الأرض والسما؛ والقائل يقول خذوه عن أعين الناس، كي يطاف به السمٰوات والأرض وتزوره الملائكة الأكياس.

ثم رأت أباريق من فضة بأيدي رجال في الهوا، وأقبل عسكر من الطير حتى فوق

حجرتها استوى، مرسلة من حضرة ذي الملك والملكوت، مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت، فكشف الله عن بصرها ونالت مآربها، ورأت حينئذٍ مشارق الأرض ومغاربها، ورأت بعد ذٰلك ثلاثة من الأعلام، علماً بالمشرق وعلماً بالمغرب وعلماً على ظهر البيت الحرام، ثم ظهرت الحور من حجبها، وأشرقت الأرض بنور ربها. وولدته ﷺ قال سيدنا حسان بن ثابت في مدح النبي الكريم الأعظم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم:

وأحسن منك لم ترَ قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساءُ

خُلقتَ مبرأ من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاءُ

ومن جواهر العارف النابلسي

[شرح ديوان ابن الفارض]

قوله في خطبة شرحه على ديوان ابن الفارض رضي الله عنه ما نصه: والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين، والرسول المبين، الساري بمادته النورانية، وكليته الروحية، في كل شيء عند أهل اليقين والتصديق؛ فمن تحقق بذاته وتخلق بصفاته، كمل في المتابعة بالتّخليق: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]. فيا سعادة أهل هذا المقام الأنيق، ولقد ظهر ﷺ بلباس الأولين، وسبقَت حقيقته حقائق الأنبياء والمرسلين، كما هو ظاهر بالآخرين، فكان ﷺ رحمةً للعالمين؛ ولهذا نجا به إبراهيم من الحريق، وموسى من الغريق. صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، تعميماً لتفصيله بعد التخصيص بإجماله الوثيق، ورضوان الله تعالى عن آله الطاهرين، وأصحابه الظاهرين، الذين قاموا معه في خدمة الأمر بالأمر من غير تأخر ولا تعويق؛ منهم مطالع شموس حقيقته، ولوامع بروق طريقته، وكواكب سمٰوات شريعته، وبدور كمالات سيرته وسريرته. فكم بدر ظهر من أهل بدر فعمل ما شاء لأنّه مغفور له بنص الحديث النبوي لصيانة نسب تقواه العتيق، وعن التابعين لهم في الكمال، بتجليات الجلال والجمال، من كل حميم صديق، ما نفحت نوافح الأزهار بالمسك الفتيق، ونفخت الرياض في قصب النرجس حتى تواجدت الأغصان وشق حلته الشقيق.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح خطبة ديوان ابن الفارض]

قوله في شرح خطبة ديوان ابن الفارض، وقد اختلط كلامه بكلام جامعه سبط ابن

الفارض رضي الله عنهم: الحمد لله الذي اختص حبيبه الأسنى، بمقام قاب قوسين أو أدنى، أي محبوبه والمحبة منه تعالى صفة قديمة تقتضي حضور محبوبه لديه، وخلع حلته وهو الوجود عليه، والأشياء كلها حاضرة عنده تعالى من الأزل وهي في غيب ذواتها.

فلما نزل إليها لوصف المحبة القائمة به، أحضرها عندها فزال غيبها عنها، فأخبرها أنه يحبها وأنها تحبه بقول تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] فحبه لها اقتضى حبها له، فإنَّ حبه لها أثبت أعيانها في التقدير، وحبها له وصف أعيانها بالوجود والتصوير، وحبها له هو عين نزوله إليها بها، وهي كلها مخلوقة من نور محمد ﷺ فالمحبة والمجبوبية له ﷺ فهو المحب والمحبوب، وهو كل محب وهو كل محبوب.

والمحب هو المحبوب، باعتبار النزول إليهم بهم كما ذكرنا فالمحب جاهل بالأمر في نفسه، مدع ما ليس له من بين أبناء جنسه، والمحبوب متحقق عارف، ومن بحر الفضائل غارف؛ ولهذا قال حبيبه ولم يقل محبه، والأسنى من السناء بالمد وهو الرفعة أو السنا بالقصر وهو الضياء والنور، وهو ﷺ مرتفع على الجميع لأنه وجودها الأول وهي وجوده الثاني؛ والفرق بينهما بالاعتبار وهو أيضاً محض النور، في حالة الظهور.

وقوله بمقام المقام يقتضي الدوام والثبوت والحال للتحول والزوال، ومحمد ﷺ كان ثابتاً على قدم الرسوخ، فهو صاحب مقام لا حال، وقوله قاب قوسين؛ القاب هو ما بين مقبض القوس ومدخل الوتر، فلكل قوس قابان أو قاب بمعنى قدر. وقوله: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] أي أقرب من ذلك وهو تعالى في قرب محمد ﷺ منه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨ - ٩] أي دنا منه ربه لأنه محبوب والمحبوب مطلوب لا طالب، وهو كمال التحقيق بما الأمر عليه في نفسه، وهو أنَّ الدنو من جهته تعالى، ولا شيء من جهة العبد أصلاً، فتدلى.

أي نزل إليه ربه بوصفه بالوجود في مقام الشهود، فكان أي ربه تعالى أو هو ﷺ من ربه سبحانه قاب قوسين، أي مقدار قرب القاب من القوسين، إذا وضع كل واحد منهما مقابلاً للآخر، بحيث تخرج منهما دائرة مقوسة بالوترين، وأفرد القاب مع إضافته إلى القوسين، فيكون أربعة أقواب لكل قوس قابان لإرادة الجنس أو إشارة إلى أنَّ كل قاب أي طرف من الدائرة المحمدية عين الطرف الآخر، فكأن الأطراف الأربعة طرف واحد.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] فهي الأطراف الأربعة كالمبتدأ، والخبر غير المبتدأ باعتبار، وعينه باعتبار آخر، كقولك: زيد قائم فإنَّ الموصوف بالقيام هو زيد في المعنى، وكذلك هنا فإنَّ النور المحمدي الذي هو أول مخلوق، كما ورد في الحديث

أو: «ما خلق الله نور نبيك يا جابر». ثم خلق الله منه كل شيء، فكان محمد ﷺ أولاً، وكان أيضاً آخراً، لأنَّ المادة كالخشب مثلاً إذا صنع منها الكرسي كانت عين الكرسي، وإنما زاد عليها بالصورة، وكان ظاهراً بالصورة، وكان باطناً بالمادة لعدم اعتبارها في حال اعتبار الصورة.

ثم قال العارف النابلسي رضي الله عنه عند قول صاحب خطبة الديوان: «وقرن اسمه الشريف بأعظم أسمائه الحسنى» وهو اسم الله ، فإنَّه الاسم الأعظم على ما عليه إلا كثر ذكر اسمه تعالى مع إسمه ﷺ في الشهادتين كما ورد في حديث جبرائيل عليه السلام حين سأله عن الإسلام، فقال بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأنَّ محمداً رسول الله إلى آخره، وهو ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة:٣ - ٤]، وكان يوحى إليه ﷺ بالقرآن وبالسنة أيضاً، كما ذكرناه في كتابنا الحديقة الندية شرح الطريقة المحمدية، ثم قال العارف النابلسي عند قول صاحب خطبة الديوان، وهو سبط ابن الفارض، وقال ولده أي ولد الشيخ عمر رحمه الله تعالى: رأيت وأنا في يقظتي الشيخ، يعني والده الشيخ عمر رضي الله عنه، وكان في حال حياته نائماً مستلقياً على ظهره، وهو في تلك الحالة يقول: صدقت يا رسول الله، صدقت يا رسول الله، صدقت يا رسول الله... هكذا ثلاث مرات رافعاً بذلك صوته، مشيراً بإصبعيه السبابتين من يده اليمنى ويده اليسرى إليه ﷺ واستيقظ أي الشيخ رحمه الله تعالى من نومه ذلك وهو يقول كذلك، أي صدقت يا رسول الله مكرراً ثلاث مرات، ويشير بإصبعيه كما كان يفعل وهو نائم، فأخبرته أي الشيخ رضي الله عنه بعد استيقاظه بما رأيته يفعله من الإشارة بإصبعيه، وبما سمعته منه من قوله المذكور، وسألته عن سبب ذلك أي القول والإشارة فقال أي الشيخ رضي الله عنه: يا ولدي، رأيت رسول الله ﷺ في المنام.

ومعلوم أن من رأى النبي ﷺ في المنام، فقد رآه حقاً، كما ورد في الحديث قال رسول الله ﷺ: «من رآني في المنام، فقد رآني، فإنَّ الشيطان لا يتمثل بي». رواه أحمد بن حنبل والبخاري والترمذي، عن أنس رضي الله عنه.

وفي رواية: «من رآني فقد رأى الحق، فإنَّ الشيطان لا يتزيّا بي». رواه أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم، عن أبي قتادة رضي الله عنه.

وفي رواية: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي». رواه البخاري ومسلم وأبو داود، عن أبي هريرة رضي الله عنه أي تكون رؤياه ﷺ في المنام بشارة له أنَّه سيراه في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان به في اليقظة أيضاً بالرؤية البرزخية، التي تحصل للأولياء العارفين بالله تعالى إذا تجردوا في اليقظة من عالم أجسامهم، وغلبت عليهم

روحانياتهم، ولطفت كثائفهم بالرياضة الشرعية والطاعة المرضية، فإنَّهم يتجردون في اليقظة عن غلبة عالم الطبيعة عليهم كما يتجرد النائم، فيرون في اليقظة ما يراه النائم في منامه، ويجتمعون بالأرواح البرزخية، ويتكلمون معهم وهو أمر محقق عند العارفين، فيكون في الحديث إشارة إلى «أن من رأى النبي ﷺ في منامه واستعظم تلك الرؤيا حتى أوجبت كمال تقواه واستقامة حالة على الشريعة ظاهراً وباطناً». لا ظاهراً فقط، كما يظنه الأجانب عن هذا الطريق، فإنَّه يصير ولياً عارفاً، ويرى النبي ﷺ في اليقظة، فتكون رؤياه له في المنام داعية إلى حصول ذلك المقام.

وأما من رآه ﷺ في المنام، واستمر مصراً على ما هو فيه من الآثام في الظاهر والباطن، وهو غافل محجوب مشغول القلب بالدنيا وجمع الحطام. فإنَّ تلك الرؤيا وبال عليه ومكر به وانتقام.

وقد أشار القسطلاني رحمه الله تعالى في مواهبه اللدنية إلى إمكان رؤيته ﷺ في اليقظة، وكذلك ابن حجر الهيتمي في شرح همزية البوصيري، وللأسيوطي رسالة في ذلك سماها إنارة الحلك في إمكان رؤية النبي والملك.

قال ابن الفارض، وقال رسول الله ﷺ لي: يا عمر، لمن تنتسب؟ فقلت: يا رسول الله. إلى بني سعد، وهي قبيلة حليمة السعدية مرضعتك يا رسول الله. فقال ﷺ: «لا بل أنت مني، أي من ذريتي ونسبك متصل بي». فقلت: يا رسول الله، إني أحفظ نسبي عن أبي وجدي إلى بني سعد، فقال ﷺ: لا لا ماداً صوته ﷺ بل أنت مني ونسبك متصل بي، أي من أولاد علي من فاطمة الزهراء رضي الله عنهم فقلت: صدقت يا رسول الله مكرراً ذلك القول ثلاث مرات، مشيراً إليه ﷺ بإصبعي.

قال جامع هذا الديوان: رأيت ولده المشار إليه واقفاً على قدميه في اليقظة، وأصابع يديه مبسوطة على ركبتيه من غير إنحناء في ظهره، بأن كانت يداه طويلتان بحيث تصلان إلى ركبتيه.

وقال ـ أي ولد الشيخ رحمه الله تعالى ـ: رأيت والدي أي الشيخ عمر بن الفارض، رضي الله عنه واقفاً على قدميه، وأصابع يديه مبسوطة على ركبتيه مثل وقوفي هذا، وأشار إلى وقوفه ذلك كذلك، وقال أي ولد الشيخ أو الشيخ: هذا وصول اليدين إلى حد الركبتين من علامات الشرف.

قال العارف النابلسي: ولا يلزم أن يكون ذلك شرطاً في صحة النسب، بل هو من علاماته كما قال: وقد ورد في الأخبار ما يدل على أنَّ النبي ﷺ كانت يداه طويلتين في الحس

والمعنى، فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فقمت عن يساره، فأخذ برأسي فأقامني عن يمينه.

أخرجه البخاري ومسلم، وفي رواية لغيرهما: فأخذ بأذني وأدارني خلفه، حتى أقامني عن يمينه. وفي رواية: وقمت خلفه، فأخذ ذؤابتي، وأقامني عن يمينه، فعدت إلى مكاني، فأعادني ثانياً وثالثاً. فلما فرغ قال: ما منعك يا غلام أن تثبت في الموضع الذي أوقفتك؟ قلت: أنت رسول الله، ولا ينبغي لأحد أن يساويك في الموقف، فقال ﷺ: **«اللّهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»**.

ولا شك أنّه لا أطول من يد تمد إلى رأس مقتدٍ على اليسار أو إلى أذنه، فتجذبه من خلف إلى جانب اليمين من غير تحويل عن القبلة من صاحب تلك اليد، فهي اليد الطولى. ثم قال جامع هذا الديوان سبط الشيخ: النسبة الشريفة التي أرادها ﷺ بقوله للشيخ عمر في المنام: **«بل أنت مني ونسبك متصل بي»**.

أما أن تكون نسبته الأهلية بأن يكون من ذرية فاطمة التي هي ذرية النبي ﷺ. قال العارف النابلسي: وهو الظاهر المتبادر من الكلام، وإن لم يكن ثابتاً في الظاهر، وكان الثابت غيره لأنّه لما كان المعتبر في الشرع ثبوت النسب بالبينة، واختلاف الأزمان يقتضي اختلاف الناس في طبائعهم وعاداتهم وأغراضهم ومقاصدهم... فقد يضعف بعض الذرية عن إقامة البينة، وقد تمتنع الشهود عن أدائها لخوف أو طمع، وقد يعدل الحاكم، وقد يظلم، وقد ينتسب بعض الذرية إلى غير نسبه لجهله بنسبه، أو لغرض من الأغراض، فيكون قول النبي ﷺ هو الصحيح، على خلاف ما هو في ظاهر الحال، وإن لم تكن هذه الرؤيا المنامية موجبة لحكم من الأحكام الشرعية.

قال سبطه: أو تكون تلك النسبة نسبة المحبة بينه وبين النبي ﷺ والنسبة التي هي عند أهل المحبة أشرف قدراً واعتباراً من نسب الأبوة، التي كانت منها الولادة، وهي التي جعلت بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي من أهل البيت. قال العارف النابلسي أي بيت النبوة المحمدية، بل ورد في الحديث أنّه قيل له ﷺ من آلك يا رسول الله؟ قال: **«آلي كل مؤمن أو كل مؤمن تقي»**. على اختلاف الروايتين. والآل بمعنى الأهل.

وقال رسول الله ﷺ: **«سلمان منا أهل البيت»**.[1] رواه الطبراني والحاكم، عن عمرو

---

(١) رواه الحاكم المستدرك (٣: ٢٨٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (٩: ٣٠٥). والطبراني في المعجم الكبير (٨: ٣٤). =

ابن عوف. وفي رواية: «**سلمان سابق فارس**». رواه ابن سعد عن الحسن مرسلاً. وقال رسول الله ﷺ: «**السباق أربعة أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبشة**».[1]

رواه البزار والطبراني والحاكم، عن أنس؛ ورواه الطبراني عن أم هانئ، ورواه ابن عدي عن أبي أمامة. وأبعد عنها، أي عن نسبة المحبة، أبو طالب بن عبد المطلب ابن هاشم عم النبي ﷺ أخو أبيه عبد الله، وأبو علي كرّم الله وجهه وقد قال النبي ﷺ: «**حريصاً على إسلامه، فعاده في مرض موته**»، فقال له: قل لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله. فأبى حتى كان يقول ﷺ: «**يا عماه قلها ولو في أذني، كلمة أحاجج لك بها يوم القيامة**».

فقال على دين الأشياخ من قريش، ولم يتشرف بها، أي بنسبة المحبة المذكورة ولم تنفعه نسبة العمومة التي هي أقرب الأنساب الأهلية لاقتضائها العصوبة والولاية لما حجبته المشيئة الإلٰهية الأزلية بما قدرته عليه من الموت على الكفر، والعياذ بالله تعالى عن الهداية الربانية والعناية الرحمانية، وكذلك تبرأ إبراهيم الخليل عليه السلام من أبيه آزر، لما تبين له أنّه عدو لله تعالى، كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] وكان وعده بالإسلام والإيمان به، فامتنع من ذلك.

وقيل لنوح عليه السلام عن ولده لما قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٦] وإلى هذا النسب الشريف الذي، هو نسب المحبة أشار شيخنا، يعني الشيخ عمر رضي الله عنه، في القصيدة اليائية التي قافيتها الياء المثناة التحتية حيث قال:

نسب أقرب في شرع الهوى ... بيننا من نسب من أبوي

قلت: أي قال جامع هذا الديوان، سبط الشيخ عمر رحمهما الله تعالى بطريق المناسبة في اعتبار نسب المحبة نظير واقعة الشيخ عمر رضي الله عنه مع النبي ﷺ ورأيت في المنام كأنني في الحضرة الشريفة المحمدية، وكأنَّ عند رسول الله ﷺ جماعة كثيرة من الأنبياء والأولياء وكأنَّ الشريف شمس الدين الأيكي نقيب الأشراف، وقاضي العساكر المنصورة، توفي بدمشق في شهر رمضان سنة سبع وتسعين وستمائة مع الجماعة في الحضرة الشريفة، ولم أعرف أحداً منهم بصورته سواه، وكأن النبي ﷺ أمر بإثبات نسبة الشيخ صُبَيح الحبشي

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩ : ١١٨).

إليه، أي النبي ﷺ ورأيت رجلاً في المجلس معه المكتوب الذي يشهد فيه بالنسبة الشريفة المحمدية، وهو يدور على الحاضرين في ذلك المجلس يأخذ خطوطهم فيه؛ فلما وصل إليّ ناولني المكتوب، وقال لي: اكتب فقلت له: أنا ما رأيت الشيخ صُبَيح، ولا عاصرته، ولا أعرف نسبته؛ وإنّما رأيت أولاده وهم أصحابي، فصرخ عليّ صرخة عظيمة، وجدت لها رعباً عظيماً.

وقال لي: اكتب كما أمر رسول الله ﷺ أن يكتب، فقلت: وكيف أمر سيدنا رسول الله ﷺ أن يكتب؟ فقال: اكتب «أشهد أن النبي ﷺ متصل النسب بالشيخ صُبَيح، فكتب كما أمر رسول الله ﷺ أن يكتب؛ والشيخ صبيح المذكور لم يعرف أحد أنه من ذرية النبي ﷺ إلاّ أنّه كان رجلاً من الصالحين الكاملين، كما وقع للشيخ عمر رضي الله عنهما فلعلهما في حقهما نسبة الأهلية أو نسبة المحبة، كما سبق بيانه، ثم قال سبط ابن الفارض، جامع ديوانه في خطبته أيضاً، فقال لي ولده رحمه الله تعالى: سمعت الشيخ رضي الله عنه يقول حصلت مني هفوة، فوجدت مؤاخذة شديدة في باطني، وانحصرت من شدة القبض والغم باطناً وظاهراً، أي في باطني وظاهري، حتى كادت روحي تخرج من جسدي، فخرجت هائماً كالهارب من ذنب فعله، وهو مطلوب فطلعت إلى جبل المقطم، وقصدت مواطن سياحتي، وأنا أبكي وأستغيث وأستغفر، فلم ينفرج ما بي فقصدت مدينة مصر، ودخلت جامع عمرو بن العاص، ووقفت في صحن الجامع خائفاً مذعوراً، وجددت البكاء والتضرع والاستغفار، ولم ينفرج ما بي، فغلب عليَّ حال مزعج لم أجد مثله قط وقلت:

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط

فسمعت قائلاً بين السماء والأرض أسمع صوته ولا أرى شخصه:

محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط

يعني الذي استفهمت عنه، وطلبت تعيينه في ذهنك، ووصفته بأنّه ما عمل سوءاً في عمره أصلاً، وإنّما أعماله كلها أعمال حسنة مرضية، هو محمد ﷺ وإنما خصه دون بقية الأنبياء عليهم السلام وإن كانوا كلهم كذلك لعصمتهم عليهم السلام لأنّه ﷺ آخر من وجد من هذا النوع الإنساني، لأنّه خاتم النبيين، فهو معروف بهذا الوصف المذكور في هذه الأمة أكثر من غيره، أو لأنّه أفضل الجميع فهو الفرد الكامل ﷺ والهادي الذي هدى الأمة، ودلهم على أقوم الطريق الذي نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي من الله تعالى وبالقرآن العظيم، فأرشد الله تعالى به من شاء إلى صراطه المستقيم.

ثم قال سبطه: وقال لي ولده: رأيت الشيخ رضي الله عنه نهض ورقص زماناً طويلاً،

وتواجد وجداً عظيماً، وتحدر منه عرق كثير حتى سال تحت قدميه وخر إلى الأرض، واضطرب اضطراباً شديداً.

قال العارف النابلسي: وهذه الحالة تعتري كثيراً من الفقراء في وقت اجتماعهم في حلق الذكر، حتى إنَّ الرجل منهم ينزع عمامته وبعض ثيابه، وينطرح على الأرض فيبقى كالقطعة من الخشب ليبس أعضائه وقشعريرة جسمه من قوة الوارد.

الذي يهجم على قلبه، والخشوع الذي يغلب عليه، فيسلبه الاختيار خصوصاً من فقراء بين سعد الدين الجباوي بدمشق الشام، ومن فقراء التغالبة بدمشق أيضاً من يدوس بفرسه وهو راكبها على ظهور الرجال في حال وجده الذي يأخذه، ولا يتأثر أحد من ذلك أصلاً.

وربما بما حصل الشفاء بذلك لمن له مرض ونحوه، وربما جذب بيده المقعد الزمن، فيمشي على قدميه في الحال، وهو أمر شائع مشهور عندنا في دمشق الشام، وهي حالة شريفة وإن أنكرها كثير من المتفقهة القاصرين في الزمان لبعدها عنهم من قسوة قلوبهم، وهي من أثر الخشوع. وقد قال ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من قلبٍ لا يخشع». الحديث رواه الترمذي والنسائي، عن ابن عمرو بن العاص، وربما طعن بعضهم في الفقراء بأنَّهم مسرفون على أنفسهم، فتراهم يطلبون فقراء في سبيل الله تعالى معصومين من الزلل والمعصية.

وهذا لا يكون أبداً بل من غلب خيره على شره فهو الكامل، بل في الحديث الشريف النبوي ما هو أبلغ من ذلك، وهو الاكتفاء بالعشر من الخير فضلاً عن غلبته على الشر أو كونه نصفاً أو ربعاً، قال ﷺ: «**إنَّكم في زمان من ترك منكم عشر ما أمر به هلك. ثم يأتي زمان من عمل منهم بعشر ما أمر به نجا**». رواه الترمذي، عن أبي هريرة، وذكره الأسيوطي في الجامع الصغير، فقد حكم ﷺ بالنجاة لمن عمل بالعشر، وهي بشارة عظيمة لكل من سلم من الكفر والشرك إلى آخر الزمان، وقل من يسلم من ذلك في زماننا هذا من كثرة التباس الحق بالباطل على غير أهل التوفيق والعناية، فقد وجدنا من يعتقد الطاعة معصية والمعصية طاعة من كبار علماء زماننا، فضلاً عن العامة منهم ومن بقية الناس، إلاَّ من حفظه الله تعالى وهداه.

ولهذا ورد في حديث الطبراني في المعجم الكبير والحاكم، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم**».[1]

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك (١: ٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ٥٢). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٣١٣). =

ولم يكن عنده أي عند الشيخ عمر بن الفارض رضي الله عنه حين صدور تلك الحالة الشريفة غيري، أي غير ولده المذكور رحمه الله تعالى ثم سكن حاله، وسجد لله تعالى، قال ولده: فسألته عن سبب ذلك، فقال: يا ولدي، فتح الله عليَّ بمعنى في بيت لم يفتح عليَّ بمثله، وهو هذا البيت:

وعلى تفنن واصفيه بحسنه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

قال العارف النابلسي رضي الله عنه: وقد بحثت يوماً مع بعض الإخوان على هذا البيت في مدح الحضرة المحمدية أيهما أبلغ هذا أم قول صاحب البردة رضي الله عنه:

فإنَّ من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فكان يقول: إنَّ بيت صاحب البردة أبلغ، فقلت له: في بيت صاحب البردة فن من فنون الوصف النبوي والمدح المحمدي، فهو داخل تحت تلك الفنون التي أشار إليها الشيخ عمر رضي الله عنه في بيته إلى يوم القيامة، فاعترف بذلك، فلا أبلغ من هذا البيت المذكور. ولهذا سجد شكراً لله تعالى.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله في شرح قول ابن الفارض رضي الله عنهما:

سائق الأظعان يطوي البيد طي ... منعماً عرج على كثبان طي

يشير بالكثبان إلى المقامات المحمدية، في الحضرات الأحدية. ولهذا أضافها إلى طي اسم قبيلة من قبائل العرب منها حاتم المشهور بالكرم، يعني عرج بي أو بهم على المقامات المحمدية التي لا انقضاء لها فصاحبها دائم الترقي قال تعالى: ﴿يَٰأَهۡلَ يَثۡرِبَ﴾ [الأحزاب:١٣] أي يا أصحاب محمد ﷺ يعني ورثتهُ المحمديين.

ويثرب من أسماء المدينة ﴿لَا مُقَامَ لَكُمۡ﴾ [الأحزاب:١٣] أي لا تقفون عند مقام. بل أنتم دائمون في الترقي.

كما قال ﷺ: «إنَّه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة»، وفي رواية: «مائة مرة».

وقال أبو الحسن الشاذلي: إنَّه غين أنوار لا غين أغيار، يعني أنه ﷺ كلما ترقى إلى مقام وجد المقام الأول الذي كان فيه غينا، أي حجاباً، فيستغفر الله تعالى منه.

ومن جواهر العارف النابلسي رضي الله عنه

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنه من القصيدة المذكورة.

فـــاعهـــدوا بطحـــاء وادي سلـــم   فهـــو مـــا بيـــن كـــداء وكُـــدَي

فاعهدوا من التعهد للشيء، قال في القاموس: تعهده وتعاهده تفقده، وأحدث العهد به والبطحاء مسيل واسع فيه دقاق الحصى والسلم بالتحريك اسم شجر نابت في ذلك الوادي، فيقال له وادي سلم وكني ببطحاء وادي سلم عن عالم الأرواح الذي هو الوادي المقس طوى فدس عن دنس الطبيعة، وانطوى فيه كل شيء وبطحاؤُه موضع قبول الفيض الإلهي والمدد الرباني، وهو عالم العقول والألباب، وقوله: فهو أي قلبي الذي ضاع مني بين كداء وكدي. قال في القاموس: كداء كسماء، اسم عرفات وجبل بأعلى مكة.

دخل النبي ﷺ مكة منه. وكُدي كسُمي جبل خرج ﷺ منه وجبل آخر بقرب عرفة كني بالأول عن النور الأول الأعلى، وهو نور الحق تعالى، وبالثاني عن النور الثاني الأسفل، وهو نور محمد ﷺ الذي قال تعالى في حقه نور على نور.

يـــا سقـــى الله عقيقـــاً بـــاللـــوى   ورعـــى ثَـــم فـــريقـــاً مـــن لـــؤي

يا حرف نداء، والمنادى محذوف، أي يا قوم سقى الله عقيقاً، وهو الوادي، وكل مسيل شقة ماء السيل وموضع بالمدينة وباليمامة وبالطائف وبتهامة وبنجد؛ كذا في القاموس.

واللوى، كإلى؛ ما التوى من الرمل، كني بذلك عن المقام المحمدي الذي هو موضع الفيض الرباني، والمدد الصمداني، والوحي الرحماني. وسقاه الله، أي أدام غيث العلوم نازلة لديه وهاطلة عليه.

وقوله: رعى أي حفظ؛ ثم بفتح الثاء المثلثة وتشديد الميم بمعنى هناك، والفريق الطائفة من الناس، يعني حفظ الله تعالى جماعة من العارفين المحققين في ذلك المقام المحمدي، ورثوه بنسب التقوى.

وقوله: من لؤي بن غالب بن فهر، فهم من آل بيته ﷺ كما قال عليه الصلاة والسلام: «آلي كل مؤمن تقي إلى يوم القيامة». [١]

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ١٧). والمتقي الهندي في كنز العمال (٥٦٢٤).

ومن جواهر العارف النابلسي رضي الله عنه

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنه:

ذهب العمر ضياعاً وانقضى ... باطلاً إذ لم أفز منكم بشي
غير ما أوليت من عقد ولا ... عترة المبعوث حقاً من قصي

مراده موالاة بيت النبوة على طريقة التشبيه بأن يعقد مع قلبه، ويأخذ العهد على قلبه بنصرتهم ومحبتهم. والمعنى أنّه لم يفز طول عمره من الحق تعالى بشيء لأنّه تعالى ليس كمثله شيء، وإن عرف نفسه، وقيل له: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» يعني عرف أنّه لا يعرف.

ثم استثنى من ذلك الشيء الذي لم يفز به من ربه، عقد موالاته لآل بيت النبي ﷺ وعد هذا الشيء فوزاً له ونجاة وهبة وعطية من ربه، محبة فيه ﷺ وهو شيء من أشرف الأشياء من قبيل قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقد أضاف في البيت لفظ عقد إلى لفظ ولاء، وأضاف ولاء إلى عترة. والعترة نسل الرجل ورهطه وعشيرته الأدنون، وأضاف العترة إلى المبعوث، أي الذي بعثه الله تعالى، أي أرسله لهداية الأمة.

والمبعوث صفة لموصوف محذوف، أي عترة النبي المبعوث من قصي، وهو أحد أجداد النبي ﷺ وقد سلك هذا المسلك الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي قدس الله سره فقال:

جعلت ولائي آل أحمد قربة ... على رغم أهل البعد يوثني القربا
وما طلب المختار أجراً على الهدى ... بتبليغه إلاّ المودة في القربى

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في التائية الصغرى:

سقى بالصفا الربعيُّ ربعاً به الصفا ... وجاد بأجياد ثرىً منه ثروتي

الصفا الأول من مشاعر مكة بلحف جبل أبي قبيس، والباء في قوله بالصفا بمعنى في، والربعي بالرفع فاعل سقى، وهو المطر الذي ينزل في زمن الربيع، كناية عن العلوم الإلهية

اللدنية؛ وقوله ربعاً مفعول سقى، وهو المنزل كناية عن قلب العارف المحقق، فإنّه منزلة المحبوبة من قوله ﷺ: «ووسعني قلب عبدي المؤمن»؛ وكون ذلك الربع في الصفا أي في المقام الروحاني والسر الإنساني، كما أنّ المروة من مشاعر مكة كناية عن الجسم الطاهر من العصيان المنسوب إلى السر الظاهر أحد حقيقة الإنسان، والإشارة إلى ذلك في السعي من الصفا والمروة في الحج الروحاني من مقام الإحسان، وقوله به، أي فيه الصفا، هو ضد الكدر بذهاب أوهام الأغيار والتهاب أفهام الأسرار؛ وقوله وجاد معطوف على سقى.

يقال جاد بمعنى أمطر، وضميره راجع إلى الربعي قبله، بأجياد وهي أرض مكة أو جبل فيها، كناية عن الجسم العنصري للإنسان الكامل، وقوله ثرى مفعول جاد، والثرى بالمثلثة التراب كناية عن أصل جسم الكامل، الذي نشأ منه كاملاً بتربيته في حجر أحكامه، وهو الحقيقة المحمدية النورانية التي هي هيولى الأكوان من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الكهف:١١٠] وقوله منه أي من ذلك الثرى ثروتي، أي غناي، وهو حصول الفتح له في ذوق التجليات الإلٰهية.

مخيم لـذاتـي وسـوق مـآربـي وقبلـة آمـالـي ومـوطـن صبـوتـي

مخيم بضم الميم وفتح الخاء المعجمة وتشديد الياء التحتية، من خيم زيد بالمكان إذا أقام فيه؛ واللذات جمع لذة، وهي ما ينشأ عن إدراك الملايم، وذلك حظ الروح كما أنّ الشهوة حظ النفس لتعلقها بالجسم، على معنى أنّ لذاته الروحانية مقيمة في ذلك الثرى المذكور في البيت قبله؛ ثم قال: وسوق مآربي، أي مقاصدي وحاجاتي على معنى أنّ مقاصده وحاجاته تباع وتشترى فيه، من قوله ﷺ: «إنّ الله هو المعطي وأنا القاسم». قال سيدي عبد الغني: ولنا من هذا المعنى قولنا في قصيدة نبوية:

يـا أبـا القـاسـم يـا قـاسـم مـا يهـب الله علـى طـول المـدى

ثم قال أي ابن الفارض وقبله آمالي القبلة بكسر القاف الجهة، والآمال جمع أمل وهو الرجاء، أي جميع ما آمله وأتمناه متوجه إليها، أي إلى تلك القبلة التي هي ذلك الثرى المذكور، وهو يتمنى ويترجى الدخول بها إلى الحضرة الإلٰهية، ولا يدخل إليها إلاّ من جهة هذه القبلة، كما قال القطب البكري قدس الله سره من أبيات نبوية:

وأنـت بـاب الله أيّ امـرئ أتـاه مـن غيـرك لا يـدخـل

وقوله: وموطن الصبوة في الأصل جهلة الفتوة، وهنا معناها زيادة العشق والمحبة، من قوله ﷺ: «لن يكمل إيمان أحدكم، حتى أكون أحب إليه من نفسه وأهله والناس أجمعين».

وقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦] وسبب ذلك كشفه عن

الأكوان أنّها من نوره ﷺ ووجد أنّه أنَّ كل محبة له ﷺ في تعيناته الروحانية والجسمانية على التخييل والتمثيل.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في التائية الصغرى:

على فائت من جَمْع جِمْعِ تأسفي ووِدّ على وادي محسِر حسرتي

على فائت جار ومجرور خبر مقدم، وقوله تأسفي مبتدأ مؤخر. وقدم الخبر للاهتمام والحصر، يعني على أمر فائت لا على غيره؛ وقوله من جمع بيان لذلك الفائت، أي الذي يكون ساعة ويفوت، وجمع الأول ضد الفرق، وهو شهود الوحدة في عين الكثرة، ولا بقاء له إلاّ في غلبة الروحانية على الجسمانية، والفرق: شهود الكثرة في عين الوحدة، وذلك من غلبة الجسمانية على الروحانية، وأصل ذلك كلام الله تعالى النفساني القديم، الذي هو عين العلم الأزلي من وجه نزل قرآناً فهو جمع، ونزل فرقاناً فهو فرق، ولا يقدر على شهوده قرآناً إلاّ الأنبياء عليهم السلام فشهده محمد ﷺ قرآناً، وكذلك ورثته الكاملون؛ وشهده أيضاً فرقاناً كعوام الخلق، وشهده آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم صحائف، وشهده موسى توراة وداود زبوراً وعيسى إنجيلاً، والكل كلام الله تعالى القديم النفساني المنزل لا يختلف إلاّ بالحروف والأصوات، وكذلك ورثة هؤلاء الأنبياء عليهم السلام وشهدوه كذلك من أممهم؛ ومن هذه الأمة من مشكاة محمد ﷺ الجامع الخاتم، وكذلك شهدوه فرقاناً هم وأممهم. وقوله جمع الثاني علَم على المزدلفة مكان بين عرفات ومنى، وقوله وود بالجر معطوف على فائت الود مثلث والواو واو المحبة؛ ووادي محسر بكسر السين اسم مكان قريب المزدلفة.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول الإمام ابن الفارض رضي الله عنهما في تائيته الصغرى:

وما دار هجر البعد عنها بخاطري لديها بوصل القرب في دار هجرتي

يقال: ما دار الشيء في خاطري، أي ما خطر ببالي؛ وهجر بفتح الهاء أي ترك البعد عنها، أي عن المحبوبة بخاطري، أي في بالي من خطر له يخطر خطوراً، ذكره بعد نسيان.

وقوله لديها، أي وأنا عند المحبوبة بوصل القرب، أي الوصل الذي هو عين القرب؛ في دار هجرتي بكسر الهاء، ودار الهجرة هي مدينة الرسول ﷺ كناية عن الحقيقة النورية الأصلية المحمدية، التي خلق الله تعالى منها كل شيء بوجه الأمر الإلٰهي القائم به كل شيء؛ فإنَّ من دخل في هذه الحقيقة الأصلية التحق بها فكان متصلاً واحداً، وصار كلامه بلسانها، كما قال المصنف في التائية الكبرى، يعني على لسان النبي ﷺ:

وإنــي وإن كنــت ابــن آدم صــورة ... فلــي فيــه معنــى شــاهــد بــأبــوتــي

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول الإمام ابن الفارض رضي الله عنهما في أول أبيات ثلاثة نظمها بعد نظمه التائية الكبرى، وهي مذكورة في الديوان في أولها:

سـلام علـى تلـك المعـاهـد مـن فتـى ... علـى حفـظ عهـد العـامـريـة مـا فتـي

نكر السلام للتعظيم. وقوله على تلك المعاهد أشار إلى ما تقدم من حضرات الحقيقة المحمدية؛ والمعاهد جمع معهد، وهو المنزل المعهود به الشيء، فإنَّ عهد الربوبية أخذ على الذرات البشرية حين أخرجت من ظهر آدم عليه السلام يوم الميثاق قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية.

والحقيقة الآدمية من الحقيقة المحمدية النورية الأصلية، التي هو أول خلق الله تعالى وقوله من فتى، يعني نفسه. والفتى هو الشاب السخي الكريم من الفتوة الجامعة لمكارم الأخلاق بطريق الميراث للمقام المحمدي، الذي قال تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقوله على حفظ عهد العامرية هي المحبوبة المنسوبة إلى بني عامر، القبيلة المعروفة، كناية عن المحبوبة الحقيقية المشار إليها فيما سبق من الأبيات بنحو ذلك، وقوله: ما فتي أي ما برح وما زال، يعني هو مقيم على ذلك العهد.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول الإمام ابن الفارض رضي الله عنهما في تائيته الكبرى، التي أمره النبي ﷺ في المنام بتسميتها «نظم السلوك» فسماها بذلك:

وحـزنـي مـا يعقـوب بـث أقلـه   وكـل بـلا أيـوب بعـض بليتـي

وحزني ما، أي حزن عظيم يعقوب النبي عليه السلام ما بث فعل ماض من بث الخير نشره وفرقه، وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٨٦] وقوله أقله مفعول بث، والضمير لحزني لقدرته عليه السلام على الكتم من قوة النبوة دون غيره، وإن اشتركا في التعلق بالجناب الإلٰهي في المظهر الكوني، وقوله وكل بلا أيوب عليه السلام بعض بليتي يعني من جهة خطر البلاء، لجواز صدور البلاء في الدين كالمعاصي والكفر على غير الأنبياء عليهم السلام بخلاف الأنبياء، فإنَّ ذلك يستحيل في حقهم لعصمتهم من ذلك دون غيرهم، فلا يرد على الناظم قوله ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**»[1].

ويمكن أن يقال بأنَّ الأشدية من جهة الألم، أو من مخافة التقصير فيما هم بصدده من المخاطبة بالوحي دون غيرهم في الأوامر والنواهي والتبليغ في حق الرسل منهم عليهم الصلاة والسلام وإن قصدت المبالغة في ذلك بطريق الادعاء دون إرادة معنى ظاهر الكلام، كما هو دأب البلغاء، فلا إيراد وكذلك إن أريد ما هو أعلى من ذلك، وهو التكلم عن الحقيقة المحمدية، وهي النور الذي هو أول مخلوق كما ورد في الحديث: «**أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر، ثم خلق منه كذا وكذا**». الحديث في مسند عبد الرزاق وغيره بمعناه

فالناظم من جملة من خلق من نوره ﷺ ثم بعد اضمحلال الغيرية عنه بالفناء والمحبة والعشق، تكلم على لسان الحقيقة المحمدية بطريق الميراث للمقام المحمدي، كما هو دأبه رضي الله عنه هذه في القصيدة «نظم السلوك» وغيرها كقوله:

لقـد خضـت بحـراً دونـه وقـف الألـى   بسـاحلـه صـونـاً لمـوضـع حـرمتـي

ومن فضل ما أسأرت شرب معاصري   ومـن كـان قبلـي فـالفضـائـل فضلتـي

فإنَّ هذا لا يليق إلاَّ بالحقيقة المحمدية.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في التائية الكبرى:

منحتـك علمـاً إن تـرد كشفـه فـرد   سبيلـي واشـرع فـي اتبـاع شـريعتـي

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٥٣). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨: ١٢١).

منحتك أي أعطيتك بما ذكرته له من هذه المسألة العظيمة، التي هي تجلي الحق تعالى في الصور على حسب ما يريد تعالى، مع كمال تنزهه عنها، فيظهر بها غير حال فيها ولا متحد بها، فيكون هو الظاهر سبحانه وحده ولا شيء معه غيره.

وقوله علماً تنكيره للتعظيم، أي علماً عظيماً. وقوله إن ترد يعني يا أيها السالك في طريق الله تعالى كشفه، أي كشف ذلك العلم بأن تدركه ذوقاً، وتنازله منازلة، فإنَّ مجرد فهمك له من غير كشف ومنازلة لا يجدي شيئاً، كعلم الأعمى بالمكان الذي هو فيه، فإنّه يتخيله بعقله وهو بعيد عنه، فقربه إليه مثل بعده عنه، وإذا فتح بصره، وجد ما كان يتخيله على خلاف ما كان يتخيله، وكشف عن الأمر على ما هو عليه، وتحقق أنَّ الأمور كلها على ما هي عليه، وإنّما قوة إدراكه كانت ضعيفة عن كشف ذلك، فلما قويت أبصرت ما هنالك.

وقوله فرد الفاء في جواب الشرط، ورد فعل أمر من ورد، أشرف على الماء أو غيره، دخله أو لم دخله.

وقوله سبيلي أي طريقي الذي أنا سالك فيه إلى ربي، وفيه إشارة إلى أنّه لا وصول بحيث ينتهي أمر السالك، وإنّما هي تجليات واستتارات في أعيان تلك التجليات، كما قال الناظم قدس الله سره في الكافية:

قال لي حسن تجلي بي تملى فقلت قصدي وراكا

فالطلب دائم والسير قائم والقلب هائم. ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] أي من حيث السلوك في الأغيار، والدخول في عالم الأسرار والأطوار والأدوار، فينتهي الأمر إليه، وتنكشف علومه منه عليه، كما قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] أي بك، وقال ﷺ عن نفسه: «إنّه ليُغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من مائة مرة».

فقال العارف الكامل أبو الحسن الشاذلي قدس الله سره: هذا غين أنوار لا غين أغيار، فإنّه ﷺ كان دائم الترقي، فكلما ترقى إلى مقام في القلب وجد ما قبله حجاباً، فاستغفر الله منه... وهكذا إلى ما لا نهاية. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٣].

وأهل يثرب أهل المدينة، إشارة إلى الورثة المحمديين، فإنهم لا مقام لهم يقيمون فيه ويقفون عنده، وهو التلوين في التمكين، فيرجعون إليه تعالى، فهو تعالى مركز الجميع دنيا وآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١] وهو معنى المنتهى في الآية السابقة. وأما السلوك في سبيله تعالى فلا نهاية له في الدنيا والآخرة يردون إليه ويصدرون عنه. ثم يردون إليه... وذلك لأنّ تجلياته تعالى لا تتناهى ولا تتكر أزلاً وأبداً. وقوله:

وأشرع من شرع في الأمر شروعاً: خاض ودخل فيه. وقوله: في اتباع، أي متابعة شريعتي، والشريعة ما شرع الله تعالى لعباده، والظاهر المستقيم من المذاهب كالشرعة بالكسر، كذا في القاموس. قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨] أي طريقاً مستقيماً يسلك عليه إلينا، وهي إختلاف التجليات الإلٰهية بالأحوال البشرية لاختلاف المشارب، كما قيل:

مشاربنا شتى وحسنك واحد ... وكلٌّ إلى ذاك الجمال يشير

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في التائية الكبرى:

فمنبع صدًّا من شراب بقيعه ... لديّ فدعني من سرابٍ بقيعتي

قوله صدا بفتح الصاد المهملة وتشديد الدال المهملة ممدود، وقصر هنا للوزن قال في الصحاح: وصدا اسم ركية، أي بئر عذبة الماء.

وفي المثل ماء ولا كصداء، وقوله من شراب بالشين المعجمة أي مشروب متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، وهو منبع كني بمنبع صداء هذا البئر المشهور بعذوبة الماء، الذي يضرب به المثل في العذوبة والحلاوة والبرودة عن قلبه، العارف بربه المحقق في المعرفة، الذي تنبع منه العلوم الإلٰهية العذبة، المشروب لكل صادى.

وقوله بقيعه بالباء الموحدة، فالقاف فالياء المثناة التحتية، فالعين المهملة، قال في القاموس: البقيع موضع فيه أصول الشجر من ضروب شتى، وبقيع الغرقد مقبرة بالمدينة المنورة. والغرقد بالغين المعجمة اسم للشجر العظام، أو هي العوسج إذا عظم سمي البقيع بذلك، لأنّه كان منتبهاً. وبقيع الزبير، وبقيع الخيل، وبقيع الخبجبة بخاء معجمة ثم باء موحدة ثم جيم كلهن بالمدينة المنورة.

والخبخبة يقال أيضاً بخائين معجمتين وبجيمين بينهما باء موحدة، اسم شجر أشار إليه في القاموس. وضمير بقيعه راجع إلى الشراب، أي أصل ذلك الشراب الذي منبع صداء منه

يخرج من موضع شريف فيه أصول الشجر من ضروب شتى، فكنى بالموضع الشريف الذي هو المدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام عن الحقيقة المحمدية، فإنَّها موضع هذا الشراب الذي منبع صداء منه المكنى به عن قلبه، كما ذكرنا، وكنى بذلك الشراب عن الروح المنفوخ منه في الهياكل الجسمانية الإنسانية. ثم أشار بأنَّ ذلك الموضع فيه أصول الشجر من ضروب شتى، يعني جميع حقائق الأنبياء والمرسلين والأولياء والصديقين... نبتت أصولهم في ذلك الموضع ونشأوا بتربية حقائقهم منه، كما ورد أنَّ الله تعالى: **«أول ما خلق نور محمد ﷺ ثم خلق منه جميع الأشياء»**[1].

كما ورد في حديث عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: يا رسول الله أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء. قال ﷺ: **«يا جابر إنَّ الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله تعالى»**؛ ولم يكن في ذلك الوقت لوح، ولا قلم، ولا جنة، ولا نار، ولا ملك، ولا سماء، ولا أرض، ولا شمس، ولا قمر، ولا جن، ولا إنس...

فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق، قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول السمٰوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنة والنار.

ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نور قلوبهم وهي المعرفة با لله تعالى، ومن الثالث نور تشهدهم وهو التوحيد لا إلٰه إلاَّ الله محمد رسول الله... إلى آخر الحديث.

وصح حديث أول ما خلق الله القلم، وجاء بأسانيد متعددة أنَّ الماء لم يخلق قبله شيء، ولا ينافيه ما في الأول من نور نبينا محمد ﷺ لأنَّ الأولية في غيره نسبية وفيه حقيقية، فلا تعارض. وفي حديث ابن القطان: **«كنت نوراً بين يدي ربي قبل آدم بأربعة عشر ألف عام»**. وفي الخبر: **«لما خلق الله آدم جعل ذلك النور في ظهره، فكان يلمع في جبينه، فيغلب على سائر نوره»**. الحديث ذكره شارح القصيدة الهمزية الأبوصيرية العلامة ابن حجر المكي، فقوله: بقيعه أي بقيع ذلك الشراب لديَّ، بتشديد الياء التحتية، أي عندي، وهي حقيقتي التي أنا بها إنسان كامل. قال الشيخ الأكبر قدس الله سره في كتابه «شرح الوصايا اليوسفية»: ولا شك أنَّ الورثة إنَّما هم هياكل لروحانية النبي ﷺ فهو رسول الله أبداً حياً وميتاً، فمن يطع الشيخ فقد أطاع الرسول؛ فإنَّه روح هيكله.

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ٣١٠).

ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فإنَّه مجلاه. وحينئذ الرسول موضع ظهور الحق، ثم يغني عن الرسول لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] فيكون نظرك في الرسول فيغيب الرسول، فيبقى الحق في مغيب الرسول بالنص، كذلك يبقى الحق في مغيب الشيخ عن بصيرتك، إذ هو المتكلم من الرسول، ومعنى ذلك حضور الرسول ﷺ عنده في حقيقته التي خلقت من نوره ﷺ في وقائعه التي تهمه في دينه أو دنياه أو آخرته.

قال الشيخ الأكبر قدس الله سره أيضاً في كتابه المذكور: وحضور النبي ﷺ في الوقائع دليل على علو مرتبة صاحب الواقعة وعصمته وعلوه فيما رآه، فإنَّه من مرآة الحاضر ينظره لا من مرآته، مثل مسألة الشاب الذي أغنته رؤْية الله عزَّ وجل عن رؤْية أبي يزيد في زعمه، فلما حضر أبو يزيد ورأى الله تعالى هذا الشاب لم يطق حمل عظيم ما رآه فمات من حينه، فأين هذا الإدراك بحضور أبي يزيد من ذلك الإدراك الذي انفرد به؟ وأين أبو يزيد من محمد ﷺ؟

ولقد روينا عن أبي موسى الدبيلي، عن أبي يزيد البسطامي أنَّه سأل الله تعالى رؤْية مقام رسول الله ﷺ فقيل له: إنَّك لا تطيق أي نورك الذي ترى به يضعف عن إدراك ما تطلبه من ذلك مع كون الحق في هذه الحال بصره، فكيف به لو لم يكن بصره؟ فألح في السؤال.

قال أبو يزيد: ففتح لي من ذلك قدر خرم إبرة، فلم أطق الثبوت عند ذلك واحترقت. هذا قوله عن نفسه، فلولا مشاهدته تعالى في الصور المعتادة لما ثبت أحد عند رؤْيته شيئاً من ذلك، فإنا لا نشك في قوة رسول الله ﷺ وثباته وعلو مرتبته في معرفة ربه عزَّ وجل ومع هذا قيل له في حق ما أعطيه أصحاب الكهف: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارًا﴾ [الكهف:١٨] ويعني خوفاً على نفسك أن تذهب، ﴿وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبًا﴾ [الكهف:١٨] أي في قلبك، فإنَّهم جماعة ولكل واحد منهم حال مع الله في إيمانه به ما هو للآخر، فلو أطلعت عليهم بالجملة لرأيت اختلاطاً في الأمر واختلافاً في النظرة الواحدة، فكنت تخاف على نفسك من الحيرة، فيما رأيته في النظرة الواحدة، فكنت تولي فراراً وتملأ قلبك رعباً من هذا الأمر، لأنَّك ترى ما لا تقدر على رفعه بعلمك، بأنَّ الله جعل ذلك كله حقاً. ولا ينضبط لك منه شيء دون شيء، فتحتار وتملأ رعباً.

تفرقت الضباب على خراش فما يدري خراش ما يصيد

وليس في قوة هذا الصائد أخذ الكل، ولا يدري ما هو الأولى من ذلك، فيقصد إليه ويترك ما سواه.

ثم قال العارف النابلسي: وقال العارف المحقق الشيخ عبد الكريم الجيلي في كتابه «الإنسان الكامل» اعلم وفقك الله أنَّ الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود

من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان إلى الآبدين، ثم له التنوع في الملابس، فيسمى باعتبار لباس ما لا يسمى به، باعتبار لباس آخر. واسمه الأصل الذي له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين.

ثم له باعتبار ملابس آخر أسامي، وله في كل زمان اسم يليق بلباسه في ذلك الزمان، وقد اجتمعت به ﷺ وهو في صورة شيخي شرف الدين إسماعيل الجبرتي، فكنت أعلم أنَّه النبي ﷺ وكنت أعلم أنَّه شيخي.

وهذا من جملة مشاهد شهدته فيها بزبيد سنة ست وتسعين وسبعمائة. وهذا المعنى أنسب بذكر قوله بقيعه بالباء الموحدة، لأنَّ الأبيات التي بعده مقولة على لسان الحقيقة المحمدية الحاضرة عند الناظم قدس الله سره من حيث نفسه، فتكلم على لسانها.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله في شرح قول ابن الفارض رضي الله عنهما في تائيته الكبرى:

ودونك بحراً خضته وقف الألى   بساحله صوناً لموضع حرمتي

الألى السابقون الأولون. وقال البساطي في شرحه الألى مقلوب أول جمع الأولى، مثل أخرى وأخر، ومنه قولهم ذهبت العرب الأول، ويحتمل أن يكون موصولاً حذفت صلته. ثم قال: فإن كان الألى بمعنى السابقين الأولين، فهم الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام ومن دونهم من أولياء زمانهم، لأنَّهم لم يكونوا خاضوا هذا البحر العظيم الذي هو محمد ﷺ لأنَّهم لم يدركوا زمانه، ولا كانوا محسوبين من أمته، ولا أطلعوا على ما اطلع عليه الناظم، وإن لم يكن نبياً من العلوم المحمدية والحقائق والمعارف الأحمدية، أو المراد بالبحر بحر التوحيد الذي خاضته الأولياء والصديقون، ولم يجدوا له قراراً والأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام لم يخوضوه، لأنَّ علومهم علوم الوحي النبوي الموقوف على نزول جبريل الأمين من حضرة رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] وعدم الشرك هو التوحيد، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] فالأنبياء عليهم السلام لم يخوضوا في

التوحيد، وإنّما وقفوا بساحله متابعة للوحي الإلٰهي، إذ ليس للأفكار والعقول الإنسانية عليهم حكم في بواطنهم، لأنّهم يجدون الوحي من الله تعالى في جميع أحوالهم، فهم المعصومون من كل ما سواه تعالى أن يلج في قلوبهم بغير أمره سبحانه بخلاف الأولياء، فإنّهم خاضوا بحار التوحيد بالفتح والإلهام الرباني، فيما أوحي إلى الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لأنّهم أتباعهم يخوضون فيما يوحى به إلى الأنبياء. والخوض هو التردد في الشيء مرة بعد أخرى، لمعرفته والتحقق به، وذلك من عدم عصمة الأولياء وعدم الوحي في حقهم؛ فالخوض في الشيء دون الوقوف بالساحل، فإنَّ الوقوف بالساحل إدراك للشيء من غير خوض فيه ولا مباشرة، لا سيما ولم يرد الخوض في القرآن إلاّ بمعنى الباطل. قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦٨] فالخوض هو الدخول في الشيء، فإن كان الخوض بالنفس والهوى. فهو الباطل، وإن كان بالفتح الإلٰهي والإلهام في معاني القرآن والسنة فهو الممدوح، لأنّه خوض بالحق لا بالباطل. وخوض الأولياء والصديقين، فإنّه ليس بالنفس، ولا بالهوى. وقد طهر الله الأنبياء والمرسلين عنه صلوات الله عليهم أجمعين والساحل ريف البحر وشاطئه مقلوب، لأنَّ الماء سحله، فكان القياس مسحولاً، أو معناه ذو ساحل من الماء إذا ارتفع ثم جزر فجرف ما عليه من سحله، كمنعه قشره ونحته فاسحل، والرياح تسحل الأرض تكشط ما عليها. كذا في القاموس.

وسمي موضع وقوف الأنبياء عليهم السلام ساحلاً، لأنَّ البحر العلمي الإلٰهي، بحر التوحيد الحقيقي سحل مقامهم الشريف النبوي، فلم يبق فيه استمداداً من الأغيار، ولا شيئاً من خدع الآثار، بل كلهم آداب ربانية وحرمات رحمانية، ولهذا قال الناظم بعده: صوناً، وهو مفعول من أجله، أي كان وقوفهم بذلك الساحل للصون، أي الحفظ لموضع حرمته، أي لمكان الحرمة أي الاحترام للجناب الإلٰهي. ولا ياء متكلم في هذه النسخة، وفي بعض النسخ بياء المتكلم، أي وقوفهم وعدم خضوهم صوناً، أي لأجل حفظ حرمتي، فيكون الكلام على لسان محمد نبينا ﷺ ويكون لباس الصورة الفارضية صورة الناظم قدس الله سرة غائبة في الحقيقة المحمدية، باعتبار حضوره ﷺ في تلك الواقعة كما قدمنا في شرح البيت الذي قبله عن الشيخ الأكبر قدس الله سرة من قوله: وحضور النبي ﷺ في الوقائع دليل على علو مرتبة صاحب الواقعة وعصمته وعلوه.فيما رآه؛ فإنّه من مرآة الحاضر ينظر لا من مرآته، وقدمنا مثله عن الشيخ الجيلي قدس الله سره وقدمنا في الحديث النبوي أنَّ الله تعالى خلق نور أبصار

المؤمنين ونور قلوبهم من نوره ﷺ. فإذا تكلمت الأولياء على لسان محمد ﷺ بعد نزع لباس صورهم المستعارة لحقيقته ﷺ فلا عجب في ذلك خصوصاً، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] ونحن نرى أنَّ الباب من الخشب، والصندوق منه، ونحو ذلك لباس البابية، والصندوقية أمر عارض في ماهية الخشب شريع زواله عن بصر الناظر وعن بصيرته، إذا لم يعتبرها ويشهد ماهية الخشب، فإنَّ جميع الأكوان مخلوقة من نوره ﷺ كما هو المعروف عند أهله، المحقق الثابت بالأحاديث النبوية والإشارات القرآنية، فيكون النبي ﷺ هو المتكلم بصورة اللسان الفارضي بعد فنائه عن صورته، وبقاء الحقيقة النورية المحمدية مشهودة له بها.

فتقول الحقيقة: خضت بحراً، وقفت الأنبياء بساحله صيانة وحفظاً منهم لموضع حرمتي في هذا الحضور الخاص وهذه المعاني مما فتح بها علينا عند كتابتنا هذا المحل صيانة لكلام الأولياء والمقربين عن الضياع في مهاوي الأسماع.

ولقد وجدنا معنى آخر لهذه العبارة، ذكره الشيخ العارف الكامل تاج الدين بن عطاء الله الإسكندري في كتابه «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن».

قال رضي الله عنه: قال يعني الشيخ أبا العباس المرسي، قدس الله سره في قول أبي يزيد: «خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله»: إنَّما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام ومراده أنَّ الأنبياء عليهم السلام خاضوا بحر التوحيد، ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق، يدعون الخلق إلى الخوض، أي فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا.

وهذا الذي فسر الشيخ به كلام أبي يزيد هو اللائق بمقام أبي يزيد، وقد ورد عنه أنَّه قال: جميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق مليء عسلاً، ثم رشحت منه رشاحة، فما في بطن الزق للأنبياء، وتلك الرشاحة هي للأولياء. والمشهور عن أبي يزيد التعظيم لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب، حتى أنَّه حكى عنه أنَّه وصف له رجل بالولاية، فأتى إلى زيارته، فقعد في المسجد ينتظره، فخرج ذلك الرجل وتنخم في حائط المسجد، فرجع أبو يزيد ولم يجتمع به، وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة. كيف يؤمن على أسرار الله تعالى وما جاء عن الأكابر أولي الاستقامة مع الله تعالى من أقوال وأفعال يستنكر ظاهرها أولناها لهم لما علمنا من استقامتهم وحسن طريقتهم.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تظنن بكلمة برزت من امرئ مسلم سوءاً، وأنت تجد لها في الخير محملاً» . وقال العارف با لله تعالى الشيخ جمال الدين محمد أبو المواهب الشاذلي التونسي قدس الله سره في كتابه «قوانين حكم الاشراق إلى كافة الصوفية في جميع الآفاق» قال عارف: خضت بحراً وقفت الأنبياء بساحله.

قلنا: خاض العارفون بحر التوحيد أولاً بالدليل والبرهان، وبعد ذلك شهدوا رؤيته بالشهود والعيان، والأنبياء وقفوا بأول وهلة على ساحل العبارة، ثم وصلوا إلى ما لا يعبر عنه العرفان؛ فكانت بدايتهم عليهم السلام نهاية العارفين والسلام.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في تائيته الكبرى المذكورة:

ولا تقربوا مال اليتيم إشارة لكف يد صدت له إذ تصدت

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٢] هذه الآية إشارة منه تعالى لأرواح الأولين من الأنبياء والمرسلين، وغيرهم من ورثتهم العارفين المقربين إلى يوم الدين، إذا مد أحد منهم يده الروحانية لنيل هذا المقام المحمدي الذي اختص به محمداً ﷺ نبينا، فإنه لا ينال ذلك ولا يصل إليه، وهو ﷺ عاش يتيماً لموت أبيه عبد الله، وهو حمل على خلاف في ذلك، قال السهيلي في «الروض الأنف».

ذكر أنه مات أبو النبي ﷺ وهو حمل، وأكثر العلماء على أنه كان في المهد. وقيل: ابن شهرين، وقيل: أكثر من ذلك. انتهى.

وكذلك أمه ﷺ ماتت وهو صغير، فربي يتيماً، وإليه الإشارة القرآنية بالآية المذكورة، وإن كانت الآية شاملة لكل يتيم، ولكن آيات الله لا تتناهى معانيها، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] وأشير بالمال إلى المقامات المحمدية والتجليات الإلهية المخصوصة بالحقيقة الأحمدية، وقوله: إشارة أي إيماء ورمز لا تصريح فيه بذلك، وهو من جملة الإشارة القرآنية إلى المعاني المخفية تأييد من الناظم لمعنى البيت الذي قبله.

قال القيصري في شرحه: وهذا الكلام من لسان نبينا عليه الصلاة والسلام إذ كمال التوحيد الذاتي مختص بمقام جمعه. وبالكمل المتابعين إياه، ثم أشار بلسان الإشارة إلى أنهم

مأمورون بالانتهاء عنه، بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الأنعام:١٥٢] الخ. . . إشارة إلى كف أيدي الأولين عن التصرف في التوحيد الذاتي الذي هو مال من أموال نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ومتابعيه الذين سلكوا طريقته بالمتابعة، التي هي أحسن الخصال، وقد أشار البوصيري لذلك بقوله:

لـك ذات العلـوم مـن عـالـم الغيـب ومنهـــــا لآدم الأسمـــــاء

قال ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة». والكف الراحة مع الأصابع، سميت بذلك لأنها تكف الأذى عن البدن، كذا في المصباح. وقوله: صدت بضم الصاد المهملة وتشديد الدال المهملة، فعل ماض مبني للمفعول، والتاء للتأنيث.

وفي المصباح: صددته عن كذا صداً من باب قتل منعته وصرفته. وقوله: له، أي لمال اليتيم المكنى به عن المقام الذاتي المحمدي، والجار والمجرور متعلق بتصدت في آخر البيت. والتقديم للحصر، إذ لا تصد عن غيره. وقوله: إذ حرف تعليل، وتدل على الزمان الماضي، نحو: «إذ جئتني لأكرمتك». فالمجيء علة للإكرام. كذا في المصباح.

وقوله: تصدت بالصاد المهملة والتاء مكسورة للقافية، وقال في المصباح: تصديت للأمر تفرغت له وتبتلت، والأصل تصددت، فأبدل للتخفيف.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في تائيته الكبرى:

وحـز بـالـولا ميـراث أعـرف عـارف غـــدا همـــه إيثـــار تـــأثيـــر همـــة

وأعرف عارف هو نبينا ﷺ من قوله: «أنا أعلمكم با الله وأكثركم منه خشية». ويجوز أن يكون المراد بأعرف عارف صاحب الوراثة المحمدية من الأولياء الكاملين، فإنّه على قدر اتصال الصورة المخلوقة بالنور المحمدي، الذي هو أول ما خلقه الله تعالى وخلق منه كل شيء، كما ورد في الحديث: «تكمل القربة النسبية ويتصل الرحم الإنساني، حتى تصير العصوبة، فيجوز من الميراث بغير تقدير، وإذا لم تحصل العصوبة ورث نصيباً معلوماً»، وهم أرباب السهام المقدرة يرثون من المقام المحمدي على قدر ما للنبيين عليهم السلام من المقامات المحمدية، فيكون الولي الوارث موسوياً محمدياً أو عيسوياً محمدياً إلى غير ذلك. . .

والمعنى صار ميله وقصده دائماً تقديم واختيار تأثير همته القلبية، وتوجه إرادته الربانية، إلى جهة ما يريد من الأفعال، والتحكم في كل شيء بصدق الحال فلا يميل ولا يقصد غير الله تعالى الذي ظهرت له صفاته بظهور صفاته، وتجلت عليه أسماؤه الحسنى بأعيان أسمائه في جميع حالاته، فانكشف له بأنَّ صفاته الإنسانية، ظلال صفات ربهه المنزهة العلية، وأسماؤُه المختلفة العرضية، ظلال أسماء ربه الحسنى البهية؛ وانعدمت ذاته التقديريه، في ذات ربه المحققة الوجودية؛ فاستغنى بما فيه من الظلال القائمة بشواخص المرادات والمعلومات الإلٰهية من حضرة الإرادة على طبق علم ذي الجلال، فظهر ربه الغيب المطلق، والحق المحقق، بذاته وصفاته وأسمائه، التي هي ظلالات ذات ربه وصفاته وأسمائه بمعنى آثارها التقديرية، وتصويراتها العدمية الإمكانية.

فانمحق العبد الممحوق من قبل بالكلية، وتحقق المحقق من قبل على ما هو عليه في حضرته العلية، فشهدت منه الجاهلون ما كان يشهد من نفسه قبل ذلك، لاحتجابهم من عدم معرفتهم بنفوسهم بكل شيء هالك، وشهد هو من نفسه ما قاله الله تعالى في جملة كلامه القديم: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] وهذا هو المقام المحمدي والميراث الأحمدي.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في تائيته الكبرى:

وأنت على ما أنت عني نازح ... وليس الثريا للثرى بقريبة

«وأنت»، يعني يا أيها السالك الواصل إلى مقام الاتحاد المذكور، «على ما أنت» أي على كونك موصوفاً بغاية ما يكون من ظهور صفات الحق تعالى وأسمائه الحسنى، بإظهار كمالك في مرتبة العلم والعمل والحال، حتى صرت ربانياً كلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران: ٧٩] أي منسوبين إلى الرب تعالى لا نفسانيين أي منسوبين إلى نفوسكم وقوله: «عني» خبر مقدم لقوله «نازح»، ونازح مبتدأ مؤخر أي بعيد من نزح كمنع وضرب نزحاً ونزوحاً بعد كذا في القاموس. وهذا الكلام من عين الحقيقة المحمدية التي هي روح الأرواح كلها، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حق النبي ﷺ: كان خلقه القرآن. وللشيخ الأكبر قدس الله سره من أبيات يشير بها إلى قولها:

أنـــا القـــرآن والسبـــع المثـــانـــي ... وروح الـــــروح لا روح الأوانـــــي

فـــؤادي عنـــد محبـــوبـــي مقيـــم ... ينـــاجيـــه وعنـــدكـــم لســـانـــي

إلى آخره والغرض من ذلك أنَّ السالكين كيفما كانوا، وإن بلغوا إلى أعلى المقامات، وأرفع الدرجات، لا يمكنهم الوصول بالسعي إلى العين المحمدية، والتحقق بالحقيقة الأحمدية؛ فإن دون فهم ذلك خرط القتاد، فضلاً عن التحقق به في مرتبتي الوجود والإيجاد. وقوله: «وليس الثريا» أصله ثروي. يقال: امرأة ثروي متمولة، يعني كثيرة المال، والثريا تصغيرها. سمي النجم بذلك لكثرة كواكبه مع ضيق المحل، ذكره في القاموس. وقوله: «للثرى»، أي للتراب. «بقريبة» خبر ليس والباء للتوكيد، فإنَّه فرق بين المقام الصفاتي والأسمائي، وبين المقام الذاتي الإلٰهي كما أشار إلى ذلك صاحب همزية المديح النبوي، بقوله مخاطباً للحقيقة المحمدية:

لـك ذات العلـوم مـن عـالـم الغيـب ... ومنهـــــا لآدم الأسمـــــــاء

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في التائية الكبرى:

وقـــدري بحيـــث المـــرء يغبـــط دونـــه ... سمـــوا ولكـــن فـــوق قـــدرك غبطتـــي

والمعنى إنَّ قدري وجاهي في المقام الإلٰهي في مكان عال يحسد المرء الذي يقام في أدنى منه فضلاً عمَّن يقام فيه من جهة السمو والرفعة. وقوله «ولكن» استدراك مما قبله فوق قدرك، أي مقدارك. وما أنت فيه من الرفعة، «غبطتي» أي حسدي، وتمني مقامي بحيث لا يتحول عني، فإنَّك لست ممن يعرف مقامي، حتى يمكن أن يغبطني عليه، ويتمنى مثله لنفسه؛ فإنَّ المقام المحمدي الجامع، والميراث الأحمدي اللامع، لا يعرفه إلاَّ الأكابر من الأنبياء والأولياء الكاملون فما يغبطه إلاَّ هم. وهذا كلام على لسان الحقيقة المحمدية، بعد التجرد عن مقام الغيرية، بظهور استيلاء الحقيقة الإلٰهية.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في تائيته الكبرى:

فـسمعـــي كليمـــيٌّ وقلبـــي منبَّـــأٌ ... بـــأحمـــد رؤيـــا مقلـــة أحمـــديـــة

«فسمعي» أي ما به أسمع من القوة الروحانية الأمرية، على طور نشأتي الإنسانية الجسمانية. وقوله: «كليمي» بياء النسبة المشددة المرفوعة على الخبرية لسمعي، والمعنى إنّ سمعي يكلمني من حيث قوله ﷺ في حديث المتقرب بالنوافل: «كنت سمعه الذي يسمع به، فهو يكلمني وأنا سمع به كلامه» . قال الشيخ الأكبر قدس سره

يـا مـن تخـاطبـه حقيقـة ذاتـه	فـي غيـره لكنـه لا يعلـم
وهـو المخـاطب ذاتـه فـي ذاتـه	وهـو المكلـم عنـه والمتكلـم
مـرآتـك الأكـوان فيهـا نـاظـر	مـا أنـت فيـه فنيـر أو مظلـم

فمعنى «كليمي» موسوي يسمع كلام حقيقيتي الربانية، على طور نشأتي الإنسانية. وقوله «وقلبي منبأ» بصيغة إسم المفعول أي مخبر، من نبأه بتشديد الموحدة، أي أخبره. والفاعل محذوف، أي أخبره الحق تعالى بما أخبره به من العلوم الإلٰهية، والمعارف الربانية. وقوله «بأحمد رؤيا»، أي رؤية هي أكثر حمداً أو رؤيا هي، أكثر حمداً.

والرؤية مصدر رأيت الشيء رؤية: أبصرته بحاسة البصر. فرؤية العين معاينتها للشيء، والرؤيا يقال: رأى في منامه رؤيا، على وزن فعلى غير منصرف لألف التأنيث، كذا في المصباح.

وقال الراغب في مفرداته: والرؤيا ما يرى في المنام، وهو فعلى، وقد تخفف الهمزة فيقال بالواو.

وروي: لم يبق من مبشرات النبوة إلاّ الرؤيا. قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

قال البيضاوي: وتعلق به من قال إنّ المعراج كان في المنام، ومن قال إنّه كان في اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية.

وقال في كتاب «الإبتهاج بالإسراء والمعراج» للشيخ نجم الدين الغيطي، والذي ذهب إليه الجمهور من المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين إلى أن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة بالروح والجسد في اليقظة معاً، لا في المنام من مكة إلى بيت المقدس إلى السمٰوات العلى إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء العلي الأعلى. . .

قال القاضي عياض وغيره: وهو الحق وعليه تدل الآية أيضاً، وصحيح الأخبار. وذهب بعضهم إلى أنّ الإسراء كان بروحه ﷺ في المنام.

وهذا المذهب لمعاوية رضي الله عنه واحتج على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِى

أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠] والرؤيا إنَّما تطلق على ما كان مناماً، ولظاهر ما في بعض الأحاديث في بعض الطرق من قوله ﷺ: «بينما أنا نائم، فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام».

ويُعزى هذا المذهب لعائشة رضي الله عنها لما في حديث ابن إسحاق من قولها: ما فقدت جسد رسول الله ﷺ وإنَّما أسري بروحه.

وأجيب عن الآية: بأنَّ الرؤيا قد تكون بمعنى الرؤية في اليقظة، كما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما بأنَّ قوله ﴿ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [الإسراء: ٦٠] يؤيد أنها رؤية عين، إذ ليس في الحلم فتنة، ولا يكذب به أحد. وعن قوله: «بينما أنا نائم»[١]. بأنَّ أول مجيء الملك إليه وهو نائم، فأيقظه لا أنَّه استمر نائماً.

وأما قوله: «فاستيقظت وأنا بالمسجد الحرام» معناه أفقت، أي أفاق مما كان فيه من شغل البال بمشاهدته عجائب الملكوت، ورجع إلى عالم الملك، فلم يرجع إلى حال البشرية إلاَّ وهو بالمسجد الحرام. على أنَّ الحديث الذي ورد فيه ذكر النوم موهن، فإنَّ العلماء اتفقوا على أنَّ شريكاً راويه اضطرب فيه وما حفظه، وزاد ونقص، وقدم وآخر. وعما يعزى لعائشة رضي الله عنها بأنَّه لم يرد بسند يصلح للحجة، بل في سنده انقطاع. وراوٍ مجهول. وبتقدير صحته، فعائشة رضي الله عنها لم تكن زوجة إذ ذاك، ولا كانت في سن من يضبط الأمور. وعلى القول بأنَّ الإسراء كان بعد البعثة بعام لم تكن ولدت بعد، فإذا لم تشاهد ذلك، دل على أنها حدثت به عن غيرها، فلم يرجح خبرها مع خبر أم هانئ بخلافه.

وذهب جماعة: منهم أبو شامة إلى تكرار الإسراء والمعراج، واحتج بما رواه الزار وغيره، عن أنس رضي الله عنه من أنَّ قصة المعراج مخالفة لما تقدم في قصته.

قال الحافظ ابن حجر: ولا يبعد وقوع مثل ذلك في المنام، وإنما المستغرب وقوع التعدد في قصة المعراج التي أمَّ بها كل نبي، وسؤال أهل كل سماء هل بعث إليه وفرض الصلوات الخمس، وغير ذلك... فإن تعدد مثل ذلك في اليقظة يتجه، فيتعين رد بعض الروايات المختلفة إلى بعض، والترجيح بأنَّه لا بعد في وقوع ذلك في المنام، ثم وقوعه في اليقظة على وفقه. وذهب جماعة منهم البغوي، وجزم به النووي في فتاواه، إلى أنَّ الإسراء وقع مرتين: مرة في النوم، ومرة في اليقظة، قالوا: وكانت مرة النوم توطئة له وتيسيراً عليه، كما كان بدء نبوته الرؤيا الصادقة، ليسهل عليه أمر النبوة، فإنَّه أمر عظيم تضعف عنه القوى

---

(١) رواه ابن حجر في الكاف شاف في تخريج أحاديث الكشاف (٩٧). وفيه: «بينا أنا نائم في المسجد الحرام».

البشرية، وكذلك الإسراء سهل عليه في الرؤيا، لأنَّ هوله عظيم؛ فجاء في اليقظة على وفقه في المنام توطئة وتقدمة، رفقاً من الله تعالى بعبده وتسهيلاً عليه.

وقوله: «مقلة» مضاف إليه، والمقلة شحمة العين التي تجمع البياض والسواد والحدقة، وجمعها مقل كصرد، كذا في القاموس. وقوله: «أحمدية» أي منسوبة إلى أحمد، اسم نبينا محمد ﷺ وذلك إشارة إلى رؤية الله تعالى في ليلة المعراج الواقعة لنبينا ﷺ.

قال النجم الغيطي: وقد أختلف السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم في رؤيته ﷺ لربه ليلة المعراج ببصره، فنفت ذلك عائشة رضي الله عنها وذهبت إلى أنَّه رآه بقلبه، وهو المشهور عن ابن مسعود رضي الله عنه وجاء مثله عن أُبي رضي الله عنه وإليه ذهب كثير من المحدثين والمتكلمين.

وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أنَّه رآه ببصره، وبه قال سائر أصحاب ابن عباس، وبه جزم كعب الأحبار، والزهري، وصاحبه معمر وآخرون... وحكى عن الحسن أنَّه كان يحلف أنَّ محمداً رأى ربه، وبه قال الشيخ أبو الحسن الأشعري وسائر أتباعه.

وقال الإمام النووي الراجح عند أكثر العلماء: إنَّ رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج. وقد روى الإمام أحمد بسند صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ربي عزَّ وجل»[1]. وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه كان يقول: نظر محمد إلى ربه مرتين؛ مرة ببصره ومرة بفؤاده. قال العارف النابلسي: قلت: والحاصل أنَّه يمكن التوفيق بين قولهم: إنَّ الإسراء والمعراج أو كان في اليقظة أو كان في المنام، وبين قولهم: إنَّ النبي ﷺ رأى ربه عزَّ وجل بعيني رأسه ليلة المعراج، أو ما رآه جبريل عليه السلام أو آيات ربه إنَّ اليقظة والمنام يختلفان في الحقيقة بين يقظتنا ومنامنا، وبين يقظة النبي ﷺ ومنامه، وكذلك يقظة سائر الأنبياء عليهم السلام ومنامهم فإنَّ إدراك البصر تابع لإدراك القلب فينا وفي الأنبياء عليهم السلام وقلوب الأنبياء عليهم السلام لا تنام، وإن نامت أعينهم، كما ورد في الحديث وكان ﷺ لا ينتقض وضوُءه بنومه إذا نام، وكان منام الأنبياء عليهم السلام وحياً، فكان يوحى إليهم في المنام كاليقظة، فمنامهم عليهم السلام مثل يقظتنا، غاية الأمر أنَّ منامهم فيه طبق عيونهم به كمنامنا، ولهذا نام ﷺ في قصة الوادي، ولم ير الفجر ولا الشمس، لأنَّ ذلك يدرك بالعين، والعين مطبوقة؛ فسمى الله تعالى قضية الإسراء والمعراج مناماً، وقال: ﴿ ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ ﴾ [الإسراء: ٦٠] ذلك

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١: ٢٠٤).

بالنسبة إلينا يقظة وليست برؤيا كرؤيانا. وورد الخبر عنها مرة أخرى بأنَّها يقظة، وهي رؤية لا رؤيا، لأنَّها يقظة كيقظتنا. وكون عائشة رضي الله عنها قالت: «ما فقدت جسد رسول الله ﷺ». يمكن فيه تعدد الجسد الشريف، كما يقع للإبدال ولكثير من الأولياء. فالأنبياء أولى بذلك، والاختلاف في رؤية الله تعالى هل هي رؤية الذات الإلٰهية، أو حضرة الأسماء والصفات المتجلية بصور الكائنات؛ فهي رؤية المظهر دون الظاهرية.

فمن أنكر الرؤية أراد رؤية الذات مجردة عن الأسماء والصفات، ومن أثبت الرؤية أراد رؤية مظاهر التجلي بالأسماء والصفات فسمي ذلك المظهر جبريل عليه السلام أو آيات الله، أي علامات وجوده الحق. والأمر في نفسه واحد لا خلاف فيه؛ والله الموفق.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في تائيته المذكورة:

وروحيَ للأرواح روح وكلما ... ترى حسناً في الكون من فيض طينتي

هذا الكلام من المقام المحمدي على لسان الحقيقة المحمدية، لأنَّه وارثها في أحوالها أيضاً بعصوبة النسب الأصلي النوري؛ فإنَّ الكائنات كلها خلقت من نوره ﷺ كما جاء في الحديث، فإذا اضمحلت نشأته في تلك النشأة الحقيقية الأولية، وانمحت رسوم الصور الغيرية، تكلمت الحقيقة المحمدية، بلسان الماهية الخيالية.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨] ويقول ﷺ يوم القيامة: «أمتي أمتي لما تقول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام نفسي نفسي» إشارة إلى هذا السر الخفي، فقوله: «وروحي للأرواح روح»، فإنَّ روحه ﷺ أصل الأرواح كلها، فهي القلم الأعلى، ونفسه نفس النفوس كلها، فهي اللوح المحفوظ.

ومن هنا قول الشيخ الأكبر قدس الله سره في شرح الوصايا اليوسفية، ولا شك أنَّ الورثة إنما هم هياكل لروحانية النبي ﷺ فهو رسول أبداً حياً وميتاً، فمن يطع الشيخ فقد أطاع الرسول، فإنَّه روح هيكله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فإنَّه مجلاه. وحينئذٍ الرسول موضع ظهور الحق. وقوله: «كلما ترى» خطاب للمريد السالك في طريق الله. وقوله: «حسناً» مفعول ترى، أي ترى شيئاً حسناً، وكل شيء في الكون أي داخل في التكوين حسن بالنظر إلى صدوره عن خالقه، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة:٧]،

وفي الحديث: «كتب الله الحسن على كل شيء، وقبح بعض الأشياء بالنظر إلى نفس ذلك الشيء وإلى غيره من الأشياء» . والقبح حكم شرعي عند أهل السنة، كما انَّ الحسن كذلك، وهو الأصل. ولهذا كان الأصل في الأشياء الإباحة، لأنَّ الحسن فيها أصل، والتحريم حكم طارئ لطروء القبح عليها، باعتبار النظر إليها والإعراض عن خالقها، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ثم حرم تعالى ما حرمه من ذلك بالنصوص القطعية والظنية. وقوله: «فيض» مصدر فاض الماء.

وقوله: «طينتي» مضاف إليه. والطينة بالطاء المهملة واحدة الطين، وهو تراب معجون بماء كناية عن الجسد الشريف المحمدي، فإنَّه كما أنَّ الأرواح كلها من روحه ﷺ منفوخة في أجسادها، لأنَّه ﷺ روح الله الذي هو أول مخلوق، والإضافة للتشريف، مثل: ناقة الله، وأرض الله، وبيت الله، وعبد الله. . . فكذلك جميع الأجساد الحسنة في الكون، يعني التي يظهر عليها الحسن بالنظر إلى خالقها، كما ذكر من فيض جسده ﷺ الذي هو منشأ الطبائع الأربع: الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة، والعناصر الأربعة: النار والهواء والماء والتراب، المشار إلى ذلك بقوله ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين».

وفي رواية: «ولا آدم، ولا ماء، ولا طين»[1]، ولا يكون نبياً إلا وهو روح وجسد، فروحه أصل الأرواح، وجسده أصل الأجساد ﷺ.

ويؤيده حديث انتقال النور من جبهة آدم حتى ظهر في جبهة عبد الله والد النبي ﷺ، ثم انتقل إلى آمنة بنت وهب والدته ﷺ وذلك النور كان مادة روحه وجسده ﷺ فتقلب في الأصلاب الطيبة والأرحام الطاهرة، حتى ظهر في عالم الدنيا، ففرج له سقف البيت وتراءت النجوم، وأشرقت الأرض بنور الحي القيوم؛ فهو ﷺ أبو الأرواح وأبو الأجساد؛ والله لطيف بالعباد.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما بعد البيت السابق:

فَـذَرْ لِـيَ مـا قبـل الظهـور عـرفتُـه خصوصاً وبي لم تدر في الذر رفقتي

وهذا كلام على لسان الحقيقة المحمدية أيضاً من حيث أحوالها كما ذكرنا فقوله: «فذر»

(١) رواه الفتني في تذكرة الموضوعات (٨٦).

الفاء للتفريع عما قبله، يعني إذا عرفت أنَّ روحي روح الأرواح، وجسدي جسد الأجساد، فذر أي اترك بمعنى التسليم والإذعان وعدم التكذيب والارتياب. وقوله: «ليَ» متعلق بذر. وقوله: «ما» أي الأمر الذي «قبل الظهور»، أي ظهوري في الدنيا بروحي وجسدي المخصوصين بي. وقوله: «عرفته» صلة الموصول، والضمير عائد إلى الموصول، وهو ما. وقوله: «عرفته»، أي تحققته من جميع ما كان من مادة نوري أو يكون أو هو كائن. قال ﷺ: **«إنَّ الله قد رفع لي الدنيا، فأنا أنظر إليها وإلى ما هو كائن فيها إلى يوم القيامة، كما أنظر إلى كفي هذا»**[1] رواه الطبراني.

وفي الحديث الصحيح: «فعلمت علم الأولين والآخرين». وقوله: «خصوصاً» مصدر خصه بالشيء خصاً وخصوصاً وخصوصية، وتفتح كذا في القاموس، وهو مفعول مطلق ناصبه فعل محذوف تقديره خصني الله تعالى بذلك خصوصاً دون غيري من جميع المخلوقات.

وقوله: «وبي» الواو للحال، والجار والمجرور متعلق بتدري. وقوله: «لم تدر» أي لم تعلم، يعني لم تعلم بي.

وقوله: «في الذر» أي في عالم الذر، وهو الذي أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية. وجاء في الحديث: **«إنَّ الله مسح ظهر آدم، فأخرج بنيه مثل الذر، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]»**.

وأصل الذر، بالذال المعجمة المفتوحة والراء المشددة، صغار النمل. ومائة منها زنة حبة شعير، الواحدة ذرة، كما في القاموس. وقوله: «رفقتي» فاعل تدري، والرفقة مثلثة وكثمامة جماعة ترافقهم، وجمعه رفاق ككتاب وإرفاق كأصحاب، والرفقة اسم للجمع، وجمعه رفق، كصُرَد وعِنَب وحبال، كذا في القاموس.

أراد بالرفقة بقية المجانسين له من الآدميين في الصورة الإنسانية الآدمية، وهم كالذر في الصغر، وهو منهم نشوء. كلهم في ظهر آدم من مادة واحدة وطينة واحدة، خلق آدم منها، وهو مخلوقة من أصل هذه الطينة المحمدية، كما سيشير إليه الناظم قدس الله سره بقوله في هذه القصيدة على لسان الحقيقة المحمدية:

وإنـــي وإن كنـــتُ ابـــنَ آدم صـــورةً ... فلـــي فيـــه معنـــىً شـــاهـــدٌ بـــأبـــوتـــي

وهذا المعنى هو هذه الطينة المحمدية، حتى أن الصورة الآدمية مرسومة بقلم القدرة

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣١٨١٠). والسيوطي في الدر المنثور (٤٨٤٩).

على صورة رسم اسم محمد ﷺ فإنَّ الرأس كالميم دائرة، واليدان كالحاء، والبطن كالميم الثانية، والرجلان كالدال. وقد نقل بعضهم أنّه لا يعذَّبُ أحد من الكفار في النار، وهو على هذه الصورة إكراماً لحروف اسمه ﷺ لكن تتغير صورته وتقبح هيئته وتكبر جثته كما ورد في الحديث. اهـ. وقوله على رسم صورة محمد ﷺ أي بالخط الكوفي القديم.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما في تائيته الكبرى:

فلا عالم إلاَّ بفضليَ عالِمٌ ولا ناطقٌ في الكون إلاَّ بمِدْحتي

«فلا عالم» بفتح اللام، قال في القاموس: العالم الخلق كله أو ما حواه بطن الفلك. وقال في الصحاح: والعالم الخلق، والجمع العوالم والعالمون، أصناف الخلق. وقوله: «إلاَّ بفضلي عالم» بكسر اللام، أي متصف بالعلم بسبب فضلي وإمداده له، والفضل ضد النقص، والفضيلة الدرجة الرفيعة في الفضل كما في القاموس وهو فضل المقام المحمدي الممد لكل فضل في العالم العلوي والعالم السفلي، إذ الكل مخلوقون من نوره، وظهورهم من آثار ظهوره ﷺ.

وقوله: «ولا ناطق» أي متكلم في الكون، أي في جملة الأشياء «إلاَّ بمدحتي» أي مدحي والثناء عليَّ، فإنَّ صاحب هذا المقام المحمدي محمود في السماء والأرض، وقال تعالى في حقه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فقد رحم الله تعالى به العوالم كلها. وكل شيءٍ ناطق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت:٢١] وكل ناطق مادح لسبب الرحمة التي شملته بلسان قاله ولسان حاله، وهي النبي ﷺ.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما بعد البيت السابق:

ولا غَرْوَ أنْ سُدْتُ الأُلى سبقوا وقد تمسكتُ من طه بأوثق عُروة

«ولا غرو» قال في الصحاح: الغرو والعجب، وغروت أي عجبت. يقال: لا غرو أي ليس بعجب.

وقوله: «إن سدت» من ساد قومه يسودهم، فهو سيدهم. والسيد الجليل الذي له السيادة عليهم.

وقوله: «الألى» مفعول سدت، أي الذين سبقوا أي تقدموا عليّ في الزمان الماضي، وهم أهل الجمع والتوحيد كما مر.

وقوله: «وقد» الواو للحال، وجملة «تمسكت» في محل نصب، على أنها حال من فاعل سدت، وهو التاء. قال في الصحاح: أمسكت بالشيء وتمسكت به واستمسكت به وامتسكت به، كله بمعنى اعتصمت به.

وقوله: «من طه» أي من دين طه، أو من حقيقته التي هي نوره المخلوق منه كل شيء، كما ورد في الحديث: «وطه اسم محمد نبينا ﷺ» قال تعالى: ﴿طه مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢] والقرآن كلام الله، وكلامه تعالى علمه النازل في صورة كل شيء. قال تعالى في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ [مريم: ٣٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قوله ﴿ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٠] وكل شيء كذلك خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون، فقوله: كلامه، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] وهو القرآن الذي أنزله على طه المادة النورانية الأصلية المخلوقة من نوره سبحانه بلا واسطة ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥] يعني بنوره المحمدي، وهو الواسطة العظمى ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

وقوله: «بأوثق» أي أشد «عروة» في القاموس العروة من الدلو والكوز المقبض. وقال البيضاوي في قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] طلب الإمساك من نفسه بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق، وهي مستعارة لتمسك المحق، يعني بالكتاب والسنة، والمراد بالحقيقة المحمدية الجامعة.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما بعد البيت السابق:

عليها مجازيٌّ سلامي وإنَّما حقيقتُه مِنِّي إليَّ تحيتي

«عليها» أي على ما تمسكت به من طه، وهو حقيقته المحمدية العروة الوثقى. وقوله

«مجازي» بتشديد الياء التحتية ياء النسب، والمجاز خلاف الحقيقة. وقوله: «سلامي» أي سلامي عليها، إذا قلت عليها السلام، أي الأمان من نظري إلى غيرها، إذ لا غير لها، فإنها عين كل حقيقة كونية.

ثم قال: «وإنّما حقيقته» أي حقيقة السلام مني، أي من حقيقتي إليّ بتشديد الياء التحتية، أي إلى حقيقتي تحيتي، أي سلامي؛ فإذا أسلمت عليها، فإنما سلمت حقيقتي على نفسها لفناء صورتي العرضية الباطنية والظاهرية على المادية النورية المحمدية.

فإنَّ من جمع تراباً كان كالحق تعالى إذا توجهت إرادته على تقدير في علمه متعين في العلم الإلٰهي الأزلي، وخرج من عدمه الأصلي إلى ظهور نور الوجود عليه في الوجه الإلٰهي، ثم انجبل ذلك التراب بالماء كتوجه الأمر الإلٰهي على ذٰلك التقدير المتعين من ذٰلك التقدير المتعين منه، حتى صار الحقيقة المحمدية.

فالتقدير المتعين فيها فانٍ مضمحل، لأنّه عدم أصلي، والأمر الإلٰهي هو الوجود الحق الصرف، فنور محمد ﷺ أي أمر الله الوجود الحق المتوجه على ذلك التقدير المتعين، فباعتبار التقدير المتعين نور محمد ﷺ باعتبار فناء ذلك التقدير المتعين واضمحلاله وزواله، حتى رجع إلى عدمه الأصلي نور الله، فلا نور إلاّ نور الله، فهو نور على نور، فهما نوران بالاعتبارين المذكورين، وهما نور واحد وهي المعية الإلٰهية: ﴿إِذْ يَـقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٥٧]. ثم إنَّ ذٰلك الطين جعل الصانع منه أواني كثيرة مختلفة الصور والهيئات، حتى لم يبق من ذلك الطين شيء.

فإذا سأل سائل بعد ذلك، فقال: أين ذاك الطين؟ يقال له: غاب في هذه الأواني كلها، وليس بغائب لأنَّ الأواني كلها إنما هي مجرد صور وهيئات فانية مضمحلة، وكذلك ذٰلك التقدير المتعين الذي هو نور محمد ﷺ كما ذكرنا خلق الله منه جميع المخلوقات، أي صورها وقدرها. قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. ثم نبه على ذلك بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] الآية.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] فمن عرف ما قلناه عرف الحقيقة المحمدية، وعرف أنها غايته في الصور الكونية، والهيئات الإمكانية. فمن ظهر له اضمحلال صورته الباطنة والظاهرة قرت، عينه بعين الحقيقة المحمدية، الفانية المضمحلة في الحقيقة الربانية، على الوجه الأكمل، والقانون الأشمل؛ وذلك نهاية السالكين وغاية الواصلين.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما بعد البيت السابق:

وأطيبُ ما فيها وجدتُ بِمُبتدا غرامي وقد أبدى بها كل ندرة

«وأطيب» قال في القاموس: طاب يطيب لذو زكا. والأطيب أفعل تفضيل، الأكثر طيباً. وقوله: «ما فيها» أي في الحقيقة المحمدية كما قدمنا. واعلم أنَّ السالك أول ما تنفذ بصيرته إلى حضرة الغيب المطلق، وهو الوجود الحق الحقيقي الذي لا يدرك ولا يترك، فيتعلق قلبه بجماله الحقيقي المنزه عن الصور الحسية والمعنوية والخيالية، فيشاهد لطائف وعظائم منه، وشرائف عطاياه، فيتعشق به، وتلتذ روحه بمعرفته، وكمال نزاهته، وشدة تجرده عن جميع المواد الكونية، والحدود، والقيود الحسية والخيالية... فينكشف له بلا انكشاف أنَّه الحق وكل ما سواه باطل، وأنَّه النور المحض الحقيقي وكل ما سواه ظلمة محضة، وأنَّه الوجود الصرف المطلق حتى عن الإطلاق وكل ما سواه عدم خالص، فيظهر له أنَّه معدوم في نفسه بالنسبة إليه تعالى وأنَّه فانٍ، مضمحل، فينطلق لسانه بما صار عنده من التعشق فيه والهيام في محبته، فينفتح عليه لسان الغزل والتشبيب في العيون والخدود، والأعناق والقدود، ومحاسن الوجوه والوجنات، وأنواع التغزلات... وتنفتح عليه معان في ذلك وأسرار، ولطائف إشارات من غير طريق الأفكار، فينظم الشعر البديع على حسب ما عنده من معرفة الصناعة الشعرية، والعلوم الأدبية، فيظهر منه الرقيق من الأشعار، ولا يسمى كلامه شعراً، بل يسمى علماً إلٰهياً وإن جارى في ذلك الطيور والأزهار، ويصير كلما سمع شعراً فهمه على حسب حاله، أو سمع المغني أخذ إشارته من لطيف مقاله، أو سمع دفاً أو مزماراً أعرض عن حاله، ودخل في معرض عرفانه ومجاله، إلى أن ينتهي به العشق الإلٰهي إلى الدخول بالفناء والانعدام، في حقيقة علم الوجود الحق وينقطع منه الكلام؛ فيظهر منه التصريح بالاتحاد، حيث لا أرواح ولا أجساد، ويسكر ويصحو، ويستحضر ويلهو، ويفيق ويسهو... إلى أن لا يرسخ في مقام الاتحاد الحقيقي، حيث لا تجد نفسه معه تعالى ولا يجد معه تعالى شيئاً.

ثم تتراءى له الأنوار المحمدية، والحقيقة الأحمدية، ببركة مواظبته من حال بدايته على الأحكام الشرعية، والسنن النبوية، والآداب المصطفوية... فيجد عين ما هو فيه من الأحوال، ولم يخرج عن أحوال الحقيقة المحمدية، ويرجع في تجلي ذي الجلال، فإنَّها السابقة بالأفعال، في تحقيق حقيقة الوصال والاتصال؛ فيرجع كلامه فيما علم منها من شرائف

الخصال، ويحلو له التغزل والتشبيب، وشكوى الشوق والغرام من المحب إلى الحبيب، ويرجع عشقه في الحقيقة المحمدية، المتحققة على الوجه الأكيد بالحقيقة الإلٰهية؛ ويرجع اتحاده إليها، ويقع اختياره عليها، فلا يجد غيرها، ولا يعرف إلاّ خيرها؛ ولا يبقى عنده فرق بين معروفه الأول والثاني، بل وجد الحقيقة واحدة ظاهرة ببدائع المعاني، في لطائف المباني.

ولذا قال: «وأطيب ما فيها وجدت بمبتدا»، أي في حال ابتداء غرامي، أي عشقي؛ ولم يقل غرامي بها، لأنَّ الغرام كله والعشق لا يكون إلاّ بها منها لها، ولكن صور التجلي أي تجليها بمرادها ناقصة وكاملة، وجاهلة وعالمة على حسب تعلق المشيئة الأزلية، بما في حضرة العلم العلية، على طبق ما كشفت عنه أزلاً من معلوماتها العدمية.

وقوله: «وقد» الواو للحال، والجملة في محل نصب حال من غرامي. وقوله «بها» أي بسبب الحقيقة المحمدية، أو بالاستعانة بها من حيث ظهور التجلي بها لها عليه من ابتداء غرامه، حيث لم يتنبه لها من حيث هي حقيقة محمدية، متبدلة في أطوار التجليات الإلٰهية.

فلما تنبه لها علم أنَّها هي هي التي غرامه بها أولاً وآخراً، بل ذلك خيالها في أنواع تجلياتها. وقوله: «كل» مفعول أبدي. وقوله: «ندرة» مضاف إليه والمراد بالندرة هنا الشيء النادر العجيب.

ومن جواهر العارف النابلسي

[في شرح قول لابن الفارض]

قوله عند قول ابن الفارض رضي الله عنهما بعد البيت السابق:

ظهـوري وقـد أخفيـت حـاليَ منشِـداً   بهـا طـربـاً والحـالُ غيـرُ خفيـةِ

«ظهوري»، أي اشتهاري بالولاية والقرب الإلٰهي وصدق المعاملة بين الناس، وهو خبر المبتدأ الذي هو قوله: «وأطيب» في البيت قبله.

وقوله: «وقد» الواو للحال، والجملة حال من ياء المتكلم في قوله «ظهوري»، والعامل المصدر.

وقوله: «أخفيت حالي» أي كتمته عن الناس، ولم أقصد إظهار شيء منه، لأنَّها أسرار بين المحب والمحبوب. والغيرة تقتضي الستر والكتمان. وقوله: «منشداً» حال من فاعل أخفيت. ومنشداً بكسر الشين المعجمة اسم فاعل، يقال: أنشد الشعر قرأه، كذا في القاموس.

وإنشاد الشعر قراءته أعم من أن يكون شعره الذي أنشأه أو شعر غيره. وقوله: «بها» أي بسبب المحبوبة الحقيقة المحمدية، أو باستعانتها من حيث عينها الربانية المنزهة عن تجليها بالتقدير المعين لها كما مر.

وقوله: «طرباً» بالتحريك، أي على وجه الطرب، وهو تمييز لنسبة الإنشاد إليه. قال في الصحاح: الطرب خفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور.

المراد هنا يعني أظهر الخفة بإنشاد الأشعار الغزلية التي سأُنشدها بعد ذلك، والتشبيب في محاسن المحبوب والمحبوبة، وأُكثر من التأوُّه والشكاية والتحزن، من الهجر والبعد والإعراض... وأتمنى الوصال والقرب، ويظهر مني الميل والتعشق في صور الملاح من الذكور والإناث، كحال العشاق المحجوبين المفتونين بما ابتلاهم الله تعالى به من عشق الصور، ستراً مني لشريف أحوالي، وغيرة على أمري أن يظهر بين الغافلين المعرضين عن الحق، المشتغلين بما سواه من الباطل. حتى إذا وقع منهم إنكار لشيء من تجلياته تعالى عليَّ تجلياً ظاهراً لهم أو باطناً عنهم، فلم يقبلوا أثره في الكون أنا وقاية للحق في ذلك الإنكار والاعتراض. ومع هذا كله، حصل ظهوري بالكمال بينهم وعدم اختفائي عنهم.

وقوله: «والحال» أي حالي المذكورة، «غير خفية» بتشديد الياء التحتية، أي ظاهرة يعني أن الإخفاء لها الذي كان قصدي لم يعمل في إخفائها شيئاً، كما قال صاحب الموشح العامي:

غطوها الندامى قالت عين الشمس ما تتغطى

والأبيات التي أنشدها قاصداً إخفاء حاله صيانة لتوجه الإنكار على تجليات محبوبه المحمدي الرباني ببدائع أفعاله، التي هي كلها عند المحب محاسن جماله، اثنان وخمسون بيتاً.

وقال الشارح القيصري والبسطامي: أحد وخمسون بيتاً. وقال الشارح الأول أبو سعيد الفرغاني أستاذ القيصري وتلميذ الصدر القونوي، الذي هو تلميذ الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي قدس الله أسرارهم: إنها ستة عشر بيتاً، وستمر بك بيتاً بيتاً.

انتهى كلام العارف النابلسي رضي الله عنه. وها أنا أسوق الإثنين والخمسين بيتاً، التي أشار إليها ابن الفارض رضي الله عنه في البيت السابق، وذكر أنّه أخفى حاله بها، وهي من أبلغ الغراميات. وقد ذكرها بعده متصلة به، وهي قوله رضي الله عنه:

بَدتْ فرأيتُ الحزمَ في نقضِ توبتي وقـام بهـا عنـد النُّهـى عـذرُ محنتـي

فمنها أماني من ضَنَا جسدي بها ... أماني آمالٍ سَخَتْ ثم شحّتِ
وفيها تلافِي الجسمِ بالسقم صحةٌ ... له وتلافُ النَّفسِ نفسُ الفُتُوَّةِ
وموتي بها وجْداً حياةٌ هنيئةٌ ... وإن لم أمت في الحب عشتُ بغُصتي
فيا مهجتي ذوبي جوىً وصبابةً ... ويا لوعتي كوني كذاك مذيبتي
ويا نارَ أحشائي أقيمي من الجوَى ... حَنايَا ضلوعِي فهي غيرُ قويمة
ويا حسن صبري في رضا من أحبها ... تجمل وكن للدهر بي غيرَ مُشمت
ويا جَلَدي في جنب طاعة حبها ... تحملْ عَدَاك الكلُّ كلَّ عظيمة
ويا جسدي المضنَى تسلَّ عن الشفا ... ويا كبدي من لي بأن تتفتتي
ويا سقَمي لا تبقَ لي رمقاً فقد ... أَبَيْتُ لبُقيا العز ذُلَّ البقية
ويا صِحتي ما كان من صُحبتي انقضى ... ووصلكِ في الإحياءِ مَيْتاً كهجرة
ويا كلَّ ما أبقى الضَّنَى منيِّ ارتحل ... فما لك مأوى في عظامٍ رميمة
ويا ما عسى مِنّي أُنادِي توهماً ... بياء الندا أُونستُ منكَ بوحشة
وكل الذي ترضاه والموت دونه ... به أنا راض والصبابة أرضت
ونفسيَ لم تجزع بأتلافها اسىً ... ولو جزعت كانت بغيري تأست
وفي كلِّ حيٍّ كلُّ حيٍّ كمَيّت ... بها عنده قتل الهوى خير مِيتَة
تجمعت الأهواء فيها فما ترى ... بها غير صِب لا يرى غيرَ صَبوة
إذا سفرت في يوم عيد تزاحمت ... على حسنها أبصارُ كلّ قبيلة
فأرواحهم تصبو لمعنَى جمالِها ... وأحداقُهم مِن حسنِها فيَ حَديقة
وعنديَ عيدي كل يوم أرى به ... جمال محيّاها بعين قريرة
وكل الليالي ليلةُ القدر إن دنت ... كما كلُّ أيام اللقا يوم جمعة
وسعيي لها حجٌّ به كل وقفة ... على بابها قد عادلت كلَّ وقفة
وأيُّ بلاد الله حلت بها فما ... أراها وفي عيني «حَلَتْ»(١) غيرَ مكة
وأيُّ مكان ضمها حرم كذا ... أرى كل دار أوطنت دارَ هجرة
وما سكنته فهو بيتٌ مقدّس ... بُقرّة عيني فيه أحشاي قرت
ومسجديَ الأقصى مساحب بُردِها ... وطيبي ثَرى أرض عليها تمشّت
مواطن أفراحي ومربى مآربي ... وأطوار أوطاري ومأمن خيفتي
مغانٍ بها لم يدخل الدهر بيننا ... ولا كادنا صَرفُ الزمان بفُرقة

(١) حَلَتْ: من الحلاوة أي الجمال.

ولا سعت الأيامُ في شَتِّ شملنا ولا حكمت فينا الليالي بجفوة
ولا صبحتنا النائبات بنبوة ولا حدثتنا الحادثات بنكبة
ولا شنع الواشي بصَدٍّ وجفوة ولا أرجف اللأحي ببين وسَلْوة
ولا استيقظتْ عينُ الرقيب ولم تزل عليّ لها في الحب عيني رقيبتي
ولا اختص وقتٌ دون وقتٍ بطيبةٍ بها كل أوقاتي مواسمُ لذتي
نهاري أصيلٌ كله إن تنسمت أوائلهُ منها بَرّ تحيَّتي
وليليَ فيها كله سَحَرٌ إذا سرى ليَ منها فيه عَرْفُ نُسَيْمة
وإن طرقت ليلاً فشهريَ كله بها ليلة القدر ابتهاجاً بزورة
وإن قرُبت داري فعاميَ كله ربيعُ اعتدال في رياضٍ أريضة
وإن رضيت عني فعمريَ كله زمانُ الصِبّا طِيباً وعصرُ الشبيبة
لئن جمعتْ شملَ المحاسنِ صورةٌ شهدتُ بها كلَّ المعانِي الدقيقة
فقد جمعتْ أحشاي كلَّ صبابةٍ بها وجوىً يُنْبيك عن كلِّ صَبْوة
ولِمْ لا أباهي كلَّ من يدّعِي الهوى بها وأُناهِي فِي افتخاري بحظوتي
وقد نِلت منها فوق ما كنتُ راجياً وما لم أكن أمّلتُ من قُرب قربتي
وأرغم أنفَ البين لطفُ اشتمالها عليّ بما يُربِي على كلِّ مُنْية
بها مثلَ ما أمسيتُ أصبحتُ مغرماً وما أصبحتْ فيه من الحسن أمستِ
فلو منحتْ كلَّ الورى بعضَ حسنِها خلا يوسفٍ ما فاتهم بمزية
صرفت لها كُلّي على يد حسنها فضاعف لي إحسانُها كلَّ وُصلة
يشاهدُ مني حسنَها كلُّ ذرةٍ بها كلُّ طَرْفٍ جالَ في كلِّ طَرْفة
ويُثني عليها فِيّ كلُّ لطيفةٍ بكلِّ لسانٍ طالَ في كلِّ لَفْظة
وأنشَقُ ريَّاها بكلِّ رقيقةٍ بها كلُّ أنفٍ ناشقٍ كلَّ هَبَّةٍ
ويسمعُ مني لفظَها كلُّ بَضْعَةٍ بها كلُّ سمعٍ سامعٍ مُتنصِّت
وَيلثَم مني كلُّ جزءٍ لِثامَها بكلِّ فمٍ في لثمِه كلُّ قُبلة
فلو بسطت جسمي رأت كلَّ جوهرٍ به كلُّ قلبٍ فيه كلُّ محبة

ومنهم العارف بالله الشيخ محمد المغربي المدفون في اللاذقية المتوفى سنة ١٢٤٠

[سيرته]

وهو أحد أئمة العارفين، وأكابر الأولياء المحققين، وأعاظم العلماء العاملين، وسادات الأشراف الطيبين الطاهرين، وهو من بني ناصر، وهي قبيلة شريفة مشهورة في بلاد المغرب، ولم يكن له في اللاذقية زوجة ولا ولد، وله فيها جامع عظيم معمور بالجمعة والجماعات، وفي جانبه حجرته المدفون فيها، وله أوقاف كثيرة يصرف ريعها على جامعهٌ ومزاره، ومن ذلك مقدار لجماعة يقرأون القرآن عند ضريحه الشريف في كل يوم، وبالجملة فهو لا تنقطع من ضريحه وجامعه العبادات بأنواعها.

وقد كانت له في حياته كرامات وخوارق عادات كثيرة سمعت منها شيئاً كثيراً من أهل اللاذقية، حينما كنت رئيس محكمتها الجزائية، وأقمت فيها خمس سنوات فإني دخلتها في صفر سنة ١٣٠٠، وخرجت منها في ذي القعدة سنة ١٣٠٥، وتوجهت منها إلى رئاسة محكمة القدس الشريف، فبقيت فيها دون سنة، وتوظفت في وظيفتي هذه رئاسة محكمة الحقوق في بيروت من ذلك التاريخ إلى اليوم، وهو نصف ذي القعدة سنة ١٣٢٥، والحمد لله رب العالمين.

وفي مدة إقامتي في اللاذقية، عرفت فضل هذا الولي الكبير سيدي الشيخ محمد المغربي، وقد ذكرته في كتابي «جامع كرامات الأولياء»، وأثبت فيه من كراماته ما يستدل به على علو مقامه.

والمشهور عند أهل اللاذقية أنّه كان قطباً، وأخبرني بكثير من كراماته من اجتمعوا عليه، وحضروا دروسه، وانتفعوا بعلمه وولايته.

وقد أخبروني أنّه كان يفتتح درسه في جامعها الجديد الكبير، بقوله بعد البسملة والحمدلة: كلامنا الآن على كذا، ويملي من حفظه شيئاً كثيراً من الفوائد المتنوعة الدينية.

وكان أهل اللاذقية قبل قدومه إليها في غاية الجهل في أمور الدين، لعدم العلماء فيهم،

وقربهم من بلاد النصيرية، وكثرة اختلاطهم بهم، فإنَّهم جل أهل القرى المجاورة لها، فجدد الشيخ رضي الله عنه فيها الدين، وأعانه على ذلك أحد أكابر تلاميذه من أهلها، العلامة المحقق الشيخ صالح الطويل أحد العلماء العاملين رحمه الله تعالى.

وأخبروني: أنَّ إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، والي مصر حينما حضر إلى البلاد الشامية سنة ١٢٤٥، وصعد إلى جامع سيدي الشيخ محمد المغربي المذكور، وهو في أعلى البلد في أحسن موقع فيها وأرفعه، فأعجبه ذلك الموقع وعمارة الجامع ومزار الشيخ، فحدثه رجل بشيء من كراماته.

فقال إبراهيم باشا ما معناه: لا يحتاج لكرامة أعظم من هذه، وهي أنَّه رجل غريب فقير، صار له في هذه البلدة القبول التام، وبني له هذا الجامع العظيم الذي لا يحصل مثله لكثير من الأمراء والأغنياء.

ومن جواهر سيدي الشيخ محمد المغربي المذكور

[مولد النبي ﷺ]

كتابه الجليل في قصة مولد النبي ﷺ يقرأ في المحافل، وهو من أبلغ وأفضل وأكمل الموالد المؤلفة في قصة ولادته ﷺ وقد جمع الشيخ فيه بين روايات المحدثين، وعبارات ساداتنا الصوفية المحققين.

وهو من أكابرهم وهم أعرف الناس بعلو قدر سيدنا محمد سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. وهذا هو المولد الشريف، قال رضي الله عنه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. اللهم لا سهل إلاَّ ما جعلته سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً.

سبحانك لا علم لنا إلاَّ ما علمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين، وعن التابعين، وتابع التابعين وعن الأولياء والعلماء العاملين، والأئمة المجتهدين، ومقلديهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، أيها الناس، إنَّ أحسن الكلام كلام الله وخير الهدى هدى سيدنا محمد بن عبد الله، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار أي

صاحبها. وكلامنا الآن على قول ربنا جلّ جلاله وعز جماله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يا أيها الموجودات، يا أيها المخلوقات، يا أيها العلامات، يا أيها الكائنات، اعلموا أنّ سيدنا محمداً ﷺ هو عرش المطالع الرحمانية، وسماء المشارق الربانية، وأنّه ﷺ هو غوث العجائب النورانية، وقطب الغرائب الروحانية.

وأنّه ﷺ هو فلك اللطائف الصمدانية، وشمس الرقائق الروحانية، وقمر الكشائف الجثمانية.

وأنّه ﷺ هو أرض الأسرار والأنوار الجبروتية، وبحر الحقائق والدقائق والرقائق الملكوتية.

وأنّه ﷺ هو سدرة منتهى المحاسن الرسولية، وشمس العجائب النبوية، وفلك الغرائب الإنسانية.

وأنّه ﷺ هو عروس أسرار الجبروت، وسلطان أنوار الملك والملكوت؛ وأنّه ﷺ هو مظهر ذات العزة والعظمة والكبرياء والألوهية، ومشرق ذات الجلال والكمال والربوبية.

وأنّه ﷺ هو عرش أسرار ذات الجلال، وكرسي أنوار ذات الجمال، ولوح أرواح ذات الكمال.

وأنّه ﷺ هو قلم الكبير المتعال، الذي كتب به ما يكون أو كان من كل ذرة من ذرات عالم الخلق والمثال.

وأنّه ﷺ هو سر أسرار المعقولات، ونور أنوار المحسوسات، وشمس جميع الموجودات؛ وأنه ﷺ هو نعمة رب العالمين، وعطية أكرم الأكرمين، وهدية أرحم الراحمين، ونور جميع العالمين؛ وأنّه ﷺ هو سر أسرار برزح المؤمنين، ونور أنوار قيامة المتقين، وروح أرواح ميزان العارفين.

وأنّه ﷺ هو بحر أنوار حياض الملائكة والأنبياء والمرسلين، وسر أسرار صراط المقربين؛ وأنّه ﷺ هو شمس أنوار جنات رب العالمين، وكثيب رحمة أرحم الراحمين؛ وأنّه ﷺ هو عظيم نعمة رب العالمين، المنزل على قلبه القرآن العظيم، المخاطب بهذا الخطاب المتين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته صلاة تدوم بدوام ذات الأحدية والواحدية والرحمانية، عدد ما أحاطت به ذات الربوبية والمالكية والألوهية، صلاة تغفر لنا بها يا ربنا، ولوالدينا ولمشايخنا، ولأحبابنا ولعشيرتنا، ولجميع من أحسن إلينا، ولصاحب الوقت، ولجميع

الأقطاب، ولجميع أهل الديوان، ولجميع الأولياء الأحياء منهم والأموات، ولأولياء هذه البلدة، ولعلمائها ولعامتها، ولإخواننا هؤلاء الحاضرين والغائبين، ولوالديهم ولأقاربهم، ولكافة المسلمين أجمعين.

لما طلعت شموس ذلك الكتاب المسطور، في ذلك الرق المنشور، في ذلك البيت المعمور، فاضت عيون ذلك البحر المسجور، من سماء العالين والمقربين، على أراضي المحبين والعارفين؛ فغارت عساكر ذلك الفتح المبين، على مدائن ذلك السلطان الأمين، فأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين، فنادى منادي سلطان الأسرار، في فلك أفلاك الأنوار، في بحور العجائب، وسواحل الغرائب: «إنني أنا الله لا إله إلاَّ أنا رب العالمين» ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يا محمد ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. فسبحان من أعز سيدنا محمداً ﷺ فجعله مظهراً لجميع الأسماء والصفات، ونوراً ساطعاً في جميع الموجودات، وحرزاً حصيناً في كل ذرة من ذرات المخلوقات، وفتح به عيوناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأفاض به لمعات القرب، وأزال به ظلمات الريب، وأنار به قلوب المؤمنين، وهدى به إلى سبيل المقربين، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته، وأهل بيته صلاة تدوم بدوام ذات الله وأسمائه وصفاته.

روى صاحب «الشفا» أنَّ لله ملائكة سياحين في الأرض، عبادتهم حراسة أهل كل دار فيها اسم محمد ﷺ.

وروى أبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه أنَّه كان رجل في بني إسرائيل يعصي الله مائة سنة، ثم مات فأخذوه وألقوه في المزبلة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن أخرجه وصل عليه وادفنه، فقال: يا رب إن بني إسرائيل شهدوا أنَّه كان يعصيك مائة سنة، فأوحى الله إليه أنَّه كذلك، إلاَّ أنَّه كلما نشر التوراة، ونظر إلى اسم محمد ﷺ قبّله ووضعه على عينيه، فشكرت له ذلك، فغفرت له وزوجته سبعين من الحور العين.

وفي الإشارة إلى عظيم قدره، وشريف أمره، وجلالة قربه من ربه ورد عظيم الآيات، وشريف الإشارات، وكثير العلامات، وبليغ العبارات؛ ومنها قول ربنا جلَّ جلاله، وعز جماله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأعراف:١٢٨] وقوله عزَّ وجل: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] فالآية الأولى تشير إلى أنَّه ﷺ هو الساري سره في جميع الأسماء والصفات، وإلى أنَّه ﷺ هو الروح الباطن

في جميع الأرواح، والنور الساطع في جميع الأشباح، وإلى أنَّه ﷺ رسول رب العالمين، إلى جميع المخلوقات جاءهم من أنفسهم، ومن أنفسهم، ومن أرواحهم، ومن أشباحهم... والخطاب إلى جميع المخلوقات علوها وسفلها، وتشير إلى أنَّه ﷺ شاقٌّ عليه وقوع جميع المخلوقات في الشقاوة والبعد عن الله، وتشير إلى أنَّه ﷺ حريص على وقوع جميع المخلوقات في السعادة والقرب إلى الله، وإلى أنَّه ﷺ بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم، وعلى الكافرين قهار عظيم.

والآية الثانية تشير إلى أنَّ الله تعالى أخذ العهود والمواثيق على جميع الأنبياء وأممهم في ذلك العالم الروحاني، وفي هذا العالم الجسماني على أنهم إن أدركوا زمنه ﷺ ليؤمنوا به ويتبعوه، وينصروه ويأخذوا العهد على أممهم في ذلك، ولا زال معمولاً بذلك العهد المربوط، والشرط المشروط، في ذلك الزمان المحدود، إلى أن أظهر الله حبيبه في هذا العالم المشهود، لما هبت النسمات، وفاحت النفحات، وفاضت اللمحات، طلعت شمس الربوبية، من عرش الرحمانية، على أراضي المالكية، وفاضت بحور الأحدية، على سواحل الواحدية؛ فأذَّن مؤذن الحضرة العلية، على شواهق الألوهية، بلسان العظمة والكبرياء والعزة الأبدية، فاهتزت وربت أراضي التقديسات الأزلية، فأنبتت من كل عجيبة رحمانية، وغريبة ربانية ولطيفة نورانية، ورقيقة روحانية، وكثيفة جسمانية، فعرجت أرواح السعادة الأبدية، بالعارفين والمقربين، والمحبين والمحبوبين، إلى تلك المنازل العالية، والديار السامية، والنعم الباقية؛ حتى نزلوا بساحة من كل يوم هو في شأن، فما كانوا ولا كانوا حيث كانوا حتى سمعوا من حضرة الرحمٰن تلاوة القرآن: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١] فصاح سلطان الجبروت، في أفلاك الملك والملكوت، أن الله لا إله إلاَّ أنا رب العالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] يا محمد﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

يا أيها الموجودات، يا أيها المخلوقات، يا أيها العلامات، يا أيها الكائنات... اعلموا أنَّ سيدنا محمداً ﷺ هو المرآة التي نظر الرب جل جلاله، وعزَّ جماله إلى نفسه بها في جميع شهادته وخلقه.

وأنَّه ﷺ هو الإمام المبين، والروح العظيم الساري في كل نفخة من نفخات رب العالمين، وأنَّه ﷺ هو النور الطالع من مشرق سموٰات الحضرات الجبروتية، والسر اللامع من مغرب كمالات النسمات الملكوتية.

وأنَّه ﷺ هو السر الذي منه انشقت أسرار الذات، والنور الذي منه انفلقت أنوار الصفات.

وأنّه ﷺ هو النور الذي فيه ضربت وعود التجليات، والسر الذي فيه لمعت بروق التحليات.

وأنّه ﷺ هو السماء الممطرة بأنوار حضرات الجبروت، والأرض المنبتة لأسرار الملك والملكوت.

وأنّه ﷺ هو العرش الذي استوى عليه الرحمٰن، والكرسي الذي انتصب فيه الديوان، وأنّه ﷺ هو السر الطالع من عرش عوالم الحق والجبروت، والروح الجامع لأسرار عوالم الملك والملكوت.

وأنّه ﷺ هو القطب الجامع لشمس كواكب الحضرات، والفرد الواحد المشار إلى جوهر روحه بجميع الإشارات، وأنّه ﷺ هو الفرد العالي الساطع بذاته على عوالم الأنوار والظلمات، والعرش المحيط المعبر عن حقيقته بسائر أنواع العبارات؛ وأنّه ﷺ هو البدر الطالع من فوق سمٰوات الأرواح، والفجر اللامع بجميع المسرات والبشارات والأفراح.

وأنّه ﷺ هو الروح الجاري في سائر الحقائق والدقائق والرقائق والأرواح، والسر الساري في سائر الكثائف والعقول والنفوس والأشباح.

وأنّه ﷺ هو الظاهر نوره في الكواكب العالي، والساري سره في الجوهر الغالي.

وأنّه ﷺ هو البحر الذي منه تفور نفحات الرحمٰن، والقطب الذي عليه تدور أفلاك الأكوان.

وأنّه ﷺ هو عرش الربوبية، وسماء المخلوقية، وأنّه ﷺ هو النور الساطع من عرش عوالم الحق والجبروت، والسر اللامع من شمس عوالم الملك والملكوت.

وأنّه ﷺ هو الشمس المفيضة لجميع الأنوار، والحضرة المحيطة بجميع الأسرار.

وأنّه ﷺ هو النور الذي نظر إليه الرب جلّ جلاله، وعزّ جماله بما نظر به إلى نفسه فخلقه من نور اسمه القيوم وخلق منه الأكوان كلها أجمعين، فجعله محل نظره من العالمين، وأنّه ﷺ هو أشرف الموجودات منزلة وأعلاها، وأكرمها مكانة وأسناها.

وأنّه ﷺ هو أعظم الموجودات محبة في الله، وأعلاهم معرفة با لله، وأشدهم قرباً إلى الله، إذ هو سيد المقربين، وأفضل العالمين، وعليه أدار الله رحى الموجودات؛ وهو قطب جميع المخلوقات، وله مع كل شيء خلقه الله تعالى خصوصية وجهٍ هو بها ملحوظ، وفي رتبته التي هو فيها محفوظ، وأنّه ﷺ هو معشوقة الأرواح والأسرار والأنوار، ومحبوبة السماء

والأرض والحسنة والنار وأنه ﷺ هو الروح الذي جعل فيه الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله عظيم الهيمنة في القرب والجبروت، وعظيم المحمدة في الملك والملكوت،

وأنه ﷺ هو النور الساطع في كل ذرة من ذرات الأكوان، والسر اللامع في كل لمحة من لمحات الرحمٰن.

وأنه ﷺ هو البحر الذي جمع الله المخلوقات من قطراته، والمزن الذي جمع الموجودات من نقطاته.

وأنّه ﷺ هو نور الشمس والقمر والأفلاك والنجوم، وسر الزمان والمكان والأبصار والعيون.

وأنّه ﷺ هو نور الجوهر واليواقيت والأحجار. وسر الزهور والنبات والأشجار، وأنّه ﷺ هو النور الحامل لسر اللطائف والرقائق والأرواح، والسر اللامع في كل الكثائف والنفوس والأشباح.

وأنّه ﷺ هو النور المحيط بالعرش والكرسي واللوح والقلم، والسماء والأرض والجنة والنار وجميع العالم. وأنّه ﷺ هو الظاهر يوجهه في ملك وجن وإنس وحيوان وعنصر وجماد ونبات وأكوان.

وأنّه ﷺ ما خلق الله شيئاً في الدنيا والآخرة إلاّ وذلك الشيء يدور على نور من أنوار وجهه.

وأنّه ﷺ هو القبضة التي قبضها الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله من نوره القديم المقدس، فقال لها: كوني محمداً فكانت.

منزه عن شريك في محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غير منقسم

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

تمّ الثلث الأوّل

وهذا أول الثلث الثاني من المولد الشريف

لما طلعت شموس تلك العزة والعظمة والكبرياء في الجبروت، وفاضت بحور تلك الأحدية بالأسرار والأنوار في الملك والملكوت، وغنت بلسان الغيب بلا بل تلك العجائب والغرائب في اللاهوت. . . هبت نسمات الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله من عرش تلك الحقائق والرقائق في الناسوت، فنادى منادي الحليم المنان، على منارة الفضل والإحسان، في سماء كل ما يكون أو كان، أنا الله لا إله إلاَّ أنا رب العالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يا محمد ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يا أيها الموجودات، يا أيها المخلوقات، يا أيها العلامات، يا أيها الكائنات. . . اعلموا أنَّ سيدنا محمداً ﷺ هو النور الذي ظهر فيه الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله بحضرتيه الغيب والشهادة، فكان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما عليه كان، قبل أن يسلخ منه جميع ما يكون أو كان، وقبل أن يظهر منه ما أراده وقدره وقضاه فوق عرشه في حضرات الرحمٰن، وإلى ما في ذٰلك القدس العالي، والتنزيه الغالي، يشير ما رواه علي بن الحسين عن أبيه عن جده رضي الله عنهم أنَّ النبي ﷺ قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام».

وما رُوي عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام فقال: «يا جبريل كم عمرت من السنين؟» فقال: يا رسول الله لست أعلم، غير أنَّه في الحجاب الرابع نجم يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة، رأيته اثنين وسبعين مرة. فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل، وعزة ربي، أنا ذٰلك الكوكب»[١] أي ذٰلك النجم وما روي عنه ﷺ أنَّه قال: «أول ما خلق الله القلم». وفي رواية أخرى: «أول ما خلق الله العقل».

وفي رواية: «أول ما خلق الله روح نبيك يا جابر».

فالقلم والعقل والروح من وجوه روحه ﷺ في ذلك العالم الإلِيّ، ومن اعتبارات نوره ﷺ في ذلك العالم الأميّ، ومن أسمائه ﷺ في ذلك العالم العلِيّ، لأنَّه ﷺ هو النور النازل في عيون جميع الأرواح، والسر الباطن في قلوب جميع الأشباح، إذ هو ﷺ لبابة جميع الموجودات، وزبدة جميع المخلوقات، لأنَّه ﷺ في تلك الحضرات العاليات، والتقديسات الأزليات، أعلمه ربه بسبق نبوته، وبشره بعظيم رسالته.

---

(١) رواه العجلوني في كشف الخفا (١: ١٨٨).

ولما حكم سلطان الجبروت، على إمام الملك والملكوت، بإظهار شمسه في اللاهوت، وانتشار ضوئه في الناسوت؛ فاضت بحور الرقائق الروحانية، على أراضي الكثائف الجسمانية، فنادى منادي حضرات الجمال، على منارة شواهق الجلال: أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا سبحاني؛ أنا رب العرش العظيم والكرسي الديواني، أنا الواحد الفرد المنزه عن الثاني، أنا المالك وحدي الرحيم الرحماني، أنا العزيز الجبار الكبير المتعالي، أنا الحي القيوم كل يوم أنا في شأن، يا أيها الموجودات، يا أيها المخلوقات، يا أيها العلامات، يا أيها الكائنات.

اعلموا أنَّ سيدنا محمداً ﷺ لما أراد الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله أن يكون له المربوب فتح منه عيون جميع الموجودات فظهر منه أصل ممد للعوالم كلها، فنظر الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله إلى نفسه به في جميع عوالم الأنوار والأرواح، وفي جميع عوالم الظلمات والأشباح، فظهرت نفس سيدنا محمد ﷺ بنبوته ورسالته وسيادته وعظيم قدره وجلالة قربه من ربه قبل أن يخلق الله آدم ومن دونه ومن فوقه من جميع الأكوان، لأنَّه لا أعرَف ولا أحَب ولا أقرَب منه إلى حضرة الكبير العظيم الرحمٰن.

ومن هناك أحبته جميع الأسرار والأنوار، وعشقته جميع الأكوان والأغيار؛ ومن هناك قرن اسمه باسم عظيم الأسماء والصفات والشأن، وكتب اسمه على صفحات كل ذرة من ذرات هذه الأكوان، من جميع الذوات والصور والألوان؛ ومن هناك كان هو العرش الذي استوى عليه الرحمٰن، والكرسي الذي انتصب فيه الديوان، والقلم الذي كتب به الرحمٰن، على لوح كل ذرة من ذرات هذه الأكوان، جميع ما يظهر عليها مما يكون أو كان؛ إذ منه غرفت جميع الأرواح، ومنه استمدت جميع الأشباح.

وهذا كله قبل وجود آدم عليه السلام بآلاف سنين، لأنَّه ﷺ هو مظهر العظمة ومكانة المجلى وخصوصية الذات، والمظهر الأعلى والمحل الأزهى الشامل لجميع أنواع الموجودات؛ لأنَّه ﷺ هو مظهر الاقتدار الإلٰهي، ومحل نفوذ الأمر والنهي، وأول توجه اللطائف الحقية، في إبراز الرقائق الخلقية، لأنَّه ﷺ منه يبرز الأمر الإلٰهي في المخلوقات، وهو محل فصل القضاء والتقدير، ومحل التدوين والتسطير؛ لأنَّه ﷺ هو سدرة المنتهى، التي انتهت المقامات كلها دونها، وإلى ما في ذلك القدس العالي، والتنزيه الغالي، يشير جبريل عليه السلام لما كان معه ﷺ ليلة إسرائه، فتقدم هو ﷺ وتأخر جبريل عليه السلام فقال ﷺ: تقدم يا جبريل. فقال: يا رسول الله، لو تقدمت شبراً لاحترقت، لأنَّ المقام مقام الخصوصية، إذ هو مشرق الألوهية، ومجلي الربوبية، ومظهر الخصوصية، ومغرب المخلوقية، من أعلى المقامات، وأشرف المكانات؛ لا يدخله من الموجودات، ولا يلجه من المخلوقات، إلاَّ من

هو صاحب المحمدية الكبرى، والشفاعة العظمى، سيد الدنيا والأخرى، وهو سيدنا ومولانا محمد ﷺ لأنه ﷺ في أعلى مراتب العبودية، وأرفع المكانات الرحمانية؛ والأنبياء والملائكة كلهم دونه، لأنه ﷺ في تلك التقديسات الأزلية، والتنزيهات الأبدية... أوحى إليه ربه جلَّ جلاله، وعزَّ جماله من حضرته العلية، وعظمته الصمدانية، تلك اللطيفة الذاتية، ذات العلوم الإلٰهية، والغيوب الصمدانية، المتردية برداء الكبرياء المتزرة بإزار العظمة المتوجة بتاج الأحدية والواحدية، والرحمانية والربوبية، الملثمة بلثام الجلال، المتبخثة في لباس الكمال، المحقجبة بحجاب العزة المتجلية بالعجائب الرحمانية، المتحلية بالغرائب الربانية، التي أشار إليها الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله في كلامه القديم، ونبئه العظيم، وخطابه المتين، وكتابه المبين؛ بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولذلك كان ﷺ هو الروح العظيم القائم بين يدي رب العالمين، المأذون في التصريف في الحضرات الإلٰهية، والعظمات الصمدانية، لأنه ﷺ هو مجلاها الأعظم، ومظهرها الأكمل، إذ هو من فيضه ﷺ أبرز الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله جميع الأنبياء والمرسلين، والملائكة والمقربين، والعالين الذين لم يؤمروا بالسجود لآدم كإسرافيل وميكائيل وجبريل وعزرائيل ومن هو فوقهم كالقائم تحت الكرسي، والقائم تحت الإمام المبين.

ولذلك كان ﷺ هو السر المكنون، والحرز المصون، عزيز المرام، عظيم المقام؛ ولذلك كان ﷺ هو السر الذي لا يصح إفشاؤه بالتصريح، ولا يمكن افهامه بالكتابة والتلويح؛ ولذلك كان ﷺ هو القطب الذي عليه تدور أفلاك الجمال، والشمس الذي تمد بنورها بدور الكمال.

ولذلك كان ﷺ هو الحبيب الأعظم ذا الأوصاف السنية، والنعوت الزكية، لا يدهشه الجمال، ولا يرعشه الجلال، لأنه فلك أفلاك الحكمة، وبحر بحور الرحمة، والمؤيد بتأييد العصمة، لأنه ﷺ لما لمراد الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله أن يظهر أسماءه وأوصافه ليعرف الخلق ذاته أبرز من حقيقته ﷺ هذه المظاهر المتميزة وهي جميع الموجودات الذاتية، المتجليات في المراتب الإلٰهية؛ فأرسله كافة للعالمين بكلامه القديم، ونبئه العظيم، وخطابه المتين، وكتابه المبين؛ ليترجم لهم أن حضرة الحق تعالى لها التعالي عن الإدراك، والتنزه عن الإشراك؛ فظهر بذلك علو العزة الربانية، وعلم بذلك حق المرتبة الرحمانية، التي أشار إليها الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله في كلامه القديم، ونبئه العظيم، وخطابه المتين، وكتابه المبين، بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]، ولذلك كان ﷺ هو في الموجودات شمس الجمال،

وفي الملوقات حيطة الكمال ولذلك كان ﷺ هو النقطة التي عليها يدور محيط الأسماء والصفات والجلائل، والقبضة التي عليها يدور محيط الأواخر والأواسط والأوائل.

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعربَ عنه ناطق بفم

لما هبت نسمات تلك اللطائف الصمدانية، وفاحت نفحات تلك العجائب الرحمانية، ولاحت لمحات تلك الغرائب الربانية... غارت عساكر تلك الحقائق النورانية، وفاضت فتوحات تلك الرقائق الروحانية، وزالت ظلمات تلك الكثائف الجسمانية؛ فنادى منادي جلال تلك الحضرات العلية، في منازل جمال تلك الكواكب الشأنية، بكلام عظيم تلك الوحدة السجافية، مخاطباً له بلسان تلك المظاهر الربانية، أنت الله لا إلٰه إلاَّ أنت رب العالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يا محمد ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. أخرج الترمذي رحمه الله عن سيدنا أبي رزين رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في ما تحته هواء، وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء».

وفي رواية أخرى: «كان في الياقوتة البيضاء». وفي رواية: «كان في الكنزية المخفية» لقوله كنت كنزاً مخفياً فالعما الذي ما تحته هواء، وما فوقه هواء، والياقوتة البيضاء، والكنزية المخفية، هي قبل أن يخلق الرب جل جلاله، وعزَّ جماله الخلق، وكانت المخلوقات مستهلكة وكان ولا شيء معه كما هو الآن على ما عليه كان. لما أراد الرب جل جلاله، وعزَّ جماله انجذاب هذا العالم، نظر إلى تلك الياقوتة البيضاء بنظر الكمال فذابت وصارت ماء، ثم نظر إليها بنظر العظمة فتموجت لذٰلك كما تموج الأرياح البحار، فانفقهت كثائفها بعضها من بعض كما ينفهق الزبد من البحر، فخلق الله من ذٰلك المنفهق سبع طبقات الأرض وجعل سكان كل طبقة من جنس أرضها، ثم صعدت لطائف ذٰلك الماء كما يصعد البخار من البحار، ففتقها الله سبع سمٰوات وخلق ملائكة كل سماء من جنسها، ثم صير الله ذٰلك الماء سبعة أبحر محيطات بالعالم؛ لما عالت سطوات تلك الصواعق القهارية، وهالت عظمات تلك الزواجر الجبارية، وهاجت زوبعات تلك العواصف الشأنية، وترادفت رجفات تلك الزلازل السبحانية، طلعت شموس تلك الحضرات العلية، وفاضت بحور تلك الأنوار الجبروتية، وأشرقت سبحات تلك الأفلاك الملكوتية، وهبت نسمات الرب جل جلاله، وعزَّ جماله من عرش تلك العنايات الرحمانية، فنادى منادي الرحمٰن في فضاء كل ما يكون أو كان: أن أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] يا محمد ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

تمّ الثلث الثاني

وهذا أول الثلث الثالث

يا أيها الموجودات، يا أيها المخلوقات، يا أيها العلامات، يا أيها الكائنات . . . اعلموا أنَّ سيدنا محمداً ﷺ هو اللطيفة النورانية، التي ظهر بها الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله دائماً على الدوام، والرقيقة الروحانية، التي تجلى بها الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله على مر الليالي والأيام، إذ هو ﷺ النور العجيب، والسر الغريب، لأنه ﷺ لما نظر الرب جل جلاله، وعزَّ جماله من حضرة الربوبية، إلى صورته ﷺ الروحية، صارت كأنها نصفان فخلق الله من نصفها الأول المقابل لليمين الجنان وجعلها دار السعادة للمؤمنين.

وخلق من نصفها الثاني المقابل للشمال النيران وجعلها دار الشقاوة للكافرين، وأبرز من فيضه ﷺ الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله العش والرسي واللوح والقلم والسماء والأرض والجنة وجميع العالم. ولما خلق الله تعالى القلم قال له: اكتب. قال: يا رب ما أكتب؟ قال له: اكتب أمة نوح، من أطاع الله أدخله الجنة ومن عصى الله أدخله النار.

وأمة إبراهيم من أطاع الله أدخله الجنة، ومن عصى الله أدخله النار. وأمة موسى من أطاع الله أدخله الجنة، ومن عصى الله أدخله النار. وأمة عيسى من أطاع الله أدخله الجنة، ومن عصى الله أدخله النار. فكتب القلم ثم سكن ووقف، فتجلى عليه ربه جل جلاله، وعزَّ جماله بحضرته العلية، وعظمته الصمدانية، في مظهر الألوهية، ومجلى الربوبية، وخاطبه بخطاب العزة وأمره بلسان العظمة؛ فقال له اكتب، فاهتز وارتعد وانشق من هيبة الكبير القهار، وجلالة العظيم الجبار؛ فقال: يا رب ما اكتب؟ قال: اكتب أمة محمد ﷺ أمة مذنبة ورب غفور، فما زال ﷺ يتحول من الحضرات العالية إلى الحضرات العلية، إلى النفحات الرحمانية، إلى النسمات الربانية، إلى التجليات الروحانية، إلى أن أراد الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله أن ينظر إليه ﷺ في رقيقته الروحانية، في طينته الجسمانية، فأمر جبريل عليه السلام أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض، فهبط في ملائكة الفردوس وملائكة الرفيع الأعلي، فقبضها من محل قبره الشريف فعجنها بماء التسنيم، ثم غمسها في أنهار الجنة حتى صارت كالدرة البيضاء.

ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي واللوح والقلم والسموات والأرض وجميع البحار . . . حتى عرفت الملائكة وجميع المخلوقات سيدنا محمداً ﷺ في طينته قبل أن تعرف آدم في طينته، فما زال ﷺ تلمع أنواره العلية، في طينته الجسمانية، إلى أن خلق الله

آدم وصوره في طينته الصلصالية، وخلق جميع ذريته كالذر فجمعهم في صلبه، فجعل أهل السعادة منهم في روضة الصلب في ناحية اليمين، وأهل الشقاوة منهم في حفرة الصلب في ناحية اليسار، ثم نفخت الروح فيه ثم مسح الرب جل جلاله، وعزّ جماله على صفيحة ظهره اليمنى، فأخرج منها ذرية كالذر بيضاء فجعلهم قبضة، فقال فيهم: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي أي بأيّ عمل عملوه، ثم مسح على صفيحة ظهره اليسرى، فأخرج منها ذرية كالذر سوداً، فجعلهم قبضة، فقال فيهم: هؤلاء إلى النار ولا أبالي أي بأي عمل عملوه.

ثم جمعهم عنده، ثم أحضرهم لديه، ثم خاطبهم بهذا الخطاب الشريف فقال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف:١٧٢] أي أنا ربكم وخالقكم وبارئكم ومصوركم. أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين. أنا أبدي وأعيد، وأحيي وأميت. أنا أوجد وأعدم، وأعز وأذل، أنا أفرح وأحزن، وأحرك وأسكن. أنا أسعد وأشقي، وأفني وأبقي. أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين. أنا أعطي وأمنع، وأضر وأنفع. أنا أوصل وأقطع، وأفرق وأجمع. أنا أعلي وأخفض وأرفع. أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين. أنا الموصوف بجميع الصفات. أنا المسمى بجميع الأسماء أنا خالق جميع المخلوقات. أنا فاعل جميع المفعولات. أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين. أنا سر جميع الموجودات. أنا حقيقة جميع المخلوقات. أنا نور جميع الكائنات. أنا قيوم السمٰوات والأرضين. أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين. أنا الوجود القديم الباقي. أنا المخالف لجميع الكائنات. أنا الغني عن كل من سواه. أنا المفتقر إليه كل ما عداه. أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين.

أنا الواحد في الأفعال والأسماء والصفات. أنا الواحد في المراتب والمقامات والذات. أنا الواحد في الأسرار والأنوار والنفحات. أنا الواحد في الأرواح والأشباح والنسمات، أنا الواحد في الأمثال والأعراض والتجليات أنا الواحد في الدنيا والآخرة واللمحات. أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين. أنا الحي العليم. أنا القادر المريد. أنا السميع البصير، أنا المتكلم، أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين. أنا الواحد الأحد. أنا الفرد الصمد. أنا الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد. أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين.

وهذه المخلوقات كلهم ملكي وعبيدي، وخلقي أتصرف فيهم كيف أشاء، وهذه الموجودات كلهم ملابسي ومظاهري ومغاربي ومشارقي، ومفاتحي ومغالقي. أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين، وهذه الكائنات كلهم علاماتي ومعلوماتي ومقدوراتي ومراداتي ومسموعاتي ومُبصراتي وكلماتي... أنا الله لا إلٰه إلاَّ أنا رب العالمين، لا يشاركني فيهم، لأنني مرسل ولا ملك مقرب ولا ملك ولا إنس ولا جان ولا حيوان ولا نبات ولا جماد ولا

روح ولا جسم ولا عرض. . . أنا الله لا إله إلاَّ أنا رب العالمين. قالوا: بلى أي أنت ربنا وسرنا وحقيقتنا ونورنا وقيومنا، أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين. تبدي وتعيد، وتحيي وتميت. أنت توجد وتعدم، وتعز وتذل. أنت تفرح وتحزن، وتحرك وتسكن. أنت تسعد وتشقي، وتفني وتبقي. أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين. أنت تعطي وتمنع، وتضر وتنفع، أنت توصل وتقطع، وتفرق وتجمع. أنت تعلي وتضع، وتخفض وترفع. أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين. أنت الموصوف بجميع الصفات. أنت المسمى بجميع الأسماء. أنت خالق جميع المخلوقات. أنت فاعل جميع المفعولات. أنت فاعل جميع المفعولات. أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين. أنت سر جميع الموجودات. أنت حقيقة جميع المخلوقات. أنت نور جميع الكائنات. أنت قيوم الأرضين والسمٰوات. أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين. أنت الوجود القديم الباقي. أنت المخالف لجميع الكائنات. أنت الغني عن كل من سواه. أنت المفتقر إليه كل ما عداه. أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين. أنت الواحد في الأفعال والأسماء والصفات. أنت الواحد في المراتب والمقامات والذات. أنت الواحد في الأسرار والأنوار والنفحات. أنت الواحد في الأرواح والأشباح والنسمات. أنت الواحد في الأمثال والأعراض والتجليات. أنت الواحد في الدنيا والآخرة واللمحات. أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين. أنت الحي القيوم. أنت القادر المريد. أنت السميع البصير. أنت المتكلم. أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين. أنت الواحد الأحد. أنت الفرد الصمد. أنت الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين، وهذه المخلوقات كلهم ملكك وعبيدك وخلقك تتصرف فيهم كيف تشاء وهذه الموجودات كلهم ملابسك ومظاهرك ومغاربك ومشارقك ومفاتحك ومغالقك. . . أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين، وهذه الكائنات كلهم علاماتك ومعلوماتك، ومقدوراتك ومراداتك ومسموعاتك ومُبصراتك وكلماتك. . . أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين، لا يشاركك فيهم لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا ملِك، ولا إنس، ولا جن، ولا حيوان، ولا نبات، ولا جماد، ولا روح، ولا جسم، ولا عرض. . . أنت الله لا إله إلاَّ أنت رب العالمين.

ثم أخذ عليهم العهد والميثاق على أنهم إذا أهبطهم إلى الدنيا، وبلغوا مقام التكليف، وأنزل فيهم الكتب، وأرسل فيهم الرسل يوفون بعهد الله، فيؤمنون بالله، ويصدقون برسل الله وبما جاؤوا به من عند الله، ثم أعيدوا إلى آدم.

فلما أهبطهم إلى الدنيا، فأهل السعادة منهم وهم كل من مات على حسن الخاتمة، فقد وفوا بعهد الله، فآمنوا بالله وصدقوا برسل الله وبما جاؤوا به من عند الله، ثم أعيدوا إلى آدم.

فلما أهبطهم إلى الدنيا، فأهل السعادة منهم وهم كل من مات على حسن الخاتمة، فقد وفوا بعهد الله، فآمنوا بالله وصدقوا برسل الله، وبما جاؤوا به من عند الله؛ فجعل لهم الحق تعالى بمحض فضله الخلود في الجنة، وأهل الشقاوة منهم وهم كل من مات على سوء الخاتمة، فقد نقضوا عهد الله، فكفروا بالله، وكذبوا برسل الله، وبما جاؤوا به من عند الله؛ فجعل لهم الحق تعالى بمحض عدله الخلود في الجنة، وأهل الشقاوة منهم وهم كل من مات على سوء الخاتمة، فقد نقضوا عهد الله، فكفروا بالله، وكذبوا برسول الله، وبما جاؤوا به من عند الله، فجعل لهم الحق تعالى بمحض عدله الخلود في النار؛ ثم دخل آدم الجنة ونوره ﷺ يلمع في جبينه، فبينما هو في الجنة إذ خلق الله تعالى حوَّاء من ضلعه الأيسر، فأراد أن يمد يده إليها فكفته الملائكة، فقالت: مَهْ يا آدم حتى تؤدي مهرها. قال: وما مهرها؟ قالوا: أن تصلي على سيدنا محمد ﷺ عشرين مرة.

وفي رواية: عشر مرات. فبينما آدم يسير في الجنة، إذ رأى نور سيدنا محمد ﷺ في سرادق العرش، وآسمَه مكتوباً عليه ومقروناً باسم الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله فقال: يا رب، من هذا الذي قرن اسمه باسمك؟ قال: هذا نبي من ذريتك اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد، فلولاه ما خلقتك، ولا خلقت عرشاً، ولا كرسياً، ولا لوحاً، ولا قلماً، ولا سماءً، ولا أرضاً، ولا جنةً، ولا ناراً، ولا دنيا، ولا أخرى... فما زال ﷺ يتلألأ من الحضرات العلية، إلى النفحات الرحمانية، إلى النسمات الربانية، إلى التجليات الروحانية، إلى أن أراد الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله أن ينظر إليه ﷺ في قصور تلك الأصلاب المطهرة، وبروج تلك الأرحام المشيدة.

فأهبط آدم وحواء من تلك الجنة العالية، والديار السامية، والنعم الباقية، إلى هذه الدنيا الفانية، الحقيرة الدانية، العتيقة البالية؛ فولدت له أربعين ولداً في عشرين بطناً، في كل بطن ذكراً وأنثى، إلاَّ شيثاً فإنَّه ولد وحده، وانتقل هذا النور المحمدي إليه، فأوصاه أبوه أن لا يضع هذا النور إلاَّ في المطهرات من النساء.

ولم تزل تلك الوصية معمولاً بها إلى عبد المطلب، فطهر الله هذا النسب الشريف من أفعال الجاهلية، وما هم عليه من القبائح؛ فهو ﷺ سيد الأولين والآخرين وأفضل العالمين، أبو القاسم محمد ابن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، ابن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر؛ وقريش تنتهي إليه أو إلى فهر.

والنضر هو ابن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد،

بن عدنان. وإلى هنا انتهى النسب الشريف المجمع عليه، ووراء ذلك أقوال لا طائل تحتها، فما زال ﷺ يتحول من رياض تلك الأصلاب الزكية، إلى رياض تلك الأرحام النقية، إلى أن أراد الرب جلَّ جلاله، وعزَّ جماله أن ينظر إليه ﷺ في أشرف الأيام الدنيوية، وأكمل الأطوار البشرية، فنودي ليلة حمله في السماء والأرض أنَّ النور الذي منه محمد ﷺ يستقر الليلة في بطن آمنة، ويخرج إلى الناس بشيراً ونذيراً.

وأمر رضوان أن يفتح أبواب الجنان، ونطقت كل دابة لقريش تلك الليلة، فقالت: حُمل بمحمد ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلاَّ أصبح منكوساً، وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذلك، ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب تبشرها، وكذا بشر أهل البحار بعضهم بعضاً، وخمدت نار فارس التي كانوا يعبدونها، ولم تخمد قبل ذلك بألفي عام، ونشفت بحيرة طبريا التي كانت تسير فيها السفن، فبني مكانها مدينة تسمى ساوة، واهتز إيوان كسرى، وانصدع وانشق ووقع منه أربع عشرة شرافة، ورميت الشياطين المشرفون للسمع، وحجب إبليس لعنه الله عن خبر السماء، فرنَّ رنة عظيمة، كما رن حين لُعن، وحين خرج من الجنة، وحين ولد ﷺ وحين بعث وحين نزلت عليه الفاتحة.

ولم تزل أمه ﷺ ترى من العجائب والغرائب ما يدل على عظيم ذلك الظهور، إلى أن مرت تلك الأيام والشهور، فأشرقت الأكوان كلها بذلك النور، فأخذها ما يأخذ النساء من الألم، ولم يعلم بها أحد فسمعت شيئاً ها لها.

ورأت كأنَّ طائراً أبيض مسح فؤادها، فالتفتت فرأت شربة بيضاء فيها لبن، وكانت عطشى، فشربتها؛ ثم رأت نسوة كالنخل طوالاً كأنهنَّ من بنات عبد مناف، فعجبت منهم، فقلن لها: نحن آسية ومريم وهؤلاء من الحور العين؛ ورأت رجالاً وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق من فضة، وأنها يرشح منها عرق أطيب من المسك الأذفر، ورأت قطعة من الطير، أقبلت حتى غطت حُجْرتها، مناقيرها الزمرد وأجنحتها الياقوت؛ وإذا بديباج أبيض قد مد بين السماء والأرض، وإذا بقائل يقول: خذوه عن أعين الناس؛ فحينئذٍ أبصرت مشارق الأرض ومغاربها، فرأت ثلاثة أعلام مضروبات: علماً بالمشرق، وعلماً بالمغرب، وعلماً على ظهر الكعبة. فأخذها المخاض، واشتد بها الأمر، وكأنها مستندة إلى نساء، وكثرن عليها وكأنهنَّ معها في البيت. فحينئذٍ ولدته ﷺ.

اللهم صل وسلم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته عدد ما أحاطت به ذاتك وصفاتك وأسماؤك، ونفحاتك ونسماتك وتجلياتك. . .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته عدد ما أحاطت به حضرتك ورحمتك ونعمتك وفضلك وكرمك وإحسانك... اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته عدد ما أحاط به جلالك وجمالك وكمالك وعزتك وعظمتك وكبرياؤك .. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته عدد ما أحاط به وجودك وحياتك وعلمك وكلامك وقدرتك وإرادتك وسمعك وبصرك... اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته عدد ما أحاطت به ألوهيتك وأحديتك ووحدانيتك ورحمانيتك وربوبيتك ومالكيتك... اللهم إنّا نسألك بأنّك أنت الله الذي لا إلٰه إلاّ أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وبذاتك وأسمائك وصفاتك وبجلالك وجمالك وكمالك وبعزتك وعظمتك وكبريائك... وباسمك العظيم الأعظم، وباسمك الله، وباسمك الرحمٰن، وبروحك الذي نفخت منه في جميع الأكوان، وبالجبروت والملك والملكوت، وبجميع الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين والصديقين والشهداء والصالحين، وبسيدنا ومولانا محمد ﷺ وبذاته وبروحه، وبما جاء به، وبمحبته فيك ومحبتك فيه أن تصلي عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأهل بيته صلاة تدوم بدوام ملكك، صلاة تغفر بها لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولأحبابنا ولعشيرتنا... ولجميع من أحسن إلينا، ولصاحب الوقت، ولجميع الأقطاب ولجميع أهل الديوان، ولجميع الأولياء الأحياء منهم والأموات، ولأولياء هذه البلدة، ولعلمائها ولعامتها، ولإخواننا الحاضرين والغائبين، ولوالديهم ولأقاربهم، ولكافة المسلمين أجمعين آمين. اللهم أحسن عاقبتنا كما أحسنت عواقب المتقين، وأجعل خير أيامنا وأبركها وأسعدها يوم لقائك. اللهم فرحنا بلقائك، واجعلنا من الصابرين لقضائك الحافظين لحدودك. اللهم اغننا بك عن كل من سواك، وكن لنا ولياً ونصيراً وأنيساً في الدنيا والآخرة. اللهم لا تفضحنا، ولا تشف فينا الأعادي، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا يا أرحم الراحمين. اللهم اكسنا برداء عفوك، واكسنا برداء مغفرتك، واكسنا برداء العز بك في الدنيا والآخرة.

اللهم أحينا بحياتك الأبدية، وانظر إلينا بما نظرت به إلى أوليائك، وحققنا بصفاتك وأسمائك.

اللهم املأنا بك وبمحبتك ومعرفتك ومشاهدتك ودوام ذلك في الدنيا والآخرة. اللهم

أغرقنا في بحار وحدتك وفي بحار محبتك وفي بحار معرفتك، وعلق قلوبنا بك حتى لا نكون لأحد سواك.

اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً، وارزقنا اجتنابه. اللهم اكتبنا في ديوان أصفيائك المتقين، واجعلنا من أوليائك العارفين المقربين المحبين المحبوبين. اللهم اجمعنا عليك، واهدنا إليك، ولا تفتنا بغيرك، ولا تحوجنا إلى غيرك، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وانشر علينا رضوانك الأكبر في الدنيا والآخرة؛ يا أرحم الراحمين، يا أكرم الأكرمين. اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا، والسلامة والعافية في ديننا ودنيانا. اللهم وسع أرزاقنا، وحسن أخلاقنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على أنفسنا، وانصرنا على أعدائنا، وأحسن ختامنا.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولإخواننا الحاضرين والغائبين، ولوالديهم ولأقاربهم، ولكل المسلمين أجمعين. اللهم اغفر لجميع الأولياء، وزد في درجاتهم وأنوارهم، وقربهم إليك، واغفر لجميع العلماء، وزد في درجاتهم وأنوارهم، وقربهم إليك، واغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولعشيرتنا، ولأهل بلدتنا، ولكل المسلمين أجمعين؛ وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين. إلى هنا انتهى مولد الشيخ محمد المغربي رضي الله عنه.

ومنهم الإمام الكبير الشهير الشهاب أحمد بن حجر الهيتمي وقد تقدم ذكره رضي الله عنه

ومن جواهره رضي الله عنه

[مختصر مولده الكبير]

هذا المولد النبوي الشريف؛ وهو من أجمع الموالد وأصحها: بسم الله الرحمٰن الرحيم، الحمد لله الذي شرف هذا العالم، بمولد سيد ولد آدم، وكمل به سعود الأنبياء والمرسلين، وجميع الملائكة لا سيما الكروبيين والمقربين، وجمع فيه سائر الكمالات الباطنة والظاهرة، وجعله إمام الكل المتفضل عليهم والممد لهم في الدنيا والآخرة؛ وختم بشريعته الغراء، الواضحة البيضاء، المحفوظة من التحريف والتبديل، إلى أن ينفخ في الصور إسرافيل... فهي خير الشرائع وأعدلها، كما أنَّ أمته خير الأمم وأفضلها، وكتابه جمع جميع ما في كتب الله المنزلة، وفاق عليها بكمالات لا تحصى مفصلة ومجملة... كيف والمانُّ به عليه، والمتفضل بوصوله إليه. يقول عزَّ قائلاً من جملة مدحه، ويشير إلى بعض شرحه ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ومن ثَمَّ حوي من معجزاته ﷺ ستين ألف معجزة، بل أكثر من ذٰلك، كما يعلمه من أطلعه الله على ما فيه من العلوم والمسالك؛ وحوى أيضاً من أنواع تعظيم نبينا ﷺ وفخامة أمره، وعلو كماله وقدره، وخطابه بأنواع المدائح والكمالات، وإعلام أمته بما بلغه من المقامات والخصوصيات، ما لا يحيط بكنهه الأعظم المتفضل به عليه بما لم يصل إليه مخلوق، ولم يلحقه كامل فيما له من المزايا والحقوق.

فمن ذٰلك الخطاب الأعلى قوله عزَّ قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٨].

فأكرمه الله تعالى بأن جعله شاهداً على الرسل، بأنهم بلغوا أممهم جميع ما أوحي إليهم، وذلك لأنهم أتباعه وخلفاؤه كما يومىءُ إلى ذٰلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ٨١] أي محمد ﷺ ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١] أي عهدي ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] ختم الله تعالى هذا المقام الأعظم، لنبينا ﷺ بقوله: ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] ليعلمنا بعظيم شرفه وعلو مرتبته، وأنَّه المتبوع وهم التابعون، والمقصود بالذات وهم له لاحقون؛ وإنما تأخر ظهوره الحسي في هذا العالم عن جميعهم ليكون مستدركاً عليهم ومتمماً لما فاتهم من الكمالات؛ وجامعاً لجميع فضائلهم وزيادات، كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠] الدال على أنَّه لم يبق فيهم كمال وهدى ومعجزة وخصوصية إلاَّ وقد توفر فيه ذلك الكمال والهدى. وأوتي مثل الآخرين أو أعلى منهم جلالة وقهراً لأولي العناد والردى. ولو لم يكن من ذلك إلاَّ ما ظهر عند حمله وقُبيله، ووقت ولادته، وفي أيام رضاعه وتربيته لكفى.

كما جمعت ذلك في كتاب سميته «النعمة الكبرى على العالم، بمولد سيد ولد آدم»، بأسانيده التي نقلها أئمة السنن والحديث، الموصوفون بالحفظ والإتقان، والجلالة والبرهان؛ في القديم والحديث مما هو سالم من وضع الوضاعين، وانتحال الملحدين والمفترين، لا كأكثر الموالد التي بأيدي الناس، فإنَّ فيها كثيراً من الموضوع، الكذب المختلق المصنوع، لكن في ذلك الكتاب بسط لا يتم معه قراءته في مجلس واحد، فاختصرته هنا بحذف أسانيده وغرائبه، واقتصرت منه على ما يسنده متابع أو عاضد، روماً للتسهيل على المادحين، وقصداً لحيازتهم معرفة تلك المزايا والكرامات لينتظموا بذلك في سلك المحبين لذلك الجناب الرفيع، والجاه الواسع العريض المنيع. فقلت مفتتحاً بآية تناسب المقصود، وتدل على علو شرف ذلك المولود، وهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩] صلوا عليه وسلموا تسليماً.

فرسول الله ﷺ هو سيد الأولين والآخرين، والملائكة المقربين، والخلائق أجمعين؛ وحبيب رب العالمين، أكمل رسل الله، وأفضل خلق الله، المخصوص بالشفاعة العظمى يوم الدين، والمنصوص على عموم رسالته إلى العالمين، الإنس والجن والملائكة السابقين واللاحقين؛ صاحب اللواء المعقود، والحوض المورود، والمقام المحمود، الذي يحمده فيه الأولون والآخرون، ويحتاج إلى جاهه يومئذ الأنبياء والمرسلون، والملائكة المقربون؛ وصاحب المعجزات الباهرة، والكرامات الباطنة والظاهرة، والحجة القويمة، والمحجة المستقيمة، والفضائل التي لا تحصى، والشمائل التي لا يمكن أن تستقصى.

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه وأين الثريا من يد المتناول

فهو الذي اصطفاه الله تعالى بالمحبة والخلة، والقرب المنّزه عن الإحاطة والجهة والمنزلة، وبالمعراج وما فيه من العجائب التي اطلع عليها، والمزايا والفضائل التي أوتيها، وبالصلاة بالأنبياء في بيت المقدس ذهاباً وعوداً؛ إعلاماً بأنّه سيد الكل وممدهم بدءاً وعوداً، وبشهادته وشهادة أمته عليهم، وعلى أممهم بما بلغوه من أمرهم ونهيهم، وبلواء الحمد والوسيلة والبشارة والنذارة والهداية والإمامة والرحمة للعالمين. . . وبأنّ ربّه يعطيه حتى يرضى.

فيقول: «يا رب، لا أرضى وأحد من أمتي في النار» . فيخرجهم الله تعالى منها ويلحقهم بالسادة الأتقياء الأبرار، وبإتمام النعمة عليه، وبتفويض سائر الإمدادات إليه، وبشرح الصدر، ورفع الذكر، فلا يذكر الله تعالى إلاّ ويذكر معه، وبعزة النصر، بالرعب من مسيرة شهر، وبالتأييد بالملائكة، وبنزول السكينة عليه وعلى أمته، وبإجابة سؤاله ودعوته، لا سيما التي اختبأها لأمته حين لا ينفعهم غيرها، ولا يسعهم إلاّ خيرها وميرها؛ وبإقسام الله تعالى بحياته، وبرد الشمس بعد غروبها عليه، وبقلب الأعيان له، وبكونه يبرئ من جميع الآلام والأسقام، وبالاطلاع على المغيبات حتى ما سيقع في أمته إلى يوم القيامة، وبدوام الصلاة عليه من الله سبحانه وتعالى ومن جميع ملائكته التي لا يحصي كثرتهم إلاّ هو تعالى ومن أمته في سائر الأمكنة والأزمنة، وبإجابة المتوسلين به، بل وبأهل بيته وخلفائه وآله وأصحابه وتابعيهم بإحسان، على مر الزمان إلى غير ذلك مما لا مطمع في حصره، ولا غاية لاستيعابه وسبره؛ سيدنا ومولانا وذخرنا وملاذنا وهادينا وملجؤنا وممدنا ومنقذنا ومكملنا وناصحنا، أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وقريش، ينتهون إلى هذا.

وقال كثيرون: إلى فهر؛ والنضر هو ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن [الياس][1] بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان؛ وإليه ينتهي النسب المجمع عليه، ووراء ذلك أقوال متباينة لا يثبت منها شيء، فلا ينبغي الخوض فيها للحديث المخرج عند صاحب مسند الفردوس، لكن الأصح أنّه من قول ابن مسعود، ومع ذلك له حكم المرفوع إليه ﷺ لأنّ مثله لا يقال من جهة الرأي إنه ﷺ كان إذا بلغ في النسب إلى عدنان أمسك وقال: كذب النسابون. قال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨] قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولو شاء الله أن يعلمه بهم لأعلمه بهم. صلوا عليه وسلموا تسليماً.

---

(١) في أحد التنبيهات «إلياس» من دون همزة. و«لؤي» بهمزة وياء مخففة.

اعلم أنَّ الله تعالى شرف نبيه ﷺ بسبق نبوته في سابق أزليته، وذٰلك أنَّه تعالى لما تعلقت إرادته بإيجاد الخلق أبرز الحقيقة المحمدية من محض النور قبل وجود ما هو كائن من المخلوقات بَعدُ، ثم سلخ منها العوالم كلها، ثم أعلمه الله تعالى بسبق نبوته وبشره بعظيم رسالته؛ كل ذٰلك وآدم لم يوجد ثم انبجست منه ﷺ عيون الأرواح، فظهر بالملإ الأعلى أصلاً ممداً للعوالم كلها.

قال كعب الأحبار: لما أراد الله تعالى أن يخلق محمداً ﷺ أمر جبريل عليه السلام أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض، فهبط في ملائكة الفردوس وملائكة الرفيع الأعلى، فقبضها من محل قبره المكرم، أي واصلها من محل الكعبة المشرفة موجهاً الطوفان إلى هناك، فعجنت بماء التسنيم، ثم غمست في أنهار الجنة حتى صارت كالدرة البيضاء، ثم طافت بها الملائكة حول العرش والكرسي وفي السمٰوات والأرض والبحار. . . فعرفت الملائكة وجميع الخلق سيدنا محمداً ﷺ قبل أن تعرف آدم، ورأى آدم نور محمد ﷺ في سرادق العرش، واسمه مكتوباً عليه مقروناً باسمه تعالى فسأل الله تعالى عنه، فقال له ربه: هذا النبيّ من ذريتك، اسمه في السماء أحمد وفي الأرض محمد، ولولاه ما خلقتك ولا خلقت سماءً ولا أرضاً. وسأله أن يغفر له متوسلاً إليه بمحمد ﷺ فغفر له.

ولما كان آدم طيناً استُخرج منه نبينا ﷺ ونُبِّئ، ثم أُخذ منه الميثاق قبل الأنبياء، ثم أُعيد إلى آدم، فنُفخت فيه الروح، ثم استُخرجت منه ذريته لأخذ الميثاق عليهم؛ فنبينا ﷺ هو المقصود من الخلق وواسطة عقدهم ورسول الرسل، لأنَّ الله سبحانه وتعالى أخذ الميثاق عليهم بأنَّهم من أتباعه، فرسالته عامة لجميع الخلق إلى يوم القيامة، ولأجل ذٰلك يكون الأنبياء كلهم يوم القيامة تحت لوائه. ولما ظهر آدم لمع نور نبينا ﷺ في جبينه، ثم خلق من ضلعه الأيسر حواء، فأراد مد يده إليها فكفته الملائكة عنها، حتى يصلي على نبينا محمد ﷺ ثلاث مرات.

وفي رواية: عشرين، ثم لما أُهبط إلى الأرض لما أراده الله من الحكم الباهرة لو لم يكن منها إلاّ ليوجد نبينا ﷺ وقت إِبَّانه في أمته الذين هم خير أمة أخرجت للنَّاس لكفى. فولدت له أربعين ولداً في عشرين بطناً، في كل بطن ذكر وأنثى إلاّ شيثاً، فإنَّه ولد وحده إعلاماً بأنَّه الوارث لأبيه نبوة وعلماً، فلذا انتقل النور المحمدي إليه، ثم أوصى شيث ولده بما أوصاه به أبوه آدم أن لا يضعه إلاّ في المطهرات من النساء، ثم لم تزل هذه الوصية معمولاً بها إلى زمن عبد الله بن عبد المطلب، فطهر الله هذا النسب الشريف من قبائح الجاهلية وما كانوا عليه، وكان ذٰلك النور يزداد تلألؤاً في جبهة جده عبد المطلب، وببركته توجه إلى الله تعالى به في

أصحاب الفيل الذين قصدوا مكة ليخربوها، وقد آن إبّان الحمل به ﷺ فأرسل الله عليهم الطيور الأبابيل من البحر، فأهلكهم قبل وصولهم الحرم بها عن آخرهم إلاّ واحداً منهم ليخبر بهم إرهاصاً وكرامة لظهور محمد ﷺ ثم ظهر ذٰلك النور في جبهة أبيه عبد الله الذبيح، الذي فداه الله من الذبح، أراد أبوه ذبحه وفاءً لنذره إياه لما دله الله تعالى على بئر زمزم.

وكانت دثرت، فنجاه الله من الذبح ببركة ذٰلك النور، بأن ألهم الله أباه أن يفديه بمائة بعير. ولما فدي أدركت امرأة منه ذٰلك النور، فخطبته لنفسها وتعطيه المائة التي فُدي بها، فأبى حتى يأذن أبوه فذهب أبوه به إلى وهب بن عبد مناف بن زُهرة، وهو يومئذٍ سيد بني زُهرة نسباً وشرفاً، فزوجه لوقته ابنته آمنة أفضل امرأة في قريش، فوقع عليها من فوره، فحملت بسيد الخلائق من ساعتها، ففارقه أعظم ذٰلك النور فعرض نفسه على الأولى فأبت.

وقالت له: فارقك ما كنت أؤمل انتقاله إليّ من النور الذي معك. ونودي ليلة حمله، وهي ليلة الجمعة من رجب، في السماء والأرض أنَّ النور المكنون الذي منه محمد ﷺ يستقر الليلة في بطن آمنة، ويخرج للناس بشيراً ونذيراً، وأُمر رضوان أن يفتح باب الفردوس، ونطقت كل دابة لقريش تلك الليلة، وقالت: حُمل بمحمد ﷺ ورب الكعبة وهو إمام الدنيا وسراج أهلها.

ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلاّ أصبح منكوساً، وأصبح كل ملك أخرس لا ينطق يومه ذٰلك. ومرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب تبشرها به ﷺ وكذا بشر أهل البحار بعضهم بعضاً، ورأت أمه بين النوم واليقظة قائلاً يقول لها: أشعرت أنّك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها ﷺ ورأت مرات أنّه خرج منها نور أضاء له المشرق والمغرب.

ولما مضى لحملها ستة أشهر أتاها آت في منامها، فركضها برجله وأخبرها أنّها حملت بسيد العالمين، وأنّها تسميه محمداً، وأنّها تكتم شأنها؛ وفي رواية أنّها وجدت له أعظم الثقل والروايات المشهورة أنّها لم تجد من ذٰلك شيئاً، وجمع بأنَّ الأولى في أول الحمل والأخرى في آخره، ليقع مخالفة المعتاد فيهما حتى يعلم أنَّ كل أموره ﷺ خارقة للعادات. وفي رواية أنّه ﷺ بكرها وأخرى لا، وجمع بأنّه يحتمل أنّها أسقطت قبله.

وفي رواية وهي الأشهر إنَّ أباه مات وهي حامل به وعليها المعظم. وفي أخرى أنّها حملت به أكثر من تسعة أشهر، والأصح خلافها. ولم تزل أمه ﷺ ترى وهي حامل به ما يدل على عظم قدره.

مما تواترت الأخبار بنقله من الكرامات، والآيات الباهرات، إلى أن مضت تلك الشهور، وأشرق الوجود بذٰلك النور؛ فأخذها ما يأخذ النساء من الألم ولم يعلم بها أحد،

فسمعت شيئاً هالها، فرأت كأنَّ جناح طائر أبيض مسح على فؤادها فذهب روعها، ثم التفتت فإذا هي بشربة بيضاء فيها لبن، وكانت عطشى فشربتها. ثم رأت نسوة كالنخل طولاً فعجبت منهم، فقلن لها نحن آسية ومريم، وهؤلاء من الحور العين.

فاشتد بها الأمر وتكرر سماعها لذلك المهول، وإذا هي بديباج أبيض مد بين السماء والأرض، وإذا بقائل يقول: خذوه عن أعين الناس. ورأت رجالاً وقفوا في الهواء بأيديهم أباريق فضة وإنَّها يرشح منها عرق أطيب من المسك الأذفر؛ ورأت أيضاً قطعة من الطير أقبلت حتى غطت حجرتها، مناقيرها الزمرد وأجنحتها الياقوت، وأبصرت حينئذٍ مشارق الأرض ومغاربها، فرأت ثلاثة أعلام مضروبات: علماً في المشرق، وعلماً في المغرب، وعلماً على ظهر الكعبة.

فأخذها المخاض، واشتد بها الأمر وكأنها مستندة إلى نساء. وكثرن عليها حتى كأنهنَّ معها في البيت، فحينئذٍ ولدته ﷺ. صلوا عليه وسلموا تسليماً. وكانت ولادته ﷺ ليلاً كما في رواية أو نهاراً كما في أخرى؛ ولا تخالف بينهما لاحتمال أنَّ بعيد طلوع الفجر، موصوف بأوصاف تليق بكماله الأعظم، وسؤدده الأفخم؛ منها أنَّه لم يخرج معه دم ولا قذر أصلاً، وأنَّهُ رؤي حينئذٍ نور عم البيت والدار، وأنَّ النجوم دنت وتدلت حتى ظنَّ من هناك سقوطها عليهم، وأن قابلته سمعت قائلاً يقول: يرحمك الله. فسطع نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، وأنَّه وقع على كفيه وركبتيه شاخصاً ببصره إلى السماء.

وفي رواية: وقع حين ولدته أمه واضعاً يده في الأرض رافعاً رأسه إلى السماء، وأنَّه ﷺ لما فصل من أمه خرج منها نور وفي رواية شهاب أضاء ما بين المشرق والمغرب، لا سيما الشام وقصورها إشارة إلى أنَّه يصل إليها بنفسه، وأنَّ الإسراء يكون إليها ثم منها إلى السماء، وأنَّها دار ملكه كما في أثر، وأنَّها مهاجر الأنبياء، وأنَّه ما من نبي إلاَّ وهو منها أو هاجر إليها، وبها ينزل عيسى ﷺ، وهي أرض المحشر والمنشر. وقال ﷺ: «عليكم بالشام، فإنَّها خيرة الله من أرضه يجتبي إليها خيرته من عباده»[1].

وفي رواية: أنَّه ﷺ حين ولد وقع معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب ورفع رأسه إلى السماء وقبض التراب إشارة إلى أنَّه يملك الأرض، وأنَّه ينثره في وجه أعدائه فيهزمهم وكان الأمر كذلك يوم بدر وحنين، أخذ ﷺ كفاً من تراب، وضرب به وجه العدو، فلم يبق أحد إلاَّ وأضاء به منه، فولوا منهزمين خاتبين آيسين.

---

(١) رواه أبو داود في السنن (الجهاد ب ٣). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٣٠). وابن تميمة في أحاديث القصاص (٦٢). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣٨٢٠٦).

وفي رواية أنه ﷺ ولد جاثياً على ركبتيه ينظر إلى السماء، ثم قبض قبضة من الأرض وأهوى ساجداً، وأنه وضع تحت برمة كما كانوا يعتادون ذلك في المولودين عقب ولادتهم، فانفلقت تلك البرمة عنه وإذا به قد شق بصره الشريف ينظر إلى السماء، ويمص أبهامه فيشخب له لبناً، وإنَّ سحابة بيضاء نزلت من السماء فغيبته عن وجه أمه برهة، فسمعت قائلاً يقول: طوفوا بمحمد مشارق الأرض ومغاربها، وأدخلوه في البحار كلها ليعرفه جميع من بها باسمه ونعته وصفته ويعرفوا بركته.

ثم انجلت عنه فإذا به مدروج في ثوب صوف أبيض وتحته حريرة خضراء، وقد قبض على ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الأبيض الرطب؛ وإذا قائل يقول: قبض محمد ﷺ على مفاتيح النصر وعلى مفاتيح الذكر وعلى مفاتيح النبوة.

وفي رواية إنها رأت سحابة أعظم من الأولى، يسمع فيها صهيل الخيل وخفقان الأجنحة وكلام الرجال، حتى غشيته فغيب عنها أكثر من المرة الأولى، وسمعت قائلاً يقول: طوفوا بمحمد جميع الأرضين وعلى النبيين والجن والإنس والملائكة. ثم انجلت عنه فإذا به قد قبض على حريرة خضراء مطوية طياً شديداً ينبع منها ماء مَعين، وإذا قائل يقول: قبض محمد على الدنيا كلها، لم يبق خلق من أهلها إلاّ دخل تحت قبضته طائعاً. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم القادر على ما يريد.

ثم غشيته ثلاثة من الملائكة بيد أحدهم إبريق من فضة، وفي يد الثاني طست من زمرد، وفي يد الثالث حريرة بيضاء، فنشرها فأخرج منها خاتماً تحار أبصار الناظرين دونه، فغسله من ذلك الإبريق سبع مرات، ثم ختم بين كتفيه بالخاتم، ولفّه في الحريرة، ثم احتمله وأدخله بين أجنحته ساعة ثم رده.

ولا تعارض هذه الرواية رواية أنّه ولد بالخاتم، ولا رواية أنّه ختم به لما شق صدره الشريف. وهو عند حليمة، لأنّه لا مانع من تكرار الختم إظهاراً لمزيد الكرامة والتميز والاعتناء به. وأخبر جماعة من الأحبار والرهبان في ليلة ولادته به قبل أن يولد، وأجمعوا على ذهاب ملك بني إسرائيل وآمن به بعضهم. وفيها ارتج واضطرب إيوان كسرى الذي لم يبن أحكم منه، فانصدع وانشق وسقط من أعلاه أربع عشرة شُرَّافة، إشارة إلى أنّه لم يبق من ملوك الفرس إلاّ أربعة عشر؛ وكان الأمر كذلك، وكان آخرهم في خلافة عثمان رضي الله عنه وخمدت تلك الليلة أيضاً نار فارس التي كانوا يعبدونها، ولم تخمد قبل ذلك بألفي عام؛ بل كانت توقد وتضرم أشد الإيقاد والإضرام ليلاً ونهاراً، فلم يقدر أحد تلك الليلة على إيقاد شيء منها؛ وغاضت ونشفت بحيرة طبرية التي كانت تسير فيها السفن، فلم يبق فيها تلك الليلة قطرة

ماء، فبُني محلها مدينة تسمى ساوة. ورميت تلك الليلة الشياطين المسترقون للسمع من السماء بالشهب، فلم يعودوا إليها. وحجب إبليس اللعين عن خبر السماء فرن رنة عظيمة، كما رن حين لعن وحين أخرج من الجنة وحين ولد النبي ﷺ حين بعث وحين نزلت عليه الفاتحة.

وأكثر العلماء على أنَّه ﷺ ولد مختوناً مقطوع السرة. ومن أسباب تسمية جده عبد المطلب له محمداً ما روي، أنَّه رأى كأنَّ سلسلة فضة خرجت من ظهره لها طرف بالسماء وطرف بالأرض وطرف بالمشرق وطرف بالمغرب. من ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نورٌ، وإذا أهل المشرق والمغرب متعلقون بها، فعبرت له بمولود يكون من صلبه، يتبعه أهل المشرق والمغرب ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمداً.

واختلفوا في شهر مولده ويومه على أقوال كثيرة، ولا خلاف أنَّه ولد يوم الإثنين، والأشهر أنَّه ولد في ربيع الأول، والأشهر أيضاً في ثاني عشره.

وقال كثيرون أئمة حفاظ متقدمون وغيرهم أنَّه يوم ثامنه. والصواب أنَّه ولد بمكة ولا يجوز اعتقاد غيره، والأشهر أنَّ محل مولده المشهور بسوق الليل، وهو الآن مسجد لله تعالى وقفته الخيزران أم الرشيد.

وأول من أرضعته ثوبية مولاة عمه أبي لهب، فأعتقها لما بشرته بولادته ﷺ فخفف الله عنه من عذابه كل ليلة اثنين جزاءً لفرحه فيها بمولده ﷺ كما جوزي عمه أبو طالب بسبب تربيته بأن خفف الله عنه من عذابه أيضاً. وفي رواية أنَّه أعتقها بعد الهجرة فعليها التخفيف عنه لكونه أمرها بإرضاعه ﷺ ثم أرضعته بعدها حليمة السعدية رضي الله عنها كانت تأتي النبي ﷺ فيبسط لها رداءه وكذا زوجها السعدي أيضاً وبنتها الشيماء، التي كانت تحضنه ﷺ مع أمها.

وخلاصة قصة إرضاعها أنَّها خرجت في نسوة من قومها يلتمسن الرضعاء بمكة، فكلهنَّ أعرضنَّ عنه ﷺ ليتمه حتى هي أولاً، لكن لما لم يحصل لها غيره جاءَت إليه وأخذته، فرأته مدرجاً في ثوب صوف أبيض من اللبن، يفوح منه المسك، وتحته حريرة خضراء؛ وكان راقداً على قفاه يغط، فهابته أن توقظه، فوضعت يدها على صدره، فتبسم ضاحكاً وفتح عينيه وخرج منهما نور حتى دخل خلال السماء؛ فقبلته وأعطته ثديها الأيمن، فقبله وحولته إلى الأيسر فأبى ﷺ كأنَّ الله ألهمه العدل وأعلمه أنَّ له شريكاً هو ابنها، فترك له ثديها الأيسر.

وكانت هي وأتانها وناقتها في أشد الجوع والهزال وعدم اللبن، فبمجرد أن وضعته في حجرها أقبل عليه ثدياها، فروي وروي أخوه، ودرت ناقتهم فاشبعتهم تلك الليلة لبناً.

فلما أصبحت ودعت أمه وركبت أتانها وهو بين يديها، فرأت الأتان سجدت نحو الكعبة ثلاث مرات، ورفعت رأسها نحو السماء.

فلما خرجت مع قومها سبقت أتانها الكل بعد أن كانت لا تنهض بها، فأنكرنَ أنّها هي؛ فلما علمنها قلنَ: إنَّ لها لشأناً عظيماً.

وكانت تسمعها تقول: إنَّ لي لشأناً، ثم شأناً، بعثني الله بعد موتي، لو علمتنَّ من على ظهري عليه خيار النبيين وسيد الأولين والآخرين.

فلما وصلوا منازلهم، وكانت أجدب أرض الله، فكانت غنم حليمة ترجع ملأى وغنمهم ما بها قطرة، مع أنّها كلها بمحل واحدٍ.

فلما تم له ﷺ عندها سنتان، عادت به إلى أمه، ثم لم تزل بها حتى رجعت به فمكث عندها شهرين.

فبينما هو وأخوه يرعيان خلف البيوت، وإذا بأخيه يشتد عدواً وينشد لأبويه أدركا أخي القرشي فأدركاه، فإذا هو منتقع لونه فأعتنقاه وسألاه، فأخبرهما أنَّه أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، ثم أضجعاه فشقا بطنه، فخافا عليه ورداه فوراً إلى أمه. قالت: ما رد كما به وقد كنتما حريصين عليه.

ثم لم تزل بهما حتى أخبراها، فقالت: افتخوفتما عليه من الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإنَّه كائن لابني هذا شأن عظيم. وشق صدره الشريف أيضاً وهو ابن عشر، ثم عند مبعثه، ثم عند الإسراء به ليكون لكل طور من أطواره طفوليته ثم بلوغه ثم بعثته ثم الإسراء به كمال يخصه ويليق به، ليتهيأ به إلى ما بعده من الكمالات التي لم يزل مترقياً فيها إلى ما لا نهاية له، فلا ينافي في ذٰلك كونه خلق من أول الأمر على أكمل الأحوال الظاهرة والباطنة.

وكان ﷺ وهو عند حليمة إذا خرج إلى الغنم تظلل عليه الغمامة، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت. وكان ﷺ وهو في المهد يناغي القمر أي يحادثه ويشير إليه بإصبعه، فحيث أشار إليه مال. ولما أُخبر ﷺ بذٰلك قال: إني كنت أحدثه ويحدثني، ويلهيني عن البكاء، وأسمع وجبته حين يسجد تحت العرش. وتكلم ﷺ في أوائل ما ولد؛ وكان مهده يتحرك بتحريك الملائكة.

قالت حليمة: وأول ما فطمته قال: الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرةً وأصيلا. ولما بلغ ﷺ أربع سنين، وقيل أكثر ماتت أمه عند مرجعها به من المدينة، وكانت

ذهبت إليها به لتزور أخوال جده عبد المطلب بني عدي بن النجار، ودفنت بالأبواء قرية عند الفُرع فرجعت به أم أيمن بركة دايته وحاضنته ومرضعته يقال إنَّه ورثها من أبيه أو من أمه، أو إنَّ خديجة وهبتها له؛ وقيل دفنت بالحجون، ويشهد له روايات كثيرة.

ولما بلغ ﷺ ثمان سنين، وقيل: أقل، وقيل أكثر مات جده عبد المطلب عن مائة سنة وعشرين أو أربعين، ودفن بالحجون، فكفله عمه شقيق أبيه أبو طالب بوصية له من عبد المطلب.

ولما بلغ ﷺ اثنتي عشرة سنة، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام حتى بلغ بُصرى، فعرفه بَحيرا الراهب وأخبرهم بصفاته وصفات نبوته ورسالته وبخاتم النبوة الذي بين كتفيه، وآمن به ثم أقسم على عمه أن يرجع به خوفاً عليه من اليهود، إذ أقبل منهم سبعة يريدون قتله، فمنعهم بَحيرا وأخبروه أنَّ اليهود تفرقت في كل طريق لعلمهم أنَّه خارج في هذا الشهر.

ومن جملة ما رآه بحيرا تظليل غمامة بيضاء له، وأنَّه نزل تحت شجرة فاسترخت أغصانها عليه تظلله، ثم لما بلغ ﷺ عشرين سنة عاد إلى الشام في تجارة ومعه أبو بكر، فسأل بحيرا عنه فأقسم له أنَّه نبي.

ثم لما بلغ ﷺ خمساً وعشرين سنة رجع إلى الشام أيضاً في تجارة لخديجة ومعه غلامها ميسرة، فكان يرى ملكين يظللانه من الشمس، ورأت ذلك خديجة لما رجعوا.

وبعد رجوعهم بنحو ثلاثة أشهر تزوجها وعمرها أربعون بعرض سنة منها لنفسها عليه. ثم لما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة بنت قريش الكعبة، فكان ﷺ هو الواضع للحجر الأسود في محله.

ثم لما بلغ ﷺ أربعين سنة أرسله الله تعالى رحمةً للعالمين ورسولاً إلى كافة الخلق أجمعين ﷺ وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيهم أفضل صلاة وسلام، وأفضل بركة عدد معلومات الله ومداد كلمات الله أبد الآبدين ودهر الداهرين. والحمد لله رب العالمين.

ومنهم العلامة الشريف السيد أحمد بن عبد الغني بن عمر عابدين الدمشقي[(١)] المتوفى سنة ١٣٢٠[(٢)] هـ تقريباً

وعمه أخو أبيه الإمام العلامة خاتمة المحققين السيد محمد عابدين صاحب حاشية الدر المختار المتوفى سنة ١٢٥٢، وهو والد العلامة السيد أبي الخير أفندي عابدين أحد أفاضل العلماء الحنفية في دمشق الشام الآن رضي الله عنهم أجمعين ونفعني ببركاتهم وبركات أسلافهم الطيبين الطاهرين

ومن جواهر السيد أحمد عابدين المذكور

[شرح مولد ابن حجر]

شرحه على مولد الإمام ابن حجر السابق، الذي اختصره من مولده الكبير المسمى بالنعمة الكبرى كما ذكر ذلك في خطبته وشرح هذا المختصر بعض العلماء، منهم العلامة الشيخ محمد الداوودي، ولكن أبسط شروحه وأنفعها شرح السيد أحمد عابدين المذكور، المسمى «نثر الدرر على مولد ابن حجر»، وهو في أربعة وثلاثين كراساً كل كراس عشر ورقات بالقطع المتوسط، وقد ذكر فيه من فرائد الفوائد ما تطيب به النفوس وتتزين به الطروس جزاه الله خيراً. وها أنا أنقل منه ما تقر به العيون مما يتعلق بشؤون سيدنا محمد الأمين المأمون ﷺ فمن ذلك ما ذكره في مقدمته بقوله: وقد أحببت أن أذكر مقدمة في بيان أول من أحدث قراءة المولد الشريف وبيان ما تشتمل عليه وغير ذلك، فأقول: وبالله التوفيق وبيده أزمة التحقيق.

مقدمة: اعلم أنَّ من البدع المحمودة عمل المولد الشريف في الشهر الذي ولد فيه ﷺ وأول من أحدثه الملك المظفر صاحب إربل، قال ابن كثير في تاريخه: كان يعمل المولد الشريف في ربيع الأول ويحتفل فيه احتفالاً هائلاً، وكان شهماً شجاعاً بطلاً عاقلاً عادلاً،

---

(١) هو أحمد بن عبد الغني بن عمر المشهور كأسلافه بابن عابدين، فقيه حنفي، ولد سنة ١٢٣٨ هـ في دمشق، وتوفي فيها سنة ١٣٠٧ هـ.

(٢) ورد تاريخ وفاته في الأعلام للزركلي سنة ١٣٠٧ هـ.

وطالت مدته في الملك إلى أن مات، وهو محاصر الفرنج بمدينة عكا سنة ثلاثين وستمائة محمود السيرة والسريرة.

وقال سبط بن الجوزي في «مرآة الزمان»: حكى لي بعض من حضر سماط المظفر في بعض المواليد أنَّه عد فيه خمسة آلاف رأس غنم شوي، وعشرة آلاف دجاجة، ومائة ألف زبدية، وثلاثين ألف صحن حلوى.

وكان يحضر عنده في المولد أعيان العلماء والصوفية، فيخلع عليهم ويطلق لهم. وكان يصرف على المولد في كل سنة ثلاثمائة ألف دينار ـ كما في سيرة العلامة الشيخ محمد الشامي، تلميذ الإمام السيوطي، ومثله في شرح المواهب للعلامة الزرقاني ـ وقال في «روح السير» للعلامة إبراهيم الحلبي الحنفي: قد صنف ابن دحية سنة ٦٠٤ للملك المظفر كتاباً في المولد الشريف، سماه «التنوير بمولد النبي البشير» فأجازه بألف دينار.

وقال في «النعمة الكبرى» للمؤلف يعني ابن حجر الهيتمي، وهي المولد الكبير عن الشمس ابن الجزري، وأكثر الناس عناية بذٰلك أهل مصر والشام، وإنَّه شاهد من الظاهر برقوق سلطان مصر سنة ٧٨٥ وأمرائه بقلعة مصر في ليلة المولد المذكورة من كثرة الطعام وقراءة القرآن والإحسان للفقراء والقراء والمداح ما بهره، وإنَّه صرف على ذٰلك نحو عشرة آلاف مثقال من الذهب. قال غيره وزاد ذٰلك في زمن السلطان الظاهر أبي سعيد جقمق على ما ذكر بكثير.

وكان لملوك الأندلس والهند ما يقارب ذٰلك أو يزيد عليه اهـ. وقد أكثر الإمام أبو شامة، شيخ الإمام النووي الثناء على الملك المظفر بما كان يفعله من الخيرات ليلة المولد الشريف، وثناء هذا الإمام الجليل على هذا الفعل الجميل في هذه الليلة أدل دليل على أنَّ عمل المولد بدعة حسنة، لا سيما وقد ذكر أبو شامة هذا الثناء الفائق في كتابه الذي سماه «الباعث على إنكار البدع والحوادث» وهذا الفضل إذا خلا عن المفاسد.

وعبارة أبي شامة ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولد النبي ﷺ من الصدقات وفعل الخيرات وإظهار الفرح والسرور، فإنَّ ذٰلك مع ما فيه من الإحسان إلى الفقراء مشعر بمحبته ﷺ وتعظيمه في قلب فاعل ذٰلك وشكر الله على ما منّ به من إيجاده ﷺ وفيه إغاظة للكفرة والمنافقين اهـ.

قال الزرقاني: وقد اختاره أبو الطيب السبتي نزيل قوص، وهو من أجلة المالكية اهـ.

قال الحافظ أبو الخير شمس الدين بن الجزري: فإذا كان أبو لهب الذي أنزل القرآن

بذمه جوزي في النار، أي بشربة ماء برأس اصبعه، وبتخفيف العذاب عنه في كل ليلة اثنين لإعتاقه ثويبة فرحاً لما بشرته بولادته ﷺ فما حال المسلم الموحد من أمته ﷺ الذي يسر بمولده ويبذل ما تصل إليه قوته؟ لعمري إنّما يكون جزاؤه من الله الكريم أن يدخله بفضله العميم جنات النعيم. وما زال بحمد الله تعالى في كل عصر طائفة من الإسلام ملتزمين له غاية الالتزام، حتى توسعوا فيه فعملوه في سائر شهور العام محبة بجنابه الشريف ﷺ ويعملون الولائم ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويظهرون السرور به ويزيدون في المبرات، ولا سيما ملوك الدولة العلية العثمانية، وأمراؤُها أصحاب الهمم القوية صانها رب البرية من كل آفة ورزية فإنّهم يعتنون بقراءة قصة مولده الكريم ﷺ ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم.

وقال عمدة المحققين نور الدين علي الحلبي في كتابه «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون» ﷺ والبرهان إبراهيم الحلبي في «روح السير» بعد ذكر حاصل أكثر ما قدمناه، واستحسان القيام عند سماع ذكر وضعه ﷺ ما نصه: وقد سئل الإمام المحقق أبو زرعة العراقي عن عمل المولد هل هو مستحب أو مكروه؟ وهل ورد فيه شيء؟ وهل نقل فعله عمن يقتدى به؟ فأجاب رحمه الله تعالى بأنَّ اتخاذ الوليمة وإطعام الطعام مستحب في كل وقت، فكيف إذا انضم إلى ذٰلك الفرح والسرور بظهور نور النبوة في هذا الشهر الشريف؟ ولا نعلم غير ذٰلك عن السلف، ولا يلزم من كونه بدعة كونه مكروهاً، فكم من بدعة مستحبة بل واجبة اهـ. فهو بدعة حسنة.

قال السيوطي: وهو مقتضى كلام ابن الحاج في مدخله، فإنّه إنّما ذم ما احتوى عليه من المحرمات، ومع تصريحه قبل بأنّه ينبغي تخصيص هذا الشهر بزيادة فعل البر وكثرة الصدقات والخيرات وغير ذٰلك من وجوه القربات... وهذا هو المولد المستحسن اهـ.

وقال «في المواهب»: ولقد أطنب ابن الحاجّ في المدخل في الإنكار على ما أحدثه الناس من البدع والأهواء والغناء بالآلات المحرمة عند عمل المولد الشريف اهـ. قال السيد أحمد عابدين بعد ما ذكر أقول: ومن ذٰلك ما يفعله كثير من العوام من قراءة المولد في منابر الإسلام المشتملة على الغناء واللعب فوق رؤوس الأنام، وأقبح منهم من يفتيهم بلزوم نذر ذٰلك ليتوصل إلى الحطام، كما ذكره سيدي الهمام، أي عمه السيد محمد عابدين في حاشيته «آخر كتاب الصيام».

يقول الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه: قد راجعت هنا حاشية السيد محمد عابدين، وهذه عبارته قبل باب الاعتكاف: أما لو نذر زيتاً لإيقاد قنديل فوق ضريح الشيخ أو في المنارة، كما يفعل النساء من نذر الزيت لسيدي عبد القادر ويوقد في المنارة جهة المشرق؛

فهو باطل وأقبح منه النذر بقراءة المولد في المنابر مع اشتماله على الغناء واللعب وإيهاب ثواب ذٰلك إلى حضرة المصطفى ﷺ.

انتهت عبارته رحمه الله. وقال البرهان إبراهيم الحلبي الحنفي في روح السير بعدما نقل استحسان فعل المولد عن جملة من الأعيان ما ملخصه: أما إذا حصل بسبب ذٰلك شيء من المنكرات، كاجتماع النساء في عملهن المولد مع رفع أصواتهن بالغناء، فهو حرام في جميع الأديان؛ فإنَّ نفس رفع صوت النساء عورة فضلاً عن ضم الغناء إليه .اهـ. كلامه. ثم قال: وقال الزرقاني: والحاصل إنَّ عمل المولد بدعة، لكنه اشتمل على محاسن وضدها، فمن تحرى المحاسن واجتنب ضدها كانت بدعته حسنة، ومن لا فلا. وقال الحافظ ابن حجر في جواب سؤال، وظهر لي تخريجه على أصل ثابت، وهو ما في الصحيحين أنَّ النبي ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى، ونحن نصومه شكراً.

قال: فيستفاد منه فعل الشكر على ما منَّ به تعالى في يوم معين، وأيّ نعمة أعظم من بروز نبي الرحمة، والشكر يحصل بأنواع العبادات كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة... وسبقه إلى ذٰلك الحافظ ابن رجب الحنبلي اهـ. وزاد ابن حجر الهيتمي في «النعمة الكبرى» قوله إنَّ النعمة تمت بإرسال نبينا ﷺ المحصل لسعادة الدارين، فصيام يوم تجددت فيه النعم من الله تعالى حسن جميل، وهو من باب مقابلة النعم في أوقات تجددها للنَّاس بالشكر؛ ونظير هٰذا صيام يوم عاشوراء، حيث نجى الله تعالى فيه نوحاً ﷺ من الغرق، وموسى عليه ﷺ وقومه من فرعون وجنوده، وأغرقهم في اليم؛ فصامه نوح وموسى عليهما السلام شكراً لله تعالى، وصامه نبينا ﷺ متابعة لأنبياء الله تعالى، وقال لليهود: نحن أحق بموسى منكم، وأمر بصيامه اهـ.

ونقل البرهان الحلبي في «روح السير» عن الإمام الحافظ بن حجر قوله: إنَّ قاصدي الخير وإظهار الفرح والسرور بمولد النبي ﷺ والمحبة له يكفيهم أن يجمعوا أهل الخير والصلاح والفقراء والمساكين فيطعموهم ويتصدقوا عليهم محبة له ﷺ، فإن أرادوا فوق ذٰلك أمروا من ينشد من المدائح النبوية والأشعار المتعلقة بالحث على الأخلاق الكريمة، مما يحرك القلوب إلى فعل الخيرات والكف عن البدع المنكرات، أي لأنَّ من أقوى الأسباب الباعثة على محبته ﷺ سماع الأصوات الحسنة المطربة بإنشاد المدائح النبوية إذا صادفت محلاً قابلاً، فإنَّها تحدث للسامع شكراً ومحبة. ثم قال السيد أحمد عابدين: فالاجتماع لسماع قصة مولد صاحب المعجزات عليه أفضل الصلاة، وأكمل التحيات من أعظم القربات لما

يشتمل عليه من المبرات والصلات وكثرة الصلاة عليه والتحيات بسبب حبه الموصل إلى قربه، وقد صرح الأعلام بأنَّ عمل المولد أمان في ذلك العام وبشرى عاجلة لنيل البغية والمرام، كما صرح به ابن الجزري، ونقله عنه الحلبي في سيرته، وكذا المؤلف يعين ابن حجر الهيتمي والقسطلاني في «المواهب»، وحكى بعضهم أنه وقع في خطب عظيم، فرزقه الله النجاة من أهواله بمجرد أن خطر عمل المولد النبوي بباله. فينبغي لكل صادق في حبه أن يستبشر بشهر مولده ﷺ ويعقد فيه محفلاً لقراءة ما صح في مولده من الآثار، فعسى أن يدخل بشفاعته مع السابقين الأخيار، فإن سرت محبته ﷺ في جسده لا يبلي. ولم تحصل مرتبة الشفاعة لأهلها إلاَّ بواسطة حبهم لجنابه الأعلى.

وإذا كان الشفعاء الأبرار أورثهم حبه ﷺ قبول شفاعتهم في الاغيار، فلا أقل أن يورث عمل المولد الشفاعة في صاحبه، وإن نزلت مرتبة محبته عن محبتهم في المقدار، ومصداقه قول الحبيب المختار: «المرء مع من أحب» ، فرحم الله امرأ اتخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً، فإنَّه إذا لم يكن من ذلك فائدة إلاَّ كثرة الصلاة والتسليم عليه ﷺ لكفى، وفضلهما لا يخفى. والله سبحانه أعلم بالمرام؛ وإنَّما الأعمال بالنيات والسلام. انتهى ما ذكره في مقدمة شرحه المذكور باختصار.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين

[الحمد لله الذي شرف هذا العالم بمولده ﷺ]

قوله في كتابه المذكور «شرح مولد ابن حجر الهيتمي» عند قوله: الحمد لله الذي شرف هذا العالم بمولد سيد ولد آدم ﷺ شرف أهل الإيمان به ﷺ ظاهر بلا نزاع، وأما شرف أهل الكفر فبالإيجاد وكذا الجمادات؛ وإذا لم يكن إلاَّ بمنع عذاب الاستئصال لكفى، وبأنَّه ﷺ مرسل رحمةً إليهم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] أي كلهم أجمعين. قال الفاضل العارف إسماعيل حقي في تفسيره «روح البيان»: فإنَّ ما بعث به ﷺ سبب لسعادة الدارين، ومنشأ لانتظام مصالحهم في النشأتين؛ ومن أعرض عنه ﷺ واستكبر فإنما وقع في المحنة من قبل نفسه فلا يرحم؛ فإن قلت: وكيف كان ﷺ رحمةً للعالمين وقد بعث بالسيف واستباحة الأموال؟ قلت: إنما ذلك لمن أدبر واستكبر، ولم ينفع فيه وعظ ولا إرشاد.

وقال بعضهم: جاء ﷺ رحمةً للكفار أيضاً من حيث أنَّ عقوبتهم أخرت بسببه وآمنوا به من عذاب الاستئصال والخسف والمسخ.

واعلم أيها الفهيم إنَّ أول ما خلق الله نور نبيك ﷺ ثم خلق جميع الخلائق من العرش إلى الثرى من بعض نوره، فإرساله ﷺ إلى الوجود والشهود رحمةً لكل موجود، وهو سبب وجود كل موجود ورحمة الله على جميع الخلائق؛ فهو رحمةٌ كافيةٌ ونعمةٌ وافيةٍ، ومنه انبجست عيون الأرواح، ثم بدا ما بدا في عالم الأجساد والأشباح. ولولاه لم تخلق الأفلاك ولا الأملاك. ومن كان بهذه المثابة لا شك أنَّه رحمة للعالمين وأنَّ العالم بأسره تشرف به لكن منهم من بقي بشرفه بالانقياد والإيمان، ومنهم من رده بالكفر والطغيان. قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[1]. الحديث. وكيف لا وهو ﷺ سيد ولد آدم، كما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

ومن جواهر السيد أحمد عابدين

[كمل به ﷺ سعود الأنبياء]

قوله في كتابه المذكور «شرح مولد ابن حجر عند قول المصنف «وكمل به ﷺ سعود الأنبياء والمرسلين وجميع الملائكة لا سيما الكروبيين والمقربين».

تنبيه: يفهم صريح كلام المؤلف رحمه الله تعالى أنَّ نبينا ﷺ سيد الخلق على الإطلاق وأفضلهم على وجه العموم الشامل للعلوية والسفلية من البشر والجن والملك في الدنيا والآخرة في سائر خلال الخير ونعوت الكمال... كما أجمع على ذلك أهل السنة، ثم بعده في الفضل الأنبياء. عليهم الصلاة والسلام. ثم الملائكة عليهم السلام على ما حققه أهل السنة بقولهم «خواص البشر وهم الأنبياء أفضل من خواص الملائكة وهم الرسل منهم، وخواص الملائكة أفضل من عوام البشر، وعوام البشر وهم الأتقياء أفضل من عوام الملائكة كما هو مقرر في محله.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين

[جمع فيه ﷺ سائر الكمالات]

قوله في شرحه المذكور عند قول ابن حجر: «وجمع فيه ﷺ سائر الكمالات الباطنة والظاهرة، وجعله إمام الكل المفضل عليهم والممد لهم في الدنيا والآخرة، فهو ﷺ الكامل

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٢: ١٢٥). وأبو داود في السنن (٤٧١٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (٧: ٢١٨). وأحمد في المسند (٢: ٢٣٣).

العبودية لله تعالى الكامل الأوصاف بتكميل الله تعالى له، وهو ﷺ متصف بكل كمال، متحلٍ بجميع الفضائل ومحاسن الخلال من علوم وأعمال، وأخلاق وأحوال؛ وهو ﷺ معدن الكمال، وعنصر الفضل والافضال؛ وهو ﷺ مورد الحقائق الأزلية ومصدرها، بمعنى أنَّ ذاته الشريفة محل لورود الحقائق عليها من الحق، ومحل لصدورها عنها إلى الخلق؛ وجامع جوامع مفرداتها ومنبرها وخطيبها وسيد ساداتها . . . وهو ﷺ بيت الله المعمور بما أورده عليه فوعاه مما لا يطيقه غيره ولم ينزله على أحد قبله. وإذا فهمت هذا، علمت أنَّ قول حجة الإسلام الغزالي قدس الله سره: «ليس في الإمكان أبدع مما كان» كلام في ذروة سنام التحقيق عند أهل التدقيق، فإنَّه لو كان لكان أفضل من خير خلق الله، ولا سبيل إلى ذٰلك، إذ لا يتصور مخلوق أبدع من المظهر التام العلي الأعلى، الجامع للكمال الأسنى ﷺ الوارث للحضرة الإلٰهية، والمستمد منها بلا واسطة دون غيره، فلا يستمد منها إلاَّ بواسطته ﷺ فلا يصل منها لكامل شيء إلاَّ وهو من بعض مدده وعلى يديه ﷺ ولله در سيدي محمد وفا حيث خاطب ذاته ﷺ الأقدسية بالمنح الأنفسية، من المواهب اللدنية، بشعر جزيل، من البحر الطويل؛ وهو قوله يخاطبه ﷺ:

فأنت رسول الله أعظم كائن ... وأنت لكل الخلق بالحق مرسل
عليك مدار الخلق إذ أنت قطبه ... وأنت منار الحق تعلو وتعدل
فؤادك بيت الله دار علومه ... وباب عليه منه للحق يدخل
ينابيع علم الله منه تفجرت ... ففي كي حيّ منه لله منهل
مَنحت بفيض الفضل كل مفضل ... فكل له فضل به منك يفضل
نَظمت نثار الأنبياء فتاجهم ... لديك بأنواع الكمال مكلل
فيا مَدة الأمداد نقطة خطه ... ويا ذروة الإطلاق إذ يتسلسل
محال يحول القلب عنك وإنني ... وحقك لا أسلو ولا أتحوّل
عليك صلاة الله منه تواصلت ... صلاة اتصال عنك لا تتنصل

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا . . .﴾]

قوله عند ذكر ابن حجر في مولده قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦] أي مضيئاً يستضاء به من ظلمات

الجهالة، ويقتبس من نوره أنوار البصائر فيميز بين الحق والباطل في المعتقدات، وبين الحلال والحرام في المعاملات، وبين محاسن الأخلاق ومساويها في الرياضات، فهو الداعي بالشريعة والطريقة والحقيقة إلى المراتب الحقية والدرجات العلية عليه أفضل الصلاة وأكمل التحية قال في «الشفا» وشرحه لعلي القاري: جمع الله تعالى له ﷺ في هذه الآية بعدما تعلقت به عين العناية، وتحقق له كمال الرعاية، أنواعاً وأصنافاً من المنزلة والمرتبة المخصوصة مما استأثر به على غيره، وجمع له جملة أوصاف من المدحة والثناء والذكر الحسن؛ فجعله الله تعالى شاهداً على أمته لنفسه بإبلاغهم الرسالة، وذٰلك من خصائصه ﷺ حيث لم يجعل الله تعالى غيره شاهداً بنفسه لنفسه على أمته، فإنَّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا جحدت أممهم تبليغهم إياهم حيث يسألهم الله تعالى هل بلغتم؟ فيقولون: نعم، فيطالبهم الله بالبينة، وهو أعلم، فنشهد لهم به فتقول أممهم لنا بمَ عرفتم ذٰلك؟ فنقول: بأخبار الله تعالى لنا في كتابه؛ فيسأل الله نبينا عنا، فيزكينا تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي خياراً عدولاً ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي بتبليغ رسالة أنبيائهم: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ . . .﴾]

ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقول ابن حجر: ختم تعالى هذا المقام الأعظم لنبينا صلى الله عليه بقوله: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ليعلمنا بعظيم شرفه وعلو مرتبته، وإنه المتبوع وهم التابعون، والمقصود بالذات وهم له لاحقون. قال السيد أحمد عابدين بعد ما ذكر، وعن علي رضي الله عنه؛ لم يبعث الله نبياً من آدم فمن بعده إلاَّ أخذ عليه العهد في محمد ﷺ لئن بعث وهو حيٌّ ليؤمنن به ولينصرنه ويأخذ العهد بذٰلك على قومه.

قال في «الشفا»: ونحوه. أي نحو القول المروي عن علي، منقول عن السدي وقتادة في آي تضمنت فضله ﷺ من غير وجه واحد، أي بل من وجوه متعددة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية.

قال شارحه القاري: وهو تخصيص بعد تعميم تلويحاً ببيان فضلهم وزيادة شرفهم،

فإنهم أولو العزم من الرسل ومشاهير أرباب الشرائع، وقدم نبينا ﷺ تعظيماً وتكريماً وإيماءً إلى تقدم نبوته في عالم الأرواح المشار إليه بقوله ﷺ: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ [النساء: ١٦٣] الآية. فيه تلويح إلى فضله ﷺ حيث قدَّمه على رسله، إذ كان يمكن أن يقال كما أوحينا إلى نوح والنَّبيين من بعده أوحينا إليك على نحوه.

والحاصل أنَّه ﷺ قُدّم من جهة الفضل والشأن لا من جهة التقدم في الزمان، والواو وإن لم تقتض الترتيب لكن العرب تؤثر تقديم المتقدم في الذكر على المتأخر في اللفظ.

ورُوي أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال في كلام بكى به النبي ﷺ بعد وفاته فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عند الله تعالى أن بعثك آخر الأنبياء وقدمك في الذكر، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] الآية. بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده أنَّ أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك، وهم بين أطباقها يعذبون يقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦] الآية.

وفي شرح «الشفا» لعلي القاري قال قتادة: إنَّ النبي ﷺ قال: «كنت أول الأنبياء في الخلق» أي خلق روحه الشريفة قبل أرواحهم، أو في عالم الذر، أو في التقدير بكتابته في اللوح، أو ظهوره للملائكة «وآخرهم في البعث»[1] أي لكونه ﷺ خاتم النبيين، فلذلك وقع ذكره مقدماً هنا قبل نوح وغيره من أولي العزم فضلاً عن غيرهم.

واعلم أنَّ اتصاف حقيقته ﷺ بالأوصاف الشريفة المفاضة عليه من الحضرة الإلٰهية حاصل له من ذٰلك الوقت، أي حيث كان نبياً أو حين أخذ الميثاق ﷺ.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[تأخرّ ظهوره الحسي ﷺ]

قوله عند قول ابن حجر: «وإنّما تأخر ظهوره الحسي ﷺ في هذا العالم عن جميعهم، أي الأنبياء، ليكون مستدركاً عليهم، ومتمماً ما فاتهم من الكمالات، وجامعاً «لجميع فضائلهم وزيادات» حاصل ما ذكره في المواهب وغيره أنَّه ﷺ نبي الأنبياء، مرسل إلى الجميع مع بقائهم على نبوتهم؛ ولهذا ظهر في الآخرة جميع الأنبياء تحت لوائه وفي الدنيا كذٰلك ليلة

(١) رواه البغوي في السنة (٥: ٢٣٢). والسيوطي في الدر المنثور (٥: ١٨٤). وابن الجوزي في زاد المسير (٦: ٣٠٥).

الإسراء صلى بهم إماماً، ولو اتفق مجيئه في زمن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم لوجب عليهم وعلى أممهم الإيمان به ونصرته ﷺ وبذلك أخذ الله عليهم الميثاق وتمامه في النوع الثاني من المقصد السادس من المواهب اللدنية.

وقال العارف بالله، سيدي محيي الدين بن العربي رضي الله عنه في الباب العاشر من فتوحاته، بعد بسط ما تقدم عن المواهب: ولهذا لم يبعث إلى الناس عامة إلاّ هو ﷺ خاصة، فهو الملك والسيد وكل رسول سواه بعث إلى قوم مخصوصين، فلم تعم رسالة أحد من الرسل سوى رسالته ﷺ فمن زمن آدم عليه السلام إلى زمن بعث محمد ﷺ إلى يوم القيامة... ملكه وتقدمه في الآخرة على جميع الرسل، وسيادته منصوص عليه في الصحيح؛ فروحانيته ﷺ موجودة مع روحانية كل نبي ورسول. وكان الإمداد يأتي إليهم من تلك الروح الطاهرة، فيما يظهرون به من الشرائع والعلوم في زمن وجودهم رسلاً وتشريعهم الشرائع، كعلي ومعاذ وغيرهما في زمن وجودهم ووجوده ﷺ وكإلياس والخضر عليه السلام وكعيسى عليه السلام في زمن ظهوره في آخر الزمان حاكماً بشرع محمد ﷺ في أمته المقرر في الظاهر، لكن لما لم يتقدم في عالم الحس وجود عينه ﷺ أولاً نسب كل شرع إلى من بعث به، وهو في الحقيقة شرع محمد ﷺ وإن كان مفقود العين عنده من حيث لا يعلم، كما هو مفقود العين الآن وفي زمن نزول عيسى عليه السلام والحكم بشرعه.

وأما نسخ الله تعالى بشرعه جميع الشرائع، فلا يخرج هذا النسخ ما تقدم من الشرائع عن أن يكون من شرعه، فإنَّ الله تعالى قد أشهدنا في شرعه الظاهر المنزل به ﷺ في القرآن والسنة النسخ مع إجماعنا واتفاقنا على أنَّ ذلك المنسوخ شرعه الذي بعث به إلينا ﷺ فينسخ بالمتأخر المتقدم، فكان تنبيهاً لنا هذا النسخ الموجود في القرآن والسنة على أنَّ نسخه لجميع الشرائع المتقدمة لا يخرجها عن كونها شرعاً له ﷺ وكان نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان حاكماً بغير شرعه الذي كان عليه في زمان رسالته. وحكمه بالشرع المحمدي المقرر اليوم دليل على أنّه لا حكم لأحد اليوم من الأنبياء عليهم السلام مع وجود ما قرره ﷺ في شرعه، ويدخل في ذلك ما هم عليه أهل الذمة من أهل الكتاب ما داموا يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، فإنَّ حكم الشرع على أحوال، فخرج من هذا المجموع كله أنّه ﷺ ملك وسيد على جميع بني آدم، وأنَّ جميع من تقدمه كان ملكاً له وتبعاً، والمالكون فيه نواب عنه، فهو ﷺ الجامع لجميع فضائلهم وزيادات عليه أفضل الصلوات والتسليمات.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ . . . ﴾]

ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقول ابن حجر دلت على أنّه لم يبق كمال وهدى ومعجزة وخصوصية، إلاَّ وقد توفر فيه ﷺ ذٰلك الكمال والهدى إلى آخره . . . قال السيد أحمد عابدين: المراد بهداهم جميع كمالاتهم المتفرقة فيهم، وما توافقوا عليه من التوحيد وأصول الدين الواحدة لا فروع الشرائع المختلفة، فإنّها لا تبقى هدى بعد النسخ؛ فإن قيل فقد ثبت بما ذكر أنّه ﷺ أفضل الأنبياء عليهم السلام، وقد روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما عنه ﷺ أنّه قال: «**ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى**»(١). وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في اليهودي الذي قال: والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه رجل من الأنصار، وقال: تقول ذٰلك ورسول الله بين أظهرنا؟ فبلغ ذٰلك النبي ﷺ فقال: «**لا تفضلوا بين الأنبياء**». وفي رواية: «**لا تخيروني على موسى**»(٢).

فالجواب كما قال العارف بالله، سيدي محيى الدين في الباب العاشر من فتوحاته: نحن ما فضلناه بل الله فضله، فإنَّ ذٰلك ليس لنا، وإن كان قد ورد: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] لما ذكر الأنبياء عليهم السلام فهو صحيح، فإنّه قال: فبهداهم فهداهم من الله تعالى، وهو شرعه ﷺ أي ألزم شرعك الذي ظهر به نوابك من إقامة الدين ولا تتفرقوا فيه، فلم يقل فبهم اقتده. وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ ﴾ [الشورى: ١٣] فيه تنبيه على أحد الشرائع. وقوله: ﴿ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [النحل: ١٢٣] وهو الدين، فهو ﷺ مأمور باتباع الدين، فإنَّ الدين إنّما هو من الله تعالى لا من غيره، وانظروا في قوله ـ ﷺ: «**لو كان موسى حياً ما وسعه إلاَّ أن يتبعني**». فأضاف الاتباع إليه، وأمر هو ﷺ باتباع الدين، وهدى الأنبياء لا بهم، فإنَّ الإمام الأعظم إذا حضر لا يبقى لنائب من نوابه حكم إلاَّ له؛ فإذا غاب حكم النواب بمراسمه؛ فهو الحاكم غيباً وشهادة اهـ.

وللعلماء في هذه الأحاديث تأويلات وأجوبة أخرى، فلتراجع من الشفا وشروحه؛ منها: إنَّ المنع عن التفضيل في حق النبوة والرسالة نفسها لا الأنبياء والرسل عليهم السلام.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٤: ١٩٣). ومسلم في الصحيح (الفضائل: ١٦٧). وأبو داود في السنن (السنة ب ١٣). وأحمد في المسند (٢: ٤٠٥).

(٢) رواه التبريزي في مشكاة المصابيح (٥٧٠٨). والبيهقي في السنن الكبرى (٥: ٤٩٢). والقاضي عياض في الشفا (١: ٤٣٩). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٢٣٧٥).

قال السنوسي في شرح عقيدته، بعد ذكر ما قاله في «الشفا»: ومما دل على عدم التفاضل بين الأنبياء في نفس النبوة وحقيقتها منع أن يقال: ثبت لفلان النبي النصيب الأقل من النبوة، ولفلان النصيب الأوفر منها، ونحوه من العبارات التي تقتضي أنَّ النبوة مقولة بالتشكيك. . . ولا شك أنَّ الإمتناع من هذه العبارة معلوم من الدين بالضرورة بين السلف والخلف، فدل ذٰلك على أنَّ حقيقة النبوة من المتواطئ المستوي أفراده، ولا يلتفت لمن خالف مقتضاه لوضوح فساده، أهو هذا يؤيد ما سيأتي أنَّ النبوة غير مكتسبة، وفي ذكر السنوسي ذٰلك في النبوة دون الرسالة إيماء للفرق بينهما في ذٰلك فتأمله. وقريب منه قول القاضي عياض: فإنَّ الأنبياء فيها أي في النبوة من حيث هي هي على حد واحد، إذ هي شيء واحد لا تفاضل فيها، وإنَّما التفاضل في زيادة الأحوال والخصوصيات والكرامات والرتب والألطاف. . . وأما النبوة في نفسها فلا تفاضل فيها، وإنَّما التفاضل بأمور أخرى زائدة عليها؛ ولذٰلك كان منهم رسل، ومنهم أولو العزم من الرسل، ومنهم من رفع مكاناً علياً، ومنهم من أوتي الحكم صبياً، وأوتي بعضهم الزبور، وأوتي بعضهم البينات، ومنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات. . . اهـ.

والمراد بالبعض نبينا ﷺ وفضله تعالى على ما سواه بوجوه متعددة ومراتب متباعدة، كدعوته العامة للعرب والعجم والإنس والجن والملائكة، ومعجزاته الباقية إلى يوم القيامة، ومن أجلها القرآن وغيره مما يفوت الحصر. واحتج العلماء، ومنهم المؤلف يعني ابن حجر بهذه الآية أيضاً، على أنَّه ﷺ أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أي لأنَّ خصال الكمال وصفات الشرف كانت متفرقة فيهم؛ فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة، وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلية، ويوسف كان جامعاً بينهما، وموسى كان صاحب المعجزات القاهرات، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد، وإسماعيل كان صاحب الصدق؛ فكل منهم عليهم السلام قد غلب عليه خصلة معينة، فجمع الله تعالى كل خصلة جميلة فيهم في حبيبه الأعظم ﷺ لأنَّه إذا كان مأموراً بالاقتداء لم يقصر في التحصيل ﷺ.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ . . .﴾]

قوله عند ذكر ابن حجر قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. لقد جاءكم، أي والله قد جاءكم أيها الناس، واستفيد القسم من اللام المقرونة بقد، الدالتين على تحقيق الكلام.

وفي قوله: جاء إيماء إلى أنَّ رسولنا ﷺ لو كان في الصين لكان الواجب عليكم الإتيان إليه، لتعلم علم الدين ومعرفة اليقين، فيكون إتيانه إليكم فضلاً منا عليكم وإحساناً منه إليكم، فيجب حسن استقباله وإطاعة أمره وإقباله. وقوله رسول، أي عظيم الشأن، وتنكيره لتفخيم الشأن وتأييد البرهان.

وقوله تعالى من أنفسكم، أي من جنسكم، أي آدمي مثلكم، لا من الملائكة، ولا من غيرهم... وذلك لئلا تنفروا عنه، وتمتنعوا من متابعته، وتقولوا: لا طاقة لنا به لأنّه ليس من جنسنا. ويؤيده قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] إذ لفظ المؤمنين عام لكل مؤمن من كل صنف، فيكون معنى «من أنفسهم» أي من جنسهم، لأنَّ الملك وكذا الجن لعدم جنسيته، ولكونه غير مدرك بالحواس الخمس لا ينتفع به، فاحتيج إلى واسطة جنسية ذات جهتين: جهة التجرد لتمكن الإستفاضة من جانب القدس، وجهة التعلق لتمكن الإفاضة إلى جانب الخلق، وهو الرسول ﷺ، ومنه يظهر أنّه ﷺ لكمال لطافته يمكن أن تستفيض منه الجن أيضاً، لكونهم أجساماً لطيفة؛ ولذا دعاهم دعوة البشر. ويحتمل أن يكون الخطاب للعرب خاصة، فالمعنى: والله قد جاءكم أيها العرب، رسول عربي مثلكم وعلى لغتكم، وذلك أقرب إلى الإلفة، وأبعد من اللجاجة وأسرع إلى فهم الحجة؛ فإنَّ الإرشاد لا يحصل إلاّ بمعرفة اللسان، ومن اختاره استدل له بظاهر قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨] ولما يتبادر من قوله أنفسكم.

ثم إنَّ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] إشارة إلى أنّه ﷺ هدية عظيمة من الله تعالى وتحفة جسيمة، ولا يعرض عن هدية الله تعالى إلاّ الكافرون والمنافقون. وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. العزيز الغالب الشديد، وكلمة «ما» مصدرية. والعَنَت الوقوع في أمر شاق، وأشق الأمور دخول النار. والجملة من الخبر المقدم والمبتدأ المؤخر صفة رسول؛ والمعنى شاق شديد عليه عنتكم، أي ما يلحقكم من المشقة والألم بترك الإيمان، فهو ﷺ يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب، وهذا من نتائج المجانسة. وقوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨] أي على إيمانكم وصلاح أحوالكم وايصال الخيرات إليكم... والحرص شدة الطلب للشيء مع اجتهاد فيه، وقد كان ﷺ أحرص شيء على هداية الخلق، ولقد كان يدعوهم إلى الله تعالى فرادى وجماعة في منازلهم ومواسمهم ومواضع اجتماعهم، ويجمعهم لذلك. وكان حرصه على صلاح العباد امتثالاً لأمر الله تعالى وابتغاء مرضاته.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال في «روح البيان عن

التأويلات النجمية» في قوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] في حق نبيه عليه الصلاة والسلام وفي قوله تعالى لنفسه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣] دقيقة لطيفة شريفة، وهي إنَّ النبي ﷺ لما كان مخلوقاً كانت رأفته ورحمته مخلوقة، فصارت مخصوصة بالمؤمنين لضعف الخلقة، وإنَّ الله تعالى لما كان خالقاً كانت رأفته ورحمته قديمة، فكانت عامة للنَّاس لقوة خالقيته، كما قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] مَن تداركته الرأفة والرحمة الخالقية من الناس كان قابلاً للرأفة والرحمة النبوية، لأنَّها من نتائج الرأفة والرحمة الخالقية، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] اهـ.

ثم قال عند قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة:١٢٩]. قال بعض أهل التحقيق: خلق الله العرش لإظهار شرف محمد ﷺ وهو قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩] وهو مقام تحت العرش، ثم قال: وقال العارف أبو يزيد، وحققه بعده العارف محيي الدين قدس الله سرهما: لو أنَّ العرش وما حواه مائة ألف ألف مرة وضع في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس به. وكيف يحس بالحادث من وسع القديم؟ كما في الحديث القدسي: «ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن» وهو الإنسان الحقيقي المنعكس من الذات الأحدي، المتلذذ دائماً بشهود الوجود الحق جلَّ وعلاً ومشاهدة ذي الجلال والإكرام على الدوام. وهذا العبد من الآحاد المستمدين من نقطة دائرة الكمال، ويقظة ظلمة الجهل والضلال، وشمس حقيقة قطب أفلاك الأسرار، في سمٰوات الأنوار.

أفلا يكون رسول الله ﷺ كذلك، وهو مركز دائرة الفردانية، ومظهر التجليات الرحمانية، وعين الحقيقة الإنسانية، ومنه تستمد العوالم الإنسية والروحانية؛ وقد خلق الله تعالى محمداً ﷺ أي روحه، كما في روح البيان، نقلاً عن بعض العلماء العارفين، وجعل له صورة روحانية كهيئته في الدنيا، فجعل رأسه من البركة، وعينيه من الحياء، وأذنيه من العبرة، ولسانه من الذكر، وشفتيه من التسبيح، ووجهه من الرضا، وصدره من الإخلاص، وقلبه من الرحمة، وفؤاده من الشفقة، وكفيه من السخاوة، وشعره من نبات الجنة، وريقه من عسل الجنة... ألأ ترى أنَّه ﷺ تفل في بئر رومة في المدينة، وكان ماؤُها ملحاً زعاقاً، فصار عذباً فراتاً؟! انتهى كلامه.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[هو سيد الأولين]

قوله عند قول ابن حجر: فرسول الله ﷺ هو سيد الأولين والآخرين والملائكة المقربين والخلائق أجمعين وحبيب رب العالمين... المصطفى من خير الأحباب المنعم عليهم بما لا

يمكن وصفه، لقصور العبارة عنه المتزايد ترقيهم في المقامات التي جلت عن الإدراك إلا لمن رقاها، وهم أنبياء الله تعالى حقا وخاصة خلقه صدقا، وختامهم الجامع لجميع الفضائل والخيرات والمناقب مما تفرق في غيره من جميع المراتب... وكيف لا، وهم صلوات الله عليه وعليهم صورة تفصيله وخلفاؤه، ومظاهر تعيناته؟! فما منهم إلا وهو سابح في نوره، ومستمد من بحره كل على حسب مقامه، وكل خير وبركة. قلت: أوجلت فمنه حصلت، وبطلعته ظهرت، وعنه ﷺ امتد الوجود كله كما امتدت الشجرة من البزرة، فهو ﷺ أصل الوجود وأقرب موجود ويعسوب الأرواح، وهو ﷺ الروح الأعظم، وآدم الأكبر ذو الكلمة الجامعة والرسالة المحيطة، وهو ﷺ الجامع للخلق على الله تعالى والجامع لدوائر الخيرات والرسالات والنبوات والحقائق العيانية، وأسرار التوحيد الربانية.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[صاحب المعجزات ﷺ]

قوله عند قول ابن حجر: صاحب المعجزات قال الإمام السبكي في آخر تائيته يخاطبه ﷺ:

وأقسم لو أنَّ البحار جميعها مدادي وأقلامي لها كل غوطة
لما جئت بالمعشار من آيك التي تزيد على عد النجوم المنيرةِ

ولقد أبدع سيد المداح، الشرف البوصيري بقوله في مدحه ﷺ:

إن من معجزاتك العجز عن وصفك إذ لا يحده الإحصاء

حيث جعل من بعض معجزاته ﷺ العجز عن الإحاطة بكل فرد من أوصافه التي اختصه الله تعالى بها، من الأخلاق الكريمة، والفضائل الجسيمة، والأوصاف البالغة أقصى ما يمكن البشر الرقي إليه؛ فهي لا حد لها باعتبار أنَّه ﷺ لا يزال يترقى في مراتب القرب في الحياة وبعد الممات، وفي الموقف، وفي الجنة إلى ما لا نهاية له ولا انقضاء... ثم قال عند قوله: «وصاحب الشمائل التي لا يمكن أن تستقصى» ﷺ.

فبالغ وأكثر لن تحيط بوصفه وأين الثريا من يد المتناول

كما روي عن العارف السراج عمر بن الفارض رضي الله عنه أنَّه رؤي في النوم، فقيل له: لمَ لا مدحت النبي ﷺ بنظم صريحاً فقال:

أرى كل مدح في النبي مقصراً وإن بالغ المثني عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى

قال في «المواهب» ورحم الله ابن الخطيب الأندلسي حيث قال:

مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على علياك نظم مديحي
وإذا كتاب الله أثنى مفصحاً ... كان القصور قصار كل فصيح

فلو بالغ الأولون والآخرون في إحصاء مناقبه وخصائصه، لعجزوا جميعاً عن استقصاء ما حباه مولاه الكريم من مواهبه الأحمدية، وأخلاقه المحمدية، وصفاته المصطفوية. وما مثل من أراد إحصاء فضائله ﷺ بمدحه إلا كمثل إنسان مد يده ليتناول الثريا بها، وأين الثريا من يد المتناول؟! ولذا قال بعض العارفين، كما في أوائل شرح «الشفا» لعلي القاري: «الخلق ما عرفوا الله تعالى وما عرفوا محمداً ﷺ.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[خصه بأن الله تعالى يعطيه حتى يرضى ﷺ]

قوله عند قول ابن حجر: وخصه بأنه تعالى يعطيه ﷺ حتى يرضى، فيقول: «يا رب لا أرضى وأحد من أمتي في النار» . قال في الشفا: ولا يرضى رسول الله ﷺ أن يدخل أحد من أمته النار. قال شارحه ملا علي القاري والزرقاني في «شرح المواهب».

روى الديلمي في مسند الفردوس عن علي رضي الله عنه، وكرم الله وجهه قال: لما نزلت آية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] قال ﷺ: «إذاً لا أرضى وأحد من أمتي في النار» .

وأخرجه أبو نعيم في الحلية موقوفاً على علي أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى:٥] ليس في القرآن أرجى منها، ولا يرضى ﷺ أن يدخل أحد من أمته النار، وهو موقوف لفظاً مرفوع حكماً، إذ لا مدخل للرأي فيه.

وقال ملا علي القاري: قال الدلجي: وهذا إن صح يشكل بما ورد مؤذناً بدخول بعض عصاتهم فيها. ثم قال: قال الشهاب الخفاجي في شرح الشفا، والزرقاني في شرح المواهب. واعلم أنه أورد هنا أنَّ مقام الرضى بما يريده الله تعالى والتسليم مقام عظيم للسالكين، فكيف لا يكون لسيد المرسلين ﷺ؟ ولذا قال صاحب «المواهب» ما يغتر به بعض الجهال من أنه ﷺ لا يرضى وأحد من أمته في النار، أو أنَّ يدخلها أحد من أمته من غرور الشيطان.

وقد تبع في ذلك ابن القيم، ورده العلامة الشريف الصفوي في شرح «الشفا»، وتبعه الشهاب الخفاجي بأنه جرأة وسوء أدب. والوجه توجيه الحديث لثبوت رواياته الواردة من

طرق، وإن ضعفت، ولا يبعد أن يكون عذاب العصاة لعصيانهم غير مرضي لله تعالى فلا يرضى به رسوله ﷺ إلى أن قال: فلا ينبغي أن يجترئ أحد على إبطال الروايات بأوهام الشبهات. وقال الزرقاني: أو لا يرضى دخولهم النار دخولاً يشدد عليهم العذاب، بل يكون خفيفاً، فهو تعذيب كتأديب الحشمة، بل قال ﷺ: «إنَّما حر جهنم على أمتي كحر الحمام». أخرجه الطبراني برجال ثقات، عن أبي بكر الصديق والدارقطني في الإفراد، عن ابن عباس رفعه: «إنَّ حظ أمتي من النار طول بلائها تحت التراب».

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[خصه الله تعالى بإتمام النعمة عليه ﷺ]

قوله عند قول ابن حجر: «وخصه بإتمام النعمة عليه ﷺ» أي بإعلاء الدين وضم الملك إلى النبوة، وغيرهما مما أفاضه الله عليه من النعم الدينية والدنيوية... قال تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف:٦] قيل: هي كونه ﷺ سيد الأولين والآخرين، وقيل: فتح مكة وما ترتب عليه من النصر على الأعداء، وقيل: نقله من عالم الكون والفساد لعالم الثبوت والصلاح، لأنَّه لما نزلت هذه الآية بكى أبو بكر الصديق رضي الله عنه وفهم منها قرب انتقاله ﷺ.

وقال الشيخ اسماعيل حقي في تفسيره «روح البيان»، نقلاً عن ابن عطاء: جمع الله لنبيه ﷺ في سورة الفتح نعماً مختلفة من الفتح المبين، وهو من أعلام الإجابة، والمغفرة وهي من أعلام المحبة، وإتمام النعمة وهي من أعلام الاختصاص، والهداية وهي من أعلام التحقق بالحق، والنصر وهو من أعلام الولاية. فالمغفرة تبرئته من العيوب، وإتمام النعمة إبلاغ الدرجة، والهداية هي الدعوة إلى المشاهدة، والنصرة هي رؤية الكل من الحق.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[خصه بشرح الصدر ﷺ]

قوله بعد قول ابن حجر، وخصه بشرح الصدر: معنى شرح الصدر: فسحه حتى حوى صدره ﷺ عالم الغيب والشهادة بين ملكتي الاستفادة والإفادة، فلم تصده الملابسة بالعلائق الجسمانية، عن اقتباس أنوار الملكات الروحانية.

وما عاقه التعلق بمصالح الخلق، عن الاستغراق في شؤون الحق، أي لم يحتجب ﷺ لا بالحق عن الخلق، ولا بالخلق عن الحق، بل كان جامعاً بين الجمع والفرق، حاضراً غائباً.

وفي التأويلات النجمية في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] يشير إلى إنفساح صدر قلبه ﷺ بنور النبوة، وحمل همومها بواسطة دعوة الثقلين، وانشراح صدره سره بضياء الرسالة، واحتمال مكاره الكفار، وأهل النفاق، وانبساط صدر نوره بأشعة الولاية؛ وتحققه بالعلوم اللدنية، والحكم الإلٰهية، والمعارف الربانية، والحقائق الرحمانية، اهـ. وأما شرح صدره ﷺ الصوري أي شقه، فقد وقع مراراً.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[خصه بإقسامه تعالى بحياته ﷺ]

قوله عند قول ابن حجر: «وخصه بأقسامه تعالى بحياته ﷺ. قال تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] أي يتحيرون. قال في الشفا: اتفق أهل التفسير في هذا أنَّه قسم من الله تعالى بمدة حياة ﷺ ومعناه... وبقائك يا محمد، وقيل وعيشك، وقيل وحياتك... وهذه المعاني كلها نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف. قال ابن عباس رضي الله عنه: ما خلق الله، وما ذرأ، وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله عزَّ وجل أقسم بحياة أحد غيره. وقال أبو الجوزاء: ما أقسم الله عزَّ وجل بحياة أحد غير محمد ﷺ لأنَّه أكرم البرية عنده. وفي روح البيان عن التأويلات النجمية: «هذه مرتبة ما نالها أحد من العالمين إلاَّ سيد المرسلين، وخاتم النبيين ﷺ من الأزل إلى الأبد، وهو أنَّه تعالى أقسم بحياته فانياً عن نفسه باقياً بربه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] أي ميت عنك حي بنا، وهو ﷺ مختص بهذا المقام المحمود.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمهَ الله تعالى

[خصه بدوام الصلاة عليه ﷺ]

قوله بعد قول ابن حجر: وخصه بدوام الصلاة عليه ﷺ من الله سبحانه وتعالى، ومن جميع ملائكته التي لا يحصى كثرتهم إلا هو تعالى، ومن أمته في سائر الأمكنة والأزمنة. أي لما يفيده التعبير بالجملة الاسمية في آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] المفيدة للدوام والاستمرار، وهذه آية باهرة لم توجد لغيره ﷺ وإن وجد أصل الصلاة لإبراهيم عليه الصلاة والسلام وآله، كما يفيده حديث التشهد، وفي هذا بلاغ للمؤمنين بأنَّهم ينبغي لهم إدامة الصلاة عليه ﷺ تأسياً بالله وملائكته في ذٰلك. وهذا أتم من تشريف آدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له، لاختصاصه بالملائكة، لأنَّه لا يجوز أن يكون الله تعالى مع الملائكة في

هذا التشريف. وأما الصلاة، فقد شاركهم فيها تعالى، كما أخبر تعالى عن نفسه بالصلاة على النبي ﷺ كما أخبر عن الملائكة بذٰلك، وكأنَّ سجودهم لآدم كان تأديباً، وأمرهم بالصلاة على النبي ﷺ كان توقيراً له وتعظيماً، وأيضاً فذٰلك وقع مرة وانقطع، وهذا دائم إلى يوم القيامة. وأيضاً فالسجود لآدم إنما كان لما بجبهته عليه السلام من نور نبينا ﷺ قاله الإمام الرازي. وأكتفي بهذا التأكيد في جانب الصلاة، أي بأنَّ واسمية الجملة والإعلام بأنَّه تعالى وملائكته يصلون على النبيّ، وأكد التسليم بالمصدر إذ ليس ثم ما يقوم مقامه، أفاده الداوودي عن ابن علان في شرح الأذكار.

وفي روح البيان عن الأصمعي، قال: سمعت المهدي على منبر البصرة يقول: إنَّ الله أكرم نبيه بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته؛ فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآية. آثره ﷺ من بين الرسل واختصكم بها من بين الأمم، فقابلوا نعمة الله بالشكر. وإنَّما بدأ تعالى بالصلاة عليه ﷺ بنفسه المقدسة إظهاراً لشرفه ومنزلته ﷺ وترغيباً للأمة، فإنَّه تعالى مع استغنائه إذا كان مصلياً عليه ﷺ كانت الأمة أولى به لاحتياجهم إلى شفاعته، وتقوية لصلوات الملائكة والمؤمنين.

فإنَّ صلاة الحق حق، وصلاة غيره رسم؛ والرسم يتقوى بمقارنة الحق، وإشارة إلى أنَّه ﷺ مجلى تام لأنوار الجمال والجلال، ومظهر جامع لنعوت الكمال؛ به فاض الجود، وظهر الوجود.

ثم ثنى بملائكة قدسه، فإنَّهم مقدمون في الخلقة، وأهل عليين في الصورة خائفون كبني آدم من نوازل القضايا، ومستعيذون بالله تعالى من مثل واقعة إبليس وهاروت وماروت؛ فاحتاجوا إلى الصلاة على النبي ﷺ ليحصل لهم جمعية الخاطر والحفظ من المحسن والبليات ببركة الصلوات، وأيضاً ليظهر لصلوات المؤمنين رواج بسبب موافقة صلواتهم، كما ورد في آمين. وأيضاً لما خلق آدم عليه السلام وأسجد له الملائكة ورأوا أنوار محمد ﷺ على جبينه صلوا عليه وقتئذٍ؛ فلما تشرف بخلقه ﷺ الوجود قيل لهم؛ هذا هو الذي كنتم تصلون عليه، وهو نور في جبين آدم عليه السلام فصلوا عليه وهو موجود بالفعل في العالم.

ثم ثلث بالمؤمنين مِن برية جنه وإنسه، فإنَّ المؤمنين محتاجون إلى الصلاة عليه ﷺ أداء لبعض حقوق الدعوة والأبوة، فإنَّه ﷺ بمنزلة الأب للأمة، وقد أجاد في التعليم والتربية والإرشاد، وبالغ في لوازم الشفقة على العباد.

وثناء المعلم واجب على المتعلم، وشكر الأب لازم على الابن. وأيضاً في الصلوات شكر على كونه ﷺ أفضل الرسل، وكونه خير الأنام، وأيضاً فيها إيجاب حق الشفاعة على ذمة

ذلك الجناب، فإنَّ الصلوات ثمن الشفاعة، فإذا أدوا الثمن هذا اليوم يرجى أن يحوزوا المثمن يوم القيامة.

وبقدر صلواتهم عليه ﷺ تحصل المعارفة بينهم وبينه ﷺ وعلامة المصلي يوم القيامة أن يكون لسانه أبيض، وعلامة التارك أن يكون لسانه أسود بهما تعرف الأمة يومئذٍ.

وأيضاً فيها مزيد القربات، وذلك لأنَّ بالصلوات تزيد مرتبة النبي ﷺ فتزيد مرتبة الأمة، لأنَّ مرتبة التابع تابعة لمرتبة المتبوع؛ وأيضاً فيها إثبات المحبة، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره؟ قال سهل بن عبد الله التستري قدس سره الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات، لأنَّ الله تعالى تولاها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين.

وسائر العبادات ليس كذلك، يعني أنَّ الله تعالى أمر بسائر العبادات ولم يفعلها بنفسه. انتهى. وبذلك أبان الله تعالى فضل نبيه ﷺ وصلاته تعالى لا تنقطع أبداً، وكذا الملائكة في كل وقت يصلون عليه ﷺ وكذا أمته ﷺ لم يزالوا ولا يزالون يصلون عليه ﷺ في كل زمان ومكان، أي يطلبون له زيادة الصلاة والرفعة والشرف لا أصل الصلاة، إذ هي حاصلة له من ربه ﷺ ولا تنقطع أبداً. اهـ. اللهم صل وسلم وبارك عليه أبداً سرمداً.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[شرف الله نبيَّه ﷺ بسبق نبوته]

ما ذكره عند قول ابن حجر: اعلم أنَّ الله تعالى شرف نبيه ﷺ بسبق نبوته في سابق أزليته، وذلك أنَّه تعالى لما تعلقت إرادته بإيجاد الخلق أبرز الحقيقة المحمدية من محض النور قبل وجود ما هو كائن من المخلوقات بعد، ثم سلخ منها العوالم كلها، ثم أعلمه تعالى بسبق نبوته وبشره بعظيم رسالته، كل ذلك وآدم لم يوجد. ثم انبجست منه ﷺ عيون الأرواح، فظهر بالملأ الأعلى أصلاً ممداً للعوالم كلها. اهـ.

قال السيد أحمد عابدين: الحقيقة المحمدية هي الذات مع النعت الأول قال: وفي «لطائف» الكاشي يشيرون بالحقيقة المحمدية المسماة بحقيقة الحقائق الشاملة أي الحقائق والسارية بكليتها في كلها سريان الكل في جزئياته.

قال: وإنَّما كانت الحقيقة المحمدية هي صورة الحقائق لأجل ثبوتها، أي الحقيقة المحمدية في خلق الوسطية والبرزخية والعدالة، بحيث لم يغلب عليه ﷺ حكم اسمه أو وصفه أصلاً.

وكانت هذه البرزخية الوسطية هي عين النور الأحمدي المشار إليه، بقوله عليه الصلاة والسلام: «أول ما خلق الله نوري» أي قدر على أصل الوضع اللغوي. وبهذا الاعتبار سمي المصطفى ﷺ بنور الأنوار، وبأبي الأرواح، ثم أنّه ﷺ آخر كل كامل إذ لا يخلق بعده مثله اهـ.

فهي أي الحقيقة المحمدية أول موجود من محض النور، أي من النور الصمدي في الحضرة الأحدية، مكتسية بجميع خلع الربوبية، مشتملة على جميع الأوصاف الرحمانية؛ واسطة بينه تعالى وبين العوالم، نائبة عنه عزَّ وجل في جميع المعالم، حجاباً بينه وبين الخلق لا يوصل إليه سبحانه إلاّ بها، فظهر ﷺ بالملأ الأعلى، أصلاً ممد للعوالم كلها وهو بالمنظر الأجلى، وكان لهم المورد الأحلى. فهو ﷺ الجنس العالي على جميع الأجناس، والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس، ﷺ.

روي أنّه لما اجتمع بآدم ليلة الإسراء في السماء، قال له مرحباً: يابنْ صورتي وأبي معناي. وروى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قلت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء. قال ﷺ: «يا جابر إنَّ الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره» الحديث بطوله.

قال الداوودي: أي في شرحه على مولد ابن حجر نقلاً عن شيخه ابن عقيلة: لما كان سبحانه كنزاً لا يعرف، فأحب أن يعرف أوجد نوراً من نور وجهه الكريم، وسماه بالنبي العظيم، والنور المحمدي، والسر الأوحدي. أوجد منه الكائنات. اهـ. ثم قال السيد أحمد عابدين: قال شيخنا أبو بكر الكلالي الكردي في تفسيره، نقلاً من العارف النابلسي قدس سرهما: إنَّ النور نوران: النور الحق، وهو الغيب المطلق، وهو النور القديم المنزه عن الكيفية والمماثلة المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ ۞اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]، ونور العالم المحدث، وهو نور نبينا ﷺ المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ [النور: ٣٥]، أي نور محمد ﷺ ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ [النور: ٣٥]، الآية لأنّه أول ما خلق الله من نوره، ثم خلق منه كل شيء كما تقدم إلى أن قال: فهو ﷺ كل شيء من حيث الحقيقة وغيره من حيث الصورة، كما أنّه ﷺ نور الحق من حيث الحقيقة وغيره من حيث الصورة، إذ العالم بجميع أجزائه موجود من العدم، لتجلي الله تعالى له، ويتجدد له الوجود كل لمحة بالتجلي، وهو نور محمد ﷺ لأنَّ الله تعالى وهب هذا النور الأعظم له ﷺ فأرسله رحمةً للعالمين، فلا يوجد شيء إلاّ بواسطة نوره ﷺ ثم قبض من هذا النور الأعظم الذي هو أول تجلي الله تعالى في العالم أنوار جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام وجميع الملائكة والأولياء والمؤمنين. ثم

خلق منه جميع الأرواح، وأخذ عليهم الميثاق على توحيده تعالى والتكاليف الشرعية. فهذا هو العالم اللطيف والملائكة بعض هذا العالم. ثم خلق العالم الكثيف من السمٰوات والأرض. وما فيهما. اهـ.

ثم قال: قال العارف الأكبر في الباب الثاني عشر من فتوحاته: والمؤلف يعني ابن حجر في النعمة الكبرى لما انتهى الزمان بالاسم الباطن في حقه ﷺ إلى وجود جسمه وارتباط الروح انتقل حكم الزمان إلى الإسم الظاهر، فظهر محمد ﷺ بكليته جسماً وروحاً، فهو وإن تأخر وجوده هو خزانة السر، فلا ينعقد أمر إلاَّ منه، ولا ينتقل خير إلاَّ عنه. اهـ.

وعزاه في المواهب إلى العارف الرباني عبد الله بن أبي جمرة في كتابه «بهجة النفوس»، والإمام أبي الربيع بن سبع في «شفاء الصدور»، والشهاب الخفاجي في «شرح الشفاء»، وابن الجوزي في «الوفاء».

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[شأن الطينة التي خلق منها النبي ﷺ]

قوله عند قول ابن حجر «وقال كعب الأحبار: لما أراد الله تعالى أن يخلق محمداً ﷺ أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض، فهبط في ملائكة الفردوس وملائكة الرفيع الأعلى، فقبضها من محل قبره المكرم أي وأصلها من محل الكعبة المشرفة موجهاً الطوفان إلى هناك.

وفي المواهب وشرحها وروح البيان قيل: لما خاطب الله تعالى السمٰوات والأرض بقوله: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] كان المجيب من الأرض موضع الكعبة الشريفة، ومن السماء ما حاذاها، الذي هو البيت المعمور. ووافقهم على الجوانب البقية، ولذا جعل الله تعالى لها حرمة على سائر الأرض، حتى كانت كعبة الإسلام وقبلة الأنام. وقال السهيلي: لم يجبه إلاَّ أرض الحرم أي من الأرض وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أصل طينة رسول الله النبي ﷺ من سرة الأرض بمكة.

قال السهروردي، صاحب «العوارف»: هذا يشعر بأنَّه ما أجاب من الأرض إلاَّ درة المصطفى، وهي تلك الطينة ومن موضع الكعبة دحيت الأرض، فرسول الله ﷺ هو الأصل في التكوين روحاً وجسداً، والكائنات تبع له. وقيل: لذلك سمي أمياً لأنَّ مكة أم القرى، ودرته ﷺ أم الخليقة.

فإن قلت: ورد في الخبر الصحيح تربة كل شخص من مدفنه، فكان بمقتضى هذا أن يكون مدفنه ﷺ بمكة، حيث كانت تربته منها. فقد أجاب عنه صاحب «عوارف المعارف» بأنّه قيل إنَّ الماء لما تموج رمى ذٰلك العنصر الشريف، والزبد اللطيف، والجوهر المنيف إلى النواحي؛ فوقعت جوهرة النبي ﷺ إلى ما يحاذي تربته بالمدينة، فكان ﷺ مكياً مدنياً، حنينه إلى مكة وتربته بالمدينة . اهـ.

زاد في روح البيان عن تاريخ مكة أنَّ عنصره الشريف ﷺ كان في محله يضيء إلى وقت الطوفان، فرماه الموج في الطوفان إلى محل قبره الشريف لحكمة إلٰهية وغيرة ربانية، يعرفها أهل الله تعالى. ولذا لا خلاف بين علماء الأمة في أنَّ ذٰلك المشهد الأعظم، والمرقد الأكرم أفضل من جميع الأكوان، حتى من العرش والجنان.

وذهب إليه الإمام مالك، واستشهد بذٰلك، وقال: لا أعرف أكبر فضل لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما من أنهما خلقا من طينة رسول الله ﷺ لقرب قبريهما من حضرة الروضة المقدسة المفضلة على الأكوان بأسرها.

قال الإمام السهروردي: لما قبض عزرائيل قبضة الأرض، وكان إبليس قد وطى الأرض بقدميه، صار بعض الأرض بين قدميه وبعضها موضع أقدامه، فخلقت النفوس الأمارة مما ماسّ قدم إبليس، فصارت النفوس الامارة مأوى الشرور؛ وبعض الأرض لم يصل إليها قدم إبليس، فمن تلك التربة طينة الأنبياء والأولياء عليهم السلام وكانت طينة رسول الله ﷺ موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل، لم تمسها قدم إبليس، فلم يصبه حظ جهل النفس الإمارة، بل صار منزوع الجهل موفراً حظه من العلم، فبعثه الله تعالى بالعلم والهدى، وانتقل من قلبه الشريف إلى القلوب الشريفة، ومن نفسه القدسية المطمئنة فوقعت المناسبة في أصل طهارة الطينة، فكل من كان أقرب مناسبة في ذٰلك كان أوفر حظاً في القبول والتسليم والكمال الذاتي، ثم بعض من كان أقرب مناسبة إلى النبي ﷺ في الطهارة الذاتية وأوفر حظاً من ميراثه اللدني، قد أبعد في أقاصي الدنيا مسكناً ومدفناً، وذٰلك لا ينافي قربه المعنوي، فإنَّ إبعاده في الأرض كإبعاد النبي ﷺ من مكة إلى المدينة بحسب المصلحة . اهـ. وذكر بعضهم إنَّ الحكمة في انفراده ﷺ عن مكة بمحل آخر بعيد عن مكة زيادة في إظهار فضله ﷺ وإنّه متبوع لا تابع، إذ لو دُفن بمكة لكان قصده يقع تابعاً لقصدها أو لقصد الحج، فيصير غير متبوع، وذٰلك لا يليق بعليّ كماله، فاقتضى ذٰلك أن يفرد بمحل مخصوص بعيد من مكة، حتى يكون قصد زيارته مستقلاً ليس تابعاً لغيره، وحتى يتمايز الناس في شد الرحال لزيارته بخصوصه ﷺ.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[مكتوب خاتم النبيين]

قوله عند قول ابن حجر: ولما كان آدم نبياً، استخرج منه نبينا ﷺ ونبئ. وفي حديث أحمد: «إني عند الله مكتوب خاتم النبيين، وإنَّ آدم لمنجدل في طينته».

قال الشهاب الخفاجي في «شرح الشفا»: وفي هذا الحديث روايات متعددة صحيحة، منها حديث أحمد المتقدم، ومنها: متى استنبئت؟ قال ﷺ: «وآدم بين الروح والجسد».

وفي رواية: «بين الماء والطين». ومعنى منجدل ساقط على الجدالة، وهي الأرض؛ وليس المعنى أنَّه كان نبياً في علم الله تعالى كما قيل، لأنَّه لا يختص به بل إنَّ الله خلق روحه قبل سائر الأرواح، وخلع عليها خلعة التشريف بالنبوة، أي ثبت لها ذٰلك الوصف دون غيرها في عالم الأرواح، إعلاماً للملأ الأعلى به.

وإذا كانت النبوة صفة روحه علم أنَّه ﷺ بعد موته نبي رسول، ولا يضر انقطاع الأحكام والوحي، وقد أكمل دينه ـ كما تقدم ـ وإنكار ذٰلك جهل فاحفظه، فإنَّه نفيس جداً. وهذا هو المراد بقوله ﷺ: «إنَّ الله خلق نوري قبل أن يخلق آدم عليه السلام بأربعة عشر ألف عام».

كما رواه ابن القطان. وفي رواية: «يسبح ذٰلك النور، وتسبح الملائكة بتسبيحه».

وهذا يؤيد أنَّه ﷺ مرسل للملائكة كغيرهم، فهذا صريح في أنَّ نبوته ﷺ ظهرت في الوجود العيني قبل نبوة آدم وغيره، وأنَّ الملائكة لم تعرف نبياً قبله، وأنَّه ﷺ النبي المطلق وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام خلفاؤه، والشرائع شريعته ظهرت على لسان كل نبي بقدر استعداد أهل زمانه، فهو ﷺ أبو الأنبياء وآخرهم، ولا يمكن أن يجرى على شريعته قلم نسخ.

وقيل: إنَّه ﷺ سابق على سائر الأنبياء ـ لما مر ـ وجسداً، لأنَّ مادة جسده ﷺ خلقت قبل سائر المواد، لحديث كعب الأحبار الذي تقدم. والبينية في قوله ﷺ: «بين الروح والجسد»، الظاهر أنَّ المراد بها عدم الطرفين الروح والجسد، أي لا روح ولا جسد، كما صرح به في رواية بقوله: «لا آدم ولا ماء ولا طين» لأنك إذا قلت مسكني بين البصرة والكوفة، علم أنَّه ليس فيهما. وليس معنى «بين الماء والطين» أنه لم يكن ماء صرفاً ولا طيناً صرفاً.

واعلم أنَّ ما تقرر من وجود حقيقته ﷺ يومئذ لا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢] لما حققه العلامة إبراهيم الكوراني في كتابه «قصد السبيل»، ونقله عنه العلامة محمد الداوودي أي في شرحه على مولد ابن

حجر، وهو أنه يحتمل أن يكون المراد بالزمان المشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [الشورى:٥٢] هو الزمن المتقدم على الوحي، الذي كان في عالم الأرواح من السنين المتقدمة على عام نبوته، وأخذ ميثاقه ﷺ من الألوف الأربعة عشر، وحينئذ كان المعنى: وكذٰلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، حين مننا عليك بالنبوة وآدم بين الروح والجسد؛ ما كنت تدري قبل ذٰلك الوحي من تلك الأعوام من الآلاف الأربعة عشر ما الكتاب ولا الإيمان.

وهذا ما يدل عليه ظاهر بعض الأحاديث من أنَّ نبوته ﷺ كانت بعد خلق جسد آدم. قال الشيخ إبراهيم الكوراني: وأما على ما ذهب إليه شيخنا يعني العارف القشاشي من أنَّ نبوته ﷺ كانت سابقة على خلق اللوح والقلم وما بعدهما، فلعل المراد الزمن المتقدم علي حين إقامته ﷺ في مقام القرب والله أعلم.

وأما إن كان المراد بالزمان المشار إليه بما كنت تدري إلى آخره هو الزمان السابق على الوحي المنزل عليه في عالم الأشباح، حين بعثه الله للنَّاس رسولاً. فالآية إنما تدل على انتفاء التذكر لوقوع الميثاق، وإنَّه متى كان، وكيف كان؟ لا على انتفاء العلم الضروري بالتوحيد. أما الثاني، فلأن انتفاءَه يستلزم ما لا يليق بمنصب الأنبياء، وأما الأول فلأنَّ الإيمان هو تصديق المخبر فيما أخبر به. وقد صح أنَّ الله تعالى أخبرهم إذ أخذ منهم الميثاق بأنَّه لا إلٰه غيره وبتصديق الرسل، فأقروا أي فآمنوا وصدقوا، فقد تحقق الإيمان، وقد قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى:٥٢] فلو كان تذكر وقوع الميثاق، وإنَّه كيف كان؟ ومتى كان متحققاً عنده ﷺ في عالم الأشباح قبل الوحي؟ كان دارياً ما الإيمان، ولكن الله قد نفى أن يكون يدري ما الإيمان، فلم يكن وقوع الميثاق وإنَّه متى كان، وكيف كان متحققاً في تذكره ﷺ قبل الوحي مع تحقق العلم الضروري بالتوحيد تحققاً مستمراً من أول ظهوره إلى حين بعثه رسولاً أبداً، بلا تخلل جهل، ولا طروء شك، ولا عروض شبهة لا في زمن قليل ولا كثير ولا طويل ولا قصير ـ كما سبق ـ فلا منافاة بين كونه ﷺ موحداً بعلم ضروري قبل الوحي، وبين كونه ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل الوحي.

ومن هنا ظهر أنَّه لا منافاة أيضاً بين كونه ﷺ نبياً بالفعل «وآدم بين الروح والجسد»، وبين كونه ما كان يدري ما الكتاب قبل الوحي. أما إن كان المراد قبل الوحي في عالم الأرواح فظاهر، وأما إن كان المراد قبل الوحي المنزل عليه في عالم الأشباح؛ فلما مرَّ أنَّ الآية إنما تدل على انتفاء التذكر لوقوع الميثاق، وإنَّه متى كان وكيف كان سواء؛ كان ميثاق النبوة أو ميثاق التوحيد؛ فكما إنَّ انتفاء تذكر وقوع التوحيد لا ينافي العلم الضروري بالتوحيد، كذٰلك انتفاء تذكر وقوع ميثاق النبوة لا ينافي العلم الضروري بما أوحي إليه مما يتعبد به في نفسه قبل

أن يرسل إلى الناس رسولاً إلى آخر ما أطال به ـ رحمه الله تعالى ـ مما يتعين مراجعته ويحافظ عليه، فإنَّ تحقيق هذا المقام على هذا النظام لم يسبق إليه. انتهى.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[النبي ﷺ المقصود من الخلق وواسطة عقدهم]

قوله عند قول ابن حجر «فنبينا ﷺ هو المقصود من الخلق وواسطة عقدهم» أي أعظمهم وأنفسهم وأعلاهم، إذ العقد هو القلادة من الجوهر، أي من لهم سيادة من الخلق بمنزلة قلادة من جوهر، والنبي ﷺ واسطتها أي درتها اليتيمة التي لا شبيه لها في حسنها، فقد عقدت له النبوة ﷺ قبل كل شيء، ودعا الخليقة عند خلق الأرواح وبدء الأنوار إلى الله، كما دعاهم آخراً في خلقة جسده آخر الزمان. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٨١] الآية إلى قوله تعالى: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران:٨١] إلى آخر المعنى، فقد آمن الكل به ﷺ فهو أبو الأرواح ويعسوبها، كما إنَّ أبو الأجساد وسببها ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] والعالمون هم جميع الخليقة، فقد أنذر الخليقة أجمع، وآمن الكل به ﷺ في الأولية والآخرية وانتقال النور في جميع العالم من صلب إلى صلب؛ فافهم.

وقد تكلم الشيخ تقي الدين السبكي على هذا المعنى وقرره برسالة مخصوصة، ويؤيد ذٰلك ما قدمناه عن العارف سيدي محيي الدين بن العربي. وكيف لا، وهو ﷺ رسول الرسل، الداعين الخلق إلى الله تعالى، القائمين بالنيابة عنه بتبليغ الأحكام التي شرعها الله تعالى لهم؟

قال الشيخ أبو عثمان الفرغاني: فلم يكن داع حقيقي من الابتداء إلى الانتهاء إلاّ هذه الحقيقة الأحمدية، التي هي أصل جميع الأنبياء، وهم كالأجزاء والتفاصيل لحقيقته ﷺ فكانت دعوتهم من حيث جزئيتهم عن خلافة من كلهم لبعض أجزائه، وكانت دعوته ﷺ دعوة الكل لجميع أجزائه. والإشارة إلى ذٰلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا:٢٨] والأنبياء والرسل وجميع أممهم وجميع المتقدمين والمتأخرين... داخلون في كافة الناس.

فكان هو ﷺ داعياً بالأصالة، وجميع الأنبياء والرسل يدعون الخلق إلى الحق عن تبعيته ﷺ فكانوا خلفاءه في الدعوة، لأنَّ الله تعالى أخذ الميثاق عليهم بأنَّهم من أتباعه، فرسالته ﷺ عامة لجميع الخلق والأنبياء وأممهم من لدن آدم إلى يوم القيامة؛ وحينئذ يدخلون في قوله ﷺ: «وأرسلت إلى الناس كافة». ولأجل ذٰلك يكون الأنبياء كلهم يوم القيامة تحت لوائه ﷺ قال الإمام البوصيري في البردة:

وكـل آي أتـى الـرسـل الكـرام بهـا فـإنمـا اتصلـت مـن نـوره بهـم
فـإنـه شمـس فضـل هـم كـواكبهـا يظهـرنَ أنـوارهـا للنـاس فـي الظلـم

أي كل معجزة ظهرت على يد رسول من الرسل عليهم السلام فإنها ظهرت بواسطة نوره ﷺ لاقتباسهم من نوره، فهو شمس فضل وهم كواكبها، وإذا ظهرت الشمس اختفت الكواكب والغرض إنَّ الرسل إنما يروج دينهم عليهم السلام ما لم يظهر دينه ﷺ فلما أظهره الله تعالى على الدين انتسخ دينهم، فهو الأصل وهم نوابه ﷺ ولذا أمهم ليلة الإسراء ولا يحكم عيسى حين ينزل إلاَّ بشريعته ﷺ دون شريعة نفسه عليه السلام.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[ولادة أمه له ﷺ]

قوله عند قول ابن حجر: حينئذٍ ولدته ﷺ.

تنبيه: جرت العادة بأنَّه إذا ساق الوعاظ مولده ﷺ وذكروا وضع أمه له، قام الناس عند ذلك تعظيماً له ﷺ وهذا القيام بدعة حسنة لما فيها من إظهار الفرح والسرور والتعظيم، بل مستحبة لمن غلب عليه الحب والإجلال لهذا النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وقد وجد القيام عند ذكر اسمه الشريف من عالم الأمة ومقتدى الأئمة ديناً وورعاً، الإمام تقي الدين السبكي، وتابعه على ذلك مشايخ الإسلام في عصره، قال الشامي والداوودي قد اتفق أنَّ منشداً أنشد قصيدة ذي المحبة الصادقة، حسان زمانه أبي زكريا يحيى الصرصري، التي منها قوله في مدح النبي ﷺ:

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب على فضة من خط أحسن من كتب
وإن تنهـض الأشـراف عنـد سمـاعـه قيـامـاً صفـوفـاً أو جثيـاً علـى الـركـب
أمـا الله تعظيمـاً لـه كتـب اسمـه علـى عـرشـه يـا رتبـة سمـت الـرتـب

وكان ذلك وقت ختم درسه، والقضاة والأعيان بين يديه، فلما وصل المنشد إلى قوله: وإن تنهض الأشراف عند سماعه، إلى آخر البيت نهض الشيخ للحال قائماً على قدميه امتثالاً لما ذكره الصرصري، وقام جميع من بالمجلس، وحصل للناس ساعة طيبة وأنس كبير بذلك؛ ذكر ذلك ولده شيخ الإسلام أبو نصر عبد الوهاب في ترجمته من الطبقات الكبرى. اهـ. قال في «إنسان العيون» بعد ذكر ذلك: ويكفي مثل ذلك في الاقتداء. أقول ولم تزل عليه المواظبة من العلماء الأعلام والمشايخ الكرام، بقصد تعظيم من للأنبياء ختام ـ عليه أفضل الصلاة، وأتم السلام ـ.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[النور الذي خرج من أمه عند ولادته ﷺ]

قوله عند قول ابن حجر: وإنَّه لما فصل ﷺ من أمه خرج منها نور أضاء ما بين المشرق والمغرب، لا سيما الشام وقصورها. وتقدم أنَّها رأت حين حملت به ﷺ إنَّه خرج منها نور، رأت به قصور بصرى من أرض الشام، وتقدم أنَّه لا مانع من وقوعه في الوقتين زيادة في البشارة بظهوره وظهور دينه.

أخرج أحمد والبزار والطبراني والحاكم عن العرباض بن سارية أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إني عبد الله وإنَّ آدم لمنجدل في طينته «وسأخبركم عن ذلك إني دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين» أي يرين الذي رأت أمه. ﷺ فهو من خصائصه على الأمم لا على الأنبياء، والمراد يرين مطلق النور لا الذي تضيىءُ منه قصور الشام. ثم ذكر ما رأته أمه بقوله: وإنَّ أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نوراً أضاءت له قصور الشام. قال الحافظ ابن حجر، صححه ابن حبان والحاكم، وأخرج أبو نعيم، عن عطاء بن يسار، عن أم سلمة، عن آمنة والدة النبي ﷺ قالت: لقد رأيت، أي رؤية عين بصرية يقظة ليلة وضعته ﷺ نوراً أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها.

وروى ابن سعد أنه ﷺ قال: «رأت أمي حين وضعتني أنَّه سطع منها نور أضاءت منه قصور بصرى».

وفي رواية: «أنَّها قالت: لما وضعته خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب فأضاءت له قصور الشام وأسواقها حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى». وفي رواية: «أضاء له ما بين السماء والأرض».

وقوله قصور الشام ظاهر في أنَّ المراد جميع الإقليم لا خصوص بصرى، ولعل الاقتصار على بصرى في بعض الروايات لكون النور كان لها أتم. ومن ثم قالت: حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى، أو رأت مرة وصول النور إلى بصرى خاصة، ومرة جاوزها. وبصرى بلدة معروفة بطريق الشام من أعمال دمشق، والحاصل أنَّ رؤية النور تكررت، فما كان منها قبل الوضع فمناماً، وما كان حين الوضع فيقظة، والله سبحانه أعلم. وفي «المواهب عن اللطائف للحافظ عبد الرحمٰن ابن رجب الحنبلي خروج هذا النور أي الحسي المدرك بالبصر عند وضعه ﷺ إشارة إلى ما يجيء به من النور، أي الأحكام والمعارف، التي اهتدى بها أهل الأرض، وزال بها ظلمة الشرك، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ﴾ [المائدة: ١٥] أي محمد ﷺ.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين ـ رحمه الله تعالى ـ

[فلذلك سماه محمداً ﷺ]

قوله عند قول ابن حجر فلذلك سماه محمداً. جاء في فضل التسمية بهذا الاسم الشريف أحاديث كثيرة وأخبار شهيرة، منها أنَّه ﷺ قال: قال الله عزَّ وجل: «**وعزتي وجلالي لا أعذب أحداً تسمى باسمك في النار**» ، أي باسمك المشهور أحمد ومحمد. ومنها: «**ما من مائدة وضعت وعليها اسم محمد أو أحمد إلاَّ تمت**».

وفي رواية: «**فيها اسمي إلاَّ قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين**» . ومنها قال: «**يوقف عبدان، اسم أحدهما أحمد والآخر محمد بين يدي الله عزَّ وجل فيؤمر بهما إلى الجنة، فيقولان: ربنا بم استأهلنا الجنة، ولم نعمل عملاً تجازينا به الجنة؟ فيقول عزَّ وجل أدخلا الجنة فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد أو محمد**»، ولكن قال بعضهم: لم يصح في فضل التسمية بمحمد حديث، وكل ما ورد فيه فهو موضوع. قال بعض الحفاظ: وأصحها أي أقربها للصحة: «**من ولد له مولود فسماه محمداً حباً بي وتبركاً باسمي، كان هو ومولوده في الجنة**»[1].

كما في سيرة الحلبي «إنسان العيون». قال سيدي العم في حاشية الدر المختار، رواه ابن عساكر، عن أبي أمامة، رفعه قال السيوطي: هذا أمثل حديث ورد في هذا الباب وإسناده حسن. اهـ.

قال في «الشفاء» وروي عن سريج بن يونس أنَّه قال: إنَّ لله تعالى ملائكة سياحين عبادتهم المحافظة على كل دار فيها أحمد ومحمد إكراماً لهذا الاسم. اهـ.

وروي عن جعفر بن محمد، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: ألاَ ليقم من إسمه محمد، فليدخل الجنة لكرامة اسمه ﷺ. اهـ. قال الشهاب: وليس هذا مما يقال بالرأي، فهو حديث له حكم الرفع، وما قيل من أنَّه يؤدي إلى الاتكال وعدم العمل مما لا يلتفت إليه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة ينادي مناد في الموقف: ألاَ ليقم من كان اسمه محمداً فليدخل الجنة بكرامتي**». وفي رواية يقول: «**الله له عبدي ألم تستحي مني إذ عصيتني واسمك محمد، وأنا أستحي أن أعذبك واسمك اسم حبيبي. اذهبوا به إلى الجنة**» .
وإلى هذا أشار صاحب البردة بقوله رحمه الله تعالى:

---

(١) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (١: ١٥٧). والسيوطي في اللآلىء المصنوعة (١: ٥٥). وعلي القاري في الأسرار المرفوعة (٤٣٥).

فــإنَّ لـــي ذمـــة منـــه بتسميتـــي محمداً وهو أوفى الخلق في الذمم

وروى ابن القاسم في «سماعه» وابن وهب في «جامعه»، عن مالك قال: سمعت أهل مكة يقولون: ما من بيت فيه اسم محمد إلاَّ نما أي زاد ذٰلك البيت بكثرة الأولاد والأهل فيه، وزادت البركة فيه، ورزقوا ورزق جيرانهم زاد الله رزقهم ببركة ذلك الاسم. وفي نسخة: إلا وقد وقوا من الوقاية ـ أي حفظهم الله تعالى ـ من كل سوء. وعنه ﷺ أنَّه قال، على ما رواه ابن سعد من حديث عثمان العمري. مرفوعاً، وذكر السيوطي سنده: «ما ضر أحدكم أن يكون في بيته محمد ومحمدان وثلاثة» . أي وأكثر ويميز بينهم بلقب. وفي مسند الحارث بن أبي أسامة، عنه ﷺ: «من كان له ثلاثة من الولد ولم يسم أحدهم بمحمد، فقد جهل» . وعن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في مشورة ومعهم رجل اسمه محمد لم يدخلوه في مشورتهم، إلاَّ لم يبارك لهم». رواه جماعة منهم ابن عثاب. وفي «روح البيان»: «من كان له ذو بطن، فأجمع أن يسميه محمداً رزقه الله غلاماً»[1]؛ «ومن كان لا يعيش له ولد فجعل الله عليه أن يسمي الولد المرزوق محمداً عاش». ومن خصائصه البركة في الطعام الذي عليه مسمى باسم محمد، وكذا المشاورة ونحوها، وينبغي أن يعظم هذا الاسم وصاحبه. اهـ.

هذا وفي حاشية سيدي العم رحمه الله تعالى يعني حاشية ابن عابدين على الدر المختار، روى مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم، عن ابن عمر مرفوعاً: «أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمٰن» . قال المناوي: وعبد الله أفضل مطلقاً حتى من عبد الرحمٰن، وأفضلها بعدهما محمد ثم أحمد ثم إبراهيم. اهـ. وقال ابن عابدين أيضاً في موضع آخر من حاشيته المذكورة، ويلحق بهذين الاسمين أي عبد الله وعبد الرحمٰن ما كان مثلهما، كعبد الرحيم وعبد الملك. وتفضيل التسمية بهما محمول على من أراد التسمي بالعبودية، لأنَّهم كانوا يسمون عبد شمس وعبد الدار، فلا ينافي أنَّ اسم محمد وأحمد أحب إلى الله من جميع الأسماء، فإنَّه تعالى لم يختر لنبيه ﷺ إلاَّ ما هو أحب إليه. هذا هو الصواب، ولا يجوز حمله على الإطلاق. اهـ. وفي «الدر المختار»: ومن كان اسمه محمداً لا بأس أن يكنى أبا القاسم، لأنَّ قوله ﷺ: «سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي» . قد نسخ لأنَّ علياً رضي الله عنه كنى ابنه محمد بن الحنفية أبا القاسم. اهـ.

وتمام الكلام في بحث التسمية في حاشية العم الإمام ابن عابدين، في فصل البيع من كتاب «الحظر والإباحة».

---

(١) رواه السيوطي في الحاوي للفتاوى (٢: ٩٩).

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[شهر الولادة]

قوله عند قول ابن حجر «والأشهر أنَّه ولد في ربيع الأول: وهو قول جمهور العلماء، ونقل ابن الجوزي الاتفاق عليه، فقال في الصفوة: اتفقوا على أنَّه ﷺ ولد بمكة يوم الاثنين في شهر ربيع الأول عام الفيل. اهـ.

قال ابن حجر في «النعمة الكبرى» وهو مولده الكبير. ومراد ابن الجوزي بنقل الاتفاق اتفاق الأكثر. اهـ.

وإلاَّ فلقد قيل في صفر، وقيل في ربيع الآخر، حكاهما مغلطاي وغيره، وقيل في رجب، ولا يصح هذا القول، وقيل: في شهر رمضان حكاه اليعمري ومغلطاي.

وروى هذا القول عن ابن عمر رضي الله عنهما بإسناد لا يصح، وهو موافق لمن قال إنَّ أمه حملت به أيام التشريق، وأغرب من قال: ولد في يوم عاشوراء، فشهر الولادة المحرم. وحكاه مغلطاي، فحصل في شهر الولادة ستة أقوال. وكذا اختلف أيضاً في أي يوم من الشهر ولد، فقيل: إنَّه غير معين إنَّما ولد يوم الإثنين من ربيع الأول من غير تعيين.

والجمهور على أنَّه معين، لكن اختلفوا في تعيينه، فقيل ولد لليلتين خلتا منه، فيوم ولادته ثانيه، وبه صدر مغلطاي، وقيل: لثمان خلت منه، وقيل: لعشر مضين منه، حكاه مغلطاي والدمياطي وصححه، وقيل: لاثني عشر، وقيل لسبع عشر، وقيل: لثمان عشر، وقيل: لثمان بقين منه، وقيل: إنَّ هذين القولين الآخرين غير صحيحين عمن حكيا عنه بالكلية، فتحصل في تعيين اليوم سبعة أقوال؛ والأشهر منها أنَّه في ثاني عشره وهو قول محمد بن اسحاق وغيره. قال ابن كثير: وهو المشهور عن الجمهور، وعليه أهل مكة قديماً وحديثاً في زيارتهم موضع مولده ﷺ في هذا الوقت.

وبالغ ابن الجوزي وابن الجزار فنقلا فيه الإجماع أي إجماع الأكثر كما تقدم أو الإجماع الفعلي، لأنَّ السلف والخلف مطبقون على عمل المولد في اليوم المذكور وليلته، وعلى تسميته بيوم المولد في سائر الأمصار، حتى في حرم مكة التي هي محل مولد المختار ﷺ.

وقال كثيرون: أئمة حفاظ متقدمون، وغيرهم أنَّه يوم ثامنه قال قطب الدين القسطلاني: وهو اختيار أكثر من عرفته بهذا الشأن، واختاره الحافظ الحميدي وشيخه الحافظ ابن حزم، وحكى القضاعي في عيون «عيون المعارف» إجماع أهل الزيغ عليه، ورواه الزهري عن محمد ابن جبير بن مطعم، وكان عارفاً بالنسب وأيام العرب، أخذ ذلك عن أبيه جبيراً. اهـ.

لكن الأول هو المشهور عند الجمهور، وهو الصحيح الذي عليه السلف ويقوله من يعتمد عليه من الخلف فكان عليه المعول. ثم إنَّ حكمة كون المولد الشريف في شهر ربيع على الصحيح، ولم يكن في الأشهر الحرم مع أنها أفضل من غيرها، ولا في رمضان مع أنَّه سيد الشهور. رفع ما يتوهم أنَّه ﷺ تشرف بالزمان، وإنما الزمان يتشرف به كالأماكن، فخص بزمان غير شريف ليحصل له الشرف على الشريف، وهذا هو حكمة كونه لم يولد ليلة الجمعة ولا يومها، وكونه دفن بالمدينة دون مكة، كما في «النعمة الكبرى» «والمواهب» وغيرهما.

وفي المواهب: لو ولد ﷺ في شهر من الشهور المذكورة، لتوهم أنَّه تشرف بها، فجعل الله تعالى مولده ﷺ في غيرها لتظهر عنايته به وكرامته عليه، كما أنَّه لو دفن بمكة لكان قصده يقع تابعاً لقصدها أو لقصد الحج، فأفرد بمكان مخصوص ليكون قصد زيارته مستقلاً، وليتمايز الناس في شد الرحل إليه بخصوصه ﷺ كما تقدم.

والحكمة في كونه ﷺ ولد يوم الاثنين هي أنَّه خلقت فيه الأشجار، ومنها أرزاق العباد وأقواتهم، فوجوده ﷺ فيه لذلك. اهـ. ونقله الشامي: وكان عند طلوع الغفر من منازل القمر، على ما قيل في فصل الربيع في شباط أو آذار أو نيسان، على أقوال حكاها الشامي، وأشار إلى ذلك بعضهم فقال:

يقــول لنـــا لســـان الحـــال منـــه   وقـــول الحـــق يعـــذب للسميـــع
فــوجهــي والــزمــان وشهــر وضعــي   ربيـــع فـــي ربيـــع فـــي ربيـــع

قال الأستاذ سيدي مصطفى البكري رضي الله عنه: الربيع ربيعان ربيع الشهور وربيع الأزمنة، فربيع الشهور شهران وربيع الأزمنة ربيعان؛ الأول الذي يأتي فيه النور والكمأة، والثاني الذي يأتي فيه الثمار. انتهى.

وقد أشار رحمه الله تعالى إلى الحكمة في كونه ﷺ. ولد في شهر ربيع إلى ما في شرعه من شبه زمن الربيع، فإنَّ الربيع أعدل الفصول لأنَّ ليله ونهاره معتدلان بين الحر والبرد، ونسيمه معتدل بين اليبوسة والرطوبة، وشمسه معتدلة في العلو والهبوط، وقمره معتدل في أول درجة من الليالي البيض؛ فلذلك كان ﷺ.

أعدل الناس خلقاً وخلقاً، وكانت شريعته أعدل الشرائع، ولأن في ظهور فيه إشارة ظاهرة لمن تفطن لها بالنسبة إلى اشتقاق لفظة ربيع، لأنَّ فيه تفاؤلاً حسناً ببشارته لأمته ﷺ فالربيع فيه تنشق الأرض عما في بطنها من نعم الله تعالى. ومولده ﷺ في ربيع إشارة ظاهرة إلى التنويه بعظيم قدره، وأنَّه رحمة للعالمين، وبشرى للمؤمنين، وحماية لهم من المهالك والمخاوف في الدارين، وحماية للكافرين بتأخير العذاب عنهم لأجله ﷺ. قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فوقعت البركات وإدرار الأرزاق ومن أعظمها منته تعالى على عباده بهدايته ﷺ لهم إلى صراط الله المستقيم.

وقد قال أبو عبد الرحمٰن الصقلي رحمه الله تعالى: لكل إنسان من اسمه نصيب وتمامه في سيرة الشامي، وقدمنا ما في اسمه الشريف ﷺ من فضائله المحبوبة وشمائله المحمودة والمرغوبة عند الله تعالى وعند الملائكة المقربين وعند الأنبياء والمرسلين، وعند أهل الأرض أجمعين وإن كفر به بعضهم. وإنَّ جميع أسمائه مشتقة من صفات قامت به توجب له المدح والكمال، وإنَّ الإشارة بالميم إلى أنَّه ﷺ الخاتم لأنَّ مخرجها ختام المخارج، وفيها إشارة إلى بعثه ﷺ عند الأربعين. وينعقد في سلك هذا النظام ما هيأ الله تعالى له ﷺ من أسماء مربيه، ففي اسم والدته آمنة الأمن، وفي اسم قابلته الشفاء الشفاء، وفي اسم حاضنته بركة البركة والنماء، وفي مرضعته ثويبة الثواب، وفي مرضعته حليمة السعدية الحلم والسعد. قال الحلبي في «إنسان العيون»: ولد ﷺ في طلوع المشتري، وهو كوكب نير سعيد، فكانت ولادته عند وجود السعد الأكبر والنجم الأنور في ربيع الأول، ولذا أنشد بعضهم:

لهـذا الشهـر فـي الإسـلام فضـل ... ومنقبـة تفـوق علـى الشهـور
ربيـع فـي ربيـع فـي ربيـع ... ونـور فـوق نـور فـوق نـور

فيا له شهراً ما أشرفه وأوفر حرمة لياليه، كأنها اللآلئ في العقود؛ ويا لوجهه ﷺ وجهاً ما أشرفه من وجه مولود. فسبحان من جعل مولده للقلوب ربيعاً، وجعل حسنه في العيون بديعاً.

يـا مـولـد المختـار إنَّ ربيعنـا ... بـك راحـة الأرواح والأجسـاد
يـا مـولـداً فـاق المـوالـد كلهـا ... شـرفـاً وسـاد بسيـد الأسيـاد
زال نـورك فـي البريـة سـاطعـاً ... يعتـاد فـي ذا الشهـر كـالأعيـاد
فـي كـل عـام للقلـوب مسـرة ... بسمـاع مـا نـرويـه فـي الميـلاد
فلـذاك يشتـاق المحـب ويشتهـي ... شـوقـاً إليـه حضـور ذا الميعـاد

فينبغي لكل صادق في حبه ﷺ أن يستبشر بهذا الشهر السار، ويعقد فيه محفلاً يقرأ فيه ما صح في مولده ﷺ من الآثار؛ عسى أن يدخل الجنة مع الأبرار، بفضل الصلاة والتسليم على إنسان عين الأخيار. وقدمنا إنَّ الزمان تشرف به ﷺ كالأماكن، فإنَّها تشرفت به أيضاً حتى قالوا كما قدمنا عن روح البيان، وكما في تنقيح الحامدية لسيدي العم ابن عابدين عن خلاصة الوفا للسمهودي، وقال عياض وقبله أبو الوليد الباجي وغيرهما: وقع الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة حتى على الكعبة، كما قاله ابن عساكر في تحفته وغيره، بل نقل السبكي

عن ابن عقيل الحنبلي أنّها أفضل من العرش، وصرح التاج الفاكهاني بتفضيلها على السمٰوات، بل قال: الظاهر المتعين تفضيل جميع الأرض على السماء لحلوله ﷺ فيها، وحكاه بعضهم عن الأكثرين لخلق الأنبياء ودفنهم فيها. لكن قال النووي رحمه الله تعالى إنَّ الجمهور على تفضيل السماء على الأرض ما عدا ما ضم الأعضاء الشريفة. اهـ.

وقال القسطلاني في المواهب: فإن قلت إذا قلنا بأنّه ﷺ ولد ليلاً، فأيما أفضل ليلة القدر أو ليلة مولده ﷺ؟ قلت: أجيب بأنَّ ليلة مولده ﷺ أفضل من ليلة القدر من وجوه ثلاثة:

أحدها: إنَّ ليلة المولد ليلة ظهوره ﷺ وليلة القدر معطاة له، وما شرف لظهور ذات المشرَّف من أجله أشرف مما شرف بسبب أنّه أعطيه، ولا نزاع في ذٰلك؛ فكانت ليلة المولد أفضل من ليلة القدر.

الثاني: إنَّ ليلة القدر شرفت بنزول الملائكة فيها، وليلة المولد شرفت بظهوره ﷺ فيها وما شرفت به ليلة المولد أفضل مما شرفت به ليلة القدر على الأصح المرتضى، أي عند جمهور أهل السنة فتكون ليلة المولد أفضل.

الثالث: ليلة القدر وقع التفضل بها على أمة محمد ﷺ وليلة المولد الشريف وقع التفضل بها على سائر الموجودات، فهو ﷺ الذي بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين، فعمت به النعمة جميع الخلائق؛ فكانت ليلة المولد أعم نفعاً، فكانت أفضل من ليلة القدر بهذا الاعتبار انتهى.

قال الزرقاني، وهو متعقب بقول الشهاب الهيتمي: فيه احتمال واستدلال بما لا ينتج المدعى، لأنّه إن أريد أنَّ تلك الليلة ومثلها من كل سنة إلى يوم القيامة أفضل من ليلة القدر، فهذه أدلة لا تنتج ذٰلك كما هو جلي، وإن أريد عين تلك الليلة فليلة القدر لم تكن موجودة إذ ذاك، وإنما أتى فضلها في الأحاديث الصحيحة على سائر ليالي السنة بعد الولادة بمدة، فلم يمكن اجتماعهما حتى يتأتى بينهما التفضيل، وتلك انقضت وهذه باقية إلى يوم القيامة.

وقد نص الشارع على أفضليتها، ولم يتعرض لليلة المولد ولا لأمثالها بالتفضيل أصلاً، وكالساعة التي ولد فيها ﷺ على ما يأتي إنّها أفضل من ساعة الإجابة من يوم الجمعة، فوجب علينا أن نقتصر على ما جاءنا عنه ﷺ ولا نبتدع شيئاً من عند نفوسنا القاصرة عن إدراكه إلاّ بتوقيف منه ﷺ على أنّا لو سلمنا أفضلية ليلة مولده ﷺ لم يكن له فائدة، إذ لا فائدة في تفضيل الأزمنة إلاّ بفضل العمل فيها.

وأما تفضيل ذات الزمن الذي لا يكون فيه عمل، فليس فيه كبير فائدة إلى هنا كلامه وهو وجيه.

ثم إذا قلنا بما قال المصنف أي صاحب «المواهب» من أنَّ الولادة نهاراً، فهل الأفضل يوم المولد أو يوم البعثة، أي والأقرب، كما قال شيخنا. يعني الشيخ علي الشبراملسي إنَّ يوم المولد أفضل لما منَّ الله تعالى به فيه على العالمين، ووجوده يترتب عليه بعثته، فالوجود أصل والبعثة طارئة عليه، وذلك قد يقتضي تفضيل المولد لأصالته إلى هنا كلام الزرقاني.

وفي «المواهب» أيضاً: وإذا كان يوم الجمعة الذي خلق فيه آدم عليه السلام خص بساعة لا يصادفها عبد مسلم يسأل الله تعالى فيها خيراً إلاَّ أعطاه إياه، فما بالك بالساعة التي ولد فيها سيد المرسلين. اهـ. وتعقبه الزرقاني أيضاً بمثل ما تقدم.

قال السيد أحمد عابدين بعدما ذكر: أقول: لكن نقل الداودي عن النعمة الكبرى، وهي مولد ابن حجر الكبير، إنَّ اللائق بالقواعد وتحقيق الأدلة أنَّا إذا راعينا جلالته ﷺ لم يمتنع علينا أن نقول ليلة المولد من هذه الحيثية لها شرف أيّ شرف، حتى على ليلة القدر، وإن قلنا إنَّ التفضيل قد يكون بين الذوات لا باعتبار العمل كجلد المصحف وجلد غيره. وأما من شهد ظهور نعمة ربه الكبرى، من إيجاده ﷺ في مثلها وأحياها على هذا الشهود، فلا بدع إن يحصل له فضل لا يحصى ورقي لا يستقصى. اهـ.

ونقل الداوودي أيضاً عن الشمس محمد بن الجزري أنَّ هذه الأمة لم تتخذ ليلة مولده ﷺ عيداً، كما اتخذت أمة عيسى عليه السلام ليلة مولده عيداً، لأنَّ الأعياد توقيفية ولم يشرع لنا غير هذين اليومين، أو لأنَّه لما كان مولده ﷺ هو يوم وفاته متقابلان تكافأ السرور بالعزاء؛ وهذا أحسن ما ظهر لي. اهـ.

هذا وفي شرح «الشفا» للشهاب، عن الهدى النبوي إنَّ ابن تيمية سئل هل ليلة الإسراء أفضل أم ليلة القدر؟ فأجاب بأنَّ القائل بأنَّ ليلة الإسراء أفضل إن أراد أنَّها ونظائرها من كل عام أفضل، فلا وجه له؛ وإن أراد أنَّها بخصوصها أفضل، لأنَّه حصل له ﷺ فيها ما لم يحصل له في غيرها وما لم يحصل لغيره، فهو صحيح إن سلم أنَّ ما أنعم الله به عليه ﷺ فيها أفضل من إنزال القرآن وهو يحتاج إلى علم بحقائق تلك الأمور. اهـ.

وفي حاشية سيدي العم يعني ابن عابدين على الدر ما حاصله إنَّ أيام عشر ذي الحجة أفضل من أيام عشر رمضان؛ وليالي الثاني أفضل من ليالي الأول، لأنَّ أفضل ما في الثاني ليلة القدر، وبها ازداد شرفه. وازدياد شرف الأول بيوم عرفة وليلة القدر أفضل من ليلة النحر؛ وليلة النحر أفضل من ليلة الجمعة. وهذا خلاف ما يفهم من عبارة الجوهرة من تفضيل ليلة النحر على ليلة القدر، حيث قال: إنَّها أي ليلة النحر أفضل ليالي السنة، ويوم الجمعة أفضل من ليلتها لأنَّ فضيلته على ليلتها بصلاة الجمعة وهي في اليوم.

وفي «الدر» لوقفة الجمعة مزية بسبعين حجة، ويغفر فيها لكل فرد بلا واسطة. اهـ و«في الإحياء» قال بعض السلف: إذا وافق يوم عرفة يوم الجمعة غفر لكل أهل عرفة، وهو أفضل يوم في الدنيا، وفيه حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، وكان واقفاً إذ نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] الآية.

وذكر في «الإحياء» أيضاً في بحث الغسل: إنَّ يوم عرفة أفضل أيام السنة. ونقل الطحطاوي عن بعض الشافعية: إنَّ أفضل الليالي ليلة مولده ﷺ ثم ليلة القدر، ثم ليلة الإسراء والمعراج، ثم ليلة عرفة، ثم ليلة الجمعة، ثم ليلة النصف من شعبان، ثم ليلة العيد .اهـ. وفي شرح «الشفا» للشهاب: أنَّ يوم الاثنين في حقه ﷺ كيوم الجمعة لآدم عليه السلام فإنَّه فيه خلق. وفيه نزل إلى الأرض، وفيه تاب الله عليه ومات فيه .اهـ.

ولم يجعل الله تعالى في يوم الإثنين يوم مولده ﷺ من التكليف بالعبادات، ما جعل في يوم الجمعة المخلوق فيه آدم من صلاة الجمعة والخطبة وغير ذٰلك. . . إكراماً لنبيه ﷺ بالتخفيف عن أمته بسبب وجوده، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ومن ذٰلك عدم التكليف.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[وجوب تعليم الولد الصغير]

قوله عند قول ابن حجر: الصواب أنَّه ﷺ ولد بمكة ولا يجوز اعتقاد غيره فيجب على الولي أن يعلم الصغير إذا ميز أنَّه ﷺ ولد بمكة ودفن بالمدينة، كما في سيرة الحلبي «إنسان العيون» عن بعض فقهاء الشافعية.

قال ابن حجر في «النعمة الكبرى»: وهذا أول واجب للأولاد على أصولهم أنَّهم يعلمونه لهم إذا بلغوا سبع سنين وميزوا بل نص كلام بعضهم إنَّ إنكار ذٰلك كفر كإنكار كونه قرشياً، ولا ينحصر الأمر فيهما أي في كونه ولد بمكة ودفن بالمدينة ﷺ فلا بد أن يذكر له من أوصافه ﷺ الظاهرة المتواترة ما يميزه ولو بوجه، فيجب أن يبين له النبوة والرسالة، وأنَّه من قريش واسم أبيه وأمه، وأنَّه بعث بكذا، ودفن بكذا، وهو نبي الله ورسوله إلى كافة الخلق. ويذكر له لونه أي صفة خَلقه الشريف ليزداد معرفة ويحترز عن ضده.

وقال الفاسي في «شرح الدلائل»: وهذه الأوصاف المذكورة هنا التي هي قول صاحب الدلائل: النبي العربي، القرشي الزمزمي، المكي التهامي، مما يجب اعتقاده في حقه ﷺ إذ

هي من جملة مشخصاته المعينة له، فمن قال: إنَّه ﷺ ليس بعربي وليس بقرشي فكافر، كما إذا قال: ليس هو الذي كان بمكة، أو لم يكن بالمدينة ولا توفي بها؛ لأنَّ هذا كله جحد له ﷺ. اهـ. زاد في «الشفا»: وكذا من قال: أسود أو مات قبل أن يلتحي. قال شارحه على القاري: وينبغي أن يقيد هذا بما إذا أراد احتقاره به ﷺ وأما إذا قال ذلك عن جهل بشمائله الشريفة ﷺ فتكفيره ليس في محله، لأنَّ العلم بكونه ﷺ أبيض ليس قطعياً، ولا أنَّه مما علم من الدين بالضرورة. والسواد لا ينافي النبوة، فقد قال جمع بنبوة لقمان عليه السلام وقوله: «مات قبل أن يلتحي»، فإنَّه كذب في نفس الأمر؛ لكن إنما يكفر إذا كان استخفافاً أو استهزاء أو تكذيباً بنبوته ﷺ.

وقوله: «أو ليس بقرشي فكافر» فيه إنَّ العلم بكونه قرشياً ليس ضرورياً، فغايته أنَّه يكون كاذباً به جاهلاً بوضعه، ولا يلزم منه كونه مكذباً به ﷺ وقوله: «كما إذا قال: ليس الذي كان بمكة أو لم يكن بالمدينة» يحتمل أن يكون قال ذلك جهلاً، وأن يكون تكذيباً.

والحاصل أنَّه يكفر بهذا كله إن أراد نفي نبوته ﷺ كما يشير إليه قول «الشفا»، لأنَّ وصفه بغير صفاته المعلومة عند كل واحد نفي له أي لوجوده وتكذيب به أي ﷺ. وذكر أنَّ الجهل ببعض صفات البارئ تعالى لا يخرجه عن الإيمان، كما عليه أكثر العلماء الأعيان؛ فكيف الجهل ببعض صفاته ﷺ لا سيما ولم يتعلق به حجم من شرائع الإسلام؟! اهـ. وفي روح البيان والمختار: إنَّه لا يشترط في الإسلام معرفة اسم أبي النبي ﷺ واسم جده، بل يكفي فيه معرفة اسمه الشريف، كما في «هداية المريدين» للمولى أخي جلبي. اهـ.

لكن لو قال: إنَّه ﷺ لم يخلق من نطفة، وإنما هو كعيسى وآدم عليهما الصلاة والسلام قال الفاسي: فكل ذلك نص العلماء على كفر قائله ومدعيه. اهـ.

والحاصل أنَّ الذي يطلب تعلمه وتعليمه على صفة الكمال معرفة الله تعالى وتوحيده، وأنَّه يسمع كلامهم، وأنَّه معهم حيثما كانوا، وكذا معرفة رسول الله ﷺ أنَّه محمد ابن عبد الله، نبي الله ورسوله إلى كافة الخلق إلى يوم القيامة، وإنَّه إنسان أوحى الله إليه بشرع ناسخ لجميع الشرائع قبله، وإنَّه عربي هاشمي وُلد في مكة وبعث فيها، وهاجر إلى المدينة ومات فيها ودُفن فيها، وإنَّه ﷺ واجب الطاعة والمحبة؛ وإنَّه أم غار ثور وفاز معه الصديق بالصحبة، وظهر له من المعجزات الجليلة ما لا يحصى، وغزا الغزوات الشهيرة، وله ﷺ سرايا وبعوث كثيرة؛ وما زال يدعو الخلق إلى الحق إلى أن قبضه الله تعالى في المدينة.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[محل مولده ﷺ المكان المعروف بسوق الليل]

قوله عند قول ابن حجر: والأشهر أنَّ محل مولده ﷺ المكان المعروف بسوق الليل آخر شعب بني هاشم في الدار التي صارت لمحمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج الظالم المشهور، وهو بزقاق المدكدك؛ وكانت قبل ذٰلك بيد عقيل بن أبي طالب. وفي شرح البخاري للقسطلاني من كتاب الحج قيل: إنَّ هٰذه الدار كانت لهاشم بن عبد مناف، ثم صارت لابنه عبد المطلب، فقسمها بين ولده، فمن ثم صار للنبي ﷺ حق أبيه عبد الله.

وكان قد استولى طالب وعقيل على الدار كلها، باعتبار ما ورثوه من أبيهما أبي طالب، لكونهما كانا لم يسلما، أو باعتبار ترك النبي ﷺ لحقه منها بالهجرة. وفقد طالب ببدر، فباع عقيل الدار كلها. اهـ. كلام القسطلاني باختصار.

وقال ابن الأثير: قيل: إنَّ المصطفى ﷺ وهبها له أي لعقيل فلم تزل بيده حتى توفي عنها، فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج.

وقيل: إنَّ عقيلاً باعها بعد الهجرة تبعاً لقريش حين باعوا دور المهاجرين، وذٰلك كما قال الدوودي وغيره: إنَّه كان كل من هاجر من المؤمنين باع قريبه الكافر داره، فأمضى النبي ﷺ تصرفات الجاهلية تأليفاً لقلوب من أسلم منهم.

وقال في «تاريخ الخميس»: أدخل محمد بن يوسف ذٰلك البيت الذي وُلد فيه ﷺ في داره التي يقال لها البيضاء، وهو الآن أي محل مولده ﷺ من الدار المذكورة مسجد يصلى فيه لله تعالى.

قال الداوودي: وهو أفضل بقعة في مكة بعد المسجد الحرام، وهو المسجد المشهور الآن بالمولد عند أهل مكة، يذهبون إليه في كل عام ليلة المولد، ويحتفلون بذٰلك أعظم من احتفالهم بالأعياد. ويقال له: دار خديجة ومولد فاطمة، واشتهر بها لشرفها رضي الله عنها وإلاَّ فهو مولد بقية أخواتها من خديجة رضي الله عنهنَّ. اهـ.

ووقفته الخيزران جارية المهدي أم هارون الرشيد، فإنها حين حجت أفردت ذٰلك البيت وجعلته مسجداً يصلى فيه لله تعالى. وفي «النور» تبعاً للروض.

وأما الدار التي لمحمد بن يوسف فقد بنتها زبيدة يعني زوجة هارون الرشيد مسجداً حين حجت وهي عند الصفا.

قال في «إنسان العيون»: ويجوز أن تكون زبيدة جددت ذٰلك المسجد الذي بنته الخيزران، فنسب لكل منهما، وأنَّ الخيزران بنت دار الأرقم مسجداً وهي عند الصفا أيضاً. ولعل الأمر التبس على بعض الرواة لأنَّ كلا منهما عند الصفا.

وقيل: إنَّه ﷺ وُلد في شعب بني هاشم. وقد يقال: لا مخالفة لأنَّه يجوز أنَّ تلك الدار من شعب بني هاشم. ثم رأيت التصريح بذٰلك، ولا ينافيه ما تقدم في الكلام على الحمل من أنَّه في شعب أبي طالب، وهو من جملة بني هاشم، وهو عند الحجون لأنَّه يجوز أن يكون أبو طالب انفرد عنهم بذٰلك الشعب.

قال ابن حجر في «النعمة الكبرى»: ثم لا زال الخلفاء والسلاطين يتعهدونها بالبناء والتجديد إلى الآن. وكان وراءها بركتان عظيمتان يستقي منهما الحجاج، ثم خربتا؛ ومحلهما ظاهر إلى الآن. ومن الغريب أنَّ مولده ﷺ بِردم بني جمح، سمي به لما ردم فيه من قتلاهم، لما قاتلوا بني محارب بن فهر أي وهو لبني قذار وليس هو الردم المسمى بالمدعى الآن، لأنَّ هذا إنما كان في خلافة عمر رضي الله عنه. اهـ.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[المراضع أعرضن عنه ﷺ ليتمه]

قوله عند قول ابن حجر: فكلهنَّ أي المراضع أعرضنَّ عنه ﷺ وهو طفل ليتمه. اليتيم من لا أب له. وكان ﷺ يحب الأيتام ويحسن إليهم. وإنما جعل الله نبيه ﷺ يتيماً لئلا يسبق إلى قلب بشر أنَّ الذي ناله من العز والشرف والاستيلاء كان عن جلالة أب أو توارث مال أو نحو ذٰلك. اهـ.

وفي الزرقاني، وهنا فائدة حسنة، سئل الحافظ أي ابن حجر عما يقع عن بعض الوعاظ في الموالد في مجالسهم الحافلة، المشتملة على الخاص والعام من الرجال والنساء، من ذكر النبي عليه الصلاة والسلام بما يخل بكمال التعظيم، حتى يظهر للسامعين لها حزن ورقة، فيبقي ﷺ في حيز من يرحم لا من يعظم، كقولهم: لم تأخذه المراضع لعدم ما له، إلاَّ حليمة رغبت في رضاعه شفقة عليه، وإنَّه كان يرعى غنمها وينشدون:

بأغنامه سار الحبيب إلى المرعى ... فيا حبذا راعي فؤادي له مرعى

وفيه: فما أحسن الأغنام وهو يسوقها... وكثير من هذا المعنى المخل بالتعظيم. فأجاب بما نصه: ينبغي لمن يكون فطناً أن يحذف من الخبر ما يوهم في المخبر عنه نقصاً ولا

يضره ذٰلك، بل يجب. هذا جوابه بحروفه نقله السيوطي. اهـ. ونقل بعضهم: إنَّ هذه اللفظة لا تقال إلاَّ في مقام التعليم، بل نص بعض المالكية على أنَّ من قال في المجالس إنَّه ﷺ يتيم يرتد والعياذ بالله تعالى.

وقد حكي إنَّ عالماً منهم قال: إنَّه يتيم بني طالب، فأفتى بعض المغاربة بقتله، فعرض الأمر على الناصر اللقاني، فقال: احصنوا دم هذا الأستاذ بتقليد الإمام الشافعي.

والحمد لله على خلاف العلماء، فإنَّه رحمة للعالمين. وكذا لا يليق أن يقال: إنَّه ﷺ فقير، لأنَّ الجبال راودته عن نفسها أن تكون له ذهباً. فأبى، كما يشير إلى ذٰلك قول صاحب البردة:

وراودتــه الجبــال الشــم مــن ذهــب ... عــن نفســه فــأراهــا أيمــا شمــم

فلا يجوز أن يقال: إنَّه غريب فقير مسكين، بل يجب ذكره ﷺ بالأسماء المعظمة. ومذهب السادة الحنفية: إنَّ سابَّ النبي ﷺ ومنتقصه يكفر ولكن يستتاب؛ فإن تاب وظهر عليه سيما الصلاح ترك، وإن لم يتب يقتل. كما حرره سيدي العم يعني ابن عابدين رحمه الله تعالى في كتاب سماه «تنبيه الولاة والحكام على أحكام شاتم خير الأنام» ﷺ.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[ما حصل من البركة لحليمة]

قوله بعد ذكر ابن حجر ما حصل لحليمة مرضعته ﷺ من البركة وسعة العيش، في حين جدب قومها: فللَّه درها من بركة كثرت بها مواشي حليمة، ونمت وارتفع قدرها به ﷺ وسمت. ولم تزل تتعرف الخير والسعادة، وتفوز منه ﷺ بالحسنى وزيادة:

لقــد بلغــت بــالهــاشمــي حليمــة ... مقــامــاً عــلا فــي ذروة العــز والمجــد

وزادت مــواشيهــا وأخصــب ربعهــا ... وقــد عــمَّ هــذا السعــد كــل بنــي سعــد

وذٰلك إنَّ حليمة قالت: لما دخلت به منزلي لم يبق منزل في منازل بني سعد إلاَّ إلاَّ شموا منه ريح المسك، وألقيت محبته في قلوب الناس، حتى أنَّ أحدهم كان إذا نزل به أذى في جسده أخذ كفه ﷺ فوضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى سريعاً، وكذا إذا فعل ذٰلك ببعير أو شاة.

قال العلامة الداوودي: ولعمري لقد كان لهذا الكف الشريفة صفات جميلة لا تدخل تحت الحصر والعد، ومعجزات كثيرة خارجة عن الحد، كما هو مقرر ومعلوم للأولياء

والخصوم، منها أنّه ﷺ لما مسح بها شاة أم معبد، ولم يكن طرقها فحل قط، فسمى الله تعالى فتفاجت ودرّت، فدعا بإناء يشبع الجماعة، فملأه من حليبها، وسقى القوم حتى رووا.

ثم شرب في آخرهم، ثم حلب فيه مرة أخرى وتركه عندها؛ ومنها تسبيح الحصا بها؛ ومنها نبع الماء من بين أصابعها في عدة مواطن في مشاهد عظيمة، ومنها أنّه ﷺ كان يتوضأ من ركوة فجاؤوه يشتكون العطش، فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه الشريفة كأمثال العيون فتوّضأوا كلهم، وكانوا ألفاً وخمسمائة.

قال جابر: لو كنا مائة ألف لكفانا. فوا لذي ابتلاني ببصري، لقد رأيت العيون عيون الماء تخرج من بين أصابعه ﷺ ومن ذلك إبراؤها المرضى ورد عين قتادة، وغير ذلك مما يطول استيعابه. . . قال: وقد روينا بالإجازة الخاصة والعامة عن بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى أنَّ من فوائد كفه الشريفة ﷺ إنَّ الموجوع أي وجع كان إذا وضع يده على محل الوجع، وقال هذين البيتين يعافي:

أمــررت كفــاً سبحــت فيهــا الحصــا ... وروت الجيــش بمــاء طــاهــر

علــى معــاشــي ومعــادي وعلــى ... ذريتــي وبــاطنــي وظــاهــري

وهما لابن الوردي. ومن فوائدهما أنهما ينشدان صباحاً ومساءً لأجل الحفظ. والله أعلم.

ومن جواهر السيد أحمد عابدين رحمه الله تعالى

[وضع الحجر الأسود]

ما ذكره عند قول ابن حجر «وكان هو ﷺ الواضع للحجر الأسود في محله بيده الشريفة، أي عند بناء قريش الكعبة» قال السيد أحمد عابدين، بعد ذكره: إنَّ الكعبة بنيت مراراً، فالمتحصل من الآثار كما أفاده «الفتح» و«الإرشاد» و«السبل» و«شفاء الغرام» أنّها بنيت عشر مرات. ثم قال: يقول الفقير: وجدت بخط بعضهم إنَّ السلطان مراد بناها أيضاً، وذلك لما ذكره الشيخ محمد بن علان في رسالته التي ألفها في بناء الكعبة، وقد حضر البناء وحقق جميع ما وقع فيه، فذكر أنّه حصل سيل عظيم أسقط من البيت الشريف الجدار الشامي، ومن الجدار الشرقي إلى حد الباب، ومن الغربي نحو ثلثيه.

وكان سقوطه بعيد عصر يوم الخميس العشرين من شعبان، سنة ألف وتسع وثلاثين. وحصل قبل ذلك بسنين عديدة تشقق في الجدار الشامي، ثم ازداد في زمن السلطان أحمد والد

السلطان مراد، فرفع إليه ذٰلك، وأنَّه يحتاج للتعمير؛ فوقع بحث بين علماء القسطنطينية في جواز هدمه، فلم يَرَوْا جوازه.

فأرسل حينئذ السلطان أحمد حزاماً يشد به البيت الشريف، أنفق عليه نحو ثمانين ألف دينار، وهو من جديد عليه صفائح من الذهب والفضة، ووصل لمكة في موسم سنة ألف وعشرين، فحزم به البيت الشريف، واستمر عليه إلى حصول السقط المذكور؛ فوزنت صفائح الذهب التي على حزام الجوانب الثلاثة بعد سقوطها، وهي ما عدا اليماني، فبلغ وزنها عشرة آلاف درهم، كناية عن مائة رطل. وبلغ وزن فضة ذٰلك مائة وأربعة وخمسين رطلاً.

وأما اليماني فلم يقف الشيخ على قدر وزن ما على حزامه، ثم إنَّ شريف مكة أمر بوضع أخشاب تستر المنهدم، وصبغوا ثوباً بالأخضر وألبسوه الكعبة.

وعرف السلطان مراد بالأمر، فأرسل السلطان للعمارة نائباً عنه ومعه آلات العمارة في سفينة، فوصل لمكة سادس عشرين من ربيع الثاني في سنة أربعين وألف، وشرعوا يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة. ثم اتفق رأي المهندس والأعيان على هدم ما بقي من الجدارين واليماني، فهدم كله سوى الحجر الأسود وما حوله من الأحجار، ووجدوا أساس جميع الجدار صحيحاً، فبنوا عليه.

وهذا المدماك غير معدود في مداميك الكعبة، وعدتها في بناء ابن الزبير خمسة وعشرون.

ثم قال المهندس: إنَّ الحجر الذي تحت الحجر الأسود خارج عن سمت الجدار، فأخذ إصبعاً من حديد ليقلع به ما على أطرافه من فضة وحديد، فاتكأ به في وسطه؛ فإذا بقطع وجه الحجر الأسود انقشرت عما تحتها، وتفارقت فيما بينها، وكادت تسقط. ففزع الحاضرون، ورأوا ذٰلك منعاً من إخراجه، فجعل فوق الحجر الأسود حجراً يعانقه يكون عليه مدار العمل، وردوا الحجر الذي كان تحت الحجر الأسود بقبلته في محله.

قال الشيخ: ولون ما انقشر من الحجر الأسود أبيض بياض حجر المقام، وتم العمل يوم الأربعاء سابع العشرين من شهر رمضان قبل العصر، سنة أربعين وألف.

وذكره العلامة الشيخ أحمد بن محمد الأسدي الشافعي المكي في كتابه «انتخاب أخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام» قال السيد أحمد عابدين: انتهى ما رأيته يعني من كلام ابن علان قال: ثم رأيت رسالة للعلامة فقيه النفس، الشيخ حسن الشرنبلالي في هذا البناء المذكور، سماها «إسعاد آل عثمان الكرام، ببناء بيت الله الحرام».

ومن جواهر السيد أحمد عابدين

[لما بلغ أربعين سنة]

قوله عند قول ابن حجر: ثم لما بلغ ﷺ أربعين سنة، أرسله الله رحمةً للعالمين: أي أرسله رحمةً مطلقة تامة كاملة، عامة شاملة، جامعة محيطة بجميع العالمين، ذوي العقول وغيرهم من عالم الأرواح والأجسام... ومن كان رحمةً للعالمين، لزم أن يكون أفضل من كل العالمين. وعبارة ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] خطاب للنبي ﷺ فقط وإشارته خطاب لكل واحد من ورثته الذين هم على مشربه إلى يوم القيامة، بحسب كونه مظهراً لإرثه ﷺ وقال بعض الكبار: إنما كان ﷺ رحمةً للعالمين بسبب اتصافه بالخلق العظيم، ورعايته المراتب كلها في محالها؛ كالملك، والملكوت، والطبيعة، والنفس، والروح، والسر...

وقال في «التأويلات النجمية» في سورة مريم، بين قوله تعالى: ﴿وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ﴾ [مريم:٢١] في حق عيسى عليه السلام وبين قوله في حق نبينا ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فرق عظيم، وهو أنَّه في حق عيسى عليه السلام ذكر الرحمة مقيدة بحرف من؛ ومن للتبعيض، فلهذا كان رحمةً لمن آمن به واتبع ما جاء به، إلى أن يبعث نبينا ﷺ ثم انقطعت الرحمة من أمته بنسخ دينه عليه السلام وفي حق نبينا ﷺ ذكر الرحمة للعالمين مطلقة، فلهذا لا تنقطع الرحمة عن العالمين أبداً.

أما في الدنيا فبأن لا ينسخ دينه ﷺ وأما في الآخرة فبأن يكون الخلق محتاجين إلى شفاعته، حتى إبراهيم عليه السلام وقال بعض العلماء: إنَّ لكل نبي مقدمة للعقوبة لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء:١٥] ونبينا عليه الصلاة والسلام كان مقدمة للرحمة لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وأراد الله تعالى أن يكون خاتمته على الرحمة لا على العقوبة تعالى: «سبقت رحمتي غضبي». ولهذا جعلنا آخر الأمم.

فابتداء الوجود رحمة، وآخره وخاتمته رحمة. اهـ. واعلم أنَّه لما تعلقت إرادة الحق بإيجاد الخلق أبرز الحقيقة الأحمدية من كمون الحضرة الأحدية، فميزه بميم الإمكان، وجعله رحمةً للعالمين، وشرف به نوع الإنسان، بل جميع العالمين.

ثم انبجست منه عيون الأرواح، ثم بدا ما بدا في عالم الأجساد والأشباح، كما قال عليه الصلاة والسلام: «أنا من الله، والمؤمنون من فيض نوري» فهو الغاية الجليلة من ترتب الكائنات، كما قال تعالى في الحديث القدسي: «لولاك ما خلقت الأفلاك» فيكفيه ﷺ بهذا

شرفاً وفضلاً؛ وإنما خلق الله الخلق وبعث الأنبياء والرسل ليكونوا مقدمة لظهوره ﷺ في عالم الملك والشهادة. فأرواحهم وأجسادهم تابعة لروحه الشريفة وجسمه اللطيف، فبه تم وكمل سعدهم.

واعلم أنَّ حياته عليه الصلاة والسلام رحمةً ومماته رحمةً، كما قال ﷺ: «حياتي خير لكم، ومماتي خير لكم» . قالوا: هذا خيرنا في حياتك. فما خيرنا في مماتك؟ قال: «تعرض عليّ أعمالكم كل عشية الإثنين والخميس، فما كان من خير حمدت الله تعالى، وما كان من شر استغفرت الله لكم» . اهـ. كلام ابن عابدين.

ومنهم الإمام العلامة شمس الدين محمد بن يوسف الدمشقي الصالحي[١]؛ نزيل البرقوفية بصحراءِ مصر القاهرة، المتوفى سنة ٩٤٢ هـ صاحب السيرة الشامية وتلميذ السيوطي

فمن جواهره رضي الله عنه

[المعراج الكبير]

كتابه المعراج الكبير، الذي سماه «الآيات العظيمة الباهرة في معراج سيد أهل الدنيا والآخرة». ولم أر في المعاريج أجمع وأنفع منه، وكل من جاء بعده كالغيطي والأجهوري، فإنما أخذ وأجل فوائدهم عنه.

وقد اختصرته بإثبات فوائده، وحذف ما لا ضرورة له في شؤون المعراج، سالكاً سبيل الاعتدال على أقرب طريق وأحسن منهاج؛ وسميته «المنهاج السامي، مختصر المعراج الشامي» وأبقيت خطبته على حالها. وهذا هو المختصر:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم دائماً. الحمد لله الذي رفع سيد خلقه إلى أعلى مقامات السعادة، وأسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى معدن الأنبياء الأجلة القادة؛ فقدمه جبريل، فصلى بهم في دارهم ومحلهم ليعلم أنّه الإمام الأعظم وصاحب الفضل والسيادة، ثم رقى السبع الطباق وظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام بما قدره الحق وأراده، ورأى من عجائب الملكوت، وعظائم الجبروت، ما شرح الله به صدره وثبت فؤاده، وتجلى له وخاطبه بما شاء وأعطاه سؤله وجعل قرة عينه في العبادة. ثم أرسله إلى الأرض بخلع التشريف والتكريم ليبلغ عنه المكلفين مراده. وأشهد أن لا إلٰه إلاّ الله وحده لا شريك له عالم الغيب والشهادة، وأشهد أنَّ سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبيبه الذي رحم

(١) هو محمد بن يوسف شمس الدين الشامي من الشافعية محدث، عالم بالتاريخ توفي سنة ٩٤٢ هـ.

بمبعثه عباده. ﷺ وعلى آله وأصحابه الذين جبلتهم للخير منقادة.

أما بعد، فلما منَّ الله تعالى بفراغي من كتاب «سبيل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد» المنتخب من أكثر من ثلاثمائة كتاب، الآتي من الفوائد بالعجب العجاب؛ وقد زادت أبوابه على ألف وستمائة باب. والله الموفق للصواب. سنح لي أن أقتضب منه قصة المعراج، وما أبداه العلماء فيها من محاسن الفوائد، ونفائس الفرائد. وألخص الكلام على ذلك في سبعة عشر باباً. الباب الأول في بعض فوائد أول سورة الإسراء، الباب الثاني في بعض فوائد أول سورة النجم، الباب الثالث في اختلاف العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج، الباب الرابع في أيّ زمان ومكان وقع الإسراء به ﷺ الباب الخامس في كيفية الإسراء برسول الله ﷺ وهل تكرر أم لا؟ الباب السادس في رفع شبهة أهل الزيغ في استحالة الإسراء والمعراج، الباب السابع في الكلام على شق بطنه الشريف تلك الليلة، الباب الثامن في الكلام على خاتم النبوة ومتى وضع؟ الباب التاسع في الكلام على بعض فضائل جبريل عليه السلام، الباب العاشر في الكلام على البراق، الباب الحادي عشر في الكلام على بعض فضائل البيت المقدس، الباب الثاني عشر في الكلام على رؤية الأنبياء ليلة الإسراء، الباب الثالث عشر في معرفة الصحابة الذين رووا القصة، الباب الرابع عشر في سياق القصة، الباب الخامس عشر في الكلام على بعض فوائدها وشرح مشكلها، الباب السادس عشر في تخريج أحاديثها، الباب السابع عشر في التنبيه على بعض أحاديث موضوعة افتراها في المعراج من لا خلاق له، وتداولها جماعة لا خبرة لهم بعلم الحديث، فتعين ذكرها لتحذر.

واعلم أني لم أذكر في هذا الكتاب حديثاً موضوعاً البتة، إلاّ ما نبهت عليه. وحيث أطلقت القاضي، فالمراد به الحافظ شيخ السنة أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي؛ أو أطلقت الحافظ، فالمراد به شيخ الإسلام وقدوة الحفاظ أبو الفضل أحمد بن علي ابن حجر؛ أو اطلقت الشيخ، فالمراد به الحافظ شيخ الإسلام خاتمة الحفاظ أبو الفضل جلال الدين ابن أبي بكر السيوطي رحمهم الله تعالى وجعل مقرهم دار السلام.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[تفسير أول سورة الإسراء]

قوله في الباب الأول، الذي تكلم فيه على تفسير أول سورة الإسراء: أجمع المسلمون على أنّ المراد بالعبد في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١] هو سيدنا محمد رسول الله ﷺ قال شيخ الإسلام زكريا الأنصاري

رحمه الله تعالى في فتح الرحمٰن قال تعالى: «بعبده» دون نبيه أو حبيبه، لئلا تضل أمته ﷺ أو لأنَّ وصفه بالعبودية المضافة إلى الله تعالى أشرف المقامات.

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله تعالى: ليس للمؤمن من صفة أتم ولا أشرف من العبودية؛ ولهذا أطلقها الله تعالى على نبيه ﷺ في أشرف المواطن، بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]. قال الشيخ عبد الباسط البلقيني رحمه الله تعالى: ومن هنا يؤخذ الجواب عن وصفه ﷺ بذٰلك، ووصف يحيى عليه السلام بالسيادة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ [آل عمران: ٣٩]. أنشد الأستاذ أبو القاسم القشيري:

يـا قـوم قلبـي عنـد زهـراء ... يعـرفـه السـامـع والـرائـي
لا تـدعنـي إلاَّ بيـا عبـدهـا ... فـإنَّـه أشـرف أسمـائـي

قال الطوفي رحمه الله تعالى: والسبب في ذٰلك أنَّ الإلٰهية والسيادة والربوبية إنما هي في الحقيقة لله عزَّ وجل لا غير، والعبودية لمن دونه، فإذا كان في مقام العبودية، فهو في رتبته الحقيقية؛ والرتب الحقيقية أشرف المقامات، إذ ليس بعد الحقيقة إلاَّ المجاز، ولا بعد الحق إلاَّ الضلال.

وقال البرهان النسفي رحمه الله تعالى قيل: لما وصل النبي ﷺ الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعراج، أوحى الله تعالى إليه: يا محمد بم أشرفك؟ قال: يا رب بنسبتي إلى نفسك بالعبودية، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١] الآية. وأقوال القوم في العبد والعبودية كثيرة الألفاظ مختلفة، ومعانيها متقاربة، وكل أحد يتكلم بلسان حاله على قدر مقامه؛ فقال أبو حفص النيسابوري رحمه الله تعالى: العبد هو القائم بأوامر الله سيده على حد النشاط، حيث جعله محل أمره.

وقال ابن عطاء رحمه الله تعالى: العبد الذي لا ملك له. وقال الجريري، بفتح الجيم: حقيقة العبد هو الذي يتخلق بأخلاق ربه. وقال رويم رحمه الله تعالى: يتحقق العبد بالعبودية إذا سلم القياد من نفسه إلى ربه، وتبرأ من حوله وقوته، وعلم أنَّ الكل له وبه.

وقال عبد الله بن محمد رحمه الله تعالى حزت صفة العبودية إن كنت لا ترى لنفسك ملكاً، وتعلم أنَّك لا تملك لها نفعاً ولا ضراً.

وكنت قديماً أطلب الوصل منهمُ ... فلما أتاني العلم وارتفع الجهل
تيقنـت أنَّ العبـد لا طلـب لـه ... فإن قربوا فضل وإن أبعدوا عدل

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم   وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وقال الإمام الرازي: دل قوله تعالى: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١] على أنَّ الإسراء كان بجسد رسول الله ﷺ لأنَّ العبد اسم للجسد والروح. قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩ - ١٠]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن:١٩] قوله: «ليلاً» قال الحافظ ابن حجر ليلاً ظرف للإسراء، وهو للتأكيد، أي لأنَّ الإسراء لا يكون إلاَّ ليلاً. ويؤخذ من قول الإمام البلقيني في مدح النبي ﷺ:

أولاك رؤيته في ليلة فضلت   ليالي القدر فيها الرب رضاكا

إنَّ ليلة الإسراء أفضل من ليلة القدر. قال في «الاصطفاء»: ولعل الحكمة في ذٰلك اشتمالها على رؤيته تعالى التي هي أفضل كل شيء، ولذا لم يجعلها ثواباً عن عمل من الأعمال مطلقاً، بل من بها على عباده يوم القيامة تفضلاً منه تعالى.

وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١] قال أبو شامة: وهو ضد الحلال، وذٰلك لما منع المحرم مما يجوز لغيره، ولما منع في الحرم مما يجوز في غيره من البلاد. قال الماوردي في كتاب «الجزية» من حاوية كل موضع»: ذكر الله تعالى المسجد الحرام، فالمراد به الحرم إلاَّ في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤]، فإنَّه أراد به الكعبة.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى لفظ المسجد الحرام في الأصل حقيقة الكعبة فقط، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦]، ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٤٤]، وبقوله ﷺ لما سأله أبو ذر عن أول مسجد وضع في الأرض، فقال: المسجد الحرام. واستعمله بعد ذٰلك في المسجد المحيط بالكعبة في قوله: صلاة في المسجد الحرام بكذا وكذا.

صلاة على وجه التغليب المجازي، وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء:١] على قول من يقول المراد به مكة، لأنَّه كان في بيت أم هانئ؛ وفي دور مكة: والحرم حولها في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٩٦]. كل ذٰلك من باب التغليب المسوغ للمجاز الموسع فيه، والإلزام الاشتراك في وضع لفظ المسجد الحرام. والمجاز أولى منه، وكيف يقال بالاشتراك والفهم يتبادر عند الإطلاق إلى الكعبة أو إليها مع المسجد وحولها، ولا يتبادر إلى مكة مطلقاً إلاَّ بقرينة. وقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١].

قال البرهان النسفي: اتفقوا على أنَّ المراد به مسجد البيت المقدس، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام. وقال الزمخشري: سمي الأقصى لأنَّه لم يكن وراءه

مسجد. وقال ابن الفقيه: وهو معدن الأنبياء من لدن الخليل عليه وعليهم الصلاة والسلام ولذا جمعوا له ﷺ هناك كلهم وأمهم في محلهم، ليدل ذٰلك على أنه الرئيس المقدم والإمام الأعظم ﷺ وقال أبو شامة: هو بيت المقدس الذي عمره سليمان نبي الله عليه السلام بأمر الله عزَّ وجل وما زال مكرماً محترماً. وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال شرعاً إلاَّ إليها، أي لا يقصد بالزيارة والتعظيم من جهة أمر الشارع إلاَّ هذه الثلاثة من المساجد.

وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة.

وقال ابن أبي جمرة: والحكمة في إسرائه ﷺ أولاً إلى بيت المقدس لإظهار الحجة على من عاند، لأنَّه لو عرج به من مكة إلى السماء لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح. فلما ذكر أنَّه أسري به إلى بيت المقدس، سألوه عن أشياء من بيت المقدس كأنوار رأوها، وعلموا أنَّه لم يكن رآها قبل ذٰلك، فلما أخبرهم بها حصل التحقيق بصدقه بما ذكر من إسرائه إلى بيت المقدس في ليلة.

وإذا صح خبره في ذٰلك، لزم تصديقه في بقية ما ذكره. اهـ. وقيل: ليحصل له العروج مستوياً من غير تعويج، لما روي عن كعب أنَّ باب السماء الذي يقال له مصعد الملائكة يقابل بيت المقدس. قال: وهو أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. قال الحافظ ابن حجر: وفيه نظر. وقيل ليجمع بين القبلتين، لأنَّ لبيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء، فحصل له الرحيل إليه ليجمع بين أشتات الفضائل ﷺ.

وقيل: لأنَّه محل المحشر، فأراد الله تعالى أن يطأه قدمه ليسهل على أمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أثر قدمه الشريف ﷺ، وقيل: أراد الله سبحانه وتعالى أن يريه القبلة التي صلى إليها مدة. وقيل: لأنَّه مجمع أرواح الأنبياء، فأراد الله تعالى أن يشرفهم بزيارته ﷺ، وقيل: ليحصل له التقديس حساً ومعنى.

وقال ابن دحية: ويحتمل أن يكون الحق سبحانه وتعالى أراد أن لا يخلي تربة فاضلة من مشهده ووطء قدمه الشريف، فتمم تقديس بيت المقدس بصلاة سيدنا محمد ﷺ فيه.

فلما تمم تقديسه به، أخبر ﷺ أنَّه لا تشد الرحال إلاَّ إلى الثلاثة مساجد: المسجد الحرام لأنَّه مولده ومسقط رأسه وموضع نبوته ﷺ ومسجد المدينة لأنَّه محل هجرته وأرض تربته ﷺ والمسجد الأقصى لأنَّه موضع إسرائه ومعراجه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء:١]. أراد البركة الدنيوية، كالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وقيل: أراد البركة الدينية، فإنَّه مقر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

ومتعبدهم ومهبط الوحي والملائكة. وإنما قال: ﴿بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] لتكون بركته أعم وأشمل، فإنَّه أراد بما حوله ما أحاط به من أرض الشام، وما قاربه منها، ولأنَّه إذا كان هو الأصل وقد بارك في لواحقه وتوابعه من البقاع، كان هو مباركاً فيه بالطريق الأولى.

وقيل: أراد البركة الدينية والدنيوية. وقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١]. وهي ما رآه ﷺ تلك الليلة من العجائب والآيات الدالة على قدرة الله تعالى، ومنها ما ذكر في قصة المعراج.

قال أبو شامة: ومن هنا للتبعيض، وإنما أتى بها هُهنا تعظيماً لآيات الله تعالى؛ فإنَّ هذا الذي رآه محمد ﷺ وإن كان جليلاً عظيماً فهو بعض بالنسبة إلى جملة آيات الله تعالى، وعجائب قدرته، وجليل حكمته. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

قال الشمني: الصحيح أنَّ الضمير في «أنَّه» لله تبارك وتعالى. وقال الطيبي: ولا يبعد أن يرجع الضمير إلى العبد، كما نقله أبو البقاء عن بعضهم. قال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ [الإسراء: ١] لكلامنا ﴿ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] لذاتنا.

وأما توسط ضمير الفعل، فللإشعار باختصاصه بهذه الكرامة وحده. ولعل السر في مجيء الضمير محتملاً للأمرين الإشارة إلى المطلوب، وأنَّه ﷺ إنما رأى رب العزة به وسمع كلامه به.

وقال الماوردي: فيه وجهان: أحدهما: أنَّه تعالى وصف نفسه بهما، وإن كانا من صفاته اللازمة لذاته في الأحوال كلها، لأنَّه حفظ به في ظلمة الليل وسمع دعاءه، فأجابه إلى ما سأل.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[تفسير أول سورة النجم]

قوله في الباب الثاني الذي تكلم فيه على تفسير أول سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] فيه وجوه: الأول وهو أشهرها أنَّ جبريل دنا من النبي ﷺ أي بعدما مد جناحه وهو بالأفق الأعلى، عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها، وقرب من النبي ﷺ وقال القرطبي: أي دنا جبريل من النبي ﷺ بعد استوائه بالأفق الأعلى من الأرض، فتدلى على النبي ﷺ والمعنى أنَّه لما رأى النبي ﷺ من عظمة جبريل ما رأى، وهاله ذٰلك، رده الله تعالى إلى صورة آدمي حتى قرب من النبي ﷺ بالوحي. هذا قول الجمهور. والدنوّ والتدلي بمعنى

واحد، وفيه أقوال أخرى. ومعنى «فكان قاب قوسين» قال الإمام الرازي: فكان بين جبريل ومحمد ﷺ مقدار قوسين أو أقل.

وهذا على استعمال العرب وعادتهم، فإنَّ الأميرين منهم أو الكبيرين إذا اصطلحا وتعاقدا خرجا بقوسيهما، وجعل كل منهما قوسه بطرف قوس صاحبه.

ومن دونهما من الرعية يكون كفه بكف صاحبه، فيمدان باعيهما؛ لذٰلك تسمى مبايعة.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[رؤية النبي ﷺ لربه]

قوله في الباب الثالث الذي تكلم فيه على رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج. قال النووي الراجح: إنَّ رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة المعراج.

والمراد بالإدراك في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣]. الإحاطة والله تعالى لا يحاط به. وإذا ورد النص بنفي الإحاطة، لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[زمان ومكان وقوع الإسراء به ﷺ]

قوله في الباب الرابع الذي تكلم فيه على زمان ومكان وقوع الإسراء: إنَّ مكانه الحجر وزمانه بعد البعثة قبل الهجرة بسنة.

وجرى عليه الإمام النووي، وبالغ ابن حزم فقال: فيه الإجماع. وقال القاضي عياض: قبل الهجرة بخمس سنين، واختلفوا في أي الشهور كان، فجزم ابن الأثير وجمع منهم النووي في فتاويه بأنَّه كان في ربيع الأول ليلة سبع وعشرين، ونقله الأسنوي في «المهمات»، والأذرعي في «الوسيط»، والزركشي في «الخادم»، والدميري في «حياة الحيوان» وغيرهم... وقيل: كان في رجب، وجزم به النووي في الروضة تبعاً للرافعي. وقيل: في رمضان، وقيل: في شوال.

وقال ابن عطية بعد أن حكى الخلاف: والتحقيق أنَّه كان بعد شق الصحيفة وقبل بيعة العقبة.

وقال ابن دحية: ويمكن أن يعين اليوم الذي أسفرت عنه تلك الليلة ويكون يوم الاثنين وذكر الدليل على ذٰلك بمقدمات حساب من تاريخ الهجرة وحاصل الأمر أنَّه استنبطه، وحاول

موافقته كون المولد يوم الاثنين، وكون المبعث يوم الإثنين، وكون الهجرة يوم الإثنين، وكون الوفاة يوم الإثنين قال: فإنَّ هذه أطوار الانتقالات النبوية وجوداً ونبوة ومعراجاً وهجرة ووفاة، فهذه خمسة أطوار، فيكون يوم الإثنين في حقه ﷺ كيوم الجمعة في حق آدم عليه السلام فيه خلق، وفيه أنزل إلى الأرض، وفيه تاب الله عليه، وفيه مات. وكانت أطواره الوجودية والدينية خاصة بيوم واحد . اهـ.

وروى ابن أبي شيبة، عن جابر وابن عباس أنهما قالا: ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين، وفيه بعث، وفيه عرج إلى السماء، وفيه مات. وقولهما: «وفيه عرج إلى السماء» أرادا الليلة، لأنَّ الإسراء كان بالليل اتفاقاً.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[كيفية الإسراء به ﷺ]

قوله في الباب الخامس، الذي تكلم فيه على كيفية الإسراء برسول الله ﷺ وهل تكرر أم لا؟ اعلم أنَّه لا خلاف في صحة الإسراء به ﷺ إذ هو نص القرآن على سبيل الإجمال. وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه أحاديث كثيرة منتشرة عن جماعة من الصحابة.

وإنما الخلاف في كيفية الإسراء، فاختلف العلماء في ذٰلك على أقوال أصحها وهو قول الأكثر إنَّه كان بالروح والجسد معاً، يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس إلى السمٰوات العلا إلى سدرة المنتهى إلى حيث شاء العليُّ الأعلى.

قال القاضي عياض وغيره: وهو الحق، وعليه تدل الآية نصاً. وصحيح الأخبار إلى السموات استفاضة، ولا يعدل عن الظاهر من الآية والأخبار الواردة فيه، ولا عن الحقيقة المتبادرة إلى الأذهان من ألفاظهما إلى التأويل، إلاَّ عند الاستحالة وتعذر حمل اللفظ على حقيقته، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة تؤذن بتأويل، إذ لو كان مناماً لقال: سبحان الذي أسرى بروح عبده. ولم يقل بعبده والعبد حقيقة هو الروح والجسد، ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] أي ما عدل عن رؤية ما أمر برؤيته من عجائب الملكوت، وما جاوزها بصراحة ظاهرة في كونه بجسده يقظة، لأنَّه أضاف الأمر إلى البصر، وهو لا يكون إلاَّ يقظة بجسده بشهادة ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٨]. ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة تورث صدقه، وإن كانت رؤيا الأنبياء وحياً، إذ ليس فيها من الأبلغية وخرق العادة ما فيها يقظة، وأيضاً لو كان مناماً لما استبعده الكفار ولا كذبوه، ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به، لبعده عن ساحة العادة ووقوعه في

زمن يستبعد فيه جداً، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن منهم ذلك الاستبعاد والتكذيب والارتداد والافتتان، إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته.

وقد روى البخاري في باب الإسراء من صحيحه، وسعيد بن منصور في سننه، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء. زاد سعيد: وليست رؤيا منام. قال الحافظ ابن حجر: إضافة الرؤيا للعين للاحتراز عن رؤيا القلب.

وقد أثبت الله تعالى رؤيا القلب في القرآن بقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] ورؤيا العين بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

وجزم بما قاله ابن عباس: إنها رؤيا عين ليلة الإسراء. مجاهد وسعيد بن جبير والحسن ومسروق أو إبراهيم وقتادة وعبد الرحمٰن بن زيد وغير واحد، وهو الصحيح.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[رفع شبهة أهل الزيغ في استحالة المعراج]

قوله في الباب السادس، الذي تكلم فيه على دفع شبهة أهل الزيغ في استحالة المعراج: اعلم أنَّ الإسراء كان برسول الله ﷺ لم يخالف في وقوعه أحد من المسلمين، وإنما طعن فيه أهل الزيغ لشبه باطلة.

وقد تصدى الإمام الرازي وغيره للرد عليهم، وأنا مورد تلك الشبه، ثم أتبعها بالرد. قال أهل الزيغ والضلال. قبحهم الله تبارك وتعالى: الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة، ولو أصعد إلى السمٰوات لوجب خرق الأفلاك، وذلك محال.

وصعود الجرم الثقيل إلى السمٰوات غير مقبول. ولأنَّ هذا المعنى لو صح، لكان أعظم من سائر معجزاته، وكان يجب أن يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه من ادعاء النبوة. وأما أن يحصل ذلك في وقت لا يراه أحد ولا يشاهده، فإنَّ ذلك يكون عبثاً لا يليق بالحكيم.

والجواب عن الأول: إنَّ الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد ممكنة في نفسها، والله قادر على ذلك. ويدل على صحته أنَّ الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدور، وثبت في الهندسة أنَّ نسبة القطر إلى نصف الدور نسبة الواحد إلى ثلاثة وسبع. فبتقدير أنَّ رسول الله ﷺ ارتفع من مكة إلى ما فوق الفلك الأعظم، فهو لم يتحرك إلاَّ

مقدار نصف القطر. فلما حصل في ذٰلك القطر من الزمان نصف الدور؛ كان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أولى بالإمكان. فهذا برهان قاطع على أنَّ الإرتفاع من مكة إلى ما فوق العرش في مقدار ثلث الليل أمر ممكن في نفسه.

وإذا كان كذٰلك، كان حصوله في كل الليل أولى بالإمكان. وأيضاً ثبت في الهندسة أنَّ قرص الشمس يساوي كرة الأرض بمائة وستين مرة، وكذا كذا مرة.

ثم إنَّا نشاهد طلوع القرص يحصل في زمان لطيف سريع، فدل على أنَّ بلوغ الحركة في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن في نفسه؛ فإن كان الكلام مع من لا يعرف الهندسة، فنقول له: أنت تشاهد الشمس والقمر والنجوم تقطع من الشروق إلى الغروب مسافة لا يقدر على قطعها في أعوام كثيرة. وأيضاً فقد كانت الرياح تسير لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات اليسيرة.

قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبا:١٢] والحس يدل على ذٰلك، وهو أنَّ الرياح تنفذ عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة. وقد أحضر الذي عنده علم من الكتاب كرسي بلقيس من أقصى اليمن إلى أرض الشام في مقدار لمح البصر. والأجسام متماثلة في تمام ماهياتها؛ فلما حصل مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام، وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام. فهي ممكنة، والله تعالى قادر على حصولها في جسد النبي ﷺ.

والجواب عن الثاني: وهو خرق الأفلاك، فليس بمحال. وقد منعته النفاة للجنَّة والنار. قال الشيخ سعد الدين ادعاء استحالة المعراج باطل، لأنَّه إنما ينبني على أصول الفلاسفة من امتناع الخرق والالتئام على السمٰوات، وإلاَّ فالخرق والالتئام على السمٰوات واقع عند أهل الحق. والأجسام العلوية والسفلية متماثلة مركبة من الجواهر الفردة المتماثلة، يصح على كل من الأجسام ما يصح على الآخر ضرورة التماثل المذكور.

فإذا أمكن خرق الأجسام السفلية، أمكن خرق الأجسام العلوية. والله تعالى قادر على الممكنات كلها، فهو قادر على خرق السمٰوات؛ وقد ورد به السمع فيجب تصديقه.

والجواب عن الثالث: أنه كان يستبعد صعود الجسم الكثيف، يستبعد نزول الجسم اللطيف الروحاني عن العرش إلى مركز العالم فإن كان القول بمعراج النبي ﷺ، في الليلة الواحدة ممتنعاً في القبول، كان القول بنزول جبريل عليه السلام من العرش إلى مكة في اللحظة الواحدة ممتنعاً. ولو حكمنا بهذا الامتناع، كان ذلك طعناً في نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والقول بثبوت المعراج فرع عن تسليم جواز أصل النبوة، فيلزم القائل بامتناع

حصول هذه الحركة امتناع نزول جبريل عليه السلام ولما كان ذلك باطلاً، كان ما ذكروه باطلاً.

والجواب عن الرابع: أن في كونه ليلاً فوائد منها ليزداد الذين آمنوا إيماناً بالغيب، وليفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ومنها أنه وقت الخلوة والاختصاص عرفاً بين جليس الملك نهاراً وجليسه ليلاً فرقاً واضحاً:

الليل لي ولأحبابي أنادمهم قد اصطفيتهم كي يسمعوا ويعوا

وقد أخبر النبي ﷺ بالعلامات التي تفيد اليقين من وصف بيت المقدس، ووصف العير التي مر بها في طريقه، وأنها تصل إليهم في وقت كذا. فكان كما قال، ومع ذلك قالوا: هذا سحر مبين، فلا فرق بين أن يريهم ذلك نهاراً، أو بين أن يخبرهم مخبر يفيد اليقين. وقد أراهم النبي ﷺ انشقاق القمر، فقالوا: هذا سحر مستمر.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[شق صدره]

قوله في الباب السابع، الذي تكلم فيه على شق صدره الشريف ﷺ. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] قال البيضاوي: ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق. أو لم نفسحه بما أودعنا فيه من الحكم وأزلنا عنه ضيق الجهل، أو بما يسرنا لك من تلقي الوحي بعدما كان يشق عليك.

وقيل: إنه إشارة إلى ما روي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ. في صباه أو يوم أخذ الميثاق، واستخرج قلبه فغسله، فملأه إيماناً وعلماً، ولعله إشارة إلى نحو ما سبق. انتهى كلام البيضاوي. ومراده بيوم أخذ الميثاق يوم بعث ونبي ﷺ ثم قال الحافظ الشامي: وقد تكرر شق صدره الشريف ﷺ أربع مرات:

المرة الأولى: هو صغير في بني سعد. روى البيهقي، عن إبراهيم ابن طهمان، قال: سألت سعداً عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١] فحدثني به عن قتادة، عن أنس قال: شق بطنه من عند صدره إلى أسفل بطنه، واستخرج منه قلبه إلى آخره. وروى الإمام أحمد ومسلم، عن أنس رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه وصرعه، فشق عن قلبه، واستخرج القلب. ثم شق القلب، فاستخرج منه عقله، فقال:

هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ظهب بماء زمزم، ثم لأمه وأعاده مكانه. وجعل الغلمان ينعون إلى أمه يعني مرضعته فقالوا: إن محمداً قد قتل.

فجاء وهو ممتقع اللون. قال أنس: فلقد كنت أرى المخيط بصدره ﷺ ممتقع اللون، أي متغير اللون. والمخيط: ما يخاط به.

وروى الإمام أحمد، والدارمي، والحاكم، وصححه الطبراني والبيهقي وأبو نعيم، عن ابن عبد السلمى رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «كانت حاضنتي من بني سعد ابن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا، ولم نأخذ معنا زاداً. فقلت: يا أخي اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا. وانطلق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طيران كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال: نعم. وأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني للقفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فاستخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه ائتني بماء ثلج، فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء برد، فغسلا به قلبي. ثم قال: ائتني بالسكينة، فذراها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: حصه. فحصاه وختم عليه بخاتم النبوة»[1] وذكر الحديث. البهم: جمع بهيمة، وهي الصغير من أولاد الغنم. وحُصه بحاء مضمومة أي خطة.

المرة الثانية: وهو ﷺ ابن عشر سنين. روى عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند بسند رجاله ثقات وابن حبان والحاكم وأبو نعيم وابن عساكر والضياء في «المختارة»، عن أبي بن كعب أن أبا هريرة قال: يا رسول الله، ما أول ما ابتدأت به من أمر النبوة؟ قال: إني لفي صحراء ابن عشر حجج، إذا أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فأخذاني فاستقبلاني بوجوه لم أرها بخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط. فأقبلا إليَّ يمشيان حتى أخذ كل منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مساً. فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه فأضجعاني بلا قصر ولا هصر.[2] وفي لفظ: فلصقاني لحلاوة القفا. ثم شقا بطني، وفي لفظ، ، فقال: أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فجرى أحدهما إلى صدري، فقلعه. فيما أرى بلا دم ولا وجع، وكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب، والآخر يغسل جوفي، وفي رواية: فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره. فإذا صدري فيما أرى مفلوقاً، لا أجد له وجعاً. ثم قال: شق قلبه، فشق قلبي. فقال: أخرج الغل والحسد منه، فأخرج شبه العلقة فنبذ به، ثم قال: ادخل الرأفة والرحمة قلبه، فأدخل شيئاً كشبه القصة، ثم أخرج ذروراً

---

(١) رواه الدارمي في السنن (١: ٨). والحاكم في المستدرك (٢: ٦١٦). وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١: ٣٧٢).

(٢) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة (١: ٧١).

كان معه، فذره عليه، ثم نقر إبهامي، ثم قال: اغدوا واسلم، فرجعت بما لم أعد به من رحمتي للضعيف ورقتي على الكبير. «الحِجَجُ السنون»، «والأرواح» جمع ريح بمعنى الرائحة. و«بلا قصر»: قصرت الثوب: أرخيته، أي بلا استرخاء. «ولا هصر» هصرة: ثناه إلى الأرض. و«حلاوة القفا» بتثليث الحاء: وسط القفا «والقصة» الجص الأبيض.

المرة الثالثة: عند البعثة. روى أبو داود والطيالسي والحارث ابن أبي أسامة في مسنديهما، والبيهقي وأبو نعيم كلاهما في «الدلائل»، عن عائشة رضي الله عنها إن النبي ﷺ نظر أن يعتكف شهراً هو وخديجة، فوافق ذلك شهر رمضان، فخرج ذات ليلة فسمع: السلام عليك. قال: «فظننتها فجأة الجن فجئت مسرعاً، حتى دخلت على خديجة، فقالت: ما شأنك؟ فأخبرتها، فقالت: أبشر السلام خير. ثم خرجت مرة أخرى، فإذا أنا بجبريل جناح له بالمشرق وجناح له بالمغرب، فهلت منه، فجئت مسرعاً، فإذا هو بيني وبين الباب، فكلمني حتى أنست منه. ثم وعدني وعداً، فجئت له فأبطأ عليَّ، فأردت أن أرجع، فإذا أنا به وبميكائيل قد سدا الأفق فيهبط جبريل، وبقي ميكائيل بين السماء والأرض، فأخبرني جبريل، فألقاني لحلاوة القفا، ثم شق عن قلبي فاستخرجه، ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج. ثم غسله في طست من ماء زمزم، ثم أعاده مكانه، ثم لأمه ثم أكفأني كما يكفأ الإناء، ثم ختم في ظهري حتى وجدت حس الخاتم. فذكر الحديث الفجأة البغتة. وهلت منه أي خفت. والأفق الناحية. وحلاوة القفا وسط القفا. وأكفأني قلبني».

المرة الرابعة: ليلة الإسراء. روى مسلم والبرقاني وغيرهما، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أتيت وأنا في أهلي، فانطلق بي إلى زمزم فشُرح صدري. ثم أتيت بطست من ذهب ممتلئاً إيماناً وحكمة، فخشى بهما صدري»[1] قال أنس: ورسول الله ﷺ: يرينا صدره، «فعرج بي الملك إلى السماء الدنيا» وذكر حديث المعراج. وروى الإمام أحمد والشيخان، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به قال: «بينا أنا في الحطيم وربما قال في الحِجر مضطجعاً إذ أتاني آت، فجعل يقول لصاحبه الأوسط من الثلاثة فأتاني فشق ما بين هذه إلى هذه»[2]. يعني من ثغرة نحره إلى شعرته «فاستخرج قلبي، فأتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً وحكمة، فغسل قلبي، ثم حشي، ثم أعيد، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار» الحديث رواه البخاري من طريق شريك، عن أنس رضي الله عنه.

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى (١: ١٤٧).

(٢) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٩: ٢٧١). وابن الجوزي في زاد المسير (٥: ٤). وابن كثير في البداية والنهاية (٣: ١١٥). وفيه: «في الخطيم».

ومن جواهر الحافظ الشامي

أنه ذكر في الباب السابع أيضاً أحاديث فيها ذكر شق الصدر الشريف من غير تعيين زمان، ، فقال: عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، كيف علمت أنك نبي، حتى علمت ذلك، واستيقنت أنك نبي؟ قال: «يا أبا ذر أتاني ملكان، وأنا في بعض بطحاء مكة، فوقع أحدهما بالأرض، وكان الآخر بين السماء والأرض. فقال أحدهما لصاحبه: هو هو فقال: زنه برجل، فوزنت برجل فرجحته. ثم قال: زنه بعشرة فوزنني بعشرة فوزنتهم. ثم قال: زنه بمائة فوزنني بمائة فرجحتهم. ثم قال: زنه بألف فوزنني بألف فرجحتهم. فجعلوا ينتثرون علي من كفة الميزان. فقال أحدهما للآخر: لو وزنته بأمته رجحها. ثم قال أحدهما لصاحبه: شق بطنه فشق بطني، ثم قال أحدهما لصاحبه: اغسل بطنه غسل الإناء، واغسل قلبه غسل الملاءة. ثم دعا بسكينة كأنها برهرهة بيضاء فأدخلت قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خط بطنه فخاط بطني: فجعل الخاتم بين كتفي، فما هو إلا أن وليا عني، فكأنما أعاين الأمر معاينة»[1].

رواه الدارمي والبزار والروياني وابن عساكر والضياء في المختارة. وروى البيهقي، عن يحيى بن جعدة مرسلاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ملكين جاآني في صورة كركيين معهما ثلج وبرد وماء بارد، فشق أحدهما صدري، وخج الآخر بمنقاره فيه فغسله»[2].

وروى أبو نعيم، عن يونس بن ميسرة مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني ملك بطست من ذهب، فشق بطني، فاستخرج حشوة جوفي، فغسلها، ثم ذر عليها ذروراً، ثم قال: قلب وكيع فيه عينان بصيرتان وأذنان تسمعان، وأنت محمد رسول الله المقفى الحاشر، قلبك سليم، ولسانك صادق، ونفسك مطمئنة، وخلقك، وأنت قثم».

وروى الدارمي وابن عساكر، عن ابن غنم، وهو مختلف في صحبته، قال: نزل جبريل على رسول الله ﷺ فشق بطنه، ثم قال جبريل: قلب وكيع فيه أذنان سميعتان وعينان بصيرتان. محمد رسول الله المقفى الحاشر، خلقك قيم، ولسانك صادق، ونفسك مطمئنة. ثغرة النحر: النقرة بين الترقوتين. ومغمز الشيطان: هو الذي يغمز الشيطان من كل مولود إلا عيسى بن مريم وأمه، لقول أمها حنة: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال السهيلي: ولا يدل هذا على أفضلية عيسى على نبينا ﷺ فقد نزع ذلك منه، وملئ

---

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (٣٥٤٠٨).

(٢) رواه ابن عبد البر في التمهيد (٨: ٢٣٦). وفيه: «أتياني».

حكمه وإيماناً أن غسله روح القدس بالثلج والبرد والملاءة: الإزار. والبرهرهة: الرحرحة يعني الواسعة. وقيل: يجوز أن يكون بمعنى الأبيض المتلألئ. والوكيع: الواعي. والقثم من القثم: وهو الإعطاء أو من القثم وهو الجمع. يقال للرجل الجموع. الخير: قثوم، وقثم: وقد كان ﷺ جامعاً لخصال الخير والفضائل كلها.

ومن جواهر الحافظ الشامي

ذكره في الباب السابع تنبيهات مهمة تتعلق بشق صدره الشريف ﷺ.

التنبيه الأول: قال الحافظ العراقي في أول شرحه لتقريبه: قد أنكر صحة وقوع شق الصدر ليلة الإسراء ابن حزم وعياض، وادعيا أنه تخليط من شريك، وليس كذلك.

فقد ثبت في الصحيحين من غير طريق شريك، وقال الإمام أبو العباس القرطبي في «المفهم»: لايلتفت لإنكار شق الصدر ليلة الإسراء، لأن رواته ثقات مشاهير. وقال الحافظ ابن حجر: قد أنكر وقوع شق الصدر ليلة الإسراء بعضهم؛ ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت به الروايات.

التنبيه الثاني: قال القرطبي في «المفهم»، والتوربشتي في «شرح المصابيح»، والطيبي في «شرح المشكاة»، والحافظ ابن حجر والحافظ السيوطي وغيرهم: إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب، وغير ذلك مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك، ويؤيده الحديث الصحيح أنهم كانوا يرون أثر المخيط في صدره ﷺ: قال الحافظ السيوطي: وما وقع من بعض جهلة العصر من إنكار ذلك، وحمله على الأمر المعنوي، وإلزام قائله القول بقلب الحقائق، هو جهل صريح وخطأ قبيح نشأ من خذلان الله تعالى لهم، وركونهم إلى العلوم الفلسفية، وبعدهم عن دقائق السنة عافانا الله تعالى من ذلك.

التنبيه الثالث: قال العلامة ابن المنير: وشق الصدر له ﷺ وصبره عليه من جنس ما ابتلى الله تعالى به الذبيح وصبر عليه، بل هذا أشق وأجل، لأن تلك معاريض وهذه حقيقة؛ وأيضاً فقد تكرر ووقع له وهو صغير يتيم، بعيد عن أهله ﷺ.

التنبيه الرابع: سئل شيخ الإسلام أبو الحسن السبكي رحمه الله تعالى عن العلقة السوداء التي أخرجت من قلبه ﷺ حين شق فؤاده، وقول الملك: هذا حظ الشيطان منك فأجاب رحمه الله تعالى بأن تلك العلقة خلقها الله تعالى في قلوب البشر، قابلة لما يلقيه الشيطان فيها،

فأزيلت من قلبه ﷺ فلم يبق فيه مكان لأن يلقي الشيطان فيه شيئاً. هذا معنى الحديث، ولم يكن للشيطان فيه حظ.

وأما الذي نفاه الملك، فهو أمر في الجبلة البشرية، فأزيل القابل الذي لم يكن يلزم من حصوله حصول القذف في القلب قباله، فلم خلق الله تعالى هذا القابل في هذه الذات الشريفة، وكان يمكن أن لا يخلقه الله تعالى فيها؟ فقال: إنه من جملة الأجزاء الإنسانية فخلق تكملة للخلق الإنساني، ولا بد منه؛ ونزعه كرامة ربانية طرأت. وقال غيره: لو خلق الله تعالى نبيه ﷺ كذلك لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته ﷺ فأظهره الله تعالى على يد جبريل عليه الصلاة والسلام ليتحققوا كمال باطنه كما برز لهم مكمل الظاهر ﷺ.

التنبيه الخامس: قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: الحكمة في شق صدره ﷺ مع القدرة على أن يمتلئ قلبه إيماناً وحكمة من غير شق الزيادة في قوة اليقين، لأنه أعطي برؤيته شق صدره وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان ﷺ أشجع الناس حالاً ومقالاً، ولذلك وصف بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

التنبيه السادس: قال الحافظ: واختلف هل كان شق صدره وغسله مختصباً به، أو وقع لغيره من الأنبياء؟ وقد وقع عند الطبري في قصة تابوت بني إسرائيل أنه كان في الطست التي تغسل فيها قلوب الأنبياء. وهذا مشعر بالمشاركة. اهـ ورجح الحافظ السيوطي اختصاصه به ﷺ.

التنبيه السابع: في الحكمة في تكرره قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى بعد أن ذكر الأولى والثالثة والرابعة: ولكل من الثلاث حكمة؛ فالأولى كانت في زمن الطفولية لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم عند البعث زيادة، إكرامه لتلقي ما يلقى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة. قال الحافظ الشامي: قلت: وسئلت عن حكمة المرة الثانية مع ذكره إياها في كتاب التوحيد جازماً بها، ويحتمل أن يقال: لما كان التمييز في ثامن سن التكليف شق صدره عليه الصلاة والسلام وقدس حتى لا يتلبس بشيء مما يعاب على الرجال، والله أعلم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل، لتقع المبالغة في الأسباغ بحصول المرة الثالثة، كما هي في شرعه ﷺ وقال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى وإنما غسل قلبه، وقد كان مقدساً وقابلاً لما يلقى فيه من الخير، وقد غسل أولاً وهو صغير السن، وأخرجت منه العلقة إعظاماً وتأهباً لما يلقى هناك يعني في المعراج وقد جرت الحكمة بذلك في غير ما وضع مثل الوضوء للصلاة لمن كان هناك متوضئاً، لأن الوضوء في

حقه إنما هو إعظام وتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، ولذلك الزيادة على الواحدة والثنتين إذا أسبغ بالأولى، لأن الأجزاء قد حصل وبقي ما بعد الإسباغ إلى الثلاث إعظاماً، وكذلك غسل البطن هناك وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] فكان الغسل له ﷺ من هذا القبيل، وإشارة لأمته بالفعل بتعظيم الشعائر، كما نص عليه بالقول.

وقال البرهان النعماني رحمه الله تعالى: قد أحسن لداخل الحرم الشريف الغسل، فما ظنك بداخل الحضرة المقدسة؟ فلما كان الحرم الشريف من عالم الملك، هو ظاهر الكائنات، أنيط الغسل له بظاهر البدن في عالم المعاملات: ولما كانت الحضرة الشريفة من عالم الملكوت، وهو باطن الكائنات، أنيط الغسل بباطن البدن في الحقيقات. وقد عرج به لتعرض عليه الصلاة، وليصلي بملائكة السمٰوات.

ومن شأن الصلاة الطهور، فقدس ظاهراً أو باطناً ﷺ: فإن قلت: إن الله تعالى خلقه نوراً متنقلاً من الأنبياء، وفي صفاء النور ما يغني عن التطهير الحسي، ثم إن المرة الأولى لم تكن كافية في تطهير الباطن، ويلزم عليه أنه بعد النبوة كان فيه شيء يحتاج إلى ذلك، وهو منزه عن أدران البشرية. قلت: الأولى لعلم اليقين، والثانية لعين اليقين، والثالثة لحق اليقين.

التنبيه الثامن: قال الحافظ ابن حجر: وقع ذلك من غير مشقة، وبه جزم ابن الجوزي، فقال: فشقه وما شق عليه.

التنبيه التاسع: وقع السؤال هل كان شق صدره ﷺ بآلة أم لا؟ ولم يجب عنه أحد، ولم أرَ من تعرض له بعد التتبع. وظاهر قوله: فشق أنه كان بآلة، ويدل لذلك قول الملك في حديث أبي ذر: «خط بطنه فخاطه». وفي لفظ عن عتبة بن عبد «فحصه فحاصه». وفي حديث أنس كانوا يرون أثر المخيط في صدره ﷺ.

التنبيه العاشر: في حديث أبي ذر: «وأتيت بالسكينة، كأنها برهرهة، فوضعت في صدري». قال ابن الأنباري: البرهرهة: السكينة المعوجة الرأس، التي تسميها العامة بالمنجل بالجيم: وقال الخطابي: عثرت على رواية، وفيها أنه شق عن قلبه. قال: «فدعا بسكينة كأنها درهمة بيضاء»، فوقع لي أنه أراد بالبرهرهة سكينة بيضاء صافية الحديد، تشبيهاً بالبرهرهة من النساء في بياضها وصفائها. قال ابن دحية: والصواب في هذه اللفظة السكينة بالتخفيف، لأنه قال بعد شق البطن «ثم أتيت بالسكينة كأنها برهرهة، فوضعت في صدري» وإنما عنى بها السكينة التي هي في أصل اللغة فعيلة من السكون، وهي أكثر ما يأتي في القرآن العظيم بمعنى السكون والطمأنينة.

التنبيه الحادي عشر: خص الطست بما ذكر، لكونه أشهر الآنية للغسل عرفاً.

التنبيه الثاني عشر: قال السهيلي: وخص الذهب لكونه مناسباً للمعنى الذي قصد به، وإن نظرت إلى لفظ الذهب فمطابق للذهاب، وإن الله تعالى أراد أن يذهب عنه الرجس ويطهره تطهيراً ﷺ وإن نظرت إلى معنى الذهب وأوصافه وجدته أنقى شيء وأصفاه.

التنبيه الثالث عشر: قال النووي: ليس في هذا الخبر ما يوهم استعمال إناء الذهب والفضة، لأن هذا فعل الملائكة واستعمالهم، وليس بلازم أن يكون حكمهم حكمنا، ولأنه كان قبل تحريم النبي ﷺ استعمال أواني الذهب والفضة انتهى أي لأن التحريم إنما وقع في المدينة، كان نبه عليه الحافظ ابن حجر.

التنبيه الرابع عشر: يؤخذ من غسل قلبه ﷺ بماء زمزم أنه أفضل المياه، وبه جزم الإمام البلقيني: قال ابن أبي جمرة إنما لم يغسل بماء الجنة لما اجتمع في زمزم من كون أصل مائها من الجنة، ثم استقر في الأرض فأريد بذلك بقاء بركته ﷺ في الأرض وقال غيره: لما كان ماء زمزم أفضل [ما][1] أوتيه إسماعيل ﷺ وقد ربي عليه، ونما عليه قلبه وجسده، وصار هو صاحبه وصاحب البلدة المباركة ناسب أن يكون ولده الصادق المصدوق كذلك.

ولما فيه من الإشارة إلى اختصاصه بذلك بعده، فإنه قد صارت الولاية إليه في الفتح، فجعل السقاية للعباس ولولده، وحجابة البيت لعثمان بن شيبة وعقبة إلى يوم القيامة.

التنبيه الخامس عشر: الحكمة في غسل صدره ﷺ بماء الثلج والبرد هي مع ما فيهما من الصفاء وعدم التكدر بالأجزاء الترابية، التي هي محل للأرجاس وعنصر الأكدار والإيماء إلى أن الوقت يصفو له ولأمته، ويروق لشريعته الغراء وسنته والإشارة إلى ثلوج صدره أي انشراحه بالنصر على أعدائه والظفر بهم، والإيذان ببرودة قلبه أي طمأنينته على أمته بالمغفرة لهم، والتجاوز عن سيآتهم.

وقال ابن دحية: إنما غسل قلبه بالثلج لما يشعر به من ثلج اليقين إلى قلبه. وقد كان ﷺ يقول بين التكبير والقراءة: «اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد»[2]. وأراد تعالى أن يغسل قلبه بماء حمل من الجنة في طست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، ليعرف قلبه طيب الجنة، ويجد حلاوتها، فيكون في الدنيا أزهد، وعلى دعوة الخلق إلى الجنة أحرص؛ لأنه كان

---

(١) وردت في الأصل: «أفضل من».

(٢) رواه أحمد في المسند (٢: ٢٣١). والمتقي الهندي في كنز العمال (٣: ٣٨).

له أعداء يتقولون عليه، فأراد الله تعالى أن ينتفي عنه طبع البشرية من ضيق الصدر وسوء مقالات الأعداء، فغسل قلبه ليورث ذلك صدره سعة ويفارقه الضيق، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] فغسل قلبه غير مرة، فصار بحيث إذا ضرب أو شج رأسه وكسرت رباعيته كما في يوم أحد. يقول: «اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون»[(١)].

التنبيه السادس عشر: جاء في رواية إن المغسول البطن، فقيل المراد بالبطن هنا ما بطن، وهو القلب، واستطهره بعضهم لأنه جاء في رواية ذكر القلب، ولم يذكر البطن ويحتمل أن تحمل كل رواية على ظاهرها، ويقع الجمع بينهما بأن يقال أخبر ﷺ مرة بغسل البطن ولم يتعرض لذكر القلب. وأخبر مرة بغسل القلب، ولم يتعرض لذكر البطن، فيكون الغسل قد حصل فيهما معاً مبالغة في تنظيف المحل.

التنبيه السابع عشر: قال السهيلي: فإن قيل: كيف يكون الإيمان والحكمة في طست من ذهب والإيمان عرض والأعراض لا يوصف بها إلا محلها والذي تقوم به، ولا يجوز فيها الانتقال لأن الانتقال من صفة الأجسام لا من صفة الأعراض: «قلنا إنما عبر عما في الطست بالحكمة والإيمان، كما عبر عن اللبن الذي شربه وأعطى فضله عمر بن الخطاب بالعلم، فكان تأويل ما أفرغ في قلبه إيماناً وحكمة. ولعل الذي كان في الطست ثلجاً وبرداً، كما ذكر في الحديث الأول فعبر في المرة الثانية بما يؤول إليه، وعبر عنه في المرة الأولى بصورته التي رآها، لأنه في الأولى كان طفلاً. فلما رأى الثلج في طست الذهب اعتقده ثلجاً، حتى عرف تأويله بعد، وفي المرة الأخرى كان نبياً، فلما رأى طست الذهب مملوءاً ثلجاً علم التأويل لحينه، واعتقده في ذلك المقام حكمة وإيماناً، فكان لفظه في الحديثين على حسب اعتقاده في المقامين. انتهى.

وقال النووي والحافظ ابن حجر: المعنى جعل في الطست شيء يحصل به زيادة في كمال الإيمان وكمال الحكمة. وهذا المملوء يحتمل أن يكون على الحقيقة، وتجسد المعاني جائز، كما جاء أن سورة البقرة تجيءُ يوم القيامة كأنها الظلة والموت في صورة كبش، وكذلك وزن الأعمال، وغير ذلك من أحوال الغيب... وقال البيضاوي في «شرح المصابيح»: لعل ذلك من باب التمثيل، إذ تمثيل المعاني وقع كثيراً، كما مثلت له الجنة والنار في عُرض الحائط. بضم العين المهملة وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس. وأشار النووي بقوله: جعل فيه شيء يحصل به زيادة في كمال الإيمان وكمال الحكمة إلى آخره، إلى أنه ﷺ كان متصفاً بأقوى الإيمان.

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٤: ٢١٤). وأحمد في المسند (١: ٤٤١). والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (١: ٣١٣). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥: ٥٤).

التنبيه الثامن عشر: المملوء البطن أو الصدر، ففي رواية ذكر البطن، في غيرها ذكر القلب. والظاهر أنهما ملئا معاً. وأخبر ﷺ في رواية بالبطن، وأخبر في أخرى بالقلب. ويحتمل أن يكون أراد القلب، وذكر البطن توسعة لأن العرب تسمي الشيء بما قاربه، أو بما كان فيه. وقد قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] والمراد بالصدر في الآية القلب، فسماه ما هو فيه، وهو الصدر.

التنبيه التاسع عشر: اختلف في تفسير الحكمة، فقيل: إنها العلم المشتمل على معرفة الله مع نفاذ البصيرة، وتهذيب النفس، وتحقيق الحق للعمل به، والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك. قال الإمام النووي: هذا ما صفا لنا من أقوال كثيرة انتهى.

وقد تطلق الحكمة على القرآن، وهو مشتمل على ذلك كله وعلى النبوة كذلك، وقد تطلق على العلم فقط، وعلى المعرفة فقط، ونحو ذلك. وقال الحافظ ابن حجر: أصح ما قيل فيها أنها وضع الشيء في محله، أو الفهم في كتاب الله تعالى: وعلى التفسير الثاني قد توجد الحكمة دون الإيمان وقد لا توجد، وعلى الأول فقد يتلازمان لأن الإيمان تدل عليه الحكمة.

التنبيه العشرون: قال بعض العلماء: المراد بالوزن في قوله: «ذنه بعشرة من أمته إلى آخره...» الوزن الاعتباري، فيكون المراد بالرجحان الفضل وهو كذلك. وفائدة فعل الملكين ذلك ليعلم رسول الله ﷺ ذلك حتى يخبر به غيره، ويعتقده إذ هو من الأمور الاعتقادية. قال الحافظ الشامي: وسألت شيخ الإسلام برهان الدين بن أبي شريف رحمه الله تعالى عن هذا الحديث، قبل وقوفي على الكلام السابق، لي بخطه هذا الحديث: يقتضي أن المعاني جعلها الله تعالى ذوات، فعند ذلك قال الملك لصاحبه: اجعله في كفه، واجعل ألفاً من أمته في كفة. ففعل، فرجح له ﷺ رجحاناً طاش معه ما للألف، بحيث تخيل إليه أنه سقط بعضهم. ولما عرف الملكان منه الرجحان، وأن معنى لو اجتمعت المعاني كلها التي للأمة ووضعت في كفة ووضع ما له ﷺ لرجح على الأمة. قالا: لو أن أمته وزنت به مال بهم، لأن مآثر خير الخلق وما وهبه الله تعالى له من الفضائل يستحيل أن يساويها غيرها. انتهى.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[خاتم النبوة]

قوله في الباب الثامن الذي تكلم به على خاتم النبوة: روى ابن جرير، وابن أبي حاتم، والبزار، وأبو يعلى، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ومعه

ميكائيل، فقال جبريل لميكائيل: ائتني بطست من ماء زمزم، كما أطهر لبه واشرح صدره، فشق عن بطنه، فغسله ثلاث مرات. واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم، فشرح صدره، ونزع ما كان فيه من أذى، وملأه حلماً وعلماً وإيماناً ويقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة، ثم أتاه بفرس فحمله عليه. وذكر حديث المعراج. وقد اختلف في خاتم النبوة على أقوال كثيرة متقابلة المعنى.

أحدها: مثل زر الحجلة. روى الشيخان عن السائب بن يزيد قال: قمت خلف ظهر النبي ﷺ فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زر الحجلة: هو واحد الأزرار التي يشد بها الكلل والستور. وقيل: أراد بالحجلة الطائر المعروف، وزرها بيضتها.

الثاني: أنه كجمع أي قبضة الكف. روى مسلم عن عبد الله بن سرجين. قال: نظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه ﷺ عند نُغْض كتفه اليسرى جُمْعاً عليه خيلان.

الثالث: إنه كبيضة الحمامة. روى مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: رأيت خاتم النبوة بين كتفي النبي ﷺ مثل بيضة الحمامة يشبه جسده. وروى أبو الحسن بن الضحاك، عن سلمان رضي الله عنه قال: رأيت الخاتم بين كتفي رسول الله ﷺ مثل بيضة الحمامة.

والرابع: أنه شعر مجتمع. روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم، وصححه وأبو يعلى والطبراني، عن عمر بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ادنُ فامسح ظهري». فدنوت ومسحت ظهره، ووضعت أصابعي على الخاتم، فقيل له: ما الخاتم؟ قال: شعر مجتمع عند كتفه. ورواه أبو سعيد النيسابوري بلفظ شعرات سود.

الخامس: إنه كان كالسلعة. روى الإمام أحمد وابن سعد والبيهقي من طرق، عن أبي رمثة قال: انطلقت مع أبي إلى رسول الله ﷺ فنظرت إلى مثل السلعة بين كتفيه.

السادس: أنه بضعة ناشرة روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: الخاتم الذي بين كتفي رسول الله ﷺ بضعة ناشزة. وفي لفظ عند البخاري في التاريخ والبيهقي: لحمة نائتة، ولأحمد لحم ناشز بين كتفيه.

السابع: أنه مثل البندقة. روى ابن حبان في صحيحه، من طريق إسحاق بن إبراهيم قاضي سمرقند، حدثنا ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كان خاتم النبوة على ظهر النبي ﷺ مثل البندقة من لحم مكتوب فيها: محمد رسول الله ﷺ قال الحافظ الهيثمي في «مورد الظمآن إلى زيادة ابن حبان» بعد أن أورد هذا الحديث: اختلط على بعض الرواة خاتم النبوة بالخاتم الذي يختم به الكتب.

الثامن: إنه مثل التفاحة. روى الترمذي، عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كان خاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.

التاسع: إنه كأثر المحجم . روى الإمام أحمد والبيهقي عن التنوخي رسول هرقل في حديثه الطويل قال: فإذا أنا بخاتم في موضع غضروف الكتف مثل المحجمة الضخمة.

العاشر: أنه كشامة سوداء تضرب إلى الصفرة. روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان خاتم النبوة كشامة سوداء تضرب إلى الصفرة، حولها شعرات متراكبات كأنها من عُرف الفرس. رواه أبو بكر بن أبي خيثمة، من طريق صبيح بن عبد الله الفرغاني، حدثنا عبد العزيز بن عبد الصمد وهو غير ثابت.

الحادي عشر: إنه شامة خضراء محتفرة في اللحم قليلاً. نقله ابن أبي خيثمة في تاريخه، عن بعضهم، وهو غير ثابت أيضاً.

الثاني عشر: إنه كركبة عنز. روى الطبراني وأبو نعيم في المعرفة، عن عباد بن بشر رضي الله تعالى عنه قال: كان خاتم النبوة على طرف كتفه الأيسر. كأنه ركبه عنز، وكان رسول الله ﷺ يكره أن يرى الخاتم وسنده ضعيف.

الثالث عشر: أنه كبيضة حمام مكتوب في باطنها: الله وحده لا شريك له، وفي ظاهرها «توجه حيث شئت فإنك منصور». رواه الحكيم الترمذي وأبو نعيم، قال في المورد: وهو حديث باطل.

الرابع عشر: أنه كنور ويتلالأ، رواه عايذ بعين مهملة وياء تحتية وذال معجمة، عن شداد بن أوس.

الخامس عشر: إنه ثلاث شعرات مجتمعات. ذكره أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي في تاريخه.

السادس عشر: أنه غدة كغدة الحمامة. رواه ابن أبي عاصم في سيرته.

السابع عشر: أنه كنيته صغيرة تضرب إلى الدهمة. روي ذلك عن عائشة رضي الله تعالى عنها. الثامن عشر: أنه كشيء يختم به.

روى ابن أبي شيبة عن عمر بن أخطب بن زيد الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال رأيت الخاتم على ظهر رسول الله ﷺ فقال هكذا كأنه يختم به.

التاسع عشر: كان بين كتفيه كدارة القمر مكتوب فيها سطران، السطر الأول: «لا إله

إلا الله، وفي السطر الثاني الأسفل: «محمد رسول الله». رواه أبو الدحداح أحمد بن إسماعيل الدمشقي، في الجزء الأول من حديثه قال في «المورد»: وهو باطل بين البطلان.

العشرون: أنه كبيضة نعامة. روى ابن حبان في صحيحه، عن جابر بن سمرة، قال: رأيت خاتم النبوة بين كتفيه مثل بيضة النعامة يشبه جسده. قال الحافظ أبو الحسن الهيثمي في «مورد الظمآن». روي هذا في حديث في الصحيح في صفته ﷺ ولفظه مثل بيضة الحمامة، وهو الصواب. ورواية ابن حبان غلط من بعض الرواة.

واختلف في موضعه من جسده ﷺ ففي صحيح مسلم إنه عند نُغص كتفه اليسرى، وفي رواية عن سلمان: إنه عند غضروف كتفه اليمنى ﷺ قال العلماء: هذه الروايات متقاربة في المعنى: وليس ذلك باختلاف، بل كل راو شبه بما سنح له، فواحد قال: كرز الحجلة وهو بيض الطائر المعروف أو أزرار البشاخة، وآخر كبيضة حمامة، وآخر كالتفاحة، وآخر بضعة لحم ناشزة، وآخر لحمة نائتة، وآخر كالمحجمة، وآخر كركبة العنز. . وكلها ألفاظ مؤداها واحد، وهو قطعة لحم.

ومن قال: شعر، فلأن الشعر حوله متراكب عليه، كما في الرواية الأخرى، قال أبو العباس القرطبي في «المفهم»: دلت الأحاديث الثابتة على أن خاتم النبوة كان شيئاً بارزاً أحمر عند كتفه الأيسر، ، إذا قلل قدر بيضة الحمامة، وإذا كبر قد جُمْع اليد. وذكر نحوه القاضي، وزاد: وأما رواية جُمْع الكف فظاهرها المخالفة، فتؤول على وفق الروايات الكثيرة، ويكون معناها على هيئة جمع الكف لكنه أصغر منه في قدر بيضة الحمامة.

قال السهيلي والحكمة في كون الخاتم عند نغض كتفه الأيسر أنه معصوم من وسوسة الشيطان، وذلك الموضع منه يوسوس لابن آدم. قال: والحكمة في وضع خاتم النبوة على جهة الاعتبار، أنه لما ملئ قلبه إيماناً ختم عليه، كما يختم على الوعاء المملوء مسكاً ودراً، فجمع الله تعالى أجزاء النبوة لسيدنا رسول الله ﷺ وختم عليه بختمه، فلم يجد عدوه سبيلاً إليه.

أجل ذلك الختم، لأن الشيء المختوم محروس، وكذلك تدبير الله تعالى في هذه الدار، إذا وجد أحدنا الشيء بختمه. زال الشك وانقطع الخصام فيما بين الآدميين، فلذلك ختم رب العالمين في قلبه ختاماً يطمئن له القلب، وألقى النور فيه، وتعدت قوته القلب؛ فظهر بين كتفيه كالبيضة. قال الحافظ: تقتضي الأحاديث أن الخاتم لم يكن موجوداً حين ولادته ﷺ وإنما وضع عند شق صدره عند حليمة، وفيه تعقب على من زعم أنه ولد به، وهو قول نقله في الفتح بلفظ قيل: ولد به وقيل: حين وضع.

ونقله مغلطاي عن ابن عائذ قال الحافظ ابن حجر: وما تقدم أثبت. قال الحافظ الشامي: بعده قلت: وصححه في الغرر يعني أنه إنما وضع عند شق صدره الشريف عند حليمة. ومقتضى الأحاديث أن الختم، تكرر ثلاث مرات: الأولى وهو في بلاد بني سعد عند مرضعته حليمة، والثانية عند البعث، والثالثة عند الإسراء. قال: ولم أقف في شيء من أحاديث شق صدره ﷺ وهو ابن عشر سنين على ذكر الخاتم، والله تعالى أعلم. وسئل البرهان الحلبي: هل خاتم النبوة من خصائص النبي ﷺ. أو كل نبي مختوم بخاتم النبوة؟ فأجاب لا أستحضر في ذلك شيئاً ، ولكن الذي يظهر أنه خص به ﷺ لمعان منها: أنه إشارة إلى أنه خاتم النبيين وليس كذلك غيره، ولأن باب النبوة ختم فلا يفتح بعده. روى الحاكم عن وهب بن منبه قال: لم يبعث الله نبياً إلا وقد كانت عليه شامة النبوة في يده اليمنى، إلا أن يكون نبينا ﷺ فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه. ا هـ.

فعلى هذا يكون وضع الخاتم بظهر النبي ﷺ مما اختص به عن الأنبياء وجزم به الشيخ يعني شيخه الحافظ السيوطي في «انموذج اللبيب» كما في النسخ الصحيحة خلافاً لما وقع في غيرها مما يخالف ذلك. وقيل: إن خاتم النبوة رفع عند وفاته، فكان بهذا عرف موته.

قال الشيخ عبد الباسط البلقيني في «الاصطفاء»: فإن قيل النبوة والرسالة باقيتان بعد موت النبي ﷺ حقيقة كما بقي وصف الإيمان للمؤمن بعد موته، لأن المتصف بالنبوة والرسالة والإيمان هو الروح، وهي باقية لا تتغير بموت البدن، كما صرح به النسفي، فلمَ رفع ما هو علامة على ذلك قلت: لأنه لما وضع لحكمه وهي تمام الحفظ والعصمة من الشيطان، وقد تم الأمن منه بالموت، فلم يبق لبقائه في جسده فائدة. وما ذكره النسفي من بقاء النبوة والرسالة بعد موت الأنبياء حقيقة، هو مذهب أبي الحسن الأشعري وعامة أصحابه، لا لما قاله النسفي، بل لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عندهم أحياء في قبورهم، كما وردت به الأخبار. فائدة: روى الحافظ إبراهيم الحربي في «غريبه»، وابن عساكر في «تاريخه»، عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه، فالتقمت خاتم النبوة بفمي، فكان ينم عليَّ مسكاً.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[فضائل جبريل وميكائيل عليهما السلام]

قوله في الباب التاسع، الذي ذكر فيه بعض فضائل جبريل وميكائيل عليهما السلام: ذكر

الله تعالى جبريل عليه السلام في كتابه خمسة وثلاثين موضعاً بالصريح وغيره، وذكره باسمه في ثلاث موضع: في البقرة في موضعين:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:٩٧]. ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:٩٨]. والثالث في التحريم: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ﴾ [التحريم: ٤].

وذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم في أربعة مواضع: الأول والثاني والثالث في آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [آل عمران:٣٩] يعني جبريل وحده بدليل قراءة ابن مسعود، فناداه جبريل: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران:٤٢] ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ [آل عمران:٤٥]، والرابع في [القدر][1]: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤] يعني جبريل والروح والوحي.

وذكره بلفظ الروح في ثمانية مواضع بلفظ الروح مطلقاً، وبإضافته إلى القدس وهو الطهارة،، وبوصفه بالأمانة فقال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤] يعني جبريل. ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤][2] ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧] في موضعين في البقرة والمائدة. ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]. وفي النحل: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل:١٠٢] وفي الشعراء: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣] ووصفه في موضع واحد بسبع صفات جميلة، وهي الرسالة والكرم والقوة والقربة والمكانة وطاعة الملائكة له والأمانة، وذلك في سورة التكوير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

وروى أبو الشيخ في «العظمة»، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنها قال: رسول الله ﷺ: **«أقرب الخلق إلى الله جبريل وميكائيل وإسرافيل، وإنهم من الله لمسيرة خمسين ألف سنة»**[3].

وروى أبو الشيخ، عن وهب قال: هؤلاء الأربعة الأملاك: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، أول من خلقهم الله من الملائكة، وآخر من يحييهم، وأول من يحييهم، وهم المدبرات.

روى أبو الشيخ، عن خالد بن أبي عمران، قال: جبريل أمين الله تعالى على رسله،

---

(١) وردت في الأصل: «النحل» في أن الآية التي ذكرها المؤلف بعدها هي من سورة القدر. وإذا كان يقصد فعلاً سورة الحل فيجب أن يكون لفظ الآية كما يلي: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾.

(٢) وردت في الأصل: ﴿تتنزل﴾ والصحيح ما أثبتناه في المتن.

(٣) رواه السيوطي في الدر المنثور (١ : ٩٤).

وميكائيل يتلقى الكتب التي ترفع من أعمال الناس، وإسرافيل بمنزلة الحاجب. روى أبو الشيخ، عن عكرمة بن خالد، أحد أئمة التابعين: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أي الملائكة أكرم على الله؟ قال: لا أدري. فعرج جبريل، ثم هبط، فقال: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. أما جبريل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين، وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط وكل ورقة تسقط، وأما ملك الموت فهو موكل كل بقبض روح كل عبد في بر وبحر، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم».

ومن جواهر الحافظ الشامي

[البراق الذي ركبه ﷺ]

قوله في الباب العاشر، الذي ذكر فيه الكلام على البراق: إن لونه أبيض. قال: ابن أبي جمرة: وإنما كان ركوب النبي ﷺ. على البراق إشارة إلى الاختصاص به، لأنه لم ينقل أن أحداً ملكه بخلاف غيره من الدواب.

قال: والقدرة صالحة لأن يصعد بنفسه ﷺ من غير براق، لكن كان البراق بشارة له وتشريفاً، لأنه لو صعد بنفسه لكان في صورة ماش. وقال ابن دحية: ربما خرج خرق العادة تأنيساً، وقد كان الحق تعالى قادراً على أن يرفع نبيه ﷺ بدون البراق، ولكن الركوب وصفة المركوب تأنيس في هذا المقام العظيم بطرف من العادة، ولعل الإسراء بالبراق إظهار للكرامة العرفية، فإن الملك العظيم إذا استدعى ولياً له وخصيصاً به وأشخصه إليه، بعث إليه بمركوب سني يحمله عليه في وفادته إليه، ولم يكن البراق بشكل الفرس، ولكنه بشكل البغل.

وكان ذلك والله أعلم للإشارة إلى أن الركوب في سلم وأمن، لا في حرب وخوف، أو لإظهار المعجزة في الإسراع العجيب من دابة ما يوصف شكلها بالإسراع الشديد عادة. فإن قيل: فقد ركب النبي ﷺ البغلة في الحرب. والجواب كان ذلك لتحقيق نبوته ﷺ. في مواطن الطعن والضرب والانتصاب في نحر العدو.

ولما كان الله تعالى خصه به ﷺ من مزيد الشجاعة ومزيد القوة، وإلا فالبغال عادة مركوب الطمأنينة والأمن، فبين أن الحرب عنده كالسلم قوة قلب وشجاعة نفس وثقة وتوكلاً على الله تعالى.

فإن قيل: هل كان الإسراء على أجنحة الملائكة أو الريح كما كانت تحمل سليمان عليه السلام. أو الخطوة كطي الزمان؟

قلت: المراد إطلاعه ﷺ على الآيات الخارقة للعادة، وما يتضمن أمراً عجيباً، ولا عجب في حمل الملائكة أو الريح بالنسبة إلى قطع هذه المسافة، بخلاف قطعها على دابة هذا الحجم المحكي عن صفتها، ووقع من تعظيمه ﷺ بالملائكة ما هو أعظم من حمله على أجنحتهم، فقد أخذ جبريل عليه السلام بركابه، وميكائيل عليه السلام بزمام البراق، وهما من أكابر الملائكة، فاجتمع له ﷺ حمل البراق وإركاب الملائكة ﷺ. وهذا أتم في الشرف.

وفي بعض الآثار أن البراق لا ذكر ولا أنثى، وفي أثرآخر أن جبريل خاطبه خطاب المؤنث.

واختلف في الحكمة في استصعاب البراق، فقال ابن بطال: إنما استصعب عليه لبعده بركوب الأنبياء قبله عليه وعليهم الصلاة والسلام. ويؤيده رواية ابن إسحاق في ذكر الإسراء: فاستصعب البراق، وكانت الأنبياء تركبها قبل، وكانت بعيدة العهد بركوبهم، لم تكن ركبت في الفترة. وقال ابن دحية وابن المنير: إنما استصعب تيهاً وزهواً بركوب النبي ﷺ. وأراد جبريل بقوله: أبمحمد تستصعب استنطاقة بلسان الحال، إنه لم يقصد الصعوبة، وإنما تاه لمكانة النبي ﷺ ولهذا قال: فارفض عرقاً. فكأنه إجابه بلسان الحال، فتبرأ من الاستصعاب وفرق من خجل العتاب، وذلك قريب من رجفة الجبل به ﷺ حتى قال له: فإنما عليك نبي وصديق وشهيد، فإنها هزة طرب ولا هزة غضب.

وقال الشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفي رحمه الله تعالى. ولا يبعد أن يقال: إنما كان استصعابه به فرقاً من هيبة سيدنا رسول الله ﷺ. واختلف في ركوب جبريل عليه السلام. على البراق مع النبي ﷺ وعلى القول به هل ركب أمام النبي ﷺ أم خلفه؟ فعند الإمام أحمد عن حذيفة إن رسول الله ﷺ أتى بالبراق، فلم يزايل ظهره هو وجبريل، حتى أتيا إلى بيت المقدس.

وفي رواية عنه عند ابن حبان: أن جبريل حمله على البراق رديفاً له، وفي لفظ فركبه خلف جبريل فسار بهما. وفي حديث أبي يعلى: أن جبريل أتى النبي ﷺ بالبراق، فحمله بين يديه. ورواه الطبراني. وفي حديث ابن مسعود رفعة: «أتيت بالبراق، فركبته خلف جبريل»[1] والصحيح أنه معد لركوب الأنبياء قبل سيدنا رسول الله ﷺ.

روى الفاكهي بسند حسن، عن علي رضي الله عنه. قال: «كان إبراهيم يزور إسماعيل وأمه على البراق».

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الإيمان ٢٥٩).

وفي حديث أبي سعيد: «وكانت الأنبياء تركبها، قبلي» رواه البيهقي وغيره. قال الإمام النووي: وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب، وإن ذلك لا يقدح في التوكل إذا كان الاعتماد على الله سبحانه وتعالى. وقال السهيلي: وهذا من الفقه التنبيه على الأخذ بالحزم مع صحة التوكل والإيمان بالقدر، كما روي عن وهب بن منبه: لا يمنع الحزم من توفي المهالك.

قال وهب: وجدته في سبعين كتاباً من كتب الله القديمة، وهذا نحو فعله ﷺ فإنه مع إيمانه بقدر الله تعالى وعلمه بأنه قد سبق في أم الكتاب ما سبق، كان يتزود في أسفاره ويعد السلاح في حروبه، حتى لقد ظاهر بين درعين في غزوة أحد، وربط البراق، وغير ذلك.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[فضائل بيت المقدس]

قوله في الباب الحادي عشر الذي تكلم فيه على بعض فضائل بيت المقدس، ومنها ما رواه الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم، عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «انَّ سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً فأعطاه إياها: سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلاَّ الصلاة في هذا المسجد يعني بيت المقدس خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه». قال النبي ﷺ: «ونحن نرجو أن يكون الله تعالى قد أعطاه ذلك»، وذكر له فضائل كثيرة.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[ملاقاته]

قوله في الباب الثاني عشر، الذي ذكر فيه ملاقاته ﷺ، فإن قيل: كيف أمّ النبي ﷺ الأنبياء عليهم السلام في بيت المقدس، وسلم عليهم، وعرفهم؛ ثم رآهم تلك الليلة في السمٰوات، وسأل عنهم من جبريل؛ فإنّه لو رآهم وعرفهم لما احتاج إلى سؤال جبريل عنهم؟ والجواب: إنّه ﷺ لما اجتمع بهم ببيت المقدس، وأمّهم على الهيئة البشرية، تحقق وجودهم في الأرض. ثم لما وصل إلى الملكوت العلوي، لم يجدهم على تلك الحالة التي شاهدهم عليها في الأرض، وإنما هم على صفات روحانية شكل الله لهم أشكالاً لائقة بالملكوت

العلوي تكريماً له ﷺ وتعظيماً للقدرة الإلٰهية، حيث شاهدهم تلك الساعة في الأرض.

ثم رآهم في منازلهم في السماء، فلذلك سأل عنهم استثباتاً لا تعجباً؛ فإنَّه ﷺ يعلم أنَّ الله تعالى الذي أصعده إلى هذا المكان في لحظة قادر على نقلهم إلى السمٰوات في أسرع من طرفة عين سبحانه وتعالى وقد استشكل رؤية الأنبياء صلوات الله عليهم مع أنَّ أجسادهم مستقرة في قبورهم، وأجيب بأنَّ أرواحهم تشكلت بصور أجسامهم، أو أحضرت أجسادهم لملاقاة النبي ﷺ تلك الليلة تشريفاً له وتكريماً. ويؤيده حديث عبد الرحمٰن بن هاشم عند البيهقي وغيره؛ وبعث له آدم فمن دونه من الأنبياء. وقال ابن أبي جمرة: رؤيته لهؤلاء الأنبياء صلى الله عليه وعليهم تحتمل وجوهاً. الأول: أن يكون ﷺ عاين كل واحد منهم في قبره في الأرض على الصورة التي أخبر بها من الموضع الذي عاينه فيه، فيكون الله تعالى قد أعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أدرك ذلك. يشهد لهذا الوجه قوله عليه الصلاة والسلام: «رأيت الجنة والنار في عُرض هذا الحائط» . فيحتمل أن يكون ﷺ رآهم من ذلك الموضع، كما يقال: رأيت الهلال من منزلي من الطاق. الوجه الثاني: أن يكون مثلت له صورهم والقدرة صالحة لكليهما. الوجه الثالث: أن يكون ﷺ عاين أرواحهم هناك في صورهم. الرابع: أن يكون الله عزَّ وجل لما أراد أن يرفعه ﷺ رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكراماً لنبيه ﷺ وتعظيماً حتى يحصل له من قبلهم ما أشار إليه من الإنس والبشارة وغير ذلك مما لم نشر إليه ولا نعلمه نحن. . . وإظهاراً له ﷺ للقدرة التي لا يغلبها شيء ولا تعجز عن شيء. وكل هذه الأوجه محتملة، ولا ترجيح لأحدها على الآخر، لأنَّ القدرة صالحة لكلها.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[الصحابة الذين رووا قصة الإسراء]

قوله في الباب الثالث عشر، الذي تكلم فيه على الصحابة الذين رووا قصة الإسراء والمعراج، عن النبي ﷺ وهم أبي بن كعب، وأسامة بن زيد، وأنس بن مالك، وبريدة وبلال بن حمامة، وبلال بن سعد، وجابر بن عبد الله، وحذيفة بن اليمان، وسمرة بن جندب، وسهل بن سعد، وشداد بن أوس، وصهيب بن سنان، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن أبي أوفى، وعبد الله بن أسعد بن زرارة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمٰن بن عابس، والعباس بن عبد المطلب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، ومالك بن صعصعة، وأبو بكر الصديق، وأبو الحمراء، وأبو ايوب الأنصاري، وأبو الدرداء،

وأبو ذر الغفاري، وأبو سعيد الخدري، وأبو سفيان بن حرب، وأبو سلمة، وأبو سلمى الراعي، وأبو ليلى الأنصاري، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة أم المؤمنين، وأم كلثوم بنت رسول الله ﷺ وأم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنهم.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[جميع روايات القصة]

قوله في الباب الرابع عشر، الذي تكلم فيه على سياق قصة الإسراء والمعراج: اعلم رحمني الله وإياك في حديث كل من الصحابة السابق ذكرهم في الباب الثالث عشر ما ليس في الآخر، فاستخرت الله تعالى، وأدخلت حديث بعضهم في بعض، ورتبت القصة على نسق واحد، لتكون أحلى في الآذان الواعيات، وليعم النفع بها في جميع الحالات. فأقول:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

بينما النبي ﷺ عند البيت في الحجر، إذ أتاه جبرائيل وميكائيل ومعهما ملك آخر، فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فكانت تلك الليلة، فلم يرهم حتى كانت ليلة أخرى، فقال الأول: هو هو؟ فقال الأوسط: نعم. وقال الآخر: خذوا سيد القوم الأوسط بين الرجلين، فاحتملوه حتى جاؤوا به زمزم، فاستلقوه على ظهره. فتولاه منهم جبريل وفي رواية، فرج سقف بشيء، فنزل جبريل فشق من تفسرة نحره إلى أسفل بطنه ثم قال لمكائيل: ائتني بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه واشرح صدره، فاستخرج قلبه فغسله ثلاث مرات، ونزع ما كان فيه من أذى. واختلف إليه ميكائيل بثلاث طسات من ماء زمزم، ثم أتي بطست من ذهب ممتلئ حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدره، وملأه علماً وحلماً ويقيناً وإسلاماً، ثم أطبقه، ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة.

ثم أتي بالبراق مسرجاً ملجماً وهو دابة أبيض طويل، فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، مضطرب الأذنين إذا أتى على جبل ارتفعت رجلاه، وإذا هبط ارتفعت يداه. له جناحان في فخذيه يحفز بهما رجليه.

وعند الثعلبي، بسند ضعيف، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما له خد كخد الإنسان، وعُرف كعُرف الفرس، وقوائم كالإبل، وأظلاف، وذنب كالبقر. انتهى فاستصعب عليه. وفي رواية فشمس، وفي رواية كأنها أصرت أذنيها، وفي رواية كأنها اشمأزت. فأدارها جبريل بإذنها، وقال: مه أبمحمد تفعلين هذا؟ وفي رواية فوضع جبريل يده على معرفته، ثم قال: ألا تستحي يا براق؟ فو الله ما ركبك خلق.

وفي رواية عبد الله قط أكرم على الله منه فاستحيا حتى ارفض عرقاً وقر حتى ركبه. وفي رواية ركبها، وكانت الأنبياء تركبها قبلي. وقال أنس بن مالك: كانت الأنبياء تركبها قبله. وقال سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمٰن: وهي دابة إبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام. فانطلق به جبريل.

وفي رواية فانطلقت مع جبريل، وعند أبي سعيد النيسابوري في الشرف: فكان الآخذ بركابه جبريل، وبزمام البراق ميكائيل. وفي رواية جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره؛ فساروا حتى بلغوا أرضاً ذات نخل، فقال له: انزل، فصلِّ هنا، ففعل ثم ركب فقال: أتدري أين صليت؟ قال: لا قال: صليت بطيبة وإليها المهاجر، فانطلق البراق يهوي به يضع حافره حيث أدرك طرفه. فقال له جبريل: انزل فصلِّ، ففعل ثم ركب، فقال له جبريل: أتدري أين صليت؟ قال: لا. قال: صليت بمدين عند شجرة موسى. ثم ركب فانطلق البراق يهوي به، ثم قال له جبريل: انزل فصل، ففعل ثم ركب، فقال: أتدري أين صليت؟ قال: لا. قال: صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى. ثم بلغ أرضاً بدت له قصور فقال له جبريل: انزل فصل. ففعل، ثم ركب وانطلق البراق يهوي به، فقال له جبريل: أتدري أين صليت؟ قال: لا. قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى. فبينما هو يسير على البراق إذ رأى عفريتاً من الجن يطلبه بشعلة من نار. كلما التفت رآه؛ فقال له جبريل: ألا أعلمك كلمات تقولهن، إذا قلتهن انطفت شعلته وخر لفيه؟ فقال رسول الله: بلى. فقال جبريل: قل: أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٍ ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار؛ إلاَّ طارقاً يطرق بخير. يا رحْمٰن. فانكب لفيه وانطفت شعلته؛ فساروا، وأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان.

فقال: يا جبريل ما هذا؟ فقال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنة بتسعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه. ووجد ريحاً طيبة، فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال: هذه رائحة ماشطة فرعون وأولادها، بينا هي تمشط بنت فرعون إذ سقط المشط، فقالت: باسم الله تعس فرعون. فقالت ابنة فرعون: أولك رب غير أبي؟ قالت: نعم ربي وربك الله.

وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فقال: إني قاتلكما. فقالا: إحسان منك إلينا إن قتلتنا أن تجعلنا في بيت.

وفي رواية: قالت: إنَّ لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي بعظام

ولدي فتدفننا جميعاً. قال: ذاك لك بما لك علينا من الحق. فأمر ببقرة من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى هي وأولادها، فألقوا واحداً بعد واحد، حتى بلغوا أصغر رضيع فيهم. فقال: يا أمة قعي، ولا تقاعسي؛ فإنك على الحق: فألقيت هي وولداها. قال: وتكلم أربعة وهم صغار. هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج، وعيسى بن مريم. ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم، كلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم على إقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم، ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤولاء الذين يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله شيئاً. ثم أتى قوماً بين أيديهم لحم نضيج في قدور، ولحم آخر نيء خبيث؛ فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث، ويدعون النضيج الطيب. فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيب، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح. ثم أتى خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب ولا شيء إلاّ خرقته، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه، وتلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ورأى رجلاً يسبح في نهر من دم يلقم الحجارة، فقال: من هذا؟ فقال: هذا آكل الربا. ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أمتك يكون عنده أمانات الناس لا يقدر على أدائها، ويريد أن يحمل عليها. ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد، كلما قرضت عادت لا يفتر عنهم من ذلك شيء. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء الفتنة: خطباء أمتك يقولون ما لا يفعلون.

ومر بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقال: منْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم. وأتى على حُجر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث يخرج، فلا يستطيع؛ فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل الذي يتكلم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها، فلا يستطيع أن يردها.

وأتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة، وريح المسك، وسمع صوتاً، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا صوت الجنة تقول: يا رب آتني ما وعدتني، فقد كثرت غرفي واستبرقي

وحريري وسندسي وعبقريّي ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي ومراكبي وعسلي ومائي ولبني وخمري. . . قال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بي وبرسلي، وعمل صالحاً، ولم يشرك بي، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعطيته، ومن أقرضني جزيته، ومن توكل عليَّ كفيته. إني أنا الله لا إله إلاَّ أنا، لا أخلف الميعاد.

وقد أفلح المؤمنون، فتبارك الله أحسن الخالقين. قالت: قد رضيت. وأتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنة، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب آتني ما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وضريعي وغساقي وعذابي، وقد بعد قعري، واشتد حري، فآتني ما وعدتني. فقال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وخبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب.

ورأى الدجال في صورته رؤيا عين لا رؤيا منام، فقيل: يا رسول الله، كيف رأيته؟ قال: فَيْلَمَانِيا[1] وهو أحمر هجان، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دري، كأنَّ شعره أغصان شجرة؛ شبهه بعبد العزى بن قطن. ورأى عموداً أبيض كأنه لؤلؤ تحمله الملائكة، فقال: ما تحملون؟ قالوا: عمود الإسلام، أمرنا أن نضعه بالشام. وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن يمينه: يا محمد انظرني أسألك. فلم يجبه، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي اليهود. أما إنَّك لو أجبته لتهودت أمتك. وبينما هو يسير إذ دعاه داع عن شماله، فقال: يا محمد انظرني أسألك، فلم يجبه، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي النصارى. أما إنَّك لو أجبته لتنصرت أمتك. وبينما هو يسير إذا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها الله، فقالت: يا محمد انظرني أسألك. فلم يلتفت إليها، فقال: من هذه يا جبريل؟ قال: تلك الدنيا.

أما إنَّك لو أجبتها لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة. وبينما هو يسير فإذا هو بشيء يدعوه متنحياً عن الطريق، يقول: هلم يا محمد. فقال جبريل: سر يا محمد. فقال: من هذا؟ قال: عدو الله إبليس، أراد أن تميل إليه. وسار فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقالت: يا محمد انظرني أسألك فلم يلتفت إليها، فقال: من هذه يا جبريل؟ قال: إنَّه لم يبق من عمر الدنيا إلاَّ ما بقي من عمر تلك العجوز. وبينما هو يسير إذ لقيه خلق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر. فقال له جبريل: اردد السلام. فرد، ثم لقيه الثانية، فقال له مثل ذلك، ثم لقيه الثالثة فقال مثل ذلك؛ فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال

(١) الفيلماني: العظيم الجثة.

إبراهيم وموسى وعيسى. ومر على موسى، وهو يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر رجل طُوال سَبط آدمُ كأنه من رجال شنوأة وهو يقول برفع صوته أكرمته وفضلته، فرفع إليه، فسلم عليه، فرد عليه السلام، وقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا أحمد. فقال: مرحباً بالنبي العربي، الذي نصح لأمته. ودعا له بالبركة. وقال: سل لأمتك اليسر. فساروا، فقال: يا جبريل، من هذا؟ هذا موسى بن عمران. قال: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه. قال: ويرفع صوته على ربه؟ قال جبريل: إنَّ الله تعالى قد عرف له حدته.

ومر على شجرة كأنَّ ثمرها السرج تحتها شيخ وعياله، فرأى مصابيح وضوأ، فقال: من هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا ابنك أحمد. فقال: مرحباً بالنبي العربي الأمي، الذي بلغ رسالة ربه ونصح لأمته. يا بني إنَّك لاق ربك الليلة، وإنَّ أمتك آخر الأمم وأضعفها. فإن استطعت أن تكون حاجتك أوكلها في أمتك فافعل، ودعا له بالبركة. فسار حتى أتى الوادي الذي بالمدينة يعني بيت المقدس. فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي، فقيل: يا رسول الله، كيف وجدتها؟ قال مثل الحمة.

ثم سار حتى انتهى إلى المدينة، فدخلها من بابها اليماني؛ وإذا عن يمين المسجد وعن يساره نوران ساطعان، فقال: يا جبريل ما هذان النوران؟ قال: أما الذي عن يمينك فمحراب أخيك داود، وأما الذي عن يسارك فعلى قبر أختك مريم؛ فدخل المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، وأتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس، فوضع إصبعه فيها فخرقها، فشد بها البراق.

وفي رواية مسلم: فربطته بالحلقة التي تربط بها الأنبياء. فلما استوى النبي ﷺ في صخرة المسجد قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك. أن يريك الحور العين؟ قال: نعم. قال جبريل: فانطلق إلى أولئك النسوة، فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة؛ فانتهى إليهن فسلم عليهن، فرددن عليه السلام، فقال: من أنتن؟ فقلن: خيرات حسان، نساء قوم أبرار نقوله. فلم يدرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا. ثم صلى هو وجبريل كل واحد ركعتين، فلم يلبث إلاَّ يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد. ثم أذن مؤذن وأقيمت الصلاة، فقاموا صفوفاً ينتظرون من يؤمهم، فأخذه جبريل بيده فقدمه، فصلى بهم ركعتين. وفي رواية ثم أقيمت الصلاة، فتدافعوا حتى قدموا محمداً. وعند الوسطى عن كعب فأذن جبريل، ونزلت الملائكة من السماء، وحشر الله له المرسلين؛ فصلى النبي ﷺ بالملائكة والمرسلين. فلما انصرف، قال جبريل: يا محمد أتدري من صلى خلفك؟ قال: لا. قال: كل نبي بعثه الله تعالى. وفي حديث أبي هريرة عند الحاكم، وصححه

والبيهقي، فلقي أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم. فقال إبراهيم: الحمد لله الذي اتخذني خليلاً، وأعطاني ملكاً عظيماً، وجعلني أمة قانتاً يؤتم بي، وأنقذني من النار، وجعلها عليّ برداً وسلاماً. ثم إنَّ موسى أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال: الحمد لله الذي كلمني تكليماً، وجعل هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل على يدي، وجعل من أمتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون. ثم إنَّ داود أثنى على ربه، فقال: الحمد لله الذي جعل لي ملكاً عظيماً، وعلمني الزبور، وألان لي الحديد، وسخر لي الجبال يسبحن والطير، وأعطاني الحكمة، وفصل الخطاب.

ثم إنَّ سليمان أثنى على ربه، فقال: الحمد لله الذي سخر لي الرياح، وسخر لي الشياطين يعملون لي ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات، وعلمني منطق الطير، وآتاني من كل شيء فضلاً، وسخر لي جنود الشياطين والطير، وفضلني على كثير من عباده المؤمنين، وآتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي، وجعل ملكي طيباً ليس فيه حساب ولا عقاب. ثم إن عيسى بن مريم أثنى على ربه تبارك وتعالى، فقال: الحمد لله الذي جعلني كلمته، وجعل مثلي مثل آدم خلقه من تراب. ثم قال له: كن فيكون، وعلمني الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلني أبرىءُ الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، ورفعني وطهرني، وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم؛ فلم يكن للشيطان علينا سبيل. فقال النبي ﷺ: **«كلكم أثنى على ربه، وأنا مثن على ربي الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عليَّ الفرقان فيه تبيان كل شيء، وجعل أمتي خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتي وسطاً، وجعل أمتي هم [الأولين والآخرين]**[1]، **وشرح لي صدري، ووضع عني وزري، ورفع ذكري، وجعلني فاتحاً خاتماً»**[2]. **فقال إبراهيم ﷺ بهذا فضلكم محمد ﷺ ثم تداكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لي بها. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وجبتها، فلا يعلمها إلاَّ الله. وفيما عهد إليّ أنَّ الدجال خارج ومعي قضيبان، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، فيهلكه الله تعالى إذا رآني، حتى أنَّ الحجر ليقول: يا مسلم إنَّ تحتي كافراً فتعال فاقتله؛ فيهلكهم الله تعالى. ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم؛ فعند**

(١) ورد في الأصل «هم الأولون والآخرون». وهذا خطأ نحوي لأن فعل «جعل» يتعدّى إلى مفعولين اثنين.

(٢) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (١ : ٦٩). وابن كثير في البداية والنهاية (٦ : ٣٢٢). والقاضي عياض في الشفا (١ : ٣٥١).

ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطوون بلادهم لا يأتون على شيء إلاَّ أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلاَّ شربوه. . . حتى يرجع الناس يشكونهم إليَّ، فأدعوا الله تعالى عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من ريحهم، فينزل الله تعالى المطر، فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إليَّ ربي إن ذلك إذا كان كذلك إنَّ الساعة كالحامل المتم، لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهاراً. وأخذ النبي ﷺ من العطش أشد ما أخذه، فأتي بقدحين أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال؛ في أحدهما لبن وفي الآخر عسل.

وفي رواية: أوتي بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها، فأتى بإناء منها فيه ماء، فشرب منه قليلاً. وفي لفظ أنَّه لم يشرب منه شيئاً، ثم دُفع إليه إناء آخر فيه لبن، فشرب منه حتى روى منه، ثم دُفع إليه إناء آخر فيه خمر، فقيل له: اشرب. فقال: لا أريده قد رويت. فقال جبريل: أما إنَّها ستحرم على أمتك.

وفي رواية: فعرض عليه الماء والخمر واللبن. وفي رواية: العسل بدل اللبن، فشرب من العسل قليلاً، وتناول اللبن فشرب منه حتى روي؛ فضرب جبريل على منكبه وقال: أصبت الفطرة، ولو شربت الخمر لغويت أمتك.

وفي رواية: فقال شيخ متكئ على منبر له لجبريل: أخذ صاحبك الفطرة وإنَّه لمهديّ، ثم أتي بالمعراج الذي تعرج عليه أرواح بني آدم، فلم تر الخلائق أحسن من المعراج له مرقاة من فضة ومرقاة من ذهب.

وفي رواية: لأبي سعيد في شرف المصطفى أنَّه أتي بالمعراج من جنة الفردوس منضداً باللؤلؤ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة، فصعد هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب من أبواب السماء الدنيا، يقال له باب الحفظة، وعليه ملك يقال له له إسماعيل؛ وهو صاحب سماء الدنيا.

وفي حديث جعفر بن محمد عند البيهقي: يسكن الهواء لم يصعد إلى السماء قط، ولم يهبط إلى الأرض قط إلاَّ يوم مات النبي ﷺ وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جنده مائة ألف، فاستفتح جبريل باب السماء قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أرسل إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً به وأهلاً، حياه الله من أخٍ ومن خليفةٍ؛ فنعم الأخ، ونعم الخليفة، ونعم المجيء. جاء ففتح لهما، فلما خلصا فإذا آدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها في عليين.

ثم تعرض عليه أرواح ذريته الكفار، فيقول: روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها في سجين. وعن يمينه اسودة. وباب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله أسودة وباب يخرج منه ريح خبيثة؛ فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر قِبَل شماله حزن وبكى، فسلم عليه النبي ﷺ فرد عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. فقال النبي ﷺ: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم، وهذه الأسودة نسم بنيه؛ فأهل اليمين منهم أهل الجنة، وأهل الشمال منهم أهل النار. فإذا نظر قِبَل يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَل شماله بكى.

وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة إذا نظر من يدخله من ذريته ضحك واستبشر، والباب الذي عن شماله باب جهنم إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزن. ثم مضى ﷺ هُنيهة، فإذا هو بأخونه عليها لحم يشرح ليس بقربه أحد، وإذا بخوانه عليها لحم قد أروح وأنتن، عندها ناس يأكلون منها. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك قوم يتركون الحلال ويأتون الحرام.

وفي لفظ: فإذا بأقوام على مائدة عليها لحم يشوى كأحسن ما رؤي من اللحم، وإذا حوله جيف؛ فجعلوا يقبلون على الجيف يأكلون منها ويدعون اللحم. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزناة يحلون ما حرم الله عليهم، ويتركون ما أحل الله لهم.

ثم مضى هُنيهة، فإذا هو بأقوام بطونهم كأمثال البيوت، فيها الحيات ترى من خارج بطونهم. كلما نهض أحدهم خرّ يقول: اللهم لا تقم الساعة. وهم على سابلة آل فرعون، فتجيء السابلة فتطؤهم، فسمعهم يضجون إلى الله تعالى. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. ثم مضى هُنيهة، فإذا هو بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل، فتفتح أفواههم ويلقمون حجراً.

وفي رواية: يجعل في أفواههم صخر من جهنم، ثم يخرج من أسافلهم؛ فسمعهم يضجون إلى الله تعالى. فقال؛ يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً؛ إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً. ثم مضى هنيهة، فإذا هو بنساء معلقات بثديهن ونساء منكسات بأرجلهن، فسمعهن يضججن إلى الله تعالى. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي يزنين ويقتلن أولادهن.

ثم مضى هنيهة، فإذا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمون، فيقال له: كل كما كنت تأكل لحم أخيك، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون.

ثم صعد إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن

معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حياه الله من أخٍ ومن خليفةٍ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ففُتح لهما. فلما خلصا، فإذا هو بابني الخالة عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا شبيه أحدهما بصاحبه، ثيابهما وشعرهما، ومعهما نفر من قومهما؛ وإذا عيسى جعد مربوع الخَلْق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس، كأنما خرج من ديماس أي حمام شبهه بعروة بن مسعود الثقفي، فسلم عليهما فردا عليه السلام، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ودعوا له بخير.

ثم صعدا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً. حياه الله من أخٍ ومن خليفةٍ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء ففُتح لهما. فلما خلصا، فإذا هو بيوسف ومعه نفر من قومه، فسلم عليه فرد عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ودعا له بخير. وإذا هو أعظم شطر الحسن. وفي رواية: أحسن ما خلق الله، قد فضل الناس بالحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب. قال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أخوك يوسف.

ثم صعد إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً؛ حياه الله من أخٍ ومن خليفةٍ؛ فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، ففُتح لهما. فلما خلصا، فإذا هو بإدريس رفعه الله مكاناً علياً، فسلم عليه فرد عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له بخير.

ثم صعد إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قال: أوقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حياه الله من أخٍ ومن خليفةٍ؛ فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيءُ جاء، ففُتح لهما. فلما خلصا، فإذا هو بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء، تكاد تضرب إلى سرته من طولها، وحوله قوم من بني إسرائيل وهو يقص عليهم، فسلم عليه، فرد عليه السلام.

ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له بخير، فقال: يا جبريل، من هذا؟ قال: هذا الرجل المحبب في قومه هارون بن عمران. ثم صعد إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حياه الله من أخٍ ومن خليفةٍ؛ فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء، ففتح لهما؛ فجعل يمر بالنبي والنبيين معهم الرهط، والنبي

والنبيين ليس معهم أحد، ثم مرّ بسواد عظيم، فقال: من هذا؟ قيل: موسى وقومه، ولكن ارفع رأسك، فإذا بسواد عظيم قد سد الأفق من ذا الجانب ومن ذا الجانب، فقيل له: هؤلاء أمتك، وسوى هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب. فلما خلصا، فإذا بموسى بن عمران رجل آدم طوال كأنه من رجال شنوأة، (كثير الشعر لو كان عليه قميصان لنفذ الشعر دونهما)، فسلم عليه النبي ﷺ فرد عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له بخير، وقال: يزعم الناس أني أكرم على الله من هذا، بل هذا أكرم على الله مني.

فلما جاوزه النبي ﷺ بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأنَّ غلاماً بعث من بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخل الجنة من أمتي، يزعم بنو إسرائيل أني أكرم بني آدم على الله، وهذا رجل من بني آدم خلفني في دنيا، وأنا في أخرى. فلو أنَّه في نفسه لم أبال، ولكن مع كل نبي أمته. ثم صعدا.

فلما انتهيا إلى السماءِ السابعة رأى فوقه رعداً وبرقاً وصواعق، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حياه الله من أخٍ ومن خليفةٍ؛ فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء؛ ففتح لهما. فسمع تسبيحاً في السمٰوات العلا مع تسبيح كثير، سبحت السمٰوات العلا من ذي المهابة مشفقات من ذي العلا بما علا، سبحت العليّ الأعلى، سبحانه وتعالى.

فلما خلصا، فإذا النبي ﷺ بإبراهيم الخليل رجل أشمط، جالس عند باب الجنة على كرسي، مسند ظهره إلى البيت المعمور، ومعه نفر من قومه. فسلم عليه النبي ﷺ فرد عليه السلام.

ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. وقال: مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة، فإنَّ تربتها طيبة وأرضها واسعة. فقال: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

وفي رواية: أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أنَّ الجنة طيبة التربة عذبة الماء، وأنَّ غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلاَّ الله والله أكبر. وهو أشبه ولده به، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس، وقوم في ألوانهم شيء. فقام هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص من ألوانهم شيء، ثم دخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم فصارت مثل ألوان أصحابهم؛ فجاؤوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: يا جبريل ومن هؤلاء البيض الوجوه ومن هؤلاء الذين في ألوانهم شيء، وما هذه الأنهار التي دخلوها فقال:

أما لهؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم؛ وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا، فتاب الله عليهم؛ وأما هذه الأنهار فأولها رحمة الله، والثاني نعمة الله، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً. وقيل له: هذا مكانك ومكان أمتك، وإذا هو بأمته شطرين؛ شطر عليهم ثياب كأنها القراطيس، وشطر عليهم ثياب رمد. فدخل البيت المعمور، ودخل معه الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرمد وهم على خير؛ فصلى ومن معه من المؤمنين في البيت المعمور؛ وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة آخر ما عليهم. ثم خرج ومن معه ﷺ وفي الحديث عند الطبراني بسند صحيح: «مررت ليلة أسريَ بي على الملأ الأعلى، فإذا جبريل كالحلس البالي من خشية الله»[1].

وفي رواية عند البزار: «كأنَّه حلس لاطئ» . ثم أُتي بإناءٍ من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل؛ فأخذ اللبن، فقال جبريل: أصبت، أصاب الله بك أمتك على الفطرة. وفي رواية: هذه الفطرة التي أنت عليها وأمتك. ثم رفع إلى سدرة المنتهى، وإليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوق فيقبض منها، وإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها؛ وإذا نبقها مثل قلال هجر، وإذا ورقها كآذان الفيلة تكاد الورقة تغطي هذه الأمة.

وفي رواية: الورقة مغطية للأمة كلها. وفي لفظ عندد الطبراني: الورقة منها تظل الخلق على كل ورقة ملك، فغشيها ألوان لا يُدرى ما هي فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت.

وفي رواية: تحولت ياقوتاً وزبرجداً، فما يستطيع أحد أن ينعتها من حسنها فيها فراش من ذهب. وفي رواية: تلوذ بها جراد من ذهب، فقيل له: هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد من أمتك خلا على سبيلك، وإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات. وفي رواية: وإذا في أصلها عين تجري يقال لها السلسبيل، ينشق منها نهران أحدهما الكوثر رأيته عجاجاً مثل البَهْم، عليه جنابذ اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعليه طير خضر أنعم طير أنت راءٍ فيه آنية الذهب والفضة، يجري على رضراض من الياقوت والزمرد؛ وماؤه أشد بياضاً من اللبن، فأخذ من آنيته، فاغترف من ذلك الماء، فشرب، فإذا هو أحلى من العسل وأشد ريحاً

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (١ : ٧٨). والمتقي الهندي في كنز العمال (١٥١٦٣).

من المسك. فقال له جبريل: هذا النهر الذي خبأه لك ربك، والنهر الآخر نهر الرحمة. فاغتسل فيه، فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وفي حديث عبد الله بن مسعود أنه ﷺ رأى جبريل عند السدرة له ستمائة جناح، جناح منها قد سد الأفق يتناثر من أجنحته التهاويل الدر والياقوت مما لا يعلمه إلاَّ الله تعالى، ثم أخذ على الكوثر حتى دخل الجنة؛ فإذا فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فرأى على بابها مكتوباً: «الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر». فقال: يا جبريل، ما بال القرض أفضل من الصدقة؟ قال: إنَّ السائل يسأل وعنده، والمستقرض لا يستقرض إلاَّ عن حاجة. فاستقبلته جارية، فقال: لمن أنت يا جارية؟ قالت: لزيد بن حارثة. ورأى الجنة من درة بيضاء، وإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، فقال: يا جبريل إنَّهم يسألوني عن الجنة، فقال: أخبرهم أنَّها قيعان، وأنَّ ترابها المسك. وسمع في جانبها وجباً، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: بلال المؤذن، فسار، فإذا هو بأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى؛ وإذا رمانها كالدلاء. وفي رواية: وإذا فيها رمان كأنَّه جلود الإبل المقتبة، وإذا بطيرها كالبخاتي. فقال أبو بكر: يا رسول الله إنَّ تلك الطير لنا عمة. قال: أكلتها أنعم منها، وإني لأرجو أن تأكل منها. وبينما هو يسير إذا هو بنهر على حافتيه قباب الدر المجوف، وإذا طينه مسك أذفر. فقال جبريل: هذا الكوثر. ثم عرضت عليه النار، فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها؛ فإذا قوم يأكلون الجيف، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس. ورأى رجلاً أحمر أزرق، فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عاقر الناقة. ورأى مالكاً خازن النار، فإذا رجل عابس يعرف الغضب في وجهه، فبدأ النبي ﷺ ثم أغلقت دونه. ثم رفع إلى سدرة المنتهى، فغشيها من أنوار الخلائق، وغشيها من الملائكة أمثال الغربان حتى يقعن على الشجر، ونزل على كل ورقة ملك من الملائكة فغشيها سحابة فيها من كل لون.

وفي حديث إنَّ جبريل قال له: إنَّ ربك يسبح. قال: وما يقول؟ قال: يقول سبوح قدوس، رب الملائكة والروح سبقت رحمتي غضبي. ثم عرج به حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام، ورأى رجلاً مغيباً في نور العرش، فقال: من هذا أملك؟ قيل: لا. قال: أنبي؟ قيل: لا. قال: من هو؟ قيل: هذا رجل كان في الدنيا لسانه رطب من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد، ولم يستسب لوالديه قط. فرأى ربه سبحانه وتعالى فخر النبي ﷺ ساجداً، وكلمه ربه تعالى عند ذلك، فقال له: يا محمد قال: لبيك يا رب. قال: سل. فقال: إنَّك اتخذت إبراهيم خليلاً وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً

عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيماً، وسخرت له الرياح، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يُبرىءُ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم؛ فلم يكن للشيطان عليهما سبيل، فقال الله سبحانه وتعالى: قد اتخذتك حبيباً. قال الراوي: وهو مكتوب في التوراة حبيب الله، وأرسلتك للناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك. لا أذكر إلاَّ ذكرت معي، وجعلت أمتك خير أمةٍ أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمةً وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولون والآخرون، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنَّك عبدي ورسولي، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً وآخرهم بعثاً وأولهم يقضي له، وأعطيتك سبعاً من المثاني لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصدقة والصلاة وصوم رمضان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإني يوم خلقت السمٰوات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك...قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «فضلني ربي، أرسلني رحمةً للعالمين وكافةً للناس بشيراً ونذيراً، وألقي في قلب عدوي الرعب من مسيرة شهر، وأحل لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، وعرضت عليّ أمتي فلم يخف عليَّ التابع والمتبوع، ورأيتهم أتوا على قوم يتنعلون بالشعر، ورأيتهم أتوا على قوم عراض الوجوه صغار الأعين، كأنما خرزت أعينهم بالمخيط فلم يخف عليَّ ما هم لاقون من بعدي، وأمرت بخمسين صلاة»[1]. اهـ.

وأعطي ثلاثاً أنَّه سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين. وفي حديث ابن مسعود: وأعطي رسول ﷺ الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات، ثم انجلت عنه السحابة، وأخذ بيده جبريل فانصرف سريعاً، فأتى على إبراهيم فلم يقل شيئاً. ثم أتى على موسى قال: ونعم الصاحب كان لكم. فقال: ما صنعت يا محمد؟ ما فرض ربك عليك وعلى أمتك «قال: فرض عليّ وعلى أمتي خمسين صلاة كل يوم وليلة. قال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف عنك وعن أمتك، فإنَّ أمتك لا تطيق ذلك؛ فإني قد خبرت الناس قبلك، وبلوت بني إسرائيل وعالجتهم أشد المعالجة على أدنى من هذا فضعفوا وتركوه؛ وأمتك أضعف أجساداً وأبداناً وقلوباً وأبصاراً وأسماعاً.

---

(١) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢: ٤٠٣).

فالتفت النبي ﷺ إلى جبريل يستشيره، فأشار إليه جبريل: أن نعم إن شئت، فرجع سريعاً حتى انتهى إلى الشجرة، فغشيته السحابة وخر ساجداً، وقال: رب خفف عنا.

وفي لفظ عن أمتي، فإنها أضعف الأمم. قال: قد وضعت عنكم خمساً، ثم انجلت السحابة ورجع إلى موسى، فقال: وضع عني خمساً فقال: ارجع إلى ربك واسأله التخفيف، فإنَّ أمتك لا تطيق ذلك، فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه يحط عنه خمساً خمساً، حتى قال: يا محمد. قال: لبيك وسعديك. قال: هنَّ خمس صلوات، كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة لا يبدل القول لدي ولا ينسخ كتابي تخفيفاً عنك، كتخفيف خمس صلوات، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة. فنزل حتى انتهى إلى موسى، فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف فإنَّ أمتك لا تطيق ذلك. فقال: قد راجعت ربي حتى استحييت منه، ولكن أرضى وأسلم، فنادى مناد أن قد أَمضيت فريضتي وخففت عن عبادي. فقال له موسى: اهبط بسم الله. ولم يمر على ملأ من الملائكة إلاَّ قالوا: عليك بالحجامة.

وفي لفظ: مر أمتك بالحجامة. ثم انحدر فقال لجبريل: ما لي لم آت أهل سماء إلاَّ رحبوا بي وضحكوا إليّ؛ غير واحد سلمت عليه، فرد علي السلام، ورحب بي، ودعا لي بخير ولم يضحك إليَّ. قال: ذلك مالك خازن النار، لم يضحك منذ خلق؛ ولو ضحك لأحد لضحك إليك. فلما نزل إلى السماء الدنيا نظر أسفل منه، فإذا هو برهج ودخان وأصوات، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم، لا يتفكرون في ملكوت السمٰوات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب. ثم ركب منصرفاً، فمر بعير قريش بمكان كذا وكذا منها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء.

فلما حاذى العير نفرت واستدارت، وصرع ذلك البعير، وانكسر ومر بعير قد أضلوا بعيراً لهم قد جمعه فلان فسلم عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتى أصحابه قبيل الصبح بمكة؛ فلما أصبح قطع وعرف أنَّ الناس تكذبه، فقعد حزيناً. فمر به عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال: أُسري بي الليلة. فقال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا. قال: نعم. قال: فلم ير أنَّه يكذبه مخافة أن يجحده. الحديث: إن دعا قومه إليه قال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتني؟ قال: نعم. قال: يا معشر بني كعب بن لؤي هلموا. فانقضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما، فقال: حدث قومك بما حدثتني. فقال

رسول الله ﷺ إني أسري الليلة بي. قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا! قال: نعم. فمن بين مصفق ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً، وضجوا وأعظموا ذلك، فقال المطعم بن عدي: كل أمرك كان قبل اليوم أمماً غير قولك اليوم أنا أشهد أنك كاذب. نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصعداً شهراً، ومنحدراً شهراً تزعم أنك أتيته في ليلة. واللات والعزى لا أصدقك. فقال أبو بكر: يا مطعم بئس ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبته أنا أشهد أنه صادق. فقالوا: يا محمد، صف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ وفي القوم من سافر إليه، فذهب ينعت لهم بناؤه كذا، وهيئته كذا، وقربه من الجبل كذا. فما زال ينعت لهم حتى التبس عليه النعت. فكرب كرباً ما كرب مثله؛ فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل أو عقال، فقالوا: كم للمسجد من باب؟ ولم يكن عدها، فجعل ينظر إليه ويعدها باباً باباً، ويعلمهم، وأبو بكر يقول: صدقت أشهد أنك رسول الله.

فقال القوم: أما النعت، فو الله لقد أصاب. ثم قالوا لأبي بكر: أفتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك. أصدقه بخبر السماءِ في غدوة وروحة؛ فبذلك سمي أبو بكر الصديق. ثم قالوا: يا محمد، أخبرنا عن عيرنا، فقال: أتيت على عير فلان بالروحاء قد أضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها؛ فانتهيت إلى رحالهم فليس بها منهم أحد؛ وإذا قدح ماءٍ، فشربت منه، ثم انتهيت إلى عير بني فلان بمكان كذا وكذا فيها جمل أحمد عليه غرارة سوداء وغرارة بيضاء؛ فلما حاذيت العير نفرت، وصرع ذلك البعير، وانكسر؛ ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم يقدمها جمل أورق، عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان وها هي ذا تطلع عليكم من الثنية، قالوا: فمتى تجيء؟ قال: يوم الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم، أشرقت قريش ينتظرون، وقد ولى النهار، ولم تجئ. فدعا النبي ﷺ فزيد له في النهار ساعة، وحبست عليه الشمس حتى دخلت العير، فاستقبلوا الإبل فقالوا: هل ضل لكم بعير؟ قالوا: نعم. فسألوا العير الآخر، فقالوا: هل انكسر لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة من ماء؟ فقال رجل: أنا والله وضعتها، فما شربها أحد منا، ولا أهريقت في الأرض فرموه بالسحر. وقالوا: صدق الوليد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

فائدة: أخرج ابن مردويه، عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ منذ أسرى به ريحه ريح عروس وأطيب من ريح عروس. ولله در الإمام البوصيري، حيث قال مخاطباً للذات الشريفة:

سريت من حرم ليلاً إلى حرم   كما سرى البدر في داج من الظلم

وبت ترقى إلى أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم في موكب كنت فيه صاحب العلم
حتى إذا لم تدع شأوا لمستبق من الدنوّ ولا مرقى لمستنم
خفضت كل مقام بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المفرد العلم
كيما تفرز بوصل أيّ مستتر عن العيون وسرايّ مكتتم
فحزت كل فخار غير مشترك وجزت كل مقام غير مزدحم
وجل مقدار ما وُلّيت من رتب وعز إدراك ما أوليت من نعم
بشرى لنا معشر الإسلام أنّ لنا من العناية ركناً غير منهدم
لما دعا الله داعينا لطاعته بأكرم الرسل كنا أكرم الأمم

ومن جواهر الحافظ الشامي

[ألفاظ وقعت في قصة المعراج]

قوله في الباب الخامس عشر، الذي ذكر فيه فوائد تتعلق بقصة المعراج: قال ابن المنير: كانت كرامته ﷺ في المناجاة على سبليل المفاجأة، كما أشار إليه ﷺ بقوله: بينما أنا وفي حق موسى عليه السلام عن ميعاد واستعداد، فحمل عنه ﷺ ألم الانتظار، ويؤخذ من ذلك أنّ مقام النبي ﷺ مقام المراد، وهو أرفع بالنسبة إلى مقام المريد.

ثم قال في الباب المذكور: الرجلان الذي كان النبي ﷺ نائماً بينهما تلك الليلة حمزة وجعفر رضي الله عنهما نبه عليه الحافظ ابن حجر، قال ابن أبي حمزة، وفي هذا دليل على تواضعه ﷺ وحسن خلقه، إذ إنّه في الفضل حيث هو، قال ابن أبي جمرة: وفي هذا دليل على تواضعه ﷺ وحسن خلقه، إذ إنّه في الفضل حيث هو، ومع ذلك كان يضطجع مع الناس ويقعد معهم، ولم يجعل لنفسه الكريمة مزية عليهم. ثم قال في الباب الخامس عشر أيضاً: ظاهر قوله ثم أتي بالمعراج أنّ العروج كان على البراق، وفي ذلك خلاف. فظاهر حديث مالك بن صعصعة أنّه استمر على البراق، حتى عرج به إلى السماء؛ وهو مقتضى كلام ابن أبي جمرة وابن دحية.

قال الحافظ بن حجر: لكن في غير هذه الرواية من الأخبار أنّ العروج لم يكن على البراق بل رقى في المعراج وهو السلم ويؤيده قوله ﷺ في حديث ثابت، عن أنس كما في صحيح مسلم ثم أتيت بالمعراج؛ وقال الحافظ بن كثير: إنّه لما فرغ ﷺ من أمر بيت

المقدس، نصب له المعراج وهو السلم فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن على البراق كما قد يتوهمه بعض الناس، بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس، ليرجع به إلى مكة. وقال السيوطي: إنَّه الصحيح الذي تقرر من الأحاديث الصحيحة.

ثم قال في الباب الخامس عشر أيضاً: نوع ابن دحية المعراج إلى عشرة أنواع على عدد سني الهجرة، منها سبعة معاريج إلى السمٰوات السبع، والمعراج الثامن إلى سدرة المنتهى، والمعراج التاسع الذي سمع فيه صريف الأقلام في تصاريف الأقدار، والمعراج العاشر إلى العرش والرفرف والرؤية.

ثم قال في الباب المذكور: لا تتوهم مما تسمعه في قصة المعراج من الصعود والهبوط أنَّ بين العبد وربه مسافة؛ فإنَّ ذلك كفر نعوذ بالله من ذلك، وإنما هذا الصعود والهبوط بالنسبة إلى العبد لا إلى الرب، والنبي ﷺ مع انتهائه ليلة الإسراء إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى لم يجاوز مقام العبودية، وكان هو ونبي الله يونس بن متى عليه السلام إذ التقمه الحوت وذهب به في البحار يشقها، حتى انتهى به إلى قرار البحر في مباينة الله تعالى خلقه، وعدم الجهة والتحيز والحد والإحاطة سواء. وقد قيل: ذهب به الحوت مسيرة ستة آلاف سنة. ذكره البغوي وغيره.

إذا علمت ذلك، فالمراد بترقيه ﷺ وقطع هذه المسافات إظهار مكانته عند أهل السمٰوات، وأنَّه أفضل المخلوقات، ويقوي هذا المراد كونه تعالى أركبه البراق، ونصب له المعراج، وجعله إماماً للنبيين والملائكة، مع أنَّه تعالى قادر على أن يرفعه بدون البراق والمعراج. ويقال لأصحاب الجهة: إنما منعكم من اعتقاد الحق استبعادكم أن يكون كل موجود إلاَّ في جهة، فأحلتم ذلك؛ فأخبرونا عن العرش والرفرف هل ذلك قديم أو محدث؟ فإن قالوا: قديم جاهروا بقدم العالم، وأدى ذلك إلى محالين:

أحدهما: أن يكون مع الباري تعالى في الأزل غيره، والقديمان ليس أحدهما بأن يكون مكاناً للثاني بأولى من الآخر.

ثانيهما: أي ثاني المحالين الجهة والمكان، إما أن يكونا جسمين. وهذا يؤدي إلى جواز وجود الأجساد كلها أزلاً، وهو قول من قال بقدم العالم نعوذ با لله سبحانه من ذلك وإن قالوا: محدث، فقل: لقد صدقتم بأنَّ الباري تعالى كان موجوداً أو لا، ولا جهة.

والمستحيل لا ينقلب جائزاً واجباً إذ الحادث لا يحتاج إليه القديم. فثبت كونه تعالى كان مستغنياً عنه، وهو على استغنائه عنه لم يزل، وكذلك لا يزال. ومحال أن يكون خالق الكل مفتقراً إلى بعض مخلوقاته. وما ورد من الاستواء، والنزول، وغير ذلك من الصفات

التي يشكل إجراؤها على ظاهرها، نؤمن به، ونكل علم معناه إلى الله تعالى ولا نشبهه تعالى بخلقه ولا ننفي الصفات التي أثبتها سبحانه وتعالى لنفسه وأثبتها له رسوله ﷺ.

ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: رحمه الله تعالى: نقل ابن دحية، عن ابن حبيب، والحافظ ابن حجر، عن ابن المنير، عن ابن حبيب؛ وأقره: «إنَّ بين السماء والأرض بحراً يسمى المكفوف، تكون بحار الدنيا بالنسبة إليه كالقطرة من المحيط؛ فعلى هذا يكون ذلك البحر انفلق لنبينا محمد ﷺ تلك الليلة»، فهو أعظم من انفلاق البحر لموسى عليه السلام.

ثم قال رحمه الله تعالى في الباب الخامس عشر أيضاً في قدر ما بين السماء والأرض: روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، وحسنه وابن خزيمة في صحيحه، عن العباس رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: أتدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء خمسمائة سنة، وكثف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض.

ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين ركبهن وأظلافهنَّ كما بين السماء والأرض؛ ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، ثم الله تعالى فوق ذلك أي فوقية لا نعلم كيفيتها تليق به سبحانه وتعالى ثم قال في الباب الخامس عشر أيضاً: استفتاح جبريل باب السماء ويحتمل أن يكون بقرع أو صوت. قال الحافظ ابن حجر: والأشبه الأول لأنَّ صوته معروف. قال الحافظ الشامي: يقول في حديث ثابت البناني عن أنس: فقرَع الباب. وقال ابن دحية: في استفتاح جبريل لأبواب السماء دليل على أنَّه صادف أبوابها مغلقة، وإنَّما لم يتهيأ للنبي ﷺ بالفتح قبل مجيئه، وإن كان أبلغ في الإكرام لأنه لو رآها مفتحة لظنَّ أنَّها لا تزال كذلك، ففعل ذلك ليعلم أنَّ ذلك فعل من أجله، ولأنَّ الله تعالى أراد أن يطلعه على كونه معروفاً عند أهل السمٰوات.

وقول أمين الوحي لما قيل له: من هذا؟ جبريل، سمي نفسه لئلا يلتبس بغيره، ولا يحتاج إلى معرف للمراجعة في أمره، فإنَّه معهود عندهم نزوله وصعوده، ولذلك قدم اسمه لأنه الرسول لإحضار النبي ﷺ ثم قال الحافظ الشامي قول خازن السماء: وقد بعث إليه. أراد الاستفهام، فحذف الهمزة للعلم بها. قال العلماء: ليس هذا الاستفهام عن البعث الذي هو الرسالة، لأنَّه كان مشهوراً في الملكوت الأعلى، بل البعث للمعراج. وقيل: بل سألوا تعجباً من نعمة الله تعالى عليه بذلك أو استبشاراً به، وإنَّ جبريل لا يصعد بمن لا يرسل إليه.

وقول الخازن: من معك؟ يشعر بأنهم أحسوا معه برفيق، وإلاَّ لكان السؤال: أمعك أحد؟ وذلك الإحساس إما بمشاهدة لكون السماء شفافة، وإما لأمر معنوي كزيادة أنوار. ولزم من البعث إليه ﷺ الإذن في إزالة الموانع وفتح أبواب السماء. ولم يتوقف الخازن على أن يوحى إليه بالفتح، لأنه لزم عنده من البعث الإذن.

وفي قول الخازن: مرحباً به... إلخ ما يدل على أنَّ الحاشية إذا فهموا من سيدهم عزماً لإكرام واحد أن يبشروه بذلك، وإن لم يأذن لهم فيه ولا يكون في ذلك إفشاء للسر، لأنَّ الخازن أعلم النبي ﷺ حال استدعائه أنّه استدعاء إكرام وإعظام فعجل بالبشرى. ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً قول الخازن لجبريل: من معك؟ فقال: محمد دليل على أنَّ الاسم أرفع من الكنية، لأنّه أخبر باسمه، ولم يخبر بكنيته. وهو عليه الصلاة والسلام مشهور في العالمين العلوي والسفلي. فلو كانت الكنية أرفع من الاسم لأخبر بكنيته ﷺ ثم قال في الباب الخامس عشر أيضاً: قال ابن أبي جمرة: استفهام الملائكة بقولهم: وقد أرسل إليه فيه دليل على أنَّ أهل العالم العلوي يعرفون رسالته ومكانته، لأنهم سألوا عن وقتها لا عنها، ولذلك أجابوا بقولهم: مرحباً ونعم المجيء جاء.

وكلامهم بهذه الصيغة أدل دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلال مكانته، وتحقق رسالته ﷺ لأنَّ هذا أجل ما يكون من حسن الخطاب على المعروف من عادة العرب.

وقد قال بعض العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨] أنّه ﷺ رأى صورة ذاته المباركة في الملكوت؛ فإذا هو عروس المملكة. ثم قال: وقع في رواية أنس، عن أبي ذر: قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم. وظاهره أنّه سأل عنه بعد أن قال له آدم: مرحباً. ورواية مالك بن صعصعة بعكس ذلك، وهي المعتمدة فتحمل هذه عليها، وليس في رواية أبي ذر ترتيب. وفي قول آدم: مرحباً بالابن الصالح إشارة إلى افتخاره بأبوة النبي ﷺ ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: في قول آدم مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح ثناء جميل، حفيل للنبي ﷺ ووصفه بالصلاح مكرراً مع البنوة والنبوة، أي صالح في المعنيين جميعاً. وفيه تنويه بفضل الصلاح وعلو درجته، ولهذا وصف به النبي ﷺ قال بعضهم: وصلاح الأنبياء صلاح خاص لا يتناول عموم الصالحين، واحتج على ذلك بأنّه قد تمنى كثير من الأنبياء أن يلحق بالصالحين، ولا يتمنى الأعلى أن يلحق بالأدنى.

ولا خلاف أن النبوة أعلى من صلاح الصالحين من الأمم؛ فهذا يحقق أنَّ الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم، وصلاح الأنبياء صلاح كامل لأنهم يزول بهم كل فساد؛ فلهم كل صلاح، ومن دونهم الأمثل. فالأمثل؛ فكل واحد يستحق اسم

الصلاح على قدر ما زال به أو منه من الفساد؛ واقتصر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم على وصفه ﷺ بالصلاح، وتواردوا عليه لأنَّ الصلاح يشمل خلال الخير؛ ولذلك كرره كل منهم عند وصفه به؛ والصالح هو الذي يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد؛ فمن ثم كانت كلمته جامعة مانعة، شاملة لسائر الخلال المحمودة؛ ولم يقل أحد منهم: مرحباً بالنبي الصادق ولا بالنبي الأمين، لما ذكرنا من أنَّ الصلاح شامل لسائر أنواع الخير.

ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً قال العلماء: لم يكن بكاء موسى عليه السلام حسداً للنبي ﷺ معاذ الله فإنَّ الحسد في ذلك العالم منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف من اصطفاه الله تعالى؟ بل كان آسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أمته من كثرة المخالفة المقتضية لتنقيص أجورهم المستلزمة لتنقيص أجره، لأنَّ لكل نبي مثل أجر من تبعه.

ولهذا كان من اتبعه في العدد دون من اتبع نبينا ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة إلى مدة هذه الأمة. وقال ابن إبي جمرة: الأنبياء ﷺ جعل الله تعالى في قلوبهم الرحمة والرأفة لأممهم. وقد بكى النبي ﷺ فسئل عن بكائه، فقال: هذه رحمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، والأنبياء قد أخذوا من رحمة الله عزَّ وجل أوفر نصيب.

وكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم، فلأجل ما كان لموسى عليه السلام من الرحمة واللطف، بكى إذا ذاك رحمة منه لأمته، لأنَّ هذا وقت أفضال وجود وكرم، فرجا أن يكون وقت القبول والأفضال، فيرحم الله تعالى أمته ببركة هذه الساعة. وهذا وقت يرجى فيه العطف والإحسان من الله تعالى لأنه وقت أسري فيه بالحبيب، ليخلع عليه خلعة القرب والفضل العميم؛ فطمع الكليم لعل أن يلحق أمته نصيب من ذلك الخير العظيم. ووجه آخر، وهو البشارة للنبي ﷺ وإدخال السرور عليه، يشهد لذلك بكاؤه حين ولي النبي ﷺ وقبل أن يبعد عنه لكي يسمعه، لأنَّه لو كان البكاء خاصاً بموسى لم يكن ليبكي حتى يبعد عنه النبي ﷺ فلا يسمعه، لأنَّ بكاءه والنبي ﷺ يسمع فيه شيء من التهوين عليه. فلما إن كان المراد بذلك ما يتضمن البشارة له ﷺ بسبب البكاء، بكى والنبي ﷺ يسمعه، والبشارة التي تضمنها البكاء هي قول موسى عليه السلام الذي هو أكثر الأنبياء أتباعاً إنَّ الذي يدخل الجنة من أمة محمد ﷺ هو أكثر ممن يدخلها من أمة موسى عليه السلام وقد وقع من موسى العناية بهذه الأمة في أمر الصلاة ما لم يقع من غيره.

ووقعت الإشارة بذلك في حديث أبي هريرة مرفوعاً: كان موسى أشدهم علي حين مررت به، وخيرهم حين رجعت إليه. وفي حديث أبي سعيد: فأقبلت راجعاً، فمررت بموسى

قال ﷺ: ونعم الصاحب كان لكم. ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: قول موسى عليه السلام غلام ليس على سبيل النقص، بل على سبيل التنويه بقدرة الله تعالى وعظيم كرمه إذ أعطاه ﷺ في ذلك السن ما لم يعط أحداً قبله ممن هو أسن منه. وقال الخطابي: العرب تسمي الرجل المستجمع السن غلاماً ما دامت فيه بقية من القوة. وقال ابن أبي جمرة: العرب إنما يطلقون على المرء غلاماً، إذا كان سيداً فيهم، فلأجل ما في اللفظ من الاختصاص على غيره من الألفاظ بالأفضلية، ذكره موسى عليه السلام ولم يذكر غيره تعظيماً للنبي ﷺ.

وقال الحافظ ابن حجر: ويظهر أنَّ موسى عليه السلام أشار إلى ما أنعم الله به على نبينا ﷺ من استمرار القوة في الكهولة، وإلى أنَّه دخل في سن الشيخوخة؛ ولم يدخل في بدنه هرم، ولا عرى قوته نقص حتى أن النَّاس لما رأوه ﷺ مردفاً لأبي بكر عند قدومه المدينة أطلقوا عليه اسم الشاب، وعلى أبي بكر إسم الشيخ، مع كونه ﷺ في العمر أسن من أبي بكر. ثم قال رحمه الله في الباب الخامس عشر أيضاً: قول موسى عليه السلام: ربٌّ لم أظن أن ترفع عليّ أحداً. قال ابن بطال: فهم موسى عليه السلام من اختصاصه بكلام الله تعالى بقوله: ﴿ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي ﴾ [الأعراف:١٤٤] إنَّ المراد بالناس هنا البشر كلهم، وأنَّه استحق بذلك أن لا يرفع عليه أحداً، فلما فضل عليه محمداً ﷺ بما أعطاه من المقام المحمود وغيره، ارتفع على موسى وغيره.

ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً قوله: فغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى: المراد تشريف النبي ﷺ بهذا الأمر، أي لو كان له ذنوب لغفرت، ولم يكن له ذنب ألبتة. وحكى الحافظ السيوطي في كتابه «المحرر» في الكلام على هذه الآية اثني عشر قولاً.

ونقل عن السبكي فساد خمسة منها، وبين الحافظ السيوطي فساد الباقي. ثم قال: وأما الأقوال المقبولة، ففي «الشفا» للقاضي عياض قيل: إنَّ النبي ﷺ لما أمر أن يقول: «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم» سر بذلك الكفار، فأنزل الله تعالى: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:٢] وأخبر تعالى بما للمؤمنين في الآية الأخرى بعدها، فمقصد الآية أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب أن لو كان. قال السيوطي: وهذا الأثر رواه ابن المنذر في تفسيره، عن ابن عباس بدون قوله وأخبر بما للمؤمنين . . . إلخ. وروى الإمام أحمد والترمذي والحاكم، عن أنس قال: أنزل على النبي ﷺ: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح:٢] مرجعه من الحديبية، فقالوا: هيناً لك يا رسول الله، لقد بين الله ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [الفتح:٥] إلى قوله ﴿ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح:٥].

قال القاضي: قال بعضهم: المغفرة هنا تنزيه من العيب. وقال بعض المحققين: المغفرة هنا كناية عن العصمة، فمعنى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. يعصمك فيما تقدم من عمرك وفيما تأخر منه. وهذا القول في غاية الحسن. ثم نقل عن السبكي أنّه قال: قد تأملت هذه الآية بذهني مع ما قبلها وما بعدها، فوجدتها لا تحتمل إلاَّ وجهاً واحداً، وهو تشريف النبي ﷺ من غير أن يكون هناك ذنب، ولكنه أراد تعالى أن يستوعب في الآية جميع أنواع النعم من الله تعالى على عباده الأخروية وجميع الأخروية شيئان سلبية، وهي غفران الذنوب وثبوتية، وهي لا تتناهى.

أشار إليها تعالى بقوله: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح:٢] ودنيوية وإن كان هنا المقصود بها الدين، وهي قوله تعالى﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣] وقدم الاخروية على الدنيوية، وقدم في الدنيوية الدينية على غيرها تقديماً للأهم، فانتظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام نعم الله تعالى المفرقة في غيره، وبعد أن وقعت على هذا المعنى، رأيت ابن عطية قد وقع عليه، فقال: وإنما المعنى تشريف النبي ﷺ بهذا الحكم، ولم تكن ذنوب ألبتة. وقد وفق فيما قاله.

ثم قال في الباب الخامس عشر أيضاً: قال ابن دحية: في عرض الجنة عليه ﷺ كرامة عظيمة، لأنّه كان يعرض الجنة على أمته ليشتروها، كما قال عن ربه تبارك وتعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، فأراد الله تعالى أن يعاين النبي ﷺ ما يعرضه على امته، ليكون وصفه إياها عن مشاهدة، ولأنّه ﷺ كان يدعو الناس إلى الجنة، وهي الدار التي هيأها الله لضيافة عباده المؤمنين، وبعث النبي ﷺ داعياً إليها فأراد الله تعالى أن يريه الدار، وكثرة ما أعد فيها من النعم والكرامة لئلا يضمن بالدعوة إليها، وليعلم أنها تسع الخلائق كلهم ولا تمتلىءُ حتى ينشأ الله تعالى لها خلقاً، كما ثبت في الحديث.

ويحتمل أنّه إنما أراه إياها، ليعلم خسة الدنيا في جنب ما رآه، فيكون في الدنيا أزهد، وعلى الشدائد أصبر، حتى يؤديه إلى الجنة. فقد قيل: حبذا محنة تؤدي بصاحبها إلى الرخاء، وبئس نعمة تؤدي بصاحبها إلى البلاء. ويحتمل أنَّ الله تعالى أراد أن لا تكون لأحد كرامة إلاَّ أن يكون لمحمد ﷺ مثلها. ولما كان لإدريس عليه السلام كرامة دخول الجنة قبل يوم القيامة، أراد الله سبحانه وتعالى أن تكون أيضاً لصفيه وحبيبه محمد ﷺ.

ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: قال ابن دحية: إنما عرضت

عليه ﷺ النار ليكون في القيامة إذا قال سائر الأنبياء: نفسي نفسي، يقول ﷺ: أمتي أمتي. وذلك حين تسجر جهنم، ولذلك أمن الله تعالى محمداً ﷺ فقال عزَّ من قائل: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ [التحريم:٨].

والحكمة في ذلك أن يفزع إلى شفاعة أمته ﷺ ولو لم يؤمنه، لكان مشغولاً بنفسه كغيره من الأنبياء، لأنهم لم يَروا قبل يوم القيامة شيئاً منها؛ فإذا رأوها جزعوا، وكفت ألسنتهم عن الخطبة والشفاعة من هولها، وشغلتهم أنفسهم عن أممهم: وهو ﷺ قد رأى ذلك، فلا يفزع منها مثلما فزعوا، فقدر على الخطبة والشفاعة، وهو المقام المحمود، لأنَّ الكفار لما كانوا يكذبونه ويستهزئون به يؤذونه أشد الأذى ﷺ أراه الله سبحانه وتعالى النار التي أعدها للمستخفين به وبأمره، تطييباً لقلبه، وتسكيناً لفؤاده.

والإشارة في ذلك إلى أنَّ من طيب قلبه في شأن أعدائه بالإهانة والانتقام، فأولى أن يطيب قلبه في شأن أوليائه بالشفاعة والإكرام؛ وليعلم منة الله عليه حين أنقذهم منها ببركته وشفاعته ﷺ ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: ذكر ﷺ أنَّه لم يلقه ملك من الملائكة إلاَّ ضاحكاً مستبشراً، إلاَّ مالكاً خازن النار؛ وذلك أنَّه لم يضحك لأحد قبله، ولا هو ضاحك لأحد بعده.

قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم:٦] وهم موكلون بغضب الله تعالى فالغضب لا يزايلهم أبداً. ثم قال في الباب الخامس عشر أيضاً: المناسبة بين المعراج العاشر وهو الرفرف والعام العاشر من سني الهجرة، أنَّه ﷺ لقي الله تعالى وحضر بحضرة القدس، وقام مقام الإنس، ورفع الحجاب، وسمع الخطاب. وكان قاب قوسين أو أدنى، لا بالصورة بل بالمعنى.

والعام العاشر اجتمع فيه اللقاءان: أحدهما لقاء البيت وحج الكعبة، ووقوف عرفة وإكمال الدين، وإتمام النعمة على المسلمين. واللقاء الثاني لقاء رب البيت، وكانت فيه الموافاة واللقاء والانتقال من دار الفناء إلى دار البقاء، والعروج بالروح الكريمة إلى المقعد الصدق وإلى الموعد الحق وإلى الوسيلة. وهي المنزلة الرفيعة التي لا تنبغي إلاَّ لعبد واحد، اختاره الله تعالى وهو محمد ﷺ كما ورد في صحيح الخبر أنَّه ﷺ سئل عن الوسيلة، فقال: درجة في الجنة لا تنبغي إلاَّ لعبد واحد اختاره الله تعالى من عباد الله، وأرجو أن أكون إياه ورجاؤه ﷺ محقق، وأمله مصدق، وخاطره موفق ﷺ.

ثم قال في الباب الخامس عشر أيضاً: قال ابن دحية: خص رسول الله ﷺ بالرؤية والمكالمة، لأنَّه صاحب الشفاعة في القيامة، فحصل له ذلك قبلها لئلا يقع له حشمة البديهة،

كما يقع لغيره من الأنبياء، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يزيلها عنه قبل ذلك المقام، ليتمكن من المقام المحمود؛ وأهّله سبحانه قبل المشهد الأعلى للمشاهدة والكلام، فيتفرغ للمشهد الأعلى ويتمكن في المقام المحمود. ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: قوله تعالى: وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش . . . إلخ. روى الإمام أحمد، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، لم يعطهن نبي قبلي**»(١).

ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: الحكمة في تخصيص فرض الصلاة بليلة الإسراء أنّه ﷺ لما عرج به تلك الليلة رأى تعبد الملائكة، وإنَّ منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد؛ فجمع الله تعالى له ولأمته تلك العبادات كلها في ركعة واحدة، يصليها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

ثم قال في الباب الخامس عشر أيضاً في اختصاص فرضها بكونه بغير واسطة وبمراجعات متعددة. قال السهيلي: فيه التنبيه على فضلها، حيث لم تفرض إلاَّ في الحضرة المقدسة المطهرة؛ ولذلك كانت الطهارة من شأنها ومن شرائطها، والتنبيه على أنها مناجاة الرب، وأنَّ الرب تبارك وتعالى مقبل بوجهه على المصلي يناجيه، ويقول: حمدني عبدي، أثني عليّ عبدي. . . إلى آخر السورة، وقد فرضت عليه ﷺ فوق السماء السابعة، حين سمع كلام الرب وناجاه، ولم يعرج به حتى طهر ظاهره وباطنه بماء زمزم، كما يتطهر المصلي للصلاة.

وخرج عن الدنيا بجسده كما يخرج المصلي عن الدنيا بقلبه، ويحرم عليه كل شيء إلاَّ مناجاة ربه، وتوجهه إلى قبلته في ذلك الحين وهي بيت المقدس ورفع إلى السماء كما يرفع المصلي بدنه ءشارة إلى القبلة العليا، وهي البيت المعمور وإلى جهة عرش من يناجيه، ويصلي له سبحانه وتعالى ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: قال ابن أبي جمرة: الحكمة في كون إبراهيم عليه السلام لم يكلم رسول الله ﷺ في طلب التخفيف أنَّ مقام الخلة إنما هو الرضا والتسليم. والكلام في هذا الشأن ينافي ذلك المقام.

وموسى هو الكليم، والكليم أعطي الإدلال والانبساط. وقال السهيلي: اعتناء موسى عليه السلام بهذه الأمة، وإلحاحه على نبيها ﷺ أن يشفع لها ويسأل التخفيف عنها، لأن الله

---

(١) رواه أحمد في المسند (٥: ١٥١). وابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (٢٤). وأبو نعيم في دلائل النبوة (١: ١٣).

تعالى لما قضى إليه بجانب الغربي، رأى صفات أمة محمد ﷺ في الألواح، وجعل يقول: إني أجد في الألواح أمة صفتهم كذا وكذا. . . اللهم اجعلهم أمتي. فيقول: تلك أمة محمد. قال: اللهم اجعلني من أمة محمد. وهو حديث مشهور في التفاسير، فكان إشفاقه عليهم، واعتناؤه بأمرهم كما يعتني بالقوم من هو منهم، لقوله: اللهم اجعلني منهم. ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: في قول موسى عليه السلام قد عالجت الناس قبلك. . . إلخ دليل على أن علم التجربة علم زائد على العلوم، ولا يقدر على تحصيله بكثرة العلوم، ولا يكتسب إلا بها أعني التجربة لأن النبي ﷺ أعلم الناس وأفضلهم، سيما وهو حديث عهد بالكلام مع ربه تبارك وتعالى وارد من موضع لم يطأه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ثم مع هذا الفضل العظيم قال له موسى عليه السلام: أنا أعلم بالناس منك. ثم ذكر له العلة التي لأجلها كان أعلم منه، بقوله: عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة فأخبره أنه أعلم منه بهذا العلم الخاص، الذي لا يوجد ولا يدرك إلا بالمباشرة، وهي التجربة.

ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: وفي سؤال موسى عليه السلام طلب التخفيف عن هذه الأمة، دليل على أن بكاءه أولاً حين صعود النبي ﷺ لم يكن إلا للوجه الذي أبديناه لا لغيره، لأنه لو كان لغير ذلك لبكى حين رجوع النبي ﷺ إليه أو سكت، ولكنه عليه السلام قام في الخدمة والنصيحة للنبي ﷺ فلما أن كان بكاؤه أولاً للوجه الذي ذكرناه، ولم يصادف ما أشرنا إليه، وإنما كانت هذه النفحة من النفحات الخاصة بالنبي ﷺ وبأمته بمقتضى الحكمة والإرادة تعرض أيضاً عليه السلام لهذه الأمة بطلب التخفيف، فصادف تعرضه هذه النفحة في موضعها لأنها خاصة بهذه الأمة، وتكلم هو عليه السلام في حقها، فأسعف فيما أراد، فخفف الله عز وجل إذ ذاك ورد الخمسين إلى خمس، فأزال تعالى عن الأمة فرض تلك الصلوات، وأبقى لهم ثوابها تفضلاً منه وإحساناً. ثم قال الحافظ الشامي في الباب المذكور: إنما امتنع النبي ﷺ من طلب التخفيف في المرة العاشرة لما أمره موسى به لأمرين:

أحدهما: أن الأمر إذا انتهى إلى حد الإلحاح كان الأولى الترك؛

ثانيهما: أن يكون النبي ﷺ تفرس أن هذا العدد لا يحط منه، فاستحيا أن يسأل في مظنة الرد.

ولهذا جاء في بعض الطرق: أن النبي ﷺ لما امتنع من المراجعة في المرة العاشرة، نادى مناد: أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي. ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: قال ابن دحية: دلت مراجعته ﷺ في طلب التخفيف تلك المرات كلها أنه علم أن

الأمر في كل مرة لم يكن على سبيل الإلزام بخلاف المرة الأخيرة، ففيها لم يشعر بذلك لقوله تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴾ [ق: ٢٩](١).

ثم قال في الباب المذكور: قال ابن أبي جمرة في امتناع النبي ﷺ في المرة العاشرة من طلب التخفيف دليل على أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد إسعاد عبد حصر اختياره في مرضاة به، لأن النبي ﷺ جعل الله تعالى اختياره وإيثاره لما أراد الحق تبارك وتعالى إنفاذه وإمضاءه، وهو فرض الصلوات الخمس، وذلك تكريم له ﷺ وترفيع لأنه لو رجع ﷺ فطلب التخفيف، فلم يخفف كما خفف أولاً، لكان اختياره مخالفاً للمقدور، فلما أن اختار وأسعف في اختياره كان دليلاً على ما استدللنا عليه، وعلى منزلته ﷺ وأنه ما دام يطلب التخفيف أسعف في رضاه.

ففي كل حال من طلب ومن عدم طلب كان اختياره هو انقياداً للمقدور، وفيه دليل للصوفية حيث يقولون: إن الحال حامل لا محمول، لأنه ﷺ لما أن ورد عليه حال الإشفاق على أمته بادر إلى طلب التخفيف عنهم، ولم ينظر لغير ذلك.

ثم لما أن ورد عليه الحياء من الله تعالى لم يلتفت لأمته إذ ذاك ولا طلب شيئاً. ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: قال بعض أهل الإشارات: لما تمكنت نار المحبة من قلب موسى عليه السلام أضاءت له أنوار نور الطور، فأسرع إليها ليقتبس فاحتبس. فلما نودي في النادي، اشتاق إلى المنادي، فكان يطوف في بني إسرائيل يقول: من يحملني رسالة إلى ربي؟ مراده بذلك أن تطول المناجاة مع الحبيب، فلما مر عليه نبينا ﷺ ليلة المعراج ورده في أمر الصلاة ليستفيد رؤية الحبيب، كما قيل:

واستنشق الأرواح من نحو أرضكمُ ... لعلي أراكم أو أرى من يراكمُ
فأنتم حياتي إن حييت وإن أمت ... فيا حبذا إن مت عبد هواكمُ

وقال آخر:

وإنما السر في موسى يردده ... ليجتلي حسن ليلى حين يشهده
يبدو سناها على وجه الرسول فيا ... لله در رسول حين أشهده

ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً: قوله ﷺ: «فلما جاوزت نادى مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي» من قول ما استدل به على أن الله تبارك وتعالى كلم

---

(١) وردت في الأصل: ﴿لا يبدل القول لدي﴾ في حين أن هذه الآية بهذا اللفظ غير واردة في القرآن، بل كما أثبتناه في المتن.

نبيه ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة. ثم قال رحمه الله تعالى في الباب الخامس عشر أيضاً: قال السهيلي: فإن قيل: كيف استباح النبي ﷺ شرب الماء الذي في القدح، وهو ملك لغيره، وأملاك الكفار لم تكن أبيحت يومئذ ولا دماؤهم؟

فالجواب: إن العرب في الجاهلية كان في عرف العادة عندهم إباحة اللبن لابن السبيل، فضلاً عن الماء. وللحكم بالعرف في الشريعة أصول تشهد له. قال الشامي: قلت: وذكر أئمتنا رحمهم الله في الخصائص أنه ﷺ أبيح له أخذ الطعام والشراب من مالكهما المحتاج إليهما، إذا احتاج ﷺ إليهما، وأنه يجب على صاحبهما البذل له ﷺ. قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٦].

ثم قال الحافظ الشامي في الباب المذكور: قوله: وحبست عليه الشمس. أخرج الطبراني عن جابر بسند حسن، كما قال الحافظ أبو الحسن الهيثمي في مجمع الزوائد، والحافظ ابن حجر في باب قوله ﷺ: «أحلت لكم الغنائم» من فتح الباري والحافظ أبو زرعة ابن العراقي في تكملته لشرح تقريب والده: إن النبي ﷺ أمر الشمس أن تتأخر ساعة من النهار، فتأخرت ساعة من النهار. وأخرجه باللفظ المذكور في القصة البيهقي، عن يونس بن بكير.

وأخرجه أيضاً عن إسماعيل بن عبد الرحمن السندي. قال الحافظ ابن حجر في الباب المذكور: ولا يعارضه ما رواه أحمد بسند صحيح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لم تحبس إلا ليوشع بن نون ليالي سار إلى بيت المقدس»[1].

ووجه الجمع أن الحصر محمول على ما مضى للأنبياء قبل نبينا ﷺ فلم تحبس الشمس إلا ليوشع، وليس فيه نفي أنها قد تحبس بعد ذلك لنبينا ﷺ وقد ورد أيضاً أن الشمس ردت عليه ﷺ بعد ما غربت.

روى الطبراني بأسانيد رجال بعضها ثقات، كما قال الشيخ يعني الحافظ السيوطي في تخريج أحاديث «الشفا» والقطب الخيضري، فيما رأيته بخطه، عن أسماء بنت عميس قالت: إن رسول الله ﷺ صلى الظهر بالصهباء، ثم أرسل علياً في حاجة، فرجع وقد صلى النبي ﷺ العصر، فوضع رسول الله ﷺ رأسه في حجر علي فنام، فلم يحركه حتى غابت الشمس، فقال ﷺ: «اللهم إن عبدك علياً احتبس بنفسه على نبيه، فرد عليه الشمس». قالت أسماء:

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢: ٣٢٥). والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٧: ٣٥). وابن كثير في البداية والنهاية (٦: ٣١٩).

فطلعت الشمس حتى وقعت على الجبال وعلى الأرض، وقام علي فتوضأ، وصلى العصر، ثم غابت وذلك بالصهباء بخيبر.

وفي لفظ آخر: كان ﷺ إذا نزل عليه الوحي يغشى عليه؛ فأنزل عليه الوحي يوماً وهو في حجر علي، فقال له النبي ﷺ: صليت العصر؟ فقال: لا يا رسول الله. فدعا الله، فرد عليه الشمس، حتى صلى العصر. قالت: فرأيت الشمس طلعت بعد ما غربت. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»، ومنه نقلت رجاله، رجال الصحيح، غير إبراهيم بن حسن؛ وهو ثقة وثقه ابن حبان فاطمة بنت علي لا أعرفها. انتهى وفاطمة هذه وثقها تلميذه الحافظ ابن حجر في «تقريبه» والحديث حسنه أبو زرعة ابن العراقي في تكملته لشرح التقريب؛ والشيخ أي شيخه الحافظ السيوطي في الدرر ورواه الطحاوي من طريقين عن أسماء، وقال: هذان الحديثان ثابتان ورواتهما ثقات، ونقله القاضي في «الشفا». والحافظ ابن سيد الناس في «بشرى اللبيب»، والنووي في «شرح مسلم» في باب حل الغنائم لهذه الأمة، ونقله عنه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الرافعي في باب الأذان في النسخ المعتمدة وأقروه.

ثم نقل الطحاوي، عن أحمد بن صالح: وناهيك به أنه قال: لا ينبغي لمن سبيله العلم التخلف عن حديث أسماء، لأنه من علامات النبوة.

وروى عنه الطبراني أنه قال: هذه دعوة النبي ﷺ فلا تستكثر. وذكر الشيخ يعني شيخه الحافظ السيوطي في «الدرر» أن ابن مردويه رواه من حديث أبي هريرة أيضاً بسند حسن. انتهى. وقد أشار إلى الحديثين الحافظ أبو الفتح بن سيد الناس في قصيدة من كتابه «بشرى اللبيب» فقال:

لـه وقفـت شمـس النهـار كـرامـة ... كمـا وقفـت شمـس النهـار ليـوشعـا
وردت عليـه الشمـس بعـد غـروبهـا ... وهــذا مــن الإيقـان أعظـم مـوقعـا

والعلامة بهاء الدين السبكي رحمه الله تعالى في قصيدته المسماة بهدية المسافر إلى النور السافر فقال:

وشمس الضحى طاعتك وقت مغيبها ... فمـا غـربـت بـل وافقتـك بـوقفـة
وردت عليـك الشمـس بعـد مغيبهـا ... كمـا أنهـا قـدمـا ليـوشـع ردت

ثم قال يعني السيوطي بعد الأبيات: من هذين الإمامين الجليلين مما يقوي صحة الحديث، ولا يلتفت لإيراد ابن الجوزي الحديث في الموضوعات، فقد أخطأه الحفاظ في ذلك قال الحافظ مغلطاي في «الزهر الباسم» بعد أن أورد الحديث من عند الطحاوي والطبراني وغيرهما: ولا يلتفت لما علله به ابن الجوزي من حيث أنه لم يقع له الإسناد الذي وقع لهؤلاء.

قال الحافظ ابن حجر: ومن خطه نقلت بعد أن أورد الحديث من عند البيهقي وغيره، ثم قال: وهذا أبلغ في المعجزة. وقد أخطأ ابن الجوزي بإيراده في الموضوعات انتهى.

وتعقب الشيخ يعني السيوطي كلام ابن الجوزي في «مختصر كتاب الموضوعات، وفي كتاب «النكت البديعات» وأجاب عما أعل به الحديث، وقال: أفرط بإيراده له هنا. انتهى.

وقد عثرت على أشياء تتعلق بالحديث لم يتعرض لها الشيخ في واحد من الكتابين، ومن ذلك غالب ما هنا، قد جمعتها مع ما ذكره الشيخ في جزء سميته «مزيل اللبس والخفا عن حديث رد الشمس لسيدنا المصطفى»؛ فليراجعه من أراده. ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر المذكور قوله ﷺ: «فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه» إلخ.

كذا في رواية ابن عباس عند الإمام أحمد والنسائي بسند صحيح.

وفي رواية عبد الله بن الفضل بن أبي سلمى عند مسلم قال: «فسألوني عن أشياء لم أثبتها، فكربت كرباً لم أكرب مثله قط. فرفعه الله لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتهم به».

وفي رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «فجعل الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه».

ومعنى «جلى الله بيت المقدس» كشف الحجب بيني وبينه، حتى رأيته. ويحتمل أنه يريد أنه حمل إلى أن وضع بحيث يراه ثم أعيد، ويؤيده رواية ابن عباس السابقة، وهذا أبلغ في المعجزة، ولا استحالة في ذلك، فقد أحضر عرش بلقيس في أقل من طرفة عين. ورفع في حديث أم هانئ عند ابن مسعود: «فخيل إلي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته». فإن ثبت احتمل أن يكون المراد أنه مثل قريباً منه، كما قيل في حديث: «أرأيت الجنة والنار». ويؤول قوله: «حتى جيء بالمسجد» أي جيء مثاله.

ثم قال الحافظ الشامي في الباب الخامس عشر أيضاً في رواية شريك: في الحديث نسبة الدنوّ والتدلي إلى الله تعالى وإنما الدنو والقرب من الله تعالى إليه ﷺ كناية عن جزيل فوائد إليه، وجميل عوائد عليه، وتأنيس لاستيحاشه بانقطاع الأصوات عنه، وبسط بالمكالمة وإكرام بشرائف منته، ويتأول في دنوه تعالى منه ما يتأول به قوله ﷺ ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة، حين يبقى ثلث الليل الآخر، على أحد الوجوه من أن نزوله تعالى إنما هو دنو إفضال وإجمال وقبول توبة وإحسان بمغفرة وإشفاق.

وقال الواسطي: من توهم أنه سبحانه وتعالى بنفسه دنا، فقد جعل ثم مسافة ولا مسافة لاستحالتها.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦] فتمثيل لكمال علمه وإجابته لتعاليه عن القرب مكاناً. ويتأول في الدنو ما يتأول في قوله ﷺ في حديث رواه البخاري حكاية عن ربه تبارك وتعالى: «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً» وهو تمثيل يقرب المعنى للأفهام، أي من تقرب إليّ بطاعتي جازيته بأضعاف ما تقرب إليّ. ومن أتاني يمشي أتيته هرولة أي سبقته بجزائه فهو قرب بالإجابة والقبول، وإتيان بالإحسان، وتعجيل المأمول ثواباً مضاعفاً على حسب ما تقرب به. وقد سلك به طريق المشاكلة، فسماه تقرباً.

ثم قال: قوله «بينما» الأصل بين، فأشبعت الفتحة ألفاً، وزيدت الميم للمفاجأة. «والحجر» بكسر الحاء وسكون الجيم هو هنا حطيم مكة، وهو المدار عليه بالبناء من جهة الميزاب وسمي حجراً لأنه حجر عنه بحيطانه، وحطيماً لأنه حطم جداره عن مساواة الكعبة. وعليه ظاهر قوله: «بينا أنا في الحطيم». وربما قال: في الحجر والشك من قتادة. وقال الطيبي لعله ﷺ حكى لهم قصة المعراج مرات، فعبر بالحطيم تارة، وبالحجر أخرى، وقيل: الحطيم غير الحجر وهو ما بين المقام إلى الباب، وقيل: ما بين الركن والمقام وبين زمزم والحجر.

والراوي شك في أنه سمع في الحطيم أو في الحجر. «وأوسطهم خيرهم». و«الثغرة» الموضع المنخفض بين الترقوتين وهما العظمان اللذان بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين. و«مضطرب الأذنين» أي طويلهما في وصف البراق. «ويحفز بهما رجليه» الحفز: الحث والإعجال، و«عُرْف» الفرس الشعر النابت في محدب رقبته. و«أظلاف الشياه والبقر» كالظفر للإنسان.

و«أصرت أذنيها» جمعت بينهما. و«ارفض عرقاً» سال وجرى. و«يهوي به» يسرع. و«مدين» بلد الشام تلقاه غزة و«طور سَيْناء» جبل بيت المقدس. و«الكلمات التامات» الكاملة، فلا يدخلها نقص ولا عيب؛ وقيل: النافعة الشافية. «ولا يجاوزهن» يتعداهن. و«البر» التقي. و«الفاجر» المائل عن الحق. و«ذرأ» خلق. و«طوارق الليل» حوادثه. و«تعس» أكب على وجهه. و«رادوا المرأة» أي راجعوها. «ولا تقاعسي» أي لا تتأخري. و«ترضخ رؤوسهم» تكسر. و«يفتر» لا يسكن. و«الضريع» الشوك اليابس، أو نبات أحمر منتن الريح يرمي به البحر. و«الزقوم» ثمر شجر كريهة الطعم، قيل: إنها لا يعرف في شجر الدنيا وإنما هو في النار. و«رضف جهنم» الحجارة المحماة، و«الجحر» الثقب المستدير. و«الاستبرق» الديباج. و«السندس» رقيق الديباج. و«العبقري» الديباج، وقيل: البسط الموشاة، وقيل: الطنافس الثخان. و«الأكواب» جمع كوب إناء لا عروة له ولا خرطوم. و«الصحاف» جمع

صحفة إناء كالقصعة. و«السعير» النار، سعرتها وأسعرتها: أوقدتها، و«الدجال» من الدجل الخلط، يقال: دجل إذا لبّس وموه وكذب. و«الفيلماني» العظيم الجثة. و«أقمر» أي شديد البياض و«هجان» شديد البياض.

و«عبد العزى بن قطن» هلك في الجاهلية. و«الحاسرة» من حسر إذا كشف. و«الكثيب» التل من الرمل. و«طوال» الأطول من الطويل. و«الشعر السبط» المسترسل. و«الآدم» الأسمر. و«أزد شنوأة» قبيلة من اليمن. و«السرح» جمع سرحة وهي الشجرة العظيمة. و«جلها» معظمها. و«الزرابي» جمع زربية بتثليث الزاي، وهي الطنفسة، وهي البساط الذي له خمل رقيق. و«الحممة» الفحمة بحاء مضمومة. و«المحاريب» قال في أنوار التنزيل: هي قصور حصينة ومساكن شريفة، سميت بذلك لأنها يذب عنها ويحارب عليها. و«التماثيل» الصور. و«الجفان» جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة.

و«الجوابي» جمع جابية وهي الحوض الكبير. و«الأكمة» الذي يولد والمراد أنه لتصاغره واختفائه من هيبة الله تعالى مشبه بالحلس المختفي تحت القتب. «والبالي» بين الحق والباطل.

و«التبيان» البيان الشافي. و«وسطاً» خياراً عدولاً و«الأولون» في دخول الجنة و«الآخرون» في الوجود.

و«جعلني» فاتحاً أي لأبواب الإيمان والهداية إلى صراط مستقيم لأبواب التوفيق، وما استغلق من العلم. و«وجبتها» يقوطها. و«الحدب» ما ارتفع من الأرض. و«ينسلون» يسرعون. و«تجوي الأرض» تنتن من جيفهم. و«الحامل» المهم أي التي أتمت مدة حملها. و«تفجؤهم» تأتيهم على غفلة. و«الفطرة» بالكسر والهدى والاستقامة. و«المعراج» لغة السلم، وجمعه معارج ومعاريج. و«طمح» بصره إلى الشيء ارتفع. و«المرقاة» موضع الرقي أي الصعود. و«منضد باللؤلؤ» أي جعل بعضه على بعض.. و«مرحباً» فقال عند المسرة بالقادم، ومعناها ما صادفت رحباً أي سعة. و«أهلاً» أي أتيت أهلاً فاستأنس ولا تستوحش. و«حياه الله» أي أبقاه من الحياة، وقيل: سلم عليه من التحية. وقول الملائكة من أخ المراد بهذه الأخوة أخوة الإيمان المشار إليه بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وعليين اسم لأعلى الجنة. و«سجين» موضع فيه كتاب الفجار. و«الأسودة» جمع سواد، ويجمع على أساود وهو الشخص. و«نسم بنيه» جمع نسمة وهي الروح. و«قبل يمينه» بكسر القاف وفتح الباء، أي جهة يمينه. و«هنيهة» تصغير هنية يعني شيئاً يسيراً. و«الأخونة» جمع خِوان بكسر الخاء الذي يؤكل عليه، وهو المائدة. و«السابلة» أبناء السبيل. و«يضجون»

يصيحون من الفزع. و«المس» الجنون. و«المشافر» جمع مشفر، وهو من البعير كالشفة من الإنسان. و«اللمازون» الذين يغتابون الناس من غير مواجهة. و«اللمازون» العيابون. و«النفر» جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة أو إلى سبعة. و«إذا هو بعيسى جعد» قال النووي: قال العلماء: المراد بالجعد هنا جعودة الجسم، وهو اجتماعه واكتنازه، وليس المراد جعودة الشعر. و«المربوع» هو الرجل بين الرجلين في القامة. و«سبط الرأس» أي مسترسل الشعر ليس فيه تكسر. و«الديماس».

فسره الرواي وهو عبد الرزاق بالحمام، والمعروف عند أهل اللغة أن الديماس هنا هو السرب، وهو أيضاً الكِنّ.

والمراد من ذلك وصفه بصفاء اللون، ونضارة الجسم، وكثرة ماء الوجه، حتى كأنه كان في موضع كن فخرج منه وهو عرقان. و«عروة بن مسعود» أحد السادة الصحابة رضي الله عنهم. و«الشطر» النصف. و«الرهط» دون العشرة من الرجال، ليس فيهم امرأة أو منها إلى الأربعين.

و«القوم» جماعة الرجال عند الأكثرين. و«الأفق» جمع آفاق بالمد وهي النواحي. و«الآدم» الأسمر. و«الطوال» فوق الطويل. و«جاوزه» عداه وفارقه. و«يزعم» يقول. و«إسرائيل» يعقوب. و«الشمط» بياض شعر الرأس يخالط سواده. و«القراطيس» جمع قرطاس ما يكتب فيه: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] أي لم يخلطوه بشرك. و«ثياب رمد» في لون الرماد. و«الحلس» كساء يلي ظهر البعير تحت القتب أعمى.

و«القدور» الراسيات الثوابت لا تتحرك من أماكنها. و«الفرقان» من أسماء القرآن فرق الخلق. و«أسِنَ» الماء فلم يشرب فهو آسن. و«النبق» ثمر السدر. و«قلال هجر» قال الخطابي بكسر القاف جمع قلة بالضم، وهي الجرار الواحدة تسع قربتين وأكثر. و«الزبرجد» هو الزمرد. و«العنصر» الأصل. و«السلسبيل» اسم عين في الجنة. و«يضطرد» يجري. و«عجاجاً» أي كثير الماء كأنه يعج من كثرته. و«الرضراض» الحصى الصغار. و«جنابذ اللؤلؤ» هي القباب. و«القيعان» جمع قاع وهو المكان المستوي من الأرض. و«الوجس» الصوت الخفي. و«الإبل المقتبة» التي بأقتابها. و«الإذفر» شديد الرائحة. و«سبوح» قدوس منزه عن كل سوء وعيب. و«المستوى» موضع مشرف، وهو المصعد، وقيل: المكان المستوي. و«صريف الأقلام» صوت حركتها وجريانها على المكتوب فيه. و«العرش» في الأصل السرير الذي للملك، كما قال: تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل:٢٣] وثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، هو فوق الجنة، والجنة فرق

السمٰوات، وفيها مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، وهو كالقبة على العالم وهو سقف المخلوقات.

قال الحافظ الشامي بعد ما ذكر: وقد بسطت الكلام عليه أي على العرش في «الجواهر النفائس في تحرير كتاب العرائس». وقوله لم يستسب لوالديه، أي لم يعرضهما للسب، وهو الشتم بأن يسب أبوي غيره، فيسب أبويه مجازاة له. و«لبيك» من التلبية، وهي إجابة المنادي. و«أناجيلهم» أي يحفظون الكتاب المجيد ويتلونه حفظاً، وأصل الأناجيل جمع إنجيل، هو اسم كتاب الله المنزل على عيسى عليه السلام. و«السبع المثاني» التي تقتصر عن المائتين وتزيد على المفصل، وقيل: هي الفاتحة. و«فواتح الكلام» وهو ما يسر الله له من الفصاحة والبلاغة، والوصول إلى غوامض المعاني، وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات التي أغلقت على غيره وتعذرت. و«خواتمه وجوامعه» أي من الكلمات القليلة الألفاظ الكثيرة المعاني. و«المخْيط» ما خيط به الثوب كالإبرة.

و«الغر» جمع أغر وهو الأبيض الوجه من نور الوضوء. و«المحجلين» البيض الوجوه والأرجل من نور الوضوء. و«المقمحات» الذنوب العظام الكبائر، والمراد بغفرانها أنه لا يخلد في النار بخلاف المشركين، وليس المراد أنه لا يعذب أصلاً، وقد علم من نصوص الشرع وإجماع أهل السنة إثبات عذاب العصاة من الموحدين. و«خبرت الناس وبلوت بني إسرائيل» أي اختبرتهم. و«عالجتهم» ما ستهم ولقيت الشدة فيما أردت منهم من الطاعة، و«لبيك وسعديك» إسعاد لك بعد إسعاد. و«الرهج» بفتح الهاء الغبار. و«العير» الإبل بأحمالها. و«الغرارتان» تثنية غرارة، وهي الجُوالق بجيم مضمومة والخرج. و«قطع» أي اشتد عليه ذهابه.

و«بظهرانينا» أي بيننا. و«جبهته استقبلته بالمكروه. والروحاء» بلد من عمل الفُرع على نحو أربعين ميلاً من المدينة. و«التنعيم» من الحل بين مكة وسرف على فرسخين من مكة نحو المدينة. و«الجمل الأورق» أي في لونه بياض إلى سواد. و«أهريقت» انكبت. و«الغدوة» ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس. و«الروحة» اسم للوقت من الزوال إلى الليل.

ثم قال في الباب السادس عشر في تخريج أحاديث القصة: وسبب ذلك أن شخصاً أنكر عليّ ورود لفظة أهلاً في قول أهل السمٰوات للنبي ﷺ ليلة المعراج: مرحباً وأهلاً. فقلته: هذا اللفظ رواه البخاري من حديث شريك، عن أنس رضي الله عنه وأنكر شخص آخر عرض الآنية في السماء بعد ذكر سدرة المنتهى. وقال: هذا ما كان إلا ببيت المقدس، فقلت له:

هكذا رواه البخاري ومسلم من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه فإذا كان مع وجوده في الصحيحين أنكره هذان الرجلان، فكيف إنكار غيره فتعين بيان ذلك، ثم ذكر المخرجين لألفاظ حديث قصة المعراج جملة جملة مما اختلفت فيه الروايات، ولم أر ضرورة هنا لنقله، لاستغنائي عنه بذكر جميع الروايات التي ذكرها في الباب الرابع عشر في حديث سياق قصة المعراج فيما تقدم.

ومن جواهر الحافظ الشامي

[أحاديث موضوعة]

تنبيهه في الباب السابع عشر على بعض أحاديث موضوعة افتراها في المعراج من لا خلاق له، وتداولها جماعة لا خبرة لهم وليس منها شيء في قصة المعراج السابقة. ومنها حديث الحجب، الذي ذكره الإمام القسطلاني في «المواهب اللدنية» وذكرته أنا أيضاً في مختصرها «الأنوار المحمدية» تبعاً له، وهو قوله وذكر أبو الحسن بن غالب فيما تكلم فيه على أحاديث الحجب السبعين والسبعمائة والسبعين ألف حجاب، وعزاه لأبي الربيع بن سبع في «شفاء الصدور» من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال بعد أن ذكر مبدأ حديث الإسراء: «أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربي، إلى أن انتهى إلى مقام، ثم وقفت عند ذلك، ثم قال: بعد نحو عشرين سطرا»[١].

وفي رواية: «فقدمت وجبريل على إثري، ختى انتهى بي إلى حجاب فراش الذهب إلى أن قال في آخره: ورأيت من خلفي ومن بين كتفي، كما رأيت أمامي». الحديث.

قال القسطلاني: بعده رواه والذي قبله في كتاب «شفاء الصدور»، كما ذكره ابن غالب والعهدة في ذلك عليه. قال الزرقاني: في «شرح المواهب» قال الشامي: بعد كلام المصنف هذا: وهو كذب بلا شك. اهـ قال بعده الزرقاني والعجب من النعماني حيث أورد الروايتين بطولهما، ساكتاً عليهما، قائلاً: ولا يستعبد وقوع هذا كله في بعض ليلة. انتهى كلام الزرقاني.

وعبارة الحافظ الشامي، بعد نقله الحديث المذكور في الموضوعات التي ذكرها في معراجه هكذا ذكره شيخنا أبو الفضل أحمد بن الخطيب القسطلاني في المقصد الخامس من كتابه «المواهب اللدنية»، وقال: رواه والذي قبله ابن سبع في «شفاء الصدور»، كما ذكره

---

(١) رواه أحمد في المسند (١: ١٤٦).

ابن غالب والعهدة في ذلك عليه، اهـ. قال الشامي: بعده قلت، وهو كذب بلا شك. اهـ.

وفي تبري القسطلاني بقوله: والعهدة في ذلك عليه، أي على ابن غالب الذي نقله عنه، دليل على أنه قد اطلع على ما قيل في هذا الحديث، ومع ذلك ذكره لذكر هؤلاء العلماء، له وقد قال أيضاً بعده: وتكثير الحجب لم يرد في طريق صحيح، ولم يصح في ذلك غير ما في مسلم حجابه النور. اهـ والله أعلم.

ومنهم الإمام العلامة الشيخ علي الأجهوري المالكي[1] المتوفى سنة ١٠٦٦ هـ

فمن جواهره رضي الله عنه

[النبي ﷺ كان لابساً نعليه ليلة الإسراء]

كتابه النور الوهاج في الكلام على الإسراء والمعراج، وقد نقل أكثر الفوائد التي ذكرها الحافظ الشامي في معراجه السابق ذكره؛ ولذلك لم أر لزوماً لنقلها هنا، بعد أن نقلتها عن صاحبها الأصلي، وكذلك نقل النجم الغيطي في معراجه الكبير الشهير معظم الفوائد التي فيه من معراج الحافظ الشامي أيضاً؛ فإني تتبعت ذلك في هذه المعاريج الثلاثة، فوجدت الأصل هو معراج الحافظ الشامي، الذي اختصرته فيما تقدم بذكر كل ما يلزم ذكره من فوائده في هذا الشأن. والشيخان المذكوران تابعان به في معراجيهما. نعم يوجد فوائد أخرى نافعة لم ينقلاها عنه، ولكن أكثرها في غير شؤون المعراج، ولا سيما معراج الأجهوري، فإنه يشتمل على فوائد كثيرة متنوعة أنواعاً شتى، ومنها قوله: ثم إنه لم يرد في أحاديث المعراج الثابتة أنه ﷺ عرج به إلى العرش تلك الليلة، فقول ابن المنير: إنه عرج به للعرش ليس على ما ينبغي.

وقد سئل القزويني عن وطئه ﷺ العرش بنعله، وقول الرب تقدس: لقد شرفت العرش بذلك يا محمد. هل له أصل أم لا؟.

فأجاب بما نصه: أما حديث وطء النبي ﷺ العرش بنعله، فليس بصحيح ولا ثابت، بل وصول النبي ﷺ إلى ذروة العرش لم يثبت في خبر صحيح ولا حسن ولا ثابت أصلاً؛ وإنما صح في الأخبار انتهاؤه إلى سدرة المنتهى فحسب أي فقط، وأما ما وراءها فلم يصح، وإنما ورد ذلك في أخبار ضعيفة أو منكرة ولا يعرج عليها؛ والله أعلم بالصواب. انتهى.

---

(١) هو علي بن محمد بن عبد الرحمٰن بن علي، أبو الإرشاد، نور الدين الأجهوري فقيه مالكي ولد سنة ٩٦٧ هـ، وتوفي سنة ١٠٦٦ هـ بمصر.

وكتب بعض المحدثين بعد كلام القزويني المذكور: ما ذكره القزويني هو الصواب. وقد وردت قصة الإسراء والمعراج عن نحو أربعين صحابياً، ليس في حديث أحد منهم أنه عليه الصلاة والسلام كان في رجليه تلك الليلة نعل، وأنما وقع ذلك في نظم بعض القصاص الجهلة، ولم يذكر العرش، بل قال: وأتى البساط فهم بخلع نعله، فنودي: لا تخلع إلى آخره. وهذا باطل لم يؤثر في شيء من الأحاديث بعد الاستقراء التام، ولم يرد في حديث حسن ولا صحيح ولا ضعيف أنه ﷺ رقي العرش ولا رآه.

ثم اعلم أنه قد ورد عن بعض الحفاظ أنه ﷺ لم يدس بساط النور كما هنا، وقد ورد عن السادة الصوفية ما يخالف ذلك، وقد وقع الاضطراب بين الناس في قضية النعلين الشريفين اللتين كانتا في قدميه الشريفتين ليلة الإسراء وقول المحدثين إنه كذب وإنه لم يثبت ذلك، والكلام فيه كثير جداً.

قال بعض أكابر الصوفية، مجيباً عن ذلك: إن رسول الله ﷺ لما خاطبه الله تعالى عرق من عظيم الهيبة، حتى تنازل الجزء البشري من جسده الشريف، حتى صار كالنعلين في رجليه؛ فهم رسول الله ﷺ أن يخلعهما، فناداه الله تعالى: لا تخلع إلى آخره وذلك لأنه لو خلعهما صار نوراً روحانياً لا ينزل إلى الأرض؛ والله سبحانه وتعالى إنما أراد نزوله ليدعو لتوحيده، فافهم فإن هذا من الأسرار الخفية التي ما اطلع عليها إلا الخواص من الأولياء رضي الله عنهم أجمعين. انتهى.

لا يقال: لعل هذا مراد من قال: إنه في ليلة المعراج أراد خلع نعليه فنهي عن ذلك، فيكون ما قاله صحيحاً، لأنا نقول: قد ذكر فيه ما يقتضي وضعه من أمر الله تعالى له بأن يمشي على البساط بنعله، مع قصد ارتفاعه بذلك عن غيره من الأنبياء. وما جاء من أنه ﷺ قال: «مررت ليلة أسري بي برجل مغيب في نور العرش، فقلت: من هذا، أملك؟ قال: لا. قلت: أنبي؟ قال: لا. قلت: من هو؟ قيل: هذا رجل كان لسانه رطباً من ذكر الله، وقلبه معلق بالمساجد ولم يستبّ لوالديه»[1]. فهو خبر مرسل لا تقوم به الحجة في هذا الباب.

قال الأجهوري: بعد ما ذكر قلت قول القزويني: ومن ارتضى كلامه أنه ﷺ ولم يتجاوز سدرة المنتهى ممنوع، ويؤيد المنع ما تقدم من أنه ﷺ بعد انتهائه إلى سدرة المنتهى غشيته سحابة، وارتفعت به ودعوى أن الحديث المرسل لا تقوم به الحجة في هذا الباب فيه نظر، فإن

---

(١) رواه السيوطي في الدر المنثور (١: ١٤٩). والمنذري في الترغيب والترهيب (٢: ٣٩٥).

إطلاق الأصوليين على احتجاج الأمة ما عدا الشافعي بالحديث المرسل يشمل هذا وغيره انتهت عبارة الأجهوري.

يقول جامعه الفقير، يوسف النبهاني عفا الله عنه قد سبق مني نظم بيتين في مدحه ﷺ ذكرت في الشطر الرابع منهما هذا المعنى، تابعاً فيه لساداتنا الصوفية الذين نقل عبارتهم السابقة الإمام الأجهوري رضي الله عنه وعنهم، وهما قولي:

على رأس هذا الكون نعل محمد　　علت فجميع الخلق تحت ظلاله

لدى الطور موسى نوديَ اضلع وأحمدٌ　　على العرش لم يؤذن بخلع نعاله

ومنهم الإمام العارف بالله سيدي عبد الغني النابلسي[1]؛ وتقدم ذكره مرتين

فمن جواهره رضي الله عنه

[الرد المتين]

قوله في كتابه «الرد المتين على منتقص العارف محيي الدين، قال الفاسي في تاريخه: لما حمى ادعاء ابن عربي أنه خاتم الأولياء، كما أن نبينا محمداً ﷺ خاتم الأنبياء ليس بصحيح لوجود كثير من أولياء الله تعالى العلماء العاملين في عصر ابن عربي وفيما بعده على سبيل القطع، وأن كان المراد أنه خاتم الأولياء بمدينة فاس، فهو غير صحيح أيضاً لوجود الأولياء والأخيار بها بعد ابن عربي، وهذا من الأمر المشهور.

قال العارف النابلسي بعده أقول: دعواه أنه خاتم الولاية المحمدية الخاصة لا يمنعها كثرة الألياء في عصره ولا فيما بعده في مدينة فاس أو في غيرها من الأرض، لأن ولاياتهم غير محمدية خاصة وإن أردت بيان هذا البحث أتم بيان فأضع لما يتلى عليك في هذا الشأن.

اعلم أن محمداً ﷺ خاتم جميع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ومعنى ذلك أنه ذائق لمشرب كل نبي كل رسول ممن تقدمه، فهو جامع لجميع مشارب الأنبياء والمرسلين؛ ولهذا جاء بتصديقهم كلهم، وأفصح عن مقاماتهم ومراتبهم، وكشف له عن أحوالهم كلها، وتنزلت أخبارهم على قلبه بما تلاه علينا من القرآن العظيم. فنبوته أصل لجميع النبوات، والنبوات فرع من نبوته، ولهذا قال ﷺ: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» . وبقية الأنبياء عليهم السلام إنما كانوا نبيين حين بعثوا لا قبل ذلك؛ فأصل مشارب الأنبياء كلها، وهي روحانياتهم الفاضلة، كالمياه المنقسمة مجموعة في مشرب، محمد ﷺ الجامع الذي هو روحانيته التي بدأ الله تعالى بها الوجود. كما ورد أنه: «أول ما خلق تعالى نور محمد ﷺ من نوره تعالى». والحديث في ذلك طويل: «ثم لما خلق الله تعالى طينة آدم عليه السلام وسواها

---

(١) هو عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي عالم متصوف. ولد سنة ١٠٥٠ هـ وتوفي سنة ١١٤٣ هـ.

أجرى ماء روحانية آدم من مشرب محمد ﷺ الجامع». وكذلك: «حين خلق طينة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وبقية المرسلين عليهم السلام على حسب ترتيب خلق طيناتهم في هذا الوجود أجرى الله تعالى مياه روحانياتهم التي هي مشاربهم الخاصة من ماء روحانية محمد ﷺ التي هي مشربه الجامع. ثم خلق الله تعالى طينة محمد ﷺ أجرى ماء روحانيته الجامعة في طينته المخصوصة ﷺ فظهر في هذا الوجود». فيكون ظهوره مرتين: مرة بطريق التفصيل في أطوار دقائق الأنبياء والمرسلين قبله، ومرة بطريق الإجمال. ومعلوم أن الإجمال بعد التفصيل، ولهذا ختمت به النبوة، فلا نبي بعده لتمام التفصيل بإجماله ﷺ وإذا علمت هذا، فاعلم أن الأولياء بعده ﷺ موجودون باقون إلى يوم القيامة، وهم على قسمين: محمدي جامع، ومحمدي غير جامع.

فالأول: من ورث محمداً ﷺ في جمعيته لجميع مشارب الأنبياء والمرسلين عليهم السلام ولم تفته إلا درجة النبوة، لكونها غير مكتسبة، وجاء من هؤلاء كثيرون من الأمة، آخرهم الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر محيي الدين محمد بن عربي الحاتمي رضي الله عنه وهذا معنى قوله: إنه خاتم الولاية المحمدية الخاصة.

ومن طلع كتابه «فصوص الحكم» علم مقامه رضي الله تعالى عنه. لأنه أودع جميع علومه فيه، كما أشار إليه بقوله من أبيات معشراته:

صـــرة أودعـــت علمـــي عنـــدهـــا فـــي كتـــاب وسمتـــه بـــالفصـــوص

وأما الثاني: وهو المحمدي الغير الجامع، فهو من ورث محمداً ﷺ لكن لا من جهة جمعيته لجميع مشارب الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بل من جهة مشرب نبي من الأنبياء فقط كنوح أو إبراهيم أو موسى أو عيسى. فيقال في هذا الاسم: نوحي محمدي، أو إبراهيمي محمدي، أو موسوي محمدي، أو عيسوي محمدي ونحو ذلك... وهم الأفراد هؤلاء يكون خاتمهم في آخر الزمان حضرة السيد المهدي، خاتم الولاية المطلقة رضي الله عنه.

واعلم أن روحانيات الأنبياء كلهم عليهم السلام مستمدة من حضرة الروح الأعظم، الذي هو روح الوجود الكل، وهو في الحقيقة محمد حبيب الله ﷺ إذ هو الأصل.

قال الله تعالى في أول الأنبياء آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. قال تعالى في آخر الأنبياء عيسى عليه السلام: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] الآية. فبدأ الله تعالى الأنبياء بآدم، ثم أخرج منه حواء وأظهر جميع الأنبياء عليهم السلام من صلبه إلى خلق مريم، وأظهر منها عيسى عليه السلام فكان الابتداء بأنثى من ذكر،

والانتهاء بذكر من أنثى. ثم لما تمت مراتب النبوة المحمدية. وتفصلت أطوارها في هذا الوجود، أظهرها الله تعالى مجملة؛ فكانت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم نبي الله ورسوله إلى كل شيء. خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. إذا علمت هذا، فاعلم أيضاً أن روحانيات الأولياء على قسمين:

روحانيات مستمدة من الروح الأعظم محمد ﷺ بوجه خاص غير الوجه الذي استمدت منه بقية الأنبياء عليهم السلام روحانيات الأولياء المحمديين الجامعين الذين ختموا بالشيخ الأكبر رضي الله تعالى عنهم وبهذا الاعتبار يقال فيهم: لا يجدون أمامهم قدماً إلا قدم محمد ﷺ كما ينقل ذلك عن ابن فايد وأمثاله.

والقسم الثاني روحانيات مستمدة من الروح الأعظم أيضاً لكن بواسطة روحانية نبي من الأنبياء عليهم السلام فكانت وهي روحانية هذا النبي موصلة لروحانية الولي ما يفيضه عليه الروح الأعظم من حضرة الأزل، وهي روحانيات الأولياء المحمديين الغير الجامعين، الذين يختمون بالسيد المهدي رضي الله تعالى عنهم. وحيث ذكرنا روحانيات الأنبياء عليهم السلام، وروحانيات الأولياء رضي الله تعالى عنهم وبينا مراتب النبوة والولاية، فلنكمل ذلك ببيان مراتب روحانيات بقية بني آدم والحيوانات؛ فنقول: روحانيات ما عدا الأنبياء والأولياء من بني آدم والحيوانات، إنما هي مستمدة من النفس الكل المسماة في لسان الشرع باللوح المحفوظ، لا مستمدة من الروح الأعظم ولا من بقية الأرواح المشتقة منه. وهذه النفس الكل طريق من طرق روحانيات الأنبياء والأولياء، يمرون عليها عند عروجهم واستمدادهم من حضرة الروح الأعظم، فيرون أرواح من عداهم من الحيوانات، وربما يخبرون عن أرواح بعض بني آدم أنه سيعرض لها أحوال وأمور، فيكون الأمر كما أخبروا أن أنزله الله تعالى من اللوح المحفوظ ولم يمحه، قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩]، وهذا المبحث طويل الذيل وافي الكيل، وليس هذا موضع استيفائه. وفي هذا القدر كفاية؛ والله أعلم.

انتهى كلام سيدي عبد الغني.

وقد رأيت في كلامه غير ما يدل على أن مرتبة الختمية للولاية التي نالها الشيخ الأكبر هي مرتبة باقية، وكان من أهلها صفي الدين القشاشي المدني، من أهل القرن الحادي عشر؛ والله أعلم وكتابه هذا «الرد المتين على منتقص سيدي محيي الدين بن العربي» كتاب نفيس جداً استوفى الردود فيه على أحسن الوجوه وأتمها.

وقد ذكر فيه الإمام ابن تيمية لأنه من أئمة المنتقصين للشيخ الأكبر سيدنا محيي الدين

رضي الله عنه حتى إنه كفَّره، وذكر في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» أنه رضي الله عنه من أولياء الشيطان: والذي أعتقده، وأدين الله به، وألقى الله عليه أن سيدي محيي الدين هو من أجل أولياء الرحمٰن الذين بلغوا الغاية القصوى في الولاية رضي الله عنه وعنهم أجمعين، ونفعنا ببركاتهم في الدنيا والآخرة، وغفر لابن تيمية وأمثاله ما ارتكبوه في شأنه وشأن أمثاله من الصالحين والأولياء العارفين وعاملهم بحسن نياتهم، فإنما الأعمال بالنيات.

وهم إنما فعلوا ذلك محاماة عن ظاهر الشريعة المحمدية، لعدم فهمهم مراد الشيخ الأكبر وأمثاله من ساداتنا الصوفية رضي الله عنهم بعباراتهم الموهمة لخلاف المعنى المراد منها لجهلهم باصطلاحاتهم التي اصطلحوا عليها في إفادة المعاني الصحيحة التي أرادوها من تلك العبارات، حفظاً لأسرارهم أن يطلع عليها غير أهلها.

وذلك واقع في كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فإن كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية معناها المراد منها هو غير معناها المفهوم من ظاهر ألفاظها. وكما أوَّل أولئك العلماء المعترضون تلك الآيات والأحاديث كان يلزمهم أن يؤولوا كلام أولياء الله تعالى كسيدنا محيي الدين كما فعل العارف الشعراني والعارف النابلسي وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين.

ومن كلام سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه في كتابه المذكور في حق ابن تيمية عفا الله عنه قوله: أما ابن تيمية، فحسبه كتاب الشيخ الحصني رحمه الله تعالى الذي صنفه فيه، ورد عليه مقالاته، وصرح فيه بتكفير وتكفير أتباعه كابن الزاغوني وابن حامد والقاضي وابن قيم الجوزية وإسماعيل بن كثير وأتباعهم، وإن كنا نحن لا نوافقه على ذلك، ولكن من طعن طعن فيه، ومن عاب عيب عليه.

انتهى كلام سيدي عبد الغني النابلسي في كتابه الرد المتين ومنه نقلتها.

ثم رأيت رحلته رضي الله عنه التي سماها الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية، وهي كثيرة الفوائد، وقد ذكر ابن تيمية فيها أيضاً فأحببت نقل عبارته هنا قال رضي الله عنه عند ذكره صخرة بيت المقدس، وتأثير قدم النبي ﷺ فيها وساق في ذلك أخباراً وفوائد كثيرة إلى أن قال: وقال الإمام شرف الدين الأبوصيري رحمه الله في هزيمته:

ليته خصني برؤية وجه زال عن كل ما رآه الشقاء
أو بلثم التراب من قدم لا نت حياء من مسها الصفواء

وهي الحجارة الصلبة المتينة. وقال الإمام تقي الدين السبكي رحمه الله تعالى في تائيته في مدح النبي ﷺ:

وأثر في الأحجار مشيك ثم لم   يؤثر برمل أو ببطحاء مكة

قال سيدي عبد الغني بعد ما ذكر قلت: وقد صنف الشيخ الإمام العجمي المصري رحمه الله تعالى رسالة في ذلك، وسماها «تنزيه المصطفى المختار عما لم يثبت من الآثار»، وأنكر هذه الأقدام المشتهرة عن النبي ﷺ في الأحجار بمصر وبيت المقدس وغيرهما، واعتمد في ذلك على كلام ابن تيمية وابن القيم ومن تابعهما في إنكار ذلك.

وليس هذا بأول ورطة وقع فيها ابن تيمية وأتباعه، فإنه جعل شد الرحال إلى غير مسجد مكة والمدينة وبيت المقدس معصية كما تقدم ذكر ذلك ورده ونهى عن التوسل بالنبي ﷺ إلى الله تعالى وبغيره من الأنبياء والأولياء أيضاً، وخالف الإجماع من الأئمة الأربعة في عدم وقوع الطلاق الثلاث بلفظة واحدة إلى غير ذلك من التهورات اللفظية الموجبة لكمال القطيعة التي استوفى الرد عليها الشيخ الإمام العلامة، والعمدة الفهامة تقي الدين الحصني الشافعي رحمه الله تعالى في كتاب «مستقل في الرد على ابن تيمية وأتباعه»، وصرح فيه بكفره، وإن جاء بعد البقاعي الحنبلي، وصنف الرد عليه في ذلك وسماه الرد الزاجر على من زعم أن ابن تيمية كافراً.

ثم ذكر سيدي عبد الغني: أن الإمام ابن حجر تكلم في شأن ابن تيمية بكلام كثير في كتابه «الجوهر المنظم في زيارة القبر المكرم» وقال: إن الإمام السبكي له تصنيف مستقل في ذلك أفاد فيه وأجاد.

قال سيدي عبد الغني بعده: فلا عجب بعد ذلك إذا فتح ابن تيمية باب الإنكار على ثبوت هذه الأقدام النبوية والآثار، وعلل ذلك بأنه لا سند له في كتب الحديث، وإنما هو بناء على ما اشتهر بين الناس.

وأنكر وضع اليد والتمسيح والتبرك بهذه الآثار غاية الإنكار، مع إجماع الأئمة على مشروعية استلام الحجر الأسود وتقبيله، وإنه سنة كلما مر به وإن لم يمكنه ذلك للازدحام يمسه بشيء في يده كعصا ونحوها ثم يقبل ذلك الشيء، وهو مشروع اتفاقاً في الحجر الأسود ويكفي ذلك أصلاً في كل ما هو من الآثار المباركة كموضع القدم ونحوه. وأنت تدري أن الشهرة كافية في ثبوت أثر القدم الشريف في صخرة بيت المقدس وغيرها، إذ لا يقتضي ذلك ثبوت حكم شرعي من تحليل حرام وتحريم حلال، حتى يتحرى العلماء في ذلك كمال التحري، ويطلبوا على ذلك الأسانيد الصحيحة.

وإنما في ذلك ثبوت بركة وخير فضيلة، وكما لخشوع وخضوع وحضور، وتعظيم للنبي ﷺ لا سيما وقد اشتهر ذلك بين العلماء المتقدمين، وذكروه في نظمهم ونثرهم بقصد

الفضيلة وحصول البركة للناس؛ فكيف يجعل ذلك حكماً شرعياً، ويطلب له سنداً قوياً كما يطلب للأحكام الشرعية؟ بل نقول: إن ذلك ثابت بطريق التواتر، لأن القدم الشريف في الصخرة يخبر به جميع أهل بيت المقدس أنه قدم النبي ﷺ ويحدثون بذلك عن آبائهم وأجدادهم.

وقد ذكروا في حد التواتر أنه الخبر الذي رواه قوم لا يتوهم تواطؤهم على الكذب.

ثم بعد أن نقل سيدي عبد الغني رضي الله عنه عبارات الأصوليين والفقهاء في معنى التواتر، قال: وأنت خبير بأن هذه الآثار النبوية التي اشتهرت بين الناس، ويعلمها الخلف عن السلف، تفيد أمراً شريفاً فيه فضيلة وبركة، فكيف يسوغ ردها والطعن فيها، ونسبة الكذب إلى من وجدوا في نفوسهم العلم بها عن آبائهم وأجدادهم؟ وما هي إلا عداوة في الدين، وسد لسبيل الخير على المسلمين.

قال رضي الله عنه: والحاصل أنه إن لم يكن الإجماع واقعاً على أنها آثار تلك الأقدام المذكورة، فقد ثبت ذلك بطريق التواتر وأخبار الخلف عن السلف، وذلك لاشتراطهم اتفاق المجتهدين في تحقيق الإجماع. ونحن لا نعلم الآن أحوال المجتهدين المتقدمين في اتفاقهم على ذلك أو عدم اتفاقهم عليه أو سكوتهم عنه، غير أن أول من رد ذلك وأنكره تقي الدين بن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وتردد في إثبات ذلك وإنكاره الجلال السيوطي، وتردد أيضاً الشهاب ابن حجر الهيثمي.

ونقل سيدي عبد الغني عبارته في كتابه «الجوهر المنظم» ثم قال: والراجح هو إثبات ذلك ميلاً إلى ما اتفق عليه عموم الناس، واشتهر على ألسنة الخلف عن السلف، وإن لم يكن لهم مستند في ذلك؛ فقد يكون لهم مستند. وخفي علينا كما قدمناه في الإجماع فإن هذا المقدار من العلماء المتقدمين والمتأخرين، وغيرهم من عوام الناس، كاف إذ لا يتفقون في الغالب على أمر باطل، ولا يخبرون بشيء كذب؛ وقد بلغوا حد التواتر بحيث لا يحصى عددهم. وإثبات الخبر أولى من نفيه، وتخريج أحوال المسلمين على الكمال أولى من تخطئتهم ونسبتهم إلى الزور والبهتان والكذب بلا مستند أيضاً ومن طالبنا بالمستند على الإثبات طالبناه بالمستند على النفي، على أنه يكفي اتفاق الناس في كل زمان على ثبوت ذلك أخبارهم به، ويحسب ذلك سنداً قوياً في ثبوت ذلك عند أهل الإنصاف والإذعان؛ وبالله المستعان. انتهى كلام سيدي عبد الغني رضي الله عنه ونفعنا ببركاته والمسلمين والحمد لله رب العالمين.

ولم أقف على كتاب تقي الدين الحصني هذا الذي ذكره سيدي عبد الغني النابلسي،

وهو من أكابر أئمة الشافعية وأعاظم ساداتنا الصوفية. وقد نقل الإمام الشعراني في «المنن» من كراماته ما يدل على علو مقامه في الولاية رضي الله عنه، وعن سائر أولياء الله تعالى وهو شافعي المذهب، وله شرح كبير على متن أبي شجاع، ومؤلفات أخرى في التصوف وغيره، وقبره في الشام يزار ويتبرك به، وكل الناس يعتقدون ولايته الكبرى وإمامته العظمى. وهو مع ذلك سيد شريف، والبركة في ذريته في الشام إلى زماننا هذا، منهم العلماء والتجار وسائر أصناف الأخيار رضي الله عنه وعنهم وكما أني لم أظفر حين جمعي لشواهد الحق برحلة العارف النابلسي القدسية، وكتابه الرد المتين على منتقص العارف محيي الدين اللذين نقلت عنهما ما نقلته في هذا الكتاب، لم أطَّلع وقتئذٍ على عبارة ابن بطوطة في رحلته، وهو من علماء المالكية، والذي هذَّبها ورتبها هو أيضاً من علمائهم رضي الله عنهم وفيها عبارة تختص بالإمام ابن تيمية. فها أنا أذكرها هنا بحروفها لتعلم.

قال رحمه الله تعالى:

حكاية: كان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام، يتكلم في الفنون إلا أن في عقله شيئاً. وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم، ويعظهم على المنبر. وتكلم مرة بأمر أنكره الفقهاء، ورفعوه إلى الملك الناصر، فأمر بإشخاصه إلى القاهرة. وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر، وتكلم شرف الدين الزواوي المالكي وقال: إن هذا الرجل قال كذا وكذا، وعدد ما أنكر على ابن تيمية. وأحضر العقود بذلك، ووضعها بين يدي قاضي القضاة، وقال قاضي القضاة لابن تيمية: ما تقول؟ قال: لا إله إلا الله. فأعاد عليه، فأجاب بمثل قوله: فأمر الملك الناصر بسجنه، فسجن أعواماً، وصنف في السجن كتاباً في تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط في نحو أربعين مجلداً، ثم إن أمه تعرضت للملك الناصر، وشكت إليه، فأمر بإطلاقه إلى أن وقع منه مثل ذلك ثانية. وكنت إذ ذاك بدمشق، فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم، فكان من جملة كلامه أن قال: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا، ونزل درجة من درج المنبر. فعارضه فقيه مالكي يعرف بابن الزهراء وأنكر ما تكلم به، فقامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال ضرباً كثيراً، حتى سقطت عمامته، وظهر على رأسه شاشية حرير، فأنكروا عليه لباسها واحتملوه إلى دار عز الدين بن مسلم قاضي الحنابلة، فأمر بسجنه وعزره بعد ذلك. فأنكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره، ورفعوا الأمر إلى ملك الأمراء سيف الدين تنكيز. وكان من خيار الأمراء.

صلحائهم، فكتب إلى الملك الناصر بذلك، وكتب عقداً شرعياً على ابن تيمية بأمور

منكرة منها: أن المطلّق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه إلا طلقة واحدة، ومنها المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيباً لا يقصر الصلاة، وسوى ذلك مما يشبهه. . . وبعث العقدإلى الملك الناصر فأمر بسجن ابن تيمية بالقلعة، فسجن بها حتى مات في السجن. انتهت عبارة ابن بطوطة.

وقد نقلت في شواهد الحق عن أكابر علماء المذاهب الأربعة في ذلك شيئاً كثيراً لا يحتاج معه إلى الزيادات، ولكني ذكرت ما ذكرته هنا لزيادة التنفير من بدعه، مع أني نقلت عن كتابه «الصارم المسلول على شاتم الرسول» ﷺ.

من الفوائد الجمة المهمة ما هو المأمول من هذا الإمام لكثرة علمه ووفرة تقواه وحبه للنبي ﷺ، ولا ينافي في ذلك مسائله المعلومة المشؤومة، التي زل بها وخالف جمهور الأمة المحمدية، كقوله بالجهة في حق الله تعالى ومنعه الاستغاثة بالنبي ﷺ وبغيره من الأنبياء والأولياء، وتحريمه السفر لزيارته ﷺ وزيارتهم، لأنه اعتقد أن ذلك صواباً؛ وإن كان خطؤه فيه في غاية الظهور، ولكنه بشر يخطىء ويصيب. وصوابه أكثر من خطئه، ولكن بدعه هذه انتشرت في هذا الزمان بواسطة بعض المفتونين، فوجب الاعتناء بردها نصيحة للمسلمين. والحمد لله رب العالمين.

مبشرة تتعلق بالإمام السبكي وانتصاري له بالقصيدة الآتية

رأيت في منامي بعد الفجر من يوم الأحد غرة رجب سنة ١٣٢٤ أني زرت قبر الإمام تقي الدين السبكي، وكأنه مدفون في صحن المسجد الأقصى في بيت المقدس. وقبره غير معمور، بل حجارته مهدومة لقدمه؛ وأني نويت أن أستأذن من دولتنا العلية العثمانية نصرها الله في بناء مسجد في تلك البقعة التي في جانب قبره توصلاً لتعميره واعتناء بشأنه ولما حضرت لزيارته، وقفت على القبر وسلمت عليه، وجلست أقرأ له قرآناً. وهناك بائع رطب من أعلى جنس، فصرت أشتري منه وأنا أقرأ. ثم انتبهت من النوم، فوجدت نفسي أقرأ بسورة الكهف وأنا من المحبين له رضي الله عنه لشدة محبته لرسول الله ﷺ وملحماته عن شرفه المحمدي بتأليفه كتاب «شفاء السقام في زيارة خير الأنام» ﷺ الذي رد فيه على ابن تيمية وغيره ومن مبتدعة الإسلام، فرد عليه جماعة من أتباعه نظماً ونثراً، ورموه بسهام المذام؛ فانتصرت له رضي الله عنه في كتابي «شواهد الحق» ورددت على نحورهم تلك السهام، محبة بالحق وخدمة لسيد الخلق ﷺ وقد رأيت أن أذكر هنا منه القصيدة الفريدة التي رددت بها على أولئك

القوم، وأوضحت فيها أنهم هم الأحق بالمذمة واللوم. وقد ذكرتها فيه بعد رسالتي رفع الاشتباه في استحالة الجهة على الله وقلت: قبل سرد القصيدة ما نصه: ولنرجع إلى الكلام على كتب ابن تيمية، فمنها الكتب الأربعة المذكورة سابقاً، وهي: «الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح» وهو الكتاب الذي رد به على النصارى، ومنها كتاب «منهاج السنة» وهو الكتاب الذي رد به على الروافض.

وقد طبع في هذه الأيام بعد أن أرسلت كتابي «الرسالة البديعة في فضل الصحابة وإقناع الشيعة»، إلى مصر لتطبع فيها. ولم أكن اطلعت عليه قبل طبعه، ولهذا لم يمكني نقل شيء منه في تلك الرسالة.

ولو ظفرت به قبل إرسالها، لانتفعت به، وألحقت بها أشياء منه، وهي بحمد الله مستوفية لمعاني الرد عليهم بعبارات ظاهرة باهرة، ومنها كتابه المسمى «بيان موافقة صريح المعقول لصريح المنقول» والمطبوع على هامش منهاج السنة، وقد ورد به على أهل السنة والجماعة من المسلمين الأشاعرة والماتريدية وغيرهم من الفرق الأخرى، ومنها كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان» وقد رد به على خلاصة المسلمين من الأولياء والعارفين، وكفر كثيراً منهم كسيدنا الأكبر محيي الدين. إذا علمت ذلك، تعلم أنه مثل ابن حزم صاحب كتاب «الملل والنحل» لم يسلم من قلمه أحد من الكافرين والمبتدعين والمسلمين والعارفين، وقد رد عليه الإمام السبكي، فيما رد به على كتبه، بأبيات مدح فيه كتابه «منهاج السنة» واعترض عليه ببعض بدعه، فتصدى للتشنيع على السبكي بذلك والرد عليه شخصان من الحشوية ممن هم على عقيدة ابن تيمية أحدهما حنبلي والآخر فيما زعم شافعي.

أما الحنبلي فاسمه أبو المظفر يوسف بن محمد بن مسعود العبادي العقيلي السرمري نزيل دمشق، وأما الشافعي بزعمه فهو محمد بن يوسف اليمني اليافعي، الذي ذكر قصيدته هذه الآلوسي في «جلاء العينين» نظم كل منهما في ذلك قصيدة طويلة في أكثر من مائة بيت، فيها العجز والتحامل على الإمام السبكي بما لا ينبغي أن يصدر من مسلم، فضلاً عن عالم. وهما مطبوعتان في آخر كتاب «منهاج السنة»، وقد رأيت أن أنتصف منهما وأقابلهما بعلمهما، جاعلاً محط نظري إثبات الحق، ودحض الباطل، وبيان المذهب الصحيح من المذهب العاطل؛ فنظمت هذه القصيدة من البحر والقافية.

وأسأل الله لي ولهم ولجميع المسلمين العفو والعافية، وقد أثبت فيها استحالة الجهة على الله تعالى بدلائل ظاهرة باهرة، وتعرضت لجواز الاستغاثة، وشد الرحل لزيارته ﷺ بما لا

يأباه عقل ولا يمنعه نقل، راداً على من يخالف ذلك، والله أعلم بما هنالك فقلت:

الحمد لله حمداً أستعد به ... لنصرة الحق كي أحظى بمطلبه
بك استعنت إلهي عاجزاً فأعن ... أبغي رضاك فأسعفني بأطيبه
فإن تعن ثعلباً يسطو على أسد ... أو تخذل الليث لا يقوى لثعلبه
وإنني عالم ضعفي ولا عملٌ ... عندي يفيد ولا علم أصول به
ورأس ماليَ جاهُ المصطفى فبه ... أدعوك يا رب أيدني له وبه
وارحم به علماء الدين قاطبة ... من أهل سنته ساهٍ ومُنتبه
لولاهمُ ما علمنا ما بُعثَ به ... خير الورى وعجَزنا عن تطلبه
منهم أبو الحسن السبكي ناصرهُ ... سقاه غيثُ الرضى إلهامي بصيبه
أهدَى شفاء سقام في زيارته ... شفى صدورَ جميعِ المؤمنين به
ورُبَّ غِرّ غويٍّ ذمه حسداً ... به غرور وَقاحِ الوجهِ أصلبه
ساءت خلائقهُ ضلت طرائقهُ ... قد تاه بالتّيه في تيهاءِ سَبْسَبِه
فقال ما قال في السبكيِّ من سفهٍ ... قبحاً له من سفيهِ القولِ أكذبه
أوفى الجدالَ بغير الحق مختلقاً ... ما شاء من كذب وهو الخليقُ به
وقال مفتخراً بالزور مذهبُنا ... تركُ الجدالِ وتأنيبِ لطالبه
فانظر أكاذيبَه واعجب لحالته ... من التناقض هذا بعضُ أعجبه
يا أيها الجاحدُ الحقَّ المبين أفق ... قد طال نومُك يا لومان فانتبه
أهلكتَ نَفسكَ فارحمها وذر بدعاً ... بها بُليتَ ودع قولاً شَقِيتَ به
لم تجعل المصطفى أهلاً لزائره ... بشدِّهِ الرَّحْلَ أو من يستغيثُ به
وكم رحلتَ إلى أمرٍ به أرَبٌ ... من أمرِ دين ودنيا قد عُنِيتَ به
وفي المساجد لا كلَّ الأمور أتى ... ذاك الحديثُ الذي قد ما سمعتَ به
والاستغاثة معناها تشفُّعُنا ... به إلى الله فيما نَرتجيه به
وما بذلك من بأس ومن حرج ... إلا لدى ميّتٍ من لَسعة الشُّبَهِ
هو الشفيعُ لمولاه وسيّدِهِ ... في كلِّ حالٍ مغيثُ المستغيث به
هو الحبيبُ فَمنْ يا قومُ يمنعه ... فضلاً حباه إلهُ العالمين به
والله والله لولا الله يضللُ منْ ... يشاءُ من خلقه فيما يريدُ به
ما كان يوجَدُ ذو عقل فَيَمْنَعَ ذا ... من أهل ملتهِ أو يَسْتريبَ به
وأنت يا أيها الإنسانُ مالك لا ... تُحققُ الأمرَ كيْ تُهدى لأصوبه
ها أنت تزعم أن الله في جهةٍ ... ولا تبالي بتشبيهٍ ضللتَ بهِ

من أين جئتَ بذا هذا أمامك لم   يقله أحمدُ حاشا أن يقولَ بهِ

وسل أبا الفرج الجوزيَّ تابعَه   ينبيك بالحق فاعلم واعلمنَّ به

وتزعم الله بالذات استقر على   عرش فتلحق وصافَ الحدوث به

وبالتوسل لا ترضى وتمنعهُ   تقول ذلك فعلُ المشركين بهِ

نَزَّهتَ بك عن شرك بزعمكَهُ   ولم تنزهْهُ عن شِبْهٍ وعن شَبَه

لقد وقعتَ من الإشراك في شَرَك   من حيثُ شِئتَ خلاصاً منه بُؤتَ به

أما الطلاق ثلاثاً فالمخالفُ في   وقوعه ساقطٌ في نفس مذهبه

تريد تنصره في حكم مسألة   أخطأ وخالف كل المسلمين به

وذاك أعظم برهانٍ بأنك لم   تستحِ من باطل مهما أسأتَ به

أما الكلام بأوصاف الإله علا   على الحوادث طراً أن تَحِلَّ به

فذاك موضعه علم الكلام فمن   أراده فليراجعه يجدْهُ به

كفاكِ يا نفسُ مع هذا الخطاب كفى   عودي لصاحبه فهو الحَرِيُّ به

وكل ما قلتُ في هذا يناسبه   وهكذا ذاك فيما لا يُخَصُّ به

تحزبَا وغدا السبكيُّ منفرداً   كلاهما ذو اعتداءٍ في تحزبه

كلاهما قد حشى أشعاره سفهاً   عليه زوراً وأبدى حشوَ مذهبه

كلاهما خلفٌ من بعدِ صاحبه   كلاهما متعدٌ في تَصَحُّبه

لكنَّ بينهما فرقاً افترقا   مع اتفاقهما فيما يُعابُ به

فالحنبليُّ له عذر بنصرته   لشيخه بأباطيل تليق به

أما اليمانيُّ فالمعذور لائمهُ   لأنه مخطىءٌ في خلطِ مَشْربه

لم يأت ذاك غريباً في القياس نعم   هذا اليمانيُّ قد وافَى بأغربه

إن كان يا يافعٌ عارٌ عليكِ بذا   فبابنِ أسعدَ فخرٌ تَفخرينَ به

وما تعجبتُ من شيء كنسبته   للشافعيّ افتراءً في تَذَبْذُبه

يوماً يمان إذا لاقيتَ ذا يمن   وإن تجد حشوَ شاميّ تدينُ به

إن شافعياً فهذا الحشوُ جئت به   من أينَ فَلْتُبرِهِ حتى نقولَ به

هل قاله الشافعي في الأمّ ليس به   أوفى الرسالة أو من أين جئتَ به

أشيخُ شيرازَ أبداه وحقَّقه   في نص تنبيههِ أو في مهذَّبه

أو الإمامُ الغزالي قال ذلك أو   إمامنا الأشعريُّ الحبرُ قال به

أو قاله الفخر يوماً في مطالبه   أوِ الجوينيُّ في إرشاد مَطْلَبه

في فقههم ذكروه أو عقائدهم   جميعهم ذمه مع من يقول به

إذاً فقل أنا حَشْوِيٌّ بدون حياً ... وابرأ من الشافعي أنت الدعيُّ به
لو كان حقاً حفظت الشافعيَّ ولم ... تَسُؤْه وَيحك في أعلام مذهبه
وإذا سَفِهتَ على السبكيِّ تابعه ... سُؤتَ الإمامَ وكلَّ المقتدين به
بل سؤت بالإفك مما قد أسأت به ... خير الأنام وكلَّ المؤمنين به
لقد كذبتَ وشرُّ القول أكذبه ... إذ قلت للشيخ من عُجْب عَرفتَ به
(فابرز وردَّ ترى والله أجوبةً ... مثلَ الصواعق تُردي من تمرُّ به)
(عقلاً ونقلاً وآيات مفصلةً ... من كل أروعَ شهمِ القلبِ مُنتبه)
(ماضي الجنانِ كحدِّ السيف فكرته ... يُريك نظماً ونثراً في تأدبه)
وقّادِ ذهن إذا جالت قريحتهُ ... يكاد يخشى عليه من تَلَهُّبه)
وغيرَ ذلك مما قلتَه بَطَراً ... اللهُ حسبُك فيما قد بجَحتَ به
لو كان فكرُك مثل السيف حدَّته ... لكنتَ جاهدت شيطاناً غويتَ به
أو كان ذهنُك متقداً ... كما تقول وتخشى من تَلَهُّبه
لكان يُحرق حشواً في الفؤاد به ... خرابهُ فيقيه من مخرِّبه
أما مذمتُك السبكيَّ فهي له ... شهادة بكمال حين فهتَ به
لو كنت تعلمه ما قلتَ ذاك به ... شَعَرتَ فيه ولكن ما شعِرتَ به
ألا استحيت من المختار فيه وفي ... آبائه وهمُ أنصارُ موكبه
آباؤه نصروه في كتَائِبهم ... وهو النصير بكُتْبٍ حَبَتْهُ به
لو لم يكن منه في نصرِ النبيّ سوى ... شفائه لكفى أكرم به ويه
ولابن تيمية للمصطفى خِدَمٌ ... لكنه لم يُوَفَّقْ في تأدبه
يقول كالمشركين المستغيثُ به ... وقد عصى زائر يسعى ليَثْرِبه
أف لذلك ذنباً لا أكفره ... به وإنْ قيل بل خِزْيٌ لمُذنبه
لكن له حسنات جمةٌ فبها ... أسبابُ عفو وصفو من مُتَبّبه
منها جوابٌ على التثليث ردٌّ به ... أكرم به من صحيح القول مُعْجبه
لم يَنْهج الرافضي منهاجَ سُنته ... ولو رآه أراهُ قُبْحَ مذهبه
في بابه ما له مثلٌ وواجبُهُ ... حُسْنُ اختصار فحسنٌ أيَ مُوجبه
يسر إلٰهيَ سُنّيّا يخلصه ... من مذهب الحشوِ كي يُخطَى بطيبه
وانظر لما قاله السبكيُّ فيه تفز ... بأصدق القول أحلاه وأعذبه
(إن الروافض قومٌ لا خَلاقَ لهم ... من أجهلِ الناس في علم وأكذبه)
(والناس في غِنية عن رد إفكهم ... لهجنةِ الرفضِ واستقباحِ مذهبه)

(وابن المطهر لم تطهُرْ خلائقه ... دَاعٍ إلى الرُّفض غالٍ في تَعصبه)
(لقد تَقَوّلَ في الصحب الكرام ولم ... يَستحْيِ مما افتراه غيرَ مُنْجِبه)
(ولابن تيميةَ ردٌّ عليه وَفي ... بمقصدِ الردّ واستيفاءِ أضْرَبِه)
(لكنه خلطَ الحقَّ المبينَ بما ... يَشوبه كدرٌ في صفوِ مَشربه)
(يحاولِ الحشوَ أنَّى كان فهولَه ... حثيثُ سيرٍ بشرقٍ أو بمغربه)
(يرى حوادثَ لا مبدأ لأوَّلها ... في الله سبحانه عما يَظُنُّ به)
(لو كان حياً يرى قولي ويسمعه ... رددتُ ما قال رداً غيرَ مُشْتَبِه)
(كما رددتُ عليهِ في الطلاق وفي ... تركِ الزيارةِ أقفو إثْرَ سَبْسَبِه)
وبعده لا أرى للرد فائدةً ... هذا وجوهره مما أضِنُّ به)
(والردُّ يحسنُ في حالين واحدة ... لقطعِ خصمٍ قويّ في تغلُّبه)
وحالة لانتفاعِ الناس حيثُ به ... هُدىً وربحٌ لديهم في تِكسّبُه)
(وليس للناس في علم الكلام هدىً ... بل بدعةٌ وضلالٌ في تطلبه)
(ولي يدٌ فيه لولا ضعفُ سامعهِ ... جعلتُ نظم الحقةَ بَسيطي في مُهَذَّبه)
نعمْ لقد صدق السبكيُّ فيه نعمْ ... حَكى الحقيقةَ لم يَعْبَثْ بِمنصبه
من أصدق الناس أتقاهم وأعلمهم ... فلا عفا الله يوماً عن مكذِّبه
كتبُ ابن تيمية بالحشو شاهدةٌ ... عليه فيما حشاها منْ تَمَذْهُبه
ما خالف المذهبَ السُّنيَّ قيل له ... حشوٌ وقولُ اعتزالٍ لا نقول به
فالحشوُ نقلٌ له والاعتزال له ... عقلٌ وكلٌّ لسنيّ بلا شُبَه
فتلك ألقابُهم صارت مَعَرّفةً ... فلفظها الآنَ وصفٌ لا يُذمُّ به
هذا اصطلاحهمُ الحشويُّ عندهمُ ... ذو سنة جامدٌ في كلّ مُشْتَبَه
حشا عقيدتَه حشواً يخل بما ... قد صح للهِ من وصف يليق له
ففرقةُ الحشو قومٌ قد يصاحبهم ... في الحق سوءُ اعتقادات نعوذ به
منهم مشبهةٌ منهم مجسمةٌ ... لا قدّس اللهُ قوماً قائلين به
أما ابن تيمية فيهم فذو جهةٍ ... بها فأنْبهُ واشكر من مؤنِّبهِ
وذاك كافٍ به في ذم بدعته ... إذْ لم يُرد لفظها فاطرحه وارمِ به
ونزّه اللهَ عن شبهٍ وعن جهة ... بالغيب آمن وصُنْهُ في تغيبه
إذ يستحيلُ على خلاقنا جهة ... والمستحيلُ محالٌ أنْ نَدِينَ به
نعم تعقلُ موجود بلا جهةٍ ... صعبٌ لغير نبيهِ القوم فانتبه
فما أتى في كلام الشرع مشتبهاً ... لحكمةِ الفهم قد جاء النبيُّ به

ووارِدُ اللفظِ إنْ أدّى بظاهره … معنى الحدوثِ سعينا في تجنبه

وفيه سرٌّ لغير اللهِ ما انكشفت … أستاره أو صفيٌّ قد حباهُ به

وثمَّ معنىً لذاك اللفظ محتملٌ … بعضُ الأئمةِ منا فسروه به

وقصدهمْ واحدٌ تنزيهُ خالِقنا … تفويضُ ما جاء أو تأويلُ مُشتَبِه

علا على الخلق طراً في جلالته … بالقهر فوقَ البرايا في تغلبهِ

كل الجهات علا منها ولا جهة … تحويه قد جلَّ عن أين وعن شَبه

وهذه الأرضُ فانظرها تجدْ كرةً … وفوقها العُلوُ والعرشُ المحيطُ به

والله من فوق الجميع بلا … كَيف وشِبْه تعالى في تحجُّبه

وفي السماء وفي الأرض الإله أتى … في الذكر إني بريءٌ من مكذبه

ما بالنا نحنُ نسعى في تباعدِه … وهو القريب وننأى مع تقربه

أيهربُ العبدُ من تقريب سيده … وسيدُ العبد يدنو حين مهربه

إفرضْ سوى الله كل الورى عدما … وهكذا كان معدوماً بغيهبه

ما كنتَ معتقداً في الله إذْ عدُمت … كلُّ الخلائق فهو الآن فارض به

سبحانه من إله ليس يحملهُ … عرشٌ بل العرشُ محمولٌ له وبه

لو استقر على عرشٍ لكان به … للعرش حاجة محتاج لمركبه

لكن عليه استوى لا كيف نعلمه … للاستواء أو القهرُ المرادُ به

جاء المجيءُ له سعياً وهرولةً … والحبُّ والقربُ منه مع تَقربه

والعلو والفوق أيضاً والنزول أتى … والضحك مع غضبٍ ويلٌ لمغضبه

وقد تعجب من أشياء قد وردت … كما يليق به معنى تعجبه

وهكذا كلُّ لفظ موهمٍ شَبَهاً … فَوضه للهِ أول بلا شَبَه

وأسلمُ الأمر تسليمٌ بجانبه … معنى الحدوثِ كما يرضى الإلهُ به

هذا هو المذهب المأثورُ عن سلف … أهلُ التصوف كلٌّ قائلون به

وهو المرجحُ عند الأشعريّ ولا … يأباه منا جميع المقتدين به

والماتريديُّ تفويضٌ عقيدته … وإن يؤوّل فلا قطعٌ لديه به

من رام أن يدركَ الخلاق فهو إذَنْ … في غير مطعمه قافٍ لا شُعَبِه

إذ ليس يدريه لا جن ولا ملك … ولا نبي قريب من مقربه

وحاصلُ الأمر أنا مؤمنون به … مع الكمالِ وتنزيه يليق به

هذي عقيدتنا في الله خالقنا … لم نحشُ لم نعتزل فيما ندينُ به

ولا نكفرهم لكن نبدّعهم … في الدينِ إذا أخطأوا في بعض أضربه

إخواننا أسلموا لله واجتهدوا … الحقَّ شاؤوا فضلُّوا في تَشَعُّبه

مع كونهم من فحول العلم قد زَلِقوا ... ببعض ما دق في الأذهان من شُبَه
وربّ شخص ضعيفِ الفهم سيق إلى ... صوبِ الصوابِ فلم يبرح يقولُ به
الأمر لله من يهديه نال هدىً ... ومن أضلَّ فقد حل الضلالُ به
ولم نخطِّئهمُ في كلِّ مسألة ... فكم كلام لهم فازوا بأصوبه
وفي الفروعِ وباقي الدين مذهبهم ... كغيرهم وافقوا الشرع الشريف به
وكتبهم في سوى معنى عقائدهم ... بحورُ علم فردٌ منها لأعذبه
لكنْ إذا كنت لم تدرك دسائسهم ... دع ما يَريبك تُفلحْ في تجنُّبه
والله يرحمنا طراً فرحمته ... هِي العمادُ لكل المؤمنين به

وبمناسبة ذكري المبشرة السابقة في حق الإمام السبكي، الدالة على جلالة قدره، وتقدسه لدفنه في صحن مسجد بيت المقدس أذكر هنا مبشرات نبوية وغير نبوية، لتعلم وهي على هذا الفقير من أكبر النعم.

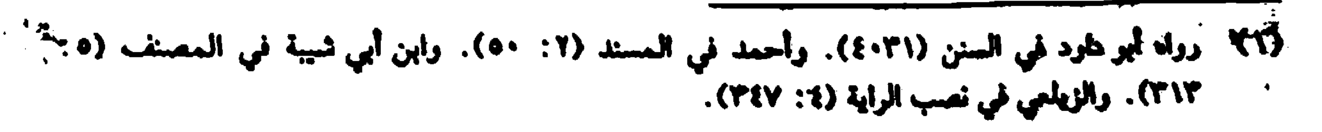
ذكر مبشرات منامية رآها جامع هذا الكتاب الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه ورؤيت له

قد رأيت في أوائل رجب سنة ١٣٢٤ النبي ﷺ واقفاً في مكان لا أعرفه، ومررت من جانبه الشريف فسمعته يقول: أنا لا أقدر على قيام الليل، ولعله خاطبني بذلك، فلما تجاوزته، رأيت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه ثم استيقظت ولم أفهم قوله ﷺ: أنا لا أقدر على قيام الليل، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه الشريفتان، ويجتهد في أنواع العبادة. فقال له بعض أصحابه: أتفعل ذلك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1]. والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام عناني بقوله: أنا لا أقدر على قيام الليل. فإن هذا وصفي أنا، لأني لست من قوام الليل، ولا أقدر على ذلك لعدم التوفيق وعدم مساعدة صحتي وحالتي.

مبشرة أخرى:

رأيت ليلة الخميس، لعله العاشر من شهر رجب سنة ١٣٢٤ أني واقف مع رجل من





(١) رواه أبو داود في السنن (٤٠٣١). وأحمد في المسند (٢: ٥٠). وابن أبي شيبة في المصنف (٥: ٣١٣). والزيلعي في نصب الراية (٤: ٣٤٧).

بيروت اسمه بشير، وأنا أبين له فضل النبي ﷺ فقلت له: النبي ﷺ هو بمنزلة جوهرة نفيسة قدر جميع العوالم كلها العرش بما فيه، وجميع الأنبياء هم باجتماع فضائلهم كلها بمنزلة دينار من الذهب بالنسبة إلى تلك الجوهرة. هذا هو الفرق بين فضل النبي ﷺ وبين فضل جميع الأنبياء صلوات الله عليه وعليهم أجمعين. انتهى ما قلته لذلك الرجل في المنام.

مبشرة أخرى:

قد رأيت في منامي ليلاً في أوائل محرم سنة ١٣٢٥ أني أقرأ حديثاً نبوياً معناه أن المؤمنين يمرون على الصراط يوم القيامة يسمعون النداء من الله تعالى أن ادخلوا الجنة، وليختر كل واحد منكم ما شاء من المنازل سوى القصر الذي عن يمين العرش، فإنه لمحمد وآل محمد ﷺ ثم انتبهت من منامي، ولم أطلع على حديث في هذا المعنى.

مبشرة أخرى:

قد أخبرني التاجر الصالح محمد رضا الجزار الحموي في شعبان سنة ١٣٢٤ بأنه رآني وهو في حماه ـ بلده ـ قبل قدومه إلى بيروت، جالساً مع النبي ﷺ في خلوة يذاكرني في بعض الشؤون، وأنه أراد الدخول فمنع، ثم تجاسر ودخل، وقبل يد النبي ﷺ ورجله.

مبشرة أخرى:

قد أخبرتني زوجتي صفية أنها رأت النبي ﷺ في شهر محرم سنة ١٣٢٤، لعله في ليلة الثاني عشر منه بصورة جميلة بيضاء، جالساً على مكان عالٍ وهو يبتسم في وجهها، وأن وجهه يشبه وجهه الشريف ﷺ شبهاً قوياً.

مبشرة أخرى:

أخبرني في هذا الشهر محرم الحرام سنة ١٣٢٦ أحد صلحاء سليم أفندي السروجي البيروتي بأنه كان منذ مدة سمع من رجل يعرفه من أهل بيروت من محلة البسطة اسمه سعيد العيتاني أنه رأى النبي ﷺ بصورتي، وأنه نسي أن يخبرني بذلك في حينه، وقد تذكره الآن بمناسبة كتابتي لهذه المبشرات وإملائها عليه، فقلت: لا بأس أن تجمعني بهذا الرجل لأسمع ذلك منه: فأتى به ليلاً إلى بيتي فوعظته وأفهمته أن الكذب في الرؤيا مطلقاً هو من الكبائر! أما الكذب على رسول الله ﷺ في اليقظة، أو في المنام، فهو من أكبر الكبائر وأعظم الذنوب،

فاحذر أن تزيد في رؤياك شيئاً. فقال: لا والله. وأخبرني بأنه من نحو سنتين رأى في منامه ليلاً رجلاً عظيماً جميلاً بكمال الهيبة والوقار لم ير نظيره في اليقظة، وهو على صورتي إلا أنه أطول مني وأضخم، رآه خارجاً من جامع البسطة، وحوله رجال يمشون في خدمته. قال: فسألت رجلاً هناك عنه، فقال لي: هذا رسول الله ﷺ واستيقظت، ففرحت برؤياه ﷺ فرحاً عظيماً. قال: ثم بعد هذه الرؤيا رأيت في منامي مكتوباً في السماء بالنور بحروف غليظة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

مبشرة أخرى:

قد حضر عندي أظن في إحدى الربيعين من العام الماضي سنة ١٣٢٥ أحد صلحاء التجار في بيروت، عبد الباسط أفندي الغندور، خال زوجتي صفية، وكان قد حصل له شدة وكرب، لم يسبق له نظيره بسبب قضية وقعت له مع أولاد أخيه المتوفى سعد الدين رحمه الله فقال لي: حينما اشتد علي الكرب أكثرت من الصلاة وعلى النبي ﷺ بنية الفرج ونمت مكروباً، فرأيته ﷺ في منامي وشكوت له حالي، فقال لي: اذهب إلى يوسف النبهاني يكون تفريج كربك على يده. وذكر لفظاً فيه تعظيم حذفته: أنا قال، وها أنا جئتك وحلف الإيمان المؤكدة بأنه ما زاد حرفاً، وما جاءني إلا بأمر رسول الله ﷺ له بذلك، فشككت والله في صدقه، بل كدت أتيقن كذبه لولا ما أعلمه فيه من الصلاح بالنسبة إلى التجار، فإن الصالح منهم هو الذي يصوم ويصلي ويحج ولا يشتغل بالربا.

وهذا الرجل متصف بهذه الأوصاف، ومع ذلك لم أتيقن صدقه، واستبعدت أن تقضى حاجته على يدي، لأن النظر في قضيته الواقع فيها الخلاف بينه وبين بني أخيه ليس من وظائفي، وإنما هو من وظائف القاضي وعدم حاجته على يدي هو أيضاً يقتضي عدم صحة رؤياه، لأن النبي ﷺ إذا قال قولاً لا بد أن يقع وقد قال له: إنه يحصل تفريج كربه على يدي، وأنا اعتقدت أنه لا يحصل لما ذكرته من الأسباب، ولكون أولاد أخيه معروفين بالتصلب في رأيهم، وقد اشتدت العداوة بينهم وبينه بحيث لا يطاوعونني في شأنه، ولذلك طيَّبت خاطره بالكلام، وصرفت النظر عن قضيته ليأسي من قضاء حاجته على يدي. ثم بعد نحو أسبوع مررت في السوق، فحينما حاذيت مخزن أولاد أخيه رأيت كبيرهم محيي الدين أفندي وأخاه عبد الحميد أفندي، فدخلت المخزن لأشتري بعض ما يلزمني من الأقمشة، فاشتريت ما أشتريه، وقبيل خروجي، تذكرت قضيتهم مع عمهم عبد الباسط أفندي المذكور، من عظتهم ونصحتهم بكلام أثر فيهم تأثيراً حسناً، فقالوا: نحن لا نخرج مما تأمرنا به في هذا الشأن، مع

أنهم كانوا قبل هذا في غاية النفور من عمهم المذكور. فأشرت عليهم بوجه به تفصل القضية بينهم وبين عمهم، فقبلوا وكان ابنه عون في مخزنهم، فأرسلناه أحضر أباه بالحال، وكان قبل ذلك مقاطعاً لهم. فلما حضر كلمته أيضاً بوجه صرف القضية بأن يبيعهم جميع حصصه المشتركة معهم في العقارات بالثمن الذي يرضاه، فوافق على ذلك ورضوا كلهم بالقيمة التي صار عليها الاتفاق، ولقنتهم صيغة المبايعة، فباعهم واشتروا منه، وانفصلت القضية على أحسن وجه غير منتظر بأيسر سبب وبدون أدنى مشقة، ولم يكن يخطر في بال أحد جواز فصلها بهذه السهولة.

فحينئذٍ طرأ عندي احتمال صدقه في رؤيا النبي ﷺ وقوله له: إن تفريج كربك يكون على يد فلان، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته، وكلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

مبشرة أخرى:

أخبرني بالمراسلة مراراً الأخ العالم الفاضل، الصالح الكامل، سلالة العلماء الأعلام، الشيخ عبد الرحمٰن أفندي الطيبي الدمشقي، مفتي حوران الآن بأنه كثيراً ما يرى النبي ﷺ في منامات جميلة. وآخر مكتوب جاءني منه في هذا المعنى مؤرخ في ثلاثين رجب سنة ١٣٢١، وقد أخبرني فيه بأنه رآني جالساً في مجلس رسول الله ﷺ وأنه كان السرور ظاهراً عليّ، وأنه لما كان لا يعرفني مواجهة لعدم اجتماعه بي في اليقظة، عرفه النبي ﷺ بي في ذلك المنام.

مبشرة أخرى تفيد شدة قبح التشبّه بالكفار:

رأيت في منامي في أوائل جمادى الثانية سنة ١٣٢٥ أني موجود في القسطنطينية مقر السلطنة العثمانية والخلافة الإسلامية أدام الله نصرها فدخلت بيتاً كبيراً، فرأيت فيه كثيراً من الناس؛ ومنهم رجل لحيته كالمسمار وعلى شكل لحى بعض الإفرنج، واسمه عبد الحليم. فاستبشعتها جداً، فجئت إلى جانبه وصرت أنصحه في ذلك، وأبين له قبح شكلها شرعاً، وأطلت معه في ذلك، فلم أقدر على إقناعه، فانصرفت عنه، وأنا في غاية الغضب، فصرخت بأعلى صوتي مخاطباً للحاضرين بقولي: يا عباد الله، والله لو أعطيت ملء هذا البيت ذهباً على أن أجعل لحيتي مثل لحية هذا الرجل لما فعلت ذلك. وصرت أتكلم على ذلك الرجل بكلام أوبخه به لم أحفظه ثم انتبهت من نومي. ولو لم يرد في تقبيح ذلك إلا قوله ﷺ: «من تشبه

بقوم فهو منهم»[١]. رواه أبو داود وغيره عن حذيفة رضي الله عنه لكفى ذلك زاجراً للمسلم عن مثل هذا التشبه القبيح الذي لا يفعله إلا كل مرتاب.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

مبشرة أخرى:

قد رأيت في منامي ليلة السبت ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٤ أني جالس مع سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه ومعنا رجل آخر نسيته الآن، ونسيت ما حصل من الحديث في ذلك المجلس، ولكني أعلم أنه مجلس. رضى وقبول، والحمد لله رب العالمين. قد سرتني والله رؤياي هذه واجتماعي بسيدي الشيخ عبد الغني النابلسي رضي الله عنه فيها فإنه من أكابر الأولياء العارفين، وأئمة العلماء العاملين. ولا أعلم له نظيراً في جمعه لعلوم الظاهر والباطن من عصره إلى الآن، فيمن اطلعت عليهم من أهل الظهور في العلم والمعرفة وفوائد رضي الله عنه في سائر العلوم جمة، ولا سيما ما يتعلق في الدين والتوحيد والمعرفة بالله تعالى وعلو قدر سيد المرسلين ﷺ وقد اطلعت على رحلته الكبرى الحجازية المسماة «بالحقيقة والمجاز» في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز». وأنقل منها هنا فائدة تدل على علو مقامه عند رسول الله ﷺ وهي ما ذكره في أثناء كلامه على ما حصل له مدة إقامته في المدينة المنورة، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، بقوله: ثم ذهبنا إلى منزلنا، وكان صديقنا مفخر الأعيان الحسيب النسيب، السيد عبد القادر أخبرنا أنه رأى النبي ﷺ في واقعة المنام هاتيك الأيام، وأمره ﷺ أن يقرأ علينا في صحيح البخاري. فلما أصبح أخبرنا بذلك، فحمدنا الله تعالى وشكرناه الحمد التام والشكر المستمر إن شاء الله تعالى على الدوام، حيث كانت تلك المبشرة إشارة إلى القبول، وجبراً لخاطر هذا العبد الكسير، ودليلاً على أنه مأذون له بالإقراء، وأنه مقبول، وإجازة بالسماع والقراءة للأحاديث الصحيحة المشتمل عليها كتاب البخاري، وهناك إشارات أخر وتنبيهات شتى إلى أنواع من نعم الباري. وتذكرت قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس:٦٤] قال بعضهم: هي الرؤيا الصادقة. وقوله ﷺ: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»[٢]. الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له. وقد قمت قائماً بعد ما كنت

(١) رواه البخاري في الصحيح (٢: ٦٣). ومسلم في الصحيح (٧٩). وأحمد في المسند (٤: ٢٥١). والنسائي في السنن (٣: ٢١٩).

(٢) رواه ابن ماجه في السنن (٣٩٨٦). وأحمد في المسند (٦: ٣٨١). والدارمي في السنن (٢: ١٢٣). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ٣١٢).

غافلاً نائماً، وكنت لما دخلت المدينة على شكل المذهول الطائش العقل. من حين دخولي إليها لا أتكلم في شيء من العلوم، ولا أبحث مع أحد في منطوق ولا مفهوم، هيبة من الحضرة المحمدية، وإجلالاً وحقارة لنفسي وإذلالاً؛ حتى ورد علي الإذن بذلك بمعونة القدير المالك، فكان السيد عبد القادر المذكور يأتي إلينا في صباح كل يوم ويقرأ علينا مختصر البخاري امتثالاً للأمر المحمدي الشريف، على حسب التيسير، ونتكلم له على المعنى بقدر ما يحضرنا من غير تقصير. ثم ذكر رضي الله عنه قراءته الدروس في المدينة المنورة، وإقبال العلماء والطلبة عليه للأخذ عنه من الصبح إلى الظهر.

ومنهم الإمام العلامة السيد زين العابدين البرزنجي المدني[1] رضي الله عنه

فمن جواهره

[معراجه]

معراجه الذي ذكر فيه قصة المعراج النبوي الشريف بأحسن أسلوب. وهو هذا:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

افتتح تحبير أبْرَادِ الأخبار المحمدية، مهذباً حواشيها بفرائد فوائد بسم الله، وأشنف آذان الأسماع بمنثور لآلئ الليالي الإسرائية، رافعاً أكف الافتقار لاستمطار غوادي بركات شكره وثناه، وأعطر معاطس المحافل بنشر خصوص نصوص خصائصه العبهرية. مرشفاً أفواه المسامع حميًا وصفه البديع من كؤس الشفاه، وأستنزل من صيب الفيض الإلٰهي ديم صلوات مسكيّة، يغمر غيداقها جدث صفيّ حضرة القدس ومجتباه، الأب الأكبر والجد الأعلى الذي سعد الكون بطوالعه الأسعدية، وسادت أمته بكنيتهم ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠] التعيين الأول والكنز المطلسم والدرة الحجبية، والنور المبين الذي اكتحلت أعين الوجود بإثمد رؤياه. وأستمنح مانح المنح نوافح تسليمات عنبرية، تعطر أضرحة آله وأصحابه الجحاجحة السراة، وأستدر درر التوفيق والإعانة وخلوص النية، «فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نواه»[2].

ضوّع اللهمّ معهده التسميم، بنشر غوالٍ من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

وبعد، فلما كان حاملو أعباء الوراثة المصطفوية، وقد ضمّخوا وجوه الطروس بعنبر مداد أخبار ليلة مسراة، وفاض جعفر الفيض بحسن المواهب اللدنية، وسطع الضوء الوهاج

---

(١) هو زين العابدين بن محمد البرزنجي مؤرخ من أعيان المدينة له كشف الحجب والستور توفي في سنة ١٢١٤ هـ.

(٢) رواه البخاري في الصحيح (١: ٢، ٨: ١٧٥، ٩: ٢٩). وأبو داود في السنن (٢٢٠١).

المحمدي وضاء سناه، لمعت لبصيرة الناهج نهجهم القويم لامعة ربانية، فأنار بارق لمعها الباهر سواده وسويداه، وسفحت على أصداف أفكار سافحة صمدانية، فانفلقت في عباب البراعة عن الدرر المنتقاة، **فأقول**: اختلف في الإسراء والمعراج علماء الملة الحنيفية، والأصح أنهما بروحه وجسده يقظة إلى مقام المكافحة والمناجاة واختلف في زمانهما، والراجح أنه قبل الهجرة بسنة هلالية، في أواخر رجب واعتمده الجمهور من ثقات الرواة.

وحديث المعراج رواه الجم الغفير من أصحاب خير البرية، ورواه عنهم كل حافظ اعتمد صحة ما رواه؛ فلننشر مطويَّ معنى القصة على فسيح أندية المسامع الندية، لتنتشق مشام أسماع الحاضرين طيب رياه، **فنقول**: بينما النبي ﷺ نائم بين رجلين في حجر تلك القواعد الإبراهيمية، إذا بجبريل وميكائيل ومعهما ملك آخر يتساءلون عن حليته الشريفة وحلاه، فقال أحدهم: أيهم هو؟ فمضت ليلتان على هذه الكيفية، وفي الليلة الثالثة أتوا به زمزم وجبريل تولاه، وطلب ميكائيل طستاً من المياه الزمزمية، فشرحا صدره وأخرجا قلبه وغسلاه، ثم أتي بطست ممتلئ إيماناً ومعاني حكمية، فأفرغاه في صدره الشريف وملآه حلماً وعلماً ويقيناً وإسلاماً وخاطاه، وختما بين كتفيه بخاتم النبوة الختمية، وأتي بالبراق مسرجاً ملجماً يضع حافره حيث أدرك طرفة منتهاه، له أظلاف وذنب كالبقر وقوائم إبلية، إذا صعد ارتفعت رجلاه وإذا هبط ارتفعت يداه، فاستصعب فقال له جبريل: أما تستحي يا براق فورب النشأة الوجودية، ما ركبك خلق أكرم منه على مولاه. فاستحيا وأرفضَّ عرقاً وقر حتى رَكِبَه خطيب المشاهد الحشرية، فسار وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يسراه، فإذا هو بأرض ذات نخيل دانية جنية، فقال جبريل: صلِّ هنا فهذه طيبة وبها الهجرة والوفاء. ثم سار فقال جبريل: صلِّ هنا بهذه البرية، فإذا هو عند شجرة موسى الذي فلق البحر بعصاه. ثم سار فقال جبريل: صلِّ هٰهنا بمعاهد التجليات الإلٰهية، فإذا هو بطور سيناء حيث كلم الله موسى وناداه.

ضوع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[بلوغه أرضاً ذات قصور شامخة]

ثم بلغ ﷺ أرضاً ذات قصور شامخة عليه، فقال جبريل: صلِّ هنا فإذا هو ببيت لحم حيث ولد عيسى الذي أوتي الحكم في صباه. وبينما هو يسير إذ رأى عفريتاً يطلبه بشعلة نارية، وكلما التفت ﷺ رآه، فقال جبريل: ألا أعلمك كلمات إذا قلتهن خرَّ لفيه على الفورية، فقال ﷺ: «بلى»، مستوثقاً من التوكل على الله بعراه، فدعا فانكب لفيه وطفئت شعلته

الجهنمية، ورأى قوماً يزرعون ويحصدون في يومين فسأل: «من هم»؟ قيل: المجاهدون في سبيل الله من عاداه. ووجد ريحاً طيبة شذية، فإذا هي رائحة ماشطة بنت فرعون بينما هي تمشطها إذ سقط المشط من يدها فقالت: بسم الله، تعس فرعون ما أضله وأغواه. فقالت ابنته أوَلك رب غير أبي العتو والجاهلية؟ قالت: نعم ربنا الذي ذرأ أباك وبرأه. فأخبرت أباها فدعاها واستولت عليه التسويلات النفسية، فقال: ألك ربٌّ غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك الله وكان لها ابنان وزوج فاستما لهم فأبوا إلا الفطرة الإسلامية، فألقاهم في بقرة من نحاس محماة، وتكلم طفلٌ منهم لم يفطم عن ارتضاع ضرع الطفولية، وقال: قَعِي ولا تقاعسي فإنك على الحق يا أماه. ومر ﷺ على قوم ترضخ رؤوسهم وتعود كما كانت سوية، فسأل: «من هم»؟ قال: هم الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة. ومر ﷺ بقوم على أدبارهم وإقبالهم رقاعٌ يغصون بطلع الشجرة الزقومية، فسأل: «من هم؟» قال: هم الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلموا ولكن لكل ما جناه. ومر ﷺ بلحم نضيج ونيىء وقوم يَدَعون نضيجه ويأكلون نيّه، فسأل: «ما هذا؟» قال: مثل الزوجين من أمتك يكون عندهما الحلال فيأتيان الحرام وهم الزناة. ومر ﷺ بخشبة على الطريق لا يمر بها شيء إلا مزقت عَاليَه ودَنِيَّهُ، فسأل عنها قال: هي مثل أقوام من أمتك يقطعون السبيل وهم البغاة. وتلا جبريل من صريح الآيات القرآنية: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٨٦].

ضوّع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[مروره برجل يسبح في نهر من دم]

ومر ﷺ برجل يسبح في نهر من دم ويلقم حجارته وأقذاره البذيّة، فسأل: «من هذا؟» قال: هذا آكل سحت المراباة. ومر ﷺ برجل يحمل حزمة يعجز عن حملها وهو يزيدها بعزمة قوية، فسأل عنه قال: هذا تكون عنده الأمانات يقصّر عن أدائها ويريد أن يتحمل ما لا يقواه. ومرَّ ﷺ بقوم تقرض ألسنتهم بمقاريض حديدية، كلما قرضت عادت لا يفتر عنهم قدر سنةٍ وانتباه، فسأل: «من هم؟» قال: خطباء الفتنة خطباء أمتك الأمية، الذين يقولون ما لا يفعلون فتستمنحه العافية مما لا يرضاه. ومر ﷺ بقوم يخمشون وجوههم وصدورهم بأظفار نحاسية، فسأل: «من هم؟» قال: هم الذين يغتابون المسلم المؤمن ويمزقون فراه. ومر ﷺ بجحر يخرج منه ثورٌ يريد أن يرجع فلا يستطيع بالكلية، فسأل عنه قال: هو الذي يتكلم الكلام ويندم

فلا يستطيع رد ما يكرهه ويأباه. ومر ﷺ بوادٍ فوجد صوتاً طيباً وريحاً باردة عطرية، فسأل عنه قال: صوت الجنة تقول: رب آتني ما وعدتني فقد كَثُر فيَّ ما لا نظائر له ولا أشباه، فقال: لك كل مسلم ومسلمة ومن عمل صالحاً ولم يشرك بي وصدق نبيه، ومن سألني أعطيته ومن توكل عليَّ كفيته وجعلتك جزاه. ومر ﷺ بوادٍ فوجد صوتاً منكراً وريحاً منتنة صديدية، فسأل عنه قال: صوت جهنم تقول: رب آتني ما وعدتني فقد ازداد في ما لا يقواه العصاة. قال: لك كل مشرك ومشركة وجبار وشقي وشقية، فقالت: ربّ قد رضيت بما ترضاه.

ضوّع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[رؤيته للدجال]

ورأى ﷺ الدجال بصورته رؤية عين لا رؤيا منامية، وسئل كيف رأيته؟ قال: «فَيْلَمَانياً أقمر أعاذنا الله من فتنته وبلاه». ومر ﷺ بعمود تحمله الملائكة قد أخجلت أضواؤه الكواكب الزهرية، قال: «ما تحملون؟» قالوا: عمود الإسلام أمرنا أن نضعه بالشام مولانا تعالى علاه. وبينما هو ﷺ يسير إذ دعاه عن يمينه داعي اليهودية، فسكت فقال جبريل عليه السلام: لو أجبته لتهود جمعٌ من أمتك وضل عن هداه. وبينما هو يسير إذ دعاه عن شماله داعي النصرانية، فسكت، فقال جبريل عليه السلام: ولو أجبته لارتعت أمتك خمائل التنصر واستعذبت جناه. وبينما هو يسير إذ هو بامرأة حاسرة عن ذراعيها وعليها أفخر حلة حلية، فنادته فسكت، فقال جبريل عليه السلام: تلك الدنيا لو أجبتها لاختار جمع من أمتك دنياه على أخراه. وبينما هو يسير فإذا هو بشيخ يدعوه متنحياً عن الطريق والطريقة الإيمانية، يقول: هلم يا محمد. فقال جبريل: سر فهذا العدو الذي أخرج آدم من جنة مأواه، أراد أن تميل إليه وتتبع ضلالة وغيه، لكن الكريم يحمي جنابك العظيم وحماه. ومر ﷺ على جانب الطريق بعجوز غابرية، فسألته الانتظار لتسأله فلم تصغ لقولها أذناه، فسأل عنها فقيل: لم يبق من عمر الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز بقية، ثم لقيه خلقٌ كأن وجه كل واحد منهم مصباحٌ في مشكاة، فقالوا: السلام عليك يا أول، يا آخر، يا حاشر. فردَّ التحية، ثم لقيه الثانية والثالثة، فقالوا له مثل ذلك بلفظه ومعناه، فسأل: «من هم؟» قال: إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم البرة التقية، على نبينا وعليهم من الله وافر تحاياه.

ضوّع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[مروره ﷺ بموسى وهو يصلي]

ومرَّ ﷺ بموسى وهو يصلي في قبره عند الكثيب الأحمر من الأباطح القدسية، يقول برفع صوته: فضلته وأكرمته فدفع إليه مسلماً فرد وحياه. وقال: «من هذا يا جبريل؟» قال: ذات محمد النورانية، فرحب به وأثنى عليه وقال: سل لأمتك اليسر والنجاة، فسأل ﷺ: «من هذا؟» قال: موسى ورسول الأمة الإسرائيلية. قال: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب الذي كلَّمه بطور سيناء. قال: ويرفع صوته على عالم الأسرار الخفية؟ قال: إنه قد عرف حدته التي فطره عليها وسوّاه. ومرَّ ﷺ على شجرة تحتها شيخٌ وعياله فرأى ضوءَ مصابيح سنية، قال: «من هذا؟» قال: أبوك إبراهيم فسلم عليه فردَّ ورحب به وأثنى عليه بجميل سجاياه، فسأل: «من هذا؟» قال: ابنك أحمد طراز الرفارف العرشية، الصادحة حمائم الكتب القديمة ببشراه، فقال: مرحباً بأشرف نتائج الصور العدنانية، وأفضل من بلغ الرسالة ونصح الأمة ونام بالواجب وأداه، فسار حتى أتى وادي المدينة المقدسية، فإذا جهنم تنكشف عن مثل الزرابي ترمي بشررٍ كالقصر يهول مرآه، فدخل المدينة من باب ناحيتها اليمانية، وإذا نوران ساطعان عن يسرى المسجد ويمناه، فقال ﷺ: «يا جبريل ما هذان النوران؟» قال: الأيسر على قبر مريم الصديقية، والأيمن على محراب داود المنيب الأوَّاه. فدخل المسجد من باب فيه تميل الشمس والأهلة القمرية، وأتى جبريل الصخرة بالبراق أوكاه، فصلى هو وجبريل عليه السلام ركعتين للمسجد تحية. فلم يلبث إلا يسيراً حتى امتلأت من الخلق زواياه، فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد بالعبادة للحضرة القيومية، ثم أذَّن مؤذن وأقيمت الصلاة، فقاموا صفوفاً وقدمه جبريل عليه السلام فصلى ركعتين بتلك الجمعية، وقيل: تدافعوا حتى قدَّموه وفيه إشعارٌ بسمو قدره وعلاه.

ضوّع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[لقاؤه ﷺ أرواح الأنبياء]

ثم لقي ﷺ أرواح الأنبياء عليه عليهم الصلاة والسلام. فأثنوا على الله تعالى بما منحوه من الخصوصية، فقال ﷺ: «وأنا أثني على من يعلم علانية العبد ونجواه، الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين وأنزل عليَّ الفرقان فيه تبيانٌ لكل قضية، وجعل أمتي أمة وسطاً وآخر

الخلق بعثاً وأولهم في حلول الفردوس وسكناه، وشرح لي صدري ووضع عني الأدران الوزرية، ورفع لي ذكري فلا يذكره أحد إلا ذكرني وإياه».

وضمَّ الإلٰه النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وجعلني فاتحاً خاتماً لديوان الرسالة الرحمانية». فقال إبراهيم عليه السلام: بهذا فضلكم محمد. فأذعن له بذلك الكل وهناه. ثم تذاكروا أمر الساعة فأجاب عن بعض أشراطها عيسى بن مريم الطاهرة العمرانية، وأشاعها سيدنا محمد ﷺ بقوله: «بعثت أنا والساعة كهاتين»[1] مشيراً بمسبحته ووسطاه، وأخذه ﷺ من العطش ما أخذه، فأتي بقدحي لبنٍ وعسلٍ أحدهما عن اليمين والثاني عن الناحية الشمالية، فشرب ﷺ من العسل قليلاً ومن اللبن ما أرواه. وقيل عرضت عليه أوان فيها مياه وألبان وأشربة خمرية، فشرب من الماء واللبن قليلاً ثم قدم له الخمر وقيل: اشرب، فقال: قد رويت لا أهواه، فقال جبريل عليه السلام: أما إنها ستحرم على أمتك أصبت الفطرة الدينية لو شربت الخمر لغوت أمتك ولو شربت الماء لغرقت وإنك لمهدي الله تعالى ومصطفاه.

ضوّع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[معراجه ﷺ]

ثم أتي بالمعراج الذي تعرج عليه الأرواح عند حلول المنية، لم ترَ الخلائق أحسن منه له مراق من الذهب والفضة مرقاة فوق مرقاة، فصعدا حتى انتهيا إلى أحد أبواب السماء الدنيوية، عليه ملك لم يصعد ولم يهبط إلى يوم وفاة من في تلك الليلة وافاه، فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قال: الذات الأحمدية.

قيل: أوَقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً به نعم المأتى مأتاه. ففتح لهما فإذا فيها آدم عليه السلام بذاته البدرية، وتعرض عليه الأرواح فيأمر بالمؤمنة إلى عليين والكافرة إلى سجين الجحيم ولظاه. فسلم عليه فرد وسأل عنه قال: أبوك آدم: والذي ترى عن جانبيه من الأسودة نسم الذرّية، والباب الأيسر باب جهنم والأيمن باب الجنة السامي ذراه، فإذا نظر من

(١) رواه البخاري في الصحيح (٨: ١٣١، ١٣٢). ومسلم في الصحيح (الفتن ١٣٥، الجمعة ٣٤). والنسائي في السنن (٣: ١٨٩). والترمذي في السنن (٢٢١٤). وابن ماجه في السنن (٤٠٤٠).

يدخل الجنة فرح بحلول القصور الجنانية، وإذا نظر من يدخل جهنم أبكاه. ثم رقى إلى الثانية فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من معك؟ قال: دِرة الكنز المخفية.

قيل: مرحباً به وأهلاً نعم المبدأ مبداه، ففتح لهما فإذا هو بعيسى ويحيى عليهما الصلاة والسلام وقد أخذ كلٌّ من أخيه الشبهية، فسلم عليهما فردًا ورحبا به ودعيا له بخير حين رأياه.

ثم رقى إلى الثالثة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من معك؟ قال: نقطة الدائرة الوجودية. قيل: مرحباً به وأهلاً حياه الله من خليفة وحباه، ففتح لهما فإذا هو بيوسف الذي أعطي شطر المحاسن الجمالية، فسلم عليه فردَّ ورحب به واستبشر بلقياه.

ضوَّع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[رقيه ﷺ إلى السماء الرابعة]

ثم رقي إلى الرابعة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من معك؟ قال: الذات المصطفوية.

قيل: مرحباً به وأهلاً حياه الله وأحياه، ففتح لهما فإذا هو بإدريس الذي رفعه الله مكانة عليه فرد، فسلم عليه ورحب به ودعا له بخير دعاه. ثم رقي إلى الخامسة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من معك؟ قال: سر الأسرار الملكوتية.

قيل: مرحباً وأهلاً وسهلاً بمن أجاب من دعاه، ففتح لهما فإذا هو بهارون ولحيته تضرب إلى سرته البهية، فسلم عليه فرد ورحب به وأكرم مثواه. ثم رقي إلى السادسة فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من معك؟ قال: عين الأعيان الإنسانية.

قيل: مرحباً وأهلاً بشمس أفق الكون وضياه، ففتح لهما فإذا هو بالنبي والنبيين معهم الرهط والقوم وسواهم وليس معه فرد من الأشباح القرشية، فمرَّ بسوادٍ عظيم فسأل: من هذا؟.

قيل: موسى ومن تبعه من قومه ودناه، ولكن ارفع رأسك فرفع فإذا هو بسواد عظيم قد سد الجوانب الأفقية.

قيل له: هؤلاء أمتك وسواهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب وجوههم كالبدر ليلة وفاه.

ضوِّع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[رقيه ﷺ إلى السابعة]

ثم رقي إلى السابعة فإذا فوقه رعدٌ وصواعق ولوامع برقية، فاستفتح جبريل عليه السلام قيل: من معك؟ قال: الحبيب الذي خصه الله تعالى بالشفاعة وارتضاه، ففتح لهما فسمع تسبيح الملائكة الروحانية، تسبح الله تعالى وتقدسه بألسنةٍ مختلفة اللغات ترجو عفوه ورضاه، فإذا هو بإبراهيم عند باب الجنة فسلم عليه فرد وقابل بالترحيب لقيه.

وقال: مر أمتك فليكثروا من غراس الجنة وغراسها لا حول ولا قوة إلا بالله، ووجد عنده قوماً جلوساً بيض الوجوه وقوماً في ألوانهم كدرة جزئية، فدخلوا أنهاراً واغتسلوا فيها فصارت ألوانهم مثل أصحابهم النقاه، فسأل: من هم؟ وما هذه الأنهار المخصوصة بهذه المزية؟ قال: قومٌ خالطوا وقومٌ أخلصوا والأنهار نعمة الله تعالى ورحماه.

وقيل له: هذا مكان من قضى نحبه على أمتك الحنيفية، فتهلل عند سماع هذا الخطاب باهر محياه، وإذا هو بأمته شطرين شطر عليهم ثياب بيضٌ نقية، وشطر عليهم ثياب رمد وهم الذين يخلطون العمل الصالح بإراده، فدخل البيت المعمور ومعه الذين عليهم الثياب البيض القرطاسية، وحجب الآخرون وكلاً وعد الله حسناه، فصلى هو والمؤمنون فيه وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الهياكل الملكية، ولا يعودون إليه إلى يوم الحساب والمجازاة.

ضوِّع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[مروره ﷺ على الملأ الأعلى]

ومر ﷺ على الملإ الأعلى فإذا جبريل عليه السلام كالحلس البالي من هيبة الربوبية، ثم رفع إلى سدرة المنتهى التي تآوي إليها أرواح من اتبع دينه ووالاه، فإذا فيها شجرة يخرج منها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعماه، وأنهارٌ من خمر لذة للشاربين وأنهارٌ من عسل طاب ورده وصفاه، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطع ظلالها الوريفية. الورقة منهما تظل الخلق رواه الطبراني وحكاه، فغشيها من أمر الله تعالى ما غشيها فلا يستطيع أحد أن يصف محاسنها الذاتية.

فقيل له: إلى هنا ينتهي كل أحد من أمتك خلى على سبيلك واقتفاه، وإذا فيها عين ينشق منها نهران أحدهما الكوثر عليه خيامٌ جوهرية، وعليه طيرٌ خضرٌ أنعم طير أنت راء حين تراه، يجري على رضراض من اللآلئ كؤوسه عدد الأنجم السماوية، فأخذ منها فشرب فقال جبريل: هذا النهر الذي خبا لك في خباياه، والثاني نهر الرحمة فاغتسل فيع فغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر من الخطية، أي سترها عنه ومن ملابستها عصمه وحماه.

ضوّع اللهم معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[دخوله ﷺ إلى الجنة]

ثم دخل الجنة فإذا فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على القلوب البشرية، مما أعده الله فيها من النعيم المقيم لمن اتقاه، ورأى الحسنة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر فسأل عن هذه الأفضلية.

فقال جبريل عليه السلام: لأن المستقرض لا يستقرض إلا من عسرٍ أحوجه وألحاه، واستقبلته لزيد بن حارثة جارية حورية، ورأى الجنة من درَّة بيضاء وإذا ترابها مسكٌ ضاع شذاه، وسمعَ وجساً في جوانب قيعان جنابذها اللؤلؤية، فقال يا جبريل: ما هذا؟ قال: بلال المؤذن مولى الصديق عبد الله.

ثم عرضت عليه النار فرأى خازنها عابساً فبدأ النبي بالتحية الوفية، وأغلقت دونه أبوابها وصعد السدرة إلى مرتقاه، فغشيها ما غشيها من الأنوار القدوسية، ومن الملائكة أمثال الغربان حتى يقعن على العضاة، فقيل له: إن ربك يقول سبوح قدوس قضيت للرحمة على الغضب بالسبقية.

وعرج به حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف الأقلام بما قدره العلّام وقضاه، ورأى رجلاً مغيباً في نور العرش فقال: من هذا: الممنوح بهذه العطية؟ أنبيٌ مرسل أم ملك قربه الله تعالى وأدناه؟.

قيل: رجل كان لسانه رطباً من أذكار الحضرة الأحدية، وقلبه معلقاً بالمساجد ولم يستسبت للدين ولداه. ثم علا به فوق ذلك وكشفت له حجب الأنوار الجلالية، ودنا من رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى وناجاه، فغشيته سحابة التجليات السبوحية، ووقف جبريل عليه السلام وتلا وما منا إلا له مقامٌ معلومٌ فجاز الحجب واعتلى إلى حيث

شاءوا وأراد له الله، وجعل الله تعالى له ملكاً يشبه أبا بكر رضي الله عنه في الصورة الحسية، يؤانسه مع ارتقائه إلى أن خرَّ ساجداً لمن تعنوا له الوجوه والجباه، ورأى ﷺ الذات المنزهة عن الكيفية والكمية. والخلاف مشهورٌ والصحيح أنه رآه بعيني رأسه بلا ريب ولا اشتباه:

وترقَّى به إلى قاب قوسين وتلك السيادة القعساءُ
رتبٌ تسقط الأمانيُّ حسرى دونها ما وراءهن وراءُ

ضوّع اللهمَّ معهده الشميم، بنشر غوال من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[مناداته تعالى له ﷺ]

وناداه ربه عز وجل: يا محمد سل تعط كل أمنية، فقال: إنك اتخذت إبراهيم خليلاً وموسى كليماً وعلمت عيسى الإنجيل والتوراة، وأعذته وأمه من النزعات الشيطانية.

قال: قد اتخذتك حبيباً وهو في التوراة حبيب الله، وأعطيتك سبعاً من المثاني وخواتم البقرة والحياض الكوثرية، وثمانية أسهم الإسلام وما بني عليه من صلاة وزكاة، وفرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة وعلمية؛ فقم بها أنت وأمتك من غير مواناه، ثم انجلت السحابة فمرَّ بموسى عليه السلام فقال له: ما فرض عليك ربك؟.

قال: خمسين صلاة بين الغداة والعشية. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تطيق ذلك ولا تقواه. فرجع سريعاً حتى انتهى إلى الشجرة فغشيته سحابة الأنوار السبحانية، فخرَّ ساجداً وسأل ربه التخفيف فوضع عنه خمساً أو عشراً على اختلاف الرواة.

فرجع إلى موسى وأخبره بذلك فقال: ارجع واسأل التخفيف فإن أمتك أضعف الخلق جثمانية. فلم يزل يرجع بين موسى وربّه عز وجل ويحط عنه في كل مرة سحابة تغشاه، حتى قال سبحانه وتعالى: يا محمد إنهن خمس صلوات لكل صلاة عشرٌ كما قضت بذلك الإرادة الأزلية، لا يبدل قولي ولا ينسخ كتابي إني أنا الله الذي لا يعبد سواه؛ والحسنة بعشر أمثالها ومن هم بها ولم يعملها كتبت له فرديه، والسيئة بمثلها إن عملها فإن لم يعملها لم يكتب عليه شيء مما نواه.

ثم انحدر فقال موسى عليه السلام: سل التخفيف فقال: ﷺ: قد استحييت من مراجعة ربي ورضيت بأحكامه المقضية. فنادى منادٍ أن قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي فقال موسى: اهبط، فقال ﷺ: بسم الله.

وإنما السر في موسى يردده ليجتلي حسن ليلى حين يشهده

يبدو سناها على وجه الرسول فيا ... لله در رســـولٍ حيـــن أسهـــده

وكل قوم يلحظون مذهبهم وقد علم كل أناس مشربهم من علماء الظاهر والصوفية؛ عباراتهم شتى وحسنك واحد وكلٌّ إلى ذلك الجمال إشارته وإيماءه.

ضوّع اللهمّ معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[مروره ﷺ بالملائكة]

ولم يمرَّ ﷺ بملإٍ من الملائكة إلا قالوا مر أمّتك بالحجامة وأكثروا فيها الوصيّة، ثمّ انحدر ﷺ إلى سماء الدنيا فرأى أسفل منها زهزجاً وأصواتاً ودخاناً فقال لجبريل عليه السلام: ما هذا الذي أراه؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم لئلا يتفكروا في الأملاك العلوية؛ ولولا ذلك لرأوا العجائب ممّا أبدعه المبدع عز وجل وأبداه.

ثم ركب ﷺ منصرفاً فمر بعير لقريش فلما دنا منها نفرت بتلك الأرض الفضائية، وصرع بعير منها وانكسر حين حاذاه. ومر ﷺ بعير لقريش قد ضلوا بعيراً لهم قد جمعه أحدهم بهمةٍ عزميّة، فسلّم عليهم فقال بعضهم: هذا صوت محمد بن عبد الله. ثمّ أتى قبيل الصبح أصحابه بالأباطح المكية. فلما أصبح قعد حزيناً وعرف أن الناس تكذّب مسراه، فمرّ به أبو جهل رئيس الطائفة القليبية، وقال كالمستهزئ هلا من خبر وديدنه بغض النبي وأذاه؟.

فقال الصادق ﷺ: أسري بي الليلة إلى رحاب القدس الأفيحيّة. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم فاستعظم ذلك واستقصاه، فلم ير أنّه يكذّبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا إليه الطّائفة القرشيّة، فقال: إن دعوت قومك أتحدّثهم بهذا؟ قال: نعم فناداهم فانقضّ إليه كلّ من مجلسه وفناه.

فقال له أبو جهل: أخبر بأخبارك المرويّة. فحدّثهم بما حدّث به قبل أبا جهل الذي هواه في الهاوية أهواه. فمن بين مصفّق ومستبعد إسراه من أعلى الله تعالى على السّبع الطباقّ رقيّه، ومن واضع يده على رأسه قد ذهب به العجب إلى منتها هو، فكذبه المطعم بن عدي حصب الطباق السعيرية أطعمه الله شريع الزقوم ومن طينه الخبال سقاه.

وقال: نحن نضرب أكباد الإبل إليه ستين ليلة عددية، تزعم أنك أتيته الليلة وأقسم لا يصدقه بلاته وعزاه، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: بئس ما قلت لابن أخيك كذبته وهو سيد الأسرة الهاشمية. أنا أشهد أنه صادق مأمون فرضي الله تعالى عن أبي بكر وأرضاه، فقالوا: يا

محمد صف لنا بيت المقدس وأوضح الوصفية، فذهب ﷺ يصف لهم ويقول كذا وكذا هيئته وقربه من الجبل وبناه. فَمَا زال ينعت حتى التبس عليه النعت وكرب كرباً ما كرب مثله قط منذ برز من الصدفة الزهرية، فجيء بالمسجد ووضع دون دار عقيل أو عقال شك من رواه فسألوه عن أبوابه فنظر إليه وعدها باباً باباً بالتبعية، وأبو بكر رضي الله عنه يقول: صدقت صدقت أشهد أنك رسول الله. فقال القوم: إنه أصاب الوصف والنعتية، أفتصدقه يا أبا بكر؟.

قال: أصدقه بخبر السماء في غدوة كل يوم ومساه فمن ثم لقب بالصديق وفاز من الإيمان بالأوّليّة، وتبرع بماله في حب الله تعالى ورسوله ﷺ حتى تدرّع بعباة، فقالوا: يا محمد أخبرنا عن عيرنا وأخبارنا الحقيقية، فقصَّ عليهم أمرها وذكر موضع كل منها وسماه.

وقال: ها هي هذه تطلع عليكم من الثنية، تجيء يوم الأربعاء فأشرفوا ينتظرونها فلم تجئ حتى انتهى من النهار دجاه، فدعا ﷺ فزيد له ساعة في تلك العصرية، وحبست الشمس حتى دخلت العير وأخبرت بخبره ودحر الله من كذبه وأخزاه، فرموه بالسحر وأنزل الله عليه من محكم الآيات القرآنية: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ممن غره الشيطان وأغواه.

وكان عليه أفضل الصلوات والتسليمات الزكية منذ أسري ريحه ريح عروس وأطيب قدر أرج أرجه وهاد الكون ورباه. وهٰهنا كف انسياب تيار ينبوع البيان عن حياض هذه الرياض البديعيّة، وألقت نجائب الإبداع يديها في نضير مرابع من تهواه.

ضوِّع اللهمَّ معهده الشميم، بنشر غوال من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[دعاء]

اللهم يا من ترفع إليه العفاة أكفها وهي عفية، فيغدقها هاطل منِّه وعطاه. يا من تعالى عن الأغيار والمثلية.

يا من وسعت رحمته من أطاعه وعصاه. يا من يرى مد أجنحته البعوض في الدياجير الحلكية، ويسمع دبيب أرجلها إذا أرخى الغيهب ستره وأضفاه.

نسألك بعظيم أنوارك الجلية، التي أزالت رين القلب وصداه، ونتوسل إليك بصاحب المقامات العلية، الممنوح بالشفاعة العظمى يوم العدل والمقاضاة، ونقسم عليك بالمخصوص بالدنوّ من حضرة قدسك والمشاهدة البصرية، المصفى من خالص سؤدد العزّ

والجاه، وبعترته المطهرة من الأقذار الرجسية، وجماهير أصحابه الغرّ الميامين الهداة، وبورثته الجامعين للفضائل الحسية والمعنوية، وبكل عبد قربه مولاه وهداه، وبسائر أمته المخصوصة بالخيرية، ومهديها الفائز من دنا منه ودناه... أن تقضي لنا مهم المهمات الدينية، وتتمم لكلٍّ مقصده من أمور آخرته ودنياه، وتنعش رضيع الألبان بحليب حسن الطويه، ونشفي سقيم الهوى من سقم بلواه، وتنشق مشام الأفهام من عرار الإنابة الزكية، وتقي ركبان الأذهان قاطع السبيل أن يظهر قطيعته وجفاه، وتقصم عرى التكاسل والحسد والنفسانية، وتهب هذا الجمع الميمون ما تمناه، وتشفي مخيف عضال الأدواء القلبية، وتجعل في علاج طبيب الانكسار دواه، وتكف كف شجاع شهوات النفس الدنية، بكفّ سلطان الخوف من عقابك وأذاه، وترحم منسجم وابل العبرات العينية، وتبل أوام كبدٍ حرّى أضرمت لإبعادها عن حماك اللامع ضياه.

اللهم امنحنا في الأقوال والأفعال الإعانة الخلوصية، وسلمنا من خواطر الإعجاب والمرآة، وخص مجرى هذه الحسنات بالحفظ والرعاية السرمدية وبوّئهُ من كثيب الفردوس أعلاه، وأصلح الرعاة خصوصاً ملوك الدولة العثمانية، وآلهم الجميع العدل والقسط في رعاياه، واسمع عن البرزنجيّ محبر حبر أخبار اللّيلة المعراجية، عبيدك زين العابدين بن محمد المعترف بتقصيره وخطاياه، وأنظمهُ في سلك من اخترتهم من خلص عبادك ذوي الخصوصية، واجعل مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين مقرّه ومثواه، وأمنن عليه ووالديه والحاضرين ووالديهم بالفوز والأمان والشهودية، واجعل مقعد الصدق منزل كل منهم ومرقاه، واغفر لأشياخهم وأحبابهم والأهلية، وأسل ضافي الأستار على راقم هذه الخصائص النبوية وكن لسامعها وقارئها منعماً بإنالة رجواه.

اللهم صلِّ وسلم على المحبو بالمعراجية الجسدية الرفرفية، وعلى آله وأصحابه الولاة الدعاة... ما مد سماء الند وريف ظلاله من نفحات عرف مجامع مجامرها المندلية، وسح سحاب أفكاره الكريمة على ثغور زهور الأفكار بغزير أنواه، وقلدت أجياد عرائس البراعة الباسمة بنظيم سموطها الدرية، وتمّ بغاية الانتهاء تاريخ حسن الخاتمة ودبج عراص المشاهد نفح كباه... سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ومنهم العلامة السيد جعفر بن حسن البرزنجي المدني[1] المتوفى سنة ١١٧٩ هـ[2]

من جواهره رضي الله عنه

[مولده الشهير]

هذا المولد الشهير، الذي ليس له نظير وهو مخترعه فيما أعلم.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أبتدئ الإملاء بأسم الذات العلية، مستدراً فيض البركات على ما أناله وأولاه، وأثني بحمدٍ موارده سائغة هنية، ممطياً من الشكر الجميل مطاياه، وأصلي وأسلم على النور الموصوف بالتقدم والأولية، والمنتقل في الغرر الكريمة والجباه، وأستمنح الله تعالى رضواناً يخصُّ العترة الطاهرة النبوية، ويعم الصحابة والأتباع ومن والاه، وأستجديه هدايةً لسلوك السبل الواضحة الجلية، وحفظاً من الغواية في خطط الخطإ وخطاه، وأنشر من قصة المولد النبوي بروداً حساناً عبقرية، ناظماً من النسب الشريف عقداً تحلى المسامع بحلاه، وأستعين بحول الله وقوته القوية، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

فأقول: هو سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب واسمه شيبة الحمد ابن هاشم واسمه عمرو بن عبد مناف واسمه المغيرة ابن قصيّ واسمه مجمّع سمي بقصي لتقاصيه في بلاد قضاعة القصية، إلى أن أعادوه الله تعالى إلى الحرام المحترم فحمى حماه، ابن كلاب

---

(١) هو جعفر بن حسن بن عبد الكريم البرزنجي زين العابدين فاضل من أهل المدينة المنورة كان مفتي الشافعية فيها توفي عام١١٧٧ هـ.

(٢) ورد تاريخ وفاته في الأعلام للزركلي سنة ١١٧٧ هـ.

واسمه حكيم ابن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر واسمه قريش وإليه تنسب البطون القرشية، وما فوقه كنانيٌّ كما جنح إليه الكثير وارتضاه؛ ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس وهو أول من أهدى البدن إلى الرحاب الحرمية، وسمع في صلبه النبي ﷺ ذكر الله تعالى ولباه، ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهذا سلك نظّمت فرائده بنان السنة السنية، ورفعه إلى الخليل إبراهيم أمسك عنه الشارع وأباه، وعدنان بلا ريب عند ذوي العلوم النسبية، إلى الذبيح إسماعيل نسبته ومنتماه؛ فأعظم به من عقدٍ تألفت كواكبه الدرية، وكيف لا والسيد الأكرم ﷺ واسطته المنتقاة؟

نسب تحسب العلا بحلاه قلدتها نجومها الجوزاء
حبذا عقد سؤدد وفخار أنت فيه اليتيمة العصماء

فأكرم به من نسب طهره الله تعالى من سفاح الجاهلية. أورد الزين العراقي واورده في مورده الهني ورواه:

حفظ الإله كرامة لمحمد آباءه الأمجاد صوناً لاسمه
تركوا السفاح فلم يصبهم عاره من آدم وإلى أبيه وأمه

سراةٌ سرى نور النبوة في أسارير غررهم البهية، وبدا بدره في جبين جده عبد المطلب وابنه عبد الله.

عطِّر اللهمّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

ولما أراد الله تعالى إبراز حقيقته المحمدية، وإظهاره جسماً وروحاً بصورته ومعناه؛ نقله إلى مقره من صدفة آمنة الزهرية، وخصها القريب المجيب بأن تكون أماً لمصطفاه، ونودي في السمٰوات والأرض بحملها لأنواره الذاتية، وصبا كل صب لهبوب نسيم صباه، وكسيت الأرض بعد طول جدبها من النبات حللاً سندسية، وأينعت الثمار وأدنى الشجر للجاني جناه، ونطقت بحمله كل دابة لقريش بفصاح الألسن العربية، وخرّت الأسرة والأصنام على الوجوه والأفواه، وتباشرت وحوش المشارق والمغارب ودوابها البحرية، واحتست العوالم من السرور كأس حمياه، وبشرت الجن بإظلال زمنه وانتهكت الكهانة ورهبت الرهبانية، ولهج بخبره وكل حبر خبير وفي حلا حسنه تاه، وأتيت أمه في المنام فقيل لها: إنك قد حملت بسيد العالمين وخير البرية، فسميّه إذا وضعته محمداً لأنه ستحمد عقباه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

ولمَّا تم من حملة شهران على مشهور الأقوال المروية، توفي بالمدينة المنوَّرة أبوه عبد الله.

وكان قد اجتاز بأخواله بني عدي من الطائفة النجارية، ومكث فيهم شهراً سقماً يعانون سقمه وشكواه.

ولما تم من حمله على الراجح تسعة أشهر قمرية، وآن للزمان أن ينجلي عنه صداه، حضر أمه ليلة مولده آسية ومريم في نسوة من الحظيرة القدسية، وأخذها المخاض فولدته ﷺ نوراً يتلألأ سناه.

ومحيا كالشمس منك مضيء ... أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذي كان للد ... ين سرورٌ بيومه وازدهاء
يوم نالت بوضعه أبنة وهْب ... من فخار ما لم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما ... حملت قبل مريم العذراء
مولد كان منه في طالع الكف ... ر وبالٌ عليهمُ ووباء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد ... ولد المصطفى وحق الهناء

هذا وقد استحسن القيام عند ذكر مولده الشريف أئمة ذوو رواية وروية، فطوبى لمن كان تعظيمه ﷺ غاية مرامه ومرماه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

وبرز ﷺ واضعاً يديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء العلية، مومياً بذلك الرفع إلى سؤدده وعلاه، ومشيراً إلى رفعة على سائر البرية؛ وأنه الحبيب الذي حسنت طباعه وسجاياه، ودعت أمه عبد المطلب وهو يطوف بهاتيك البنية، فأقبل مسرعاً ونظر إليه وبلغ من السرور مناه، وأدخله الكعبة الغراء وقام بدعو بخلوص النية، ويشكر الله تعالى على ما منَّ به عليه وأعطاه، وولد ﷺ نظيفاً مختوناً مقطوع السرة بيد القدرة الإلٰهية، طيباً دهيناً مكحولة بكحل العناية عيناه.

وقيل ختنه جده عبد المطلب بعد سبع ليال سوية، أولم وأطعم وسماه محمداً وأكرم مثواه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

وظهر عند ولادته خوارق وغرائب غيبته، إرهاصاً لنبوته وإعلاماً بأنه مختار الله ومجتباه؛ فزيدت السماء حفظاً ورد عنها المردة وذوو النفوس الشيطانية ورجمت رجوم النيرات كل رجيم في حال مرقاه، وتدلَّت إليه ﷺ الأنجم الزهرية، وأستنارت بنورها وهاد الحرم ورباه.

وخرج معه ﷺ نورٌ أضاءت له قصور الشام القيصرية، فرآها من بطاح مكة داره ومغناه، وانصدع الإيوان بالمدائن الكسروية، الذي رفع أنو شروان سمكه وسواه، وسقط أربعٌ وعشر من شرفاته العلوية، وكسر سرير الملك كسرى لهول ما أصابه وعراه، وخمدت الثيران المعبودة بالممالك الفارسيّة لطلوع بدره المنير وإشراق محيّاه وغاضت بحيرة ساوة وكانت بين همذان وقم من البلاد العجمية، وجفت إذ كفَّ واكف موجهاً الثجاج ينابيع هاتيك المياه.

وفاض وادي سماوة وهي مفازة في فلاة وبريَّة؛ ولم يكن بها قبل ماء ينقع للظمآن اللّهاه، وكان مولده ﷺ بالموضع المعروف بالعراص المكية، والبلد الحرام الذي لا يعضد شجرة ولا يختلى خلاه؛ واختلف في عام ولادته ﷺ وفي شهرها وفي يومها على أقوال للعلماء مروية، والراجح أنها قبيل فجر يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول من عام الفيل الذي صده عن الحرام وحماه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

وأرضعته ﷺ أمه أياماً ثم أرضعته ثويبة الأسلمية، التي أعتقها أبو لهب حين وافته عند ميلاده عليه الصلاة والسلام ببشراه، فأرضعته ﷺ مع ابنها مسروح وأبي سملة وهي به حفيه، وأرضعت قبله حمزة الذي حمد في نصرة الدين سراة.

وكان ﷺ يبعث إليها من المدينة بصلة وكسوة هي بها حرية، إلى أن أورد هيكلها رئد المنون الضريح ووراه. قيل: على دين قومها الفئة الجاهلية، وقيل: أسلمت أثبت الخلاف ابن منده وحكاه.

ثم أرضعته ﷺ الفتاة حليمة السعدية، وكان قد رد كلٌّ من القوم ثديها لفقرها وأباه، فأخصب عيشها بعدالمحل قبل العشية، ودرَّ ثدياها بدر درّ ألبنه اليمين منهما والبن الآخر

أخاه، وأصبحت بعد الفقر والهزال غنية، وسمنت الشارف لديها والشياه، وانجاب على جانبها كل ملمة ورزية، وطرّز السعد برد عيشها الهنيّ ووشاه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

وكان ﷺ يشبُّ في اليوم شباب الصبي في الشهر بعناية ربانية، فقام على قدميه في ثلاث ومشى في خمس وقويت في تسع من الشهور بفصيح النطق قواه، وشق الملكان صدره الشريف لديها وأخرجا منه علقة دموية، وأزالا منه حظ الشيطان وبالثلج غسلاه، وملآه حكمة ومعاني إيمانية، ثم خاطاه وبخاتم النبوة ختماه، ووزناه فرجح بألف من أمته الخيرية. ونشأ ﷺ على أكمل الأوصاف من حال صباه، ثم ردته إلى أمه ﷺ وهي به غير سخية؛ حذراً من أن يصاب بمصاب حادث تخشاه، ووفدت عليه حليمة في أيام خديجة السيدة المرضية، فحباها من حبائه الوافر بحباه، وقدمت عليه يوم حنين فقام إليها وأخذته الأريحية، وبسط لها من ردائه الشريف بساط بره ونداه؛ والصحيح أنها أسلمت مع زوجها والبنين والذرّية، وقد عدهما في الصحابة جمعٌ من ثقات الرواة.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

ولما بلغ ﷺ أربع سنين خرجت به أمه إلى المدينة النبوية، ثم عادت فوافتها بالأبواءِ وبشعب الحجون الوفاء، وحملته ﷺ حاضنته أم أيمن الحبشية، التي زوجها ﷺ بعد من زيد بن حارثة مولاه، وأدخلته على جده عبد المطلب فضمَّه إليه ورق له وأعلى رقيه، وقال: إن لابني هذا لشأناً عظيماً فبخ بخٍ لمن وقره ووالاه، ولم تشك في صباه جوعاً ولا عطشاً قط نفسه الأبية، وكثيراً ما غدا فاغتذى بماء زمزم فأشبعه وأرواه.

ولما أنيخت بفناء جده عبد المطلب مطايا المنية، كفله عمه أبو طالب شقيق أبيه عبد الله، فقام بكفالته بعزم قويّ وهمةٍ وحمية، وقدمه على النفس والبنين وربّاه.

ولما بلغ ﷺ اثنتي عشرة سنة رحل به إلى البلاد الشامية، وعرفه الراهب بحيراً بما حازه من وصف النبوّة وحواه، وقال: إني أراه سيد العالمين ورسول الله ونبيه؛ وقد سجد له الشجر والحجر ولا يسجدان إلا لنبيّ أواه.

وإنما لنجد نعته في الكتب القديمة السماوية، وبين كتفيه خاتم النبوة قد عمه النور

وعلاه، وأمر عمه برده إلى مكة تخوفاً عليه من أهل دين اليهودية، فرجع به ولم يجاوز من الشام المقدس بصراه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

[لما بلغ ﷺ خمساً وعشرين]

ولما بلغ ﷺ خمساً وعشرين سنة سافر إلى بُصرى في تجارة لخديجة الغنية، ومعه غلامها ميسرة يخدمه ﷺ ويقوم بما عناه، ونزل ﷺ تحت شجرة لدى صومعة نسطورا راهب النصرانية، فعرفه الراهب إذ مال إليه ظلها الوارف وآواه، وقال: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلاّ نبي ذو صفات نقية، ورسول قد خصه الله تعالى بالفضائل وحباه. ثم قال لميسرة: أفي عينيه حمرة استظهاراً للعلامة الخفية؟ فأجابه بنعم فحق لديه ما ظنه فيه وتوخاه، وقال لميسرة: لا تفارقه وكن معه بصدق عزم وحسن طويه، فإنه ممن أكرمه الله بالنبوة واجتباه.

ثم عاد إلى مكة فرأته خديجة مقبلاً وهي بين نسوة في علية، وملكان على رأسه الشريف من وضح الشمس قد أظلاه، وأخبرها ميسرة بأنه رأى ذلك في السفر كله وبما قاله الراهب وأودعه لديه من الوصية، وضاعف الله في تلك التجارة ربحها ونماه.

فبان لخديجة بما رأت وما سمعت أنه رسول الله ﷺ إلى البرية، الذي خصه الله تعالى بقربه واصطفاه، فخطبته ﷺ لنفسها الزكية، لتشم من الإيمان به ﷺ طيب رياه، فأخبر أعمامه بما دعته إليه هذه البرة التقية، فرغبوا فيها لفضل ودين وجمال ومال وحسب ونسب كل من القوم يهواه، وخطب أبو طالب وأثنى عليه ﷺ بعد أن حمد الله بمحامد سنيه.

وقال: وهو والله بعد له نبأ عظيم يحمد فيه سراه. فزوجها منه ﷺ أبوها وقيل عمها وقيل أخوها لسابق سعادتها الأزلية، وأولدها كل أولاده إلا الذي باسم الخليل سماه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

ولما بلغ ﷺ خمساً وثلاثين سنة بنت قريش الكعبة لانصداعها بالسيول الأبطحية، وتنازعوا في رفع الحجر الأسود فكل أراد رفعه ورجاه، وعظم القيل والقال وتحالفوا على القتال وقويت العصبية.

ثم تداعوا إلى الإنصاف وفوضوا الأمر إلى ذي رأي صائب وأناه، فحكم بتحكيم أوّل داخل من باب السدنة، الشيبية، فكان النبي ﷺ أول داخل فقالوا هذا الأمين وكلنا نقبله ونرضاه، فأخبروه بأنهم رضوه أن يكون صاحب الحكم في هذا المهم وولوه.

فوضع ﷺ الحجر في ثوب ثم أمر أن ترفعه القبائل جميعاً إلى مرتقاه، فرفعوه إلى مقره من ركن هاتيك البنية، ووضعه ﷺ بيده الشريفة في موضعه الآن وبناه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

ولما كَمل له ﷺ أربعون سنة على أوفق الأقوال لذوي العالمية، بعثه الله تعالى للعالمين بشيراً ونذيراً فعمهم برحماه، وبدئ إلى تمام ستة أشهر بالرؤيا الصادقة الجلية، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق صبح أضاء سناه.

وإنما ابتدئ بالرؤيا تمريناً للقوة البشرية، لئلا يفجأه الملك بصريح النبوة فلا تقواه قواه، وحبب إليه الخلاء فكان يتعبد بحراء الليالي العددية، إلى أن أتاه فيه صريح الحق ووافاه، وذلك في يوم الإثنين لسبع عشرة ليلة خلت من شهر الليلة القدرية. وثم أقوال لسبع أو لأربع وعشرين منه أو لثمان من شهر مولده ﷺ الذي بدا فيه بدر محياه، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ فغطه غطة قوية، ثم قال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ فغطه غطة ثانية حتى بلغ منه الجهد وغطاه.

ثم قال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ فغطه غطة ثالثة ليتوجه إلى ما سيلقى إليه بجميعه، ويقابله بجد واجتهاد ويتلقاه.

ثم فتر الوحي ثلاث سنين أو ثلاثين شهراً ليشتاق هاتيك إلى أن اشتاق هاتيك النفحات الشذية، ثم أنزلت عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] فجاءه جبريل بها وناداه، فكان لنبوته في تقدُّم اقرأ باسم ربك شاهد على أن لها السابقية، والتقدم على رسالته بالبشارة والنذارة لمن دعاه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

وأول من آمن به من الرجال أبو بكر الغار والصديقية، ومن الصبيان عليٌّ ومن النساء خديجة التي ثبت الله بها قلبه ووقاه، ومن الموالي زيد بن حارثة ومن الأرقاء بلال الذي عذبه

في الله أمية، وأولاه مولاه أبو بكر من العتق ما أولاه، ثم أسلم عثمان وسعد وسعيد وطلحة وابن عوف وابن العمة صفية، وغيرهم ممن أنهله الصديق رحيق التصديق وسقاه.

وما زالت عبادته ﷺ مع أصحابه مخفية، حتى أنزل عليه ﷺ قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] فجهر بدعاء الخلق إلى الله، ولم يبعد منه قومه حتى عاب آلهتهم وأمر برفض ما سوى الوحدانية، فتجرؤ على مبارزته وأذاه، واشتد على المسلمين البلاء فهاجروا في سنة خمس إلى الناحية النجاشية، وحدب عليه عمه أبو طالب فهابه كل من القوم وتحاماه، وفرض عليه ﷺ قيام بعض الساعات الليلية.

ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠] وفرض عليه ركعتان بالغداة وركعتان بالعشية، ثم نسخ بإيجاب الصلوات الخمس في ليلة مسراه.

ومات أبو طالب في نصف شوال من عاشر البعثة وعظمت بموته الرزية، وتلته خديجة بعد ثلاثة وشد البلاء على المسلمين عراه، وأوقعت قريش به ﷺ كل أذية، وأم الطائف يدعو ثقيفاً فلم يحسنوا بالإجابة قراه، وأغروا به السفهاء والعبيد فسبوه بألسنة بذية، ورموه بالحجارة حتى خضبت بالدماء نعلاه.

ثم عاد ﷺ إلى مكة حزيناً فسأله ملك الجبال في إهلاك أهلها ذوي العصبية، فقال: إني أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يتولاه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

ثم أسري بروحه وجسده ﷺ يقظة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ورحابه القدسية، وعرج به إلى السموات فرأى آدم في الأولى وقد جلله الوقار وعلاه، ورأى في الثانية عيسى بن مريم البتول البرة النقية، وابن خالته يحيى الذي أوتي الحكم في حال صباه، ورأى في الثالثة يوسف الصديق بصورته الجمالية وفي الرابعة إدريس الذي رفع الله مكانه وأعلاه، وفي الخامسة هارون المحبب في الأمة الإسرائيلية.

وفي السادسة موسى الذي كلمه الله تعالى وناجاه، وفي السابعة إبراهيم الذي جاء ربه بسلامة القلب والطوية، وحفظه من نار نمرود وعافاه. ثم رفع إلى سدرة المنتهى إلى أن سمع صريف الأقلام بالأمور المقضية، إلى مقام المكافحة الذي قربه الله فيه وأدناه، وأماط له ﷺ حجب الأنوار الجلالية، وأراه بعيني رأسه من حضرة الربوبية ما أراه، وبسط له بساط الإجلال

في المجالي الذاتية، وفرض عليه وعلى أمته خمسين صلاة، ثم انهل سحاب الفضل فردت إلى خمس عملية، ولها أجر الخمسين كما شاءه في الأزل وقضاه.

ثم عاد في ليلته وصدقه الصديق بمسراه وكل ذي عقل ورويه، وكذبته قريش وارتد من أضله الشيطان وأغواه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

ثم عرض نفسه ﷺ على القبائل بأنه رسول الله في الأيام الموسمية فآمن به ستة من الأنصار اختصهم الله تعالى برضاه، وحج منهم في القابل اثنا عشر رجلاً وبايعوه بيعة حقية، ثم انصرفوا وظهر الإسلام بالمدينة فكانت معقله ومأواه.

وقدم عليه في العام الثالث سبعون أو وخمسة أو ثلاثة وامرأتان من القبائل الأوسية والخزرجية، فبايعوه وأمر عليهم اثني عشر نقيباً حجاجحة سراه، فهاجر إليهم من مكة ذوو الملة الإسلامية، وفارقوا الأوطان رغبة فيما أعد لمن هجر الكفر وناواه، وخافت قريش أن يلحق ﷺ بأصحابه على الفورية، فأتمروا بقتله فحفظه الله تعالى من كيدهم ونجاه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من صلاة وتسليم. اللهم صل وسلم وبارك عليه

وأذن له ﷺ في الهجرة فرقبه المشركون ليوردوه بزعمهم حياض المنية. فخرج عليهم ونثر على رؤوسهم التراب وحثاه، وأم ﷺ غار ثور وفاز الصديق بالمعية، وأقاما فيه ثلاثاً تحمي الحمائم والعناكب حماه، ثم خرجا منه ليلة الإثنين وهو ﷺ على خير مطيه. وتعرض له سراقة فابتهل فيه إلى الله ودعاه، فساخت قوائم يعبوبه في الأرض الصلبة القوية، وسأله الأمان فمنحه ﷺ إياه.

ومر ﷺ بقديد على أم معبدالخزاعية، وأراد ابتياع لحم أو لبن منها فلم يكن شيء من ذلك خباؤها قد حواه، فنظر إلى شاة في البيت خلفها الجهد عن الرعية، فاستأذنها في حلبها فأذنت وقالت لو كان بها حلب لأصبناه، فمسح ﷺ ضرعها ودعا الله مولاه ووليه، فدرت وحلب وسقى كلاً من القوم وأرواه، ثم حلب وملأ الإناء وغادره لديها آية جلية، فجاء أبو معبد ورأى اللبن فذهب به العجب إلى أقصاه، وقال: أنىَّ لك هذا ولا حلوب بالبيت تبض بقطرة لبنيه؟.

فقالت مرَّ بنا رجل مبارك كذا وكذا حكت جثمانه ومعناه. فقال: هذا صاحب قريش وأقسم بكل ألية، بأنه لو رآه لآمن به وأتبعه وأدناه.

وقدم ﷺ المدينة يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول وأشرقت به أرجاؤها الزكية، وتلقاه الأنصار ونزل ﷺ بقباء وأسس مسجدها على تقواه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيّ من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

وكان ﷺ أكمل الناس خلقاً وخلقاً ذا ذات وصفات سنية مربوع القامة أبيض اللون مشرباً بحمرة واسع العينين أكحلهما أهدب الأشفار قدمنح الزجج حاجباه، مفلج الأسنان واسع الفم حسنه واسع الجبين ذا جبهة هلالية، سهل الخدين يرى في أنفه بعض أحديداب حسن العرنين أقناه، بعيد ما بين المنكبين سبط الكفين ضخم الكراديس قليل لحم العقب كثّ اللحية عظيم الرأس شعره إلى الشحمة الأذنيه، وبين كتفيه خاتم النبوة قد عمّه النور وعلاه.

وعرقه ﷺ كاللؤلؤ وعرفه أطيب من النفحات المسكية، ويتكفأ في مشيته كأنما ينحط من صببٍ ارتقاه. وكان يصافح المصافح بيده الشريفة فيجد منها سائر اليوم رائحة عبهرية، ويضعها على رأس الصبي فيعرف مسه له من بين الصبية ويدراه.

يتلألأ وجهه الشريف تلألؤ القمر في الليلة البدرية. يقول ناعته لم أر قبله ولا بعده مثله ولا بشرٌ يراه.

وكان ﷺ شديد الحياء والتواضع يخصف نعله ويرفع ثوبه ويحلب شاته ويسير في خدمة أهله بسيرة سرية، ويحب الفقراء والمساكين ويجلس معهم ويعود مرضاهم ويشيع جنائزهم ولا يحقر فقيراً أدقعه الفقر وأشواه، ويقبل المعذرة ولا يقابل أحداً بما يكره ويمشي مع الأرملة وذوي العبودية، ولا يهاب الملوك ويغضب لله تعالى ويرضى لرضاه، ويمشي خلف أصحابه ويقول: خلو ظهري للملائكة الروحانية، ويركب البعير والفرس والبغلة وحماراً بعض الملوك إليه أهداه، ويعصب على بطنه الحجر من الجوع وقد أوتي مفاتيح الخزائن الأرضية. وراودته الجبال بأن تكون له ذهباً فأباه. وكان ﷺ يقل اللغو ويبدأ من لقيه بالسلام ويطيل الصلاة ويقصر الخطب الجمعية، ويتألف أهل الشرف ويكرم أهل الفضل ويمزح ولا يقول إلا حقاً يحبه الله تعالى ويرضاه. وها هنا وقف بنا جواد المقال عن الإطراد في الحلبة البيانية، وبلغ ظاعن الإملاء في فدافد الإيضاح منتهاه.

عطِّر اللهمَّ قبره الكريم، بعرف شذيٍّ من
صلاة وتسليم اللهم صل وسلم وبارك عليه

اللهم يا باسط اليدين بالعطية. يا من إذا رُفعت إليه أكفُّ العبد كفاه. يا من تنزه في ذاته وصفاته الأحدية، عن أن يكون له فيها نظائر وأشباه، يا من تفرد بالبقاء والقدم والأزلية. يا من لا يرجى غيره ولا يعول على سواه. يا من استند الأنام إلى قدرته القيومية، وأرشد بفضله من استرشده واستشهده. . . نسألك اللهم بأنوارك القدسية، التي أزاحت من ظلمات الشك دجاه، ونتوسل إليك بشرف الذات المحمدية، ومن هو آخر الأنبياء بصورته وأولهم بمعناه، وبآله كواكب أمن البرية، وسفينة السلامة والنجاة، وبأصحابه أولي الهداية والأفضلية الذين بذلوا نفوسهم لله يبتغون فضلاً من الله، وبحملة شريعته أولي المناقب والخصوصية، الذين استبشروا بنعمةٍ وفضل من الله. . . أن توفقنا في الأقوال والأعمال لإخلاص النية، وتنجح لكل من الحاضرين مطلبه ومناه، وتخلصنا من أسر الشهوات والأدواء القلبية، وتحقق لنا من الآمال ما بك ظنناه، وتكفينا كل مدلهمة وبلية، ولا تجعلنا ممن أهواه هواه، وتدني لنا من حسن اليقين قطوفاً دانية جنيه، وتمحو عنا كل ذنب جنيناه، وتستر لكل منا عيبه وعجزه وحصره وعيه، وتسهل لنا من صالح الأعمال ما عز ذراه، وتعم جمعنا هذا من خزائن منحك السنية، برحمة ومغفرة وتديم عمن سواك غناه. . . اللهم إنك جعلت لكل سائل مقاماً ومزيه، ولكل راج ما أمّله ورجاه؛ وقد سألناك راجين مواهبك اللدنية، فحقق لنا ما منك رجوناه.

اللهم آمن الروعات وأصلح الرعاة والرعية، وأعظم الأجر لمن جعل هذا الخير في هذا اليوم وأجراه.

اللهم اجعل هذه البلدة وسائر بلاد المسلمين آمنة رخيه، واسقنا غيثاً يعمُّ انسياب سيبه السبسب ورباه، واغفر لناسج هذه البرود المحبَّرة المولدية، جعفر من إلى البرزنجي نسبته ومنتماه، وحقق له الفوز بقربك والرجاء والأمنية، واجعل مع المقربين مقيله وسكناه، واستر له عيبه وعجزه وحصره وعيه، ولكاتبها وقارئها ومن أصاخ إليها سمعه وأصغاه؛ وصل اللهم على أول قابل للتجلي من الحقيقة الكلية وعلى آله وصحبه ومن نصره ووالاه، ما شنّفت الآذان من وصفه الدريّ بأقراط جوهرية، وتحلت صدور المحافل المنيفة بعقود حلاه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا ومولانا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين. سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

النظم البديع في مولده الشفيع ﷺ لجامع هذا الكتاب
الفقير يوسف النبهاني

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

[التوبة: ١٢٨ - ١٢٩]

[النظم البديع]

الحمد لله على آلائه ... حمد امرئ أخلص في أدائه
أحمده والحمد من نعمائه ... إن خصنا بخير أنبيائه

محمد سيد كل عبد

أشهد أن الله فرد يعبد ... وأن خير خلقه محمد
رسوله المتمم المجدد ... وكل من صدقه مخلد

بغير شك في جنان الخلد

صلى عليه ربه وسلما ... وآله له ومن إليهم انتمى
وصحبه الهداة أنجم السما ... وتابعيهم وجميع العلما

وكل هاد في الورى ومهدي

وبعد فاسمع أيها السعيد ... ومن أنار قلبه التوحيد
عقد بيان دره نضيد ... أسلوبه في نظمه فريد

بذكر طه جاء خير عقد

نظمته بأنمل الأفكار ... من در بحر المصطفى المختار
خير البرايا صفوة الأخيار ... وسيد العبيد والأحرار

وكل جمع في الورى وفرد

لخصت فيه مولد الدردير ... وزدت من مواهب البشير

أرجو به الزلفى من الغفور وأن يكون المصطفى نصيري
ودعوه صالحة من بعدي

واعلم بأن من أحبّ أحمدا لا بد أن يهوى اسمه مرددا
لذاك أهل العلم سنوا المولدا من بعده فكان أمراً رشدا
أرضى الورى إلا غواة نجد

ولم يزل في أمة المختار من بعد خمسة أعصار
مستحسناً في سائر الأمصار يجمع كل عالم وقاري
وكل سالك سبيل رشد

كم جمعوا في حبه الجموعا وفرقوا في حبه المجموعا
وزينوا الديار والربوعا وأكثروا الأضواء والشموعا
وطيبوا الكل بعرف الند

وفرحوا بذكره وطربوا وأكلوا على اسمه وشربوا
وابتهلوا لربهم وطلبوا واستشفعوا به وانتسبوا
معتقدين نيل كل قصد

كم عمر الله به الديارا ويسر السرور واليسارا
إذ بذلوا الدرهم والدينار وذكروا الرحمٰن والمختارا
بين صلاة ودعا وحمد

يا هل ترى هذا يسوء أحمدا أم هل تراه ليس يرضي الصمدا
فدتك نفسي اعمل ولا تخش الردى وكرّر المولد ثم المولدا
تعش سعيداً وتمت في سعد

لكنما الأعمال بالنيات ويشرط الإخلاص للنجاة
إن الريا يحوّل الحالات ويقلب الطاعات سيئات
ويجعل التقريب عين البعد

ولْيُنفِق الأموال من حلال فذاك شرط صالح الأعمال
إن لم يكن إلا حرام المال فأجره يكون للأهالي
وهو له في النار شر قيد

وخلطة النساء بالرجال في شرعنا من أقبح الخصال
وسمة الفساق والجهال في كل وقت وبكل حال
ومن أجل موجبات الطرد

فاحذر جميع ما مضى في المولد وكل إيذاء بفم أو يد
وارفض سماع كل غرّ منشد بوصف حسناء ووصف أمرد
واهرب تفز من صوت هذا الوغد

ومن أراد هٰهنا الإنشادا فليختر الرشاد لا الفسادا
كذكره الخلاق والمعادا ومدحه النبي والأولادا
وصحبه الأسد وأي أسد

أكثر من الصلاة والسلام على النبي المصطفى التهامي
خير البرايا سيد الأنام مشرّع الحلال والحرام
وأصل كل سؤدد ومجد

فكل من صلى عليه مرة صلى بها الله عليه عشرة
قد صح في الحديث هذا جهرة رواه مسلم فنال شهرة
وكان حقاً سالماً من نقد

ولو يصلي الله ربي واحده لعدلت آلاف ألف زائدة
فانظر إذاً كم ذا بها من فائدة وكم بها أنوار أجر صاعدة
فاحرص عليها إن تكن ذا رشد

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أول خلق الله نور أحمد أصل الورى سيد كل سيد
قدماً تنبأ قبل طين الجسد فهو أبٌ لوالدٍ وولد
من قبل خلق آدم وبعد

أول خلق الله كان نوره منه الورى بطونه ظهوره
فكان قبل عرشه بحوره وقلمٌ من بعده مسطوره
من كل موجود بدون حد

قد كان نور النبي الكل العلو منه خلقه والسفل
فالكون فرعٌ والنبي أصلُ ليس له في العالمين مثل
لولاه ما انفك الورى في قيد

ثم برا الخلاق خلق آدم من طينة من بعد خلق العالم
وخصه بالنور نور الهاشمي محمد الهادي أبي العوالم
فاعجب له من والد للجدِّ

وخلق الله له حواء فمال شوقاً نحوها وشاء
فأظهرت من قربه الإباء فقيل: أدِّ مهرها سواء
صلِّ على محمد ذي الحمد

وسكنا في جنة الرحمٰن قد نعما بالحسن والإحسان
حتى أتى إبليس بالبهتان فأكلا فأهبط الإثنان
فوقعا في الأرض أرض الهند

فولدت لآدم بنينا وكان شيث خيرهم يقينا
لذا حباه نوره المصونا قال له كن حافظاً أمينا
وأوص من بعد وبعد البعد

وشيث قد أوصى به الأبناء أن يصطفوا لأجله النساء
وينكحوا الكرائم الأكفاء من كل ذات نسبة علياء
شريفة الجدين ذات مجد

وهكذا أبناء شيثٍ بعده أوصوا بنيهم لازمين حده
من بعدهم جاؤوا فأجروا قصده كل امرئ يمضي فيوصي ولده
قد حفظوا النور من التعدي

تزوّجوا بخالص النكاح بكل ذات نسب وضّاح
ما اجتمعوا قط على سفاح وكان منهم سادة البطاح
أسد الوغا أكرم بهم من أسد

وكل فرد منهم في فخره منفرد قد ساد أهل عصره
ما مثله في مجده وبره موحدٌ لربه بسرّه
فالكل منهم في جنان الخلد

حتى أتى خير الورى مهذباً أصفى الأنام نسباً وحسبا
من خير كل شعبة تشعبا أعلاهم جداً وأماً وأبا
يجل مجد ذاته عن حد

ولم يزل نور النبي الأكمل من سيد لسيد ينتقل
كأنه فوق الجبين مشعل يراه من يعقل من لا يعقل
ككوكب قد حل برج سعد

حتى استقر في جبين الماجد من كان للمختار خير والد

مولاي عبد الله ذي المحامد لم يرو عنه قط وصف جاحد

وأمه تنزهت عن جحد

أليس إيمانهما بلازم ومنهما قد جاء هدي العالم

كيف يكون رحمة العوالم لوالديه هو غير راحم

فاقطع لسان قائل بالضد

روى لساني ودرى جناني أنهما في الخلد خالدان

قد حييا بقدرة الرحمٰن وآمنا بابنهما العدناني

فخر معد وبني معد

يا حسرتا قد قضيا في يتمه والده قد مات قبلَ أمّه

واغتم أملاك السما لغمّه وابتهلوا لربهم في حكمه

قال دعوا لي صفوتي وعبدي

كلاهما ما جاوز العشرينا ولم يخلّف غيره بنينا

لو بقيا قرّابه عيونا ورضيا دنيا به ودينا

وأحرزا كل صنوف السعد

لكن أراد ربه انفراده بحبه فلم يدع أولاده

لم يعطه من أبويه زاده وقد تولى وحده إرشاده

كي لا يكون منةٌ لعبد

وسخر الخلق له جميعاً كلهم كان له مطيعا

فلم يكن لعبده مضيعاً لا معطشاً يوماً ولا مجيعا

روحي فداه وأبي وجدّي

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

سيدنا محمد خير نبي فاق الورى في حسب ونسب

هو ابن عبد الله نجل النجب جاء له من قبله في العرب

عشرون جداً بصحيح العدّ

هم سادة البطحاء عبد المطلب وهاشمٌ عبد مناف الأرب
قصيهم كلاب مرةٌ كعب لؤيُّ غالبٌ قريشٌ تنتسبُ

لفهرٍ بن مالكٍ ذي المجد

نضرٌ كنانةٌ خزيمة السري مدركةٌ إلياس بن مضر
نزارهم معد الليث الجري أبوه عدنان أتى في الخبر

وقف النبي عند هذا الجدُّ

أكرم بهذا النسب المعظَّمِ أكرم بهذا الحسب المسلَّمِ
أكرم بهذا الجوهر المنظَّمِ أكرم بهذا الشمس هذي الأنجمِ

شمس سعادة نجوم سعد

أجداده كل لديه شرف ما مثله في عصره مشرف
وكلهم بنوره قد شرفوا فإنه الدرُّ وكلٌّ صدفُ

والكل نخلٌ وهو عين الشهد

لما أتى النور إلى أبيه خير الكرام الماجد النبيه
بالبدر أمسى كامل التشبيه وشمس نور المصطفى تعطيه

فهو له منها أجل مدِّ

رغبه الناس فكل طلبا لما رأوه الكامل المهذبا
أعلى قريش حسباً ونسباً وأجمل الناس بهاء ونبا

والنور في جبينه ذو وقد

زوجه أبوه خير حرة آمنة الحصان أبهى درة
لعين وهب هي خير قرة عبد مناف جدها ابن زهرة

يجمعها كلاب جد الجدِّ

أكرم بها عقيلة ومجد أكرم بذاك الفحل زاكي المحتد
ما مثله ما مثلها من أحد حاز جميع المجد كل السؤدد

بخير من ساد الورى في المهد

تزينا بزينة المناقب وظهرا بهجة الكواكب
واصطحبا بصحبة الحبائب واقترنا بالشعب شعب طالب

أكرم بهذا من قران سعد

فحملت آمنة الأمينه بالدرة الفريدة المكنونه
أعلى اللآلئ قيمة وزينه وهي بها ما برحت ضنينه

تحفظها من كل شيء يردي

فحملت بالمصطفى فخر الورى خير البرايا خبراً ومخبرا
من ذكره يفوح مسكاً أذفرا وطيب رياه يفوق العنبرا
ويخجل الورد وعطر الورد

فحملت بخير خلق الله حبيبه خليله الأواه
من خصه الله بأعلى جاه فامتاز بالفضل على الأشباه
وكان بعد الفرد خير فرد

فحملت بالكامل المكمل خير النبيين الختام الأول
شمس الهدى أفضل كل أفضل من جنده كل نبي مرسل
وهم لعمر الله خير جند

فحملت بمن به توسلوا لربهم فبلغوا ما أملوا
وأخذ العهد عليهم أول أن يؤمنوا وينصروا فقبلوا
ولم يخلوا بشروط العهد

لو كان موسى منهم وعيسى في وقته كان لهم رئيسا
وكسروا الأبواق والناقوسا وقدسوا أذانه تقديسا
فهو نبيهم بغير رد

فحملت بصاحب الآيات أكثر رسل الله معجزات
أفضلهم في سائر الحالات وكل خير سالف وآتي
وكلهم تحت لواء الحمد

فحملت بالشافع المشفع يوم الجزا في هول ذاك المجمع
إذا أغرق الناس بحار الأدمع واستشفعوا الرسل فلما تشفع
فقال للخلق رضاكم عندي

وراح تحت العرش خير ساجد وحامداً بأكمل المحامد
يشفع للقريب وللأباعد شأن الفتى الحرّ الكريم الماجد
فقال مولاه له أشفع عبدي

فحملت بالسيد المسعود الحامد المحمد المحمود
أحمد خلق الله للحميد وخيرهم طراً بلا تقييد
في عهده السامي وكل عهد

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

إسمع صفات حملها بالنور ... لنور النبي المصطفى البشير
زين البرايا شرف العصور ... هادي الورى لدينه المبرور

وشرعه ما زال فيهم يهدي

قد أظهر الله له بفضله ... عجائباً لأمه في حمله
تدلها على عظيم نبله ... وأنه لله خير رسله

وصفوة الصفوة من معد

في ليلة الحمل سرى النداء ... وسمعته الأرض والسماء
صار لنور المصطفى ثواءُ ... في بطنها وهي له وعاء

طوبى لها طوبى لها من خود

ولطف الله به في الرحم ... إذ نوره وسط تلك الظلم
وأمه لم تشك أدنى ألم ... ولم تجد به أقل وحم

مع حتمه لكل ذات نهد

وخفَّ معنى حمله إذ حملا ... ولم تجد كالناس فيه ثقلا
وأنكرت عادة حيض بدلا ... فشككت ثم مضى لن يحصلا

فاستيقنت حملاً بغير جهد

أتى لها آتٍ بأوفى النعم ... بشرها من عند باري النسم
بحمل سيد لخير الأمم ... سيد كل عرب وعجم

من هذه الأمة ذات الرشد

ثم أتاها بعد آت آخر ... وطرفها لا نائم لا ساهر
قال شعرت واللبيب شاعر ... أن قد حملت ولك البشائر

بسيد الأنام خير عبد

ثم أتى لها أبر عائد ... قال متى جئت بذاك الماجد
قولي له أعيذه بالواحد ... من شر كل طارق وحاسد

سمي محمداً يفز بالحمد

كانت قريش قبل حمل أحمد ... في شدة من ضيق عيش أنكد

إن زرعت في أرضها لم تحصد   أو بذلت أموالها لم تجد
قد أيست من رحمة ورفد

فنزلت بحمله الأمطار   واخضرت الزروع والأشجار
وكثر الحبوب والثمار   وجاءهم من بعدها التجار
فانحط سعر صاعهم والمد

سموه عام الابتهاج والفرح   إذ فرحوا وزال عنهم الترح
وسمح الله لهم بما سمح   بيمن من بحمله الكون انشرح
وزال شؤم نحسه بالسعد

أصبح كل صنم منكوساً   كل سرير ملك معكوسا
فسر ذاك الملك القدوسا   وساء شيخ كفرهم إبليسا
أعني به الشيخ اللعين النجدي

وبشرت دوابهم بحمله   ونطقت ليلته بفضله
إمام دنيانا عديم مثله   وهو سراج أهلها وأهله
أنطقها الله المعيد المبدي

والوحش في الشرق هو الخبير   فهو لوحش المغرب البشير
هذي البراري وكذا البحور   حيتانها لبعضها بشير
لأنه رحمة كل فرد

في الأرض بالشهر له نداء   مستمعٌ ومثلها السماء
أن أبشروا فقد دنا الهناء   يأتي الكريم القاسم المعطاء
مباركاً لكل خير يسدي

وجاد ربي للنسا سرورا   أن حملت في عامه ذكورا
كرامةً لمن أتى بشيرا   للمهتدي والمعتدي نذيرا
فكان عام فرح ممتد

لم يبق في ليلة حمل دار   ما أشرقت وعمها الأنوار
وهكذا الشمس لها إسفار   متى دنت واقترب المزار
ولم تؤثر في العيون الرمد

قالوا وحملها بفخر العرب   ليلة جمعة بشهر رجب
وقيل يا رضوان أسرع أجب   قم وافتح الفردوس حبا بالنبي
قد استقر الآن نور عبدي

وهو شهور تسعة كوامل — ووقت حمله زمان فاضل
ما وجدت ما وجد الحوامل — فنعم محمولاً ونعم الحامل

من مغصٍ ووجعٍ ووجد

عصيان فيل وهلاك أهله — وكان من آياته في حمله
طيرٌ أبابيل أتت لقتله — أبرهةٍ بخيله ورجله

وقتلهم تردهم وتردي

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

ما ليلة القدر سواها عندنا — صف ليلة المولد وصفاً حسنا
واعتدلت فلم يكن فيها عنا — قد أشرقت فابتهجت منها الدنا

ما بين حر وصفها وبرد

قد جمعت أفراحنا وأنسنا — من ليلة القدر نراها أحسنا
وبلغتنا كل قصد ومنى — وأوسعتنا نعماً ومننا

وكل مطلوب بغير عد

أغاض ماء الفرس والنيرانا — الله قد سر بها الإيمانا
وقد رأى موبذ موبذانا — أخمدها وشقق الإيوانا

رؤيا أرتهم ملكهم في فقد

للسمع فانذادوا وكل طردا — والجن كانوا يقعدون مقعدا
كالسهم يأتي نحوه مسددا — من يستمع يجد شهاباً رصداً

له به في النار شر وقد

صدقها الكهان والأحبار — وكم أتت من هاتف أخبار
واقترب التوحيد والأنوار — كل ينادي قد دنا المختار

فالشرك بعد اليوم ليس يجدي

فأشرق العالم بالأنوار — وحضرت ولادة المختار
مثل المصابيح لدى النظار — ونزلت من أفقها الدراري

قد علقت لزينة عن عمد

بأمره الأبواب للجنان — وفتحت ملائك الرحمن

وغلقوا الأبواب للنيران وفرحوا كالحور والولدان

إذ أصلهم من نوره الممد

وعم فيهم سائر الأرجاء سرورهم بخير الأنبياء

وفتحوا الأبواب للسماء واكتست الشمس من البهاء

أحسن حلة وأبهى برد

وأخبرت آمنة السعيدة وهي بكل أمرها رشيدة

قالت: أتاني طلقه وحيدة عن كل من يؤنسني بعيدة

في منزلي أجلس فيه وحدي

وما درى بي أحد فيقترب ومن كل جار لي وكل منتسب

وكان في الطواف عبد المطلب فحرت في أمري وقلبي قد رعب

لكن وعيت لم أغب عن رشدي

فبينما أنا كذا في منزلي سمعت وجبةً وأمراً مذهلي

ثم كأن طائراً يمسح لي على فؤادي بجناح مسبل

فزال رعبي وجعي ووجدي

ثم رأيت شربةً لا تجهل بيضاء فيها لبن وعسل

شربتها فجاء نور من عل يؤنسني في وحشتي إذ يحصل

خير شراب لبن وشهد

ثم رأيت نسوة عوائدي كالنخل في طول القوام المائد

كأنهن من بنات الماجد عبد مناف والد الأماجد

أكرم بهم من والد وولد

فجئن نحو مجلسي أحدقن بي فنالني منهن كل العجب

وقلت: من أين ترى علمن بي عالجنني وقلن: لي لا تعجبي

آسيةٌ مريم حور الخلد

ومد بين الأرض والسماء أبيض ديباج من البهاء

وقائلاً أعلن بالنداء خذوه عن أعين كل رائي

سمعته فلم أفه برد

وقد رأيت في الهوا رجالا قد وقفوا لم يتركوا مجالا

رأيت في أيديهم أشكالا هي الأباريق بدت تلالا

من فضة صيغت بلا تعدي

وأقبلت قطعة طير غطت ... كل مكاني وجميع حجرتي

منقارها زمرّد ذو بهجة ... وقد بدا الياقوت بالأجنحة

يجل حسن ذاتها عن حد

عن بصري ربي أزال الحجبا ... فأبصرت عيناي شيئاً عجبا

وقد رأيت مشرقاً ومغرباً ... ولم أجد مما ألم تعبا

وزاد قربي حين زال بعدي

عيني رأت ثلاثة أعلاما ... إثنين في شرق وغرب قاما

كأنما قد بشرا الأناما ... والفرد فوق الكعبة استقاما

علامة لنصره والمجد

وبعد أن كنت كذا على هدى ... أخذني المخاض والنور بدا

ولم يزل مخففاً مشدداً ... حتى وضعت ولدي محمداً

أسعد مولود فتم سعدي

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

قد ولدته أمه فأسفرا ... منظفاً مطيباً معطرا

لم ترَ فيه وسخاً وقذرا ... مكملاً مختتناً مطهرا

مقطوع سرة بغير حد

وقد رأت نوراً به مصطحبا ... منها بدا ولم يزل ملتهبا

حتى أضاء مشرقاً ومغرباً ... رأت قصور الشام منه والربا

رأت بعيني رأسها من بعد

قالت وكان ساجداً إذ نزلا ... وخاضعاً لربه مبتهلا

ثم من السماء نحوي أقبلا ... سحابةٌ فغيبت خير الملا

وقائلاً طوفوا بخير عبد

طوفوا به كي يعلموا الأخبارا ... مشارقاً مغارباً بحارا

ليعرفوه السيد المختارا ... باسم وصورة ونعت سارا

يمحى به الشرك وكل جحد

وانكشفت عنه سريعاً فبدا ... وعاد لي كما مضى مؤيدا

على يديه حين وضعي اعتمدا ثم ملا بتربة الأرض اليدا

إشارة لملكها من بعد

ورفع الرأس إلى السماء ملتفتاً لعالم البهاء

إذ خلقه من نور هذا الرائي أصل الأصول وأبي الآباء

والكل عنده بحكم الولد

في ليلة الإثنين لاثني عشراً قبيل فجر من ربيع ظهرا

فأشرق الكون إذ أسفرا وأخجل الشمس وفاق القمرا

والبدر قد كلمه في المهد

وأرضعته ذات حظ وافر حليمةٌ من غرر العشائر

كان لديها القوت غير ياسر فأصبحت أيسر أهل الحاضر

سعيدة قد سعدت من سعد

يا ربنا بجاهه لديكا إنا توسلنا به إليكا

معتمدين ربنا عليكا وطالبين الخير من يديكا

فألهم الكل سبيل الرشد

يا ربنا بجاهه استجب لنا وأعطنا ومن نحب سؤلنا

واقبل إلهي قولنا وفعلنا وأصلحن نفوسنا وأهلنا

واحفظهم من كل شيء يردي

يا ربنا واغفر لنا الذنوبا يا ربنا واستر لنا العيوبا

يا ربنا ويسر المرغوبا يا ربنا وعسر المرهوبا

وأبعد المكروه كل البعد

يا ربنا واغفر لوالدينا أشياخنا إخواننا بنينا

أصلح لهم دنياهم والدينا وأسكن الجميع علينا

ونحن فيهم في جنان الخلد

يا ربنا واحفظ لنا السلطانا ضاعف لنا ضاعف له الإحسانا

وانصره يا رب على أعدانا واحفظ إلهي ديننا دنيانا

به وعمال له وجند

أصلح له يا ربنا عماله أصلح رعاياه وجمل حاله

بلغه مما ترتضي آماله واجعل لنا أقواله أفعاله

محمودة تنطقنا بالحمد

يا رب وارحم أمة المختار في كل عصر وبكل دار
واحرسهم من سلطة الأغيار في سائر البلاد والأقطار
في كل غورٍ وبكل نجد
به استجب يا ربنا دعواتنا آمن به يا ربنا روعاتنا
حسن به يا ربنا حالاتنا وبدلن بالحسن سيئاتنا
ونجنا من حسد وحقد
صل عليه يا إلهي عددا ليس يحد أزلاً وأبدا
والآل والصحب نجوم الإهتداء لمن بهم من أمه الهادي اقتدى
وعكس هذا هم لأهل الطرد
وارض عن الخليفة المقدم صاحبه صديقه المعظم
أعطاه ماله وخير الحرم ثم غزا الروم وأرض العجم
ورد كل جاهل مرتد
وارض عن الفاروق أفضل الورى بعد أبي بكر الإمام عمرا
كاسر كسرى ومبيد قيصرا ليث الوغا قائد آساد الشرى
أعني أبا حفص شقيق زيدِ
وارض عن الصهر الكريم الأفضل زوج ابنتي خير نبي مرسل
عثمان ذي النورين والفضل الجلي مجهز الجيش لخير الرسل
جهرة بإبل ونقد
وارض عن المولى الإمام حيدر زوج البتول أصل خير عنصر
باب النبي حامل باب خيبر فاتحها من بعد عجز العسكر
قاتل مرحب وعمر ود
وارض إلهي عن تمام العشرة وكل بدري وأهل الشجرة
وأحد وكل من قد نظره فكلهم قوم عدول بررة
واختم لنا بجاههم بالرشد
والحمد لله فقد تم الخبر عن مولد المختار سيد البشر
ألفٌ ثلاثمائة واثنا عشر تاريخ نظم عقد هذه الدرر
في شهره قد تم خير عقد

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلامٌ على المرسلين ،
والحمد لله رب العالمين

ومنهم الإمام العارف بالله سيدي الشيخ أحمد الدردير[1] المالكي المصري، المتوفى سنة ١٢٠١

ومن جواهره رضي الله عنه

[المولد الشريف]

مولده الشريف الذي نظمته في المزدوجة السابقة، وزدت عليه ولفضله وجلالة قدر مؤلفه يدرسه العلماء في الجامع الأزهر. وها أنا أنقله هنا بحروفه تتميماً للفائدة، وهو هذا:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله الواجب الوجود، الواسع الكرم والجود، المنزه عن الوالد والمولود، الذي بعث فينا نبيه وحبيبه محمداً ﷺ بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات. فأظهر به دينه القويم، وهدى به الصراط المستقيم، وخصه بالشفاعة العظمى، والمقام الأسنى، وأخذ على أنبيائه المواثيق والعهود.

لئن جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه حتى يبلغ رسالة الملك المعبود. فلما أقروا بذلك قال: اشهدوا وأنا معكم من الشهود. فدل ذلك على أنه أفضل خلق الله، وأشرف رسل الله من أحبه أحبه الله، ومن عصاه عصى الله قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» وقال ﷺ: «أنا حبيب الله والمصلي علي حبيبي فمن أراد أن يكون حبيباً للحبيب، فليكثر من الصلاة على الحبيب»[2]. ويكفي العاقل اللبيب، والحاذق النجيب.

---

(١) هو أحمد بن محمد بن أحمد العدوي، أبو البركات الشهير بالدردير، فاضل من فقهاء المالكية. ولد سنة ١١٢٧ هـ، وتوفي سنة ١٢٠١ هـ.

(٢) رواه الترمذي في السنن (١٣٦١٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٦: ٢٥١). والبغوي في شرح السنة (١٣: ٢٠٤). وفيه: «أنا حبيب الله ولا فخر».

وفي بيان عظم هذا النبي الكريم، وبيان قدر الصلاة عليه والتسليم. قول الله العلي العظيم: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ولقد أحسن من قال شعراً، هو سيد محمد وفا رضي الله عنه:

فأنت رسول الله أعظم كائن ... وأنت لكل الخلق بالحق مرسل

عليك مدار الخلق إذ أنت قطبه ... وأنت منار الحق تعلو وتعدل

فؤادك بيت الله دار علومه ... وباب عليه منهُ للحق يدخل

ينابيع علم الله منه تفجرت ... ففي كل حي منه لله منهل

منحت بفيض الفضل كلَّ مفضَّل ... فكل له فضل به منك يفضل

نظمت نثار الأنبياء فتاجهم ... لديك بأنواع الكمال مكلَّل

فيا مدة الإمداد نقطةَ خطه ... ويا ذِروة الإطلاق إذ يتسلسل

محال يحول القلب عنك وإنني ... وحقك لا أسلو ولا أتحول

عليك صلاة الله منه تواصلت ... صلاة اتصال عنك لا تتنصل

ولما كان أفضل خلق الله، كان أول خلق الله، وآخر أنبياء الله. روى عبد الرزاق بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء. قال: «يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، فجعل ذلك النور يدور بالقدرة حيث شاء الله. ولم يكن في ذلك الوقت لوح، ولا قلم، ولا جنة، ولا نار، ولا ملك، ولا سماء، ولا أرض، ولا شمس، ولا قمر، ولا جن، ولا إنس. فلما أراد الله تعالى أن يخلق الخلق، قسم ذلك النور أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول القلمَ، ومن الثاني اللوحَ، ومن الثالث العرشَ ثم قسم الرابع أربعة أجزاء، فخلق من الجزء الأول السمٰوات، ومن الثاني الأرضين، ومن الثالث الجنةَ والنارَ. ثم قسم الرابع أربعة أجزاء فخلق من الأول نور أبصار المؤمنين، ومن الثاني نورَ قلوبهم وهي المعرفة بالله تعالى ومن الثالث نور أنسهم وهو التوحيد لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله»[١].

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام». عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد». رواه الترمذي وحسنه.

واختلفوا في أول المخلوقات بعد النور المحمدي، والصحيح أنه الماء، ثم العرش، ثم

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال (١١١٦١).

القلم، ثم خلق الله آدم من طين ونفخ فيه الرُّوح، جعل ذلك النورَ في ظهره، فكان يلمع في جبينه، فيغلب على سائر نوره.

قال جعفر بن محمد: مكثت الروح في رأس آدم ماية عام، وفي صدره ماية عام، وفي ساقيه وقدميه ماية عام، ثم علمه الله تعالى أسماء جميع المخلوقات، ثم أمر الملائكة بالسجود له سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة، فسجدوا إلا إبليس فاستكبر وأبى، فكان أول من عصى الله، وأول حاسد لمن فضله الله تعالى فطرده الله تعالى ولعنه وأهبطه من الجنة مذموماً مخذولاً. ثم خلق الله تعالى حواء زوجته من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو نائم ولا يشعر بذلك. فلما استيقظ ورآها، سكن إليها ومد يده إليها فقالت الملائكة: مه يا آدم. فقال: ولِمَ وقد خلقها الله لي؟ فقالوا: حتى تؤدي مهرها. قال: وما مهرها؟ قال: أن تصلي على محمد ﷺ ثلاث مرات.

وفي رواية أنه لما رام القرب منها، طلبت منه المهر. قال: يا رب وماذا أعطيها؟ فقال: يا آدم صل على محمد بن عبد الله عشرين مرة، ففعل وأباح الله لهما نعيم الجنة إلا شجرة الحنطة، فنهاهما عن الأكل منها: فتحيل إبليس حتى دخل الجنة، وأتى إليهما، ووقف وناح نياحة أحزنتهما؛ فقالا له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي عليكما تموتان وتفقدان النعيم المقيم، ألا أدلكما على شجرة الخلد وملك لا يبلى؟ فكلا من هذه الشجرة فإنها شجرة الخلد. وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين.

فلما غواهما وأكلا منها وظنا أن أحداً لا يحلف بالله كاذباً، قال الله تعالى: يا آدم، ألم يكن فيما أبحت لكما من الجنة مندوحةٌ عن هذه الشجرة؟ قال: بلى يا رب. وعزتك وجلالك، ولكن ظنا أن أحداً لا يحلف بك كاذباً. فأهبطهما إلى الأرض.

قال وهب بن مُنَبه: لما أهبط آدم إلى الأرض مكث يبكي ثلاثمائة عام لا يرقأ له دمع؛ ثم أن حواء ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، ووضعت شيثاً وحده، كرامة لمن أطلع الله بالنبوة سعده. ولما توفي آدم عليه السلام كان شيث وصيه على أولاده، ثم إن شيثاً عليه السلام أوصى ولده بوصية آدم أن لا يضع هذا النور إلا في المطهرات من النساء، ولم تزل هذه الوصية جارية تنتقل من قرن إلى قرن، إلى أن وصل هذا النور إلى عبد الله بن عبد المطلب، وطهر الله تعالى هذا النسب الشريف من سفاح الجاهلية. قال ﷺ: «ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح الإسلام»[1].

(١) رواه الزيلعي في نصب الراية (٣: ٢١٣).

وقال ﷺ: «خرجت من نكاح غير سفاح»[١]. فهو سلالة الطيبين الطاهرين. ونتيجة الكرام الموحدين النبي العربي، الهاشمي القرشي، المنتخب، ومن خير بطون العرب، وأعرقها في النسب، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ بن كِلاب بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر، وهو قريش وإليه تنسب قريش. فمن كان فوقه فكناني لا قرشي ابن مالك بن النضر ابن كنانة، بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. هذا هو النسب المتفق عليه، وما بعده لا يعول عليه.

ولما أراد الله تعالى إبراز هذا السر المصون، الساري في الظهور والبطون، من عالم الخفاء إلى عالم الظهور، ليتم بذلك كمال الصفاء ومزيد السرور ألهم عبد المطلب بأن ذهب إلى وهب بن عبد مناف بن زُهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، فخطب منه ابنته آمنة لولده عبد الله، وهي يومئذ أفضل امرأة من قريش نسباً وموضعاً؛ فزوجها له وبنى بها في شعب أبي طالب، فحملت برسول الله ﷺ وظهر لحمله عجائب، ولوضعه غرائب.

وعن كعب الأحبار أنه نودي تلك الليلة في السماء وصفاحها. والأرض وبقاعها: إن النور المكنون الذي منه رسول الله ﷺ يستقر الليلة في بطن آمنة، فيا طوبى لها، ثم يا طوبى وأصبحت أصنام الدنيا منكوسة، وكانت قريش في جدب شديد وضيق عظيم، فأخضرت الأرض، وحملت الأشجار، وجاءهم الرِّفْد من كل جانب. فسميت تلك السنة التي حمل فيها برسول الله ﷺ سنة الفتح والابتهاج. وأتاها آت حين حملت به، فقال لها: أنت حملت بسيد هذه الأمة.

قالت آمنة: ما شعرت بأني حملت به، ولا وجدت له ثقلاً ولا وحماً كما تجد النساء إلا أني أنكرت حيضتي، وأتاني آت وأنا بين النوم واليقظة، فقال: هل شعرت بأنك حملت بسيد الأنام؟ ثم أمهلني حتى إذ دنت ولادتي، أتاني فقال لي: قولي إذا وضعتيه. أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد. ثم سميه محمداً.

وروي أن كل دابة لقريش نطقت تلك الليلة، وقالت: حمل برسول الله ﷺ ورب الكعبة، وهو إمام الدنيا وسراج أهلها. ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً، وفرت وحوش المشرق إلى وحوش المغرب، وكذلك حيتان البحار يبشر بعضها بعضاً، وله في كل شهر نداء في الأرض ونداء في السماء: أن أبشروا فقد آن أن يظهر أبو القاسم ﷺ ميموناً مباركاً. ولما تم لها من حملها شهران، توفي عبد الله، وهو راجع من

---

(١) رواه الألباني في إرواء الغليل (٦: ٣٣٣). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ١: ٣٢).

الشام مع جماعة من قريش سافروا للتجارة؛ فمروا بالمدينة، فتخلف مريضاً عند أخواله بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضاً شهراً، ثم توفي رحمه الله تعالى قيل: لما حضرت ولادة آمنة، قال الله تعالى للملائكة: افتحوا أبواب السماء كلها وأبواب الجنان كلها، وألبست الشمس يومئذ نوراً عظيماً، وكان قد أذن الله تعالى تلك السنة لنساء الدنيا أن يحملن ذكوراً كرامة لسيدنا محمد ﷺ.

قالت آمنة: لما أخذني الطلق، ولم يعلم بي أحد لا ذكر ولا أنثى، وإني لوحيدة في المنزل وعبد المطلب في طوافه، فسمعت وجبه عظيمة وأمراً عظيماً هالني، ثم رأيت كأن جناح طير أبيض قد مسح على فؤادي، فذهب عني الرعب وكل وجع أجده. ثم التفت، فإذا أنا بشربة بيضاء فتناولتها، فأصابني نور عال. ثم رأيت نسوة كالنخل طوالاً، كأنهن من بنات عبد مناف، يحدقن بي، فبينما أنا أتعجب وأقول: من أين علمن به؟ فقلن لي: نحن آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، وهؤلاء من الحور العين. فبينما أنا كذلك، إذ بديباج أبيض قد مد بين السماء والأرض، وإذا بقائل يقول: خذوه عن أعين الناظرين. قالت: ورأيت رجالاً قد وقفوا في الهواء، بأيديهم أباريق من فضة، ثم نظرت فإذا أنا بقطعة من الطير قد أقبلت حتى غطت حجرتي، مناقيرها من الزمرد، وأجنحتها من الياقوت، فكشف الله عن بصري، فرأيت مشارق الأرض ومغاربها، ورأيت ثلاثة أعلام مضروبات: علماً بالمشرق، وعلماً بالمغرب، وعلماً على ظهر الكعبة. فأخذني المخاض، فوضعت محمداً ﷺ فنظرت إليه فإذا هو ساجد قد رفع إصبعه إلى السماء كالمتضرع المبتهل، ثم رأيت سحابة بيضاء قد أقبلت من السماء حتى غشيته فغيبته عني، فسمعت منادياً ينادي: طوفوا به مشارق الأرض ومغاربها، وأدخلوه البحار ليرفعوه باسمه وصورته ونعته، ويعلموا أنه يسمى فيها الماحي، لا يبقى شيءٌ من الشرك إلا محي في زمنه، ثم انجلت عنه في أسرع وقت. وفي رواية: أن آمنة قالت: لما فصل مني، خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ثم وقع على الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب وقبضها ورفع رأسه إلى السماء.

وأخرج أبو نعيم، عن عطاء بن يسار، عن أم سلمة، عن آمنة قالت: رأيت ليلة وضعه نوراً أضاءت له قصور الشام حتى رأيتها.

وأخرج أيضاً عن عبد الرحمٰن بن عوف، عن أمه الشفاءِ قالت: لما ولدت آمنة رسول الله ﷺ وقع علي يدي، فاستهل، فسمعت قائلاً يقول: رحمك الله. قالت الشفاءُ: وأضاء لي ما بين المشرق والمغرب، حتى نظرت إلى بعض قصور الروم. قالت: ثم ألبسته.

وفي رواية: ثم ألبسته وأضجعته، فلم أنشب أن غشيتني ظلمة ورعب وقشعريرة، ثم

غيب عني، فسمعت قائلاً: يقول: أين ذهبت به؟ قال: إلى المشرق والمغرب. قالت: فلم يزل الحديث مني على بال حتى بعثه الله تعالى فكنت أول الناس إسلاماً.

ومن عجائب ولادته ﷺ ما روى من ارتجاج إيوان كسرى، وسقوط أربعة عشر شُرافة من شرافاته وغيض بحيرة طبرية، وخمود نار فارس، وكان لها ألف عام لم تخمد. وولد ﷺ مختوناً مسروراً. أي مقطوع السرة واختلف في عام ولادته، والصحيح أنه عام الفيل، والمشهور أنه ولد بعد الفيل بخمسين يوماً.

وقيل: بخمسة وخمسين يوماً، وقيل غير ذلك: والصحيح أنه ولد في شهر ربيع الأول يوم الإثنين، والأصح لثمان خلت منه. والمشهور أنه ولد يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول، والمشهور أنه يوم الإثنين نهاراً بعد الفجر، وقيل: ليلاً.

ولما ولد ﷺ خرج معه نور أضاء له قصور الشام، وخرج من بطن أمه ظريفاً نظيفاً ما به قذر، كما أشار لذلك عمه العباس رضي الله عنه بقوله:

وأنت لما ولدت أشرقت الأر ... ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النو ... ر وسبل الرشاد نحترق

ولله در البوصيري رضي الله عنه حيث قال:

ومُحيّاً كالشمس منك مضيء ... أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذي كان للد ... ين سرور بيومه وازدهاء
وتوالت بُشرى الهواتف أن قد ... ولد المصطفى وحق الهناء
وتداعى إيوان كسرى ولولا ... آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه ... كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهال كا ... ن لنيرانهم بها إطفاء
مولد كان منه في طالع الكفـ ... ـر وبال عليهم ووباء
فهنيئاً به لآمنة الفضـ ... ـلُ الذي شُرّفت به حواء
من لحواء أنها حملت أحـ ... ـمد أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب ... من فخار ما لم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما ... حملت قبلُ مريم العذراء
شمتته الأملاك إذ وضعته ... وشفتنا بقولها الشفّاء
رافعاً رأسه وفي ذلك الرفـ ... ـع إلى كل سؤدد إيماء

جعلنا الله من خير أتباعه، وختم لنا بالوفاة على أكمل حالات اتباعه. آمين.

انتهى مولد سيدي أحمد الدردير رضي الله عنه.

تتمة أذكر فيها صورة فتوى للإمام ابن حجر الهيثمي، ذكرها في فتاويه الحديثية. سئل نفع الله به عن حكم الموالد والأذكار التي يفعلها كثير من الناس في هذا الزمان، هي سنة، أم فضيلة، أم بدعة؟ فإن قلتم: إنها فضيلة فهل ورد في فضلها أثر عن السلف أو شيء من الأخبار؟ وهل الاجتماع للبدعة المباحة جائز أم لا؟ وهل تجوز إذا كان يحصل بسببها أو سبب صلاة التراويح اختلاط واجتماع بين النساء والرجال، ويحصل مع ذلك مؤانسة ومحادثة ومعاطاة غير مرضية شرعاً؟ وقاعدة الشرع مهما رجحت المفسدة حرمت المصلحة. وصلاة التراويح سنة ويحصل بسببها هذه الأسباب المذكورة، فهل يمنع الناس من فعلها أم لا يضر ذلك.

فأجاب بقوله: الموالد والأذكار التي تفعل عندنا أكثرها مشتمل على خير كصدقة وذكر وصلاة وسلام على رسول الله ﷺ ومدحه، وعلى شر بل شرور لو لم يكن منها إلا رؤية النساء للرجال الأجانب لكفى، وبعضها ليس فيها شر لكنه قليل نادر.

ولا شك أن القسم الأول ممنوع للقاعدة المشهورة المقررة: إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح: فمن علم وقوع شيء من الشر فيما يفعله من ذلك فهو عاص آثم بفرض أنه عمل في ذلك خيراً، فربما خيره لا يساوي شره ألا ترى أن الشارع ﷺ اكتفى من الخير بما تيسر، وفطم عن جميع أنواع الشر حيث قال: «إذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه»[1].

فتأمله تعلم ما قررته من أن الشر، وإن قل لا يرخص في شيء منه، والخير يكتفى منه بما تيسر. والقسم الثاني سنة تشمله الأحاديث الواردة في الأذكار المخصوصة والعامة، كقوله ﷺ: «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده»[2]. رواه مسلم.

وروي أيضاً أنه ﷺ قال لقوم جلسوا يذكرون الله تعالى ويحمدونه على أن هداهم للإسلام: «أتاني جبريل عليه الصلاة والسلام. فأخبرني أن الله تعالى يباهي بكم الملائكة»[3].

---

(١) رواه البخاري في الصحيح (٩: ١١٧). ومسلم في الصحيح (الحج ٤١٢).

(٢) رواه مسلم في الصحيح (الذكر والدعاء ١١ رقم ٣٩). والبغوي في شرح السنة (٥: ١٠). والسيوطي في الدر المنثور (١: ١١٥٠).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك (٣: ١٧٧). والألباني في السلسلة الصحيحة (٨٢١. والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣٠٩).

وفي الحديثين أوضح دليل على فضل الاجتماع على الخير والجلوس له، وإن الجالسين على خير، كذلك يباهي الله بهم الملائكة، وتنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، ويذكرهم الله تعالى بالثناء عليهم بين الملائكة. فأي فضائل أجل من هذه؟ وقول السائل نفع الله به وهل الاجتماع للبدع المباحة جائز؟.

جوابه: نعم، هو جائز. قال العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: البدعة فعل ما لم يعهد في عهد النبي ﷺ وتنقسم إلى خمسة أحكام، يعني الوجوب والندب إلى آخره وطريق معرفة ذلك أن تعرض البدعة على قواعد الشرع، فأيّ حكم دخلت فيه نهي منه.

فمن البدع الواجبة تعلم النحو الذي يفهم به القرآن والسنة، ومن البدع المحرمة مذهب نحو القدرية. ومن البدع المندوبة إحداث نحو المدارس والاجتماع والتراويح، ومن البدع المباحة المصافحة بعد الصلاة، ومن البدع المكروهة زخرفة المساجد والمصاحف أي بغير الذهب وإلا فهي محرمة. وفي الحديث: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[1].

وهو محمول على المحرمة لا غير. وحيث حصل في ذلك الاجتماع لذكر أو صلاة التراويح أو نحوها محرم، وجب على كل ذي قدرة النهي عن ذلك، وعلى غيره الامتناع من حضور ذلك، وإلا صار شريكاً لهم.

ومن ثَمَّ صرَّح الشيخان بأن من المعاصي الجلوس مع الفساق إيناساً لهم، انتهت فتوى الإمام ابن حجر رضي الله عنه.

قد تم الجزء الثالث من كتاب «جواهر البحار في فضائل النبي ﷺ».

وكان تمامه الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٦، الموافق ليوم وشهر ولادته ﷺ على يد جامعه ومصحح طبعه الفقير يوسف النبهاني، غفر الله له ولوالديه ولمن دعا لهم بالمغفرة.

ويليه الجزء الرابع أعان الله على إكماله بجاه سيدنا محمد وآله.

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رواه مسلم في الصحيح (الجمعة ١٣ رقم ٤٣). وابن ماجه في السنن (٤٦٤٢). وأحمد في المسند (٣: ٣١). والبيهقي في السنن الكبرى (٣: ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٤). والهيثمي في موارد الظمآن (١٠٢). والسيوطي في الدر المنثور (٣: ١٤٧). والبغوي في شرح السنة (٢: ٢٠٦). والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠: ٢٥٤). والهيثمي في مجمع الزوائد (١: ١٧١). وابن سعد في الطبقات الكبرى (١: ٢: ٩٨).

فهرس المحتويات